



اعترافات

القدس أو غستينوس

نقله من اللاتينية: إبراهيم الغريبي

السونر

اعترافات

القديس أوغسطينوس

تأتي هذه الترجمة بعد 50 سنة على ترجمة الخوري يوحنا الحلو لهذه الإعترافات. وهي منقوله عن اللاتينية، وتميزها هو امash وتعليقات، يصعب فهم النص من دونها، وضعها العلامة بيار دي لا بريول، إضافة إلى معجم عربي لاتيني فرنسي لمصطلحات وألفاظ القديس أوغسطينوس.

يُعدّ أوغسطينوس، من أشهر آباء الكنيسة، ومن أبرز مؤسسيها. وهو من أصل ببربيّ، ترَوْمَنَتْ أسرته. وكان أبوه متسبباً بالوثنية القديمة، في حين كانت أمّه "مونيكا" مسيحيّة متقدّة بالإيمان، أثّرت في ابنها أيما تأثير، حتى بعد أن تجاوز طور المراهقة وطيش الشباب، تاب واعتنق دينها.

كان أوغسطينوس قاضياً وداعية وخطيباً، يُلقب بالأفريقي، وكان فعلاً أفريقياً أصيلاً، يلبس قميصاً أبيضاً من صوف ويضع على رأسه قلنوسه بيضاء وفي رجليه نعل، ويجبوب المقاطعة الأفريقيّة على ظهر حمار أو بغلة، أو على قدميه، مقاوماً الفساد والشعودة وبقايا الوثنية.

لهذا النص قيمة مرجعية تاريخية، إذ نقل الفلسفة الروحانية اليونانية من ثوبها الأفلاطوني الحديث، وخاصة الأفلاطوني، إلى أجواء مسيحية صرف، ممهداً بذلك الطريق إلى الفكر اللاهوتي الغربي. ولئن طفت العقيدة المسيحية على أعمال أوغسطينوس الأخرى، فإن "الاعترافات" مثلت الفترة التاريخية التي تأرجح فيها الفكر الإنساني بين العقلانية والتضوف، كما مثلت نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط.

في هذه "الاعترافات" مراجعة للنفس وتأصيل للنقد الذاتي ومشروع روحي ترك تأثيراً كبيراً على المسيحية من بعده. وهي بمثابة "شاهد" أو عالمة فكرية بارزة، في مسيرة الحضارة الكونية.

اعترافات

القدس أوغسطينوس

الكتاب: إعترافات

المؤلف: القديس أوغسطينوس

نبله من اللاتينية: ابراهيم الغربي

مراجعة: محمد الشاوش

عدد الصفحات: 376 صفحة

الت رقم الدولي: 5 - 66 - 886 - 9938 - 978

الطبعة الثانية: دار الت نوير 2015

الطبعة الأولى:

المجمع التونسي للعلوم والأداب والفنون - بيت الحكمـة. تونس 2012

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:



دار الت نوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-al-tanweer.com

لبنان: بيروت - الجنان - مقابل السلطان ابراهيم

ستر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة-وسط البلد- 19 عبد السلام عارف (البستان سابقاً)-الدور 8-شقة 82

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar-al-tanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-al-tanweer.com

رقم الناشر: 14/440 - 60

اعترافات

القديس أوغسطينوس

نقله من اللاتينية إلى العربية
ابراهيم الغربي

مراجعة: محمد الشاوش



تقديم

عاش أوغستينوس (بين سنتي 354 - 430 م) آخر أيام الإمبراطورية الرومانية، التي تهافت إثر تفكك داخلي وزحف خارجي، فكان شاهداً على نكبتها الكبرى بعد أن اكتسحتها المسيحية وحالت محل الوثنية الرسمية. ويعُدّ صاحب هذه «الاعترافات» التي ألت بها بين سنتي 397 و401 بعد المسيح من أشهر آباء الكنيسة ومن أبرز مؤسسيها. وكان من أصل بربرى، لكن أسرته ترَوَّنت كغيرها من الأسر، فكانت اللاتينية بالنسبة إليها أكثر من لغة ثقافية، إذ غدت «اللغة الأم» المستعملة في البيت والشارع. وكان أبوه متسبباً بالوثنية القديمة، في حين كانت أمته «مونيكا» مسيحية متقدة الإيمان، فأثرت في ابنها أياً تأثير، بعد أن تجاوز طور المراهقة وطيش الشباب، وتاب وهي على قيد الحياة، واعتنق دينها سنتين قبل وفاتها.

وفي هذه «الاعترافات» مراجعة للنفس وتأصيل للنقد الذاتي ومشروع روحي متكامل ومساهمة جديدة في بث المعتقدات والقيم المسيحية.

كان أوغستينوس - أي الإمبراطور الصغير - يُلقت في الأوساط الإيطالية بالأفريقي، وكان فعلاً أفريقياً أصيلاً، يلبس قميصاً أبيض من صوف (كالذى يُعرف بالكدرتون في البلاد التونسية) وكان على رأسه قلنسوة بيضاء وفي رجليه نعل. وكان يجب المقاطعة الأفريقية من أدناها إلى أقصاها على ظهر حمار أو بغلة، أو يجوبها على قدميه، مقاوماً الفساد، وبائعاً تعاليم المسيح في مختلف فناد الشعوب، ومكافحة الشعوذة وبقایا الوثنية. وكان أيضاً قاضياً وداعية وخطيباً.

هذا النص الذي نضعه بين يدي القارئ العربي له قيمة مرجعية تاريخية لا نزاع فيها، إذ نقل الفلسفة الروحانية اليونانية في ثوبها الأفلاطوني الحديث، وخاصة الأفلوطيني، إلى أجواء مسيحية صرف، فأشبعها بروح الإنجيل ممهداً بذلك الطريق إلى الفكر اللاهوتي الغربي. ولشن طفت العقيدة المسيحية على أعمال أوغستينوس

الأخرى وخاصة «مدينة الله»، فإن «الاعترافات» مثلت الفترة التاريخية التي تأرجح فيها الفكر الإنساني بين العقلانية والتصوف، كما مثلت نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط. فهذا الكتاب بمثابة «الشاهد» أو العلامة الفكرية البارزة في مسيرة الحضارة الكونية.

ظهر هذا الكتاب في ريوغينا، ولم يكُن يطالعه أحد منتا بأكمله، رغم إجماع الدارسين على اعتباره من روائع التراث البشري وهذا أمر غريب، فمن المشروع إذن إعادةه إلى ذاكرتنا الجماعية. والحق أنه يعبر بصفة عجيبة عن تجربة وجودية وروحانية في نفس الوقت أخرجت صاحبها من شكته ومجونه في طور الشباب إلى أرقى درجات الإيمان. وهو يرويها بعبارات شعرية رقيقة فإذا بها معجزة فنية صادقة، تستخدم أبسط الكلمات للبوج عن أعمق الحقائق الأبدية وأبعدها تأثيراً، وإذا بالشخص يلتقي بالكوني في صفحات قالت مثيلاتها.

لقد كُتبت هذه «الاعترافات» قبل انتشار نور الإسلام بقرنين ونصف، وطبعت مئات المرات، وتُرجمت إلى عشرات اللغات، فرأينا نقلها مباشرة من لغتها اللاتينية الأصلية إلى العربية. واخترنا لهذا الغرض صديق «بيت الحكم» المرحوم إبراهيم الغربي، أحد كبار أساتذة الجامعة التونسية وأبرز العاذفين للغتين اللاتينية والعربية، المعروف بتجربته الكبيرة واطلاعه الواسع وغزاره علمه. وقد سبق أن ترجم لنا، سنة 1997، «شرح ابن رشد الكبير لكتاب النفس لأرسطو» فاسترجعنا بفضلها واحداً من أهم النصوص الرشدية، وقد ظل مفقوداً بالعربية ولم تبق منه إلا الترجمة اللاتينية. وتعاوننا معه ثانية لتجسيم مشروع «بيت الحكم» الطموح في مجال الترجمة. وتتجدر الإشارة إلى أنها اعتمدنا الأصل اللاتيني الذي نُشر في نسخة «الأداب الجميلة» اللاتينية/ الفرنسية بتحقيق «بيار لا بريولو».

ولقد فكّرنا طويلاً، قبل الإقدام على إنجاز هذا المشروع، في تناسب ترجمة عربية لهذا الكتاب مع ثقافتنا الإسلامية وتصوراتنا العامة للكون وللحياة، وفي ملاءمتها لأوضاعنا القومية. وتساءلنا كثيراً عما يمكن للقراء المغاربيين أن يستفيدوا من هذا الكتاب والحال أن العديدين منهم لا يهتمون أصلاً بالطقوس الدينية عامة، فما بالك بتصورات أوغسطينوس وكفاحه المزير لزرع المسيحية في ريوغينا بلادنا وإعطائهم مكانة كونية. أي وقع يكون لهذا الكتاب - على أهميته التاريخية - بل أي صدى له في ضمائernَا اليوم وقد أصبحت همومنا ومشاغلنا بعيدة شكلاً ومضموناً عن توجهات الأوغسطينية، ثقافة ونظرية إلى الكون والحياة؟

نعلم تاريخيا - لا وجدانيا - أن أوغستينوس لعب دورا عجيبة وحاسما، أكثر من معاصريه من آباء الكنيسة المؤسسين لها كأمبرواز وجيروم وأوريجان وغيرهم، في توطيد دعائم المؤسسات الكاثوليكية وبلورة المعتقدات وتثبيت طقوسها. وكان داعيا وأستاذًا غرس المسيحية في نفوس البرابرة وأذكي الإيمان فيهم بل تجاوز حدود إفريقية إلى أوسع رقعة ممكنته في العالم. وقد نظر للعقيدة وأاطر المذهب وشرح الكتب المنزلة وبيّن الوعي وأدب وربى، فكان له دور أساسي في إرساء قواعد الكاثوليكية الكونية الصلبة التي بقيت كما هي أو كادت حتى يومنا هذا.

لقد ركز العقيدة حول الثالوث الأقدس وحبل مريم البطل ورسخ مفهوم الخطيئة الأصلية مؤكدا أنها تلاحق ذرية آدم جيلا بعد جيل فلا يفلت منها إلا من من الله عليه منبني آدم بنعمة الخلاص، لأن قدر الإنسان محظوظ ومحسوم قبل ميلاده. الكتاب مشحون بمثل هذه المعتقدات وبغيرها مما نجح في تبريرها وتوجيهها في العديد المناسبات التاريخية. ولدعم أفكاره باللسان والقلم كان يأمر بإجبار الناس على اعتناق المسيحية متخدًا منحى جديدا أعطاه لعبارة الإنجيل: «compelle intrare».

ولم يكن يتردد في الاستنجد بشوكة الأمير لتطويق المشتكين، ذلك أن التزعع التبشيرية التي لازمت الكنيسة الكاثوليكية حتى يومنا هذا كانت واضحة عنده بل اعتبرها واجبا مقدسًا يتتجاوز مجرد الدعوة السلمية لدينه. وهكذا ساهم أوغستينوس بقسط وافر في غلق أبواب حرية المعتقد بتبريره ما كانت تشكو منه المسيحية في بداية عهدها من اضطهاد سلطته عليها وثنية الإمبراطورية الرومانية. وممثل موقفه هذا تراجعا خطيرا عما صرّح به آباء الكنيسة قبله من أمثال ترتوليانوس الذي عاش في ربوتنا في نهاية القرن الثاني والذي كان يقول: «ليس للدين أن يفرض علينا بل تقبل الدين بكامل العفوّة هو عين الدين». وظللت الكنيسة تبني حرية المعتقد على مدى قرون طويلة حتى سنة 1965 لــما اعترفت في أعقاب انعقاد مجمع فاتيكان الثاني بتلك الحرية. وبيدو أنها أخذت اليوم تراجع عن توجهاتها الجديدة وترجع إلى مسالكها المعتادة.

كان التعصب إذن جبلة في أوغستينوس وكان من طبعه التشنيع بمن يخالفه في الرأي. ومن الكلمات المحبطة إليه كلمة *contra* أي «تفنيدا»، إلى حد أن أحد تلاميذه بوزيدوس - الذي ألف أول ترجمة له فيها تصنيف لمؤلفاته - قسمها حسب الخصوم الذين كان أوغستينوس يهاجمهم: «تفنيدا للوثنيين» و«تفنيدا لليهود» و«تفنيدا للفلاسفة» و«تفنيدا للمانويين» و«تفنيدا للأريانيين»... واللافت أن دراسات

أوغستينوس الأولى تركت على الخطابة التي درسها في ميلانو. ونعلم أن الخطابة قامت آنذاك على الإقناع بكل الوسائل مهما كانت، فكان يسخر ملائكته وقدراته الكلامية لمقاومة من كان يعتبرهم أعداء الدين المنحرفين والمنشقين. وقد تغيروا حسب أطوار حياته الطويلة وتغيرت وجهات نظره هو وتطورت عبر العقود إذ كان يؤمن بالفلسفة قبل أن يرى فيها مجرد تهافت وهذيان وأمن بالمانوية قبل أن يتذكر لها فيما بعد.

لقد تساءل كثير من المفكرين المسيحيين أنفسهم واللاهوتيين عن صواب اختياراته ومشروعية جداله وكفاحه وقالوا إنَّ التعصب الديني كان مدعاً بالخطابة أكثر منه بالحجج. وما صراع فريق «جانسن» الذي كان ينتمي إليه «باسكار» و«أرنو» في القرن السابع عشر مع اليسوعيين إلَّا مظاهر من عَدَّة مظاهر أخرى خلفها أوغستينوس من تعاليمه وتوجهات صلبة طبعت الكنيسة الكاثوليكية بطبعه، بفضل حزمه الفكري ونشاطه الديني التوعوي. ولذا قدّسه ورأى فيه أحد الآباء البارزين المؤسسين لها فتناولت بالدرس والنشر والتعليق مئات الكتب والكتيبات والخطب والدراسات المطولة التي خلفها والتي نعجب من غزارتها إذ تمتلئ بها خزائن ضخمة برمتها.

ما لنا إذن وهذا المبشر المناضل المتعصب؟ نحن نؤمن بحرية المعتقد وندعو إلى التسامح ونسعى لدعمهما في مجتمعاتنا في حين أنه لم يستخد هذه القيم طريقاً له ولا منهاجاً. نحن نقول: «لكم دينكم ولنا ديننا» ونؤمن «بألا إكراه في الدين». فلماذا إذن ننشر أوغستينوس مع كل ما ذكرنا؟

ذلك أن كتابي أوغستينوس «الاعترافات» و«مدينة الإله» يشذان عن سائر مؤلفاته إذ يتجاوز فيما الخصوصيات المسيحية ولا يبقى في حدود الكاثوليكية الضيقة. هذان الكتابان ينميان عن عقريّة فريدة يصلان إلى أعلى قمم الإبداعات البشرية ولا يزال القراء من كل ملة ودين يجدون فيما تجاويفات وجودية ونفسية.

لنبدأ «بمدينة الإله» وهو من أواخر ما كتب أوغستينوس في ظروف اضطرابات سياسية وتقلبات تاريخية زعزعت أركان الإمبراطورية الرومانية ثم هدمتها نهائياً بعد زحف الفنداles عليها. لقد اعتبر عديد المؤرخين هذا الكتاب فاصلة بين «نهاية» العهود القديمة وبداية العصر الوسيط. نعلم أن أوغستينوس مات في مدينة عنابة - وكانت محاصرة - فعاش آخر أيامها. وبفضل إيمانه الفياض، وككل من عاش مثل هذه الظروف العصيبة، عاد إلى ربه وجدد رجاءه فيه.

إنَّ المدينة الخبيثة التي نعيش فيها والتي نقاسي من شرها ومن ظلم حكمها ونعياني

من بطشهم مدينة زائلة. فهي تموت بسمومها ومن سموتها ويقى الملك لله الواحد القهار الذي له ملوك كل شيء وله المدينة الحقيقة، «مدينة الإله» أو كما يقول أوغستينوس «القدس السماوية». إن جوهر الكتاب مقاربة بين المدينة الأرضية الدنيا والمدينة الإلهية العليا ويبحث في كيفية التخلص من الأولى للالتحاق بالثانية. وهكذا انقلب التاريخ الواقعي حاضراً ومضياً إلى تاريخ ماورائي وإلى أمل مستقبلٍ وأصبحت التجربة افتاحاً ورجاءً. وتحول ما كان في كتابات أوغستينوس العديدة التي أشرنا إليها من تشاؤم ومرارة ويسار من الإنسان تحولاً خالباً إلى ترتجهات تفاؤلية تفتح المجال واسعاً للأمل. هذا الكتاب عجيب في حد ذاته، ويتزلّ بين نوعين من الكتب تناولاً نفس الموضوعات وإن بطرق مختلفة، ولكن بنفس الحدس والتصرّر: «الجمهوريّة» لأفلاطون و«السياسة» لأرسطو. فقد اصطبغاً بصبغة الفلسفة اليونانية من ناحية، وكتابي «آراء أهل المدينة الفاضلة» للفارابي وهي ابن يقطان لابن طفيل المطبوعنين بطابع الثقافة الفكرية الإسلامية من ناحية أخرى. ويندرج كتاب «الاعترافات» الذي نصّعه اليوم بين يدي القارئ في هذا السياق الفكري، ويمتاز بحيويته الخاصة التي خلت منه وأفردت منه مرجعاً هاماً.

لا يمكن لنا بالطبع في هذه التوطئة السريعة إلا مجرد الإشارة إلى بعض ما في هذا الكتاب من تحليل طريف وتجارب نفسية فريدة. لقد أبقينا على العنوان «اعترافات» لأنّه متداول معروف، إلا أنّ مضمون الكتاب مزبور، في الواقع، من الذكريات والتأملات في شتى معانٍ الحياة ومشاكل الوجود. ومن أبرز صفحات الكتاب رواية بلغة لحيرة محقة ولكيفية الخروج منها بعد تأرجح مضنٍ بين الشك واليقين وبين ارتکاب الإثم والنندم عليه. باح أوغستينوس بأعمال دنيئة ارتكبها فبالغ في تقييدها ونقلها من مستوى العمل غير الحميد إلى مستوى الخطيئة الماورةية لما تحدث عن اختلاسه وهو في سن المراهقة لاجهادات على ملك جاره كان قد قطفها من شجرتها قبل نضجها ولم يكن ينوي أكلها أو بيعها ولكن شماتة في جاره ونكاهة به. كما تحدث بإطناب عن الغريرة الجنسية: فالحب لم يكن عنده إلا مجرد مباضعة. «ما كنت أحب بقدر ما كنت أحب أن أحب (nondum amabam, amabam amare). فالعلاقة مع بعض بنات قرطاج بعد إغرائهن لم تتجاوز مستوى الزهو والعبث، وقد يعتبر بعضهم ذلك من مظاهر الطيش والاستهان، خاصة في ذلك الوقت. إلا أن هذه التجربة التي خرج منها بالنندم والتوبة ألت على أسلة كثيرة.

كان حائزًا قلقاً يبحث عن الحقيقة وكانت أمته مونيكا مسيحية مفعمة بالإيمان

المتلهب، وكانت تلعن على إصلاحه وإدخاله في صلب الكنيسة، في حين كان أبوه وثانياً مقلداً لا أكثر ولا أقل. وتعلق بفتاة أنجب منها ابنًا أحبه كثيراً، سماه «عطية الله» Adeodat فطردت مونيكا، بلا شفقة ولا رحمة، الأم والرضيع وأصرت أن تزوجه بفتاة من الطبقة الأرستقراطية العليا، فأبى وفاء لقربيته. وكان قد أهداها عدداً من مؤلفاته في ما بعد (Ad matrem Adeodati). وماتت أمته مونيكا بعد حادثة أوستيا فبقي وفيها لأم ولده ولوادته على حد سواء.

أما قصة أوستيا فلاتها من أشهر صفحات الأدب الكوني يقصصها علينا بصفة مؤثرة للغاية. كان في حديقه بأوستيا متارجحاً بين الشك واليقين، في مهب الرياح الفكرية والعواصف العاطفية وبين مساءلات وأجوبة وما أكثرها وما أشدتها تعقيداً وغموضاً. وإذا بصوت فتاة يهتف وراء ظهره ولا يعلم كيف أتى ومن أين قائلاً: «خذ واقرأ» (tolle et lege). وكان بيده سفر «بولس»، ولما فتحه انفتح نور الإيمان، إذ وجد بالصفحة التي فتح فيها الكتاب تحذيراً من الغرور والاستهانة وحثا على الإيمان والتقوى، فكانت بداية عهد جديد اعتنق فيه المسيحية وأصبح ركناً من أبرز أركانها. وتوفيت بعد ذلك أمته مونيكا راضية عنه تمام الرضا.

إنها قصة نجد العديد من أمثلها قديماً وحديثاً. فـ«المنقذ من الضلال» والنور الذي قذفه الله في صدر الغزالي يتزلان في نفس الثواب البشرية. والكتابان جديران بأن يدرسَا ويقارنَا بتجارب الإيمان الوجданية وما تفضي إليه من أسللة محرقة وقلق فكري وتيه وجودي وإرادة فهم مصادر الشر والإلقاء عنه وعبء المسؤولية البشرية ونوعية الحرية. هذه قضايا أبدية خاضن فيها الفلاسفة والمفكرون ورجال الدين قديماً وحديثاً، وحاول المتكلسون فهمها، في سعيهم إلى فهم «دلالة الحائرين». كل ذلك ينصب في دائرة الاستقطابات الفكرية في كل الثقافات والتصورات الدينية. فالدين يتأصل حتى عند المفكرين العقلانيين واللائكيين في هذه المعانٍ التي تعطيها للمحدودية البشرية وما وراءها. إننا نتساءل اليوم عن تفاهة حضارتنا وهشاشتها، على ما فيها من مكاسب باهرة واكتشافات علمية رائعة وإنجازات عملاقة ووعي بأهمية القيم والدفاع عن الحرية والعدالة والكرامة وحقوق الإنسان. كل ذلك يمثل مكسباً حضارياً ينصب فيه ملاحظات وتحليلات وتجليات لا تزال تنير الطريق... وما «اعتراضات» أوغسطينوس إلا إضافة صائبة وتجربة جديرة بأن نعرف بها.

كل حضارة عاندة إلى التراب وكل حياة نهايتها الموت. فهل الموت سقوط في الفناء وعدم أم «بداية تاريخية لما وراء التاريخ»؟ كل حضارة محكوم عليها بعدم

الاكتمال والسقوط والأفول. ولعل الحضارات، حضارة الغرب وحضارة الإسلام وغيرهما، معجزات بين ردهتين من الفناء. إن التأمل في المصير البشري، مهما كان، يعود بنا في نهاية الأمر إلى أنفسنا ويساعد على فهم الكينونة وتقييم المترفة التاريخية، ومعجزة الإنسان تكمن في أنه يموت ويحيا وتغلب على قهر الزمن. هذه المواقف الأوغستينية موافق «بطولية» حقاً تستحق الاحترام.

ما أبدع ما قاله أوغسطينوس في الحب والمحبة والأخوة البشرية، بصرف النظر عن مواقفه الصلبة التي أشرنا إليها في بداية هذا الحديث. فكلامه عن المحبة جدير بأن يردد لأنّه عنصر تلاق بين تعاليم المسيح ابن مريم عليه السلام وتعاليم محمد عليه الصلاة والسلام. يقول أوغسطينوس (*Ama et fac quod vis*) «كن محباً وافعل ما تريده». هذه القولة تبعيناً كثيراً عن تصورات شبابه للمحبة المنحصرة في الاستجابة للنهم الجسدي. قال آنذاك: كنت «أحب أن أحب»، ومعناه أن «الحب» السطحي يدور في حلقة مفرغة لا غاية له إلا نفسه. فهو نرجسية بحثة وانحصار في الذات فلا هدف له ولا مستقبل ولا معنى، وإنما هو مجرد مجاني. أما الحب الحقيقي الذي سيسمييه العرب العشق فإن غايته هي التعلق بالغير، وهو بهذه الصفة خروج من فلك النفس الضيقة وهو «صلة» قبل كل شيء. وهذه الصلة هي الأساس لأنها تمثل تغلباً على النفس وهدماً لجدران الأنانية الضيقة. ولا يحدد أوغسطينوس المعنى بالحب، ولا حتى موضوعه: قد يكون الحب عشقاً إلهياً وقد يكون بشرياً وقد يكون حتّى للطبيعة أو للفن، المهم هنا هو الخروج من الذات وإعطاء الغيرية قيمتها الضرورية والكافية. إنّ معنى الحب يكمن في هذه الغاية: فقد يخيب أمل من أحبّه، وقد أتراجع أنا أيضاً في تقدير لهذا الغير، وقد تحول آمالي أو تتৎسرس. أجل، كلّ هذا جائز ولكن مهما يكن من أمر فإن العشق يت táرض بذات نفسه يحملني وبهديني سواء السبيل وينهاني عن السيء، لذا قال أوغسطينوس: افعل ما تريده. إن كلمة *vis* تعني هنا الإرادة والإرادة المقيدة بالحب، وهي إرادة صالحة مهما يكن من أمر. وسيعتبر ابن عربي عن ذلك أحسن تعبيراً:

أدين بدين الحب أنت توجهت ركاّبـه فالـحب ديني وديـني.

الحب غاية مهما كان موضوعه، وهو غاية أيضاً مهما تغيرت نظرتي إلى المحبوب، وهو غاية أصلاً وفضلاً لأن الإنسان المحب يجد فيه «المقومات» الكافية «للقيم» الأخلاقية الأخرى. فهو «قيمة» مركبة أو قُل قيمة القيم، عليها يتأسس تواصل الإنسان وتغلبـه على النفس والصعود من أعلى إلى أعلى. الحـب الحقيقي عـلو وـتعـالـ. وفي الحـب تـلاقـي كلـ الأـديـانـ.

هذه عينة من الفوائد الفكرية التي يمكن للقارئ العربي المسلم أن يجنيها من مطالعة هذا الكتاب وغيرها كثير جداً. إن المفارقات والقضايا التي خاض فيها أوغستينوس سيخوضها المسلمون. وهي من القضايا التي شغلت بالنا قديماً وحديثاً وحيثتنا وأرقتنا ولا تزال: العقل والإيمان، الرحيق والحكمة، الخير والشر، الحرية والمسؤولية، القضاء والقدر، وهي من القضايا الخالدة التي يطرحها كتاب خالد.

لكلّ هذا أقدمنا على نشر هذه الترجمة التي تأتي ستة عشر قرناً أو ما يزيد بعد تأليف هذا الكتاب، وبها نسترجعه إلى مدونة ثقافتنا العملاقة، اعتقاداً متّا أنه يفتح مجالاً جديداً للدرس والبحث والتلاقي والحوار مع غيرنا ومع ماضينا.

على الرغم من عديد المأخذ التي أشرنا إليها أو لم نشر، يبقى أنّ أوغستينوس فتح - ولا يزال يفتح - أمام قرائه آفاقاً عديدة مشمرة، تجد الفلسفة فيها روحًا وتقدّساً طويلين، إذ طورَت الفكر الأفلاطوني الجديد وطعمته بما يتبع تلاقيه وتناغمه مع مفهوم الوحي والتنزيل. يجد فيها عالم النفس تحليلات عميقة وثرية حول التربية وعلاقات البشر بعضهم ببعض، وحول الزمنية كما يعيشها الإنسان حسب أطوار حياة الفرد وحسب تعاقب الأجيال، وكذلك حول الذاكرة والمخيلة والإرادة والبصرة. إنّ المسائل العديدة التي خاض أوغستينوس غمارها تهمّنا بصفة خاصة لأنّها تثير قضايا أبدية وتطرّحها باستمرار إذ لا نزال نخوض فيها كالشك واليقين والحرية والقضاء والمسؤولية الإلهية في وجود الشر ومصير الفرد ومكانة الإنسان في طيات الكينونة والصيروة الكونية ومصدر الحقيقة وقيمتها، ومكانة المعرفة البشرية في ظل الإلهام والوحي والحدس. وقد نعجب أحياناً من هذه النظرة الثاقبة التي سبق بها أوغستينوس عديد المفكّرين بقرون. وقد لا يعلم الكثيرون أنّه توصل إلى إدراك أهمية «الكونجيو» إذ بني عليه مسالك عديدة وجديدة للفكر لما قال: «أخطئ إذن أنا موجود». ولكلّ هذه الاعتبارات ينبغي لنا أن نضع هذا الكتاب ضمن قائمة المراجع الكونية التي تفيدنا خاصة عندما نريد الاستنارة لتطهير النفس وتركيبة العقل بالعين النقدية الالزامية، فنأخذ ما نأخذ منها ونطرح ما نطرح.

عبد الوهاب بوحدية

الكتب الثلاثة عشر
لاعترافات القديس أوريليوس أوغستينوس

ملاحظة هامة: استعملنا في ترجمتنا النص اللاتيني الذي نشره بيار دي لا بريول (Pierre de LABRIOLLE)، في طبعته الباريسية، بدار الآداب الجميلة (Paris,, les Belles Lettres)، في مجلدين (الأول يحتوي على الكتب الشمانية الأولى، والثاني على الخمسة الأخيرة من الاعترافات: *Les Confessions*). وتعود هذه الطبعة إلى عشر سنين خلت، في حين كانت الطبعة الأولى قد ظهرت، سنة 1925، بنفس الدار (ISBN 978-2-251-01209-5). ومن عام 1925 إلى عام 1996 أعيد طبع «الاعترافات» أربع عشرة مرة، وهذا دليل على الاهتمام البالغ بالكتاب.

الكتاب الأول

1.1. أنتَ عظيم، يا مُولاي، لك الحمد، كل الحمد، عظيمة هي قوتك ولا حصر لحكمتك».

أنت الذي يريد مدحك الإنسان، ذلك الجزء الضئيل من خلائقك، الإنسان الذي يحمل فناءه معه في كل مكان، ويحمل معه دليل خطيبته، ويحمل الدليل على أنك «تصدّى للمتكبرين».

ومع ذلك يريد الإنسان مدحك، وهو نفعة ضئيلة من خلائقك.

أنت الذي تحضنا على أن ننعم بحمدك، لأنك خلقتنا لك، ولأن قلوبنا لا تعرف الطمأنينة، حتى تطمئن وتقرّ عندك.

يُسْرِ لِي، يا مُولاي، أَنْ أَعْلَمْ وَأَنْ أَفْهَمْ هَلْ الابْتِهَالُ إِلَيْكَ⁽¹⁾ سَابِقُ لِحَمْدِكَ وَهُلْ الْعِلْمُ بِكَ سَابِقُ لِلابْتِهَالِ⁽²⁾. وَلَكِنْ كَيْفَ يَتَهَلَّ⁽³⁾ إِلَيْكَ غَيْرُ الْعَالَمِ بِكَ؟ إِذْ مَنْ لَا يَعْرِفُكَ قَدْ يَتَهَلَّ⁽⁴⁾ إِلَى أَحَدْ سُواكَ. أَمْ هَلْ يَتَهَلَّ إِلَيْكَ الْمُبْتَهَلُ⁽⁵⁾ لِيَعْرِفُكَ وَيَعْلَمُ بِكَ؟ وَلَكِنْ كَيْفَ سَيَتَهَلَّ⁽⁶⁾ النَّاسُ لِمَنْ لَمْ يَؤْمِنُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ الْإِيمَانُ دُونَ مُبْشِرٍ؟ «سِيَحْمَدُ الْمُؤْلِي مِنْ بَحْثٍ عَنْهُ وَطَلَبَهُ». وَمَنْ طَلَبَ الْمُؤْلِي وَجَدَهُ، وَمَنْ وَجَدَهُ حَمَدَهُ.

(1) Inuocare (bis)... vous invoquer = الابتهاال إليك

(2) Inuocare (bis)... vous invoquer = الابتهاال إليك

(3) Inuocat (ter)... vous invoque = يتهل إليك

(4) Inuocare(quater)..... en invoquer (un autre) = ابتهال إلى شخص آخر:

الأثر أسلوبي، انظر تراكم ذلك في الصفحات المعاوية. وتتواصل السلسلة إلى ما لا نهاية له تقريباً.

(5) Inuocaris... n'êtes - vous pas invoqué...? = ألم يتنهل إليك؟

(6) Inuecabunt... comment invoquer? = كيف يتنهل...؟

كم أود، يا مولاي، أن أبحث عنك وأنا أبتهل إليك⁽¹⁾، وأن أبتهل⁽²⁾ إليك وأنا مؤمن بك! فقد بشر ونا بك. يبتهل⁽³⁾ إليك، يا مولاي، إيماني الذي وهبته، والذي ألهمنيه بیانسانیة ابنك وبکھنوت المبشر بك⁽⁴⁾.

II.2. لكن كيف سأبتهل⁽⁵⁾ إلى إلهي، إلى إلهي ومولاي، بما أن الابتهاه إليه إنما هو أن أدعوه هو بعينه في قراره ذاتي⁽⁶⁾? وهل في ذاتي مكان يمكن أن يحل به إلهي وينزل فيه؟ يمكن أن يأتي إليه في إلهي الذي «خلق السماء والأرض»؟ وهل في ذاتي مكان يمكن أن يحل فيه إلهي؟ أم أين سيحل إلهي من نفسي، إلهي الذي «خلق السموات والأرض»؟ هل يوجد في كياني إلهي ومولاي، شيء يستطيع أن يسعك؟ أم هل تسعك السماء والأرض اللتان خلقتهما وخلقتني فيهما؟ أم هل يلزم من هذا، بما أن كل شيء لا يوجد إلا بوجودك، أن كل ما يوجد يضيق ويحويك؟ وبما أنني إذن موجود أيضاً، فلم أتوسل أن تأتي في ذاتي وتحل فيها، أنا الذي ما كنت لأوجد لولم تكون أنت في؟ لم أنزل إلى الجحيم بعد، ومع ذلك فأنت موجود هناك أيضاً، إذ «لونزلت إلى الجحيم لوجودتك حاضراً فيه».

إذن ما كنتُ لأكون، يا إلهي، ما كنتُ البة لأكون لو لم تكوني أنت في. أو قل ما كنتُ لأكون لو لم تكوني أنا فيك، أنت الذي «منك وبك وفيك يكون كل شيء» هو كذلك، يا مولاي، نعم هو كذلك. أين أبتهل إليك، والحال أنتي فيك؟ ومن أين تُرى ستأتي وتحل في؟ وأين ترى سالوذ خارج السماء والأرض، حتى يحل في ذاتي هناك إلهي الذي قال: «أنا الذي أملأ السماء والأرض»؟

III.3. أتحتريك إذن السماء والأرض إذن، بما أنك تملؤهما؟ أم أتملؤهما ويبقى شيء منك، بما أنهما لا تسعان لك؟ وأين تصب من جديد ما يتبقى منك، عندما تملأ بك السماء والأرض؟ أم هل أنه لا حاجة لك البة أن يسعك أي شيء، أنت الذي تسع كل شيء، بما أن ما تملؤه تملؤه وأنت تسعه وتحويه؟ فليست الأوعية الملاي بك هي التي تكسبك صفة القرار والثبات، لأنها لو تكسرت لما أرفقت وسلت خارجها. وعندما

(1) Inuocans te: en vous invoquant = عند الابتهاه إليك

(2) Inuocem: vous invoquer = الابتهاه إليك

(3) Inuocat te: (celle foi) vous invoque = هذا الإيمان يبتهل إليك

(4) Inuocabo: comment invoquerai – je mon Dieu? = كيف أبتهل إلى الله =

(5) Inuocabo: comment invoquerai – je mon Dieu? = كيف أبتهل إلى الله =

(6) Inuocabo eum: (quand) je l'invoquerai... = عندما سأبتهل إليه =

تُثُر علينا فأنت لا تسقط على الأرض بل ترفعنا، وأنت لا تتلاشى بل تجمعنا وتلملمنا. ولكن كلّ ما تملؤه بذاتك كاملة؟ أم هل أن الأشياء، لما كانت لا تقدر أن تحتوي ذاتك كاملة، فهي لا تحتوي إلّا جزءاً منك، وتحتوي جميع الأشياء الجزء نفسه؟ أم هل يحتوي كل شيء جزءاً مناسباً له، أكبر الأجزاء جزءاً أكبر، وأصغرها جزءاً أصغر؟ هل لديك إذن جزء أكبر، وجزء أصغر؟ أم هل أنت كامل في كل مكان ولا شيء يحتويك بأكمله؟^(١)

4. IV. ما تكون إذن، يا إلهي؟ أسألك ما تكون، إن لم تكن مولايا إلهي؟ إذ «من هو المولى سوى المولى؟ ومن هو الإله سوى إلهنا؟».

يا ربِّي الشأن، يا رحمن، يا قوي، يا قدير، يا رحيم، يا أعدل إله، يا شديد الخفاء يا شديد الحضور يا كثير الجمال والقوة، يا فاراً ولامحدوداً، لا متغيراً ومتغيراً كل شيء، لا تصسيك الجدة أبداً، ولا يدركك الْقِدَم، مجدها كل شيء، «مُوصِلاً الْمُتَكَبِّرِينَ إِلَى التَّدَهُورِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، فاعلا على الدوام، ساكتا على الدوام، جاماً، مثرياً عن غير حاجة، حاملاً، مالاً، واقياً، خالقاً، مخذلاً، مكتلاً، تبحث، وإن لا شيء ينقصك! تحب ولا تفور، تغار وأنت هادي، توب ولا تتألم، تغضب وأنت وديع، تغير أعمالك ولا تغير مقاصدك، تسترجع ما تجده دون أن تكون قد فقدته، لست فقيراً أبداً فترجح للأرباح، ولا تخيلاً أبداً فتلزم بالرّبا. يُنطّي إليك الأكثر حتى تكون مدييناً، ومن يملك شيئاً ليس لك؟ ثقي بديونك لست مدييناً بها لأحد، وتسلّد الديون ولا تضيع منها شيئاً، وماذا قلنا، يا إلهي، يا حياتي، يا عذوبتي المقدسة، وماذا يمكن أن تقول عندما تتكلّم عنك؟ تبا للصامتين فيك، بما أن الشّاثرين كانوا بكمَا.

5. من سيعطياني أن أجد السكينة فيك؟ من سيهبني أن تحلّ في قلبي وتشكره حتى أنسى شوري وأعانفك أنت، يا خيري الوحد؟

ما أنت حالي؟ ارافق بي حتى أنطق. ما أنا نفسي حيالك حتى تأمرني أن أحبك، وإن لم أفعل، حتى تغضب عليّ وتهذّبني بالويلات الكبرى؟ أليس بعض الويل في ألا أحبت؟ الويل لي! قل لي برحمتك، يا مولايا إلهي، ما أنت إلى. قل لروحني: «إني أنا نجاتك». قل لي هكذا كي أسمعك. ها هو قلبي مصيغ إليك، يا مولايا. افتحه وقل

(1) هذه الاستدلالات الواردة في صورة تساولات ليست بالأمر النادر في الأقسام الفلسفية من الاعتراضات. والقارئ لا يتحقق لها دائمًا دون تعب وعناء». نقلًا عن الملاحظة عدد 2 بهامش الصفحة 4 من المرجع السابق.

لروحي : «إني أنا نجاتك». أريد أن أعدّ وراء هذا الصوت وأقبض عليك. لا تُخفِّ
عني وجهك : لأمث - حتى لا أموت - ولكن لأنّه !

6. ضيقة هي دار روحي كي تدخل إليها، فلتُوسعها أنت. هي متهدمة فرمتها. بها
ما يصدّ عينيك، أعلم ذلك وأقرّ به، ولكن من سيطّرها؟ أم من سواك سأناطي قائلًا :
«طهْزَنِي، مُولَّايَ، من غُبُوبِي الخفية واحفظ خادمك من عيوب الآخرين؟»؟ أنا أؤمن،
ولهذا أتكلّم. مولاي، أنت تعلم هذا. ألم أسرد لك ضدّي نفسِي «خطاياي»، يا إلهي،
أولم «تعفُ عن كفر قلبي؟ لا أنازعك الحكم»، أنت الذي هو الحقّ، وأنا لا أريد أن
أخطئ بنفسي، «حتى لا يكذب جُزُوري ضدّ نفسه». نعم لا أنازعك الحكم، لأنك «الذُّ
تَأْمَلْتَ فِي جَوْرِنَا، مَوْلَايَ، فَمَنْ سِيقَدْرُ عَلَى الاحْتِمَالِ وَالصَّبْرِ؟»؟

7.VI . ومع ذلك دعني أتكلّم بحضور رحمتك، أنا المخلوق من تراب ورماد،
دعني أتكلّم، بما آتي أتوجه إلى رحمتك، ولا أكلّم إنسانا قد يستهزئ بي. ولعلك أنت
تستهزئ بي، ولكن لو التفت نحوّي لرأفت بي. إذ ما الذي أريد أن أقوله، مولاي، سوى
أني لا أعلم من أين أتيت إلى هنا، أعني إلى هذه الحياة الماتّة أو قل إلى هذا الموت
الحـيـ؟ لا أعلم من أين. لقد استقبلني عزاء رأفتـكـ، كما سمعته من منجيـ جـسـديـ، وقد
بعثـتـيـ منـ أحـدـهـماـ وـسوـيـتـيـ فيـ الـآـخـرـ، كلـ شـيـءـ فيـ إـيـانـهـ، لأنـيـ لاـ أـتـذـكـرـهـ.

استقبلـنـيـ إذـنـ عـزـاءـ الـلـبـنـ الإـنـسـانـيـ، لاـ أـتـيـ وـلاـ مـرـضـعـاتـيـ كـنـ يـمـلـأـنـ بـهـ منـ أـجـلـ ذـلـكـ
أـنـدـاءـهـنـ، بلـ أـنـتـ كـنـتـ بـوـاسـطـتـهـنـ تعـطـيـنـيـ غـذـاءـ الطـفـولـةـ وـفقـ مـشـرـوعـكـ الذـيـ يـوـزـعـ
الـثـرـوـاتـ حـتـىـ عـلـىـ أـضـعـفـ الـمـخـلـوقـاتـ. أـنـتـ كـنـتـ تـجـعـلـنـيـ أـيـضاـ لـاـرـغـبـ فـيـ أـكـثـرـ مـاـ
كـنـتـ تعـطـيـنـيـ، وـتـجـعـلـ مـرـضـعـاتـيـ يـرـدـنـ إـعـطـائـيـ مـاـ كـنـتـ تعـطـيـهـنـ: إذـ كـنـ بـحـثـانـ سـابـقـ
الـتـدـبـيرـ يـرـذـنـ إـعـطـائـيـ مـاـ كـنـ يـفـضـنـ بـهـ فـضـلـكـ. فـكـنـ يـجـدـنـ كـلـ الـخـيـرـ فـيـ ذـلـكـ الـخـيـرـ
الـمـتـدـفـقـ إـلـيـ مـنـهـنـ وـالـذـيـ لـمـ يـكـنـ مـنـهـنـ بـلـ بـوـاسـطـتـهـنـ: لأنـكـ لـعـمـريـ مـصـدرـ
كـلـ خـيـرـ، يا إـلـهـيـ، وـمـنـ إـلـهـيـ نـجـاتـيـ قـاطـبـةـ. فـذـاكـ مـاـ تـبـيـتـهـ إـثـرـ ذـلـكـ، وـأـنـتـ تـنـادـيـنـيـ بـمـاـ
مـنـتـ بـهـ عـلـيـ مـنـ الدـاخـلـ وـالـخـارـجـ. إذـ كـنـتـ آنـذـاكـ أـعـرـفـ الرـضـاعـ وـالـسـكـينـةـ فـيـ الـمـلـاـذـ،
أـوـ الـبـكـاءـ لـأـلـامـ الـجـسـدـ، وـلـأـكـثـرـ.

8. ثم بدأـتـ أـضـحـكـ أـيـضاـ، فـيـ النـومـ أـوـلـاـ، ثـمـ فـيـ الـيـقـظـةـ بـعـدـ ذـلـكـ. هـذـاـ مـاـ قـيلـ لـيـ
عـنـ نـفـسـيـ، وـصـدـقـتـ، لأنـاـ نـرـىـ هـكـذـاـ الـأـطـفـالـ الـأـخـرـيـنـ؛ وـلـكـونـيـ لـاـ أـتـذـكـرـ مـاـ مـاضـيـ
شـيـنـاـ. وـهـاـ آـتـيـ كـنـتـ أـدـرـكـ شـيـنـاـ فـشـيـنـاـ أـيـنـ كـنـتـ، وـكـنـتـ أـرـيدـ أـنـ أـبـرـزـ إـرـادـتـيـ لـمـ كـانـواـ
قـادـرـيـنـ عـلـىـ إـرـضـانـهـاـ، وـلـمـ أـكـنـ أـقـدرـ، لأنـهـاـ كـانـتـ فـيـ الـذـاـخـلـ، وـكـانـواـ هـمـ فـيـ الـخـارـجـ،
وـلـمـ يـكـوـنـواـ قـادـرـيـنـ بـأـيـةـ حـاسـةـ مـنـ حـوـاسـهـمـ أـنـ يـلـجـوـاـ روـحـيـ. لـذـاـ كـنـتـ أـلـوـحـ بـأـطـرـافـيـ

وصيحياتي وبهذا القدر القليل من الإشارات الشبيهة ببارادي التي كنت أستطيع التعبير عنها بعض الشيء، لكنها لم تكن تعبر عنها بكلام الدقة⁽¹⁾. وإذا ما لم أطع، إما لأنهم لم يفهموني أو لكي لا يلحقوا بي بعض الأذى، كنت أنسخط على الكبار غير المطيعين لي والأحرار الرافضين خدمتي، وكانت أنتقم منهم بالبكاء. هكذا حال الأطفال الذين استطعت أن أدرسهم، فقد علموني بصورة أوضح، ودونوعي منهم بذلك، عن شأني طفلاً أكثر مما علمني إيه العارفون الذين قاموا على إطعامي.

9. ها هي طفولتي قد ماتت منذ زمن بعيد وأنا حي. أما أنت، يا مولاي، أنت دائمًا حي ولا يموت فيك شيء، لأنك - قبل بداية الأزمان وقبل كل ما يمكن أن يعد أكثر قدماً - موجود وإله كل ما خلقت ومولاه، فيك تستقر أسباب جميع الأشياء غير المستقرة وتقطن الأصول الثابتة لجميع الأشياء المتغيرة وتحيا العلل السرمدية لكل الأشياء الدنيوية وغير العاقلة. فقل لي، أنا المتضرر إليك، يا إلهي، والرحيم بعدك الشقي، قل لي: هل إن طفولتي تلت جزءاً من حياتي قد ولّى بعد، أم هل هو ذلك العمر الذي قضيته في أرحام أمي؟ فقد حدثوني عنه بعض الحديث، ورأيت بنفسي نساء حوامل. لكن ماذا كنت قبل ذلك الزمان أيضاً، يا عذوبتي، يا إلهي؟ هل كنت في مكان ما أو شخصاً ما؟ ليس لي من يقدر أن يخبرني، لا أبي استطاع ذلك ولا أمي ولا تجربة الآخرين ولا ذاكرتي. أستسخر متى وأنا ألمي هذه الأسئلة، أو تأمرني بتمجيدك وحمدك على ما أعرفه؟⁽²⁾

10. أمجدك، يا مولى السماء والأرض، شاكراً لك بدايات حياتي وطفولتي. أنا لا أندرك هما: لكنك مكتن الإنسان أن يحدس فيما من غيره نفسه، وأن يقـ أيضـاً في شأن الكثير مما يخصـهـ في شهادات نسوة ساذجـاتـ. إذن كنتـ موجودـاًـ وكـنـتـ أحـيـاـ أيضاًـ آنـذاـكـ وأـبـحـثـ بـعـدـ فـيـ نـهاـيـةـ طـفـولـتـيـ عـنـ إـشـارـاتـ أـسـطـعـ بـهاـ أـنـ أـجـعـلـ إـحـسـاسـاتـيـ بـيـتـهـ لـلـآـخـرـينـ.

(1) «أوغسطينوس نفسه يذكر في نهاية هذه الفقرة وفي الفقرة عدد 12 أن هذه الملاحظات البسيطة للغاية، والمصادفة للغاية ملاحظات صفت صياغة سريعة أولى، وأنه حدسها وتصورها اعتماداً على ملاحظة سلوكيات الأطفال الصغار، ولا بد أنه كان هو نفسه واحداً منهم. لكنه لم يكن ليصوغها إلا ليخرج منها بنتائج لا هوئية، لكونه كان مشدوداً منذ ذلك العصر... بمسألة الخطية الأصلية»، نقلـاـ عنـ المـلاـحظـةـ عـدـدـ 1ـ بـهـامـشـ الصـفـحةـ 7ـ مـنـ المرـجـعـ السـابـقـ.

(2) «مسألة أصل الروح أيضاً من المسائل التي أقضـتـ مضـيـعـ أوغـستـينـيوـسـ. ولمـ يـسـتطـعـ أـبـداـ، حتىـ فيـ ذـلـكـ الـعـهـدـ، فـيـ آـخـرـ حـيـاتـهـ...ـ آـنـ يـجـدـ لـهـ حـلـآـ نـهـائـيـ». نـقـلـاـ عنـ المـلاـحظـةـ عـدـدـ 1ـ بـهـامـشـ الصـفـحةـ 8ـ مـنـ نفسـ المرـجـعـ.

مَنْ سُوَاكَ، يَا مُولَّايِ، يَأْتِي مِثْلَ هَذَا الْكَائِنِ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يَكُونُ صَانِعَ نَفْسِهِ أَوْ خَالِقَهَا؟ أَمْ هَلْ هُنَاكَ مَعِينٌ أَخْرَى مِنْ يَنْسَكُ بِفِينَا الْوِجْدَ وَالْحَيَاةِ سَوْيَ ذَلِكَ الَّذِي خَلَقْنَا مِنْهُ، يَا مُولَّايِ، أَنْتَ الَّذِي لَيْسَ الْوِجْدَ وَالْحَيَاةُ لَدِيكَ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، لَأَنَّ الْوِجْدَ الْأَسْمَى وَالْحَيَاةُ الْأَسْمَى عِنْدَكَ سِيَانٌ؟

فَأَنْتَ الْكَائِنُ الْأَسْمَى وَأَنْتَ الصَّمَدُ لَا يَعْرِفُ التَّغْيِيرَ، لَا يَتَمَّ فِيلَكَ يَوْمَنَا الْحَاضِرَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ فِيلَكَ يَتَمَّ، لَأَنَّكَ تَسْعَ كُلَّ شَيْءٍ؛ فَلَوْلَمْ تَخْوِهِ أَنْتَ لَمَّا اهْتَدَى إِلَى سَبِيلِ الْعَبُورِ، وَبِعِنْدِكَ أَنْ «أَعْوَامَكَ لَا تَنْتَهِي»، فَأَعْوَامَكَ هِيَ يَوْمُ حَاضِرٍ لَا يَعْرِفُ نَهَايَتَهُ؛ وَمَا أَكْثَرُ أَيَّامَنَا وَمَا أَكْثَرُ أَيَّامَ آيَاتِنَا الَّتِي مَرَّتْ بِيَوْمَكَ الْحَاضِرِ هَذَا فَتَقْبِلَتْ مِنْهُ مَقَائِيسُهَا أَكْيَافَ وَجُودَهَا، وَسَتَمُرُّ بَعْدَهَا أَيَّامٌ أَخْرَى وَسَتَقْبِلُ مِنْهُ أَيْضًا أَكْيَافَ وَجُودَهَا. أَمَا أَنْتَ «فَذَانَكَ وَاحِدَةً». وَمِنْ جَمِيعِ أَيَّامِ «غَدًا» وَمَا يَلِيهَا سَتَصْنَعُ الْيَوْمَ الْحَاضِرَ، وَمِنْ جَمِيعِ أَيَّامِ «أَمْسٍ» وَمَا سَبَقَهَا صَنَعَتِ الْيَوْمَ الْحَاضِرَ.

وَمَا حِيلَتِي، إِنْ لَمْ يَفْهَمْنِي أَحَدٌ؟ فَلَيَفْرَحْ أَيْضًا هَذَا الْفَاقِلُ : «مَا هَذَا السِّرْ يَا تُرْيٌ؟» لِيَفْرَحْ وَلَوْلَهُذَا، وَلِيَفْضُلْ أَنْ يَجْدُ دُونَ أَنْ يَجْدُ عَلَى أَلَا يَجْدُكَ وَهُوَ يَجْدُ. وَلِيَفْضُلْ أَلَا يَجْدُ وَيَجْدُكَ عَلَى أَنْ يَجْدَ وَلَا يَجْدُكَ.

11.VII. أَصْنَعْ إِلَيَّ، يَا إِلَّاهِي. وَبَتَا لِخَطَايَا الْبَشَرِ! يَقُولُ الْإِنْسَانُ هَذَا، وَتَرَافَ بِهِ، لَأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَهُ وَلَمْ تَخْلُقْ الْخَطِيَّةَ فِيهِ.

مِنْ يَذْكُرْنِي بِخَطِيَّةِ طَفُولَتِي⁽¹⁾، «بِمَا أَنَّهُ لَا أَحَدٌ مِنْزَهٌ عَنِ الْخَطِيَّةِ أَمَامَكَ، حَتَّى الْطَّفَلُ الَّذِي لَمْ يَعْشُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا يَوْمًا وَاحِدًا»؟ مِنْ يَذْكُرْنِي بِهَا؟ قَدْ يَكُونُ صَبِيًّا، أَيْتَا، كَانَ، وَمَهْمَا بَلَغَ مِنِ الصَّفَرِ، فِيهِ أَرَى مَا لَا أَنْذَكَهُ عَنِ نَفْسِي؟

إِذْنَ مَاذَا كَانَتْ آنَذَاكَ خَطِيَّتِي؟ أَكَانَتْ بِكَانِي طَلْبَا لِلثَّدِي بِكُلِّ شَغْفٍ؟ فَلَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الْآَنَ وَطَلَبْتَ بِنَفْسِ الشَّغْفِ لَا ثَدِي أَتَيْ بِلِ الطَّعَامِ الْمَنَاسِبِ لِسَنِي، لَا سُتْهَرَى بِي وَلَوْبَتْخُتْ بِالْحَقِّ أَيْمَا تَوْبِيخٍ. فَعَلَتْ إِذْنَ آنَذَاكَ مَا يَسْتَحْقُ التَّوْبِيخُ، وَلَكِنْ نَظَرَا لِلْعَجْزِي عَنْ فَهْمِ مَوْبِخِي، فَلَا الْعُزْفُ وَلَا الْعُقْلُ كَانَا يَسْمَحُانِ بِتَقْوِيمِي. وَإِنْ كَنَا مَعَ الْكَبَرِ نَسْتَأْصِلُ تِلْكَ الْعِيُوبِ وَنَرْمِي بِهَا بَعِيدًا، وَلَمْ أَرْ أَحَدًا يُلْقِي عَنِ درَائِهِ مَا هُوَ حَسْنٌ فِي

(1) كان أوغستينوس في هذا الشأن مقتعمًا بالفساد المتأصل في الطبيعة البشرية التي نخرتها الخطية الأولى، مما جعله يقبل على ملاحظة يقظة الميول الشريرة حتى في أغوار نفس الطفل (infans): من سوريات غضب جامحة وتهديدات حانقة سلاحها الدمع لاستبعاد الكبار وحملهم على إثبات نزوات ضارةً أحياناً، إلخ...، نقلًا عن الملاحظة عدد 1 بهامش الصفحتين 9 و10 من نفس المرجع.

الشيء الذي يريد أن يصلحه. وهل كان من الخير، ولو إلى لأي، أن أطلب باكيما ما لو أعطيته لألحق بي الضر، وأن أشخط سخطا شديدا على قوم أحرار وأكبر مني ستة لا يذعنون، وعلى أبي اللذين نشأت منهم، وعلى أناس آخرين كثرين أحصف مني، عندما لا يطعون أية إشارة من إرادتي، أضر بهم وأحاول أن الحق بهم كل الأذى، لعدم إذعانهم لأوامرِي رغم أن الإذعان لها كان يؤذني؟

وهكذا فإن براءة الأطفال تكمن في ضعف أعضائهم أما أرواحهم فائمة. رأيت مرة صبياً حسوداً وتمعتن فيه: كان لا ينطق بعد، وكان شاحب اللون، يحدق بمرارة في أخيه من الرضاع. من يجهل ذلك؟

يُقال إن الاتهامات والمرضعات يكفرن عن هذه العيوب بما لا أدرى من الوسائل. اللهم أن تمثل البراءة في أن ينساب اللبن بغزاره من منيع فتياض، وأن ترى الطفل لا يطيق أن يوجد معه آخر في أشد الحاجة إلى القوت ولا قوام لحياته إلا بذلك الغذاء. إلا أنها تحمل هذه العيوب بلطف، لا لأنها ليست عيوباً أو لأنها طفيفة، بل لأنها تتضمن مع تقدم العمر. والدليل على هذا أن تلك العيوب عينها لا يمكن تحملها بنفس الدرجة من اللامبالاة متنى صدرت عن امرئ أكبر سنا.

12. إذن، مولاي وإلهي، أنت الذي وهبت الطفل الحياة ووهبته معها الجسد الذي جهزته - كما نرى - بحواسٍ ورَّجْبَتَهُ بأعضاءٍ، وزَيَّتَهُ ببنيته وأدخلت فيه من أجل كماله وسلامته كل غرائز الحياة، تأمرني أن أحمدك على هذا «وأنْ أُمْجِدَكَ وَأَنْ أُشَدَّ لَاسْمَكَ، أَنْتَ الْأَعْلَى»، لأنك طيب وعلى كل شيء قدير، وإن فعلت هذا فقط، وهو ما لا يستطيع أحد آخر غيرك أن يفعله، أنت الأحد الذي منك تصدر كل المقاييس، أنت الصورة المثلية التي تصور كل شيء وتنظم كل شيء طبقاً لقانونك.

إذن فهذا العمر، يا مولاي، لا أتذكر أنني عشتُه، ولا أثق فيه إلا حسب شهادة الآخرين. حدَّسْتُ كيف قضيَّته اعتماداً على ملاحظة غيري من الأطفال الصغار، ويشق عليَّ أن أعدَّه من حياتي هذه التي أحياها في هذا العهد. فهو في ظلمات نسياني شبيه بذلك العمر الذي عشتُه في أرحام أمي. فإن «جَبَّلْتَ بِي أَمِي فِي الْأَنَامِ» وإن «غَذَّثْتَنِي فِي أَرْحَامِهَا فِي الْأَوْزَارِ»، فأين كنت؟ أتوسل إليك، يا إلهي، أخبرني أين كنت؟ يا مولاي، أنا خادمك، أين كنتُ غير آثم ومتى؟ ولكن ها أنا أحمل تلك الحقبة: فما الذي يصْلُنِي بها بما أني لا أجد منها في نفسِي أدنى أثر؟

13. VIII. ألم يقلوني هذا الجزء من العمر من الطفولة الأولى إلى الثانية؟ أو بالأحرى، هل حلَّتْ في الثانية وأخذت محلَّ الأولى؟ فال الأولى لم تذهب: ولو أنها

ذهبت فأين صارت الآن؟ ومع ذلك لم تعد موجودة. إذ لم أعد ذلك الرضيع الذي لا يقدر على الكلام، بل صرت بعده طفلاً قادرًا على ذلك. أذكر هذا وأذكر كيف تعلمت الكلام، أدركت ذلك في زمن لاحق. لم يعلمني ذلك أناس كبار مزودين إياتي بالكلمات طبق نظام منهجي ثابت، كما علموني الحروف بعد ذلك بقليل، بل تعلمت أنا بنفسي اعتماداً على الذكاء الذي أعطيته، أنت يا إلهي، لما كنت أريد أن أثير إحساسات قلبي بتوحدي وبصحيحتي وبحركات أطرافي المختلفة، حتى يقع الامتثال لإرادتي، لم أكن قادرًا على أن أثير كل ما كنت أريده لكل من كنت أريد. كنت أتناول الكلمات بالذاكرة^(١)، لما كان القوم يستمون شيئاً ما وكانوا طبقاً لذلك الصوت يحرّكون الجسم في اتجاه ذلك الشيء كنت أرى وأحفظ أن ذلك الشيء يستمونه بذلك الصوت الذي يتلقّظون به عندما يريدون الإشارة إليه. ومن ناحية أخرى كنت أتّبّع آنهم يريدون ذلك بناءً على الإشارات بالجسم، وهي بمثابة الكلمات الطبيعية، لدى جميع الشعوب التي تصدر عن الوجه وعن رقة الجفون وعن حركة بقية الأعضاء وعن دوّي الصوت وتُظهر انفعالات النفس في طلب الأشياء وإرادة امتلاكها أو رفضها والهروب منها. لذا فالكلمات الموضوعة في أماكنها الخاصة في مختلف الجمل والمسموعة بالتكرار كانت أستخلص منها تدريجياً الأشياء التي كانت تشير إليها وكانت أعلن بها عن إرادتي بضم أصبح خيراً بنطق تلك العلامات.

وهكذا أفادت منْ كُنْتُ بينهم بالعلامات الذالة على إرادتي وسررت إلى عمق الحياة الإنسانية المليئة بالزوایع تحت سلطة أبيي وإمرة أنس أكبّر مني.

IX. يا إلهي، يا إلهي، كم عرفت هنا من الويالات ومن خيبات الأمل، بسبب ما كان يقدم للطفل الذي كنت، في تلك السن، على أنه الحياة المستقيمة «أن أمتثل للمربيين كي أتألّق في هذه الدنيا وأمتاز في فنون الشّرارة الخادمة للحظوة بين الناس وللثروات الزائفة! ثم وُجهت إلى المدرسة لأنّعلم الحروف. كنت، أنا البائس، أجهل فائدتها، ومع ذلك، كنت أضرّب إذا تكاسلت في حفظها. وكان الكهول يحبذون ذلك، والكثيرون قبلنا عاشوا هذه الحياة البائسة وأعدوا لنا السبل الشاقة التي كنا، نحن بني آدم^(٢)، مُجبرين على العبور منها بعناء وبشقائهم مضاعفين.

(١) «كُلَّ هذا التحليل لمظاهر الذكاء الأولى لدى الطفل جمـ الفائدة». نقاً عن الملاحظة عدد ١٩٦٣ من نفس المرجع.

(٢) «يلاحظ أوغستينوس (في كتاب «مدينة الإله» Cité de Dieu، XXI، XIV) أن العمل الذي يُحمل الأطفال على القيام به عقاباً لهم، أمر على قدر كبير من العناء يجعلهم أحياناً يفضلون عناه العقاب المسلط عليهم على عناه الدراسة. فمن منا لا يهاب أن يحيا حياة الطفولة مرة أخرى =

ثم وجدنا، مولاي، أناسا يتضرّعون إليك، وعلمنا منهم - ونحن نفهمك على قدر طاقتنا - أن هناك أحداً عظيماً كبيراً يستطيع، دون الظهور إلى حواستنا، أن يسمّعنا وأن يغيّتنا. بدأت أتصرّع إليك طفلاً، «يا ملادي وملجئي»، وفي التوسل إليك كنت أقطع قيود لساني وأتصرّع إليك أنا الطفل الصغير بورع كبير، حتى لا أضرب في المدرسة. وعندما كنت لا تستجيب لدعائي، وكان في ذلك خير لي، كان الكبار (وحتى والذّاهي) نفّساهما اللذان لم يكونا يریدان لي أيّ أذى) يضحكون من كدمات السوط، وهي آنذاك في نفسِي أذى وألم كبير.

15. مولاي، هل من قلب كبير يضمّك بهواه الشديد، هل من قلب - وقد يقود الحمق إلى مثل هذا أيضاً - قلت «هل من قلب يكون قادرًا على أن يضمّك إليه ويكتسب منك قوة تجعله يحقر منصبات التعذيب وأظفار الحديد وما أشبهها من وسائل التعذيب التي يُتّهَلُّ إليك في هلع كبير في كل أرجاء الدنيا للإفلات منها، ويحبّ أولئك الذين يخشونها أفعى خشية أن يضحكوا، كما كان والدّاهي يضحكان من التعذيب الذي كان يُسلطُهُ المعلمون علينا ونحن صغار؟ إذ إنّا آثنا لم نكن تخافها أقلّ منهم، أو لم نكن نتوسل إليك أقلّ منهم للخلاص منها، ولكن كنا آتينا ونحن نكتب أو نقرأ أو نفكّر في الدراسة أقلّ مما كان مطلوبًا منّا.

لم تكن تنقصني، مولاي، الذاكرة ولا الباقة، فقد أردت برحمتك أن نملك منها بسخاء في ذلك العمر، ولكني كنت أحب اللعب، وكان العقاب يأتي ممّن كانوا يفعلون مثلنا بالضبط. غير أن لعب الكهول يستوي عملاً، وعلى الرغم من أن للأطفال مثله، فإن الكهول يعاقبونهم، ولا أحد يرأف بالأطفال ولا بالkehoul ولا بكلّ الفريقين. فهل يعقل أن يقبل حاكم نزيه أن أعقاب بالضرب لأنصرافي، وأنا طفل، بسبب لعب كرة الرّاحيّة، عن الإقبال على أن أحفظ بسرعة دروساً سألعب بها كهلاً لعبّة أبشع. أو أكان ذلك الرجل بعيّنه، الذي كان يضرّبني، لو غلبه في مسألة تافهة زميل له في التّدريس يفعل شيئاً آخر أكثر من أن يتميّز من الغيط والحدق أكثر مني أنا لو تغلب عليّ في لعبة الرّاحيّة رفيقي في اللعب؟⁽¹⁾

= ولا يفضل الموت، لو أتيح له الاختيار». نقلًا عن الملاحظة عدد 13 من نفس المرجع.

(1) لم يعمد أوغستيوس، في الاعترافات، إلى، مثل هذا الأسلوب الساخر إلا في القليل النادر. لكنه على حد تعبير «مونسو» MONCEAUX كان صاحب نكتة بارعاً. (انظر تاريخ الأدب في إفريقيا المسيحية، VII، 269 Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne). نقلًا عن الملاحظة عدد 14 من نفس المرجع.

X.16. إلا آني أثم، يا مولاي واللهمي، يا منظم كل الأشياء الطبيعية وخالفها، أما الآثام فأنت منظمها فقط، مولاي واللهمي، كنت آثاماً عندما كنت أعصي توصيات أبي وأستمعي، إذ كان بوسعي، في وقت لاحق، أن أحسن استغلال المعارف التي كانوا ي يريدون أن أحفظها، مهما كانت وجهة نظرهم فيـهـيـ. لم أكن أخالف مشيتهم طلبـاـ لـماـ هوـ أـحـسـنـ، بل بـسـبـبـ حـبـ اللـعـبـ. كنت أحـبـ فيـ العـابـ المـصـارـعـةـ روـعـةـ الـانتـصارـ، وـفـيـ الأـسـاطـيرـ وـالـخـرـافـاتـ كـانـتـ الـأـخـبـارـ الـكـاذـبـةـ تـدـغـدـغـ أـذـنـيـ وـتـبـعـتـ فـيـهـماـ شـفـقاـ أـكـبـرـ، وـيـقـوـىـ الـفـضـولـ الـلـامـعـ فـيـ عـيـنـيـ كـلـ يـوـمـ أـكـثـرـ وـيـجـرـنـيـ إـلـىـ الـعـرـوـضـ الـمـسـرـحـيـةـ الـمـسـلـيـةـ لـلـكـهـوـلـ، وـكـانـ الـذـيـنـ يـنـظـمـونـ هـذـهـ الـعـرـوـضـ يـنـالـونـ قـدـراـ كـبـيرـاـ مـنـ الـحـظـوـةـ يـكـادـ يـجـعـلـهـمـ جـمـيـعـاـ يـتـمـنـونـ لـوـ أـطـفـالـهـمـ يـفـعـلـونـ مـثـلـ ذـلـكـ، عـلـىـ أـنـ ذـلـكـ لـاـ يـمـنـعـهـمـ أـنـ يـعـاقـبـواـ عـنـ طـبـ خـاطـرـ أـبـنـاءـهـمـ لـوـ عـاـقـتـهـمـ مـثـلـ تـلـكـ الـعـرـوـضـ عـنـ الـدـرـاسـةـ التـيـ قـدـ تـمـكـنـهـمـ فـيـ يـوـمـ مـنـ الـأـيـامـ أـنـ يـنـظـمـوـاـ عـرـوـضـاـ مـثـلـهـاـ (ـوـأـبـاؤـهـمـ يـطـمـعـونـ فـيـ ذـلـكـ).

انظر، يا مولاي، برأفة إلى هذه النعائص وحررنا منها، نحن المبتلهين إليك، وحرر أيضاً أولئك الذين لم يتهلوا بعد إليك، حتى يتهلوا إليك وتحررهم.

XI.17. عندما كنت صبياً صغيراً، سمعت حديثاً عن الحياة الأزلية التي وعدنا بها تواضع مولانا واللهم الذي نزل إلى حدّ كبرياتنا. وكانت قد رسمت في إشارة صليبه، وفُوّهَت بملحه وأنا خارج من رحم أمي، أمي التي كان أملها فيك كبيراً.

رأيت، يا مولاي، كيف أتي، ذات يوم، أصبت بالحمى بسبب ضيق مفاجئ في المعدة، وكدت أموت وأنا ما زلت صبياً، رأيت، يا اللهمي، ألم تكن حارسي بعد، بأبي قلب متخصص وأي إيمان التمسْتْ عميد مسيحك، يا اللهمي ومولاي، التمسْتْ من تُقْنِي أمي ومن الكنيسة الأم، أمّنا جميعاً.

وكانت أمي، أعني أمي لحما ودماء، مضطربة، لأنها ولدت أيضاً بحسب أكبر نجاتي الأبدية وقلبها ظاهر في عقيدتك، لذا كانت تهتم بعدُ بأن ألقن في أقرب وقت السر الشافي وأن أتطهّر وأنا معترف بك، مولاي اليسوع، للتکفیر عن الذنوب، فإذا بکریبی ینفرج بعنة. ولهذا أرجأوا تطهيري، كأنه كان ضروري أن أنجّس من جديد وأنا أعود إلى الحياة، لأنني، بلا شك، بعد حزن ذلك العماد لو وقعت في أحوال الذنوب، لكان مسؤوليتي أكبر وأخطر.

هكذا كنت مؤمناً بعدُ، وكانت أمي وكل أهل الدار مؤمنين، ما عدا أبي. ومع ذلك لم يتصرّ أبي على حقّ تقى الأم فيـهـيـ، بحيث لا أؤمن بال المسيح، كما لم يكن هو يؤمن به

بعد. فهي كانت شديدة الرغبة في أن تكون أنت لي أبا، يا إلهي، عوضاً عنـه، وفي هذا كنت تعينها على أن تتغلب على بعـلها الذي كانت تخضع له، وإن كانت أحسن منه، لأنـها في ذلك أيضاً كانت تخضع بالخصوص لمشيـتك أنت، لأنـك تأمر في الحقيقة بمـثل ذلك الخـضـوع.

18. قـلـ ليـ، يا إـلهـيـ، كـمـ أـوـدـ أـعـلـمـ – إنـ كـانـتـ هـذـهـ مشـيـتكـ أـيـضاـ – ما سـبـبـ إـرـجـاءـ تـعمـيـدـيـ آـنـذاـكـ؟ـ الـخـيرـيـ أـطـلـقـتـ لـيـ، إنـ صـحـ التـعبـيرـ، أـعـنـةـ الـآـنـامـ، أـمـ هـلـ أـنـهـاـ لـمـ تـطـلـقـ؟ـ وـمـ أـيـنـ إـذـنـ يـرـنـ فـيـ أـذـنـ إـلـيـ حـدـ الـآنـ وـمـ كـلـ صـوـبـ قـوـلـ هـذـاـ أوـ ذـاكـ؟ـ (ـدـعـهـ يـفـعـلـ، فـهـوـ مـازـالـ غـيـرـ مـعـمـدـ)ـ.ـ وـمـ دـلـلـكـ لـاـ يـقـالـ فـيـ نـجـاهـ الـجـسـمـ:ـ (ـإـنـرـكـهـ يـجـرـخـ نـفـسـهـ أـكـثـرـ،ـ فـهـوـ مـازـالـ غـيـرـ مـعـافـيـ)ـ.ـ لـذـاـ كـمـ كـانـ أـحـسـنـ لـيـ أـنـ أـعـافـيـ بـسـرـعـةـ وـأـنـ يـسـخـرـ ذـوـيـ أـكـثـرـ،ـ فـهـوـ مـازـالـ غـيـرـ مـعـافـيـ)ـ.ـ لـذـاـ كـمـ كـانـ أـحـسـنـ لـيـ أـنـ أـعـافـيـ بـسـرـعـةـ وـأـنـ يـسـخـرـ ذـوـيـ حـمـاسـهـمـ مـعـ حـمـاسـيـ،ـ كـيـ تـعـقـقـ يـأـمـرـتـكـ نـجـاهـ رـوـحـيـ بـعـدـ أـنـ تـكـوـنـ قـدـ وـهـبـتـنـيـ إـيـاهـاـ.ـ نـعـمـ كـانـ ذـلـكـ أـحـسـنـ.ـ وـلـكـنـ مـاـ أـكـثـرـ أـمـوـاجـ التـزـغـاتـ الـتـيـ كـانـتـ تـرـصـدـنـيـ بـعـدـ الطـفـولـةـ،ـ وـكـانـتـ أـمـيـ تـعـلـمـ ذـلـكـ مـسـبـقاـ وـتـفـضـلـ أـنـ تـقـابـلـهـاـ بـالـتـرـابـ الـذـيـ كـانـتـ سـأـصـورـ مـنـهـ مـنـ بـعـدـ،ـ عـوـضـاـ عـنـ الصـورـةـ الـمـقـدـسـةـ الـتـيـ كـانـتـ فـيـ حـدـ ذـاـتـهـاـ مـوـجـودـةـ بـعـدـ⁽¹⁾)ـ.

XII.19. غيرـ أـنـيـ فـيـ تـلـكـ الطـفـولـةـ الـتـيـ كـانـواـ يـخـافـونـ عـلـيـ مـنـهـ أـقـلـ مـنـ الـمـراـهـقـةـ،ـ لـمـ أـكـنـ أـحـبـ الـدـرـاسـةـ وـكـنـتـ أـمـقـتـ أـنـ أـرـغـمـ عـلـيـهـ؛ـ وـمـ دـلـلـكـ كـانـواـ يـرـغـمـونـيـ وـحـسـنـاـ فـعـلـواـ،ـ لـكـنـيـ لـمـ أـفـعـلـ حـسـنـاـ:ـ فـقـدـ كـنـتـ لـاـ أـتـعـلـمـ شـيـئـاـ،ـ إـلـاـ إـذـاـ أـكـرـهـتـ عـلـيـهـ.ـ فـلـاـ أـحـدـ يـأـتـيـ خـيـرـاـ إـذـاـ فـعـلـ مـاـ فـعـلـ مـجـبـرـاـ،ـ وـإـنـ كـانـ مـاـ فـعـلـهـ خـيـرـاـ.ـ وـالـذـيـنـ كـانـواـ يـرـغـمـونـيـ لـمـ يـكـوـنـواـ يـفـعـلـونـ خـيـرـاـ،ـ بـلـ كـانـ الـخـيـرـ صـادـرـاـ لـيـ عـنـكـ أـنـتـ،ـ يا إـلهـيـ.ـ لـقـدـ كـانـ الـقـومـ لـاـ يـرـوـمـونـ إـلـاـ أـرـبـطـ مـاـ كـانـواـ يـكـرـهـونـيـ عـلـىـ حـفـظـهـ يـاـ شـيـاعـ الشـهـوـاتـ غـيـرـ الـمـشـبـعـ لـفـاقـةـ ثـرـيـةـ وـعـزـ مـخـزـ.ـ أـمـاـ أـنـتـ (ـالـذـيـ (ـتـعـرـفـ)ـ عـدـ شـعـرـنـاـ)ـ،ـ فـقـدـ كـنـتـ تـسـتـغـلـ لـفـائـدـتـيـ خـطـأـ كـلـ مـنـ كـانـواـ يـحـثـونـيـ عـلـىـ الـدـرـسـ،ـ وـكـنـتـ مـنـ جـهـةـ أـخـرـىـ تـسـتـغـلـ خـطـيـشـيـ،ـ يـاـ عـرـاضـيـ عـنـ الـدـرـسـ،ـ لـأـنـالـ مـاـ أـسـتـحـقـ مـنـ الـعـقـابـ،ـ أـنـاـ ذـلـكـ الصـبـيـ الصـغـيرـ وـمـعـ ذـلـكـ الـأـئـمـ الـكـبـيرـ.ـ إـذـنـ فـمـ الـذـيـنـ لـاـ يـفـعـلـونـ حـسـنـاـ كـنـتـ أـنـتـ تـفـعـلـ بـيـ حـسـنـاـ،ـ وـمـنـ ذـاتـيـ الـأـثـمـ نـفـسـهـاـ كـنـتـ تـجـازـيـنـيـ بـالـقـسـطـاـسـ.ـ فـقـدـ أـمـرـتـ وـهـوـ الـحـقـ،ـ أـنـ تـكـوـنـ كـلـ رـوـحـ ضـالـلـةـ عـقـابـاـ وـشـرـاـ النـفـسـهـاـ.

(1) المفتاح لفهم هذا الجزء يوجد في الكتاب الثالث عشر من الاعتراضات (الفقرة، 13، XII)، فعندما أوّل أوغستينوس قصة الخلق في سفر التكوين حاماً إياها على التورية أقام تماثيلًا بين «الأرض» والإنسان الجسدي؛ وقد تلقت تلك «الأرض» شكلاً من التعاليم المقدسة التي تمنع الإنسان النور والروحانية». نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 16 من المرجع السابق.

20. لأي سبب يأثرى كنت أكره اللغة اليونانية التي لقنتها «طفلًا صغيراً، ذلك لعمرى إلى حد الآن لا يزال لدى لغزاً مغلقاً. فقد كنت أحبيت اللاتينية، لا تلك التي يدرّسها المعلمون للصبيان، بل التي يدرّسها من يسمون «النحوتين». ففي ما يخص تلك البدايات التي كنا نتعلم فيها القراءة والكتابة والحساب، لم أكن أجدهما أقلّ عباءً ومشقة من كامل اللغة اليونانية. ولكن من أين كان هذا القرف إن لم يكن من الإثم ومن تقاهة الحياة التي «كنت بها جسماً ونفساً غادياً غير رائق»؟ مع ذلك، كان فضل تلك الدراسات الأولى على أكابر لأنها كانت أكثر نجاعة، فبها صرت قادرًا على أن أقرأ أي مكتوب يقع بين يديّ، وأن أكتب كل ما أريد، كان فضلها أكثر من فضل الأخرى التي كنت أجبرُ فيها على أن أحفظ عن ظهر قلب تشرّدات أئنياس (Aeneae) المجهول لدى⁽²⁾، ناسيًا أخطائي، وعلى أن أبكي موت ديدو (Didonem) التي قتلت نفسها من جراء الحب، في حين أتني، أنا أشقي الناس، كنت قرير العين بأنّ أموت غرقًا في هذه الحكايات بعيدًا عنك، يا إلهي، يا حياتي！

21. فمن أشقي من شقي لا يرأف بنفسه وي بكى موته الذي كان بسبب حبها لأئنياس، عوض أن يبكي موته هو، الذي كان بسبب عدم حبه لك، يا إلهي، يا نور قلبي ورغيف فم روحي الداخلي والقرفة المخصبة لعقله ورحم فكري؟ لم أكن أحبك و«كنت زانيا بعيدًا عنك» وفي زنائي كان يرثى من كل صوب : «مرحى! مرحى!». لأن محبة هذا العالم هي زنتي وانصراف عنك وخيانتك؛ و«مرحى! مرحى!» تُقال لتدفع إلى احترام الإنسان الذي يأبى أن يقع في مثل ذلك. ولم أكن أبكي هذا الفشل بل كنت أبكي ديدو وهي «تلقي حتفها بحسام قاطع»، وأنتب أنا أسوأ ما في مخلوقاتك معرضًا عنك، كالتراب يعود إلى التراب. ولو حرمتك من قراءة ذلك لتألمت من ألا أقرأ ما يؤلمني. والعجيب أن تُعتبر هذه الحماقات دراسة أشرف وأنفع من التي تعلمت بها القراءة والكتابة！

(1) كانت له في الحقيقة عن اللغة اليونانية معرفة كافية تمكّنه من قراءتها وفهم ما يقرؤه مما كتب بها، والعديد من الإشارات تدلّ على ذلك. نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 17 من المرجع السابق.

(2) عبارة تدلّ على ضرب معين من الاحتقار سعيد أوغستيوس ذكره بشأن الكاتب «شيشرون» Ciséron (في الكتاب الثالث، الفقرة VI,7...) ونستطيع بالفعل أن نعتبر أنه لم يوجد في القرون الأولى من عهد الإمبراطورية كتاب مسيحيون كثيرون متفاوتون الصدق والصدق، لم يظهر عندهم أو لم يستقرّ عندهم عداء تجاه مختلف أشكال الثقافة الدينية وتتجاه كبار الرجال الذين كانوا عنوان فخارها». نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 18 من المرجع السابق.

22. لكن، ليناد إلهي الآن في روحي، وليرسل لي حُكْمك: «ليس كذلك! ليس كذلك!» ذلك التعليم الأول أحسن بكثير. إذ ما أنذا أقرب إلى نسيان ترحال أينياس على غير هدى وكل ما شابهه، متي إلى نسيان القدرة على القراءة والكتابة. ومع ذلك فالستائر المسدلة على عباءت مدارس النهاة تدلّ على حجب الحقيقة أكثر مما تدلّ على كشف الخطية. وليكف عن الصياغ ضدي من لم أعد أهابهم، بما آتني اعترف لك بما تريده روحي، يا إلهي، وأرتاح في ذم سيري الخبيثة، لأحب مصالكك الطيبة! ليكف عن الصياغ ضدي بائعو النحو أو مشتروه، لأنني لو طرحت عليهم هذا السؤال: «أاصحح ما يقوله الشاعر من كون أينياس جاء قدِيما إلى قرطاجة؟» لأجاب أقلهم علمًا أنهم يجهلون ذلك، أما أوسعهم علمًا فسيُنكرون أيضًا أن يكون ذلك صحيحاً، غير آتي لو سألت كيف نكتب الاسم «أينياس» لأجابني كل الذين تعلّموه بالجواب الصحيح، طبقاً للعهد والتواضع اللذين رسم الناس بهما بينهم الأحرف التي نكتب بها ذلك الاسم. وكذلك لو سألت أي الأمرين أقرب إلى النسيان في هذه الحياة، القراءة والكتابة أم تلك الأوهام الشعرية، فمن لن يتكتّن بما سيجيّب من لم يفقد تمام الصواب؟

كنت إذن آثما في صغرى، لأنني كنت أفضل تلك التفاهات على الأشياء المفيدة، أو بالأحرى لأنني كنت أكره هذه وأحب تلك. ثم أصبح تردّيد «واحد وواحد اثنان، اثنان واثنان أربعة» بغيضاً إلى نفسي، في حين أنا كنت أستسيغ جدًا الغروض الوهمية كالجود الخشبي المملوء عساكر مسلحين، وحريق طروادة وحتى فيء كريوزة (Creusae) نفسها.

23. لم كنت إذن أكره أيضًا الأدب اليوناني^(١) الذي يقصّ مثل هذه القصص؟ وقد كان هوميروس^(٢) خبيراً في نسج مثل هذه الأساطير عذباً جداً في خفته وعبيده، إلا آتي في طفولتي كنت أجده ثقيلاً مُرَا، وأظن أن الأطفال اليونانيين أيضاً يجدون وزجيليوس^(٣) (Vergilius) مَرَا ثقيلاً، عندما كانوا يرغمون على حفظه كما أرغمت

(1) «ما يُستَقِي ars grammatica أو litteratura أي الأدب كان يتمثل حسب "وارون" Warron في قراءة الشعراء والمؤرخين والخطباء وشرح أعمالهم والتنبّه على أخطاء نصوصهم والتربية بمقدمة الأدباء...»، نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 19 من المرجع السابق.

(2) الشاعر اليوناني الكبير، الذي كتب الإلياذة (L'Iliade) والأوديسا (L'Odyssée)، وهما [ملحمتان] تتعلقان بحرب طروادة.

(3) الشاعر الملحمي الروماني المشهور، الذي كتب الإينياد (L'Enéide)، وهي ملحمة روما الكبرى، وقد عاش من س 71 إلى س 19 قبل الميلاد.

أنا على حفظ هوميروس. وطبعا الصعوبة، نعم الصعوبة كانت أن أتعلم تعلمًا جيدا لغة أجنبية كانت - إن صح التعبير - تضخ بالمرة قصص جميع الأساطير اليونانية العذبة. وكنت لا أعرف منها كلمة واحدة، وكانوا - لأنهم - يهددونني بحدة، بعقوبات فظيعة مهولة.

وكنت أيضا في القديم وأنا طفل، لا أعرف من اللاتينية كلمة واحدة، ومع ذلك فقد تعلمتها بانتباه، دون خوف ولا ألم، بين ملامسات المرضعات ودعابات الضاحكين الملاعين ومرحهم. قلت تعلمتها دون ضغط الحائرين لي عليها بالعقوبات، إذ كان قلبي وحده الحال لي على إبراز أفكارى، وما كان ذاك ليكون لو لم أتعلم بعض الكلمات لا من المعلمين بل من الناطقين بها الذين كنت أنا كذلك أعرض على مسامعهم كل ما أحس به.

من هنا يتضح بجلاء أن حب الاطلاع الحر في التعلم أكثر نجاعة من هذا القسر المتسلح بالرعب⁽¹⁾. ولكن هذا القسر يقيد تدفق حب الاطلاع، يا إلهي، بدءا بسياط المعلمين ووصولا إلى محن الشهداء، يقيدها بقوانينك القادرة على مزج المرارة بالنجاجة والتي تعينا إليك، بعيدا عن الفتنة القاتلة التي بها اثنينا عنك.

24.XV. «أضغ، يا مولاي، إلى دعائي»، حتى لا تضعف روحى تحت توجيهك ولا أضعف وأنا أعرف برأسك بي التي انتزعوني بها من كل سيري المغرقة في الخبث، حتى تكون أخلى لي من كل الإغراءات التي كنت أتباه بها، وحتى أحبتك حبا جما وحتى أقبل يدك من جميع أعماقي، وحتى تتزعنى من كل نزعة حتى آخر أيامى. ها أنت، يا مولاي، «وملكي واللهي»، فليخدمك كل شيء نافع حفظه صيبا، ولنيخدمك ما أقول وأكتب وأقرأ وأعدد، بما أني لئا كنت أتعلم أشياء تافهة، كنت أنت توجهنى، وفي هذه الأشياء التافهة غفرت لي خطايا لذاتي، ففيها تعلمت كثيرا من الكلمات النافعة؛ لكنه يمكن تعلّمها أيضا في الأشياء غير التافهة، وذلك هو الطريق الآمن الذي ينبغي أن يسلكه الصبيان.

25.XVI. ولكن بتا لك، يا نهر الطبع الإنساني⁽²⁾! من سيصد لك؟ حتى متى لن

(1) «مثل هذه الآراء التربوية ليست عديمة الفائدة». نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 19 من المرجع السابق.

(2) «ما تى المعنى المجازي قد يكون قول Juvénal: «لم نر قط كريسبوس Crispus يتصلب في وجه السيل = Jamais on ne vit Crispus se raidir contre le torrent» تنقل عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 21 من المرجع السابق.

تجف؟ إلام ستدفع أبناء حواء إلى البحر الكبير المريع الذي يعبره بكلّ من قد يركبونه تحت الصليب؟ ألم أقرأ وأنا فيك عن جوبيتر⁽¹⁾ (Jupiter) المُزِّعد الزانِي؟ وعلى كلّ ما كان ليقدر على هذين الفعلين معاً، بل فعل ذلك بحيث يملك السلطان لمحاكاة زنتي حقيقي مستعيناً بالرّعد الكاذب.

ومن ثُرى من المعلمين ذوي «البرانس» يسمع بأذن هادئة إنساناً من طيّتهم يصبح ويقول: «ذاك ما كان هو ميروس يتخيّله وهو ينقل العيوب الإنسانية إلى الآلهة، كم كنت أود أن ينقلَ الخصال الإلهية إلينا». ولكن الأصح هو أن يُقال إنه لعمري كان يتخيّل ذلك، غير أنه كان ينسب خصال الآلهة إلى أناس فجّار، حتى لا يعتبر فجورهم فجوراً، وحتى يبدو أنّ من قد يقع فيه لم يُقلّد أناساً مُجاناً، بل آلهة السماء.

26 ومع ذلك، يا نهر جهنّم، يُلقى أبناء الناس مع الرواتب، كي يتعلّموا ذلك، ويجري الحفل الكبير عندما يجري علناً في الميدان، بمرأى من القوانين المانحة للمعلمين أجراً، علاوة على الراتب، فتضرب صخوركَ وتتصبح قاتلاً: «هنا تتعلّم الكلمات، هنا تتحصل البلاحة الازمة كل اللزوم للإقناع بالمحاجج ولبسط الأفكار». أما كنا إذن نعرف هذه الكلمات، «المطر الذهبي والثدي والقناع ومعابد السماء» وكلمات أخرى مكتوبة في تلك المسرحية،

لو لم يصوّر تيرنسيوس⁽²⁾ (Terentius) (الافريقي أو القرطاجي) شاباً عاهراً مقدماً لنفسه جوبيتر تمثلاً في الدّعارة، وهو يشاهد لوحة ما مرسومة على الحائط الذي «كانت تُوجَد عليه الصورة المذكورة، طبقاً لما يُقُولونَ من كون جوبيتر أمطر قدّيماً صدرَ دانثي (Danaee) بمطر من الذهب ُجعل خدعة لزوجته»؟ وانظر كيف يحضر نفسه على الفسق، وكأن الإله معلمٌ له:

«بل وأي إله! يقول، هو الذي يهزّ معابد السماء
بَقْضَفْ أَشَدَّ

وأنا الإنسان الصغيرُ الضعيفُ لن أقدرُ على أن أفعل ذلك؟ لا بل أنا فعلتُهُ وبكل سرور!»⁽³⁾.

(1) يعني «پُتّار» Jupiter إله الرعد.

(2) كاتب لاتيني، أصله من إفريقيا أي قرطاجة، كتب الكثير من المسرحيات البورجوازية الهزلية والجادّة، عاش من سنة 190 / 185 إلى سنة 159 قبل الميلاد.

(3) «يتعلّق الأمر بمشهد من مشاهد «الحصني» حيث يقصّ كيريا Chaerea كيف دخل بيت البغيّ

بهذه الدناءة لا تُحفظُ البة، أجل البة، هذه الكلمات الحقيرة بأكثر سهولة، ولكن بتلك الكلمات تُركبُ بأكثر وقاحة هذه الدناءة الحقيرة. لا أنهم الكلمات وهي بمثابة أوعية مختارة وثمينة، بل خمرة الضلال التي كان يسوقنا منها أساتذة سُكاري، وإن لم نشربها، كتّا نُضربُ، ولم يكن يسمح لنا تحكيم قاض صاح.

ومع ذلك، يا إلهي، فأنت الذي يمرّاك أصبح تذكرني آمناً، أنا تعلمت هذا عن طيب خاطر واستمتعت به في شقائي، ولهذا كنتُ القُبُّ بالطفل ذي الأمل الطيب.

27.XVII دعني، يا إلهي، أقول لك كلمة عن موهبتي أيضاً، وهي من فضلك، وعن الحماقات التي كنتُ أستفادها فيها! كان يُعرضُ على عمل يحيّر روحـي بما فيه الكفاية، إما بسبب الجائزة المعتبرة أو بسبب العار أو العقاب، فيطلبـ متى أن أشرد كلمات يوـنو (Iunonis = Junon) الغاضبة المتأوـحة، لأنـها «لا تستطيعـ أن ترـد عن إيطاليا مـلكـ الطـرـوـادـين»، وهي كلمـاتـ كنتـ عـلـمـتـ بـالـسـمـاعـ آنـ يـوـنوـ لـمـ تـقـلـهـاـ.ـ لـكـتـاـ كـتـاـ مـجـبـرـينـ عـلـىـ آنـ نـهـيـمـ فـيـ مـتـاهـاتـ هـذـهـ القـصـصـ الـخـيـالـيـةـ الشـعـرـيـةـ وـأـنـ نـسـرـدـ ثـرـاـ شـبـيـناـ مـثـلـهـ كـانـ الشـاعـرـ قـدـ قـالـهـ شـعـراـ^(١): وـكـانـ الـأـحـقـ بـالـشـاءـ مـنـ يـقـدـرـ أـنـ يـجـعـلـ الشـخـصـ الـذـيـ يـصـفـهـ فـيـ مـتـهـيـ الـغـضـبـ وـالـأـلـمـ دـوـنـ آنـ يـقـدـهـ هـيـتـهـ، وـأـنـ يـكـسـوـ تـلـكـ الـأـحـاسـيـسـ بـأـسـبـ الـعـبـارـاتـ.

فيـمـ كـانـ ذـلـكـ يـنـعـنـيـ، ياـ حـيـاتـيـ الـحـقـ، ياـ إـلـهـيـ؟ـ وـمـاـ فـائـدـةـ مـاـ كـانـ يـصـفـ لـهـ الـمـصـفـقـونـ عـنـدـ إـنـشـادـيـ أـمـامـ الـكـثـيرـ مـنـ أـتـرـابـيـ وـزـمـلـانـيـ فـيـ الـدـرـاسـةـ؟ـ أـلـمـ يـكـنـ ذـلـكـ كـلـهـ دـخـانـاـ وـرـيحـاـ يـأـثـرـ؟ـ وـهـلـاـ كـانـ عـمـلـ آخـرـ يـمـكـنـ لـمـوـهـبـتـيـ وـلـسـانـيـ آنـ يـمـارـسـ فـيـهـ؟ـ مـدـاـحـلـكـ، ياـ مـوـلـايـ، مـدـاـحـلـكـ فـيـ كـتـبـكـ الـمـقـدـسـةـ كـانـتـ تـسـانـدـ سـرـعـ قـلـبيـ،ـ فـلـاـ يـخـطـفـ بـتـرـهـاتـ تـافـهـةـ كـفـرـيـسـةـ مـنـجـسـةـ لـلـطـيـورـ.ـ إـذـ لـاـ يـقـرـبـ بـصـورـةـ وـاحـدـةـ إـلـىـ الـمـلـائـكـةـ الـمـنـتـهـيـكـنـ لـلـقـدـسـيـةـ.

= **ثايس** Thais متذكرا في زيِّ خصي ليبرج بحبه لإحدى الجواري التي قتله جمال وجهها. فأوكلوا إليه أمر خدمة الجارية، ودفعـت رؤية اللوحة أوغستينوس إلى اغتنام الفرصة». نقلـاـ عن الملاحظة عدد 1 في هامـشـ الصـفـحةـ 22ـ منـ المرـجـعـ السـابـقـ.

(١) «التمرـينـ المـدـرـسـيـ الـذـيـ يـشـيرـ إـلـيـهـ أـغـوـسـتـينـوـسـ أـوـصـىـ بـهـ بـالـحـاجـ [كـانتـيلـيانـ]ـ قـبـلـ ذـلـكـ الـوقـتـ بـقـرـنـيـنـ وـنـصـفـ فـيـ كـتـابـهـ **Institution Oratoire** المؤـسـسـةـ الـخـطـيـةـ (2, X, V, 2).ـ وـلـمـ يـكـنـ يـرـيدـ آنـ تـكـوـنـ تـلـكـ الشـرـوـحـ مـجـرـدـ نـسـخـ بـلـ كـانـ يـرـيدـ آنـ يـكـوـنـ فـيـهاـ صـرـاعـ وـمـنـافـسـةـ حـوـلـ نـفـسـ الـأـرـاءـ.ـ وـكـانـ يـقـبـلـ آنـ تـعـلـقـ بـالـشـرـ مثلـ تـعـلـقـهـ بـالـشـعـرـ.ـ نـقـلاـ عنـ الـمـلـاـحـظـةـ عـدـدـ 1ـ فـيـ هـامـشـ الصـفـحةـ 23ـ منـ المرـجـعـ السـابـقـ.

XVIII. 28. وما العجب إن كنت أنقاد هكذا للتفاهات وإن كنتُ، يا إلهي، أذهب وأخرج بعيدا عنك. كان يُعرض علي تقليد أناس كانوا يرتكبون إن لامهم لائم، عند حديثهم عن بعض أعمالهم الحسنة، على تعبير فيه عجمة أو لحن؛ فإذا رأوا فجورهم بالفاظ غزيرة لا تشوبها شائبة محكمة التركيب، عجيبة الترتيب، غرّهم الثناء.

ترى هذا، يا مولاي، وتسكت «صبورا، رحيمًا، حقًا». هل ستسكت على الدوام؟ ها أنت الآن تنتزع من هذه الهاوية المذهلة روحي الباحثة عنك والمعطشة للذاتك، روحي التي تقول لك: «بحثت عن وجهك؛ ولا بحث عنه مجددا، يا مولاي». إن الضياع في عالم الظلمات هو البعد عن وجهك، لكن الانصراف عنك أو الإقبال إليك لا يُقدر بالسير وقطع المسافات. اللاهتم أن يكون ابنك الأصغر المشار إليه قد بحث «عن جياد أو عربات أو سفن أو طار على جناحين مرتين أو سار محركا ركبتيه»، حتى يعيش في بلد بعيد، مُسرفا مبذرا المال الذي كنت أعطيته إليه عند الرحيل، أيها الأب المطيف، والذي أعطيته إليه أيضا عند رجوعه معوزا، وأنت أطفئ؟ إذن فالعيش في عالم الشهوة، هو العيش في عالم الظلمات وعالم الظلمات هو الابتعاد عن وجهك.

29. انظر، يا مولاي وإلهي، انظر كعادتك وبصبر، كيف يراعي بنو الإنسان بكل عنابة ما اصطلاح عليه من الحروف والمقاطع الموروثة عن الناطقين الأوائل، وكيف يحملون المواثيق الأزلية للنجاة الأبدية المأخوذة من لدنك؛ حتى أن من يعرف تلك المبادئ القديمة في النطق بالأصوات أو يعلمها يغضب الناس، إن هو نطق خلافا للقواعد النحوية بكلمة *hominem* («إنسان» = *homme*)، بدون همة في المقطع الأول، أكثر مما لو أنه خالف تعاليك وكره أخاه الإنسان، مع كونه هو نفسه إنسانا. كما لو أن المرء عندما يعتبر أي إنسان عدوا له يكون أكثر إيماء من الكراهية عينها التي تضرم فيه ضده، أو كما لو أنك تهلك بصورة أفعظ من تلاحمه، أكثر مما تهلك قلبك عينه وأنت تعادييه. وبالتأكيد ليس علم الآداب متجردا في أعماقنا أكثر من تجدر الضمير الذي نقش فيه آلا نفعل بغیرنا ما لا نحب أن يُفعل بنا.

يا صاحب الأسرار، يا ساكن العلياء في الصمت، أيها الإلهُ الأوحدُ الكبيرُ، البادر بقانونك الذي لا يكل بذور العمى انتقاما من الشهوات المحرمة، عندما يطمع إنسان إلى مجد البلاغة أمام إنسان قاض يحيط به حشد من الناس، فينقض على عدوه بشراسة فظيعة جدا، ويتحاشى بانتباه شديد أن ينزل لسانه فيتفوه بكلماتي «بين البشرائر» (*inter omnes*)، لكنه في جنون فكره لا يتحاشى أن يمحو إنسانا من بين الناس الأحياء.

XIX. كنت ملقي على عتبة هذه الطباع صبياً شقياً، وكان الصراع في هذه الحلبة يجعلني أخاف أكثر أن أقع في العُجمة مما كنتُ أخاف - لو وقعت فيها - أن أخسّد من لا يقعون فيها.

أقول هذا، يا إلهي، وأعترف لعزتك، بالنتائج التي كانت تجلب لي ثناء الذين كان إعجابهم بي في ذلك الوقت شرف حياتي. كنت لا أرى الهاوية الدينية التي «كنتُ رُميتُ فيها بعيداً عن عيتيك».

فما كان أبغض عندك متى لقاً كنتُ أغضب أمثال أولئك الرجال، خادعاً المرتدين والمعلمين والوالدين بأكاذيبه التي لا تُحصى وتحتى للّعب، وشغفي بمشاهدة هزليات جوفاء وتقليلها في هياج مسلٍ؟ وكنت كذلك أختلس ما أختلس من بيت المؤن ومن على مائدة والدي، إما لأن النهم كان يأمرني بهذا، أو لكي يكون لي ما أعطيه للأطفال مقابل ملاعيتهم لي، وكانوا على كل حال يستمعون بها مثلـي، لكنهم كانوا لا يمكنوني منها إلا بمقابلـ.

وكثيراً ما كانت تغلبني رغبة تافهة في التفوق فأعمد إذا غلت في اللعب إلى الغش والتزيف. ومع ذلك إذا صادف شيء لا أريد تحمله وكانت أشتكي منه لديهم أيماشكوى، في حالة الوقوف على تلبـس بالجريمة، كان ذلك بالذات ما كنت أفعله أنا لآخرين فإذا كنت أنا المتبـس بها وأشتكي مني مشتكـ، كان يلـد لي أكثر أن أقسـ عليهم من أن أسلـ لهم بها.

أهذه هي براءة الأطفال المزعومة؟ كلاً، يا مولاي، كلاً، أتوسل إليك، يا إلهي، دعني أقول هذا. فإن يتعلـق الأمر لدى المرتدين والمعلمـين، بالجوز والكرات والعصافير، أو أن يتعلـق لدى الـولاة والـملوـك من بعد، بالذهب والإقطاعـات والـعيـد، فليس ثمة بين الأمـرين كـبير فـرق. فـهـذه هي تلك تـاماـ. وـتـعـاقـبـ حـقـبـاتـ الـعـمـرـ الـحـقـبـةـ تـلوـ الـحـقـبـةـ، كـماـ يـعـقـبـ عـقـابـ السـيـاطـ الخـفـيـفـةـ عـقـابـاتـ أـكـبـرـ أـذـىـ.

إذن فـأـنتـ، يا مـلـكـناـ، مـدـخـتـ رـمـزـ التـواـضـعـ فـي قـامـةـ الطـفـولـةـ عـنـدـمـاـ قـلـتـ: «ـالـمـثـلـ هـؤـلـاءـ تـكـوـنـ مـمـلـكـةـ السـمـاـواتـ».

XX. ولكن مع هذا، يا مولاي، الشـكـرـ لـكـ أـنـتـ، يا رـفـيعـ المـتـزلـةـ، يا أـحـسـنـ خـالـقـ، يا مـلـكـ الـكـوـنـ، يا إـلـهـنـاـ، ولو أـرـدـتـ لـمـاـ تـجاـوزـ الطـفـولـةـ، إـذـ إـنـيـ منـذـ ذـالـكـ الـوقـتـ كنتـ أـوـجـدـ وـكـنـتـ أـعـيـشـ وـأـهـتـمـ بـسـلامـتـيـ، وـهـيـ أـثـرـ الـوـحـدـةـ الـخـفـيـفـةـ الـتـيـ أـتـيـتـ مـنـهـاـ. كنتـ أـرـاقـبـ بـحـسـيـ الدـاخـلـيـ اـسـتـقـامـةـ عـمـلـ حـوـاسـتـيـ، وـكـنـتـ فـيـ أـفـكـارـيـ الصـغـيـرـةـ ذاتـهاـ

الخاصة بأشياء صغيرة أتمتع بالحق. لم أكن أريد الضلال، كانت ذاكرتي قوية، كان التعبير في جاهزاً، كنت مفتوننا بالصدقة، كنت أفر من الألم ومن السفاله ومن الجهل. ألم يكن هذا في حيٍ مثلِي مُدهشاً ومحموداً؟ لكنَّ جميع هذه الأشياء ليست من عندي بل هبات من إلهي : هي هبات وهي كلها ذاتي. هو إذن طيب من خلقني، وهو خيري بالذات وإليه أهَلَّ على كل الهبات التي كنت كاثنا بها، ولو في الطفولة.

في هذا كنت آثماً، كنت آثماً لأنني كنت أبحث لا عنده، بل عند مخلوقاته، في نفسي وعند الآخرين، عن اللذات والرفة، والحقائق، وكانت أندفع هكذا إلى الآلام، إلى الأضطرابات، إلى الأخطاء. شكرالله، يا عذوبتي وشرفني وثقتي، يا إلهي، شكرالله على هباتك؛ ولكن صُنْها أنت لي. فهكذا ستتصونني، وسيزداد ما أعطيتني ويكتمل، وسأكون معك، بما أنت أنت أعطيني أيضاً أن أكون.

الكتاب الثاني

1. أريد تذكر دناءاتي السابقة وفساد روحي الجنسي، لا لكوني أحب ذلك، بل لكي أحبتك أنت، يا إلهي. أفعل هذا حبًا لاحبك، سالكاً من جديد مسالك دعاري القصوى في مرارة تذكري، لأتمتع بعذوبتك، يا عذوبتي غير الكاذبة، يا عذوبتي السعيدة الآمنة التي تلملم أشتات ذاتي بعد أن تأثرت فيه نفسي سدى، لما حدث عنك وتلاشيت كل التلاشي. فقد اندفعت ذات يوم في مراهقتي شغفاً بالملاذ الجهنمية وتجربات على أن أغرق في غرامات متعددة قاتمة، «دَبَّلْتُ نضارتي»، وأصابتني العفونة أمام عينيك، وأنا أرُوْقُ لنفسي وأرغب أن أرُوْقَ لأعين الناس.

2. ولم يكن يُهنجني إلا أن أغشّق وأغشّ؟ لكنني لم أكن أتبع القاعدة التي تصل القلوب بالقلوب، على قدر الحد النير للصداقة، بل كانت تتأرجح متى أبخرة من شبقي الجنسي الوحِل ومن غليان البلوغ، وكانت تحجب قلبي بغمامة ونُظُلْمه، حتى صار لا يميز صفاء الحب من ظلمات الغُلْمة. كانا يضطربان في مختلطين ويجزآن شبابي الضعيف عنزَّ هوى الشهوات، فكان يغوص بها في هاوية الرذائل.

انصب غضبك قويًا عليّ، وكنت أجهل ذلك. لقد أصبحت أصمّ لقرقة سلاسل فنائي، عقاباً لكبرياء روحي، فكنت أبعد عنك أكثر، وكنت تدعّعني وشأنني، وكنت أمور مولعاً بزناي، وكنت أصبت فيه ما كان يفُورُ في جسدي، وكنت أنت صامتاً.

يا الله من سرور جاء على آخرة! كنت آنذاك صامتاً، وكنت أواصل الابتعاد عنك أكثر فأكثر بتلك البذور العقيمة التي لا تورث إلا الآلام، متكتراً في ذلي وهواني، حيرانً في كلاتي.

3. من الذي يُعدّل شقائي؟ ومن يُحول إلى منفعة تلك المفاتن العابرة التي يبعثها في نفسي كل شيء يجذّ؟ ومن يجد هدفاً في العذوبة التي أجنّها منها، حتى تتدفق

أمواج شبابي وهي تغلي وتفور - إن كان هدوئها غير ممكן إلا على هذا النحو - إلى شاطئ الزوجية وتبلغ غايتها في إنجاب الأولاد، كما يُحدّده قانونك. يا مولاي، أنت الذي خلقت ذرتنا للموت، قادر أيضاً بيد رحيمة على كسر أشواك لا تعرفها جتنك^(١) لأن قدرتك العظيمة ليست بعيدة عنك، ولو كذا بعيدين عنك. أو على كل كان علي أن أنتبه بأكثر يقطنة للصوت النازل من سحبك : «ولكن سوف يَتَأَلَوْنَ مِهْنَانِي أَجْسَاتَاهُمْ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ». أمّا أنا فأُجْبِيَكُمْ إِيَّاهَا»، «الخَيْرُ لِلإِنْسَانِ إِلَّا يَلْمِسُ امْرَأَةً»، «أَمَا مَنْ كَانَ بِلَا زَوْجَةٍ فَيَفْكُرُ فِي مَا هُوَ لِلإِلَهِ وَكَيفَ يَرْوَقُ لِلإِلَهِ؛ أَمَا مَنْ كَانَ مُرْتَبَطًا بِالزَّوْجِ، فَيَفْكُرُ فِي مَا هُوَ لِلْدُنْيَا، وَكَيفَ يَرْوَقُ لِلزَّوْجَةِ». آه! لو أصغيت إلى هذه العبارات بأكثر يقطنة! لو «تعلمت خصيّ نفسي في سهل مملكة السماوات» وتركت معانقتك وأنا في أشد السعادة!

4. ولكن كان غلياني على أشدّه، وجرفني عنف التيار بعيداً عنك، وخرجت عن طاعة جميع ما سطرت في قوانينك ولم أفلت من مَجَالِدِك: فمن من فُنَاءِ البَشَرِ يَقدِرُ عَلَىِ الْإِفَلَاتِ مِنْهَا؟ إذ كنت دوماً تُباشرني بقوستك الرحيمة، صاباً مُرَّ القرف على جميع مسراً تحيّي المحرمة لتصرفي عنها إلى طلب مسراً لا قرف فيها، ولو استطعت ذلك، لما وجدت ملجاً غيرك، يا مولاي، غيرك أنت الذي «تجعل في الألم معلماً ومربياً» و«تَضَرِّبُ لِتَدَاوِي» ونقتلنا حتى لا نموت بعيداً عنك.

ثُرى، أين كنتُ، وكم كنتُ منفياً مبعداً عن نعيم دارك في تلك السنة السادسة عشرة من عمر جسمي، لما أخذ الصولجان في وكت أرزع تحت وزر جنون الغلمة التي كان الغزى البشري يبيحها، لكنَّ قوانينك كانت تحرمها؟

لم يكن هم أهلي أنْ يقاوموا جموحِي بالزواج، بل كان همهم الوحيد أن أتعلم كيف أقيس الخطب وأقنيع باللقاء.

5.III. وفي تلك السنة مع ذلك قطعت دراستي، أعادوني من مِدَرَّوْشَ (Madauris)^(٢)، تلك المدينة القرية التي كنت بدأت أقيم فيها بعد بغية تلقن الأدب

(1) يشير أوغسطينوس بهذا إما إلى الحكم الذي أنزله «يهوي» Yahweh على آدم بعد ارتكابه الخطيئة، عندما قال له في الإصلاح الثالث من سفر التكوين: «ستبت الأرض الشوك وستأكل أعشاب الأرض...» وإنما إلى وعد عيسى: «يوم القيمة ليس للرجال صواحب وليس للنساء بعولة...»، نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 31 من المرجع السابق.

(2) سقط رأس أبوابيوس (Apuleius)، الفلاسفة المشهور، وصاحب «الحمار الذهبي» (L'Ane d'or d'Apulée de Madaure =

والخطابة، إذ كان أبي يُعدّ لي النفقات لإقامة أطول بقرطاجة باسم طموحه، وكان طموحه أكبر من ثروته، لأنه كان مواطناً متواضعاً جداً من أهل مدينة تاغاسته⁽¹⁾.

لمن أروي هذا الكلام؟ ليس لك، يا إلهي، بل أرويه لبني جنسي، لطائفه من الجنس البشري، مهما كانت ضئيلة نسبة الذين قد يطّلعون على مكتابي هذه. ولم هذا؟ طبعاً كي نفكّر، أنا ومن يقرأه، في عمق الهوة التي يجب علينا أن نناديك منها. وما هو أقرب من أذنيك، سوى توبية القلب وحياة الإيمان؟

فمن كان آنذاك لا يمدح أبي ويُمجده، لكنه يُنفق على ابنه فوق طاقته المالية، ويُسدد له كل ما يحتاجه في إقامته الدراسية البعيدة؟ إذ لم يكن كثير من المواطنين الأكثر ثراء منه ليضخوا في سبيل أبنائهم بمثل ما كان يُضخّي. ومع ذلك فإنّ هذا الأب نفسه لم يكن حريصاً على أن يعرف مالي بين يديك أو كم كان نصبي من العفة، شريطة أن تكون فصيحاً⁽²⁾ (*disertus = desert*) أو بالآخر قفراً⁽³⁾ (*désert*) مجرّداً من ثقافتك، يا إلهي، أنت المولى الواحد الحق، والسيد الطيب لخير حقلك، أي لخير قلبي.

6. ولكن في السنة السادسة عشرة المشار إليها وأثناء انقطاعي عن الدراسة الذي سببه ضيق ذات اليد الذي أصاب عائلتي وعندما أصبحت في حلّ من المدرسة، ولازمت بيت والدي، في تلك السنة علّت رأسي أشواك الشهوات، ولم تقدر يد على اقتلاعها. أضف إلى ذلك أنّ أبي، لما رأى في الحمام علامات بلوعي الأولى ولبوس فتوّقي العيري فرح فرحاً شديداً، كما لو أنه في القريب سيصبح جدّاً، وأخبر أمي بذلك جذلان بهذه النسوة التي نسيك من أجلها هذا العالم البائس الذي خلقته أنت، وصرفه

المدينة بمنطقة قسنطينا بالجزائر (نقلًا عن معجم الأعلام *le petit Robert*). ونضيف نقلًا عن "دي لا بريول" ما ورد بالملحوظة عدد 1 من هامش الصفحة 24: "تقع *Madau* أو *Madaura* في بلاد نوميديا، على بعد 24 كيلومتر من مدينة "تاغاست". وتعرف اليوم باسم "مداوروش"، و"تاغاست" المدينة التابعة للولاية الرومانية هي اليوم مدينة "سوق أهراس"."

(1) *Municipis Thagastensis* سوق أهراس بالجزائر =

(2) ضرب من التورية في حذلقة، يقع على الجنس، ويبدو أنّ أوغستينوس مولع به.

(3) تبرّز اللغة الفرنسية هنا التورية... التي يمثل التناقض الصوتي في نظر اللاتينيين رونقها وجمالها. انظر بداية الكتاب الثالث (*Cartago – sartago*) وصفحة 185 في الهاشم. نقلًا عن الملحوظة عدد 1 في هامش الصفحة 33 من المرجع السابق. وفي الصفحة 45 ترجمت العبارة اللاتينية: *sartago flagitosorum amorum* إلى الفرنسية على النحو التالي: "la chaudière des hon-*teuses amours qu'était la Carthage d'Augustin*". أي "وصلت إلى قرطاجة. كانت تتدوّي حولي من كل جهة مراجل الغرام الشائن".

عن حبك حبٌ مخلوقاتك، سكرانٌ بيارادة لا ترى، منحرفة مائلة إلى ما هو دنيء.

ولكن في صدر أمري كنت بدأت بعد تشييد معبدك وتقيم أساس بيتك المقدس : إذ إن أبي كان يطلب التصوير، وكان ذلك منذ عهد قريب جداً، لهذا أخذ أمري الضيقُ وخشية الورع، وخشيته على، وإن لم أكن قد عرفت بعد طريق الإيمان، الطرقات المليوحة التي يسيراً فيها أولئك الذين «يُوجّهُونَ لِكَ الظَّهَرَ لَا الْوَجْهَ».

7. واحسرناه! كيف أجرؤ أن أقول إنك سكتَ، يا إلهي، بينما كنت أبتعد عنك أكثر؟ أكنت آنذاك بحق صامتاً حيالِي؟ لِمَنْ تلك الكلمات التي أنسدتها في أذني عن طريق أمري، خادمتك الوفية إن لم تكون لك؟ لم تعرف واحدة منها سبيلها إلى قلبي، حتى أعمل بما جاء فيها. كانت تلك أمري، وأذكر كيف نصحتني سراً وبانشغال كبير إلا أذني وألا أفعل ذلك بالخصوص مع زوجة أبي كان.

كنت أقول : إنْ هي إلًا نصائح النساء. و كنتُ أخجل من العمل بها، وال الحال أنها كانت من لدنك. كنتُ أجهل ذلك. كنتُ أظنُّ أنك صامت وأنها هي التي تتكلّم، هي التي كنتَ تكلمي على لسانها، وفي شخصها احتررك أنا، أنا ابنتها، «ابن خادمتك وخادِمك». ولكن كنتُ أجهل ذلك وأسيءُ إلى الهاوية في ضلاله هي من الكبير، بحيث أتي كنتُ بين أترابي أخجل، لكن خجلا أقل من خجلهم، لأنّي كنتُ أسمعهم يتباكون بأغوارهم ويزيد فخرهم بها كلما زادت سفالَة، وكان يلذُّ لي فعلهم لا فقط بسبب لذة الفعل بل وبسبب الرَّزْهُو أيضاً. ما الذي يستحق الذم عدا الرذيلة؟ ولدفع الذم أغرت أكثر في الرذيلة، بحيث لم يكن يوجد جُرم أضاهي به الفاسدين، كنتُ أدعوي أمري فعلت ما لم أفعل، حتى لا أبدو أكثر حقارة بقدر ما كنت أكثر براءة، وحتى لا أعدُّ أكثر لوما بقدر ما كنت أكثر عقة.

8. وها هُم الأصحابُ الذين كنتُ أجوب معهم ساحات «بابِل» وأتمرغُ في وحلها كما لو كنتُ أتمرغ في الكافُور والعطور النفيسة، وحتى ألتتصق به أكثر، كان العدوُّ الخفي يَدُوْسني وينغوني، لأنّي كنت غوريَا. فهي التي كانت قد هربت «مِنْ وَسْطِ بَابِلَ» غير أنها كانت تسير في ضواحيها بشيءٍ من البطء وهي أم جسدي. ورغم أنها نصحتني بالطهارة، لم تهتم نفس الاهتمام، بما سمعته من زوجها بشأنِي : مع كونها كانت تشعر بعد بضرورة حصر ذلك الطاعون الخطير عليٍّ مستقبلاً في حدود العاطفة الزوجية، إن لم تكون تقدر أن تقطع دابرِه قطعاً؛ لم يكن لها مثل هذا الشاغل، لأنّها كانت تخشى أن يتعطل تحقيقُ أملِي بسبب القيود الزوجية، لا ذلك الأمل في الحياة الأخرى التي

كانت تضue أمي فيك، بل الأمل الذي كان أبويا يريدا بكل جوارحهما ويمقتضاه أن أتعلم الآداب، أما أبي فلأنه كان لا يكاد يفكّر فيك قطّ، وليس له بشأني سوى أفكار تافهة، وأما أمي، فلأنها كانت تعتبر أن تلك الدراسات الثقافية المألوفة قد تكون لا فقط دون مضرّة، بل قد يكون فيها أيضا نوع من المعونة لي في الوصول إليك.

هكذا كنت أتصور في تذكري، وبقدر ما تسعنني الذكرى، طبع والدي. كان العنوان يُطلّن لي للعب في مجال أبعد ما يكون عن الصراوة المعتدلة، فكنت أنهاراً في شهوات شتى فيها ضباب يحجب عني، يا إلهي، صفاء الحق لديك، «الكائن جوري يرشح من شخصي».

٧.٩. السرقة بالتأكيد يعاقب عليها قانونك، يا مولاي، والقانون منقوش في قلوب البشر، لا يكاد الجُزُورُ نفسه يمحوه: فمن السارق الذي يتحمّل أن يُسرقَ عن طيب خاطر؟ ولا ثريٌ يتحمّل أن يسرقَ من أرغمه العُوزُ. وأنا أردتُ أن أرتكب سرقة، ارتكبتها غير مدفوع بأية حاجة، بل بالنفور من العدل وبوفرة الجُزُور، لأنني سرقت ما كان يوجد عندي منه أكثر وأجود بكثير. لم أكن أريد أن أنعم بذلك الشيء الذي كنت أرغب في سرقته، بل بالسرقة ذاتها وبالإثم.

كانت توجد بالقرب من حقل كرومنا شجرة إيجاص مُتنقلة بعمار ليس شكلها بالجذاب، ولا مذاقها. قصدناها صبياناً أو غاداً في الليل الدامس لترجمتها ونجزدها من ثمارها، قصدناها في ساعة متأخرة من الليل بعد أن وصلنا لعبنا في الساحات حسب عادتنا الطاعونية، وجلبنا منها أثقالاً كبيرة لا لولائمنا، بل لنلقى بها أمام الخنازير. وعلى كل، إن أكلنا شيئاً منها، فقد كان ذلك لكون لذتنا في تحريمها.

ها هو قلبي، يا إلهي، ها هو قلبي الذي رأفت به في قعر الهاوية. ها هو قلبي، ليقل لك الآن ما كنت أطلب آنذاك: أن أكون ماكراً دون نفع، وأن لا يكون لمكري من سبب سوى طلب المكر. كان ذلك بشعاً لكنني أحبيته؛ أحبيبُ هلاكي وأحبيبُ انحطاطي، لم أحبت الشيء الذي كان سبب الانحطاط، بل أحبيبُ انحطاطي عينه، أنا الروح الدنسة التي اشتربت هلاكها بالغريطة في سندك القوي والتي لا تطلب بالخزي شيئاً، بل تطلب الخزي ذاته.

٧.١٠. ولا غزو أن هناك سحراً في جميع الأشياء الجميلة، في الذهب والفضة وغيرهما، ويرافق ملامسة البشرة انجداب قويٍ يطغى عليها، ولكل حاسة من الحواس هيئة خاصة تلائمها؛ للشرف الديني أيضاً وللقدرة على القيادة وعلى الهيمنة

شأواهما: إذ عنهم تصدر كذلك الرغبة في الانتقام. ومع ذلك يمكن أن نظر بجميع هذه الأطابيب دون الابتعاد عنك، يا مولاي، ولا الحياد عن قانونك بالضرورة. وللحياة كما نحيها في الدنيا جاذبيتها بسبب مقدار ما فيها من الرونق والتناسب مع جميع تلك الأشياء الدنيوية الجميلة. والصدقة بين الناس أيضاً عذبة لأنها تجعل، بالعقدة الغالية، من الأرواح العديدة روحًا واحدة.

بسبب هذه الأطابيب ومشيلاتها قاطبة نطرق باب الإثم، عندما تخلى، بميل مشط إلى هذه الأشياء الدنيا، عما هو أحسن منها وأسمى، تخلى عنك أنت، يا مولانا وإلهنا، وعن حشك وعن قانونك. لتلك الأطابيب الدنيوية، هي أيضاً، لذاتها، لكنها لا تضاهي لذات إلهي الذي خلق الكون، لأن «العادل يُستَرٌ في ذاته، وَمُؤْتَمِنٌ ذُوي القلوب التزية».

11. لذلك، عندما نبحث عن السبب الذي من أجله افترفت جريمة، فإننا لا نقتصر عادة، إلا إذا تبينا أن السبب هو إما الرغبة في نيل إحدى تلك الأطابيب التي سميّناها الدنيوية، وإما الخوف من فقدانها. فهي جميلة عجيبة، رغم أنها، بالمقارنة مع المزايا العليا المنعمّة، حقيقة خسيسة. يقتل قاتل إنساناً. ترى، لم فعل ذلك؟ لأنّه هام بزوجته أو طمع في أملاكه أو أراد أن يسلبه مصدر رزقه الذي كان يعيش منه، أو خشي أن يفقد بسببه شيئاً من هذا القبيل أو اضطررت فيه نار الانتقام من إساءة. هل يمكن أن يكون قتل الإنسان دون سبب، ولمجرد الاستمتاع بالقتل؟ من يمكن أن يصدق ذلك؟ لقد نقلوا أنّه كان هناك إنسان معتوه وفي متاهي القسوة، وكان «حتى بلا سبب يحب أن يكون أيضاً شريراً فظاً»؛ إلا أن المؤرخ سالوستيوس⁽¹⁾ وجد لذلك سبباً، قال: «حتى لا تَخَدَّرْ يَدُهُ أَزْنَفْسُهُ بَعْطَلَهُمَا». لم هذا أيضاً؟ لم لا بد أن ذلك كان ليحصل بتلك الممارسة للجرائم، على السيطرة على روما، وعلى المجد والسلطة والثروة، وليتخلص من خوف القانون ومن صعوبات الأوضاع بسبب ضيق الذمة المالية والشعور بعبء الجرائم. إذن فإنّ كاتلينا⁽²⁾ ما أحب جرائمها بالذات، بل أحب بالخصوص شيئاً آخر من أجله كان يركبها⁽³⁾.

(1) المؤرخ اللاتيني الذي كتب بالخصوص كتاباً عن حرب يوغرطة (Bellum Iugurthinum). وقد عاش سالوستيوس *Sallustius* من سنة 7/86 إلى سنة 35 ق.م.

(2) (Catilina)، من المتمردين على الجمهورية كان «شيشرون» قاومه هو وجماعته، في القرن الأول قبل الميلاد، وقد عاش الخطيب الكبير من 106 إلى 43 ق.م، وهاجم كاتلينا في خطبة له في أربعة أجزاء، أمام مجلس الشيوخ والشعب الروماني، سنة 63 ق.م، وضمنها كتاباً بعد ثلاث سنوات (أي عام 60).

(3) «كان سالوستيوس *Sallustius* بين القرنين الثاني والخامس ميلادياً... من أهم الأدباء =

VI. 12. ماذا أحييتك فيك، أنا البائسُ، يا سرقتي، يا جرمي الليلي في تلك السنة السادسة عشرة من عمري؟ أنت لم تكوني جميلة، بما أنك كنت سرقة. هل أنت شيء حقيقي حتى أتوجه إليك هكذا بالخطاب؟ جميلة كانت تلك الغلال التي سرقناها، بما أنها مخلوقتك، يا أجمل كل الخلاقين، يا خالق كل الكائنات، أنت الإله الطيب، الإلهُ الخيرُ الأعظمُ وخيري الحق؛ جميلة كانت تلك الغلال، لكن روحني البائسة لم ترغب فيها بالذات، إذ كان لي منها ما هو أطيب وأكثر، أما تلك فقد قد جنتها لأسرقها فحسب. فما كدت أجنيها حتى تخلصت منها، ولم أغنم منها إلا الإثم الذي كنت فرحاً بالشتمّ به. فإن دخلت إلى فمي ثمرة من تلك الثمار، فلم يكن لها سوى طعم الإثم.

والآن، مولاي وإلهي، أبحث عنمَّا أعجبني في السرقة. الجواب لا جمال لها بتاتاً: لا تتحدث عن جمال العدالة والحكمة، ولا عن جمال ذكاء الإنسان وذاكرته وحواسه وحياته الحيوانية، ولا عن جمال الكرواكب ورونقها في أماكنها وجمال الأرض والبحر المليئين بولدان يخلف المولودون منهم الميتين، ولا حتى هذا النوع من الجمال الناقص اللعوب الذي تخدعنا به العيوب.

13. وهذا إن الكبراء يقلّد السموم، رغم أنك أنت وحدك، يا إلهي، أسمى من كل شيء^(١). وهل يبحث الطموح عن غير الأمجاد والفاخر، رغم أنه يجب أن تُمجدَ أنت وحدك أكثر من كل شيء وأن الفخر لك على الدوام؟ والمتجبرون في طغيانهم يريدون أن يُخسروا: ولكن من يجب أن يُخشى غير الإله الواحد؟ ومن لا يمكن أن يُتنزع أو يُستلِّب جبروته؟ متى يمكن أن يحصل ذلك؟ وأين؟ وإلى أين؟ ومنْمَن؟ الخلوع يطلبون الحب باللامسات؛ ولكن لا شيء أحبُّ من محبتك ولا حبٌّ متوجّّ أكثر من حفك الجميل النير أكثر من كل شيء. والفضل يُدوّن متظاهراً بالحمية العلمية، لكنك أنت تعلم كل شيء علماً تاماً. والجهل ذاته والبلهاده يتستران وراء اسمي البساطة والبراءة، لكن، لا يوجد شيء أبسط منك ولا أكثر براءة، لأنّ عدو الفاسدين إنما هي أفعالهم؟ وكأني بالكسل لا يتوقف إلا إلى الراحة: ولكن هل من راحة حقيقة بمعزل عن المولى

= الكلاسيكيين في المدارس الإفريقية. وقد ذكره أوغستينوس أكثر من مرتين بكثير من التقدير في كتابه "مدينة الإله" la Cité de Dieu نقاًلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 37 من المرجع السابق.

(1) «هذا التحليل اللطيف الذي يدق ويلطف للكشف عن هوة من الانحرافات في زلل الطفولة يفضي به هنا إلى أن يبين أنه يوجد في كل ذنب يُترفَّ بُخت آخر عن الخيرات لا يمنحها إلا الله ولا يمكن أن نظر بها إلا فيه»، نقاًلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 38 من المرجع السابق.

ويمتأنى عنه؟ ويعني الترف أن يُلْقَب بالكفاية والوفرة، لكنك أنت الكمال والكثرة التي لا تنضب للعدوية التي لا تفسد. والإسراف يتذمر بالسخاء: لكنك أنت موزع جميع الخيرات في بذخ وسخاء. ويريد البخل أن يملك كثيراً: لكنك أنت تملك كل شيء. والحسد يتنافس من أجل الامتياز، وهل من شيء أكثر امتيازاً منك؟ والغصب يبحث عن الانتقام؛ ومن ينتقم انتقاماً أعدل من انتقامك؟ والخوف يخشى كثيراً الأشياء المفاجئة غير المعتادة التي تهدّد ما يحبّ، وهو يسهر على أمنه، فما اللامعتاد بالنسبة إليك وما المفاجئ؟ وما الذي يفصلك عما تحبه؟ وأين الأمان الراسخ إن لم يكن بجوارك؟ والحزن يُمحق لفقدان ما كان جشعه يتمتع به، كان يريد أن يكون مثلك: ألا يمكن أن يُستَرَّعَ منه شيء؟

14. هكذا تزني الروح، عندما تحيد عنك وتباحث خارجك عما لا تجده صافياً نقيناً إلا إذا عادت إليك. يقلدك بالمعكوس كل الذين يبتعدون عنك ويقفون ضدك. ولكن، على الرغم أيضاً من تقليدهم هكذا لك، يُبرِّزُونَ أنك خالق الكون كله، ولهذا لا يمكن أن يبتعد عنك أمرٌ بعده حقيقة.

إذن ماذا أحبيت أنا في تلك السرقة وفيه قلدُتْ مولاي وإن تقليداً خاطناً وبالمعكوس؟ هل راق لي أن أخالف قانونك بالمكر، لعجزي عن ذلك بالفقرة، هل قلدتَ، أنا العبد، حرية مبتورة، فاعلا دونما عقاب شيئاً محظوراً، محاكيَا كلية قدرتكمحاكاًة ضبابية؟ ها هو «ذلِكَ العَبْدُ الْهَارِبُ مِنْ مَوْلَاهُ وَالباحث عن الظِّلِّ». يا للفساد، وبالحياة المسيحية وبالهزة الموت! هل أمكن أن يُروَقَ لي مالم يكن مباحاً، لا سبب آخر غير أنه لم يكن مباحاً؟

15. VII. «كَيْفَ أَكَافِئُ التَّوْلَى» على قدرة ذاكرتي على استعادة هذه الأشياء، دون أن تخشى منها روحي شيئاً؟ فلأحيطك، يا مولاي، ولا أخمدك ولا أترنّف باسمك؛ بما أنك غفرتَ لي الكثير والكثير من أفعالي الإجرامية السيئة. أغزو إلى نعمتك وإلى رأفتك كونك أذنَتْ آثامي كالجليد. أغزو إلى نعمتك كل الشرور التي لم أقع فيها: فأي شر لا أقدر على ارتكابه، أنا الذي أحبيتُ الجُرمَ حتى دون سبب؟

وأعترف بكل ما غفرت لي من الأفعال السيئة التي فعلتها تلقائياً، والأفعال التي بفضل قيادتك لم أفعلها. من هو الإنسان الذي يجرؤ، وهو ينفك في عاهته، على أن ينسب عفته وبراءته لقواه الخاصة، فيحيطك أقل، كما لو كانت رحمتك أقل ضرورة له، رحمتك التي تعفو بها آثام من يتوجه إليك؟

فالذى ناديتَه واستجواب لذاتك واتقى هذه العيوب التي يقرأها في ذكرياتي واعتراضاتي عن نفسى ذاتها، أرجوه ألا يسخر من كونى شفيفٌ من مرضي بفضل ذلك الطيب، الذى ضمِن له الوقاية من المرض، أو بالأحرى الذى ضمِن له أن يمرض مريضاً أقل من مرضي ! ولذا فليحبت على قدر ذلك، بل قل أكثر بكثير، لأنه بالذى يراني قد خلصت من السقام الشديد للاثام، به يجب أن يرى نفسه ذاتها قد خلصت منه.

16. يا لي من بايس ! أية ثمرة جنتها ذات يوم، من هذه الأفعال التي أستحب منها الآن وأنا أستعيدها، وبالخصوص تلك السرقة التي أحببت فيها السرقة عينها، لا غير؟ وإن لم تكن هي في حد ذاتها شيئاً ذا بال، فإني كنت بهذا الشيء التافه بالذات أكثر بؤساً؟ ومع ذلك فما كنتُ وحدى قادراً على اقترافها - هكذا أتذكر نفسي آنذاك - ما كنتُ وحدى لأفترفها البة. فيها أحبتْ إذن أيضاً رفقة الذين افترفتها معهم، إذن لا ربّ أني لم أحب شيئاً غير السرقة؛ أو بالأحرى لا شيء آخر غيرها، لأن ذلك أيضاً هو لا شيء.

ما الذي حدث في الواقع؟ من يقدر أن يخبرني عدا الذي يُبَيِّنُ قلبي ويُبَيِّدُ ظلماته؟ وما الذي دفعني إلى مثل هذا البحث والمناقشات والتأملاط، بما أني لو كنت آنذاك أحب تلك الغلال التي سرقتها، ولو كنت أرغب في التمتع بها، لاستطعت حتى بمفردي - لو كان ذلك كافياً - أن أرتكب ذلك العمل الجائر، حتى أبلغ به نشوتى المنشودة، دون أن أستقرَّ تأكل رغبتي بالاحتلال بمنفوس شريكه؟ ولكن بما أن النشوة لم تكن لي في تلك الغلال فقد كانت في الجرم ذاته وفي رفقة صحيبي في الإثم.

17.IX. كيف كانت دخiliاتي آنذاك؟ لا شك أنها كانت مخزية جداً : والريل لي، عندما يكون أمري بيدها! ولكن كيف كانت؟ «من يفهم الذنب؟» كان الضحك للقلب بمثابة الدغدغة، حيث كنا نخدع أولئك الذين لم يكونوا يقدرون. أنا كائدون لهم تلك المكائد، والذين كانوا يرفضونها بحدة. لمْ كان إذن يروق لي آني لم أكن أفعل ذلك بمفردي؟ الآنه لا أحد أيضاً يضحك وحده بسهولة؟ صحيح أنتا في هذه الحالة لا نضحك بسهولة. ومع ذلك، يحدث أيضاً أن يغلب الضحك أناساً وحيدين، دون حضور أي شخص، لوعرض شيء مضحك جداً للحواسن أو للعقل. أما أنا فما كنت لأفترفها وحدى، ما كنت البة لأفترفها وحدى

فهاك، يا إلهي، حافظة روحي الحياة مفتوحة بين يديك. ما كنت وحدى لأفترف تلك السرقة التي كان لا يروق لي فيها ما كنت أسرقة، بل كوني أسرقة : لو كنت بمفردي

لما رأق لي ذلك قطّ ولما افترفته. يا لها من صدقة العداوة القصوى! ويا لها من فتنه
لامسورة للفكر! ويا لها من رغبة في إلحاق الفرّ الصادرة عن حب اللعب والمزح
وعن النهم في إيذاء الغير، دون آية متعة لي بريح، ولا بانتقام. لكن عندما يقول أحد:
«لِذَهَبْ! وَلَنْفَعْ! أَخْجَلْ مِنْ أَنْ أَكُونْ خَجْلَا!»

X.18. من يقدر على حل هذه المشكلة المشتبهة والمعقدة للغاية؟ فهي نِحْسَة؛ لا
أريد أن أواجهها، لا أريد أن أراها. أريدك أنت، يا عَذْلُ، يا براءة، في جمالك ورونقك
ونضارتك الرائعة التي تكسب المرء متعة لا يشبع منها. في القرب منك السلم العميق
والحياة بلا اضطراب. من يدخلك «يَدْخُلُ فِي سُرُورِ مَوْلَاهُ»، ولن يخاف وسيسكن
كأحسن ما يكون في أحسن ما يكون. لقد هجرتُك وابتعدت عنك. ونهتُ، يا إلهي،
بعيداً جداً عن استقرارك في فتوّتي، وأصبحت لنفسي «إِقْلِيمَ جَذْبٍ».

الكتاب الثالث

1.1. وصلتُ إلى قرطاجة. كانت تدوّي حولي من كل جهة مراجل الغرام الشائن. لم أقع بعد في الحب، وكنت أحبت أن أقع فيه. كنت في أشد الحاجة إلى ذلك، وكنت أكره أن أكون غير محتاج. كنت أبحث عما أحب، مُحبتاً أن أحب. وكنت أكره العُخلَّة من الهموم وأكره الطريق الممهدة بلا كمائن، لأن جوعي كان في أحشائي الخالية من قوتها الداخلية، منك أنت بالذات، يا إلهي. ولم أكن جوعانَ مثل هذا الجوع، بل كنت لا أتشهّي الأغذية غير الفاسدة، لا لأنني كنت بها ملآنَ، بل بقدر ما كنت أزداد حرماناً منها، كنت أزداد تقدّزاً. ولذا لم تكن روحي صحيحة معافاة، بل كانت مُتفرّحة، تتفقدُ إلى الخارج، راغبة ببوس في الاحتراك بعدهي المحسوسات. لكن لو لم تكن لهذه المحسوسات روح، ما كنا لنحبها.

كان يحلو لي أكثر أن أحب وأن أُحبي، كلما تمنت بجسم المحبوب. إذن كنت ألوث وريد الصداقة بأدناس الشبق وكنت أدنس طهارتها بغيوم الغلمة الجهنمية، ومع ذلك، كنت حقيراً سافلاً، كنت أتاباهي بغرور فتاض بكوني أنيقاً كيساً. وكنت فضلاً عن ذلك أقع في الحب الذي كنت أود أن أقع في شركه. يا إلهي، يارحمتي، بأي مقدار من المرة نضخت تلك العذوبة، وكم كنت طيباً؟ فقد نلتُ الحبَّ ووصلت خفية إلى قيد اللذة الجنسية، وكانت فرحاً بارتباطي بعُقد البوس، إلى أن ضربتُ بالمقارع الحديدية المحرقة، مقارع الغيرة والشكوك والخوف والغضب والمضاربات.

II.2. كانت تستهويوني المشاهد المسرحية الملينة بصور تعساتي وبِدُفاق حطب ناري. ثُرى، لم يريد هكذا الإنسان أن يتآلم هنا عندما يشاهدُ الأحزان والآمسيَ التي يرفض أن يتحملها هو نفسه؟ ومع ذلك يرغب في تحمل الألم الذي يشعر به مشاهداً، وذاك الألم عينه هو نشوته. ماذاك سوى غباء يثير الشفقة؟ إن كل شخص، بقدر ما يتأنّر أكثر بذلك المشاهد، يكون قد شُفيَ أقلَ من مثل تلك العواطف، ولو أن ما يتحمله هو

بالذات يسمى عادة بؤساً، أما ما يتعاطف فيه مع الآخرين، فيسمى رأفة. ولكن في نهاية الأمر ما الرأفة في الأشياء الخيالية على الركح؟ فالشاهد لا يُدعى لِيُغثٰ، بل يدعى فقط ليتألم ويرثي مؤلف تلك العروض أكثر بقدر ما يتآلم منها أكثر. وإن مُثلت تلك المصابات الإنسانية، التاريخية القديمة أو الخيالية، دون أن يتآلم لها المشاهد، خرج هذا الأخير منها مزدرياً وناقداً؛ أما إن تآلم، فيبقى متباهاً ومسروراً.

3. إذن نحب الدموع والآلام، ولو أن كل إنسان يريد السرور. ولكن بما أنه لا يروق لأي كان أن يكون باهساً، بل يروق له أن يكون رؤوفاً، لكن الرأفة لا تكون دون ألم، فهلا نحب الآلام لهذا السبب الوحيد؟

وفي هذا وَرِيدُ الصدقة: ولكن أين يسير؟ وأين يصب؟ لم يصب في سيل القطران الفائز، وفي اضطرامات الشبق الكريه المظلم التي يتحول إليها وينصره فيها بيارادته الخاصة، بعد أن ينبعط وينحط عن الصحراء السماوي؟ إذن هل سُقصي الشفقة؟ كلاً، فقد نحب الآلام أحياناً. ولكن أحذري، يا روحي، اللئن تحت سلطان إلهي، إله آبائنا محمود الممجّد كلَّ التمجيد في كلِّ القرون، أحذري اللئن.

وإلى حد الآن لستُ عديم الشفقة؛ لكنني كنت في مشاهد السرور على خشبة المسرح، أشاطر العشاق سرورهم، عندما يتعظ بعضهم من بعض بخزيٍّ، ولو أنهم كانوا يمتلكون تلك الأفعال الخيالية على الركح. أما في مشاهد الفراق فكنت أشاطرهم الحزن مشفقاً عليهم؛ غير أن كلاً الشعورين كانا يروقان لي أيضاً. أما الآن فأننا أشفق على من هو مسرور في الخزي، أكثر من إشفاقي على من يتصور أنه يعاني من آلام مبرحة بسبب انتزاع اللذة الضارة وفقدان السعادة البائسة. تلك لعمري هي الشفقة الحق، ولكن لا يعجبني فيها الألم. إذ الذي يشفق على البائس، إنما يفعل ذلك من باب الإحسان، ومع ذلك فمن الأفضل، إن كانت الشفقة صادقة، ألا يوجد ما يسببها أصلاً. فإن كان هناك عطف عدواني، وهو شيء لا معنى له ولا يمكن أن يكون، فقد يستطيع كذلك من يشفق شفقة صادقة حقاً، أن يرحب في وجود المؤسأء، حتى يُشفق عليهم. ولهذا من الآلام ما قد يقبلُ بل منها ما قد يُحثٰ. فهذا أنت، يا مولاي الإله، الذي يُحبُّ النفوس، تُشفق عليها بصورة أبعد وأرفع منها الدين، وأكثر صلاحاً وطهراً، لأنك لا تُخرج بأي ألم. «وَمَنِ النَّاسُ يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَشْيَايَ»^(١).

(١) تشهد هذه الصفحات في الآن نفسه على شغف أوغستينوس بسر أغوار النفس وعلى ازدهار النشاط المسرحي في قرطاجة في القرن الرابع. فقد كانت التراجيديا والكوميديا والمسرحيات =

4. أمّا أنا، البائس، فكنت آنذاك أحبّ الألم وأبحثُ عما يكون سبباً ومداعاة له، عندما كان يعجبني أكثر، في نكبة غيري الخيالية البهلوانية، دور المُشَعوذ الذي يستميلني بأكثر قوّة، بقدر ما كان يستدرُّف دموعي. وما العجب في هذا؟ لو أنّي كنتُ النعجة التuese الضالّة بعيداً عن قطبيعك المشتاق لحراستك والعنفة بداء الجرب المعيب؟ ومن هنا كان حتّي للألام، لا تلك التي كانت تلجمني أكثر إلى الأعمق - إذ لم أكن أحبّ التالم مما أجده متعة في مشاهدته - بل التي كنتُ أسمعها في الأساطير، وكأنّها تلامسُ بشرتي، والتي كان يتبعها مع ذلك، كما يقع في الحكة بالأظافر، دُمل متعرّض وصديد وقيح مُقرّز.

هكذا كانت حياتي : أكانت حقاً حياة، يا إلهي؟

III. 5. وكانت تحلّق حولي من فوق وعن بعد شفقتك الوفية. في آية أنواع الجور فسدتُ واتبعُ الفضول المرجسَ، حتى قادني إلى هجرك وإلى الكفر البليغ بك والإذعان الخوؤن للشياطين الذين «كُنْتُ أَقْدَمْ لَهُمْ قَرَابِينَ» أفعالي السيئة التي كنتَ بسيبها تجلّدني ! بل تجرّأتَ، في قُدّاسك المهيب بين جدران كنيستك، أن أتشقّي غلال الموت وأتدبر وسيلة للحصول عليها : لذلك ضربتني بسياط العقاب الثقيلة، لكن لا بحسب زلتني، أنت يا شفقي الكبيرة جداً، يا إلهي، وملجئي من المضمار المهوّلة التي تهثُ فيها في زهو وكبرياء جعلاني أبتعد عنك، محجاً سبلي لا سبلك، ومحجاً حرّيتني، حرّية العبد الشارد.

6. كانت تلك الدراسات التي تسمى بالنبيلة تفتح الباب على خوض النزاعات في الساحة العمومية. لذا كان علىي أن أتميز في ذلك المجال الذي تقاس فيه براعة المرأة بقدرتها على الخداع والكذب. فعمى البشر هو من العظمة، بحيث أنهم يتباهون أيضاً بعماهم! كنت بعد في المرتبة الأولى في مدرسة الفصاحة، وكانت مسروراً بشموخٍ متتفاخاً بكبرياء، رغم أنّ طبعي كما تعلم يا مولاي، أهداً بكثير، ونام الانزواء عن الشغب الذي كان يشيره المُشَاغِبُونَ (euersores = «chambardeurs»⁽¹⁾) - إذ إنَّ

A. القصيرة atellanes الهزلية والتمثيليات الإيمائية تشغل جميع العروض. انظر «أ. أو دولان». = Audollant, Carthage romaine, Paris, 1961, p. 682 – 687. نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 47 من المرجع السابق..

(1) تأكيد ذو طابع أسلوبوي فلسفـي بشأن الجمع بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول في هذه الفقرة ذات الطابع الأخلاقي. ونلاحظ فيها ضرباً من الجناس كما لاحظنا ذلك أعلاه. انظر الصفحة المروالية وبالخصوص الملاحظة عدد 2 بالهامش.

هذا الإسم النحس والشيطاني بمثابة سمة المهدّب - **المُشَاغِبُونَ** الذين كنتُ أعيش بينهم في حياء لا حياء فيه، بما آتني لم أكن مثلهم : و كنتُ معهم و كنت أحياناً أستمتع بصحبة أولئك الذين كنتُ أشمّتّز دوماً من أفعالهم، أعني من أنواع «**شَغَيْهُمْ**» التي كانوا ينصبون بها بوقاحة على حشمة الأغرار، حتى يدحروهم في لعيهم دون سبب و يغذّوا منه فرّحهم الميتال إلى إيدائهم. فلا شيء أشبه من ذلك العمل بأعمال الشياطين. إذن هل كانوا **يُسْتَوِّا** باسم أصيّع من **المُشَاغِبِينَ** (*euersores*)^(١)، بل قل بوضوح **المُشَاغِبِينَ** (*pervertis = euersi = chambardés*)^(٢) هم **الأولين والمُنْحَرِفِينَ** (*peruersi = peruersi*)^(٣) الذين يسخر منهم و يُضليلُهم سرّاً الجآن الخادعون لهم في ذات ما يبحثون هم أن يسخروا فيه من الآخرين وأن يخدّعوهم؟

7.IV. بين أولئك كنت آنذاك، وأنا حدّث، أتعلّم كتب البلاغة، و كنت أرغب في الامتياز لغاية مذمومة جوفاء عبر مسار الزهو البشري، و كنت، حسب العادة المألوفة في نظام الدراسة، قد وصلت إلى كتاب خطيب يدعى **شيشرونون**^(٤) (*cuiusdam Ciceronis = un certain Cicéron*)، كان جميع الناس تقريباً معجبين بلسانه، أما قلبه فتلك مسألة أخرى. وكان ذلك الكتاب يبحث على الفلسفة، ويسمى **هرطنسيوس** (*Hortensius*)

لقد غير ذلك الكتاب مشاعري و حول نحوك أنت بالذات، مولاي، دعائي وأمنياتي

(١) «شهادة أوغستينوس على نفسه في هذا الفصل يؤكدها أحد أعدائه من الدوناتيين **donatistes**، هو فانساتيوس **Vincentius** أسقف مدينة كرتينا **Cartenna**، وكان قد عرفه طالباً. (انظر X CIII 51)». نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 48 من المرجع السابق.

(٢) هو كاتب لاتيني كبير عُرِفَ بأثار غزيرة خاصة في فنون المحاجة السياسية والبلاغة والفلسفة، ورجل سياسة لمع نجمه في القرن الأول قبل الميلاد. أما هرطنسيوس **Hortensius** فهو خطيب عاش في ما بين ستين 50 ق / م، و تُميّز بعذريته و رونقه الآسيويتين (*asiatisme*)، كان محافظاً و مناقضاً بأسلوبه لشيشرون، و مهاجماً له بدماء من عام 70 ق / م. ولكنه أصبح صديقاً له عام 63. وكتب شيشرون عام 45 ق / م، (*Hortensius*) مؤلفاً يبحث فيه الرومان على الإقبال على دراسة الفلسفة اليونانية، و اختار اسم زميله الحيم السالف الذكر لذلك الكتاب. انظر الصفحة 44 بالخصوص.

(٣) إسم آخر يُعرف به شيشرون الخطيب الشهير الأنف الذكر، (*M. Tullius Cicero*، (Cicero)، يعني **الحِمَص**، وهي كنية تغلّبت على الإسم الأصلي فلم يعد يذكر إلا بها. و يقرأ الإسم اللاتيني هكذا: **Marcus Tullius Cicero** أي (*Tria Nomina*) (*بالأسماء الثلاثة*، وهي عند الرومان: (أ) الاسم **Marcus**، (ب) اللقب **Tullius**، (ج) الكنية **Cicero**).

وجعلَ رغباتي غير التي كانت. كلَّ أملٍ تافهٍ أصبحَ فجأةً عديمَ القيمة، وكنتُ أرغبُ في الحكمةِ الأبدية بحرارةٍ في القلب لا تصدق، وكانتُ أبداً في الوقف لأعودُ إليك. نعم، هذا الكتابُ الذي أشتريه من مالِ أمي، وأنا في التاسعة عشرة من عمري، بعد ستين من وفاة أبي، لم أقبلْ على قراءته إذن لصقل لغتي ولا لفصاحتِي، بل ما كان يشدني إليه هو الأشياء التي قالتها الحكماه، لا كيف قيلت^(١).

8. كم كنتُ أضطررم، يا إلهي، كم كنتُ أضطررم لأحلى من جديد نحوك بعيداً عن الأرض، ولم أكن أعرف ما أنت فاعل بي! «إذ الحكمة هي لدینك». أما حبُّ الحكمة فله في اليونانية اسم الفلسفة، وبه كان يوقظني ذلكُ الأثرُ الأدبي. من الناس من يفسدون غيرهم بواسطة الفلسفة، يزينون أخطاءهم ويقنعونها بالإسم الكبيرِ الجذابِ الشريف. وتقريراً كلَّ الذين كانوا في ذلكِ الزمان وفي الزمان الذي قبله والذين كانوا من هذا القبيل، أتبهم صاحبُ ذلكِ الكتاب وشهرُ بهم، وفيه يتجلّى ذلكُ التشيه الشافي الصادر عن روحك بواسطة خادمك الطيب المقدّس: «اخذُوا أنْ يَعْرُكُمْ أَحَدٌ بالفلسفة وَيَأْغُرَءَ تَافِهً طِبْنَقًا لِسْتَةَ النَّبْشِرِ، طِبْنَقًا لِأَسْطُفَسَاتِ هَذَا الْعَالَمِ وَلَا طِبْنَقًا لِلْمَسِيحِ، لِأَنَّ فِيهِ بِالذَّادِ يَشْكُنُ جَسَدِيَا كُلُّ كَمَالِ الْأَلْوَهِيَّةِ».

وأنا في ذلكِ الوقت، كما تعلم، أنت يا نور قلبي، وإن لم تزلْ هذه الكلماتُ الـحوارية غير معروفةٍ لدىَي، كان ما يحرضني في ذلكِ الخطاب أنه كان يشيرني و يؤوجج نفسي و يحتني على أن أحبّ، لا هذا المذهب أو ذلك، بل الحكمة عينها، أيّاً كانت، وأن أبحث عنها وأن أحصّلها وأملّكها وأضمّها إلىَّي بشدة،

ولكن شيئاً واحداً كان يخفّف قليلاً من هذا التأجيج الشديد: وهو أنَّ اسمَ المسيح لم يكن موجوداً هنالك، ذلكُ الإسم «حَسَبَ رَحْمَتِكَ، يا مَوْلَايَ»، وهو اسم مخلصي واسم ابنك الذي كان قد شربه آنذاك قلبي برقةٍ وتفق مع لبنِ أمي ذاته، والذي كان يحفظه في الأعماق؛ ويدون هذا الإسم لا يقدر أيُّ أثر أدبي، مهما بلغ ارتقى في درجاتِ الأدب والفصاحة والصواب، أن يخلبني كلّياً.

9. لذلك قررتُ أن أوجه فكري إلى الكتب المقدسة، وأن أرى كيف تكون. وها

(١) في وصفه الأكثر منهجة للمذهب المانوي أشار أوغستينوس إلى أنَّ المانويين يعتبرون مؤسس مذهبهم "البراكليت" Paraclet أي الروح القدس المتضرر الذي وعد به المسيح في إنجيل القديسين يوحنا (XIV, 16 et 26). نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 51 من المرجع السابق.

أنذا أرى شيئاً لا يفهمه المتكبرون ولا ينكشف للصبيان، شيئاً منخفضاً في المدخل ثم يرتفع شيئاً فشيئاً كلما تقدمنا؛ وفي كل الجهات حجب من الأسرار الخفية. لم أكن قادراً على أن الجهاز أو أن أحنني لاتقدم فيها. ولم يكن شعوري كما كان كلامي منذ قليل عن اهتمامي بذلك الآخر، ولكن بدا لي أنه غير جدير بأن أقارنه بمكانة *تليوس*^(٤). فكبريائي كان يحيد عن شكله وفطنتي لم تكن تخترق في العمق. ولكن كان مع ذلك خليقاً بأن ينمو مع الصغار، لكنني كنت آنف من أن أكون صغيراً وأنظاهر متتفضاً بزهوبي بكوني كبيراً.

VI. إذن أصبحت فريسة لأناس وقعوا في قبضة هذيان الكبير، غاية في الجسدية والثرثرة، أفواهُهم شرَّك شيطاني أو دبق هو خليط من مقاطع لفظية من اسمك وأسمى مولانا اليسوع المسيح (*Paracleti = du Paraclet consolateur*)^(١) والمعزى لنا «الروح القدس» (*consolatori nostri spiritus sancti = L'Esprit Saint*). هذه الأسماء كانت لا تغادر أفواههم، لكنها كانت مجرد أصوات ودوّي لاستهتمم؛ أما قلوبهم فكانت خالية من الحق. كانوا يرددون : «الحق! الحق!»، كانوا يحدّثونني عنه كثيراً، وما كان يوجد منه في أي منهم، بل كانوا يقولون باطلأ لا فيك فقط، أنت الذي هو الحق الحقيقي، بل وكذلك في أسطقفات عالمنا هذا، وهو من خلقك، وفي هذا أيضاً اضطررت أن أتجاوز الفلسفه، وإن قالوا صواباً، بسبب حبك، أنت إليها الأب الخير الأعلى، وجمال كل الأشياء الجميلة.

أيها الحق، أيها الحق، كم كان آنذاك نخاع روحي أيضاً ينتهك من الباطن نحوك، وهم يرددون لي اسمك مراراً وتكراراً، اسمك الذي لم يكن سوى صوت مدوّ على شفاههم وفي كتبهم الضخمة الكثيرة! والمأكل التي كانوا يقدمونها لروحي الجوعى لك، كانت، عوضاً عنك، الشمس والقمر، مخلوقتك الجميلين، لم تكن أنت بل أعمالك، ولم تكن حتى أعمالك الأولى؛ لأن أعمالك الروحية مقدمة على تلك المادية، وإن كانت نيرة سماوية. أما أنا فلم أكن جائعاً ولا عطشان لتلك المخلوقات المتقدمة، بل لك أنت بالذات، يا حق، أنت الذي لا يعتريك تقلب ولا ظلّ أي تغيير. وكانت *تقدّم* لي آنذاك في

(١) في وصفه الأكثر متهجية للمذهب الماتوي، أشار أوغستينوس إلى أن الماتوين يعتبرون مؤسس مذهبهم "البراكليت" *Paraclet* أي الروح القدس المنتظر الذي وعد به المسيح في إنجيل القديس يوحنا (26 et 16 el XIV). تلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 51 من المرجع السابق.

تلك المآدب أوهام فخمة، والحال أنه قد كان من الأفضل أن أحب هذه الشمس الحق على الأقل لأعيتها، لا تلك الأباطيل الخادعة للفكر عن طريق الأعين. ومع ذلك كنت أكلها لأنني كنت أحوالها أنت، أكلها دون شراهة لعمري، لأنني لم أكن أجد لك في فمي الطعام المواتي لك - فأنت لم تكون إحدى تلك الخرافات الباطلة - ولم أكن أتغذى بها، بل كنت آتهك بها أكثر.

الطعام في الأحلام شبيه جداً بطعم اليقظة، إلا أن النائمين لا يقتاتون منه، فهم نائمون. وتلك المآدب لم يكن لها بك أي شبه، حسب ما قلت لي الآن، لأنها كانت أوهاماً جسدية، أجساماً باطلة، واليقين فيها أقل منه في هذه الأجسام الحق التي نراها رؤية العين، سواء كانت سماوية أو أرضية: نراها كالسوائل والطيور، لكنها حقيقة على نحو مختلف عن الصورة التي نتصورها عليها. وبالعكس فإننا عندما نقتصر على تصورها فقط نقترب من الحقيقة أكثر مما لو تكئنا، بالقياس عليها، بأجسام أخرى أكبر ولا نهائية، لا وجود لها البتة. من مثل هذه التزهادات كنت آنذاك أغذني فلا أتغذى.

أما أنت، يا محبتي التي أستند إليها في ضعفي، لاستمد منها قوتي، فلست هذه الأجسام التي نراها ولو في السماء، ولا تلك التي لا نراها هنا، بما أنك أنت الذي خلقتها ولا تعتبرها ضمن أرفع مخلوقاتك. إذن كم أنت بعيد عن أوهامي تلك، أوهامي الخاصة بالأجسام، والتي لا تُوجَد البتة! أكثر يقيناً منها هي تخيلات تلك الأجسام التي توجد، وأكثر يقيناً من هذه الأخيرة هي الأجسام التي ليست مع ذلك أنت. ولكن لنست أيضاً الروح التي هي حياة الأجسام - بسبب كون حياة الأجسام أحسن وأكثر تأكداً من الأجسام - بل أنت حياة الأرواح، وحياة كل حياة، تحيا بذاتك ولا تتغير، يا حياة روحي.

11. أين إذن كنت آنذاك بالنسبة إليّ وكم كنت بعيداً عنّي؟ بعيداً عنك كنت تائماً محروماً منك ومن يلوط الخنازير التي كنت أغذّيها به. كم كانت أساطير النحويين والشعراء أحسن من تلك المكائد! إذ الأبياتُ الشعرية وميدّيَا المحلقةُ (*la Médée*) (volante) أصلح شأنها من الأسطuccات الخمسة التي انقلبّت صوراً مختلفةً لمحاربة مغارات الظلام الخمس، تلك الأساطير التي لا وجود لها البتة والتي تقتل المصدق بها. إذاني كنت قادراً على أن أربح ب أبيات الشعر أنواعاً حقيقةً من الطعام القدير^(١).

(1) طرح دي لا بريول DE LABRIOLLE السؤال التالي: «الطعام القدير؟ لا بد أنه يعني طعاماً روحاً وغذاء للعقل». نقلاب عن الملاحظة عدد 2 في هامش الصفحة 53 من المرجع السابق.

(*pulmenta = aliment solide*)؛ تغذيت بـ«أميدبَا» المحتلقة، لكنني كنت لا أصدق بذلك، أكثر مما أصدق بها عندما كنت أسمعهم يتغذون بها. ولكني آمنت بتلك التزهات الأخرى، تبا لي، وتب! بتلك الدرجات نزلت إلى أعماق الجحيم، وكنت، في فورة نشاطي ولهاي من فقدان الحق، أبحث عنك، يا إلهي (إذا إني أقر لك بذلك)، أنت الذي أشفقت علي، وإن لم أتعرف بها بعد قلت أبحث عنك لا بقوّة الفكر العاقلة التي تتفوق بها، حسب مشيتك، على الحيوانات، بل حسب حاسته الجسد. أما أنا فكنت أكثر باطنية من باطني وأرفع من أكثر ما في سموا.

لاقت تلك المرأة الجريئة المجردة من الحكم في لغز سليمانجالسة على كرسي أمام باب بيتها وهي تقول: «كُلُوا مِنَ الْخُبْزِ السَّرِّيِّ بِلَا تَرَدُّدٍ وَأَشْرِبُوا الْمَاءَ الْعَذْبَ الْمُخْتَلَسَ». فأغرتني، لأنها وجدتني ساكنا خارجا عنك، وتحت نظر جسدي مجترأ في داخلي أمثال ما كنت التهمت من الأشياء بإيعازه.

VII. 12. فقد كنت أحيل شيئا آخر، هو الموجود بحق، وكنت كأنني أدفع بمنحس للوقوف بجانب الكاذبين المجنونين، وهو يسألونني من أين يأتي الشر، وهل الإله تحدّه صورة جسدية، وهل له شعر وأظافر، وهل كان يجب أن نعتبر من أهل العدل من كانوا يجمعون بين عدّة زوجات، ومن كانوا يقتلون الناس، ومن كانوا يتقتلون بالأسahi. كنت مضطربا جداً الجهلي الرذ على الأسئلة، وفيما أنا معرض عن الحقيقة كان يُخيّل إليّ أني أمشي نحوها، لأنّي لم أكن أعلم أن الشّر ليس إلا فقدان الخير إلى حد كونه ينعدّ تماماً). ومن أين لي أن أراه، أنا الذي كانت رؤية العين عندي تفُّع عند الأجسام، ورؤيه الفكر عند الأوهام؟

لم أكن أعرف أن الإله روح ليس لها أعضاء تُقاسُ طولاً وعرضًا، وليس لها كتلة، لأن الكتلة هي أصغر في الجزء منها في الكل، ولو كانت لانهائي، فهي أصغر في جزء محدد بفضاء مضبوط منها في اللانهائي، وليس كلها في كل مكان كالروح وكالإله. وما هو فيما، والذي حسبي وُجذنا، ولم قيل في الكتاب المقدس إننا «على صورة الإله» (ad imaginem dei = «à l'image de Dieu») جميع هذا كنت أحجهله جهلاً مطلقاً.

(1) يعود أوغستينوس إلى مثل هذا التصور للشّر عديد المرات في الاعترافات، وبالخصوص في الكتاب السابع الفقرة 18، XIII، وفي كتابه الاختيار الحر السابق للاعتراضات ببعضه أعمام... فقد كان يسعى، مع التلميذ الذي يتووجه إليه، إلى أن يقطع نفس الطريق التي قطعها للتخلص من آرائه الخاطئة، نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 54 من المرجع السابق.

13. ولم أكن أعرف العدل الداخلي الحق الذي لا يحكم طبقا للعادة بل طبقا للقانون العادل جدا للإله الكلي القدرة الذي كان منظم أخلاق الأقاليم والأيام، حسب الأقاليم والآيام، وإن كان هو هو في كل مكان وعلى الدوام، لا غيره في مكان آخر ولا غيره في زمان آخر، والذي عُد حسبة من العادلين ابراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وداود وجميع أولئك الذين مدحهم الإله. ولكن الجهلة يعدونهم ظالمين، الجهلة الذين يحكمون «طبقا للحكم البشري» (*ex humano die = à la mode d'un tribunal*) (humain) ويقيسون عموم أخلاق الجنس البشري من زاوية أخلاقهم الخاصة، كما لو أن أحدا بلا خبرة بالشكة وبكيفية ملائمة لباس الحرب لأجزاء البدن، يريد أن يغطي رأسه بالدرع وأن يتغطى الخوذة، ويتذمر ألا يتناسب هذا مع ذاك بالضبط؛ أو كما لو أن بعضهم، في وقت تغلق فيه المحاكم في ساعات ما بعد الظهر، يثور لكونه لا يرخص له أن يعرض سلعه للبيع، بما أنه رُتّص لـ ذلك في الصباح؛ أو كما لو أن رجلا يرى في منزل بعضهم عبدا يقوم بعمل يدويا لا يسمح بالقيام به للذي يدير الكؤوس، أو شيئا ما يقع وراء الإسطبل، ويمتنع أمام الموائد، فيغتاظ لكون المسكن واحدا والعائلة واحدة، ومع ذلك لا تستند نفس المهام إلى جميع الساكنين في نفس البيت.

هكذا هم أولئك الذين يغتاظون، عندما يعلمون أن شيئا ما كان في القرون الغابرة جائزًا للعادلين، لكنه ليس جائزًا لهم في هذا القرن، لكون الإله يوصي الأولين بهذه الوصيصة، والآخرين بتلك لأسباب ظرفية، بما أن كلا الفريقين يخدم نفس العدل. لكن هل لا يرون أن في الإنسان الواحد وفي اليوم الواحد وفي نفس المسكن ما يليق بهذا العضو ولا يليق بالأخر، وأن ما كان جائزًا في الزمان الغابر يُحظر بين عشيته وضاحها، وأن شيئا ما يسمح به أو يأمر به في تلك الجهة، قد يُمنع ويعاقب عليه في هذا المكان القريب جدا؟ هل العدل متقلب متغير؟ لا بل الأزمنة التي يرعاها لا تمشي سوية؛ إذ هي أزمنة. فالناس من جهة أخرى الذين تكون حياتهم على الأرض قصيرة، لأنهم لا يقدرون بالتفكير علىربط أسباب الأشياء في القرون السابقة وعند الشعوب الأخرى التي لا خبرة لهم بها، والتي خبروها، يستطيعون مع ذلك أن يروا بسهولة ما في نفس الجسم واليوم والمنزل يناسب ذلك العضو، في أي حين، وفي أي جهة، أو عند أي شخص. على هذا النحو تراهم يتصادمون في خصوص ما تبعد عنهم ويتقاربون بشأن ما قرب منهم.

14. أنا كنت أجهل آنذاك هذه الحقائق ولا أحظها، وكانت تجلب من كل جهة عيني، وكانت لا أراها. وكنت أنسد الأشعار ولم يكن يجوز لي وضع أي جزء اتفق في أي مكان انفق، والبحور المختلفة تتطلب أجزاء مختلفة، ولا يجوز في موضع من

البيت ما يجوز في جميع المواقع منه؛ وفن العروض، الذي كنت أتغنى وفقه، لم يكن له هنا قاعدة وهناك أخرى، بل هو كل شامل.

ولم أكن أرى ملائكة كيف أن العدل الذي يخضع له الناس الأخيار والآثياء، يجعل، بطريقه أرفع امتيازاً وسُمواً، في صورة كلّ شامل جمِيع التعاليم التي يوصي بها، وذلك دون أن يتغير منها شيئاً، ومع ذلك فهو لم يكن يوزعه ويوصي به كلاً شاملًا في مختلف الحقبات، بل لكل واحدة شأن يخصها. وفي عملي كنت ألوم آباءنا الورعين، لا فقط لأنهم كانوا يستعملون الحاضر كما كان الإله يأمرهم ويلهمهم به، بل أيضاً لأنهم كانوا، كما كان الإله يوحى به، يُخبرونَ بالمستقبل مسبقاً.

15. فهل هناك زمان أو مكان لا يمكن العدل فيما «أحبّ الإله من كل القلب ومن كل الروح ومن كل الفكر، ومحبّ كل إنسان كما تُحبّ نفسك»؟ لهذا لا بد للذنوب التي هي ضد الطبيعة، من أن تكره وتعاقب في كل مكان وعلى الدوام، كما كانت لدى اللوطين. فلو فعلت ذلك كل الشعوب، لوقعت، بسبب التهمة بنفس الجريمة، تحت طائلة القانون الإلهي الذي لم يخلق الناس هكذا ليفعلوا بأنفسهم هذا الفعل. إذ تُخرق لعمري الشراكة ذاتها التي يجب أن تكون بين الإله وبيننا، عندما تُنجس الطبيعة عينها التي خلقها هو، بالانحراف الشهوي.

أما الذنوب المتنافية للأخلاق الإنسانية، فيجب أن تُجتب طبقاً لاختلاف العادات، حتى لا ينتهك الميثاق المصدق عليه بين الناس طبقاً لعادة أو قانون مدينة أو شعب ما، بحكم نزوة مواطن من أهلها أو أجنبى عنها. إذ لا يتلاءم كل جزء ذئب مع كله الشامل. ولكن عندما يأمر الإله بأمر مضاد للمأمور أو لأى ميثاق، فحتى إن أحمل ولم يعمل به هناك قط فإنه يجب إعادة وإقامته من جديد، إن لم يكن قد أقيم بعد. إذ يجوز للملك، في المدينة التي يحكمها، أن يأمر أمراً لم يأمر به أحد قبله قط، ولا أمر به هو بالذات؛ وطاعته ليس عملاً موجهاً ضد مجتمع تلك المدينة، بل إن شق عصا الطاعة هو العمل ضد المجتمع، لأن الامتثال للملوك ميثاق عام للمجتمع الإنساني، ومن باب أولى وأحرى يجب الامتثال للإله، المالك لكل مخلوقاته، بدون تردد في كل ما يأمر به! وفي خصوص سلطات المجتمع الإنساني، فكما أن السلطة الكبرى مولاًة على الصغرى كي تطيعها، كذلك الإله مولى على الكل.

16. وكذا الحال في الجرائم التي تكون الشهوانية فيها إضراراً بالإيذاء أو بالعنف أو بكليهما، إما من أجل الانتقام، كانتقام العدو من العدو، أو من أجل الحصول على مال الغير، كقطع الطريق على المسافرين، أو من أجل تجنب الشر، كالشخص المهاب،

أو من أجل الحسد، كالفغير تجاه الأكثر حظاً، أو كالمحتوظ تجاه شخص يخشى أن يساويه أو يتآلم لكونه يساويه، أو من أجل مجرد اللذة بعذاب الآخرين، كالمتفرجين على المصارعين (*gladiatorum = combats de l'arène*) أو المستهزئين أو المتلاعبيين بالناس.

هذه رؤوس الجور التي تفرخ بسرعة بسبب شهواتيات الهيمنة والاطلاع والإحساس، إما أحدها أو ثلاتها، والعيش في الإنم مضاد للوصايا الثلاث والوصايا السبع، ومضاد للسُّنْطُور^(١) (*psalterium*) ذي الأوّلار العثرة التي هي وصاياك العشر (*decalogum tuum*)^(٢)، يا إلهي الأعلى الأعذب. ولكن أي الدناءات لها القوة على أن تطالك، أنت الذي لا يتألم الفساد؟ أي الجرائم تقدر أن تلحق بك الأذى، أنت الذي لا يمكن أن تؤذى؟ ولكنك تعاقب ما يقترب الناس ضد أنفسهم، لأنهم عندما يائمون ضد أنفسهم، إنما يفعلون ذلك دون تقوى ضد أرواحهم، و«يُكذِّبُ ضد نفسه» جورهم، إما بإفساد طبيعتهم التي خلقتها ونظمتها وتعكيرها، أو باستعمال الأشياء الجائزة استعمالاً فاشاً، أو بالتأتيج لما هو غير جائز، «لَا سِتَّعَمَالٍ يَكُونُ ضد الطَّبِيعَةِ»؛ أو يقعن تحت طائلة الاتهام، ساخترين بالفكر والقول ضدك و«تَمَرِّدِين ضد مِنْحَسِكَ»، أو بعد تحطيم حدود المجتمع الإنساني، يفرحون لالثمام عصيهم المتفصلة، حسبما يعجب أو يزعج كلاً منهم. وتجري هذه الأشياء، عندما يتخلى عنك، أنت تُبُوغُ الحياة، أنت خالق الكون والمعدل الوحيد الحق له، وعندما تُحب في كبراء أناني، جزءاً من الشيء محل الكل الكاذب.

لذلك نعود إليك بتقوى متواضعة، فتطهرنا من الشر المألف، وتكون حليماً بالمعترفين بآثامهم، وتصفي لحرسات عبادك، وتفك عنّا القيود التي جعلتناها لأنفسنا، شريطة ألا نرفع ضدك «قُرُونَ حُرْيَةٍ كَادِيَّةٍ»، طامعين في أن نملك أكثر، ولو تهدّنا فقدان الكل، أشد حباً لذاتنا منها لك، أنت الخير الكلي.

17.IX. لكن بين الدناءات والجرائم وكم من أنواع أخرى من الجور، هناك أيام أصحاب الرقي الذين يلومهم الخصفاء وفق قانون الكمال ويشكرونهم وفق الإنتاج المؤمل، كما يُؤمل الحصاد من الخضرة. وهناك أنواع شبيهة بالدناءات أو بالجرائم، ليست بالأيام، لأنها لا تسيء إليك، مولانا وإلينا، ولا إلى الرابطة الاجتماعية، عندما

(١) آلة موسيقية وترية ذات عشرة أوتار.

(٢) الاسم الذي يطلق على الوصايا العشر الواردية في الإنجيل.

يتزوج أحد بشيء صالحة لضروريات الحياة والزمان، ولا يُعرف هل كان ذلك رغبة في الامتلاك، أو عندما تتعاقب سلطة منظمة أنسا قصد تأديبهم، ولا يُعرف هل كان ذلك رغبة في إيذائهم.

لذلك فالكثير من الأفعال التي قد تبدو للناس واجبة الشجب، استحسنـت بشهادتك، والكثير من التي يمتدحها الناس استنكـرت بشهادتك. ذلك أنّ ظاهر الفعل كثيراً ما يختلف عن طبيعة الفاعل وعن الظروف والأحوال الخفية الحادة بها. لكنك عندما تأمر فجأة بأمر طارئ خارق للعادة، وإن كنت حرمـته سابقاً، ومهما أخفـيت أسباب أمرـك به اعتباراً للظرف، ومهما كان هذا الأمر خارجاً عن الميثاق الاجتماعي لبعض الناس، من يشكـ في ضرورة العمل به؟ فالمجتمع البشري العادل هو ذلك الذي يخدمـك دون سواه. لكن ما أسعـ الذين يعلمـون أنـك أمرـتهم. فكل الأعمال الصادرة عن خدامـك تكون، إما للقيام بما هو ضروري للحاضر، أو للإنباء مستـقاً بما سيـكون.

X.18. كنت في جهلي بهذه الأشياء أسرـخ من خدامـك المقدسين ومن رسـلك. وما كنت أفعل، عندما كنت أسرـخ منهم، سوى كوني جعلـتك تسـخر منـي، وأنا أتفـقـد شيئاً فشيـاناً إلى هذه السـخافـات التي جعلـتني أعتقد أنـ التـينة، عندما تـجـنى، وأنـ الشـجـرة أـمـتها تـبـكيـان بدمـوعـ منـ حـلـيبـ؟ بـيدـ أنـ تلك التـينة لو أـكـلـها قدـيسـ مـانـويـ (manichaeus)⁽¹⁾، وكان جـنـيـها معـ ذلك جـرـمـ غيرـه لا جـرـمـ هوـ، لـخلـطـ منـها فيـ أحـشـائـهـ وتـهـوـعـ المـلـائـكةـ، بلـ وـذـرـاتـ منـ الإـلـهـ فيـ أـنـيـهـ أـثـنـاءـ الدـعـاءـ وـفيـ تـجـشـشـهـ: تلك النـدرـاتـ منـ الإـلـهـ الأـسـمـيـ الحقـ والـتيـ كانتـ تـحبـسـ فيـ تلكـ الثـمـرةـ، لـوـ لمـ تـفـصـلـ عنـهاـ بـأـسـرـاسـ الـقـدـيسـ الـمـخـتـارـ (electi = Elu)⁽²⁾ وـمـعـدـتهـ. وـكـنـتـ أـعـتـقـدـ، أـنـ الـبـائـسـ، أـنـ الشـفـقـةـ عـلـىـ مـتـوـجـاتـ الـأـرـضـ أـفـضـلـ منـ الشـفـقـةـ عـلـىـ النـاسـ، الـذـيـنـ مـنـ أـجـلـهـمـ كـانـتـ تـخـلـقـ. فـلـوـ طـلـبـ مـنـيـ إـمـرـقـ جـائـعـ لـيـسـ مـانـويـاـ، لـقـمـةـ يـدـفعـ بـهـاـ الجـوعـ، لـبـدـىـ ليـ تـمـكـيـنـهـ مـنـهاـ يـسـتـوـجـبـ العـقـابـ بـالـإـعـدـامـ..

XI.19. وبـسـطـ يـدـكـ منـ عـلـيـائـكـ، وـمـنـ هـذـهـ الـظـلـمـاتـ الـعـمـيقـةـ نـزـعـتـ روـحـيـ، إـذـ كـانـتـ أـمـيـ، خـادـمـكـ الـمـخـلـصـةـ، تـبـكـيـنـيـ بـيـنـ يـدـيـكـ، أـكـثـرـ مـاـ تـبـكـيـ الـأـمـهـاتـ دـفـنـ جـسـمانـ

(1) منـ أـتـابـعـ مـانـيـ الـفـارـسيـ وـرـأـسـ الـمـذـهـبـ الـمـانـويـ. وـوـاضـحـ أـنـ أـوـغـسـتـيـنـوـسـ يـتـهـكـمـ هـنـاـ مـنـهـ فيـ اسـتـعـارـةـ تـرـشـيـحـةـ مـطـرـوـلـةـ: انـظـرـ التـيـنةـ، خـلـطـ فيـ أحـشـائـهـ، تـهـوـعـ الـمـلـائـكةـ، نـزـاتـ منـ الإـلـهـ، تـجـشـشـ بـضـرـسـ وـمـعـدـةـ،

(2) كـانـتـ الـكـيـسـةـ الـمـانـوـيـةـ تـكـوـنـ مـنـ مـرـيـدـيـنـ وـمـخـتـارـيـنـ. وـمـنـ بـيـنـ الـمـخـتـارـيـنـ كـانـ هـنـاكـ رـئـيـسـ وـاثـنـاـ عشرـ سـيـداـ وـاثـنـانـ وـسـبـعـونـ أـسـقـفـاـ يـسـوسـ أـمـرـهـمـ سـيـدـ وـقـساـوـسـةـ يـسـيرـ أـمـرـهـمـ أـسـقـفـ، وـيـوـجـدـ أـخـبـراـ الشـسـاسـونـ. نـقـلاـ عـنـ الـمـلاـحظـةـ عـدـدـ 1ـ فـيـ هـامـشـ الصـفـحـةـ 60ـ مـنـ الـمـرـجـعـ السـابـقـ.

أبنائهم. فقد كانت ترى موتي وفقاً لروح عقيدتها التي أخذتها عنك، واستجبت لها، يا مولاي، استجبت لها ولم تختقر دموعها، وهي تساقط من عينيها وتروي الأرض في كل أمكنة دعائهما: استجبت لها. فمن أين أنتها تلك الرؤيا التي سلّيتها بها، حتى قبلت في النهاية العيش معى والجلوس إلى على نفس المائدة في المنزل؟ وهو ما كانت ترفضه من قبل، لاعنة مستفظعة تجاديف ضلالٍ⁽¹⁾، فقد رأت نفسها متتصبة على مسطرة خشبية (*regula = règle*)⁽²⁾، ورأت شاباً مقبلاً نحوها، مشرقاً جذلان ضاحكاً لها، وإن كانت هي حزينة، بل مرهقة بالحزن. وبعد أن سألها عن أسباب أساها ودموعها اليومية، من أجل تعليمها - كما هو مأثور - لا التعلم عنها، وبعد أن أجابته هي أنها تتَّسَبُ لهلاكي، أمرها أن تطمئنَّ، وأوصاها أن تتبَّه لترى أنها حيشما كانت، أكون أنا أيضاً هناك. وعندما انتبهت هي لذلك، رأتني متتصباً قريباً جداً منها على نفس المسطرة.

من أين ذلك، إن لم يكن من كونك موجهاً سمعك إلى قلبها، يا أيها الطيبُ القدير الساهرُ على كل واحدٍ متَّ، كما لو كنت تشهد عليه وحده، وكما لو كان السهر على الجميع، كالسهر على الفرد؟

20. من أين جاء ذلك؟ عندما قصت على قصبة حلمها، حاولت أن تُؤْوِلَه تأويلاً لا يجعلها تيأس من أن تكون في يوم من الأيام ما كتُبَ آنذاك؛ لكنها قالت لي عنه فوراً دون أي تردد: «لا، لم يَقُلْ لي : حيثُ يَكُونُ هُوَ، تَكُونُينَ أنتِ أينَضاً، بل قال: حيثُ تَكُونُينَ أنتِ، يَكُونُ هُوَ أينَضاً».

اعترف لك، يا مولاي، إن لم تخْتَنِ الذاكرة، وقد قلت هذا مراراً عديدة، أني كنت أشدَّ تأثراً آنذاك أيضاً برأيك هذا على لسان أمي اليقظة، وبهدوئها وعدم اضطرابها عند تأويلاً لرؤيتها تأويلاً قريباً جداً من الريف، وبالسرعة الفائقة التي رأت بها ما يجب أن تراه ولم أهتد أنا إلى أن أراه قبل أن تتكلّم، من تأثيري بالرؤيا عينها التي أخبرت بها

(1) حسب كتاب "الرَّد على الأكاديميين" Contre les Académiciens II, II, 3 يدو من المؤكد أن أوغستينوس عاش فترة في بلدة ناغست، Thagaste في بيت صديقه رومانيانوس Romanianus إلى أن سمحت له مونيكا أنه أن يستأنف الحياة عندها. نقل عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 61 من المرجع السابق.

(2) ولدت هذه الاستعارة عدداً كبيراً من العبارات الكنسية من قبيل *regula fidelis* أي مسطرة الإيمان *regula pietatis* أي مسطرة التقوى و*regula ueritatis* مسطرة الحق و*regula disciplinae* أي مسطرة التربية إلخ. نقل عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 61 من المرجع السابق.

مستبقاً قبل وقت طويل هذه المرأة التقية بالسرور الآتي إليها بعد وقت طويل جداً، من أجل تسليتها من هموم حاضرها.

ذلك أنه قد مضى ما يقارب تسع سنين، تمرّغت أنا خلالها في «ذلِكَ الْوَحْلُ الْعَمِيقِ» وفي ظلمات الضلال، وكانت المحاولات المتالية للخلاص تزيد من غرقها فيها، ومع ذلك كانت تلك الأرمدة الطاهرة، التقية الزاهدة، كما تحب أن تكون الأرامل - أي أكثر إقبالاً على الأمل، لكن لا أشدّ بساطة عن البكاء والنحيب - لا تكف في كل ساعات دعائهما عن الاتساع بين يديك بسيبي، وكانت دعواتها «يَضْعُدْنَ إِلَى مَرَأَى مِنْكَ»، و كنت مع ذلك تركني أتمرغ وأختبط بعد في تلك الظلمة الحالكة.

XII. 21. وأعطيتني مع ذلك جواباً آخر لا أزال أذكره الآن، لأنني سكت عن أشياء كثيرة أيضاً، بسبب كونني أتعجل للوصول إلى تلك التي تحثني على الإقرار إليك، كما آنني لا أذكر أشياء كثيرة أخرى.

إذن أعطيتني جواباً آخر عن طريق أسفف من أساقفك، هو قسيس، حضرته الكنيسة، وتدرب على كتب المقدسة. ولما طلبت منه تلك المرأة الفاضلة أن يتفضل بالحديث إليّ ويدحض أخطائي وتعليمي الإعراض عن الشر والتمسك بالخير - إذ كان يقبل أن يفعل ذلك، مع الذين يرجى صلاحهم - رفض الرجل، بحصافة تامة، كما فهمته من بعد. أجابها آنني كنت لا أزال عندها، وأنني كنت متتفاخاً بتلك البدعة الحديثة، وأنني كنت قد أزعجت بعدًّ بكثير من المسائل الشائكة (= *quaestiunculis* *questions captieuses*) كثيراً من الجهلة، وهو ما كانت قد أخبرته به في شأني. قال : «ولَكُنْ دَعِيَهُ هُنَاكَ اذْعِي لَهُ فَقَطُ الْمُؤْلَى : سَوْفَ يَكْتَسِفُ بِقَرَاءَاتِهِ عَنِّيهَا، كَمْ فِيهَا مِنَ الْحَطَّاءِ، وَكَمْ فِيهَا مِنَ الْكُفَّرِ». في نفس الوقت روى لها أيضاً كيف عهد به هو كذلك صغيراً إلى المانويين، فعلت ذلك أمّه المفتونة بهم، وأنه قرأ لا فقط جميع كتبهم تقريباً، بل إنه كثيراً مانسخها أيضاً، وأنه ظهر له، دون أية مجادلة وبراهين، كم كان يجب الفرار من تلك الملة، وأنه فرّ منها لذلك السبب. رغم أنه قال لها هذه الأشياء، لم ترد هي الاقتناع بها، بل أخذت تلح عليه أكثر، راجية منه بيكاثها الغزير، أن يلاقيني ويتناقض معي، إلا أنه قال لها بحدة مشوبة بعد بالضجر : «أَغْرِيَيْ عَنِّي، وَلَتَخْيَيْ، لَأَنَّهُ يُسْتَحِيلُ أَنْ يَهْلِكَ ابْنُ هَذِهِ الدُّمُوعِ!».

أما هي، فكثيراً ما كانت تردد في محادثاتها معي، أنها تقبّلت هذه الكلمات، تماماً كما لو كانت كلمات تدوّي من السماء.

الكتاب الرابع

I. خلال فترة التسع سنين تلك، من السنة التاسعة عشرة من عمري إلى غاية الثامنة والعشرين، كنا نُغَرِّي ونُغَرَّى، مضلليناً ومُضليلين في الشهوات المختلفة، وعلاقتي عن طريق العلوم التي يستونها العلوم النبيلة، ولكن خفية بحجة الدين الكاذبة، كنا هناك متذمرين، وهنا خُرائتين، وتأفهيم أثنا كنا، كنا من جهة نقتصر تقاهة الفخر الشعبي إلى حد نيل الاستحسان في المسرح والمسابقات الشعرية والمسابقات من أجل أكاليل من الجفيف وترهات المشاهد المعروضة والمغالاة في الشهوانية، ولكن من جهة أخرى، كنا نسعى إلى التطهر من هذه الأذران، حاملين لمن كانوا يلقبون «بالمتخفين» و«المقدسين»، الأغذية التي كانوا قد يصنعون بها لنا في مخبر معدتهم الملائكة والألهة الذين سُنْحَرُ بواسطتهم. وذاك ما كنت أقتصر وأفعل مع أصحابي المغوروين بواسطتي وبمعتني.

وليسخز متني المتعاظمون والذين لم تذلهم بعد ولم تسحقهم لنجاتهم، يا إلهي، غير أنني أحب أن أفرِّيك بشناعاتي ليحمدك الناس. دعني أتضَّع إليك، واجعلني أجول بذاكرة ثابتة حول دوائر أخطائي الماضية، وأعقر لك «قُربَان التهليل». فما أنا لنفسي بدونك سوى دليل يسير نحو هوة؛ وما أنا، عندما أكون طيباً لنفسي، سوى راضع للستك، أو ممتنع بك، أنت الغذاء الذي لا يفسد. ما الإنسان، مهما يكن، بما أنه إنسان؟ ولكن ليسخز مثنا الأقرباء والجبارية، أما نحن، الضعفاء والمعوزين، فلتسمع اعترافاتنا!

II. كنت في تلك السنين أدرُسُ الخطابة، وكنت أبيع، وقد غلبتني الشهوانية على أمري، الثرثرة المتصرة. غير أنني كنت أفضل، مولاي، كما تعلم، أن يكون لي تلاميذ طيبون، أي الذين يسمُّون «تلاميذ طيبين»، دون غش كنت أعلمهم أنواع الغش، لا التي قد يستعملونها لهلاك بريء، بل التي يستعملونها أحياناً لإنقاذ حياة جان. ورأيتني، يا

إلهي، من بعيد مترنحاً في مكانِ زلق، ومعي صدقى المتألى في دخان كثيف، والذى كنت أبزه في ذلك التدريس للمولعين بالتفاهة والطالبين للكذب وأنا رفيقهم فيه.

في تلك السنين كانت لي امرأة لم أتعرف عليها فيما يسمى الزواج الشرعي، ولكن جعلني أعثر عليها شوقاً متشتداً، خال من الحصافة، غير أنها مع ذلك الوحيدة التي حفظت لها أيضاً وفائي في المضجع. كنت معها أختبر بحقّ، معتقداً على تجربتي، كم كان البوّن شاسعاً بين صورة الزواج المقبول الذي ما كان ليُبرّم إلّا للإنجاح، وعقد الحب الشهوانى الذي تنشأ منه أيضاً سلالة ضد الإرادة، ولو أنها بعد الولادة تجبرك على محبتها.

3. أتذكّر أيضاً، لما قررت المشاركة في منافسة الشعر المسرحي، أن أحد العرّافين كلف شخصاً بأن يسألني عن الأجر الذي كنت أريد أن أدفعه له، حتى أنتصر فيها، وأنني أجبته بأنني قد كرهت تلك الممارسات الشنيعة واستفظعتها، وأنني ما كنت لأقبل - ولو كان ذلك مقابل تاج ذهبي غير فان - أن تقتل ذبابة ثمناً لانتصارى. إذ كان يظهر أن ذلك العرّاف كان سيعقر أضاحي من الحيوانات، وأنه بتلك القرابين سيكسب لي أصوات الشياطين. ولكنى لم أرفض هذا الشرّ أيضاً اقتداء بظهوره، يا إله قلبى! إذ لم أكن أعرف كيف أحبك، أنا الذي لم أكن أعرف إلاً فكرة جمال الأجسام، فالرّوح التائقة لمثل هذه الأوهام أليست «رَأَيْتَهُ تَعِيدَاً عَنْكَ»، و«وَأَيْقَنَهُ مِنَ الْبَهَتَانِ» و«مُتَغَدِّيَةٌ بِالرِّيَاحِ»؟ لكن من البديهيّ أنّي ما كنت أريد أن تعقر الحيوانات للشياطين من أجلّي، بما أنّي كنت بنفسي أعقر لهم روحي المولعة بالغرافات. فما «التَّنَدِّي بِالرِّيَاحِ» سوى التغذى بهم، أعني أن تكون في أخطأتنا لذتهم وسخريتهم؟

4. III ولذلك لم أعدل عن سذاجة استشاراتي لأوثنك الدجالين، الذين يستونهم المنجمين، وكأنّي بهم إلاً أضحية لديهم ولا أية دعوات توجه لمعبود ما من أجل الكهانة. إلا أنّ ذلك ما ترفضه التقوى المسيحية الحق وتدينه إدانة صحيحة.

إذ يحسن بي أن أقرّ إليك، يا مولاي، وأن أقول: «أشفقُ علىّ: أشفِ روحي، حيث كنت مذنبًا تجاهكَ»، ولا تُبِحُّ الإثم مستغلّين حلمك بإفراط، بل لنذكر قول المولى: «مَا أَنْتَ أَصْبَحْتَ مَعَافِي؛ فَلَا تُذَنْبَنَّ مِنَ الْأَنْ، حَتَّى لا يُصِيبَكَ مَا هُوَ أَسْوَى».

هذه الحصافة كلها هم يحاولون قتلها، عندما يقولون: «مِنَ السَّمَاءِ يَأْتِي سَبُبُ الْإِثْمِ الْمُحْتَومُ» و«الرَّبُّهُ وَيُؤْسُ فَعَلَتْ هَذَا أَوْ فَعَلَهُ إِلَهُ سَاتُورُزُؤُسُ، أَوِ إِلَهُ مَارِسُ، بِالْطَّبِيعِ كَيْ يَتَزَهَّوَا إِلَّا نَسْوَنَّ عَنِ الذَّنْبِ، وَهُوَ لَحْمٌ وَعَنْ ذُو صَلْفٍ، وَكَيْ يَجْعَلُوَا

من جهة أخرى خالق السماء والكواكب ومسترها هو المذنب. ومن عساه يكون إن لم تكن أنت إلهنا، عنوية العدل ومسئلته، الذي تعيد «لِكُلّ واحد حساب آثاره»، ولا تزدرى «القلب المنسحق الذليل»؟

5. كان في ذلك الزمان امرؤ أريب (⁽¹⁾ uir sagax = homme de grand jugement) خبير جداً بفن الطب ومشهور للغاية فيه، وكان قد وضع بيده ذلك الناج الخاص بالمناسفة على رأسى المريض، فعل ذلك بوصفه واليا⁽²⁾ (proconsul) لا بوصفه طبيباً. إذ أنت مداوى ذلك المرض، لأنك «تصدى للمُتكترين»، وتهب من جهة أخرى نعمتك للمتواضعين». ولكن هل تخليت أيضاً عن أي شيء ما لذلك الشيخ، أم هل امتنعت عن مداواة روحي؟

كنت مواطباً عليه، متعلقاً به تعلقاً شديداً، لأنني أصبحت أكثر معاشرة له ولخطبه – إذ كانت خطبها عذبة دون تكلف في اللفظ، وكان فكره الثاقب يجعلها رائقة، جمة الفوائد – وعندما عرف من محادثتي أنني كنت مولعاً بكتب الطوالي، عرض عليّ بلطف أبيه، أن أعرض عنها وألا أنفق سدى على تلك التفاهات العناة والعمل الضروريين للأشياء المفيدة، قائلاً إنه قد تعلم أيضاً تلك المواد، إذ كان يريد في أولى سنين عمره Hippocraten = Hippocrate)، فهو يستطيع أيضاً أن يفهم تلك المؤلفات : ومع ذلك فهو لم يعتنق الطب من بعد ما تخلى عن تلك الكتب إلا لأنه اكتشف أنها افتراء محسن، وأن المرء الوقور لا يقبل الارتزاق بمخادعة الناس. وأضاف قائلاً : «أنت فيما أنك تملك الفصاحة التي تكسب بها رزقك بين الناس، فإنك تقبل على هذا البهتان بداعف الفضول، لا بداع الحاجة المادية. لذا عليك بالأحرى أن تصدقني في ذلك الفن أنا الذي

(1) «لن يذكر أوغستينوس اسم هذا الرجل الأريب إلا في موضع لاحق (8, VI, 8). وهذا الأريب Vindicianus و «فندسييانوس» Lentiniens. نقلًا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 69 من المرجع السابق.

(2) هو اللقب الرسمي الذي كان يحمله "سالوست" Salluste في بلاد إفريقيا Afrika Noua سنة 46 ق.م، وفي بلاد يوغرتا حيث استطاع أن يجمع قدرًا هاماً من الوثائق الجمة الفائدة على حد قول Jean BAYET في كتابه "الأدب اللاتيني" ص 170 Littérature Latine, Collection U, (.) chez A. COLIN, 1965, Paris

(3) «الطيب اليوناني الشهير، من أطباء القرن الخامس ق.م». نقلًا عن الملاحظة عدد 2 في هامش الصفحة 69 من المرجع السابق.

اجتهدت في تعلمه على الوجه الأكمل، حتى أردت العيش منه فقط». وعندما سأله عن السبب الذي يجعل الكثير من النتوات فيه تصح وتصدق، أجاب هو، كما استطاع، بأن قوة الصدفة الموزعة في كل أرجاء الطبيعة تفعل ذلك. فلو تأمل متأمل صدفة في صفحة من صفحات أي شاعر يتغنى بموضوع مختلف اختلافاً تماماً ذي مشاغل بعيدة، لبرز بيت يناسب القضية مناسبة عجيبة. لذا ليس من العجيب، وفقاً لغريزة علية، أن تعمد الروح البشرية، وهي تجهل ما يقع في صلبها بالاتفاق لا بالمنهج، إلى أن تُتصح بشيء ما يكون متألفاً مع أسباب السائل وأفعاله.

6. وذلك لعمرى ما اهتممت لي به لدى ذلك الرجل أو بتوسطه، وما كنت أطلبه بنفسي من بعد لمسيرتي الشخصية، خطّطته في ذاكرتى. أما آنذاك فلا هو ولا يُنْهَى بِوُسْعِ الْحَمْيمِ جدًا عندي، الشاب الأحسن والأنقى، الساخر كلياً بذلك الفن، فـ التنجيم، استطاعاً أن يُقنعني بالتخلي عنه، حيث أن سلطة المؤلفين بالذات كانت تؤثّر في أكثر منهما، ولم أكن قد وجدت بعد أية وثيقة ثابتة مهما كانت، كما كنت أبحث عنها، قد يتضح لي بها دون لبس، أنّ ما يقوله المنتجمون المستشارون ويصدق، يقولونه من باب الصدفة أو الاتفاق، لا طبقاً لفن رصد الكواكب.

7. IV. في تلك السنين وفي تلك الفترة الأولى التي كنت ابتدأت فيها التدريس في المدينة التي ولدت فيها كانت قد جمعتني زمالة الدراسة بصديق عزيز للغاية، له عمرى ورائع مثلّى في ريعان الفتّة. كان قد نما معي طفلاً، وكنا قد ذهبنا سوية إلى المدرسة، ولعبنا سوية، لكنه لم يكن بعد ذلك الصديق الذي أصبح لي في زمن لاحق. ولعمرى حتى في الزمن اللاحق لم تكن صداقتنا الصدقة الحق، لأنّه لا صدقة حق إلا التي تعقدّها أنت بين المرتبطين إليك بالمحبة الموزعة «في قلوبنا بتوسط الروح القدس، الذي وُهِبَ لَنَا». غير أنها مع ذلك كانت عذبة جداً، حامية بحرارة ذوقنا المتماثلين. وكانت قد حولته عن العقيدة الحق التي لم تكن مراهقته تشهده إليها شدّاً، إلى الأساطير والخرافات المفسدة التي كانت أتّي بسببها تتحبّب على. لقد كان فكر ذلك الرجل يسير رفقة روحي في الضلال، لم تكن وروحي تحتمل التخلّي عنه. وهذا أنت المهدّد لظهور الفارزين منك، يا إله كل ثأر ومنبع الشفقات معاً، أنت الذي تديرنا نحوك بصور عجيبة، ها أنت حذفَ الإنسان من هذه الحياة، وإن قضى أقلّ من الحول في صداقتى العذبة إلى أكثر من كل عذوبات تلك الفترة من حياتي.

8. من الذي يحصي وحده في ذاته وحدما مدائحك التي جربها؟ ما فعلت آنذاك،

يا إلهي، وكم هي لجج أحکامك غير المسبرة؟ بينما كان ذلك الصديق متبعا طريعاً الحتمي، اضطجع طويلا بلا شعور في عرق الموت، وبما أنه كان ميؤوسا منه، تعمدَ في الغيوبية (*nesciens = à son insu*)^(١)، ولم أكن منشغلًا بذلك، بل كنتُ أحسب أن روحه تحتفظ بالأخرى بما كانت قد تقبلته متى، لا بما كان قد وقع فوق جسد غير واعٍ. لكنَّ الأمر كان مختلفاً جداً. فقد استعاد قواه وتعافي، وحالما استطاعت أن تتحادث معه، وقد استطاعت ذلك بسرعة حالما استطاعه هو، إذ لم أكن أبتعد عنه قيداً نملة، وكنا متعلقين الواحد بالآخر تعلقاً شديداً، حاولتُ أن أداعبه، كما لو أنه كان يداعبني في التعميد (*baptismum = baptême*) الذي كان قد تقبله في غيوبية كاملة عقلاً وحشاً. لكنه كان مع ذلك يعلم بعدَ أن تقبله. لكن، ما هو يفزع مني كما لو كنتُ عدواً ويتهمني في صراحة غريبة وفجتية، أن أكفر عن مثل هذه الأقوال إن كنتُ أريد أن أكون صديقه. أما أنا فقد انتابني الذهول والاضطراب، وتمالكت مشاعري إلى أن يتعافى أولاً ويكون بالصحة والعافية مؤهلاً لأن أفعل به ما أشاء. لكنه انتزع من جنوني، حتى يحفظَ لديك لشلواني : بعد أيام قليلة وفي مدة غيابي، عاودته الحتمي وفارق الحياة.

9. ادلهَمْ قلبي بتلك الفاجعة، فكان الموت مائلاً في كل ما كنتُ ألمحه. وكان في الوطن عذاب وفي منزل الوالدين شقاء مدهش، وكل ما كنا تشاركنا فيه، كان قد تحولَ بعده إلى معاناة مهولة. كانت عيناي تطلبانه فلا تظفران به؛ وكانت أكره كل الأشياء، لأنها لا تضممه ولا تقدر أن تقول لي : «ها هو آت»، تماماً كما كانت تفعل في حياته عندما كان يتغيب. أصبحتُ أمثل لنفسي ذاتها إشكالية كبيرة، وكانت أسأل روحي لم كانت حزينة ولم كنتُ مضطرباً للغاية من جرائها، ولم تكن هي تعرف كيف تجيبني. ولما كنتُ أقول : «ليكنْ أَمْلِكِ في الإِلَهِ»، كانت لا تطبع، وكانت محققة، لأنَّ ذلك الصديق العزيز جداً الذي فقدته كان رجلاً أصدق وأحسن من الطيف الذي كنتُ أمرها بأن تأملَ فيه. كان الدمع وحده عذباً إلي، وكان قد خلف صديقي في ملأ ذكري وحل محله.

7. والأآن، مولاً، كل هذا راح وانقضى، ومع مر الزمان جرجي خفت والنأم. فهل لي أن أتعلم من لدنك، أنت الحق، وأن أقرب من وجهك آذان قلبي كي تقول لي : لم يكون الدمع حلواً للبؤساء؟ أم أنت، وإن كنتَ حاضراً في كل مكان، قد أعرضت

(١) بيرر أوغستينوس هذه العادة (في موضع آخر) يقوله : «وكان الأطفال يُعمدون قبل أن يُؤدو أية إشارة إلى ما يريدون». المرجع السابق من 71 الملاحظة عدد 1.

عن بؤسنا، وأنت باق في ذاتك، في حين أننا نتارجح في مهب تجاربنا؟ ومع ذلك، لم نكن نستطيع أن نرفع بكاءنا لأذنيك، لما بقي شيء من أملنا. كيف إذن تُقطفُ الشمرة اللذيدة من مرارة الحياة؟ كيف تقطف من الحسرة والتحبيب والتاؤه والنواح؟ أم هل ما يحلو فيها هو أننا نأمل أن تصفي إلينا؟ هذا ثابت في دعواتنا، لأنها تتضمن الرغبة في الوصول إليك. ولكن هل هو أيضاً في الخسارة والرزاية اللتين كنت آنذاك مرهقاً بهما؟ إذ لم أكن أمل أن ينبعث هو، أو لم أكن أطلب ذلك بدموعي، بل كنت أتألم وأبكي فقط. فقد كنت بائساً، وكانت قد فقدت فرحتي. أم هل البكاء شيءٌ مرت، وبالنظر إلى الاشجار من الأشياء التي كنا قد تمتعنا بها سابقاً، وإلى التغور منها في هذا الوقت، فهو يلذ لنا مع ذلك؟

11.VI ولكن لم أقول هذه الأقوال؟ فلات الآن حين تسائل، بل حين إقرار واعتراف. كنت بائساً، وبائساً هو كل فكر مغلل بحب الأشياء الفانية، يتمزق، عندما يفقدوها، وعند ذلك يشعر ببؤسه الذي كان به بائساً كذلك قبل أن يفقدها. هكذا كنت أنا في تلك الفترة، باكيا بكل مرارة وساكاً في «المرارة». هكذا كنت بائساً، وكانت أحسب حياتي البائسة ذاتها أغلى على من ذلك الصديق.

كنت أريد تغييرها، ومع ذلك لم أكن أريد أن أفقد أكثر منه، ولا أدرى هل كنت أقبل، ولو لفائدة، أن أكون كما يذكر عن «أورستاس» و«بيلادس»، إن لم يكن ذلك من الأساطير، من أنهما كانا يريدان أن يموتا معاً الواحد للآخر، لأن الفراق كان بالنسبة إليهماأسوء من الموت. إلا أنني لا أدرى أي شعور مختلف جداً عن ذلك الشعور كان قد هاج في، فقد اجتمع على تفريز من العيش ثقيل جداً وخوف من الموت. أعتقد أني، بقدر ما كنت أحبه أكثر، كنت أكره أكثر وأخاف الموت الذي انتزعه مني، كأبغض عدو، على أهبة إفشاء جميع الناس فجأة، بما أنه استطاع ذلك معه. هكذا كنت تماماً حسب ما أتذكره.

هاك قلبي، يا إلهي، هاك طويته؛ انظر في ما أتذكره، يا أملِي، أنت الذي تطهرني من دنس مثل هذه العواطف، محولاً عيني تجاهك، ومحللاً قدمي من ربقةهما. إذ كنت أتعجب من حياة كلبني الفناء الآخرين، بما أن ذلك الذي كنت قد أحبيته كما لو كان لن يموت، كان قد مات، وكانت أتعجب أكثر من حياتي، أنا الذي كنت أناه الآخر (*ille alter = un autre lui – même*)، وهو ميت. لقد صدق الشاعر الذي قال عن صديقه: هو «نصف روحي». نعم، لقد أحسست أن روحي وروحه كانتا روحانة واحدة

في جسمين، ولهذا كانت الحياة عندي فظيعة لأنني كنت أرفض أن أحيا مشطوراً، ولهذا
لعلني كنت أخاف أن يكون موتي الموت الكلّي لمن كنت قد أحببته كثيراً.

VII. 12. يا للجنون الذي لا يعرف كيف يحب الناس الناس حتّى إنسانياً باللإنسان
المعتوه المفترط في الصبر على إنسانيته! ذلك ما كنت أنا آنذاك. لذلك كنت أتحمّسُ،
كنت أتنهّد، كنت أبكي، كنت مضطرباً، ولم تكن لي راحة البال ولا هدف. إذ كنتُ
أحمل روحي الممزقة الدامية التي كانت لا ت يريد أن أحملها، ولم أكن أجد أين أضعها.
لم تكن ترتاح في الغابات الفتّانة ولا في الألعاب والأغاني ولا في الأماكن ذات
الروائح الشذية ولا في المآدب الفاخرة، ولا في ملاذ المخدع والفراش ولا حتّى في
الكتب والأشعار. كانت جميعها تُفقرني، حتّى النور ذاته، وكل ما لم يكن ما كانه هو،
كان كريهاً منفراً ما عدا الأنين والنحيب؛ فقد كنت أجد فيهما فقط شيئاً من الرّاحة.
وبمجرد أن أنتزع منها روحـي، أشعر بحمل ثقيل من البوس يُثقلها.

مولاي، كان عليّ أن أرفع روحـي إليك كي أشفيها، كنت أعلم ذلك، لكن لم أكن
أريدـه ولا أقدرـ عليهـ. كلـما فـكرـتـ فـيـكـ لمـ تـكـنـ بـالـسـبـةـ إـلـيـ شـيـئـاـ مـيـنـاـ وـلـاـ صـلـبـاـ. لمـ تـكـنـ
أنتـ بـالـذـاتـ، بلـ كـانـ شـبـحاـ باـطـلاـ، وـخـطـيـهـ هوـ الـذـيـ كـانـ إـلـهـيـ. لـمـ كـنـتـ أـحـاـولـ أـنـ
أـوـدـعـ فـيـ رـوـحـيـ، حتـىـ تـرـتـاحـ، كـانـ تـرـتـلـقـ فـيـ الفـرـاغـ وـتـسـقطـ فـوـقـيـ مـنـ جـدـيدـ، وـكـنـتـ
قـدـ بـقـيـتـ أـنـاـ بـمـثـاـةـ مـكـانـ تـعـاسـةـ، حـيـثـ مـاـ كـانـ لـيـكـوـنـ فـيـ مـقـرـيـ أـوـ عـنـهـ اـبـتـعـادـيـ. فـأـيـنـ
كـانـ قـلـبـيـ لـيـهـرـبـ مـنـ قـلـبـيـ؟ أـيـنـ كـنـتـ لـأـهـرـبـ مـنـ نـفـسـيـ ذـاتـهـ؟ وـأـيـنـ المـفـرـ مـنـ نـفـسـيـ
الـتـيـ تـلـاحـقـنـيـ؟

ومع ذلك هربت من الوطن، فعيناي تطلبانه أقل في المكان الذي لم تعودا رؤيته
فيه، ومن بلدة «تاجاسته» جئت إلى قرطاجة⁽¹⁾.

VIII. 13. الساعات ليست ساعات فراغ، وهي لا تمر على احساساتنا دون أثر،
بل تفعل في القلب أفعالاً عجيبة. فها هي تأتي وتنقضي من يوم إلى آخر، وفي مجدها
وانقضائها كانت تغرس في نفسي آمالاً أخرى وذكريات أخرى، وتدرّيّجياً كانت
ترقّمها بأنواع الملاذ القديمة التي كان يزول أمامها ألمي المذكور؛ إلا أنه الحق يقال،

(1) في سنة 376 م مكّن الفصل الثاني من الكتاب الثاني "الرّد على الأكاديميين" *Contra Academicos* من إكمال هذه المعلومة الوجيزـةـ. تـجـدـ فـيـ هـذـاـ الكـتـابـ أـنـ أوـغـسـتـينـوسـ لمـ يـلـعـنـ
عـنـ نـيـتـهـ الرـحـيلـ إـلـاـ لـصـدـيقـهـ رـامـيـانـوسـ، وـتـلـقـيـهـ مـنـ صـدـيقـهـ السـخـيـ ماـ سـيـحـاجـهـ فـيـ السـفـرـ.ـ
الـمـرـجـعـ السـابـقـ،ـ الـمـلـاحـظـةـ عـدـدـ 1ـ يـهـامـشـ الصـفـحةـ 75ـ.

إن لم تكن تبقيه آلام أخرى، فإنه كان يتبعه أسباب آلام أخرى. فمن أين ولجمي ذلك الألم بسهولة فائقة وفي الأعماق، لو لم يكن لأنني قد كنت ثرث على التراب روحي، متعلقاً بپنسان فان، كما لو كان غير فان؟

كان لعمري يعزّني بالخصوص وينعشني سلوان الأصدقاء الآخرين الذين كنت أشار لهم حبّ ما كنت أحبه بدلاً منك : أعني تلك الأسطورة الكبيرة وذلك الكذب الطويل اللذين كانوا، بالاحتياط المفاسد لك، ينخران عقلنا المتآكل بالفضول. لكنّ تلك الأسطورة بالنسبة إلى لم تكن لتموت، ولو مات لها أحد أصدقائي . كان بيننا أشياء أخرى تجذبني أكثر : كان بيننا الحديث والمؤانسة والتمازح والتعاطف والتلاطف والمشاركة في قراءة كتبٍ عذبة والمداعبة المتبادلة والتجليل المتبادل ، وكان بيننا الخلاف أحياناً دون بغض ، كما يفعل الإنسان مع نفسه ، وعند الاختلافات النادرة جداً يكون النقاش أباizer للاتفاق في أغلب الأراء ، وكان بيننا تحصيل المعرفة بأن يكون تارة هو المعلم وأنا المتعلم ، وأخرى يكون العكس ، وكان عناء الشوق للغائبين ، واستقبال القادمين بالفرح والتهليل ، وبهذه الإشارات ومثيلاتها النابعة من قلب المتحابين ، والتي يشي عنها الوجه واللسان والعينان وألف إشارة رائفة للغاية ، وهي بمثابة الأطعمة تغذّي النفوس وتجعل من الجماعة فرداً واحداً.

IX.14. هذا هو ما نحبه في الأصدقاء ، ونحبه جباراً يجعل ضميرنا يشعر بالذنب عندما لا نحب الذي يحبك وعندما لا نبادر الحب بالحب فلا نطالب الشخص الذي نحبه إلا بأعراض التعاطف علينا على الحب . هذا منبع الأسى ، عند موت صديق ما ، ومصدر تلك الظلمات ، ظلمات الألم ، ويتحول العذوبة مرارة يصبح القلب غارقاً في الدموع ، ويسبب فقدان حياة الذين يموتون يصبح الأحياء أمواتاً.

ما أسعد من يحبك ، ومن يحب فيك صديقه كما يحب عدوه من أجل حبك ! فذلك فقط لا يفقد أيّ عزيز عليه ، من يكون الجميع أعزاء عليه ، في ذلك الذي لا يُفقد . ومن يكون هذا سوى إلهنا ، الإله الذي « خلق السماء والأرض » و « ملأهما ، لأنّه خلقهما مالنا إيهما ؟ لا أحد يفقدك إلا الذي يتركك ، وعندما يتركك ، إلى أين يذهب وإلى أين يفتر ، إن لم يكن من طيبك إلى غضبك ؟ فain لا يجد قانونك في عقابه ؟ و « قانونك هو الحق » و « الحق هو أنت ».

X.15. يا إله الفضائل ، « التفت علينا وأظهرنّ محياك ، وسكنوّنا ناجين » إذ مهما كانت

الجهة التي تلتفت إليها روحُ الإنسان، فهي للآلام تتتصب في موضع آخر غيرك، ولن تتتصب في الجمال خارجاً عنك وعن ذاتها. إلا أن هذا الجمال ما كان ليكون، لو لم يصدر عنك. فهو ينشأ ويأفلُ، وفي النشأة كأني به يبدأ الوجود وينمو حتى يبلغ الكمال، فإذا بلغ الكمال شاخ ومات. وهي لا تشيخ كلها، لكن الموت يدركها كلها. لذلك عندما تولد وتأخذ طريقها إلى الوجود، كلما زادت سرعةُ سعيها إلى الوجود، زاد تهافتها نحو الفناء. هكذا كان دأبهَا. ذاك كل ما وعبتها إياه لأنها أجزاءٌ أشياء لا توجد كلها معاً في آن واحد، لكنها بالاضمحلال والتالي تصنع كلها المجموع الذي هي أجزاؤه، تماماً كما يتواصل خطابنا بواسطة نطق الألفاظ أيضاً. فلن يكون منها خطاب تام لو لم تضمحل كلَّ كلمة، بعد أن تلعب دورها، كي ترك المكان لكلمة أخرى.

ولتحمد روحي على هذا الجمال، يا إلهي، يا «خالق الكل»، لكن أود آلا تلتصق به بفعل دبوقاء الحب عبر حواسِ الجسم. فهو يذهب حيث كان يذهبُ، حتى يفني، ويمزق الروح بشهوات طاغونية، لأنها هي ذاتها هي التي ت يريد أن تكون في الأشياء التي تحبها وتحب أن تسكن فيها، لكنها لا تجد أين تسكن فيها، لأنها لا مستقر لها، بل هي في تدفق ومد دائم. من يقدر أن يتبعها بالحس الجسدي؟ أو من يمسكها، وإن كانت تحت تصرفه؟ فالحسن الجسدي بطيءٍ، لأنه حسن جسدي: إذ إنَّه محدود بطبعه الخاص. هو يكفي لـ«ما سواه»، ولما جعل له، أما لهذا فلا يكفي، أي إنَّه لا يكفي لـ«صد العبور السريع من بداية معينة إلى نهاية معينة». ففي كلمتك تسمع مخلوقاتك ما يأتي: «من هنا إلى هناك».

16. لا تكوني تافهة، يا روحِي، ولا تجعلني مسامع القلب صماء بسبب صخب تهاشك. اسمعي، أنتِ أيضاً، الكلمة الإلهية تناديك بأن تعودي، فهنا مكان السكون غير المضطرب، حيث لا يهجرُ الحب، إن لم يهجر هو بالذات. انظرِي إلى هذه الأشياء تمضي لتحل محلها أخرى، تتبعها لت تكونَ من جميع أجزائها أقلَّ مجموع ممكن. «وهل أنا ماض إلى مكان آخر؟» ذاك ما قالت الكلمة الإله. فيه اجعلي مقراً لدارك، اعهدِي له فيه بكلِّ ما يصلكِ به، يا روحِي المتعبة بالأكاذيب على أقل تقدير. اعهدِي للحق كلَّ ما يأتيك من الحق، ولن تخسرِي شيئاً، وستزهُر من جديدٍ أمكنة التعمق فيك، وسوف تُشفئَن من كلِّ أسلوبيك، وكلَّ ما فيك من حلٍ سوف يُصلحُ ويُجددُ ويُوثقُ إليك، بحيث لن ينلوك إلى حيث يتزل، بل سيفقِي معيَ على الدوام، قرب الإله الدائم البقاء الذيَّوم.

17. لم، وأنتِ منحرفة، تتبعين جسدك؟ ليتَبعك هو، وأنتِ مهتدية! كلَّ ما تحسينه

بواسطته ليس إلا عنصرا جزئيا، وتجهيلين الكل الذي منه تتكون تلك الأجزاء، وهي لا تقطع مع ذلك عن إماعتك. ولكن لو كان حتى الجسدي مؤهلا لتضمن الكل، ولم يتقبل، كجزء من المجموع ومن أجل عقابك، الشكل المضبوط، لكنك تريدين أن يمر كل ما يوجد في الحاضر، حتى يروق لك الكل أكثر. إذ وما نقوله أيضا، تسمعنيه بنفس الحسن الجسدي، ولا تريدين بالخصوص أن تتوقف المقاطع اللفظية (syllabas = les syllables)، بل أن تطير حتى تفسح المجال للأخريات، وحتى تسمعي الكل. هكذا دوما في كل الأجزاء التي تتألف منها آية وحدة والتي ليست دوما معا في ما يتألف منها: الكل يروق أكثر من الأجزاء المفردة، لو أمكن أن يدرك كلها. لكنه أحسن بكثير منه، ذلك الذي خلق الكل وهو إلهنا، وهو لا يمضي، لأن لا شيء يتبعه.

XII. 18. إن أعجبتِ الأجسام، فاحمدي الإله عليها، وأعيدي حبك إلى صانعها، حتى لا يشمئز منك بسبب تلك التي أعجبتِك. وإن أعجبتِك الأرواح، فأحببها في الإله، لأنها هي أيضا متغيرة ولا تعرف الاستقرار إلا فيه: وإن هي زائلة فانية. أحبتها إذن فيه، وشدي إليه معلمك التي تقدرين عليها، وقولي لها: «النجبة، ولنشقة هو الذي خلق تلك الأشياء وليس بالبعيد، لأنه لم يمض بعد الفراغ منها، بل هي الصادرة عنه توجد فيه، فيها هو يوجد حيث يوجد طعم الحق» هو في أعماق القلب، لكن القلب تاه عنه. عودوا، أيها المذنبون، إلى قلوبكم، والتسمحوا بالذي خلقكم. ابقوا معه وسوف تستقررون، استريحوا فيه واستستريحون. لم تقصدون الأوغار؟ أين أنتم ذاهبون؟ الخيرُ الذي تحببونه صادر عنه: ولكن، بقدر ما يعود إليه، فهو طيب عذب، بل سوف يكونُ حقاً مُرّاً، وهو يتركُ الإله ويُحبط باطلًا كلَّ ما يصدرُ عنه. لم تسلكون دوما ودون توقف المسالك الصعبة الوعرة؟ لا راحةً حيث تبحثون عنها. ابحثوا عما تبحثون عنه، لكنه لا يوجد حيث تبحثون عنه. إنكم تبحثون عن الحياة السعيدة في إقليم الموت: «ليست هنالك! فكيف تكونُ الحياة سعيدة، حيث لا حياة؟».

19. ونزل إلينا، هو حياتنا بالذات، وتحمل موتنا وقتله بوفرة حياته، وقصف مناديا، حتى نعود من هنا إليه في ذلك المختبأ الذي أثنا منه أولاً بنفسه في بطن العذراء، حيث وقع له العرس مع الخلقة الإنسانية، وهي لحم فان، حتى لا يكون دوما فانيا، ومن هناك «كالعربيس الخارج من غرفته، وثبت عملاً مستعداً للركض في الطريق»⁽¹⁾. لم

(1) uelut sponsus procedens de thalamo suo exultauit ut gigans ad currendam ... = كالعربيس الخارج من غرفته وثبت عملاً مستعداً للركض في الطريق. المرجع السابق

يُكَنْ يَعْرِفُ الْإِرْجَاءَ، بَلْ رَكْضٌ مَنَادِيَا بِالْأَقْوَالِ، بِالْأَفْعَالِ، بِالْمَوْتِ، بِالْحَيَاةِ، بِالتَّزُولِ،
بِالصَّعُودِ، مَنَادِيَا كَيْ نَعُودُ إِلَيْهِ. وَغَابَ عَنِّي أَعْيَتِنَا، حَتَّى نَعُودَ إِلَى الْقَلْبِ وَنَجْدَهُ. فَقَدْ
ابْتَعَدَ، وَهَا هُوَ هُنَا. رَفِضَ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا طَوْبِيَا، وَلَمْ يَتَرَكَنَا أَيْضًا. لَقَدْ ابْتَعَدَ إِلَى هَنَاكَ،
مِنْ حِيثُ لَمْ يَرْحِلْ قَطْ، لَأَنَّ «الْعَالَمَ خُلِقَ مِنْ خَلْقِهِ» وَ«كَانَ فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَأَتَى إِلَى هَذَا
الْعَالَمِ لِيُنْتَجِي الْأَثْمِينَ». إِلَيْهِ تَعْرِفُ رُوحِي، وَيُشَفِّيَهَا، «لَأَنَّهَا أَثْمَةٌ تَجَاهِهِ». «أَبْنَاءُ الْبَشَرِ،
حَتَّى مَتَى تَكُونُ قُلُوبُكُمْ ثَقِيلَةً؟» هَلَّا تَرِيدُونَ، بَعْدَ نَزْوَلِ الْحَيَاةِ بَيْنَكُمْ، الصَّعُودَ وَالْحَيَاةَ
أَيْضًا؟ وَلَكُنْ إِلَى أَيْنَ تَصْعُدُونَ، وَأَتُنْتُ فِي الْعُلُوِّ، قَدْ وَضَعْتُمْ «فِي السَّمَاءِ أَفْوَاهَكُمْ؟»
«اَنْزَلُوا كَيْ تَصْعُدُوا، كَيْ تَصْعُدُوا إِلَى الإِلَهِ». فَقَدْ سَقَطْتُمْ أَثْنَاءَ صَعُودِكُمْ ضَدَّ الإِلَهِ».
قَلْ لَهُمْ هَذَا، كَيْ يَكُونُوا فِي «وَادِي الْبَكَاءِ الْمُنْخَفَضِ»، وَهُكُنْذَا جُرْهُمْ مَعَكُمْ إِلَى
الْإِلَهِ، لَأَنَّكُمْ تَقُولُهُ لَهُمْ وَفَقْ رُوحَهُ، إِذَا قَلَتْهُ بَنَارُ الْمَحْبَةِ الْحَارَةِ.

20.XIII. لَمْ أَكُنْ آنَذَكَ أَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَكُنْتُ أَحْبَبُ أَشْيَاءَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
الْجَمِيلَةِ، وَكُنْتُ أَمْشِي إِلَى الْهَاوِيَةِ، وَكُنْتُ أَقُولُ لِأَصْدِقَائِي : «أَنْجَبْتُ مَا هُوَ غَيْرُ جَمِيلٍ؟
إِذْنَ فَمَا هُوَ الشَّيْءُ الْجَمِيلُ؟ وَمَا هُوَ الْجَمَالُ؟ مَا الَّذِي يَجْلِبُنَا وَيَسْتَمِلُنَا فِي الْأَشْيَاءِ
الَّتِي نَحْبُهَا؟ إِذْلُو لَمْ تَكُنْ بَهَا فَتْنَةٌ وَرُوعَةٌ، لَمْ حَرَّكْنَا نَحْوَهَا بِأَيَّةٍ صَفَةٍ». وَكُنْتُ أَلَاحِظُ
وَأُرَى أَنَّ فِي الْأَجْسَامِ ذَاتِهَا مَا هُوَ كَانَهُ الْكُلُّ، وَلَذِلِكَ فَهُوَ جَمِيلٌ، وَمَا هُوَ مِنْ جَهَةٍ
ثَانِيَةٌ ذُو خَاصِيَّةٍ تَجْعَلُهُ مِنْ صَنْفِ الْمُلَاطِمِ، لَأَنَّهُ يَتَسَاوِي تَامًا مَعَ شَيْءٍ مَا، كَمَا يَتَلَاءِمُ
جَزْءٌ مِنَ الْجَسْمِ مَعَ مَجْمُوعَهُ، أَوَ الْحَذَاءُ مَعَ الرَّجُلِ وَهُلْمُ جَرَأًا. وَهَذِهِ الْمَلَاحِظَةُ نَبَعَتْ
فِي فَكْرِي مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِي، إِذْ كَتَبْتُ كِتَابًا عَنْ «الْجَمِيلِ وَالْمُلَاطِمِ» (De pulchro et
apto = le Beau et le Convenable) فِي مَقَالَيْنِ، أَطْنَ، أَوْ ثَلَاثَةَ؛ أَنْتَ أَعْلَمُ بِذَلِكِ، يَا
إِلَهِي، فَالْأَمْرُ خَرَجَ مِنْ ذَا كَرْتِي. وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُهُ، بَلْ فَقَدْنَاهُ وَلَا نَدْرِي كَيْفَ^(*).

21.XIV. فَمَا الَّذِي دَفَعَنِي، مَوْلَايَ إِلَهِي، إِلَى أَنْ أَهْدِيَ ذَلِكَ الْكِتَابَ إِلَى
«هِيَرُوسَ» الْخَطِيبِ بِمَدِينَةِ رُومَا؟ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ وَلَا رَأَيْتُهُ رَؤْيَةَ الْعَيْنِ، لَكِنِي كُنْتُ قَدْ

= الكتاب الرابع، الملاحظة 1 هامش الصفحة 80. وهذا المقطع من الإصلاح 18 أعاد نظمه

القديس "أبرواز" في أبيات لا بد أن أوغستوس كان يحفظها عن ظهر قلب.

(1) أورد "ب. دي لا بريول" P. DE LABRIOLLE في كتابه "أسباب تأثير Hiéros" على صفحه 81 أن هذا الكتاب مُهَدِّي إلى "هيروس" (Hiéros)، وقد وليع به أوغستينوس لأسباب تأثيره. انظر صفحه 81 من الكتاب الرابع من الجزء الأول المذكور سابقاً. وأضاف في موضع لاحق: في الهامش بالصفحة 85 من نفس الكتاب أن هذا الكتب المفقود قد ألف حوالي سنة 380م.

أحببت الرجل بسبب شهرة العالم اللامع التي كان يحظى بها، وقد كنت سمعت بعض أقواله، وكانت قد أعجبتني، لكنه رجل، راقٌ لي، بالأحرى، لأنَّه كان يعجب الآخرين، وكانوا يمدحونه ويغرون في مدحه، متذللين بكون الرجل السوري الأصل (Syro un Syrien =) والعالم بالخطابة اليونانية، قد بلغ في الخطابة اللاتينية مستوى باهراً أيضاً، ويكونه علامة في المواضيع المتعلقة بدراسة الحكمة⁽¹⁾. يُمدح الرجل، ويحبه الناس، ولو في غيابه. فهل يدخل ذلك الحب من فم المادح إلى قلب السامِع؟ كلاً؛ بل يتقد حب هذا بحب ذاك. فمن هنا يُحب من يُمدح، عندما نعتقد أن إطراة المادح غير صادر عن قلب كاذب، أي عندما يكون المحب هو الذي يُمدح.

22. فهكذا كنت آنذاك أحب الناس اعتباراً لحكم الناس لا اعتباراً لحكِّيمك، يا إلهي، أنت الذي لا يضلُّ فيك إنسان.

ولكن لم لا يُمدح «هيروسُ» كما يمدح سائق عربة شهير، أو كفتاخص ذات صيته بين الجماهير، بل يُمدح على نهج آخر وبالوقار، وكما كنتُ أريدُ، لو مدحني الناس، أنْ أُمدح؟

أما أنا فما كنت أرضي أن يمدحني الناس وأن يحبوني كما يُمدح الممثلون أو يُحبّتو، غير أنِّي لو كنت مدحthem بمنفسي وأحبّتهم، لاخترتُ الخمول عوضاً عن الشهرة، وفضلت أن أعامل بالبغضاء على أن أحبَّ مثل هذا الحب. أين توزع في الروح الواحدة أثقال هذه العواطف المتنوعة المتباينة؟ وكيف يكون أن أحب عند غيري، ما كنت بالعكس لا أكرهه ولا أرفضه، لو لم أكن أبغضه، والحال أن كلينا إنسان؟ ذلك أنَّ الذي يحب الجواد المطهوم يرفض أن يكون ذلك الحيوان، وإن كان ذلك ممكناً. لكن هذا لا يصدق على الممثل الذي هو شريك في طبيعتنا. إذن هل أحب عند غيري ما أكره أن أكونه، وإن كنت إنساناً؟ هاوية سُجْنِيَّة هو الإنسان الذي أحصيَّ عدد شعره أيضاً، يا مولاي، ولا يفوتك أن تنقص منه شعرة واحدة: ومع ذلك فتعدد شعره أسهل من تعدد افعالاته ومشاعره.

23. أما ذلك الخطيب فكان من الصنف الذي كنت أحبه حتَّى يجعلني أريد أن أكون مثله، وكانت أتِيَّة بسبب غروري، وأموج في مهبل «كل الرياح»، وبصورة خفية جداً «كنت تقوُّدي». أتَى لي أن أُفَرِّ لك بوثيق، أتَى كنت قد أحببته

(1) «نفس الشهرة أكلت في نفس الفترة إلى الأثنيني "بلاديوس" Palladius في مدينة روما نفسها»، نقلًا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 82، بالمرجع السابق.

لحب المادحين له، أكثر من حبى للأشياء ذاتها التي كان يُمدح بها؟ فلو أن أولئك القوم أنفسهم انتقدوه بدل أن يمدحوه، وكانوا في انتقادهم وازدرائهم يذكرون نفس الجوانب، ما كنت لاتقد ضده وأتحسّن، وما كانت الأشياء تكون حقاً مختلفة وما كان الإنسان ذاته ليكون مختلفاً، بل لكان عواطف الساردين هي فقط المختلفة. فانظر كيف تتمدد الروح الضعيفة التي لم ترتبط بعد بالحقيقة الونقى! كما أن نسمات الألسن تنطلق من صدور من يظلون أنهم يعلمون، فهي تتقلّ وتدور، وتتعطف وتتراجع إلى الوراء، ويُحجبُ النور أمامها ولا يدركُ الحق. انظر، فإن الحق مع ذلك أمامنا بين ظاهر.

وكان الأمر بالنسبة إلى أمراً عظيماً، أن أطلع ذلك الرجل على خطابي وأعمالي: فإن استحسنها، ازدلت حماساً؛ وإن هو استهجنها، فإنه سيجرح قلبي التافه المسلوب من صلاتك. ومع ذلك فكتابي المذكور «الجميل والملائم» الذي كنت قد أهديته إليه، كان يشغل تلقائياً فكري وبالتالي، وكان إعجابي به كإعجاب من لم يجد فوقه من عجيب. 24.XV. لكن لم أكن أرى بعد في صُنعتِك صميماً هذا المنطق الأسمى، يا صاحب القدرة الكلية، أنت «الذي تفعل المعجزات وحدك»، وكان فكري يسير عبر الصور الجسدية (formas corporeas = les formes corporelles)، وكانت أحدها الجميل، بما يروق في حد ذاته، أما الملائم، فيما يتآلف فيه مع شيء ما، وكانت أثبُ ذلك وأستشهد بأمثلة جسمانية. ومررت إلى طبيعة الروح، ولم يسمح لي رأي باطل كنت أراه في الروحانيات، أن أدرك حقيقتها. وكانت تغزو عيني قوة الحق بالذات، وكانت أحيد بفكري الخافق عن الأجسمانية متوجهها إلى الخطوط والألوان والكميات الضخمة. وبما أني لم أقدر أن أراها في فكري⁽¹⁾، كنت أظن أني لا أقدر أن أرى فكري. ولما كنت أحب في الفضيلة السلم، وكانت من ناحية ثانية أكره في الرذيلة الخلاف، كنتلاحظ في الأولى الوحدة، وفي الأخرى نوعاً من الانقسام. وكان في تلك الوحدة يبدو لي العقل المنطقي موجوداً، مع طبيعتي الحق والخير المطلق، بينما كنت في بؤسي أرى في ذلك الانقسام للحياة اللامنطقية ما لا أعلم من طبيعة الشر

(1) «التحليل الذي سيقدمه أوغستينوس عن هذا الكتاب الأول ينتمي عن التأثير الذي كان للمباحث الماورائية المانوية على تفكيره». نقلًا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 83، بالمرجع السابق.

(2) «لم يكن "ماهى" ... يقول بوجود حقائق علياً». نقلًا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 84، بالمرجع السابق.

المطلق وجوهره الذي لم يكن فقط جوهرًا، بل حيَاةً بال تمام، وإن لم يكن صادراً عنك، يا إلهي، أنت «الذِي يَضْلُّ الْكُلَّ عَنْكَ»^(١).

وكنت أسمى الأول الجوهر الفردي (*monade = monadem*)، إذ إنه تصور لاجنساني، أما الثاني فهو الإثنينية (*dyade = dyadem*)، كالغضب في الجرائم واللبيدو (*libidinem = la sensualité*) في الدعارات، دون أن أفقه ما كنت أقوله. إذ لم أكن أعلم، ولم أكن قد تعلمت أن الشر ليس الجوهر، وأن فكرنا ذاته ليس الخير المطلق الثابت.

25. فكما أنتا نرتكب الجرائم، عندما تكون تلك الحركة النفسانية مصدر الاندفاع فاسدة، ويحْمِي فيها الإفراط والاضطراب، فإننا ننقاد إلى الدعارات، عندما لا تفرض النفس قيوداً تُجْبِيَ الميل التي ترثوي منها الملاذ الجسمانية، تماماً مثل الضلالات والأراء الخاطئة التي تتدنس الحياة، عندما تكون النفس العاقلة ذاتها فاسدة. هكذا كان آنذاك في نفسي التي كانت تجهل أن نوراً آخر كان لا بد أن يضئها، حتى تكون مسهمة في الحق، إذ ليست في ذاتها من طبيعة الحق، «بما أنت أنت سوف تنير مصباحي، يا مولاي يا إلهي، سوف تُنيرُ ظلماتي، ومن كمالك نحن كلنا قبلنا شيئاً. فأنت النورُ الحق، الذي يُنيرُ كل إنسان يأتي إلى هذا العالم، لأنك لا تعرف التغيير ولا الأفول الواقعي».

26. أما أنا فكنت أحارُل الارتفاع إليك، وكنت تتحيني عنك، كي أذوق الموت، بما آنَك «تتصدى للمتكبرين». ولكن هل من كبارِاء أكبر من أن أجزم، في جنون غريب، آني بالطبع ما هو أنت؟ فرغم أنني كنت متغيرة، وأنه كان من الجلي لي آني أريد أن أكون حكيمًا، بالخصوص، حتى أتحول من الأقل سوءاً إلى ما هو أحسن، كنت أفضل أيضاً مع هذا أن أتصورك متغيرة، على آلآ أكون أنا ما هو أنت^(٢). لذلك كنت تُبعدني، وتتصدى لعنادي وتشدقي، وكنت أتصور صوراً جسدية، واتّهم اللحم، وأنا لحم، ولم أكن بعد عائداً إليك، أنا «الطيف الثنائي»، وفي التيهان كنت أتّيه نحو الأشياء التي ليست فيك ولا في جسد، والتي لم يخلقها حُكْمك، بل كان غروري قد تصوّرها اعتماداً على

(1) «كان "مانِي" يقول بوجود طبيعتين...». نقلًا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 84، بالمرجع السابق.

(2) ... «me non hoc esse, quod tu es». = «قارن هذا الكلام بالملحوظة التي ذكرها أوغستينوس وأوردناها أعلاه بشأن المذهب المانوري». نقلًا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 85، بالمرجع السابق.

الجسد، وكنت أقول للصغار، أوفيائك ومواطني، الذين كنت أجهل أنني منفي بعيدا عنهم، كنت أقول لهم في ثرثرتي الخرقاء «إذن لم تخطئ الروح التي خلقها الإله؟»، وكانت أرفض أن يقال لي: «لَم يخطئ إذن الإله؟». وكان التأكيد على كون جوهرك المتغير مجبرا على الضلال، أفضل عندي من أن أقر بأن جوهرني المتغير قد انحرف تلقائيًا، وأن عقابه في ضلاله.

27. وربما كنت في السنة السادسة أو السابعة والعشرين من عمري، عندما كتبت ذلك المجلد⁽¹⁾ مقلبا في فكري أوهاما جسدية ترن في مسامع قلبي التي كنت أوجّهها، أيها الحق العذب، نحو نفسي الداخلي، مفكرا في الجميل الملائم، وراغبا في الوقوف قربك و«الاستماع إليك»، والشعور بالسرور لسماع صوتك، صوت العریس»، ولم أكن أستطيع، لأنني كنت مجرورا تجذبني إلى الخارج أصوات الخطأ، وساقطا بثقل كبرياتي إلى الحضيض، فأنت لم تكن تعطي «مسمعي سرورا ولا فرحا» و«ما كانت عظامي تُهَلَّل» لأنها «لم تعرف بعد الهوان».

28. وما كان يفديني، أن كنت قادرًا، وأنا في العشرين من عمري تقريبا، على قراءة ذلك الكتاب الأرسطي التي يسمونه «المقولات العشر» = *decem categorias*⁽²⁾ *les dix catégories* عندما وقع بين يدي وفهمته بمفردي لمجرد قراءته، كان شدقا الخطيب القرطاجي أستاذي، وأشاد الآخرين الذين كانوا يُعدّون علماء، ترن تفاصحا عند التلفظ بكلمة «المقولات»، بحيث كنت أبقى مشدوها فاغر الفم أمام شيء رباني كبير خارق للعادة؟ لقد تباحثت في شأنها، مع بعض من كانوا يقولون إنهم فهموها فهما سطحيا، رغم استعانتهم بأساتذة متبحرين جدا لا بصورة شفوية فحسب، بل برسوم كثيرة فوق التراب، لكنهم لم يقدروا أن يقولوا لي عنها غير ما كنت أنا وحدى قد تعلمته في تأملاتي الخاصة.

ويبدو لي أن هذا الكتاب كان يتحدث بوضوح كاف عن الجوادر، كالإنسان مثلا، وعما يوجد فيها من الأعراض، كالشكل الخارجي لدى الإنسان، وقامته (كذا قدما

(1) «هذا الكتيب الذي ضمّع ألف إذن سنة 380» نقلًا عن الملاحظة 2 من هامش الصفحة 85، بالمرجع السابق.

(2) حسب طبعتنا المعتمدة «أصبح كتاب المقولات لأسطر والذي ترجمه إلى اللاتينية «فيكتورينوس» Victorinus أساس تعليم المنطق في بلاد الغرب»، انظر الملاحظة 1 بهامش الصفحة 86 حيث يذكر «بيار دي لا بريول» P. DE LABRIOLLE كتاب «منكر» بلاد اليونان، «المجلد الثالث ص 42 ترجمة رaimond» REYMOND.

وأقربائه، (أخو من هو؟) وأين استقر ومتى ولد، أواقف هو أم جالس، متتعل أم مسلح، وهل هو فاعل أم منفعل، إلى غير ذلك من جميع هذه الشخصيات الموجودة في هذه الأجناس التسعة التي ذكرت عنها بعض الأمثلة، أو الموجودة في جنس الجوهر بالذات الذي يوجد فيه ما لا يحصى منها.

29. فِيمَ كَانَ هَذَا يُفِيدُنِي؟ لَمْ أَكُنْ أَجْنِي مِنْهُ إِلَّا الضَّرُّ؛ لَأَنِّي كُنْتُ أَعْتَدُ أَنْ كُلَّ مَا يُوْجَدُ يُدْرِكُ بِالْتَّمَامِ بِتِلْكَ الْمُحْمَلَاتِ الْعَشْرَةِ، فَأَحَاوَلُ فَهْمَكَ، أَنْتَ أَيْضًا، يَا إِلَهِي، الدَّائِمُ الْعَجِيبُ الْبَسَاطَةُ، كَمَا لَوْ كُنْتُ أَنْتَ كَذَلِكَ خَاصِيَّاً لِعَظَمَتِكَ أَوْ لِجَمَالِكَ، كُنْتُ أَرَاهُمَا فِيهِكَ كَمَا أَرَاهُمَا فِي جَسْمٍ مِنَ الْأَجْسَامِ وَالْحَالِ أَنْ عَظَمَتِكَ وَجَمَالَكَ هَمَا أَنْتَ بِالذَّاتِ. أَمَا الْجَسْمُ فَمَا كَانَ لِي كُونُ عَظِيمًا وَلَا جَمِيلًا، لِمَجْرِدِ كُونِهِ جَسْمًا، لَأَنَّهُ، وَإِنْ كَانَ أَقْلَى عَظَمَةً وَأَقْلَى جَمَالًا، فَهُوَ لَا يَكُونُ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا جَسْمًا؟ فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ فِيهِكَ كَانَ بَاطِلًا لَا حَقًا. كَانَ أُوهَامُ بَوْسِي لَا بِرَاهِينَ سَعادَتِكَ، كُنْتَ قَدْ أَمْرَتَ، وَذَاكَ مَا كَانَ وَاقِعًا فِي، أَنْ تَنْتَجَ الْأَرْضَ لِي «الشُوكُ وَالْعُلَيْقَ»، وَأَنْ تَحْصُلَ بِالشَّقَاءِ عَلَى خَبْزِي.

30. وَمَا كَانَ يُفِيدُنِي أَنْ قَرَأْتُ بِنَفْسِي وَبِمَفْرِدي كُلَّ مَا أَمْكَنْتِي أَنْ أَقْرَأَهُ مِنْ كِتَابِ الْفَنُونِ الَّتِي يَسْمُونَهَا الشَّرِيفَةُ، وَأَنْ أَفْهَمَهَا وَأَنَا آنذَاكَ عَبْدُ خَسِيسٍ جَدَّاً لِلشَّهْوَاتِ السَّيِّئَةِ؟ كُنْتُ أَسْرَ بِهَا، وَلَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ كَانَ يَأْتِي كُلَّ مَا فِيهَا مِنَ الْحَقِّ الثَّابِتِ، فَكَانَ ظَهْرِي مَوْجَهًا إِلَى النُّورِ، وَوَجْهِي إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَتْ مُتَارَةً بِهِ: بِحِيثُ أَنْ وَجَهِي نَفْسِهِ، الَّذِي كُنْتُ أَرَى بِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُنَبَّارَةِ، لَمْ يَكُنْ مَنَارًا. كُلُّ مَا فَهَمْتَهُ، دُونَ عَنَاءٍ كَبِيرٍ وَلَا ثَنْقَلَ عَنِ أَيِّ إِنْسَانٍ، فِي فَنَّيِ الْفَصَاحَةِ وَالْمَقَالَةِ، وَفِي قِيَاسَاتِ الْأَشْكَالِ وَالْمُوسِيقِيِّيِّ وَالْأَعْدَادِ، أَنْتَ تَعْلَمُهُ، يَا مَوْلَايَ إِلَهِي، لِأَنَّ سُرْعَةَ الْفَهْمِ وَالسِّيرِ التَّاقِبِ هُمَا هَدِيَتَانِ مِنْ لَدُنِكَ، لَكَنِي لَمْ أَكُنْ أَجْنِي مِنْهُمَا شَيْئًا أَقْدَمْتُهُ لَكَ قَرْبَانًا. لِذَلِكَ لَمْ تَكُونَا قَادِرَتِينِ عَلَى صَلَاحِي، بَلْ بِالْأَخْرَى عَلَى هَلَاكِي، وَكَافَحْتُ لِي كُونُ الْجَزْءِ الْأَوْفَرِ مِنْ قَوَاعِي فِي حَوْزَقِي، وَلِمَ أَكُنْ أَحْفَاظَ عَلَى قَوْتِي بِالْقَرْبِ مِنْكَ، بَلْ «سَرَتْ بِعِيدًا عَنْكَ إِلَى أَقْلِيمِ أَجْنِبِي» حَتَّى أَبْدَدَهَا لَدِي الْعَاهِراتِ، شَهْوَاتِي. فَمَا الْفَائِدَةُ مِنَ الْخَيْرِ، وَأَنَا لَا أَحْسَنُ التَّنْصُرَ فِيهِ؟ وَفِي الْحَقِيقَةِ لَمْ أَفْدِرْ أَنَّ فَهْمَ تَلْكَ الْفَنُونَ كَانَ عَلَى غَایَةِ مِنَ الْعُسْرِ حَتَّى عَلَى الْمُجْتَهِدِينَ وَالْأَلْيَاءِ، إِلَّا لَمَا كُنْتُ أَحَاوَلُ أَنْ أَشْرِحَهَا لَهُمْ، وَكَانَ الْمُتَمَيِّزُ مِنْهُمْ هُوَ الَّذِي كَانَ يَتَابِعُ عَرْضِي بِأَقْلَى بَطْءِهِ.

31. وَلَكِنْ مَا كَانَ هَذَا يُفِيدُنِي، أَنَا الظَّانُ أَنْتَ، يَا مَوْلَايَ إِلَهِي الْحَقِّ، كُنْتَ جَسْمًا نُورَانِي شَاسِعاً، وَأَنِّي قَطْعَةٌ مِنْ ذَلِكَ الْجَسْمِ؟ يَا لَهُ مِنْ فَسْقٍ مُفْرَطٌ! لَكَنِي كُنْتَ هَكَذَا، وَلَا أَخْجُلُ، إِلَهِي، مِنْ أَنْ أُعْتَرِفَ إِلَيْكَ بِشَفَقَاتِكَ عَلَيَّ، وَأَنْ أَبْتَهِلَ إِلَيْكَ، أَنَا

الذي لم أخجل من أن أقرّ آنذاك إلى الناس بتجاديقي، وأن أني ضدّك.. «*et latrare*».. «*aduersum te*» = ... «*et d'aboyer contre vous*»^(١). إذن فيم كان آنذاك يفيدني ذلك الفكر الشيطان وسط تلك العلوم، وماذا كان ينفعني أن أكون قد حللت، دون أدنى عون من أستاذ بشري، عقد تلك الكتب المعقدة الكثيرة، حيث أني كنت، في خصوص عقيدة النجاة، ضالاً بشعراً وخسيساً مرجساً؟ أم أتى لفکر أكثر بطءاً أن يلحق بصغراك ضراً كبيراً، والحال آنهم لم يكونوا بعيدين كثيراً عنك، بل كانوا يتظرون أن ينبع ريشهم في أمان كنيستك، وأن يغدوأ جنحة المحبة بغذاء الإيمان الصحيح؟

يا مولانا وإنها، فلنأمل «في وقي جناحيك»، و«التحمنا» و«التحملنا»! أنت ستحملنا، ستحملنا صغاراً، كما ستحملنا أنت حتى يصير شعرنا أبيض، حيث أن قوتنا تكون وأنت معنا، عندئذ هي القوة، أما عندما توجد دونك، فهي الضعف. خيرنا يحيا دوماً لديك، وعندما نفرنا منك، ضللنا الطريق. فلنعد إليك، يا مولاي، مستقبلاً، حتى لا نصرع، لأن خيراً يحيا لديك دون أقول، إذ أنت هو الخير ذاته ولا تخشى ألا يكون لنا المكان الذي تعود إليه بعد أن نزلنا منه إلى الحضيض! أما في غيابنا فلا تسقط دارنا، دارنا التي هي ديمومتك!

(١) لا بد أن أوغسطينوس قد عاش فترة قصيرة مبّسراً، بما أنتا نرى أنه قد دخل إلى المانوية أصحابه «هونوراتوس» Honoratus و«رومانياتوس» Romanianus و«أليبيوس» Alypius وغيرهم. فقد كانت روحه المتوقدة غير قادرة على أن تخصن نفسها دون سواها ديانة ما حتى وإن كانت هشة خيّرٍ. انظر أعلاه الكتاب الثالث (7...XI, IV, IV, 19, 19). نقلًا عن الملاحظة 2 من هامش الصفحة 88، بالمرجع السابق..

الكتاب الخامس

1.I. تقبل قربان اعترافاتي كما جرت على لساني، لساني الذي صورته وحشته على أن يعترف «لا شِمِّك»، واسف كل عظامي، ولتقل لك: «مَوْلَأِي، مَنْ هُوَ شَبِيهُ بِكَ؟» فمن يعترف لك لا يعلمك بما يجول في خاطرِه، لأن القلب المغلق لا يصد بصرك، ولا تردد يدك قسوة البشر، بل أنت ثُلثِينها - كلما أردت - إما مشفقا وإما متقدما، «لا أحد قادر على أن يختَرِجَ بَعِيداً عَنْ حَرَارَتِك».

لكن لم تدخل روحِي كي تتحبَّك، ولتفتر لك بشفقاتك كي تمدحك. خلافك جماعه لا تُتعطل مدحك ولا تكتمه، بل كل نفس «تمدحك» بالأفواه المتوجهة إليك، والحيوانات والجمادات بأفواه المتأملين فيها حتى تثوب إليك روحنا من فتورها مرتكزة على الأشياء التي خلقتها، ومتهمة إليك، أنت الذي خلقتها رائعة: وفي ذلك العزاء والقوة الحق.

II.2. ولينصرف الخيارى والبغاء، وليهربوا بعيدا عنك! فأنت تراهم وتكتشف ظلماتهم، فإذا كل شيء جميل، هم أيضا، وإن كانوا هم أنفسهم قباجا⁽¹⁾. فيم أساواه إليك؟ أو فيم شانوا إمبراطوريتك وهي، من السماوات إلى أقصى حدودها، عادلة كاملة؟

إلى أين هربوا عندما كانوا هاربين من محياك؟ وأين كانوا حتى لا تجدهم؟ إنهم

(1) الملاحظة 1 من هامش صفحة 93 من الكتاب الخامس للاعتراضات، المرجع السابق: «هذا الرأي يوجد أيضا في كتاب «مدينة الله» la Cité de Dieu XI, 23 : «العالَم بالمنذين يشبه اللوحة بظلاليها، والنظر إليها من الزاوية المناسبة يبرز جمالها، والحال أننا لو نظرنا إلى المنذين في حدة ذاتهم لما وجدنا فيهم إلا القبح والمسخ. وهكذا تحل الجملة اللاحقة في سياقها المناسب «et ecce pulchra sunt cum eis omnia et ipsi turpes sunt ذاتهم قبيحين»

هربوا حتى لا يروا أنك تراهم، وحتى يصطدموا في عمامهم بك - إذ لا تخلي عن أي مخلوق من المخلوقات التي خلقتها - حتى يصطدموا في ظلامهم بك وينالوا عذابا عادلا مفطعين في الحقيقة من لينك، ومصطدمين بعدالتك، وواعقين تحت طائلة قسوتك. لا يعلمون بالطبع أنك في كل مكان، وأن لا مكان يحذك، وأنك وحدك حاضر أيضاً لمن هم بعيدون عنك. إذن فليغيروا وجهتهم نحوك وليبيحوا عنك، بما أنهم أنفسهم - إن تخلوا عن خالقهم - فأنت بالعكس لم تتخل عن مخلوقتك. ولغيروا وجهتهم بأنفسهم وليبيحوا عنك، وهو أنك موجود في قلوبهم، في قلوب المعترفين لك والصادقين لك والباكين على صدرك بعد خروجهم من ثيابهم الوعرة الشاق: وأنت تمسح بلطاف دموعهم، ويكون أكثر ويسرون بالتحبيب، لأنك أنت، مولاي، وليس إنساناً ما، من لحم ودم، بل أنت، مولاي، الذي خلقتمهم، وتعيد خلقهم وتتواسيهم. وأنا أين كنتُ عندما كنت أبحث عنك، كنت مائلاً أمامي، لكنني كنت قد ابتعدت عن ذاتي وما كنت أجد نفسي، وكنت عن الظفر بك أبعداً

III. سأصلح، برأي وسمع من اللهِ، ذاكرا تلك السنة التاسعة والعشرين من عمرِي.

كان قد وصل إلى قرطاجة أحد الأساقفة المانويين يدعى فاؤشُوسَ (Faustus)^(١)، وكان «ربِّيق الشيطان» الكبير، وكثيرُهم الذين كانوا يقعون في سحر فصاحته العذبة. ومع آني كنتُ أمدحها بعد، فإني كنتُ أميّز بينها وبين حقيقة الأشياء التي كنت مشغوفاً بتعلّمها. لم أكن أوليٍّ كبيرٍ عناء لنوع الوعاء الذي كان فاؤشُوسُ، ذلك الرجل المشهور لديهم، يقدم لي فيه طبق الفصاحة، أعني الأسلوب، بل كنتُ أهتم بتركيبة الطبق: بما سيقدم لي فيه من العلم. إذ إنّ شهرته كانت قد أخبرتني مستيناً، أنه كان خبيراً جداً بكلِّ المعارف الشريفة ومتضللاً بالخصوص بالعلوم الكريمة.

وبيما آني كنت قد قرأتُ لكثيراً من الفلاسفة، وحفظت في ذاكرتي ما وقته، كنت أقارن بعضه بتلك الأساطير المانوية الطويلة، وكانت هذه الأخيرة تبدو لي أكثر احتمالاً، وقد قال بها أولئك «الذين قيروا فقط أن يبلغوا إلى إمكان تقييم العالم، دون أن يجدوا الله باية

(١) بعد تأليف الاعترافات بفترة قصيرة كتب أغوستينوس في شكل حوار تفنيدا مطولاً في ثلاثة وثلاثين كتاباً لمؤلف من مؤلفات «فاوستوس» Faustus... في البداية عبر أغوستينوس عن إعجابه بسحر الكلام وبتفكيره الناقد. وذكر أيضاً أن «فاوستوس» ولد بمدينة ميلاف في بلاد نوميديا. وكان نقد فاوستوس "لا يخلو من وجاهة وعمق...". الملاحظة 1 من هامش صفحة 95 من الكتاب الخامس لـ«الاعترافات»، المرجع السابق.

حال مؤلّى. إِذْ أَنْتَ عَظِيمٌ، يَا مُؤْلَى، وَتَهَمُّ بِمَا هُوَ حَقِيقٌ، وَتَعْرَفُ بِالْعَكْسِ مِنْ بَعْدِ عَلَى مَا هُوَ رَفِيعٌ، وأنت لا تقترب إلا من «أصحاب القلوب المنسحقة» (= *obtritis corde*) = *cœurs contrits*). ولا يقدر على إدراكك ذروة الكبرياء، وإن استطاعوا بخبرتهم العجيبة أن يحصلوا النجوم وحيات الزمال ويقيسوا المناطق الفلكية ويقتفو آثار الكواكب.

4. فهم يبحثون عن هذه الأشياء بفكرهم وبفطتهم التي وهبتهم إياها، ووجدوا الكثير منها وتتبئروا قبل السنين العديدة بمواعيد كسوف الشمس وخشوف القمر، في أيّ يوم، في أيّة ساعة، في أيّة جهة سوف يقعان. ولم يخطئوا في إحصائه وتقديره، بل حصل ما أعلنوا عنه. ودونوا القوانين المكتشفة، وهي تقرأ اليوم وتعتمد في التنبؤ بالسنة والشهر من السنة واليوم من الشهر والساعة من اليوم، وفي معرفة أيّة جهة من القمر أو الشمس سيصيّبها الكسوف: ويصدق ما يعلّون.

ويتعجب الناس ويفزعون من هذه الأشياء التي لا يعرفونها، ويبتهج بها من يعرفها ويهلّل لها، ويسبّ كفريائهم يبتعدون عن ضوئك الساطع ويتخلّون عنه؛ يَسْتَبِّونَ مسبقاً بموعد كسوف الشمس، لكنهم في الأثناء لا يرون كسوفهم الخاص، ذلك أنهم لا يبحثون، بداعي التقى، من أين يملكون الفطنة التي يبحثون بها في هذه الأشياء. وحتى إن تبيّناً أنت الذي خلقتم، فهم لا يهبون أنفسهم إليك حتى تحفظ ما خلقته، ولا يضطّحون في سبيلك بأنفسهم كما لو أنهم قد خلقوا أنفسهم بأنفسهم؛ فهم لا يقتلون من أجلك سمات كفريائهم كما تفعل «العصافير» في طيرانها، ولا يقتلون في أنفسهم حبّ الاطلاع كما تفعل «حيتان البحر» في تطلعها وهي «تجوب ثنايا الأعماق الخافية»، ولا يقتلون شبيتهم كما تفعل «قطعان الشهول» كي تحرق أنت، يا إلهي، بنارك الملتهمة شهواتهم الميتة وتعيد خلقهم من جديد لخلود الأبدية.

5. يا للحسنة! إنهم لا يعرِفُونَ سبيلاً كلمتك الإلهية التي خلقت بها الأشياء التي يُعَدُّونها والحسن الذي يميّزون به ما يَعْدُونه، والعقل الذي يعتقدون به، «حَكَمْتُكَ لَا تَعْدُ وَلَا تُحَصِّنِي». أمّا ابنك الوحيد «فَقَدْ بَاتَ حِكْمَتَنَا وَعَدَّالَتَنَا وَقَدَاسَتَنَا»؛ وأصبح يحسب مثنا، وسدّد ضريبته إلى القيصر. لا يعرفون هذا السبيل الذي يتزلّون هم منه إليه والذي يصعدون بواسطته إليه. لا يعرفون هذا السبيل، بل يعتقدون أنهم في علو النجوم ولمعانها، وهو أنهم قد سقطوا على الأرض، «وَقَدْ أَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْأَخْرَقُ». يقولون صواباً كثيراً عن الخليقة، ولكن لا يبحثون بتقى عن الحق الصانع للخلقة، ولذلك لا يجدونه، أو إن هم وجدوه، فإنهم رغم علمهم بالإله «لَا يَعْبُدُونَهُ، كَمَا يُعبدُ

الإله» ولا يحمدونه، ويتهون «في هذين لهم»، ويقولون «إنهم ذوو حكمه» ناسين إلى أنفسهم ما هو ملكك، وبذلك يسعون في فحشاء عماهم المفترط ليسبوا إليك أيضاً ما هو لهم، أي ليحملوك أنت الذي هو الحق، أكاذيبهم، وليحوّلوا «عزة الإله الذي لا يفسد بالمقارنة ب بصورة الإنسان القابل للبساد، والطهور والسواء والحيات»، ويعتبرون «حقك إلى كذب»، ويعبدون الخلقة ويخدمونها «وعوضاً عن الخالق».

6. غير آني كنت أتذكر الكثير من أقوالهم الصائبة المبنية على ملاحظة الخلقة ذاتها، وكانت ترائي لي عقلانيتها من حساب الأزمنة ونظامها ومن أدلة النجوم الواضحة. وكنت أقارنها بأقوال المأني التي سجل فيها عن هذه الأشياء الكثير من الترهات الضافية جداً^(١)، ولم أكن أتبين، في انقلاب الشمس الصيفي أو الشتائي (solstitiorum) = solstices = équinoxes وفي اعتدال الربيع أو الخريف (aequinoctiorum) ولا في الكسوف أو الخسوف ما يتراءى من العقلانية، ولم أكن أفهم أي شيء من هذا القبيل في كتب الحكمة المأنية. أما في كلامك فكنت بالمقابل أؤمّر أن أؤمن بها، بل لم تكن لتوافق تلك الحقائق العقلية التي كنت أكتشفها بالحساب والمشاهدة، وكان الفرق بينهما شاسعاً جداً.

7. يا مولاي، يا «إله الحق»، هل يكفي أن يعلم المرء هذه السخافات لينال إعجابك؟ كلاً، بل شيء هو الإنسان الذي يعلم هذا كلَّه لكنه يجعلك، في حين أنَّ من يعرفك ينعم بالسعادة ولو جهل كلَّ ذاك. أما الذي يعرفك ويعرفها، فليس بمعرفتها أسعد، بل هو سعيد بسببك فقط، إن كان «مع معرفتي لك يُمجِّدك كما أنت ويهتمُّ بك ولا يتَّهِي في هذين». IV

فكما أنَّ ذلك الذي يعرف كيف يملك شجرة، ويحمدك على معرفة الوجه في استعمالها، ولو جهل كم ذراعاً يبلغ ارتفاعها أو كم ذراعاً يتشرَّع عرضها، أسعد حظاً من ذلك الذي يعرف قيسها وعدد جميع أغصانها، لكنه لا يملكونها، ولا يعرف خالقها ولا يحبّها، كذلك الإنسان المؤمن الذي يملك الدنيا كلَّها بثرواتها والذي «دون أن يكون له أي شيء، يملك الكل» بالتعلق بك، أنت الذي يخدمك الجميع؛ فحتى لو وصل به

(١)...في مدونة الماناظرة الأولى بين أوغستينوس والمأني «فيليكس» Félix صرخ «فيليكس» بما يلي: علمنا مانوي نشأة العالم، ولم نشا وكيف نشا ومن أنشأ، وفتر لنا لم يوجد النهار ولم يوجد الليل؛ وعلمنا مسار الشمس والقمر. ولم يفَرَّ لنا شيء من جميع هذا في أي كتاب من كتب الرسل. هذا سبب إيماننا أن «مانوي» هو روح القدس الموعود... الملاحظة 1 من هامش صفحة 96 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

الأمر إلى جهل مدارات الذب الأكبر (Septentrionum gyros = les circuits de la Grande Ourse)) فإنه، على أي حال، يكون من الخطأ الشك في كونه أحسن حالاً من الذي يقيس السماء ويحصي النجوم ويزن الأسطuccات، لكنه معرض عنك، أنت الذي «رَتَّبْتَ الْكُلَّ حَسَبَ الْمِقَابِسِ وَالْعَدَدِ وَالْوَزْنِ».

7. لكن مع ذلك، من كان يطالب مانويتا أن يكتب أيضاً في مواضع يمكن للمرئ أن يجهلها جهلاً تاماً دون أن ينال الجهل بها من تقواه؟ فأنتم قلت للإنسان: «التفوى هي الحكمة»، وكان بإمكانه أن يجهل هذه التقوى ويعلم تلك المسائل العلمية علم اليقين: إلا أنه لم يكن يعلمها بتاتاً، وإن تجرأ بكل وقارحة على تعليمنا إياها، فلم يكن إذن يفقه شيئاً من التقوى المشار إليها. وحتى إذا كان المرء من المتبخررين في المعارف الدينية فإنه من الغرور التبجح بتعليمها. لكنه من التقوى الإقرار بها إليك. لذلك فإن حاد المانوي الحق، ولم تقن عنه المعالاة في القول، فقد أفحمه في جهله أولئك الذين كانوا قد تعلموا حقاً تلك المسائل، متيدين بجلاء ما كانت تقوله نظرياته في المسائل الأكثر تعقيداً.

لم يكن يريد أن يختقر شأنه، بل إنه حاول أن يُفْتَنَّ بأنَّ الروح القدس الذي يسلّي النفوس ويعني المخلصين لك، يوجد فيه شخصياً بكامل سلطته⁽¹⁾. فلذلك كلما ضبط متلبساً يقول أخطاء عن السماء والنجوم وعن الشمس والقمر في حركاتها، وإن لم يتصل ذلك بالعقيدة الدينية، فهو مع ذلك كان يتميز بجرأة لا تخallo من الترجيس لها، حيث أنه لم يكن فقط يقول ما كان يجهله، بل يقول أيضاً الأكاذيب في كبريهاء وغرور جنوبيتين، حتى أنه كان يزعم أنه ينسبها إلى نفسه كما لو أنه كان إليها.

9. عندما أسمع أخا مسيحيتا مهما كان، لا يعرف تلك المسائل، ويخلط فيها بين هذا وذاك، أصبر على خطئه ولا أغضب. إن هو إلا إنسان يرى رأياً لا أرى فيه ضرراً به، بما أنه، يا مولاً و«خالق الكل»، لا يرى فيك ما لا يليق بك، وإن كان يجهل مواقع المخلوقات المادية وهيئتها. أما أول الصفر فهو عندما يحسب أن تلك المسائل تتصل بعقيدة التقوى ذاتها، ويتجزأ على أن يؤكّد بأكثر إصراراً ما يجهله. ولكن مثل هذا

(1) «قبل «مان» Manès بقرن (وقد سُلّخ حينها سنة 275 م بأمر من ملك الفرس «بهرام الأول»)، سلم «موتنان» أمره بين يديه هذا «المؤايس» وهذا «الوسيط» وهذا الروح القدس المتظر... الذي وعد به المسيح، والذي سيدخل المریدين في الحقيقة السرمدية وسيعلمهم ما لم يكونوا بعد قادرین على سماعه من فم المسيح. ويظهر نفس الغرور في التاريخ الديني حتى الحديث، لدى المتبثثين والمتحمسين». الملاحظة 1 من هامش صفحة 98 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

الضعف أيضا يجد في مهد الإيمان سند الرحمة الأم، إلى أن يُرفع الإنسان الجديد «إلى مستوى الإنسان الكامل»، وحتى لا يستطيع أن يحروم «في كل مهَب عَقَائِدِي». أما بشأن هذا الفقيه المانوي، هذا العالم الحجة، هذا القائد الأمير الذي كان له من الجرأة ما كان يُقنع به أتباعه بتلك الترهات، أي بكونه ليس بشرا بل روحَك القدس الذي يجب عليهم أن يطيعوه ويؤمنوا به، فمن لا يعتبر أنَّ مثل ذلك الجنون، حالما يُضيَّطُ صاحبه متلبسا بقول الأكاذيب، لا يستحق إلَّا الكراهية والاحتقار؟

لكن، مع ذلك، لم أكن قد اكتشفت بعد بوضوح، كيف يمكن أيضا أن نفسر حسب نظرتيه اختلاف طول الأيام والليالي وتعاقب الليل والنهار بالذات وأفُول الكواكب وكلَّ ما كنت قد قرأتَه من هذا القبيل في الكتب الأخرى. ولو كان ذلك ممكنا لبقيت لعمري في حيرة من حقيقة هذه القضية، بل لكنت قد خيَرت اعتماد سلطته ركيزة لعقيدتي بسبب الإيمان بالقداسة المحسوبة فيه.

VI. وطيلة ما يقارب تلك السنين السبع بالذات التي أصغيت فيها إلى المانويين بعقل الشارد، كنت أترقب بفارغ الصبر مجيء فاوْشُوس الشهير إذ كان الآخرون من أولئك الذين كنت لاقيهم بالصدفة، عاجزين عن الرد على اعتراضاتي بشأن مثل هذه المسائل الشائكة، بل كانوا يشيدون لي بذلك الرجل القادر، إثر وصوله مباشرة وبمجزد الدخول في النقاش، على إيجابي عنها بكل سهولة، بل وعلى أن يجب بكل وضوح عَمَّا هو أعراض منها، لو طلبت منه ذلك.

لذلك فعندما قدم، وجدتُ فيه رجلاً ظريفاً ذا لغة عذبة، يقول ما اعتناد المانويون قوله بالذات، لكن بكلام أكثر عذوبة من كلامهم. هل كان يشفى غليلي بالأقداح النفسية من يد أطيب النداماء؟ بمثل تلك العروض كانت أذناي قد صُمتا، ولم تكن تبدو لي أحسن لكونها كانت تُقال بكلام أجمل، ولا صافية لكونها بارعة، كما أن عقله لم يكن حكيمًا بسبب بلاغة محتواه وإشعاع فصاحته. أما أولئك الذين كانوا يشيدون لي به، فلم يكونوا صادقين في حكمهم، لذلك كان يبدو لهم ماهراً حكيمًا، لأنَّه كان إذا تكلَّم راق لهم ببلاغته.

ولكتني علمت أنَّ صنفاً آخر من الناس أيضاً يعتبرون الحقَّ مشتبهاً فيه، ويرفضون الانصياع إليه، لوعِرِضٍ عليهم في خطاب ذي رونق وغزاره^(١)، أمَّا أنا فقد كنت علمتني

(١) «الملاحظات الموالية مهتمة، إذا ذكرنا أنَّ عدداً كبيراً من المؤلفين المسيحيين الأوائل يبحتون = *compto atque uberis* احتقار «جمال» الأسلوب، بشأن القولة الأوغستينية الموالية:

بعد، يا إلهي، بطرق عجيبة خفية، وإن آمنت أنك أنت الذي علمتني، فلأن ذلك هو الحق، ولأنه لا معلم آخر للحق سواك، في أي مكان ومن أي مكان يتجلّى. لذلك كنت تعلمت عنك بعد ألا شيء يجب أن يعدّ قوله حقاً، لكونه قيل في كلام فصيح، ولا قوله باطلًا، لأنّ في النطق به قبحاً ونشازاً، وعلى العكس أنه ليس بالقول الحق إذن، لأنّ تعبيره خال من الرّشاقة، ولا بالباطل، لأنّ الخطاب فيه رائق، بل تكون الحكمة والعبادة كما تكون كذلك الأطعمة نافعة أو ضارة، أمّا الألفاظ المتنّقة وغير المتنّقة فيمكن أن يقدم فيها المدر والوير، كما يقدم في الأطباق هذا اللون أو ذاك من الطعام.

11. كانت إذن لهفتي التي ترقبت بها منذ وقت طوبل جدًا ذلك الرجل، لهفة سائنة بسبب الحيوية التي كان يضفيها على النقاش وحسن اختياره للألفاظ الملائمة المناسبة التي كانت تطاوّعه في كلّ يسر للتعبير عن أفكاره. كنت حقاً أستيفها، وكانت شائي شأن الكثرين أو ربما أكثر منهم، أمدحه وأعظمّه، لكنّي كنت مكدرًا، لأنّه لم يكن يرّخص لي، بسبب اكتظاظ المستمعين حوله، أن أصل إليه وأبلغه انشغالّي بمسائل الحرجة، متحادثاً معه بتلقائية، ومنصتاً إلى خطابه ورآضاً عليه. وبمجزء أن تمكّنت من ذلك، شرعت في الاستحوذ على سمعه صحبة رفافي الخلّص، في تلك الأوقات التي لم يكن فيها من غير اللائق أن تتبادل الحديث بكمال الحرية، والتي قدّمت له فيها بعض القضايا التي كانت تحيرني. اخترت أولاً رجالاً لا خبرة له بالمناهج الشرفية، ما عدا النحو، علاوة على أنه لم يكن له منه إلا الشائع المبتذل. وبما أنه قد قرأ بعض خطب شيشرون¹ وعدداً قليلاً جداً من كتب سينيكا (Seneca) (= Sénèque) ² وبعض الأشعار وما كانت قد كتبه طائفته من الأسفار اللاتينية المُنمّقة، وبما أنّ ممارسة الخطابة كانت لديه ممارسة يومية، فإنّ الفساحة كانت آتته الطبيعة، فكانت أقواله أكثر تأثيراً وفتنة بترجمة من الذكاء وشيء من الأنفة الطبيعية.

اليس هذا ما يجول بخلدي، يا مولاي وإلهي، وبما حكم ضميري؟ هاك قلبي
أمّا مامك وذاكري، أنت الذي كنت آنذاك تقدوني حسب سرّ عنایتك الخفي، وكانت منذ
ذلك الوقت تضع أمام وجهي أخطائي الفاحشة كي أراها وأكرّها.

= اي «في خطاب ذي رونق وغزاره». الملاحظة 1 من هامش صفحة 99 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

(1) الفيلسوف اللاتيني الشهير، كان أستاذاً للإمبراطور «نيرون» Néron. أقدم على الانتحار بعد أمر من هذا الأخير، واضعاً مذهبة محل الواقعية والالتزام الحق. عاش في السنوات الخمس والستين الأولى من القرن الأول للميلاد، وعرف بالخصوص بمؤلفاته الفلسفية، ومنها «رسائل أخلاقية إلى «لوسيليوس» (Lettres morales à Lucilius)، وكان سينيكا، في مدينة روما فيلسوف الرواقيّة بلا منازع (Stoicisme).

VII. إذن، بعد أن اتضحت لي جلياً أن هذا الرجل لا خبرة له بتلك القضايا التي كنت قد تصورت أنه متبحر فيها، بدأت أياس من قدرته على أن يوضح لي المسائل التي كانت تحيرني وأن يحلها. كان بإمكانه أن يتم بالتفويح الحقيقة مع جهله بتلك النظريات المانوية، لأن كتبهم كانت تعج بالترهات عن السماء والنجوم والشمس والقمر؛ إلا أنني كنت أرغب بالخصوص في أن يشرح لي «فوستوس»، بالمقارنة مع الدلائل العددية التي كنت قد قرأتها في موضع آخر، هل إن التي كانت تحتويها الكتب المانوية أفضل منها، أم هل يمكن على الأقل أن يصدر عنها تفسير مقنع أيضاً لتلك الأمور. لكنني أصبحت لا أصدق أنه قادر على الجواب بدقة.

ومع ذلك فإني عرضتها عليه للنقضي والنقاش، إلا أنه لم يتجرأ بتواضع وتبصر على تحمل ذلك العبء، فقد كان يعلم أنه يجهلها، ولم يخجل من الاعتراف بذلك. لم يكن من أولئك الشژارين الكثیرین الذين كنت قد تحملت ثرثرتهم وهم يحاولون استدراجي إلى مذهبهم دون أن يقولوا أي شيء يذكر. أما هو فكان بالعكس ذا فكر إن لم يكن منصراً إليك، فإنه دائم الحذر من نفسه. لم يكن جاهلاً جهلاً تماماً بجهله، فلم يرد المجازفة في نقاش يزدري به إلى مسلك مسدود، حيث لا يمكن الخروج منه ولا العودة إليه بيسراً: ومن هنا أيضاً كان إعجابي به أكبر⁽¹⁾ إذ الجمال يكون أشد في اعتدال فكر المعترض، منه في القضايا التي كنت أرغب في معرفتها. وكنت أجده هكذا في جميع المسائل الأعومن والأدق منها.

13. إذن خبا حماسي الذي كنت أكتبه للأدب المانوي، ورغم شدة يأسی من بقية علمائه، بسبب ما بدا لي فيهم من النقص في مختلف المسائل التي كانت تشغلي حتى لدى أشهرهم، واصلت التردد عليه بسبب الحماس الذي كان هو يتقد به تجاه ذلك الأدب الذي كنت أنا آنذاك أدرسسه للناشرة في قرطاجة وأنا أستاذ في البيان. كنت أقرأ معه إنما ما كان يرحب فيه لأنه سمع عنه، أو ما كنت أعتقد أنه يوافق مثل تلك العبرية لامحالة. وفي الواقع كلّ جهودي التي كنت قد قررت أن أتقدم بها في تلك الطائفة، خارت كلّها، بعد أن تعرّفت على ذلك الرجل. لم يصل بي الأمر إلى الانفصال تماماً عن أعضائها⁽²⁾، بل قررت أن أكتفي مؤقتاً بملازمة الوضع الذي أقيمت فيه نفسي دون

(1) لهذا الفصل يقدم فكرة واضحة عن الحق النقدي وحيث العدل لدى أرغستينوس». الملاحظة 1 من هامش صفحة 101 من الكتاب الخامس للاعتراضات، المرجع السابق، بذلك على ذلك قوله:

etiam hinc mihi amplius placuit أي «مثل هذه الصرامة جعلته أقرب إلى قلبي».

(2) سراء أيضاً في روما نفسها على اتصال بالمانويين، وحالاً ضيفاً على بعض المستعين إلى =

روية، لأنني لم أكن أجد فيها شيئاً أحسن، اللهم أن يسطع صدفة نور شيء آخر يكون اختياراً أفضل.

لذا فإن ذلك الرجل الذي يُدعى «فَاوِشْتُوْسُ» والذي كان يمثل في نظر الكثيرين «خناف المَوْتِ» قد أخذ بعد يخلصني من ذلك الذي وقعت فيه، دون إرادة منه لذلك ولا علم له به. ذلك لأن يديك، يا إلهي، في خفايا عنايتك لم تخليا عن روحي، وأن أمي كانت من دم قلبها، ليلاً ونهاراً، تضحي إليك عني بدموعها، لقد عَامَلْتَنِي بصور عجيبة، أنت الذي فعلت ذلك يا إلهي. إذ «أَنْ خُطَّى الْإِنْسَانُ مُوَجَّهٌ مِنَ التَّؤْلِي، وَسَوْفَ يَرْسُمُ مَسِيرَتَه». من أين تكون النجاة، إن لم تكن من يدك وهي تعيد من جديد خلقن ما قد خلقته؟

14.VIII. كان ذلك إذن بأثر من فعلك، أن رأيُتني أقتنع بالذهاب إلى روما، وأن أفضَّلَ أن أدرُّسَ فيها ما كنتُ أدرُّسه في قرطاجة. ما هي الدوافع التي حدث بي إلى الاقتناع بذلك؟ لن أنسى الاعتراف لك بها، لأنَّ علىَ هنا أن أفكِّر ملِيَّاً في مقاصدك الخفية جدًا وأن أشيد بها، وأشيد كذلك بشفقتك الناجعة لنا جدًا.

إذن لم أرد الذهاب إلى روما من أجل الجرایات العليا ولا الرتب الرفيعة التي كان الأصدقاء الذين زيتوا لي السفر يعدونني بها، ولو أنها كانت آنذاك تحرّك نفسي وتحرضها، بل كان السبب الأكبر وربما الوحيدة التي كنت أسمع أنَّ النَّشَء يدرسون هنالك في هدوء أكبر، وأنهم مُلَزَّمون بالهدوء بواسطة نظام أكثر صرامة، بحيث أنهم لا يهجمون في هياط ووقاحة على قسم مدرس ليسوا من تلامذته، ولا يُفْتَلُونَ البتة فيه، إلا إذا سمح لهم به ذلك المدرس. على العكس كان تسبيب الطلبة في قرطاجة شيئاً جامحاً: يندفعون إلى الأقسام بلا حشمة وربما كالمجانين، ويُخْلُونَ فيها بالنظام الذي يضعه كل مدرس لغير التلاميذ أنفسهم، ومفترفين ذنوياً كثيرة في بلاهة لا تُعقل يعقوب عليها القانون، لو لم يحتمم التسامح المأثور. لكنَّ هذا التسامح يضاعف من شقائهم، وهم يرتكبون ما لن يسمح به قَطْ قانونك البدئي، كما لو أنه كان مسموحاً به، ويتوهمون أنفسهم يرتكبونه دون عقاب، والحال أنَّ عمامهم بالذات عقاب لهم على جرمهم، وأنهم يعانون آلاماً عظيمة لا تكاد تذكر أمامها تلك التي يوقعونها بغيرهم. لذا فالسلوك الذي لم أرض به لنفسي وأنا طالب، كنت مُجبراً على أن أتعامله من

= دروسه. (الكتاب الخامس من الاعترافات 18، X). الملاحظة 1 من هامش صفحة 102 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

الآخرين بصبر، وأنا مدرس. لذلك رغبت في أن أذهب إلى هذا البلد الذي على حد قول الذين يعرفونه لا يوجد فيه مثل هذا السلوك. غير أنك «يا أمي ونصبي على أرض الأحياء»، أنت الذي جعلتني أحسن في قرطاجة بالمنحس الذي كان يصرفي عنها، حتى غير مكانني من الأرض لنجا روحني؛ وكنت تقدم لي لتجلبني إلى روماعروضاً مغربية: تفعل ذلك بوساطة أناس مولعين بحياة الأموات، يرتكبون هنا الحمامات، ويعدونني هناك بالأحلام؛ ولكي تقوم خطاي، كنت تعمد في الخفاء انحرافهم وانحرافي. إذ إن من كانوا يشوشون سكريتي كان عمامتهم منجرأة عن تكالبهم الفظيع، ومن كانوا يغوغوني بشيء آخر، كانوا ذوي حكمية أرضية دنيوية محض، أما أنا الذي كنت هنا في قرطاجة أكره شفائي الحق، فإني كنت هنا لك في روما أشد سعادة زائفة.

15. لكن لماذا رحلت من قرطاجة وذهبت إلى روما، كنت يا إلهي تعلم ذلك، ولم تكن قد أعلمتنا به أنا وأمي. لقد بكت رحيلي بحرقة ولوحة، وتبعتني حتى البحر، غير آني خدعتها، وهي ممسكة بي بقوّة، كي تثني عن الرحيل أو تصحبني فيه. زعمت آني كنت لا أريد أن أغادر صديقاً كان يتظر الريح المناسبة كي يُنجز. كذبت على أمي، وأية أمّا وأفتشت عنها. ولأنك عفت عن زلتني، فإن شفقتك حفظتني من لحج البحر، وأنا ملآن بأدناسى اللعنة، وأوصلتني إلى ماء نعمتك لأغسل فيه، لتکف أنهار دموع أمي التي كانت تسقي بها الأرض من أجلني كل يوم بمرأى منك.

لكن لما كانت ترفض العودة بدني، أقنعتها بصعوبة أن تقيم تلك الليلة بمكان قريب جداً من سفيتنا، في كنيسة قبر يانوس المنشم (*memoria beati Cypriani*⁽¹⁾) (*chapelle dédiée au bienheureux Cyprien*). وفي تلك الليلة ذاتها رحلت خفية عنها، أما هي فمكثت تصلي وت بكى.

ماذا كانت تطلب منك، يا إلهي، بكل ذلك الدموع، سوى الآتسمح لي بالإبحار؟ إلا أنك في عميق نيتك، وإن كنت مصغياً لرغبتها الجوهرية، لم تبال بما كانت تطلبها آنذاك، أي أن تجعل متنى الإنسان الذي كانت تتمناه دوماً.

هبت الرياح ونفخت في أشرعتنا، وغاب الساحل عن أنظارنا، حيث كانت أمي،

(1) هذا المعلم التذكاري للقديس «سبريانوس» *Cyprien* موجود داخل أسوار المدينة قرب البحر كان أقدم كنيسة أقيمت في قرطاجة على شرف القديس المذكور (انظر «مونسو» MONCEAUX في كتابه «تاريخ الأدب يافريقيا المسيحية II»، *Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne II*، 384). الملاحظة 1 من هامش صفحة 104 من الكتاب الخامس للاعتراضات، المرجع السابق.

من الغد، تتألم كالمحجونة وتملاً بالنحيب والصرخ أذنيك للأماليتين بها، لأنك كنت تجذبني بشهواني كي تضم حداً لشهواتي ذاتها. أما هي فإنها كانت، بسبب رغبتها الجسمانية، تسلط عليها سياط الآلام العادلة. كانت تحب حضوري بقربها شأن جميع الأمهات، بل أكثر من الكثيرات بكثير، ولم تكن تعلم ما كنت ستتهبّ لها من أفراح بغيابي. لم تكن تعلمه، لذا كانت تبكي وتتحبّ، وبتلك الآلام كانت تكشف عما ورثته من حواء، إذ إنها تطلب بالنحيب ما كانت قد ولدته بالتحبيب. ولكن بعد أن اتهمتني بالمكر والقسوة عادت ثانية إلى الدّعاء لي، وانصرفت هي إلى حياتها العادمة، وانصرفت أنا إلى روما.

IX.16.وها أنا أستقبل فيها بسياط مرض الجسد. وكنت يغدو ذهاباً إلى جهنّم، حاملاً كل الخطايا التي كنت قد ارتكبها ضلّوك وضدّ نفسي وضدّ الآخرين، وهي كثيرة ونقيلة فوق قيد الخطية الأصلية التي بها نموت كلنا «في آدم». إذ إنك لم تكن قد غفرت لي أية واحدة «في المسيح»، وهو لم يكن قد فلك بصلبيه العداوات التي كنت قد ارتكبها معك بسبب ذنبي. فكيف كان ليفكها بالصلب الذي كنت قد ظنت آنه لم يُصلب عليه إلا شيخ؟ إذن كاذباً كان يبدو لي مماتُ جسده، بقدر ما كان حقيقتي مماتُ روحي، وبقدر ما كان حقيقتي مماتُ جسده، كانت كاذبة حياة روحي التي كانت لا تؤمن به. ومع ارتفاع الحتمي كنت أسير يغدو إلى الهلاك. فأين كنت سأذهب، لو غادرت آنذاك هذه الدنيا، إن لم يكن إلى النار وإلى العذاب المناسب لجرائمي، طبقاً لحقيقة أمرك؟ وذاك ما كانت هي لا تعرفه، ومع ذلك فهي كانت تدعولي غائبة. أما أنت العاشر في كل مكان هي فيه، فكنت تستجيب لها، وحيثما كنت، كنت تشفق علي، حتى أستعيد صحة جسدي وإن لم يزل قلبي المرّجس في هذيانه.

لم أكن أرغب في تغميدك وأنا محفوف بذلك الخطر المحدق. لقد كنت وأنا طفل أحسنَ شأناً من ذلك، فقد رغبت فيه والحقّ على تقوى أمري، كما ذكرت بذلك يغدو واعترفت به⁽¹⁾، غير أنّي كنت كبرت في خزيبي، وفي جنوني كنت أهزاً بنصائح طلبك، أنت الذي لم تسمح بأنّ أموت أنا هكذا مرتين⁽²⁾. فلو كان قلب أمري ضرب بمثل هذا الجرح، لما شفيَّ قطّ، لأنّ لسانِي عاجز عن التعبير عما كان يتّأجج في صدرها من

(1) انظر أعلاه 17، XI، I.

(2) هذا الموت المزدوج هو موْتِ الجَسْمِ وموْتِ الرُّوْحِ. الملاحظة 1 من هامش صفحة 106 من

الكتاب الخامس للاعتراضات، المرجع السابق، بشأن قوله: à propos de...me... bis mori

العواطف نحوها، وكم كانت همومها وهي تلدني روحًا أكبر من الهموم التي عانتها وهي تلدني جسداً.

17. لذا فإني لا أرى كيف كانت ستشفي، لو أنّ موتي بعجٍ هكذا أحشاء حبها. ولائي أين كانت ستؤول أدعيتها تلك التي كانت ترفعها دون انقطاع؟ مآلها إلى جوارك وبالقرب منك، وليس إلى أي مكان آخر. أم هل أنت، يا إله الشفقات، كُنْتَ سَخِيْرًا «قلبي مُشَحِّقاً مُهَانًا» قلب أرملي عفيفٍ زاهدٍ، مستعدة دوماً لأداء الصدقات، تطيع قدسيتك وتخدمهم، ولا ترك يوماً واحداً يمر دون تقديم القرابين لمذبحك^(١)، تقصد كنستك مرتين في اليوم صباح مساء دون أي انقطاع، لا من أجل الخرافات الزائفة وهذيان النسوان العجائز، بل كي تسمع كلامك، وتشعرك أنت أدعيتها؟ أكنت تحقر أنت الدموع التي لم تطلب بها منك الذهب والفضة ولا أي شيء وإنما، بل نجاة روح ابنها؟ أنت الذي جعلت بفضلك من تلك المرأة ما جعلت، كنت تحقرها وتمتنع عنها عننك؟ كلاً، مولاي، بل كنت بالعكس حاضراً لها ومستجياً لدعائهما وفاعلاً بها وفق الأمر الذي كنت قد سبقت فقدرت وجوب العمل به.

لتغرب عنّي فكرة أنك قد تكون خدعتها في تلك الرؤى والردود التي ذكرت بها بعد (وإن لم أذكر بها جميـعاً) والتي كانت تحفظها في صدرها المخلص، وتصورها لك دوماً في دعائهما كما لو كانت ممضاة بخط يدك tamquam chirografa tua (=)! فأنت، «بسبب رحمتك الأبديّة»، تذكرـم بأن تجعل من كل الديون التي تبرئ منها عبادك وعودـاً تصـبـع مديـنا لهم بها.

X. 18. إذن شفـيتـي من ذلك المرض، وعـافـيـتـ ابن «خـادـمـتكـ» آنـذاـكـ، عـافـيـتـ جـسـدهـ أـوـلاـ، حتى يكونـ أـهـلاـ لـأـنـ تعـطـيهـ شـفـاءـ أـحـسـنـ وـأـوـثـقـ.

وكـنـتـ مرـتـبـطاـ آنـذاـكـ أـيـضـاـ فيـ روـمـاـ معـ أوـلـكـ الـقـدـيـسـينـ الـمـزـيـفـينـ الـكـاذـبـينـ: لاـ فقطـ معـ الـمـسـتـمـعـيـنـ إـلـيـهـمـ الـذـيـنـ كـانـ أـيـضـاـ منـ ضـمـنـهـمـ الرـجـلـ الـذـيـ كـنـتـ قدـ مـرـضـتـ وـتـعـافـيـتـ فـيـ مـنـزـلـهـ، بلـ وـأـيـضـاـ مـعـ الـذـيـنـ يـسـمـونـهـ «الـمـخـاتـرـينـ» (electos = élus)^(٢).

(1) أخذت اللغة اللاتينية المسيحية الكلمتين *«altare, ara»* اللتين كانتا تعنيان المذبح لدى الوثنين. (والصيغة *altaria* هي الأقرب إلى الصيغ العادية بل والأقدم) انظر العبارة *: ad altare tuum* أي على مذبحك. الملاحظة 1 من هامش صفحة 106 من الكتاب الخامس للاعتراضات، المرجع السابق.

(2) سرعان ما اضطر أوغستينوس إلى أن يلاحظ أنه لمن كان مذهب «ماني» يأمر المختارين بحياة التزهد الصارم، فإن بعضهم كان في الواقع يتهرب من الواجبات التي كان يتظاهر بالقيام بها =

فحتى ذلك الوقت كنت أظنّ أننا لسنا نحن الذين نُذنب، بل أنّ طبيعة أخرى لا أدري ما هي، هي التي تذنب فينا، وكان يحلو لكبريائي أن أكون بعيداً عن الخطيئة، وألاّ أعرف بخطئي، عندما كنت أخطئ، كي تداوي روحي «التي كانت مذنبة أمامك»، ولكن كنت أحب أن أجد الأعذار في التعلل بإدانة شيء آخر لا أدري ما هو، كان في داخلي وليس أنا. وفي الحقيقة كنت بأكملي أنا، وكفرني هو الذي كان قد جعل جزءاً من نفسي ضدّ نفسي، وهذا الذنب كان يشتّت إعصالاً، بقدر ما كنت لا أراني مذنبة، وكان جوري المقيت يفضل «يا إله القدرة الكلية» أن تغلب في لهلاكي، على أن تتصرّ أنت عليّ من أجل نجاتي.

إذن لم تكن قد وضعت بعد «حارساً على فمي، وباب التحفظ حول شفتي»، كي لا ينقاد قلبي «للكلمات الخبيثة من أجل تبريرات ذنبي بعون من الناس القائمين بالجور». ولهذا إلى حد ذلك كنت لا أزال على اتصال بـ«مختراتهم»، ولكنني كنت يائساً من أن أستطيع أن أغنم بعد شيئاً من هذا المذهب الزائف، وكانت قد فقررت، إن لم أجده شيئاً أحسن، أن أكتفي به بالذات، لكن تمسكـي به أضـحـى بعد أكثر فتوراً وتهاوناً.

19. وتبـعاً لـذلك نشـأت لي أـيـضاً فـكـرة كـوـنـ أولـئـكـ الفـلـاسـفةـ الـذـينـ يـسمـونـهـمـ بـالـأـكـادـيمـيـيـنـ (Academicos = Académiciens) «ـكـانـواـ أـشـدـ حـكـمةـ منـ جـمـيعـ الفـلـاسـفةـ الـآخـرـيـنـ، لأنـهـمـ كـانـواـ يـرـوـنـ ضـرـورـةـ الشـكـ فـيـ كـلـ شـيـءـ، وـأـنـ الإـنـسـانـ لـاـ يـقـدـرـ أـنـ يـدـرـكـ أـيـةـ حـقـيـقـةـ. إذـنـ كـنـتـ أـطـنـ حـقـاـ آنـهـمـ كـانـواـ يـرـوـنـ مـاـ كـانـتـ تـسـبـهـ إـلـيـهـمـ الـعـامـةـ، غـيـرـ فـاهـمـ بـعـدـ مـقـاصـدـهـمـ ذاتـهاـ حـقـ الفـهـمـ».

لم أتهاون في أن أردد مضيئي عينه عن الثقة المفرطة التي شعرت أنه يملكها في القضايا الأسطورية التي تملأ الكتب المأنيّة. غير أنّي كنت أكثر ألفة في معاملتي الودية لهم، متّي في معاملتي لجميع الناس الآخرين الذين لم يكونوا من تلك البدعة.

= الملاحظة 1 من هامش صفحة 106 من الكتاب الخامس للاعتراضات، المرجع السابق. وهنا يستهزئ القديس بالمخترعين العزوميين منهم.

(1) نقل هنا ملاحظة «ب. دي لا بريول» P. DE LABRIOLLE الواردـةـ بالـصـفـحةـ 108ـ منـ الـاعـتـرـافـاتـ: المـدرـسـةـ الـأـكـادـيمـيـةـ الـجـدـيـدـةـ، مـدـرـسـةـ أـرـسـيـزـيـلاـسـ Arcésilas (منـ 240ـ إلىـ 375ـ قـ مـ)، وـمـدـرـسـةـ «ـكـرـنـيـادـ» Carnéade (منـ 219ـ إلىـ 129ـ قـ مـ)، وـمـدـرـسـةـ «ـكـلـيـتوـمـاـكـ» Clitomaque (منـ 175ـ إلىـ 110ـ قـ مـ)، وـمـدـرـسـةـ «ـفـيـلـوـنـ دـيـ لـارـيـسـ» Philon de Larisse (منـ 148ـ إلىـ حواليـ 80ـ قـ مـ)، ومنـ الـمـحـتمـلـ أنـ يـكـونـ أوـغـسـتـيـنـوسـ لـمـ يـطـلـعـ عـلـىـ المـذـهـبـ الـأـكـادـيمـيـ إلاـ مـنـ خـلـالـ كـتـابـ «ـالـأـكـادـيمـيـاـ» Academica الـذـيـ آنـهـ «ـشـيـشـرونـ» Cicéron سنةـ 45ـ.

ولم أكن أدفع عنها بالحملة المألفة القديمة، بل كانت الألفة بهم مع ذلك - إذ كانت روما ملجأً لأغلبيتهم - تجعلني أكثر توانياً في البحث عن شيء آخر، خاصة وأتي كنت في كنيستك، «يا مولى السماء والأرض» وحالق كل المرئيات واللامرئيات، يائساً من أن أستطيع أن أجده الحق الذي كانوا قد حولوني عنه. وكنت أجده كل الخزي عند تصورك في شكل الجثمان البشري من اللحم، محدوداً بملامح شبهاً بملامح أعضاء أجسادنا! وعندما كنت أروم التفكير في إلهي، لم أكن أعرف إلا أن اتصوره في كتلة جسدية - إذ لم أكن اتصور أن يوجد شيء إن لم يكن على هذا النحو - ذاك كان هو السبب الأكبر وربما الوحيد لخططي المحتوم.

20. ومن هنا أيضاً كنت أعتقد في مثل هذا الوجود المادي للشَّرِّ، وكونه ذا كتلة بشعة وبلا شكل محدود، إما سميك، وهي التي يسمونها أرضاً، وإما دقيقة رقيقة، مثل جوهر الهوا، وهذا الطيف المؤذن (*malignam mentem = esprit malin*) يتوجهونه زاحفاً على هذه الأرض^(١). ولما كانت تقواي، مهما كان نقصها، تجبرني على أن أعتقد أنَّ الإله الطيب لم يخلق أية طبيعة خبيثة، كنت أرسم هاتين الكتلتين كالمتضادتين، وغير متناهيتين كلتاهما، لكنني جعلت الخبيثة على سُلْمٍ أضيق، والطيبة على سُلْمٍ أكبر، وكان هذا المصدر المسموم منبع جميع أنواع الترجس الأخرى.

وعندما كانت روحِي تحاول الرجوع إلى العقيدة الكاثوليكية، كانت تُدْخِرُ، لأن العقيدة الكاثوليكية ليست كما كنت أحسب وأفتر. كنت اتصور أنه من الأقرب إلى التَّقَىِ، أن اعتبر أنك، يا إلهي - الذي تشهد عليك «شفقاؤك» عليَّ - غير متنه أيضاً من جميع الأجزاء، سوى واحد، هو الذي كانت كتلة الشَّرِّ معارضته فيه لك، (وأنا مجرّب على الإقرار بكونك في ذلك محدوداً)، بدل أن أفترض أنك محدود في جميع الأجزاء، تحدُّك فيها صورة الجسم البشري. وكنت أفضل أن أعتقد أنك لم تخلُ أي شرٍّ - لأن الشَّرِّ لم يكن يتبدَّى لي، في جهلي، مادة ما فحسب، بل أيضاً مادة جسمانية، لأنني ما كنت لأتصور العقل إلا كالجسم الدقيق المنتشر مع ذلك في الفضاء - كنت أفضل ذلك على أن أعتقد أنَّ طبيعة الشَّرِّ، كما كنت أخالها، صادرة عنك. لذلك كنت أخال مخلصنا، ابنك الوحيدي، منبعثاً من كتلة جسمك التير الساطع من أجل نجاتنا، بحيث

(١) «مسألة أصل الشَّرِّ من المسائل التي شغلت العقول القادرة على المباحث الماورائية... طيلة القرون الأولى... من بين أهل البدع والفلسفه... ما مصدر الشَّرِّ، وما علّمه؟ ومن أين جاء الإنسان؟ إلخ». الملاحظة ١ هامش ص 109 من المرجع السابق.

أتنى ما كنتُ أرى فيه شيئاً آخر غير ما كان يصوره لي غوروبي. ولذا كنتُ أحسب أنَّ مثل هذه الطبيعة ما كانت تولد من مريم العذراء، دون أن تمتزج بالجسم. أما ما كنتُ رسمته هكذا، فلمْ أكن أرى كيف يتمزج دون أن ينبعَ. لذلك كنتُ أخشى أن أحسبه مُتَنَجِّسًا، حتى لا أجبر على أن أحسبه مُدَنِّسًا من جراء الجسم.
اليوم روحاتيوك سيفضحون مني بلطف ومحبة، عندما سيقررون «اعترافاتي» هذه.
لكتي، مع ذلك، هكذا كنتُ.

21.XI. ثم إنَّ ما كان المانويون قد انتقدوه في كتب المقدسة، كنتُ أعتقد أنه لا يمكن الدفاع عنه (*illi = eux = les Manichéens*)، لكنني أحياناً كنتُ أودّ حقيقةً أن أباحث في بعض انتقداتهم مع أحد أكبر العالمين بكتبهم، وأختبر ما يمكن أن يكون رأيه فيها.

كان هناك رجل يدعى **البيديوس⁽¹⁾** (*cuiusdam Elpidii = un certain Elpidius*) يلقي محاضرات ومناقشات علنية، ضدَّ أولئك المانويين أنفسهم. وكانت، منذ وجودي في قرطاجة، قد أخذت تثيرني أيضاً بعض الشيء، إذ كان يُعلن فيها مثل تلك الملاحظات عن الكتب المقدسة التي لم يكن الرد عليها يجابه بسهولة. كان ردّهم يبدو لي ضعيفاً، فلم يكونوا العمري يفصحون فيها عنها علينا وبسهولة، بل كانوا يفعلون ذلك إلينا في الخفاء، قائلين إنَّ الكتب المقدسة من العهد الجديد (*scripturas noui* (*testamenti = les Ecritures saintes du nouveau testament*)) قد حُرِّفت على يد أناس لا ندرى من هم، أناس أرادوا أن يدمِّروا دين اليهود في العقيدة المسيحية، ولم يكونوا هم أنفسهم يقدّمون أية نسخة غير مزورة. لكنني أنا المفكّر في الأشياء الجسمانية كانت ترهقني، ربما كالمسجون أو المخنوق، تلك الكتل التي كنتَ ألهث تحت وطأتها، غير قادر على تنفس هواء حقلَ الصافي النقى.

22.XII. بدأت بحماس أفعلُ ما كنت قد أتيت من أجله، أعني تعليم فن الفصاحة في روما، كنتُ في البداية أجمع بمنزلي بعض التلامذة الذين كنت قد بدأت من أجلهم - وبفضلهم - أضيَّع مشهوراً.

(1) ذكر «ب. دي لابريول» P. DE LABRIOLLE، صفحة 108 من الاعترافات مايلى: «لأنَّ عرَفَ شيئاً عن هذا المجادل». أضف إلى هذا أنَّ العبارة *cuiusdam* الدالة على الابتعاد تصدق على «البيديوس» أكثر من صدقها على «شيشرون» Cicéron في الكتاب الثالث (IV) باعتباره قمة من رجال الثقافة.

واعلم أني أعلم أن أوضاعاً أخرى توجد بروما ولم أكن أعاني منها في إفريقيا. إذ إنهم في الواقع كانوا قد أخبروني أن تلك **المُشَاغِبَات** (euersiones = chambardements) المعروفة لدى المراهقين الفاسدين لا توجد هنا. وقيل لي أيضاً «إنه قد يتفق أن تعمد عصبة من المراهقين على التامر، للهروب من أن يدفعوا للأستاذ أجوره، فينتقلون إلى أستاذ آخر، ناقضين عهد الصدق والعدل بسبب حب المال».

وهو لاءً أيضاً كان قلبي يكرههم، ولكن «بَكَرَاهِيَّةٌ غَيْرُ مُكْتَمِلَةٌ». إذ ما كنت سأعانيه منهم كان ربما جعلني أكثرهم مما كانوا يرتكبون من محظوظ في حق الغير.

ومع ذلك فأصحاب مثل تلك النفوس أدنياء، «يَزْنُونَ بَعِيدًا عَنْكَ» ويتعلّقون بأشياء سريعة الزوال، يتلاعب بها الزمن، كالريح القدر من الوحل، ما إن تمسه حتى يذنس يذلّك، ويuanقون علماً زائلاً، ويحتقرونك، أنت القار، المعيد، الغافر للزوح البشرية العائد إليك بعد عهر. والآن أكره أمثالهم المتفسخين المنحرفين، وإن أحبت أن أقوّهم، حتى يختاروا على المال المعرفة عينها التي يتعلّمونها، وعليها من جهة أخرى يخرونك أنت، يا إلهي الذي هو الحق وخصوصية الخير الحقيقي والسلام والغاية في العفة. إلا أني لم أكن أريد آنذاك تحمل شرّهم من أجلي، أنا، أكثر مما كنت أريد أن يصبحوا من أجلك، أنت، أختيara.

23.XIII. ولذلك بعد أن طلبت مدينة ميلانو (a Mediolanio = de Milan) من والي روما أن يعين لتلك المدينة أستاداً للفصاححة، مع حق استعمال عربة الإمبراطور للسفر، ترشحـت أنا بنفسـي لـذلك المنصب بواسـطة أولـنـك الإـخـوانـ الـهـائـمـينـ السـكـارـى بالـترـهـاتـ المـانـوـيـةـ: وـكـنـتـ ذـاهـبـاـ إـلـىـ هـنـاكـ لـكـيـ أـفـارـقـهـمـ، وـلـكـنـتـ كـنـاـ جـمـيـعاـ نـجـهـلـ ذـلـكـ. وـهـكـذـاـ بـعـدـ أـنـ قـدـمـتـ، عـلـىـ غـرـارـ التـجـرـبـةـ، خـطـبـةـ بـيـنـ يـدـيـ سـيـمـمـخـوـسـ وـهـوـ الـوـالـيـ آـنـذـاـكـ⁽¹⁾ (praefectus Symmachus = Symmaque)ـ، أـعـجـبـتـ خـطـبـتـيـ وـوـافـقـ عـلـىـ إـرـسـالـيـ إـلـىـ مـيـلـانـوـ⁽²⁾ـ.

وبعد وصولـيـ إـلـىـ مـيـلـانـوـ ذـهـبـتـ لـزـيـارـةـ الأـسـقـفـ أـمـبـرـوـزـيوـسـ ad Ambrosium (episcopum = l'évêque Ambroise)ـ الذيـ هوـ عـلـىـ وـجـهـ الـبـسيـطـةـ منـ الـأـخـيـارـ وـخـادـمـكـ. كـانـتـ خـطـبـهـ الـبـلـيـغـةـ تـُوزـعـ آـنـذـاـكـ عـلـىـ شـعـبـكـ بـهـمـةـ وـسـخـاءـ «جـزـهـرـ بـرـكـةـ»

(1) كان آنذاك والي المدينة، وكانت خطبة الوالي ذات قيمة متميزة في الإمبراطورية الرومانية، منذ المصور القديمة..

(2) دلم يمض أوغستينوس، في خريف سنة 384م إلا شهوراً قليلة بمدينة روما. وكان قد بلغ الثلاثين في الثالث عشر من شهر نوفمبر من نفس السنة (انظر الكتاب الرابع من الاعترافات (XI, 18) المرجع السابق، الملاحظة 1 ص 112).

و«رائقَ زَيْتِك» و«نشوةَ خَمْرَتَكَ المُغَتَدِلَةَ»^(١). أما أنا فكانت يُذُكِّر تقوذني إليه دون أن أعلم، كي يقوذني هو إليك، عن وعي مني ودرأية. استقبلني ذلك «الرجلُ الخادِمُ لِلإِلَهِ» استقبلاً أبوياً، وأكرم وفادي وعطف على عطف الأساقفة الحق.

وأخذت أحبته، في البداية، لعمري، لا لكونه عالماً حقاً، فقد كنت يائساً منه في كنیستك يأساً تماماً، بل لرعايته لي وحنته. وكنت مواظباً على الاستماع إليه وهو يجادل على رؤوس الملأ، دون الاهتمام الذي كان على أن أظهره، بل كنت كأنني أريد التحقق من بلاغته والتأكد من مدى مناسبتها لسمعيته، وهل كانت في مستوى أعلى أو أسفل مما كان شائعاً، وكانت متعلقاً بالفاظه، مهتماً بها، أما المعاني فكنت لها على الدوام مهملاً محقرها، وكانت مبتهجاً بعذوبة خطابه، وإن كان أكثر تبخراً، لكنه أقل ظرفاً وفتنة من خطاب فاوِشنوس، من حيث شكل المقال. أما من حيث المعاني فلا مجال للمقارنة بينهما: كان الأول (ille = celui - là = Faustus) يتبع في الأباطيل المانوية، أما الثاني (iste = celui - ci = Ambrosius) فكان يدرس نهج النجاة المستقيم. لكن «النجاة بعيدة عن الآثمين»، كما كنت أنا آنذاك بعيداً عنها، ومع ذلك كنت أقترب منها شيئاً فشيئاً ودون علم متى.

24. لم أكن أجده نفسي لأنتعلم ما كان يقوله، بل لأسمع فقط كيف كان يقوله. ومع ياسي بعدُ من أن يكون الطريق نحوه مفتوحاً، ظللت مع ذلك أحافظ بذلك الهم التافه. كانت في نفس الوقت تأتي إلى عقلي، مع الألفاظ التي كنت أحبتها، المعاني أيضاً التي كنت أهملها، إذ لم أقدر على الفصل بينهما. وبينما كنت أفتح قلبي لتلقّي ما كان يقول بالفصاحة، كانت تدخل إليه كذلك الحقائق التي كان يقولها، ولكن بالتدرج.

وفي البداية بدأت أتبين أن هذه الآراء التي يقدمها يمكن أن تكون صحيحة، وأنه يمكن أن ندافع، في غير تهور، عن صحة العقيدة الكاثوليكية. وحسبت في السابق ألا شيء يمكن أن يقال في صالحها لصدا هجومات المانويين، خاصة وإنني سمعته يفسر de scriptis ueteribus أكثر من مرة هذا الغموض أو ذلك في الكتب المقدسة العتيقة

(١) يذكر «ب. دي لا بريول» P. DE LABRIOLLE بأن هذه العبارة الأوغسティنية et sobriam uini ebrietatem (أي «نشوة خمرنا المعتدلة») أنها عبارة ماخوذة من بعض أناشيد «أمبروزيوس». (الملاحظة 2 ص 112).

(= de l'Ancien Testament)، بما يكاد يقتني⁽¹⁾، لما كنت أتأمل في تأويلهما الحرفية. لذلك بعد أن كان عرض معظم نصوص تلك الكتب عرضاً روحانياً، كنت أستذكر فيت يأسى، من حيث فقط أتي كنت اعتقدت أنه لا يمكن أن يجاهه ببيان الآلائعنون للذين وللرسل والساخرون منهم.

بيد أتي لم أكن أرى أنه يجب على انتهاج الطريق الكاثوليكي، لأنه ربما كان له أيضاً علماؤه المدافعون عنه والقادرون على دحض الاعتراضات بغزاره وبصورة منطقية. ولم أكن أرى أيضاً أنه يجب على التذكر لذلك المذهب الذي اعتقدته لأن الدفاع كان فيه ذا حظوظ متساوية. فلهذا كانت الكنيسة الكاثولوكية لا تبدو لي مهزومة، لكنها لا تبدو لي بعد متصرة أيضاً.

25. كنت آنذاك أستغل جميع طاقات ذهني، علّني بالاحداث إلى بعض الحجج الخامسة أستطيع أن أفحى المانويين ببطلان رفاهم. لو كان عقلي يستطيع أن يتصور وجود جوهر روحي، لانحالت لتوها كل تلك الافتراضات، ولا ماحت من فكري: لكنه لم يكن يقدر على ذلك. إلا أنه بخصوص هذا العالم الخارجي نفسه وهذه الطبيعة كلها التي تقدر حواسي على إدراكتها، كنت بالنظر والمقارنة أرى أن معظم الفلاسفة توصلوا بشأنهما إلى أفكار أرجح بكثير.

فلذلك قررت، أسوة بآراء الأكاديميين (*Academicorum more = suivant les maximes de l'Académie*)، كما تزول في العادة، ومدفوعاً بالشك في كل شيء متربداً بين كل الرّيب، قلتُ، قررت أن أهجر المانويين، معتقداً، في ذلك الوقت بالذات من حيرتي، أنه يجب على ألا أبيقي في تلك الملة التي كنت أخيراً بعد عليها بعض الفلاسفة: إلا أتي كنت أرفض تماماً أن أعهد بعلاج فتور روحي لهؤلاء الفلاسفة الذين كانوا لا يعرفون اسم المسيح المنجي.

لذلك عزمت على أن أبقى مُريداً للتَّنَضُّر (*catechumenus = catéchumène*) في الكنيسة الكاثوليكية الموكولة لي من لدن أبيه، ريشما يُشَطِّئُ نور من الحق به يقدر أن يوجه سباقي.

(1) ...كان المهد المتيق بتقني «الكتاب الخامس الملاحظة 1 هامش ص 113، المرجع السابق. ونقرأ في هذا الشأن ما يلي: «كان «إيرازم» ييدي تحفظاً على المنهج الأمروازي، في حين كان أوغسطينوس معجبًا به أيمًا إعجاب». لكن «دي لا بريول» يجيب قائلاً: «كانت فصاحة أمرواز Ambroise قد خلبت لب أوغسطينوس»، ويحيل القارئ على كتاب Soliloques، المجلد الثاني، XXVI، من Patrolia Latina XXXII، 897.

الكتاب السادس

١.١. يا أمل شبابي، أين كنت إلى، وأين انسحبت؟ أو لم تُكن أنت الذي خلقتني، وأنت الذي صورتني مباینا للسوائم، وأنت الذي خلقتني أحکم من طيور السماء؟ كنتُ أسير عبر الظلمات وعلى شفَا مُنزَلٍ، كنت أبحث عنك خارج نفسي، ولم أظفر بـ«إله قلبِي»، وكنتُ أغوص في «غيابه اليم». وكانت أفقد الثقة والأمل في الظفر بالحقيقة. كانت أمي قد أنت بعدُ إلى، قويةً بالقوى، تبعثني إلى ما وراء الأقطار والبحار، مستمدّةً منك شعورها بالاطمئنان وسط جميع الأخطار. وكانت في الأوقات الحرجة من الرحلة البحريّة تُطمئن النوتيين أنفسهم، والعادة أنهم هم الذين يطمئنون المسافرين الجاهلين بأطوار اليم عندما يفزعون، واحدة إياهم بالوصول بسلام، لأنها كانت قد تلقت منك في بعض رؤاها هذا القدر من الثقة.

ووُجدتني في خطر شديد بسبب يأسِي من أن أُعثر على الحق، لكن عندما أعلمتها باتي لم أعد مانويًا، ولا كاثوليكيًا مسيحيًا، لم تقفز فرحاً، ففز من سمع خبراً غير متوقع، بل وجدت بعض الأمان فقط بشأن جانب من شفائي كان يجعلها تبكيني أمامك، كما لو كانت تبكي ميتاً، لكنه ميت يجب عليك إحياءه، وكانت تقدّمني إليك على مِحفلة الفكر، كي تقول لابن الأرملة: «أثبها الشَّابُ، أُمُّكَ بالوقوف، هيَا انْهَضْ!» كي يُبعث من جديد ويأخذ في الكلام، وكي ترجعه إلى أمه. إذن لم يرتعد قلبها بفرحة عارمة، عندما علمت أنه كان قد وقع بعد، في جزء كبير جدًا منه، ما كانت يوماً تبكي لكي يقع. لم أفر بعد بالحقيقة، لكنني انتزعتُ بعد من الضلال: بل الأفضل من هذا، أنها كانت لفتر طويلاً إيماناً أنّ عطيتك لا تكون إلّا كاملة، لأنك كنت قد وعدتها بالكلّ، أجبتني، بمتنهى الهدوء وبصدر مفعم بالثقة، أنها تؤمن في المسيح بكونها، قبل أن ترحل من هذه الحياة، ستراني كاثوليكيًا صادقاً. ذاك لعمري ما قالته لي، أمًا إليك، يا منبة الشفقات، فكانت دعواتها ودعونها أغزر، حتى تعجل وتضيء بعونك «ظلُّماتي»، وبكلّ اندفاع كانت

تجري إلى الكنيسة وتعلق بشفتي أمبروزيوس، ذلك المنبع، «منع الماء المتدفق من أجل الحياة الخالدة»! فهي كانت تحيط بذلك المرء بحسب «ملاك الألاء» لأنها كانت قد عرّفت أنه هو القائد الذي أوصلني بعد ذلك التردد وذلك التموج اللذين كانت تظن حقاً أنها سأنتقل بهما من المرض إلى الصحة، عبر خطوة وضيق أكبر، كما في الأزمة التي يسميتها الأطباء الأزمة الحاسمة.

II.2. لذلك، لما قدمت لقبور القديسين، كما كانت العادة بالمقاطعة الإفريقية، العصائد والخبز والخمر الصافي، رفض البابا هديتها، وعندما علمت أنّ الأسقف حجر ذلك، تقبلت الأمر بتفّق وطاعة مُتناهٍين؛ لقد أعجبت بها، فقد أصبحت بسهولة تفضل اتهام عادتها، عوض الحكم على ذلك التحجيج، إذ لم يكن الإدمان يحاصر عقلها، ولا حتّى الخمر يحثّها على كراهية الحق، كمعظم الرجال والنساء، حين يشعرون بالغثيان أمام ترتيل آية (*canticum = un cantique*) عن القناعة (*sobrietatis = de sobriété*)، كما يشعر المدمنون على الخمر بالتنزّز عند شرب الماء: لكنها عندما قدمت بسلة من الماكّل العاديّة المجعلة لتنفّع أولاً ثم توزّع بسخاء، كانت أيضاً لا تصب لنفسها القناعة جداً أكثر من قدر صغير من خمرة مشغّشعة، حتى تناول اعتبار الآخرين، فإذا كانت القبور التي تستحق مثل هذا التكريّم كثيرة العدد أدارت الخمرة في نفس تلك القدح الوحيدة، تصبّها فيها في كلّ مكان، لم تكن خمرة مشغّشعة جداً فقط، بل كانت فاترة جداً أيضاً، كانت تقاسمها الحاضرين في جُرّعات صغيرة، لأنّها كانت تبحث هنالك عن التقوى، لا عن اللذة.

لذا فما أن علمت بأنّ الواقع الشهير، سيد التقوى، قد أوصى بمحظوظ هذه العادات حتى على أولئك الذين كانوا يقومون بها باعتدال، لكي لا تعطي للشكاري أية فرصة للإفراط في شرب الخمر، ولأنّ تلك الحفلات شبيهة جداً بتلك التي كان الوثنيون يقيّمونها لتهنئة أرواح آبائهم⁽¹⁾ حتى امتنعت عنها عن طيب خاطر، وعواضاً عن السلة المليئة بغلال الأرض، فقد عرفت كيف تأتي إلى كنائس الشهداء بصدر ملآن بذور أكثر طهارة، بحيث كانت أيضاً تعطي المعوزين ما يمكن إعطاؤه وتحتفظ هيكلها هناك

(1) نورد هنا ما ذكره «ب. دي لا بريول» عن هذا العيد قائلاً عن كتاب *les Fastes II*, 533: «هذا الحفل الجنائزي يبدأ في الثالث عشر من شهر فيبروي حوالي الساعة السادسة ويتواصل حتى الساعة التاسعة ليلاً. وكان الهدف منه تهنئة أرواح الوالدين *animas placare paternas*» انظر المجلد الأول من كتاب الاعرافات، الكتاب السادس ص 119 بالهامش، الملاحظة 1.

بالاتصال مع جسم المولى الذي ضخ الشهداء من أجله بأنفسهم أسوةً بالآلهة وتوّجوا. ومع ذلك يبدولي، يا مولاي واللهم - وعلى هذا النحو يتصرّر قلبي وهو «يَمْرُأَيْهِنَّكَ» هذا الأمر - أنّ أمّي ما كانت رتّاماً لِتُقْدِمَ على الإفلال عن تلك العادة، لو حجرها غير أميروزيروس الذي كانت تجده كثيراً. إذ كانت تجده إلى أقصى حدّ بسبب نعاجتي. أمّا هو فكان يحبّها بسبب حياتها التّقية للغاية التي كانت تتردد فيها على الكنيسة «يَقْلُبُ كُلَّهُ وَرَعْ» وفي أعمال البرّ، بحيث آنه كثيراً ما كان، عندما يراني، ينطلق في تقريرها، مهمّتنا إياتي، بأن تكون هي أمّي. لم يكن يعلم أي ابن كنت لها، أنا الذي كنت أشك في كل شيء، ولا أعتقد بـ«أنا» أنه يمكن أن يوجد «طريق الحياة».

III.3. ولم أكن أئنّ بعد في دعائي، كي تغشّني. لكنّ فكري كان مشدوداً إلى البحث ومحفزاً للمناقشة. وكنت أعتبر أميروزيروس ذاته رجلاً سعيداً في نظر الناس، يوفره أعظم الأساطين كل التّوقير: تبلّه فقط كان يبدولي مفضلياً، أما الآمال التي كان يحملها، والمعاناة التي يشعر بها عند مقاومة نزعات متزنته الرفيعة الشأن، أو ما كانت له من سلوى في المحن، وما كان يجده في أعماقه عبر فمه الخفي، من طعم الغبطة، وهو يجترّ من جديد رغيفك، كلّ هذا لم أكن أعرف كيف أتصوره، ولم أكن قد خبرته.

وكان هو بالمثل لا يعلم تهيجاتي ولا الهاوية التي فيها خطري، فلم أعد قادرًا على أن أطلب منه ما كنت أريده كما كنت أريده، لأنّ حشوداً من أناس منشغلين، كان يخدم هو معيشتهم، كانوا يبعدونني عن سماعه ورؤيته: لكنه كلّما كان وحده ولم يكن معهم كان ذلك الوقت الضيق جداً يُسْتَعْمَلُ إما لِيُتَعِيشَ جسمه بالأغذية الضرورية، أو فكره بالمطالعة.

لكنه لما كان يطالع، كانت عيناه تجريان فوق الصفحات، وكان قلبه يكتشف معناها، أمّا الصوت واللسان فكانا ساكنين. وكثيراً ما رأيتها، عندما كنت قريباً منه - إذ لا أحد يُمْتَنَعُ من الدّخول عليه، ولا أحد ينبعه بقدوم القادم - يطالع بصوت خافت، ولا يطالع بصورة أخرى قطّ. كنت أمشي جالساً في صمت طويل جداً (إذ من كان يجرؤ على مضايقته وهو منشغل هكذا؟)، وكنت أغادره، وأنا أعتقد أنه في ذلك الوقت القصير الذي كان يجده كي يستعيد فكره وقواه، وقد فرغ من ضجيج شؤون الآخرين، لا يريد أن يدعى إلى أمر آخر. لعلّه كان يتجنّب القراءة بصوت مرتفع مخافة أن يضطرّ أن يفترس لمستمع متبه ومهتم ما كان قد قرأه هو من كلام شديد الغموض، أو لأنّ يناقشه في

بعض المسائل الأكثر صعوبة. لذلك كان يخصص للأثار التي كان يريد شرحها وقنا أقل من اللازم، ثم إن الحفاظ على صوته الذي كان ينكسس بسرعة، ربما يكون هو أيضا دافعا حقيقيا لقراءته سراً، ومع ذلك، ومهما كانت تبة القيام بها، فإن ذلك الرجل الهمام كان يقوم بها ببنية حسنة.

4. وفي الواقع، لم يكن يتاح لي أن أسأل بلا حساب وسيط وخيك المقدس المائلا في صدره إلا لما كان مجبرا على أن يسمع متى يأي جاز سؤالا ما. أما تلك التهيجات التي كانت في نفسي، فكانت تطلبه كثيرا في فراغه، كي تنسكب فيه، ولم تكن قط تجده^(١). ولذلك كنت أستمع إليه «مُفْسِرًا بالصوابِ قَوْلَةَ الْحَقِّ» أمام الشعب، كل يوم أحد. وكان يتأكد لي أكثر فأكثر أنه يمكن حل عقد جميع الافتراضات الدقيقة التي كان أولئك المضللون لنا يحوكونها ضد الكتب المقدسة.

أما عندما تبيت أن القولة «الإِنْسَانُ قَدْ خُلِقَ طِبْقًا لِصُورَتِكَ» لم يفهمها أبناء الرؤحيون - الذين قد أحیيتهم من الكنيسة الكاثوليكية بالنعمة - بمعنى أنه كان عليهم أن يؤمنوا بك ويرزوك محدودا في صورة الجسم الإنساني، ورغم أنني لم أكن أشتت ما هي الرائحة الروحانية، مهما كانت رقيقة وغامضة، فمع ذلك احتر وجهي فرحا لكوني قد نجحت طيلة كل تلك السنين لا ضد العقيدة الكاثوليكية، بل ضد الأوهام والتصورات الجسدية، ولعمري قد كنت بعد مجازفا وزنديقا في هذا، أي في كون ما كان علي أن أتعلمه باحثا فيه، كنت قد قلت بعد فيه متهم إياه، أنا أنت، «الأَغْلِي وَالْأَقْرَبُ، الأَخْفَى وَالْأَكْثَرُ حُضُورًا» الذي ليس لك أعضاء، منها الأكبر ومنها الأصغر، بل أنت كل في كل مكان، ولا كل في أي مكان كان، ليست لك على كل صورتنا الجسدية، فمع ذلك خلقت «الإِنْسَانَ طِبْقًا لِصُورَتِكَ»، وهذا هو بالذات، من الرأس إلى القدمين، في الفضاء (in loco = dans l'espace).

5. إذن لما لم أكن أعرف كيف ترسم فينا صورتك، كان علي أن أطرق ببابك قصد فهم ما كان علي أن أومن به، عرض أن أعارضك بوقاحة، كما لو كانت تلك العقيدة كما أتصورها. لذا فقدر ما كان الهم ينخر بحدة أعمق أعماق فؤادي في ما كان لي أن أحفظه كحقيقة، كنت أخرج أكثر من كوني قد استهزي بي طويلا، وضللتك

(١) *nec unquam inueniebant* = ولم أكن قط أجده المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 121. يحدثنا المفسر التحرير أوغسطينوس هنا عن «ذلك الاستقبال الأبوي» الذي خصه به «أميرواز» Ambroise وقد كان يشعر أن نفسه بعيدة بعض البعد عن مؤلف الاعترافات.

بالوعود بالحقائق، مخططاً كالصبيان، وكوني ثقفت بحماس الكثير من الظنون على أنها حقائق. وكون هذه الظنون غالطة، ذلك ما تأكّد لي في وقت لاحق. إلّا أنّي كنت متأكّداً أنها ليست حقيقة، وأنّي كنت قد اعتبرتها يوماً ما كالحقيقة، لما كنت آتّهم كنيستك الكاثوليكية في اعتراضاتي العمياء، وإن لم تُكتشَف متنى كمعلمة للحق، بل لامعلمة لما كانت آتّهمها به بخطورةٍ. لذلك كنت مرتكباً ومتحولاً وفرحاً، يا إلهي، أن تكون كنيستك الوحيدة جسم ابنك الوحيد التي رُسخَ لي فيها اسم المسيح، لا تذوق الترهات الصبيانية، ولا تقول في عقيدتها الصحيحة بأنّك أنت، خالق الكل، تحصرك في الفضاء الأعلى والواسع بلا شك، ولكن المحدود من كلّ جهة بخطوط الأعضاء البشرية.

6. كنت فرحاً أيضاً بأنّه لم يعرض عليّ بعد قراءة الكتب القديمة في القانون والرسّل نفس القراءة، التي كانت تبدو بها تلك الأمور في الماضي عبّيّةً، عندما كنت أعيّب على قدّيسك أنّ تلك كانت آراؤهم، أمّا في الواقع فلم يكونوا يرون ذلك. وحيث كان أمير وزيوس يعظ القوم مواعظه العاجلة للغاية، كنت أسمعه فرحاً في خطبه يقول: «الحزفة تقتل، أمّا الرُّوح فتشفي»، عندما كان يكشف النصوص التي كانت الحرفية فيها تبدو معلمة للباطل، مزيلًا روحانتها الستار المجازي، ساكتاً عما قد يصلمني، وإن كان يقول ما كنت لا أزال أجهل، هل كان ما يقوله الحق. كنت أمنّ قلبي من كلّ تصديق خوفاً من الهاوية، وكان يقائي معلقاً يقتلنـي. إذ كنت أريد أن أكون متأكّداً هكذا من الأشياء التي لم أكن أراها، تأكّدي من كون سبعة وثلاثة تساوي عشرة. إذ ما كنت من العناهـة، لأنّـن أن هذه الحقيقة أيضاً لا يمكن أن تفهمـ(١)، ولكن على منوالها، كنت أرغـب في أن أفهمـ جميع الأشياء الأخرى، سواء كانت جسدية لـو لم تبرـز للعيان إلى حـواستي، أو روحانتـهـ لم أكن أفكـر فيها إلـا جـسدـيـاً.

وكان علىـي أن أؤمن لأشفـيـ، لـكيـ أوـجـهـ عـيـنـيـ فـكـريـ، فيـ طـهـارـةـ أـكـبـرـ، بـكـيفـيـةـ ما نحوـ حـقـقـ القـازـ دـوـمـاـ وـالـسـرـمـدـيـ، لكنـ، وـكـمـ يـحدـثـ عـادـةـ، فـكـمـ آـنـ منـ خـبـرـ طـبـيـاـ سـيـتاـ، يـخـشـيـ أـنـ يـعـرـضـ نـفـسـهـ عـلـىـ طـيـبـ آخرـ وـلـوـ كـانـ نـطـاسـيـاـ، كـذـلـكـ روـحـيـ المـرـيـضـةـ

(1) ...comprehendi ... Neque... tam insanus, ut ne hoc... comprehendi لأنّـنـ آـنـاـ لاـ يـمـكـنـ أـنـ نـهـنـدـيـ إـلـىـ مـثـلـ هـذـهـ القـرـوـلـةـ (أـيـ القـوـلـةـ الـرـيـاضـيـةـ 7 = 3 = 10). وـنـجـدـ فيـ هـذـاـ الشـائـنـ فـيـ الـمـلـاـحـظـةـ 2ـ مـنـ هـامـشـ صـفـحـةـ 123ـ مـنـ نـفـسـ المـرـجـعـ (أـنـ فـيـ مـخـلـفـ الـكـتـبـ الـتـيـ أـنـتـ إـنـ اـعـتـاـقـيـهـ (الـكـاثـوـلـيـكـيـةـ) قـدـمـ عـلـمـ الـهـنـدـسـةـ وـعـلـمـ الـأـعـدـادـ باـعـتـارـهـماـ يـوـقـرـانـ الدـلـلـ الـقـاطـعـ عـلـىـ وـجـودـ حـقـيـقـةـ ثـابـتـةـ، وـيـفـحـانـ الـبـابـ لـوـلـوـجـ الـعـالـمـ الـرـوـحـيـ).

التي ما كانت لتشفي إلا بالإيمان، كانت ترفض أن تشفى، خوفاً من الإيمان بالضلال، مقاومةً ما أحضرته يدك أنت من أدوية الإيمان، وداوينت بها أمراض الكون ومنحتها النجاعة التامة.

V. مع ذلك، فبداء من ذاك الوقت أيضاً، كنت أفضل بعد العقيدة الكاثوليكية، وأنا شاعر بكوني أؤمن فيها، بأكثر اعتدالاً ودون أي تضليل، بأنّ أؤمن بما لم يكن مُثبتاً (سواء كان الاستدلال عليه ممكناً، لكنه لا ينكشف للجميع)، أو كان الاستدلال ممتنعاً على عكس المانويتين الذين يسخرون بالإيمان ويعذون بالعلم جزافاً، وبعد ذلك يحملوننا على الإيمان بالكثير الكثير من الأساطير اللامعقولة بالمرة، بتعلة كون إثباتها غير ممكن⁽¹⁾.

ثم إنك شيئاً فشيئاً، يا مولاي، ويد لطيفة حنون، تتدبر قلبي وتهذبه، وأنا أرى أشياء كثيرة لا تحصى أؤمن بها دون أن أكون قد رأيتها، وأشياء كثيرة أخرى لم أكن حاضراً عند وقوعها، كالأحداث العديدة في تاريخ الشعوب، والواقع التي لا تحصى في الأصقاع والمدن التي لم أرها قط، والمعلومات الكثيرة جداً الصادرة عن الأصحاب، والأطباء والألوان المؤلفة من الناس، وعن غيرهم، فلو لم نكن نصدق بكلّ هذا، لما استطعنا أن نقوم بأي شيء في هذه الحياة! ألمست أؤمن إيماناً لا تشوهه شائبة من أي أبيرين نشأت؟ الشيء الذي ما كنت لأعرفه لو لم أصدق ما قيل لي عنه؟ لقد أقنعني بأنّ من يجب زجرهم ليسوا من يؤمنون بكتبك التي رَكَّزَتها تقريراً عند جميع الشعوب بالسلطان الأكبر، بل أولئك الذين لا يؤمنون بها، وبأنّه يجب عليّ ألا أصنفي لمن قد يقولون لي: «من أين تعرف أن تلك الكتب قدّمت للجنس البشري من طرف روح الإله الواحد الحق الصادق؟». فذاك بالذات ما كان عليّ بالخصوص التصديق به، بما أنّ لا شيء في الإشكاليات الإفتراضية الحامية الخاصة بالكثير مما كنت قد قرأته عن نزاعات الفلسفه العديدة، كان ليسلبني في يوم ما التصديق بوجودك، وإن كنت لا أعرف أنا ما تكون أنت، ويكون تسيير الشؤون الإنسانية يتعلّق برحمتك⁽²⁾.

(1) ... *quia demonstrari non poterant* = بتعلة أنه لا يمكن الاستدلال عليها (أي على الأساطير اللامعقولة)، وعلق «يار دي لا بريول» Pierre DE LABRIOLLE على هذا بقوله: «من هنا بدأ أنظرت أوغستينوس نحو الديانة الكاثوليكية بقوى ويشدة». المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 124.

(2) ... *administrationem rerum humanarum ad te pertinere* = تسيير الشؤون البشرية يتعلق برحمتك. (المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 125). «وقد طور أوغستينوس هذه الآراء عن شرعية الإيمان في كتيب ظهر بعد الاعتراضات بوقت قصير».

8. لكن كنت أؤمن بهذا بصورة أحياناً أقوى، وأحياناً أضعف، إلا أنني آمنت دوماً بوجودك وبيكونك تهتم بالجنس البشري، ولو أنني كنت أجهل إما ما كان ينبغي عليّ أن أظنه في جوهرك، أو ما هي الطريق التي تؤدي أو ترجع إليك.

ولذلك، بما آثنا كنا ضعفاء للعثور على الحق بالعقل الصرف، وكذا هكذا في حاجة لحججة الكتب المقدسة، كنت قد بدأت بعدُ أؤمن بأنك ما كنت بأية صورة تمنع تلك الكتب على مدى الكون مثل هذه الحججة السامية، لولم تكن تزيدُ أن يؤمن بك بواسطتها الناسُ، وأن يبحثوا بواسطتها عنك.

أما اللامعقولة التي كانت تصدمي عادةً في تلك الكتب، لما سمعت الكثير منها يُعرض على وجه الاحتمال (*probab - iliter = vraisemblablement*)، فكنت أعيدها إلى عمق الحقائق الخفية، وتلك الحججة كانت تبدو لي أكثر وقاراً وأجرد بيايمان قدوس، بقدر ما كانت على ذمة كل من يريد أن يقرأها، وكانت تحافظ على شرف سرّها لتحليل أعمق، عارضة نفسها على جميع الناس بالفاظ واضحة جداً وفي أسلوب بلاغي متواضع جداً، ومحبّرة همة الذين ليسوا «ذوي قلبٍ خفيفٍ»، بحيث كانت تقبل الجميع في حِجْرِهَا الطيب، وتترُّكُ القليل يمرون إليك عبر فتحاتها الضيقة، لكن أكثر بكثير مثالاً لو لم ترتفع إلى هذه القيمة العالية جداً من الاعتبار، ولو لم تجذب الجماعات لحضور تواضعها المقدس.

كنت أفكّر هكذا، وكانت بجانبي، كنت أنتهّد وكانت تسمعني، كنت أتموج وكانت تقودني، كنت أسير عبر طريق الدنيا الواسع ولم تكن تخالني عنّي.

9.VI. كنت أصبو إلى شارات الشرف والمكاسب والزواج، وكانت أنت تصحّك مثلي. كنت أتحمّل في هذه الشهوات أمر الصعوبات، وكان عطفك على نافعاً وفي محلّه لأنك كنت تجعل فيما لم يكن أنت قدراً قليلاً من الأطاييف كي لا أستيقنه. انظر إلى قلبي، يا مولاي، أنت الذي أرددتني أن أندّرك هذا بين يديك وأن أعترف لك به، فلتلتّحم بك الآن روحي التي خلّصتها من صنف هذا الموت النرج!

كم كانت شقّيّة! كنت أنت تخَرُّجُ رجّحها كي ترك كل شيء وتشجه نحوك، أنت الذي «هو فَزُقُّ الْكُلُّ» والذي بدونك لا شيء من الكل يكون، كي تشجه نحوك وتشفّى. إذن كم كنت شقّيّاً، وماذا فعلت حتى أحسّ بشقائني، في ذلك اليوم الذي كنت أتهيأ فيه لأنزلّ تقريراً للإمبراطور أنطق فيه بأكثر من أكذوبة وأنا بذنبي استحسان العارفين به. كان قلبي يختلّج لتلك الهموم، ويضطرّم بحُمّى الأفكار المحرقة، عندما مررت بحـيـ

من أحياه ميلانو ورأيت متسللاً فغيراً نشوان بما شرب؛ لا بدّ أنه نال نصيبي! تأوهت وحدّثت الأصدقاء الذين كانوا معي، عن كثرة الآلام التي يرمينا فيها جنوننا. كنت آنذاك بواسطة جميع الجهود التي أبذلها، أجرّ ورائي تحت مناخ الشهوات عبء تعاستي، وأزيده وأ أنا أجره ثقلاً على ثقل. ولم نكن نريد شيئاً آخر عدا الوصول إلى الغبطة الآمنة، لقد سبقنا إليها ذلك المتسلل، ولربما لنبلغها من بعده قطّ. فما كان ذلك الرجل قد تحصل عليه بقطع التقدّر الزهيدة القليلة جداً التي جمعها بالتسوّل، أي غبطة السعادة الدنيوية، كنت أنا أسعى إليه عبر منعطفات مضنية جداً وطرق ملتوية. لم يكن يشعر بالفرح الحقيقي؛ لكن أنا أيضاً كنت في تلك المساعي أبحث عما هو أكثر قريباً من الباطل. وكان هو دون شكّ مغبظاً، أمّا أنا فكنت حيران، وكان هو آمنا، أمّا أنا فمُزتَّجفُ، ولو سألني أحدّهم، أكنت أفضل الابتهاج أم الخوف لأجبته: «الابتهاج»، وبالعكس لو سألني، أكنت أفضل أن أكون كما كان هو، أم كما كنت أنا آنذاك، لاخترت أن أكون أنا ذاتي رغم إرهاق الهموم وأنواع المخاوف. لكن بسبب ضلالي، أين كنت من الحق؟ فإنه ما كان على أن أعدّ نفسي أفضل منه، بالخصوص لكوني كنت أعلم منه، حيث لم أكن أستمدّ من هنا فرحي، بل كنت أبحث من هنا كيف أعجب الناس، لا كي أعلّمهم، بل فقط كي أعجبهم. لذلك «كُنْتُ تُكَسِّرُ عِظَامِي» بعاصتاً داديك لي.

10. ليبعد إذن عن نفسي أولئك الذين يقولون لها: «ينبغي النظر في سبب الفرحة. ذلك المتسلل كان فرحاً بسبب السكر، وأنت كنت ترغب في الفرحة بسبب المجد». أيّ مجد، يا مولاي؟ المجد الذي ليس فيك! إذ كما أنّ الفرحة الحق لم تكن عنده، كذلك لم يكن عندي ذلك المجد الحق، وكان فوق ذلك يكدر صفو فكري. كان في تلك الليلة ينام بعد ثمله، وأنا كنت قد نمت واستيقظت مع تَنَّلي، وسألناه وأستيقظ معه، ترى كم يوماً نعم، ينبغي النظر في سبب الفرحة، أعلم بذلك، وفرحة الآمال المقدّسة تختلف كل الاختلاف عن تلك الأباطيل. لكن كان بيننا كذلك فرق آنذاك: لا غرابة أن يكون هو لعمري أسعد متّي، لا فقط لأنّه كان يغمره المرح، في حين كانت تخزني الهموم، بل أيضاً لأنّه كان قد تحصل على الخمرة بواسطة الدعاء لبعضهم بالسعادة، في حين كنت بالكذب أبحث عن فخر زائف (tyfum = une vaine gloire).

قلت آنذاك الكثير في هذا المعزى لأصدقائي العزيزين على نفسي، وكثيراً ما كنت، في تلك الظروف، أهتم بمعرفة كيف كانت حالي، وكنت أجد أنها كانت سبعة. كنت

أتألم ويتضاعف ألمي نفسه، ولو ضحكت لي السعادة، لاشمأزرت من القبض عليها وأعرضت عنها، لأنها كانت تفرّ وتتطير قبل أن تُؤخذ.

11.VII. كنّا نتأوه معا هكذا، نحن الذين كنّا نعيش معا أصدقاء، وكانت بالخصوص اتحادت في هذه المواقبيع مع **أليبيوس ونبريديوس** (*cum Alypio et Nebridio*) أليبيوسُ فقد ولد في نفس = **الحَمِيمِين** للغاية. أما **أليبيوس** (*municipio = du même... municipio*) التي ولدت فيها، من أبوين من المدينة (*primatibus = d'une famille très bien posée*)⁽¹⁾، وكان أعلى طبقات الأعيان فيها (*in nostro oppido*)، ثم في قرطاجة، وكان يحبتي كثيراً، حيث كنت أبدو له طيباً وعالماً، وكانت أنا أحبه بسبب استعداده الكبير للفضيلة التي كانت جلية جداً لديه، رغم حداه ستة. إلا أن لجة السلوكيات القرطاجية التي بها تحمى العروض المسرحية التافهة، كانت قد أغرتني في جنون ألعاب سباق الخيل (*circensium = des jeux du cirque*). لكن بينما كان الشقي يتمرغ فيه، كنت أنا بالعكس أعكف هنالك على تدريس البلاغة في مدرسة عمومية، لكنه لم يكن يتردد على دروسي بسبب خصومة كانت قد نشبت بيني وبين أبيه. وكانت قد علمت أنه كان يحب ألعاب سباق الخيل (*circum = le cirque*) المنحوسة، وكانت شديد الحسرا عليه، لأنه كان يبدولي أنه سيُضيّع أحسن الآمال، أو أنه قد ضيّعها بعد ذلك. لكن لم تكن لي حيلة الإنذاره وإعادته إلى سوء السبيل قهراً، إنما باسم عطف الصداقة، أو باسم سلطة المدرس، إذ كنت أعتقد أنه كان يشاطر رأي أبيه في ذلك، إلا أنه لم يكن كذلك. لذلك، دون أي اعتبار في هذا الأمر لإرادة والده، كان يبادرني بالتحية، ويقبل على محاضراتي، ويسمع شيئاً منها، ثم ينصرف.

12. لكنه خرج من حسابي أن أجعله لا يهدِّم عبقرية حسنة جداً بالولع الأعمى غير المتبصر بالألعاب التافهة. أما أنت، يا مولاي، المتحكم في كل شيء خلقته، فلم تكن قد نسيت أن **أليبيوس** سيصبح واحداً من أبنائك، وقَسَ سرث الخفي، ولكنني يُغَزِّي تقويمه إليك جهراً، جعلته على يدي، لكن دون أن يكون لي علم بذلك.

ففي يوم من الأيام، بينما كنتجالساً في مكاني العادي، وكان التلاميذ جالسين أمامي، جاء هو وسلم عليّ وجلس واهتم بالاستماع إلى ما كان يدور في الدرس.

(1) **سيصبح «أليبيوس» Alypius** أستقراً بمدينة «تاغست» مسقط رأسه سنة 394، أو 395، قبل بضعة أشهر من قبول **أوغستينوس** رتبة الأسقف. المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 128.

وكان بين يدي صدفة نص. وعندما شرحته، بدت لي المقارنة بالألعاب المدارج مناسبة كل المناسبة ليكون ما كنت أعنيه أجمل وأوضع، مع السخرية اللاذعة من أولئك الذين أسرّهم ذلك الجنون. «أنت تعلمُ، يا إلهي»، أتى ما كنت أفكّر آنذاك في مداواة **أليبيوس** من ذلك الوباء. أمّا هو فقد تلقى تلك الملاحظة كما لو كانت موجهة ضده واعتقد أتى لم أقلها إلا من أجله، ولو كان أحد آخر مكانه لصبّ على جام غضبه، لكن هذا الشاب اللطيف صبّ غضبه على نفسه ولم يفعل إلا أن صار حبه لي أكثر حرارة⁽¹⁾. أوّل مقل قديماً في كتاب: «وَيَخْرُجُ الْعَاقِلُ يُحِبُّكَ!» أمّا أنا فلم أويتحبه، لكنك أنت هو المستعمل لجميع العارفين وغير العارفين، طبقاً للنظام الذي تعلمه - وذلك النظام هو الحق - والذي جعلت من قلبي ولسانني جمرات حامية، كي تکوئ بها ما تهراً من فكر ينبع بالخير، وكي تداویه. وليسکت عن مدحوك، من أغمض عينيه عن رحمتك التي تعرف إليك من أعماق النفس (*de medullis meis = du plus profond de moi – même*).

وفي الحقيقة فإن **أليبيوس** خرج، بعد أن سمع كلامي، من الخندق العميق الذي كان يحلو له أن يغرق فيه ويحسّ بلذة عجيبة وهو أعمى عن الحق. طهر نفسه بتنسّك تام، ملقياً عنه كل أدران ألعاب سباق الخيل، ولم يذهب إليها بعد ذلك اليوم. ثم انتصر على ممانعة أبيه ليسمع له بالاختلاف على دروسي: فسمح له بذلك بعد أن غلبه على أمره. وأخذ من جديد يتردّد على دروسي، وسقط معي في أحobble خرافت المانويين، محباً عندهم التبااهي بالزهد الذي كان يظنه فيهم حقيقية. ولم يكن وراء ذلك سوى الجنون والخداع لاستهواه النغفوس الطيبة الجاهلة بسبر أغوار الفضيلة، والفريسة السهلة المعرضة للإغترار بالظواهر، والحال أنها رباء وفضيلة مختلفة.

13. ويدون أن يعرض، البة، عن الترب الدينوي الذي فتحه أمامه أبواه، كان قد سقني إلى روما كي يتلّم الحقوق، وفيها بُرُوفَ بشراهة غريبة جداً إلى مشاهدة المتصارعين (*gladiatorii spectaculi = des spectacles de gladiateurs*). كان يبغض تلك المشاهد ويكرهها. لكن حدث صدفة أن لقاءه بعض أصحابه

(1) المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 128: لا نرى ما يجعلنا نشك في صحة هذه النادرة. إلا أن قصة هذا الشاب الفاجر، وهذه القصة الغريبة، قصة هذا الشاب الذي يدخل مدرسة أستاذ شهير ويشعر فجأة أنه مشدود إليه وقد غير الكلام الذي سمعه أفكاره، قصة نجدها عند عدد لا يأس به من الكتاب الأخلاقيين القدامى. فالواقعة الحقيقة يمكن أن تذكرنا بموضوع قديم...! بشأن قوله... صار حبه لي أكثر حرارة^{...}.

ورفاقه في التراسة في الطريق، وهم عائدون من وليمة. قادوه رغم معارضته القرية، بعنف أخوي إلى المدارج (*in amphitheâtre* = à l'amphithéâtre)، وبها في ذلك اليوم تلك الألعاب الفظيعة المشوّمة، قادوه إلى هناك وهو يقول: «إن جررم جسمي إلى ذلك المكان، ووضعتموه فيه، فهل تقدرون على أن تشذوا روحني وعيني إلى تلك المشاهد. سأكون إذن حاضراً غائباً، وهكذا سانتصر عليكم وعلىها!!» ورغم أنهم سمعوا أقواله، فقد أخذوه معهم، راغبين ربما في التتحقق من قدرته على ربط الفعل بالقول.

ولما وصلوا إلى هناك، وجلسوا في المقاعد كما اتفق لهم الجلوس، كانت كل المدارج حامية بأوحش الملاذ. أما هو فقد أوصد أبواب عينيه، مانعاً روحه من المشاركة في مثل تلك الشرور. ولبيته أوصد أيضاً أذنيه! فقد أثار حادث أثناء الصراع هتافاً كبيراً أحقرّ وقعه بين المترجين، فغلبه الفضول، واعتقد آته، مهما كان ذلك المنظر، سيحتقره ويتبلي عليه، وفتح عينيه، فأصاب روحه جرح أشدّ من الجرح الذي أصاب جسم المصارع الذي رغب بقوّة في مشاهدته، وسقط في شقاء أكبر من شقاء الذي لسقوطه ارتفع الصراخ الذي دخل عن طريق الأذنين، ففتحت عينيه، حتى تدُّكَّ دَكَّ روحه التي كانت إلى حد ذلك الورقة جريئة بدل أن تكون قوية؛ ولذلك كانت أضعف، بقدر ما كانت قد وثبتت أكثر بذاتها، في حين كان لزاماً عليها أن تثق بك. إذ ما إن رأى ذلك الدم، حتى شرب التوخش، ولم يزور عنه، بل حدق فيه، وكان يغترف منه الشراسة ولا يعلم، وكان يلتدّ بالعراك الإجرامي ويتتشي بالللة الدامية. ولم يعد ذلك الرجل الذي جاء منذ حين إلى الملعب، بل أصبح واحداً من الجمهور، الذي حلّ بينه وذبّ فيه، والرفيق الحقيقى للذين انزوا به إلى هناك. فهل من مزيد؟ شاهد، وصاح، وتحمس، وحمل من هنالك معه العناة التي كانت تتحمّسَ لا فقط كي يعود مع أولئك الذين جرّوه سابقاً إلى هناك، بل أيضاً ليسبّهم وليجزّ معه غيرهم. ومن ثمّ ومع ذلك، أخرجهما أنت بيد قوية جداً، رحيمة جداً، وعلمته كيف يضع ثقته لا في نفسه، بل فيك، لكن بعد ذلك بوقت طويل.

14.IX. ويقيت هذه الحادثة محفوظة في ذاكرته كالبلسم للمستقبل. وكذا الحال بالنسبة إلى حادثة أخرى: كان لا يزال طالباً، وكان يتابع بعد دروسه في قرطاجة، وكان في متصرف النهار يفكّر في الساحة العمومية (*in foro = sur le Forum*) في ما سيختاره من أنواع الخطب التي يتمزّن عليها الطلبة عادة، عندما سمحَ بأن يلقي

عليه حِرَاسُ الساحة العمومية القبض في سرقة. لا أعتقد أنك سمحت بذلك، يا إلهنا، لسبب آخر غير ضرورة أن يبدأ هكذا ذلك الرجل الذي سيكون عظيماً جداً يوماً أن يتعلم، في القضايا المعروضة على المحاكم، كم ينبغي ألا يحکم الإنسان على إنسان يتسرع المجازفة والسذاجة.

إذن كان يتتجول بمفرده أمام المحكمة، وبيده ألواحه وقلمه، وهو إن أحد الشبان من الطلاب، وهو السارق الحقيقي، يقدم خفية بفأس، دون أن يتفطن له أليبيوسُ، ليهاجم الحاجز الرصاصي، الذي يشرف على شارع الصيرفيين، ويأخذ في قطع الرصاص^(١). وما أن سمع دوي الفأس حتى تهams الصيرفيون الذين كانوا من تحت، وأرسلوا أناساً ليقبضوا على من يجدونه. إلا أن ذلك الشاب، عندما سمع أصواتهم، ترك الفأس وهرب مذعوراً مخافة أن يقبحوا عليه وهي بيده. أما أليبيوسُ، الذي لم يكن رأه داخل، فشعر به خارجاً، ورأه يغادر المكان بسرعة، ودخل إليه، راغباً في معرفة السبب، فوجد الفأس، وكان يتفحصها واقفاً ومستغرباً الأمر. فلما وجده أولئك الذين كان قد أرسلهم الصيرفيون وحده والفالس التي كان دويها قد أيقظهم من نومهم بيده ألقوا عليه القبض وجزوه وهم يتباهون أمام جمهور الساحة العمومية^(٢) باتهم قبضوا عليه لصا متلبساً بجريمه، ومن هناك كان سيقاد ويقدم للحاكم.

15. لكن كان لا بد من وضع حد للدرس، إذ إنك، مولي، سرعان ما كنت تقف إلى جانب البراءة التي كنت أنت الشاهد الوحيد عليها. في بينما كان يُقاد إلى السجن أو التعذيب، اعترضهم في الطريق مهندس معماري إليه كانت تعود عهدة الرقابة العليا على البناءات العمومية. فرح القوم بالخصوص لملاقاته، فقد كانوا عادة محل ريبة في اختلاس الأشياء التي كانت تفقد في الميدان، بحيث أن المهندس أخيراً سيعرف حقاً من كان يختلسها. غير أن الرجل المهندس كان قد رأى أكثر من مرة أليبيوس في منزل أحد الشيوخ (senatoris = d'un sénateur) الذي كثيراً ما كان يزوره. وحالما عرفه، أمسك بيده وأبعده عن الجمهور، وسأله عن سبب تلك المحننة الكبرى، ولما

^(١) ... et praecidere plumbum coepit = وأخذ يقطع الرصاص. المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 132. : «بالنسبة إلى الأماكن التي جرت فيها كامل هذه الحكاية انظر كتاب «أودولات» AUDOLLENT قرطاج الرومانية (أطروحة دكتوراه باريس 1991) ص 230-228. كانت الساحة العمومية مرتفعة من إحدى جهاتها؛ وكان شارع رجال الأبناك (جمع بنك) موجوداً في الأسفل ويرتبط بالساحة عبر درج، وفي ذلك النهج كان الصاغة والصيارة ورجال الأبناك يتتصبون كل يوم».

علمحقيقة ما وقع، أمر جميع الصالحين من الحاضرين والمدحدين بالوعيد أن يأتوا معه. وذهبوا إلى منزل ذلك الشاب الذي ارتكب الفعلة. كان أمام الباب عبد صغير، وكان من صغر الشأن بحيث لم يكن يخشى البتة أن يضرّ بيته، ولذلك كان يستطيع أن يبوح بسهولة بكل شيء: كان قد رافق بالفعل سيده إلى الساحة العمومية باعتباره عبد المراافق (*pedisecus = laquais*)، وبعد أن تذكره أليبيوس، نبه إليه المهندس. لكن هذا الأخير أظهر للعبد الفأس، سائلا إياه لمن تكون. فقال في الحين «هي لنا»، ثم سُئل عن جميع الأشياء الأخرى فاعترف بها.

هكذا تحولت التهمة إلى تلك الدار، في حين أفحّم القوم الذين كانوا قد وجها التهمة إلى أليبيوس، المحافظ المقرب لكلمتك المقدسة، والحاكم في الكثير من قضايا كنيستك، والذي خرج من هنا بأكثر خبرة وتكويننا.

16.X. إذن كنت قد وجدته في روما، وتعلق بي أمّا تعلق، ورحل معي إلى ميلانو، كي لا يتركني، ويجني بعض النفع من تعلم الحقوق (*de iure = du Droit*)⁽¹⁾ التي كان قد درسها طبقاً لما كان يتمتّنّ والده أكثر مما كان يتمتّنّ هو. وقد كان، بعد أن شغل ثلاث مرات خطبة مستشار، ذا زهد نال إعجاب الآخرين، وإن كان هو ليتعجب أكثر من الذين كانوا يقدمون الذهب على البراءة. وامتنع طبعه أيضاً لا فقط بإغراء الطمع، بل أيضاً بمنْحِنِسِ الخوف.

كان في روما يشغل منصب مستشار لكونت المالية الإيطالية (*comiti largitionum = du comte (des) finances d'Italie*)، وكان في ذلك الوقت شيئاً من الشيخ جبارا للغاية، وكان قد استبعد الكثيرين إنّما بجميله، أو سيطر عليهم بالرّعب. أراد أن يسمح لنفسه - كما كان يفعل أمثاله من التجارب عادة - أن يفعل شيئاً لا أدرّي ما هو، كانت تمنعه منه القوانين. وعارضه أليبيوسُ فوعده بهدية فراوغها بابتسمة، وجرّبت التهديدات فدارساها. أعجب الجميع بهذا الاندفاع غير المعتمد الذي لم يكن يتمتّن صدقة صديق، أو يهاب عداوة رجل عظيم جداً ذي صيت كبير ذات بسبب الأنواع التي لا تحصى من المحسن والمساوی. أمّا الحكم عينه، الذي كان مستشاراً له، فهو وإن لم يكن يريد أن يحصل ذلك فإنه لم يرفضه مع ذلك علينا، بل نقل التهمة من شخصه إلى هذا الرجل أليبيوس، زاعماً أنه لن يتركه يفعل، (ولم يكن مخططاً في ذلك) لو فعل الحكم ذلك، وأنّ أليبيوسُ سوف لن يتضامن معه⁽²⁾.

(1) يتعلّق الأمر بالسكان المجاورين المرجع السابق الملاحظة 2، هامش ص 132.

(2) حتى حوالي سنة 430م كان اسم أليبيوس *Alypius* مقترنا تقريباً دائماً بأوغستينوس، وقد خاض إلى جانب الخصومات تلميذاً وصديقاً. أورد هذه الملاحظة دي لا بريول، *de LABRIOLLE*,

لكن الإغراء لم يكدر يتصر على أليبيوسُ إلَّا لحبه وتحمسه للأدب، حتى أنه كان، بمداخيله الوفيرة باعتباره حاكماً، قادراً على السهر على إعداد كتبه الخاصة. لكن، بعد استشارة العدالة، حول المداولة إلى ما هو أحسن، معتبراً القسطناس الذي كان يحتجز ذلك أنفع من السلطة التي تجيزه. وهذا شيءٌ ضئيل، لكن «من هُوَ مخلصٌ في الشيءِ الصغير، هو مخلصٌ أيضاً في الكبير»، ولن يكون بأية صورة تافهاً، هذا الكلام الذي خرج من فم حقل: «إِنْ لَمْ تَكُونُوا أَمْنَاءَ فِي ثَرَوَةِ الْجَبَرُورِ، فَمَنْ سَيُغْطِيكُمْ ثَرَوَةَ الْحَقِّ؟ وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أَمْنَاءَ فِي مِلْكِ الْغَيْرِ، فَمَنْ سَيُغْطِيكُمْ مِلْكَكُمُ الْحَقِّ؟»⁵⁴
هكذا كان ذلك الرجل آنذاك متعلقاً بي، كان يتساءل معي في حيرة عن نوع الحياة التي كان ينبغي علينا أن نتبعها.

17. تبريديوسُ أيضاً، الذي غادر وطنه القريب من قرطاجة، وقرطاجة ذاتها التي كان كثيراً ما كان يطول مقامه فيها، والذي غادر حقل أبيه الغني جداً، وغادر منزله وأمه التي لم تكن مستعدة لتبقيه، والذي لم يكن قد أتى إلى ميلانو لسبب آخر، غير أن يعيش معه في حمام متقد جداً للحق والحكمة. كان يتroc مثلي وكان يتمroc مثلـي، باحثاً متـحـمـساً في الحياة السعيدة، ومتـقصـيـساً سابـراً جـداً أغوارـ أوـصـنـ المسـائـلـ. وكـتاـ ثـلـاثـةـ أفـواـهـ مـعـوزـةـ يـزـفـ بـعـضـهـاـ بـفـقـرـهـ، وـتـرـقـبـ أـنـ تـعـطـيـهاـ «أـكـلـهـاـ فـيـ الـوقـتـ الـمـنـاسـبـ». وفي متـهـىـ المـرـاـرـةـ الـتيـ كـانـتـ توـاـكـبـ أـفـعـالـاـ الـدـنـيـوـيـةـ بـسـبـبـ شـفـقـتـكـ، لـتـاـ كـتـاـ نـشـجـلـيـ الغـاـيـةـ الـتـيـ كـتـاـ مـنـ أـجـلـهـاـ نـتـأـلـمـ، كـانـتـ تـقـعـ الـظـلـمـاتـ أـمـاـنـاـ، وـكـتـاـ نـحـيدـ عـنـهـاـ مـتـحـسـرـينـ وـنـقـولـ: «إـلـىـ مـتـىـ هـذـهـ الـآـلـامـ؟» وـكـتـاـ نـقـولـ هـذـاـ القـوـلـ باـسـتـمـارـ، وـرـغـمـ آـنـاـ كـتـاـ نـقـولـهـ، فـلـمـ نـكـنـ تـخـلـىـ عـنـهـاـ، لـأـنـهـ لـمـ تـكـنـ تـبـرـزـ لـنـاـ أـيـةـ حـقـيقـةـ قـدـ نـحـصـلـ عـلـيـهـاـ بـتـرـكـناـ إـيـاهـاـ.

18.XI. كنت شديداً التعجب مع الأضطراب، وأنا أذكركم كان الوقت طويلاً منذ السنة التاسعة عشرة من عمري التي كنت قد بدأت أتقن فيها بحث الحكم، مستعداً - حالماً أجدتها - لترك كل الأمال الواهية والحماقات الكاذبة للشهوات التافهة. وهذا أنا بلغت الثلاثين من عمري، أتخبط في نفس الوحل، بسبب الرغبة في التمتع بالملاذ الحاضرة المشتلة لي، قائلاً: «غداً سأجد البينة، ستظهر لي، وسأمسك بها. هاهو فاوشنـتوـسـ آـتـ، وسيـشـرـحـ لـيـ كـلـ شـيـءـ. ياـ رـجـالـ الـأـكـادـيمـيـاـ الـكـبـارـ! أـلـاـ يـمـكـنـ الـوقـوفـ عـلـىـ أـيـةـ حـقـيقـةـ لـتـسـيرـ الـحـيـاةـ؟ لـأـبـلـ بـالـعـكـسـ لـنـبـحـثـ بـأـكـثـرـ عـنـيـةـ، وـلـأـنـيـسـ. وـهـاـ إـنـهـاـ

= (1923) home نقلـاـ عن P. MONCEAUX في كتابه «تاريخ الأدب في إفريقيا المسيحية»، المجلد السابع ص 54 - 58. انظر الجزء الأول من الاعترافات الكتاب السادس، ص 133.

ليست بعد لامعقوله، تلك الأشياء التي كانت تبدو في كتب الكنيسة لامعقوله، ويمكن فهمها بصورة أخرى وبأمانة. ولأثبت قدمي في المرتبة التي كنت وضعتني فيها طفلاً، حتى أجد الحقيقة البيتة. لكن أين نبحث عنها؟ متى نبحث عنها؟ أتيرُوزيوسُ ليس له الوقت، وأنا ليس لي الوقت لأقرأ. أين نجد الكتب نفسها؟ من أين أو متى نجلبها؟ ممَّن نستعيرها؟ فلننقسم الأوّلات، فلتوزَّع الساعات لنجاة روحنا! لقد نشأ أمل كبير: لا تدرّس العقيدة المسيحية ما كنا نعتقد، وكثنا نفهمها باطلاً.

«العارفون بها يرون من الرجس أن نعتقد أنَّ الإله محدود في شكل الجسم البشري. وتردد في طرقها، حتى تفتح أبوابها الأخرى»^(١)؟ ساعات ما قبل الظهيرة أخصصها لتلاميذِي، وفي الساعات الأخرى ماذا أفعل؟ لم لا أقوم فيها بذلك؟ لكن متى أزور الأصدقاء ذوي الشأن الذين أنا في حاجة إلى أصواتهم؟ متى أعدّ البضاعة التي يشتريها متى الطلبة؟ متى أستعيد قواي بالذات، مريحاً رحبي من ضغط الهموم؟ 19. «فلتفنَ جميع الأشياء، ولنطرد هذه التفاهات والترهات! ولننهتم فقط بالبحث عن الحقيقة. الحياة شقاء، ويوم الموت غير معروف؛ فليأخذنا على غرة: كيف سنخرج من هنا؟ وأين علينا أن نتعلم ما قد أهملناه هنا؟ أو ليس علينا بالأخرى أن نnal عقاب هذا الإهمال؟ وكيف الحال لو أنَّ الموت عينه يبتُّ مع الحسن كلَّ هم، وينهيء؟ إذن لا بدّ من البحث أيضاً فيه.

«لكن أتمنى ألا يكون الحال هكذا! ليس من عديم الفائدة ولا من عديم الحكمة أن تعمّ الحظوة الشامخة للغاية لسلطان العقيدة المسيحية الكون بأسره. ما كان الإله لي فعل قطّ لنا مثل هذه الأفعال الفائقة، لو كانت حياة الروح تنطّفِي أيضاً بموت الجسم. لم تردد إذن، بعد التخلّي عن أمل الدنيا، أن نهتم بكلّيتنا بالبحث عن الإله والحياة السعيدة؟

«لكن ترقب: فالأشياء الدنيوية عذبة أيضاً، لها الذتها غير القليلة؛ لا يجوز قطع ميلني إليها بتسريع، لأنَّه من العار العودة إليها من بعد. ها أنذا بعدُ قادر على أن أنازل مركزاً شرقياً. وهل لي أن أتمنى أكثر منه في هذه الظروف؟ لي عدد لا يأس به من الأصدقاء ذوي الشأن: فإن لم أحُرِّص كثيراً على طلب شيء آخر أكثر، يمكنني على الأقل أن أظفر برئاسة^(٢). ويمكنني أن أتزوج امرأة ذات ثراء، كي لا تُثقل النفقات كاهلي. سأقصر

(١) ما يطلب منه، أي عدم تطبيق القوانين وتبيرة ساحة الشيخ الجبار.

(٢) Praesidatus = رئاسة محكمة أو بالأحرى تسيير شؤون مقاطعة، على حد قول دي لا بريول

DE LABRIOLLE . المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 137.

رغباتي على هذا. الكثير من الرجال العظام الجديرين للغاية بأن يقلدوا المناصب تعاطوا دراسة الحكمة وهم متزوجون».

20. بينما كنت أحدث نفسي هذا الحديث وكان هبوب هذه الرياح المتضاربة يدفع قلبي هنا وهناك، كان الوقت يمضي، وكنت أتأخر «عن التوجّه نحو المسؤول». وكانت أرجوئ من «يوم إلى يوم أن أحيا فيك»، ولكن لم أكن أرجو يومياً أن أموت في نفسي ذاتها: كنت أحب الحياة السعيدة، لكنني كنت أخشىها بالذات في مقرّها، وكانت هارباً منها، لكنني كنت أبحث عنها. إذ كنت أعتقد أنني سأكون تعيشًا جدًا، لو حُرمت من عنق امرأة. أما دواء شفقتك فلم أكن أفكّر فيه لعلاج ضعف كهذا، لأنني لم أكن قد اختبرته. وكانت أعتقد أن العفة مرتبطة بقواي الخاصة التي لم أكن شاعراً بها، بما أنني كنت من الحمق، بحيث لم أكن أعرف، كما جاء في الكتاب، *sicut scriptum est = comme* (dit l'Ecriture⁽¹⁾)، «الا أحد يستطيع أن يكون عَيْفَاً، إلا إذا أَغْطَيْتَهُ ذلك»، ولا شك أنك كنت ستعطينيه، لو طرق أثني باب أذنيك، ولو رميت فيك همومي بعقيدة متينة.

21.XII. ولا شك أنّ أليبيوسُ كان يُعدّني عن الزواج، مردداً بلا انقطاع أننا لن نستطيع أبداً أن نعيش معاً، في راحة آمنة، على حُبِّ الحكمة، كما كنا نرغب فيها بعد طويلاً، إن أنا أقبلت على الزواج. كان هو آنذاك متعرضاً تلقّفاً تاماً، وكان الأمر غريباً، لأنّه كان قد عرف بالعكس تجربة اللذة الجنسية في بداية شبابه. لكنه لم يتعلّق بها، بل أحسن تجاهها بالأسى والإذلاء، وعاش بعد ذلك الزّمن عيشة العفاف.

أما أنا فكنت أعارضه بذكر أمثلة الذين، وإن كانوا متزوجين، كانوا قد كرسوا حياتهم للحكمة وكسبوا الإرضاء للله مزايا، وعاملوا الأصدقاء بإخلاص ومحبة. وكنت أنا بعيداً جدّاً عن همة نفوسهم، كنت مقيداً بفوران جسمي، أُجْزَرْ قيودي في اللذة قاتلة، كنت أتمنى أنْ تكسر تلك السلسلة، لكنني كنت أدفع عنّي كلمات الناصح بالخير، كما يدفع صاحب الجرح، بعد أن لُطم جرّحه، يداً تقترب منه لتحلّ ضماده.

زد على ذلك أنه بواسطتي كانت الحياة تخاطب أليبيوس ذاته، وتعانقه، وكانت تزرع في طريقه، بواسطة لساني، جائتها الحلقة، كي تقع فيها رجلاته العفيفتان الحررتان.

22. فقد كان يتعجب متى، أنا الذي كان يضعني في متزلة رفيعة، وأنا منغمس كلّ الانغماس في دين اللذة. ألم يكن يصل بي الأمر، كلاماً باحثنا في هذا الشأن، إلى أن أؤكد

(1) يعني كما قيل حرفيًا في الكتب المقدسة، وهذا استشهاد في سياق الاعترافات، كما وجدنا منه الكثير عند ترجمتنا لهذا الكتاب.

له أني لا أستطيع بأي حال أن أقضي حياتي أعزب⁽¹⁾، وكانت أدافع عنرأيي، لما كانت أراء متعجبها، قائلًا إن الفرق كبير بين ما كان هو قد اختبره بسرعة وفي الخفاء - ولا يكاد لعمري البتة يتذكره من بعد، بل لذلك كان يحتقره بسهولة وبدون أي أسف - وبين لذات علاقتي الجنسية. فلو أطلق عليها اسم الزواج الشريف، ما كان عليه أن يتعجب ألا أقدر أنا أن أحترق تلك الحياة. لذلك كان قد بدأ هو بالذات يرغب بعد في الزواج، لا مغلوبًا البتة بذلك الشبق الجنسي⁽²⁾ (libidinis = l'attrait sensuel) بل بحث الإطلاق⁽³⁾. كان يقول إنه يود أن يعرف، ما عسى أن يكون ذلك الشيء الذي كانت بدونه حياتي التي كانت تروق له كما هي، ما كانت لتبدو حياة، بل عذاباً. وكانت روحه المتحزرة من ذلك القيد تستغرب عبوديتها، ومن الاستغراب كانت تنتقل إلى الرغبة في التجربة، مقبلة إثرها على التجربة عينها، ومن ثم ربما ساقطة في تلك العبودية التي كانت تستغربها، بما أنها كانت تزيد «إبرام عقد مع الموت»، و«من أحب الخطأ، سقط فيه».

إذا كان شرف الزواج في تسخير العائلة وتنشئة الأطفال، فإنه لم يكن له عند أي متى إلا قيمة ضئيلة. وفي المقابل فإنني كنت أسير العادة في إشفاء غليل غلْمَتِي العطشى دوماً، والتي كانت تعذبني أسيراً، أما هو فكان تعجبه متى يجره إلى الأسر عينه. هكذا كنا، أيها العلي، غير التارك وخلتنا، في انتظار اليوم الذي تشفع فيه على تعاستنا، ونجدنا بصور عجيبة خفية.

23.XIII. كان القوم يحثونني باستمرار على الزواج. وب مجرد أن تمت الخطبة، كان الوعد بالقبول بفضل جهد أمي الجميد، الراغبة في أن يفسلي التعميد المنجبي (baptismus salutaris = l'eau salutaire du baptême).

(1)... caelibem uitam...=...الحياة بلا امرأة؟ انظر الملاحظة 2 من هامش ص 138. «النسة غريبة من الحداثة»، ونضيف أنها ذات منزلة محورية في كتاب الاعترافات، حيث يتطلب التغلب على الشهوة الجنسية جهداً طويلاً للنفس. انظر في موضع لاحق (libidinis = الشبق والشهوة الجنسية، وهي العبارة التي ينلب استعمالها).

(2)... sed curiositatis = جاذبية حب الإطلاق، انظر الملاحظة 2 من هامش ص 138: «مهما كان الحرج في تأكيد هذا الجانب من نفس أوغسطينوس فإنه يتعين أن نشير إلى بعض النصوص التي نجد فيها نفس الحدة في الطبع. انظر بالخصوص ما يوجد لاحقاً في الكتاب العاشر من الاعترافات 42 X, XXX, 42.

(3) «كانت تلك الخلقيّة... التي تفكّر فيها مونيكا في المرحلة العصيبة المرافقية أكثر من كونها خلقيّة اجتماعية عاديّة». الملاحظة 2 من هامش ص 139.

كانت سرورة أن تراني أزداد جداراً به يوماً بعد يوم، وكانت تلاحظ في عقidi أن
أمانها ووعودك متحققة.

ورغم أنها كانت حقاً، بطلب متى ويرغبها الخاصة، تتسلل إليك يومياً في نداء
قويّ، كي تريها في المنام شيئاً عن زواجي المقبل، فلم تُرِدْ قط ذلك. وكانت ترى
بعض الصور غير الحقيقة واللاواقعية، كما كانت تصوّرها القوة الحية للفكر البشري
المضطرب في هذا الشأن، وكانت ترويها لي، لا بثقتها المعتادة عندما كنت أنت تريها
إياها، بل بالاحتقار، إذ كانت تقول إنّها تميّز بطعم لا أعلم ما هو - ولم تكن قادرة على
شرحه بالألفاظ - الفرق بين رؤياك أنت وحلّتها الخاص.

إلا أنّ القوم كانوا يحتونني على الزواج، وكانت البنت مخطوبة لي، وإن كانت دون
سن البلوغ (*non encore nubile = minus quam nubilis*) بعامين تقريباً، لأنّها
كانت تروق لي، سأنتظرها.

XIV.24. وكنت أنا ورفاق عديدون قد فكرنا وتحادثنا وأثثنا، وكدنا نقرر بعد
بسّبب كراهيتنا لاضطرابات الحياة الإنسانية، أن نعيش في سلام بعيداً عن الجماهير.
وتذربنا هذه العزلة على النحو التالي: جعلنا الأموال التي نملكها ملكاً مشاعاً بيننا،
وجمّعنا الأملاك ثروة واحدة، بحيث لا يكون، بسبب صحبتنا الصادقة، هذا لهذا وذلك
لذاك، بل يكون ما هو للجماعة واحداً، ويكون المجموع لكلّ واحد، والكلّ للكلّ. إذ
كان يبدو لنا أنه يمكن أن تكون تقريباً عشرة رجال في هذه الجمعية، وأن يكون من بيننا
أثرياء كبار، خاصة رومانيانوس (*Romanianus*)، أحدبني وطني (= *communiceps*)
(*mon compatriote*) الذي كانت قد جرّته آنذاك إلى البلاط صعوبات أعماله الحادة،
وكان صديقاً حميمًا جداً لي منذ بداية حياتي.

وكان بالخصوص حريصاً كلّ الحرص على هذا المشروع. كان له في الإقناع تأثير
كبير، لأنّ ثروته كانت تفوق بكثير ثروات كلّ الآخرين.

وكانت قد قررنا أن يهتمّ اثنان متّا، كأنهما قاضيان، كلّ سنة بكلّ ما يلزم، في حين يكونون
الآخرون في عطلة. لكن، بعد أن بدأنا نفكّر، هل ستسمح لنا بذلك زوجاتنا - إذ كان
للبعض متّا زوجات بعدُ، وكانت نحن أيضاً نتّوي الزواج - بكلّ تلك القرارات التي كانت
ضيّقناها بآحكام، لكنّ المشروع أفلت من أيدينا، وتكتسر وترك جانبها.

من هنا عدنا إلى الحسرات والتاؤهات، متبعين في خطانا «الطرقات العريضة
الممهدة في الحياة الدنيا» (*uias saeculi = les voies... du siècle*، لأنّ «أفكاراً

كثيرةً كانت في قلوبنا، أمّا قرّارُكَ فيبقى إلى الأبدِ». ومن عليه هذا القرار، كنت تضحك من أفكارنا، وكنت تهيني لنا سبُلَكَ، حتى تعطينا الطعام «في الإبان» وتفتح يدك وتملاً أرواحنا «بنعمتك».

XV. 25. كانت ذنوبي في الأثناء تكاثر؛ وبعد أن انتزعت من جنبي المرأة التي اعتدت أن أضاجعها، لأنها كانت عائقاً لزواجي، كان قلبي، الذي كانت متعلقة به، قد تمزق وطال نزيف جرحه الدامي.

رجعت إلى إفريقيا، ناذرة إليك ألا تعرف رجلاً آخر، تاركة لي ابن الفراش الذي وضعته. (naturali... filio = le fils naturel).

أمّا أنا الشقي، فلم أقدر على تقليد المرأة في ما ندرت، ولم أحتمل أن أنتظر عامين لأظفر بالزوجة التي خطبها، ولم أكن محباً للزواج، بل عبداً للشبق، فاتخذت لي خليلة أخرى، لا تكون زوجة، بل قل ليتغيّر مرض روحي ويمتد، إما على حاله أو بازدياد، تحت رعاية عادة تدوم إلى قدوم الزوجة. ولم يكن جرحي، الذي كان قد أصابني بسبب انتزاع رفيقتي الأولى قد شفي، بل صدّد وتقىع، بعد الحمى والألم الكاويين، لكتني كنت والألم يخمد أشدّ يأساً من شفائه^(١).

XVI. لك الثناء، ولك العزة، يا منيع الشفقات! كنت أنا أزداد شقاء، وكنت أنت تزداد مني قرباً. كانت يمناك، قريبة متّي، مستعدة لانتشالي من الوحل وغسلني منه، وكانت أجهل ذلك. لم يكن يشنّي عن الغرق في لحج اللذات الجنسية إلا الخوف من الموت ومن يوم حسابك الآتي. لقد مررت لعمري بخلدي آراء مختلفة، لكن هذا الإحساس لم يفارق أبداً صدري.

وكنت أتناقش مع صديقي أليبيوس ونيريديوس حول الخير الأقصى والشرّ الأقصى، قائلاً: إن النصر سيكون لأبيقوروس^(٢) (Epicurum = Epicure)، لو لم أكن أنا آمنت ببقاء الروح حتّى بعد الموت وبحسابنا على أفعالنا؛ وهو الشيء الذي لم يرد أبيقوروس أن يؤمن به.

(١) sed desperatus dolebat = لم تكن إلا أكثر يأساً. الملاحظة 2 من هامش ص 141: «على خلاف عادته في شحّه بالاعتراضات العاطفية، لم يقدر أوغستينوس أن يكبح نفسه عن الاعتراف بقوّة لوعته وتمزق قلبه بسبب هذا الفراق القاسي».

(٢) الفيلسوف اليوناني المنشي للأبيقورية (L'Epicurisme)، وهو المذهب الفلسفـي القائل بنظرية الإنغماس في لذات الحياة البشرية كهدف وحيد للإنسان فيها، وبعدم وجود حياة أخرى تخالد الروح فيها، وهذا ما يرفضه في هذا السياق القديس أوريليوس أوغستينوس.

وكنت ألقى السؤال التالي: لو كنا مخلدين، ولو كنا نحيا في اللذة جسدية أبدية، دون أي خوف من فقدانها، كيف لا تكون سعادة، أو عن أي شيء آخر نبحث؟ كنت لا أعرف أن ما يشير بالذات إلى شقائي الكبير، هو آتي لا أقدر - وأنا هكذا مسحوق أعمى - أن أتصور نور الفضيلة والجمال المؤهّل ليعانق مجانيماً لا تراه العين الجسدية، بل يُرى من الأعمق. ولم أكن أبحث، أنا الشقي، عن معرفة المنبع التي يتدقق لي منه الحديث بعذوبة مع صديقي عن هذه الأشياء القدرة نفسها، دون صديقي، ما كنت سعيداً أيضاً من جهة الشقيقة التي كانت آنذاك على ذمة مهما كانت وفرة الملاذ الجنسيّة (*carnalium uoluptatum = les voluptés charnelles*). وكنت أحبت لا شك مجانيماً هذين الصديقين، وبال مقابل كنتأشعر أنهما يبادلانني نفس الحب مجانيماً. يا لها من طرقات ملتوية! ووينج للرُّوح المجازفة التي أملت أنها لو كانت قد ابتعدت عنك، لنالت شيئاً أحسن! لقد تقلّبت مرأوا وتكراراً، على الظهر وعلى الجنين، وعلى البطن. كل شيء وجدته صلباً، وفيك أنت وحدك وجدت الراحة.وها أنت تحضر، وتحررنا من أخططانا الشقيقة، وتركت خطانا على طريقك، وتواسيها وتقول: «اجروا، أنا سَوْفَ أَذْعِمُكُمْ، وَسَوْفَ أَقْوِدُكُمْ إِلَى آخِرِ الْمَطَافِ، وَسَوْفَ أَخْمِلُكُمْ إِلَيْهِ!».

الكتاب السابع

1.1. كانت مراهقتي الإجرامية السيئة قد ماتت بعد، وكانت أسير نحو الشباب، وبقدر ما كنت أتقدّم في السن كنت أكثر خجلاً من تفاهتي. لم أكن أستطيع أن أتصور مادة أخرى غير التي أراها عادة بعيني هاتين. لم أعد أتصورك، يا إلهي، في صورة الجسم البشري منذ أن بدأت أستمع إلى شيء من الحكمـة - لقد تجنبت دواماً هذا الخطأ، وكانت مسروراً بأن أجـد الحقيقة في عقيدة أنا الروحانية، كنيستك الكاثوليكـية - لكن على أية صورة أخرى يمكن أن أتصورك؟ لم أكن أعرف. وكانت أحاول أنا الإنسان وأي إنسان! - أن أتصور أنـك الإله الأكـبر الوـحـيد الحقـ. وكانت أوـمنـ من أعماـق قلـبيـ آنـكـ غيرـ فـاسـدـ، وـغـيرـ مـتـهـكـ، وـغـيرـ مـتـغـيرـ. وـدونـ أنـ أـعـرـفـ مـائـيـ هـذـاـ الـاعـقـادـ، كانتـ أـعـلـمـ عـلـمـاـ يـقـيـناـ أـنـ ماـ يـمـكـنـ أـنـ يـدـخـلـهـ الـفـاسـدـ أـدـنـىـ مـنـزـلـةـ مـاـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـدـخـلـهـ. وكانتـ أـضـعـ دـونـ تـرـددـ ماـ لـاـ يـقـبـلـ الـاـنـتـهـاـكـ فوقـ ماـ يـقـبـلـ الـاـنـتـهـاـكـ، وـأـعـتـدـ أـنـ مـاـ لـاـ يـطـالـهـ التـغـيـرـ أـحـسـنـ مـاـ يـطـالـهـ.

كان قلبي يصرخ بعنف ضدّ جميع أوهامي، وكانت أحاول بضربيـةـ واحدةـ أنـ أـزيـعـ عنـ فـكـريـ أـبـاـيلـ الـأـفـكـارـ الطـائـرـةـ حـولـيـ :ـ ولكنـ ماـ إـنـ تـبـعـدـ حـتـىـ تـجـمـعـ منـ جـدـيدـ،ـ فـيـ لـمـحـ الـبـصـرـ،ـ وـتـنـفـضـ عـلـىـ عـيـنـيـ،ـ وـتـعـمـيـهـمــ.ـ وـرـغـمـ أـنـيـ لـمـ أـكـنـ مـجـبراـ عـلـىـ أـنـ أـرـاكـ فـيـ صـورـةـ جـسـمـ بـشـرـيـ،ـ كـنـتـ مـجـبراـ عـلـىـ أـنـ أـرـاكـ فـيـ صـورـةـ شـيـءـ جـسـمـانـيـ مـاـ،ـ مـوزـعـ فـيـ الـفـضـاءـ،ـ إـمـاـ مـتأـصلـ فـيـ الـكـوـنـ،ـ أـوـ رـيـتمـاـ مـتـشـرـ خـارـجـ الـكـوـنـ،ـ وـعـبـرـ الـلـانـهـائـيـ.ـ وـكـنـتـ أـضـعـكـ،ـ بـذـاتـكـ غـيرـ الـفـاسـدـ وـغـيرـ الـمـتـهـكـ وـالـلـامـتـغـيـرـةـ،ـ فـيـ الـمـقـدـمةـ قـبـلـ الـفـاسـدـ وـالـمـتـهـكـ وـالـمـتـغـيـرـ.ـ وـكـانـ مـاـ كـنـتـ عـاجـزاـ عـنـ تـصـورـهـ عـلـىـ هـذـهـ الشـاـكـلـةـ فـيـ الـفـضـاءـ،ـ كـانـ يـدـوـلـيـ عـدـمـاـ،ـ بـلـ مـطـلـقـ الـعـدـمـ،ـ لـاـ مـجـرـدـ فـرـاغـ فـقـطـ،ـ فـلـوـ رـُفـعـ جـسـمـ مـنـ مـكـانـ،ـ وـيـقـيـ المـكـانـ فـارـغاـ مـنـ كـلـ جـسـمـ بـرـيـ أوـ مـائـيـ أوـ هـوـائـيـ أوـ سـمـاـويـ،ـ لـكـانـ الـمـكـانـ مـعـ ذـلـكـ tamquam spatiōsum nihil = tel un néant... (de) ... (la spacioseité).

2. إذن كنت مثلـ القـلـبـ،ـ وـعـاجـزاـ عـنـ القرـاءـةـ فـيـ باـطـنـ نـفـسيـ ذاتـهاـ أـيـضاـ.ـ كـنـتـ

أعتقد أنَّ كُلَّ مَا لا يمتدَّ عبر فضاءٍ ما، أو لا ينتشر، أو لا يتتفخُّ، أو يَتَخَذَ مثل هذه الهيئات فيه أو لا يمكنه أن يَتَخَذَها، هو العدم المطلق. فالأشكال التي كانت تمرَّ أمام عيني عادةً، توافقها تلك الصور التي كانت تمرَّ في قلبي، ولم أكن أرى أنَّ ذلك الجهد الذي به كنت أصوّر تلك الصور ذاتها، يختلف عنها اختلافاً تاماً، إلَّا أنه ما كان ليصوّرها لو لم تكن هي نفسها شيئاً عظيماً.

هكذا فأنت أيضاً، يا حياة حياتي، كنت أتصوّرك كأننا عظيماً، يخترق - من كُلَّ الجهات، الفضاء اللآنائي لكتلة الكون بأسرها، وما فاض عنها في كُلَّ مداها الشاسع دون حدٍّ، حتَّى أنَّ الأرض تحويك، والسماء تحويك، والكلُّ يحويك وهو محدود فيك، أمَّا أنت فلا يحدُّك شيءٌ. لكن، كما أنَّ نور الشمس لا يجدر حاجزاً في كتلة الهواء الذي فوق الأرض، ولا يُمْنَعُ من اختراقه، ويلجه، دون أن يقطعه أو يمزقه، بل يملؤه كلِّيَاً، كذلك كنت أظنَّ أنَّ كتلات السماء والهواء والبحر، بل وأيضاً الأرض، مفتوحة أمامك، وقابلة لأن تخترقها في جميع أجزائها الكبُرِيِّ والصغُرِيِّ، كي تقبل وجودك، بحيث أنت، باليهاب خفيٍّ، تهدي، داخلياً وخارجياً، الكلُّ الذي خلقته وتسيِّره. تلك كانت تخميناتي، لأنَّي لم أكن أتصوّر غيرها، إلَّا أنها كانت خاطئة. فعلَى هذه النحو، سيحتوي جزءٌ أكبر من الأرض جزءاً أكبر منك، وجزءٌ أصغر منها جزءاً أصغر منك، وستكون هكذا جميع الأشياء ملائِيك، بحيث يسع جسم الفيل منك أكثر مما يسعه جسم طائر العجوم (*passeris = un passereau*)، باعتبار أنَّ الأول أعظم جثة من الثاني، ويحتلَّ مكاناً أكبر، فتكون بذلك قد جعلت أجزاءك إرباً إرباً، بين أجزاء الكون: الكبيرة في الكبيرة، والصغيرة في الصغيرة. لكن الحال ليست على هذه الشاكلة. أمَّا أنت «فلَم تُكُنْ قد أَنْزَتَ بَعْدَ ظلماتي».

3.II. كان يكفيوني، مولاي، ضد أولئك الخادعين المخدوعين، والقرئاريين البُكْمِ لأنَّ كلمتك المقدَّسة لم تكن تخرج من أفواههم، كان يكفيوني إذن الاعتراض الذي كان *تيريديوس* - منذ عهد بعيد في قرطاجة - يعارضهم به، والذي تزعزعت لسماعه نفوسنا: فماذا كان يفعل بك جنس الظلمات التي كان القوم المانويون قد تعودوا عرضها ضدَّك، لو أنت رفضت أن تصارعها؟ إذ أجاب مجيب، أنها كانت ستضرُّ بك في شيءٍ ما، لكنَّت قابلاً للاتهاك وللفساد⁽¹⁾. أمَّا لو أجاب أنها لا تقدر أن تضرَّ بك في شيءٍ، فلن يكون هناك أي داع للصراع، وبالخصوص للصراع في ظروف يكون فيها

(1) *violabilis tu et corruptibilis fores* ... إذن... لم تكن في مأمن من الاتهاك ولا بعيداً عن الارتفاع. المرجع. السابق الكتاب السابع، الهاشم 1 ص 147 «كانت تلك الحجة الأساسية التي جعلت «فيليكس» المانوي، في لقاء جمعه بأوغستينوس، يقرُّ له بالهزيمة...».

جزء منك أو عضو أو فسيلة (*proles = rejeton*) من ذات جوهرك، ممتزجا بقوى مضادة وبطبيائع لم تخلقها، ليفسد بسيها وينقلب أسوأ منقلب إلى حد الانتقال من السعادة إلى الشقاء، ويحتاج إلى عون تكون به النجاة والطهارة. وذلك الجزء هو الروح التي قد يكون قوله الذي جاء حراً سليماً نقياً من الأدران، لينجيهما من العبودية، دون أن يكون هو بالذات قابلاً للفساد، لكونه قد قدّ من نفس الجوهر الوحيد إذن لو كان المانويون يقولون إنك، في كلّ ما أنت، أي في جوهرك الذي أنت به كائن، غير قابل للفساد، فكلّ ما سلف خاطئ ملعون، أما إن قالوا إنك قابل للفساد، فهذا عينه بعد خاطئ، ومن أول وهلة شنيع.

كان هذا إذن كافياً للرّد على من كان ينبغي، بأية صورة، أن يُقدّروا بسبب ضغطهم على الصدور، لأنّهم بأفكارهم وحديثهم عنك على هذا التحوّل يخرجوا إلّا برجس فظيع، بالقلب واللسان.

4.III. لكنني، لو كنت إلى ذلك الحدّ أقول وأعتقد جازماً، إنك لا تقبل بثبات الدّنس ولا التحوّل، ولا التغيير في أيّ جزء من أجزائك، مولانا، أيّها الإله الحقّ الذي خلقت لا فقط أرواحنا، بل أيضاً أجسامنا، ولا فقط أرواحنا وأجسامنا، بل كلّ المخلوقات والأشياء، فمع ذلك لم أكن أملك تفسيراً للسبب الشّرّ. فمهما كان مصدره، كنت أرى وجوب البحث عنه، حتى لا أكتبل به فأرى الإله اللامتغيّر متغيّراً؛ إلّا أصبحت أنا نفسى ما كنت أبحث عنه. لذلك كنت أبحث عنه آمناً واثقاً من عدم صحة ما كان يقول القوم المانويون الذين كنت هارباً منهم بكلّ جوارحي، لأنّي كنت أراهم، في البحث عن منشأ الشّرّ (*malitia = malum = le mal*)، مليئين بالمكر (*malice*)، حتّى أنّهم كانوا يعتقدون أنّ جوهرك يتحمّل الشّرّ، عوض أن يقولوا إنّ جوهرك يرتكب الشّرّ.

5. وكنت أجتهد كي أفهم ما كنت أسمعه، من كون حرّية اختيار إرادتنا هي السبب في كوننا نرتكب الأخطاء، ومن كون حكمك العادل هو السبب في كوننا نتعذّب¹، ولم أكن قادرًا أن أفهم السبب بوضوح. لذلك كنت، وإن حاولت أن أخرج نظر فكري من الهوة، أغوص فيها من جديد، ورغم محاولاتي المتكررة كنت أغوص فيها أكثر فأكثر.

(1) ... (*cause*) السبب في كوننا نتعذّب = ... *causam... tu pateremur*... نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة¹، هامش ص 149: «يمكن أن نقسم الألم إلى قسمين: الألم الذي يسبّبه الإنسان والألم الذي يسلط عليه. أما الذي يسبّبه فهو الإثم والخطيئة، وأما الذي يسلط عليه فهو العقاب... وكان أوغستينوس قد قال ذلك في كتابه «في نفس آدمت المانوي» *Contre Adamante le Manichéen* الذي وضعه سنة 395..»

أما ما كان يرتفعني إلى نورك، فهو آني كنت لم أعد أكثر وثوقاً بحياتي مثني ببارادتي. لذلك، فكلما كنت أريد أو أرفض شيئاً ما، كنت واقعاً جدّاً من لا أحد غيري يريد أو يرفض، وكانت الاحظ رويداً رويداً أنَّ هناك مُكتمن سبب إثمِي. أمّا ما كنت أفعله رغم أنفِي، فكنت أرى آني فيه من فعل عوض أنَّ أكون فاعلاً، وكانت اعتبره ليس ذنباً، بل عقاباً، وكانت أعترف تواً، وأنا أفكّر في عدلك، آني لست أعقاب به ظلماً.

لكتني كنت أقول ثانية: «من خلقني؟ أليس إلهي»، لا المتصف بالطيبة فقط، بل هو الطيبة ذاتها؟ إذن من أين لي أن أطلب الشّرّ، وأعرض عن الخير؟ لا يكون ذلك كي أتال المغفرة مقابل عقاب عادل؟ من وضع بذرة العراوة وغرسها في، والحال آني من خلق إلهي الأعذب؟ فإنَّ كان الشّيطان خالقي، فمن أين أتى الشّيطان نفسه؟ وإن أصبح هو بالذّات، بارادة منحرفة، شيطاناً بعد أن كان ملائكاً طيباً، فمن أين له في ذاته الإرادة السيئة التي صار بها شيطاناً، لما كان الملائكة الكلي قد خلقه أحسن إله؟» كنت لهذه الأفكار أنحطّ ثانية، وكانت تخنقني، ولكن لم أكن أنزل حتى أصل إلى جحيم ذلك الخطأ الذي «لا أحد يعترف لك فيه»، بينما يعتقد الناس أنك ضحية للشّرّ، عوض أن يعتقدوا أنَّ الإنسان يفعله.

IV.6. كنت إذن أسعى لأقف على ما تبقى من الحقائق، كما آني وجدت بعدَ أنْ غير القابل للفساد أحسن من القابل له، ولذا كنت أقرّ بأنك، مهما كنت، غير قابل للفساد، إذ لم تقدر أية روح بعدُ، ولا هي قادرة أن تتصور شيئاً يمكن أن يكون أحسن منك، أنت الخير الأعلى الأحسن.

ولقاً كان من المؤكد أنَّ غير القابل للفساد مفضل على القابل له، وهو أمر قد صدقت به بعدُ، كنت قادراً بعدَ على الوصول بالتفكير إلى شيءٍ يكون أحسن من إلهي، لكنك كنت غير قابل للفساد. إذن بما آني كنت أرى أنَّ غير القابل للفساد ينبغي أن يؤثر في القابل له، كان يلزمني أن أبحث عنك، وأن أتحرّى من هنا أين يكون الشّرّ، أعني من أين يصدر الفساد ذاته الذي لا يمكن لجوهرك، بأية حال من الأحوال، أن يتبدّل من جرائه. فالفساد لا يبدل البة إلّهنا، بأية صورة، وبأية إرادة، وبأية ضرورة، وبأية صدفة غير متوقعة، لأنَّه الإله ذاته، وما يريده لنفسه حسن، وهو أيضاً عين الحسن. أما ما يفسد فليس بالحسن. فلست مرغماً، على إثبات أي شيءٍ، لأنَّ إرادتك ليست أعظم من قوتك. ولتكون أعظم، يجب أن تكون أنت ذاتك أكبر من ذاتك نفسها، لأنَّ إرادة الإله وقوته هما الإله ذاته. ما الذي لا تتوقعه ولا تتوقعه، أنت الذي تعرف كلَّ شيءٍ

ولا خلية تكون إلا لأنك تعرفها. ولكن لم نطيل القول في عدم قابلية الجوهر للفساد، الجوهر الذي هو الإله، بما أنه لو كان هو قابلاً للفساد لما كان الإله؟

7.7. وكنت أبحث عن مأوى الشر، وكانت أبحث بحثاً فاسداً، وفي بحثي نفسه، لم أكن أرى الشر.⁽¹⁾ وكانت أجعل «في مرأى من فكري» الخلية جماعاً، وكل ما نستطيع أن نراه فيها، كالارض والبحر مثلاً والهواء والنجوم والأشجار والحيوانات الفانية وكل ما لا نراه فيها، كالسماء في أقصاصها علیانها وجميع الملائكة وعالم الأرواح بأسره. إلا أن هذه عينها، قد وزعها خيالي، كما لو كانت أجساماً، في أماكن خاصة بها. وجعلت من خليقتك كتلة واحدة كبيرة، منقسمة بأجناس الأجسام، سواء أكانت في الحقيقة أجساماً، أم كنت أنا قد تصورتها هكذا. وهذه الكتلة من الأرواح المذكورة، كنت أتصورها عظيمة، لا حسب حجمها، الذي لم أكن أعرف قدره، بل حسب هواي، ومحدودة من كل الجهات معاً. أما أنت، مولاي، فتحيط بها في كل أجزائها وتلجهما، ولكنك لانهائي في كل الاتجاهات، كما لو أن بحراً يكون في كل مكان ومن جميع النواحي، عبر الفضاء الشاسع اللانهائي، بحراً واحداً، وتكون وسطه إسفنج، هي من الكبير بقدر ما نريد، لكنها مع ذلك محدودة، وتكون تلك الإسفنج ملأى، في جميع أجزائها، بالبحر الشاسع.⁽²⁾

هكذا كنت أتصور أن خليقتك المحدودة ملأى بذاته اللامحدودة، وأقول: «ها هو الإله، وهو مخلقة الإله، والإله طيب، وهو أفضل منها كأقوى ما يكون وأبعد، لكن مع ذلك فالطيب ما خلقها إلا طيبة: وهو على ذلك التحو يسعها، ويملؤها. إذن أين هو الشر، ومن أين ترسب إلى هنا وكيف؟ ما هي جذوره؟ وما هي بذرته؟ هل لا يوجد إطلاقاً؟ كيف إذن تخشى ما ليس بموجود وتنقية؟ لكن إن خشينا بلا سبب، تكون الخشية نفسها بلا شك هي الشر ذاته الذي يتخس قلبنا عيناً ويعذبه. ويكون الشر أشد، متى لم يكن هناك ما تخشاه، ومع ذلك نشعر بالخشية. فلذلك السبب إما أن يكون هناك

(1) «يُعود أوغستينوس هنا إلى فكرة كان قد عبر عنها أعلاه (الكتاب السابع الفقرة 4, III) تعبيراً فيه كثير من الغرابة والغموض. فالباحث في الشر إن لم يقم على أساس سليمة يصبح هو نفسه مصدراً للشر، باعتباره يحثاً مصللاً ومنذباً». نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة 1، هامش ص 150 ..= in ipsa inquisitione mea non uidebam malum

في بحثي نفسه..

(2) «كل هذا العمل الجليل القائم على الجدل والخيال يلخصه أوغستينوس في جملة ضخمة تمتد على ثلاثة وعشرين سطراً». نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة 1، هامش ص 151.

شر نخشاه، أو ذلك الشر هو أنتا تخشى. إذن من أين يأتي الشر بما أن الإله الطيب خلق كل الأشياء طيبة؟ الخير الأعظم المطلق خلق، لعمري، أشياء أقل طيبة منه، لكن مع ذلك فالخالق والمخلوقات كلهم طيرون. ما مأني الشر؟ هل المادة التي صنع منها المخلوقات مادة سيئة، صورها وسوها إلا أنه ترك فيها شيئاً ما لم يحوّله إلى الحسن؟ لم هذا كذلك؟ ألم يكن في وسعه، رغم أنه قادر، أن يحوّلها ويفتّرها، حتى لا يبقى فيها شيء سيء؟ وأخيراً، لم أراد أن يخلق من هذه المادة شيئاً ما، ولم يفضل استعمال نفس القدرة الكلية، ليقضي عليها القضاء التام؟ أم هل كان من الممكن أن تكون ضـد إرادته؟ وإن كانت المادة أبدية فلم تركها هذه المادة الطويلة تمتد طوال الأزمنة الماضية الأزلية، وقرر بعد كل هذا الوقت أن يجعل منها شيئاً ما؟ أم إنه، عندما أراد فجأة أن يفعل شيئاً، أما كان من الأفضل له، وهو القدير، أن يفعله بحيث لا تكون المادة، وببقى هو الأحد المطلق كالخير الحق، الأعلى، اللانهائي؟ وأعتقد كذلك أنه، إن لم يكن من الصواب ألا يصنع من كان حسناً شيئاً حسناً، فإنه كان عليه أن يزيل تلك المادة التي كانت سيئة، وأن يردها إلى العدم، وأن يكون مادة حسنة منها يخلق جميع الخلائق؟ إذ ما كان ليكون القدير على كل شيء، لو لم يكن يقدر على تكوين ما هو حسن إلا بواسطة تلك المادة التي لم يخلقها هو نفسه».

كنت أدبر مثل هذه الأفكار في قلبي الشقي، المثقل بهموم لاذعة جداً، صادرة عن الخوف من الموت، وعن عدم وجود الحق، لكن الإيمان «بالمسيح ابنك ومولانا ومنجيـنا» حسب تعاليم الكنيسة الكاثوليكية كان راسخاً في قلبي رسخاً قوياً، وهو لعمري إيمان لا يخلو من خشونة في الكثير من جوانبه، يميل مع قانون الإيمان⁽¹⁾ حيث يميل، إلا أن روحي لم تكن تتعرض عنه، بل بالعكس كانت، يوماً بعد يوم، تشتبـع به أكثر فأكثر.

..8.VI .كنت قد رفضت بعد أيضاً تكهنات المنتجمين الكاذبة، وهذياناتهم الكافرة⁽²⁾ ..

.doctrinale ... et praeter doctrinæ normam fluitans ... (1) نسـ المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة 1، هامـش ص 152: «وهـذا ما يـبيـهـ بالـفعـلـ ماـ سـيـوحـ بهـ أـوغـسـتـينـوسـ فيـ مـكانـ لـاحـقـ. (page 169)».

(2) «لـقدـ شـرحـ أـوغـسـتـينـوسـ بـعـدـ (صـ 70)ـ الحـالـةـ النـفـسـيـةـ الـتـيـ كـانـ فـيـهاـ بـسـبـبـ التـحـذـيرـاتـ وـالتـبـيـهـاتـ الـتـيـ وجـهـهـ إـلـيـهـ (فيـفـندـيـكـوـسـ) Vindicianus وـاستـهـزـاءـ (نـبـريـدـوـسـ) Nébridius بـالـتـبـيـجـ.ـ فقدـ كـانـ فـيـ حـاجـةـ لـتـجـرـيـةـ يـقـيـنةـ لـيـتـخـلـصـ مـنـهـاـ تـحـلـصـاـ تـامـاـ».ـ نفسـ المرـجـعـ،ـ الكتابـ السـابـعـ،ـ المـلـاحـظـةـ 2ـ،ـ هـامـشـ صـ 152ـ.

mathematicorum fallaces diuinationes et in pia deliramenta... = les)

(prédictions mensongères et les extravagances impies des astrologues

فلا أترى كذلك إليك، في هذا الشأن، من عميق قلبي بشفقتك تجاه روحي، يا إلهي! فأنْتَ، أَجلْ أنتَ، ولا أحد غيرك، يخلصنا بعد الموت من هلاك الخطأ، ويرجعنا إلى الحياة التي لا تعرف الموت، وإلى الحكمة التي تثير العقول الفقيرة إلى النور، دون أن تكون هي في حاجة لأي نور، وتدير الكون، وتدير حتى حفيظ الأوراق على الأشجار؟ أنت الذي شفيتني من إصراري الذي قاومت به *نديسياتوسن*، الشیخ ذا العقل الثاقب، ونبریدیوسن، الشاب ذا النفس العجيبة. كانا يؤکدان، الأول جازما بقرة، والثاني بشيء من التردد لا ينقص من حماسته، ألا وجود لفن التنبؤ بالمستقبل، (أما تخمينات البشر فكثيراً ما تصدق بعون قوة الاتفاق والصدفة)، وأنه، لكثرة ما يقولون قد يتطرق أن يحدث ما يقولون، لكنهم يقولون دون علم، ويصلون إلى ذلك لأنهم لا ينكرون يتكلمون. أنت إذن الذي مكثتني من صديق مواطن على سؤال المنجمين. لم يكن ملماً، كما ينبغي، بكتبهم، لكنه كان، كما قلت، يتزدّد عليهم مدفوعاً بحب الإطلاع، رغم أنه كان يعرف أخباراً سمعها من أبيه *تفوّض التصديق* بهذا الفن؛ لكنه كان يجهل حقيقتها.

إذن كان ذلك الرجل يستمتع *فزمیوسن*، ذا التربية الشريفة والمتبصر في البلاغة، أتى ليستشيرني كما يستشار أعز الأصدقاء، في بعض مشاغله التي كان يعلق عليها الكثير من الآمال في الحياة الدنيا، طالباً مني أن أطلعه على ما يجدولي منها، طبقاً لما يسمونه بـ *بوكة نجومه* (*constellationes = constellations*).^(١)

أما أنا فقد بدأت أميل بعد في هذا الشأن إلى رأي نبریدیوسن، ومع ذلك لم أكن أرفض التخمين ولا البحوث له بما كان يعترضني في شكّي، بل كنت أضيف مع ذلك أنني أكاد أكون مقتنعاً بكون تلك الأعمال مجلبة للسخرية والتفاهة. عندئذ روى لي هو أن أباه كان مشغولاً جداً بمثل هذه الكتب، وكان له صديق ينقب عنها، مثله في نفس الوقت. كان قلباًهما يلتهان بنفس الحماس والشغف بتلك الترهات، ناهيك أنهما كانوا يراقبان أوقات ولادة صغار الحيوانات، إن وضعت في داريهما، وكانا يستجلان مواقع الكواكب في السماء آنذاك، حتى يجمعوا منها التجارب في ذلك الفن المزعوم.

(١) نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة ١، هامش ص ١٥٣: «بسبب فقدان الإيمان بالآلهة القديمة وصل الأمر بهم في عهد الإمبراطورية إلى حل القضايا الهامة أو الطفيفة للحياة اليومية بواسطة التنجيم».

لذلك كان يذكر أنه سمع أباه يقول إنه، لما كانت أمه هو (أي فرمينوس) حاملاً به، كانت أيضاً أمّة لذلك الصديق لأبيه، حملت في نفس الوقت. ولم يكن ذلك ليختفي على مولاهما، الذي كان يجتهد باهتمام كبير جداً، في مراقبة نتاج كلباته! وقد فعل الصديقان بحثاً أخذنا يُعذّان، الأول لزوجته، والثاني لأمّته، الأيام والساعات وأدقّ أجزاء الساعات، في ترصد يفظ جدًا حتى ولدتا الاثنين معاً، وبحيث أن الصديقين حملوا على أن يرسما نفس الطالع الفلكي، إلى مستوى تقسيمات الساعات عينها، لکلا المولودين، الأول لابنه (أي فرمينوس) والثاني لمملوكيه ابن أمّته. فلما جاء المرأتين المخاضُ، سأله الرجال كلّ منهما الآخر عما كان يقع في داره، وهبّا من سير سلانه، كي يعلما معاً اللحظة الذي يكون المولود قد ولد فيها: وكانت عملية الإخبار الفوريّ يسيرة بحكم كون كلّ منهما سيّد بيته وبيته أمره. وكان (فيرمينوس) يقول إنّ الرسولين من الجهتين كانوا قد التقى على نفس المسافة الفاصلة بين المتنزلين، بحيث أنه استحال على هذا وعلى ذاك أن يرسم موقعًا مغایرًا للنحو، أو تقسيمات مختلفة لأجزاء الزمن. ومع ذلك فإنّ فرمينوس كان بعد مولده يسير بسبب مكانة ذويه الرفيعة متقدماً في مسالك الدنيا الناصعة التية، ويزداد ثراءً ومجداً، أما ذلك العبد فكان يخدم أسياده، دون أن يفلت من نير العبودية قيد أنملة، كما كان يشهد على ذلك من كان يعرفه حق المعرفة.

9. لذلك بعد أن سمعت هذه الحكاية، وصدقت بها لأنّ هذا الرجل العظيم هو الذي رواها لي، تراحت في كلّ أشكال المعارضة القديمة وتلاشت. حاولت في البداية أن أجعل فرمينوس ذاته يعدل عن حب الإطلاع، وحاولت أنا أن أقول له إنه كان على أن تشخص في كوكبة نجومه لأبوج له بالحقائق، فأرى بها والديه ذوي المرتبة الأولى في عشيرتيهما، وعائلته المرموقة في مديتها الخاصة، ولادته البريئة، وتربيته المحترمة، وثقافته الشريفة. أما لو استشارني ذلك العبد، المولود في كوكبة النجوم نفسها، لأنّها كوكبته هو أيضاً، طالباً مني أن فرأه فيها الحقائق، فإنه علي بالعكس أن أرى فيها عائلة وضيعة للغاية، في حالة عبودية وأرى جميع المظاهر المختلفة تماماً عن الأولى، والبعيدة عنها كلّ البعد. فكيف يعقل أن أقول لهما، لفرمينوس وللعبد، قولين مختلفين، لو كنت أقول حقاً؛ ولو قلت لهمما قولًا واحدًا، لقلت باطلًا. نستخلص من هذا، بكلّ وثوق أنّ ما يقال من الحقائق، بعد رصد كوكبات النجوم، لا يقال بناء

على العلم بل على الاتفاق والصدفة، أما ما يقال من الأباطيل فلا يصدر عن نقيسن
العلم بل عن كذب من الاتفاق.

10. ومن هنا أصبح المسار مفتوحاً، فأخذت في اجترار مثل هذه الأفكار، مخافة أن
يعارضني أحد هؤلاء الهاذين الذين كانوا يتبعون مثل هذه المسألة والذين كنت أرغب
دون هوادة في أن أهجم عليهم وأستهزئ بهم وأدحرهم، إذ لعل ما كان فرميتوس رواه
لي، أو رواه له أبوه، باطل من الأباطيل. لذا وجهت نظري إلى الذين يولدون توائم
فيسلّون عادة من الأرحام، الواحد تلو الآخر، بسرعة تجعل المدة القصيرة الفاصلة
بينهما وأيّاً كانت القيمة التي يولونها لتلك المدة في التالي الحقيقى للأشياء تستعصى
عن التقدير بالرؤى الإنسانية، ولا يقدر الإنسان البتة أن يسجّلها بالإشارات التي
سيتفحصها المنتجم، للتتبّؤ الصريح بالوقائع. ولكن هذا التتبّؤ أضيقاً تخيّل ليس
إلاً. ففحص نفس الواقع من المفروض أن يجعل المنتجم يتکهن بنفس المصير عن
إيزاؤ (Esaü) ويعقوب (Jacob = Jacob)، لكنه كان لهما مصيران مختلفان
تمام الاختلاف، كان إذن قد قال الأباطيل، ولو رام أن يقول الصواب، لكنه عليه أن
يقول إنّها مختلفة، على أساس أن التفحص فيها بين له أنها متجلّسة. والخلاصة أنه ما
كان يقول الحق بناء على العلم، بل على الاتفاق.

فأنت يا مولاي، يا أعدل معدل للمعمورة، تفعل بالهام خفي بالنسبة إلى المستشيرين
والمستشارين دون علم منهم، بحيث أنّ من يستشير يسمع ما يجب أن يسمعه، وفقاً
لأوضاعه الخفية، من أعمق أعماق حكمك العادل. فلا يقل لك إنسان: «ما هذا؟» ولم
هذا؟» ليخرس، ليخرس: إن هو إلا إنسان!

11.VII. ما أنت ذا، يا معيني، قد فككت عني تلك الأغلال، لكنّي كنت أبحث عن
مصدر الشر، ولم أجد المخرج. لكنك لم تكن تسمح بأن تحملني أمواج لتفكيري،
بعيداً عن تلك العقيدة التي بها كنت أؤمن آنّك موجود، وأنّ جوهرك غير قابل للتغيير،
وأنّك ساهر على البشر، وأنّك تشملهم بعدهك وأنّك «في المسيح، ابنك، ومولانا،
وفي الكتب المقدّسة التي توصي بها سلطة كنيستك الكاثوليكية، وضعّت الطريق
للنجاة الإنسانية في تلك الحياة التي ستكون بعد الموت».

إذن، بعد أن سلّمت هذه الاعترافات، وثبتت بمثابة في روحي، كنت أبحث باتقاد،
من أين يأتي الشر. يا لها من آلام قلبي المتهيّئ للمخاض، يا لها من حسرات فيه، يا
إلهي! وكانت أذناك بالمرصاد، دون علم مني، وبينما كنت أبحث في الصمت بقوّة،

كانت نداءاتٌ عالية ترتفع إلى شفتك، توباتٌ روحية الصامتة. كنت أنت تعلم ما كنت أتألم منه، ولم يكن يعلم ذلك أيّ إنسان. فما الذي كان يبلغ من كلامي مسامع أصدقائي الحبيبين للغاية! لكن أكانوا يسمعون كلَّ صخب روحني. لم أكن أجد من الوقت ما يكفي لتلبيتهم إياه، ولا كان صوتي قادراً على إسماعه⁽¹⁾، غير أنه كان يصعد إلى سمعك كلَّ الحسرات «التي كان مرجلها يغلي في قلبي، وأمامك كانت رغبتي، ولم يعد نور عيني معِي» لأنَّه كان في دخيلتي، أمَّا أنا فكنت خارجها، كانت هي خارج الفضاء، أمَّا أنا فلم أكن مهتماً إلا بالأشياء التي يحتويها الفضاء، وما كنت أجد مكاناً أرتاح فيه، وما كانت الأشياء تستقبلني فأقول: «هذا كافٌ، هذا طيب»، ولا كانت تركني أعود، حيث يجب أن أكون في ما يكفي من الراحة.

كنت أرفع منها، لكنني كنت دونك كنت أنت سروري الحق، ولئن كنت قد خضعت لك، فإنك قد أخضعت لي المخلوقات التي كنت خلقتها دوني. وكنت في ذلك الاعتدال الصائب، وفي إقليم نجاتي الأوسط، سابقى طبق صورتك، وأسيطر على جسمي وأنا أخدمك. لكن، بما آتى جابهتك في كبرياتي، وحملت على مولاي «والعُنْقُ مِنِي سَمِيكٌ كَالثُّرْسٍ»، أصبحت تلك الأشياء فوقى، بعد أن كانت تحتى، وأخذت أنوء بها، وما كان لي أن أجده فسحة، ولا راحة. فقد كانت تراءى لعيني من كل صوب، حشوداً وكتلات، أمَّا صور الأجسام ذاتها فكانت تعترض فكري فترده من حيث أتى، وكانتها تقول: «إلى أين أنت ذاهب يا دنيء، يا خسيس؟» وهذه الأشياء كانت قد نمت في جرجي، «لأنك أهنت المتكبر، كأنه الجريح»، وكانت منفصلاً عنك بسبب عجبي، وكانت ساحتى المستفخنة جداً تغلق عيني.

VIII. أمَّا أنت، يا مولاي، «فدانِم باق إلى الأبد»، ولا تغضب علينا إلى الأبد، لأنك أشفقت على طفلي وعلى رمادي، وطاب لك «على مرأى منك» أن تقوم تشويهاتي. وكنت تلاحظني بمناخس داخلية، حتى لا أعرف الراحة ريثما يكون لي عنك يقيني، بواسطة تفحص داخلي. وكان عجبي يتراجع بواسطة يد دوائك الخفية،

(1) ...nec tempora nec os meum sufficiebat إياه، ولا كان صوتي قادراً على إسماعه. نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة 1، هامش ص 157. «الاعترافات المتبادلة التي يقدم عنها في الكتاب الرابع الفقرة 17، صورة على قدر كبير من الحيوة لم تكن تبُوح إذن بأسرار جميع القلوب، وبالخصوص قلب أوغستينوس لأن التأمل الباطني أصبح أشدَّ تأججاً وأكثر شجناً».

وعين روحى المغشاة العميماء، كانت تشفى يوما بعد يوم بفضل قطرات الدواء الفعالة للألام المنجية.

IX.13. ومع إرادتك، في البداية، أن تبرز لي «كم تتصدى للمتكبرين، وتعطى في المقابل نعمتك للمتواضعين» وبأية شفقة كبيرة أظهرت للناس طريق التواضع، بما أن «كلمتك المقدسة صارت لحما وسكنت بين الناس» مددتني، بواسطة رجل متغطخ بكربلاء فاحش، بعض كتب الأفلاطونيين المترجمة من اللغة اليونانية إلى اللاتينية.

وفي تلك الكتب قرأت، لعمري، لا سرقني بل في نفس ذلك المعنى تماما، ومع الكثير من الحجج المختلفة المقنعة أنه «كانت في البداية الكلمة المقدسة: كانت الكلمة لدى الإله، وكان الإله الكلمة المقدسة. كان هذا في البداية لدى الإله؛ جميع الأشياء خلقت من لدنه، ويدونه هو لم يخلق أي شيء، ما خلق هو فيه حياة، والحياة كانت نور البشر، والنور يضيء في الظلمات، والظلمات لم تفهمه». وقرأت أن روح الإنسان، «وإن قدّمت شهادة عن النور» ليست «مع ذلك في ذاتها النور»؛ بل إن الكلمة المقدسة، أي الإله ذاته، هي «النور الحق الذي ينير كل إنسان آت إلى هذه الدنيا» وإنه «كان في هذه الدنيا» وإن «الدنيا خلقتها هو»، وإن «الدنيا لم تعرفه بتة». أما هذا أي «أنه آتى إلى بيته، فلم يستقبله أهله، لكنه وهب الذين استقبلوه القدرة على أن يصبحوا أبناء الإله، مصدّقين باسمه»، فلم أقرأه في تلك الكتب.

14. كذلك قرأت هناك، أن الكلمة المقدسة أي الإله، «لم تولد، لا من اللحم، ولا من الدم، ولا من إرادة الإنسان، ولا من إرادة اللحم، بل من الإله»، لكن أن تكون «الكلمة أصبحت لحما، وسكنت بيننا»، فلم أقرأه هنالك.

اكتشفت لعمري، في تلك الكتب، أنه قيل، بصور مختلفة متعددة، إن الابن، وهو «في هيئة الأب»، لم يعتبر مساواه للإله من قبيل السلب والاغتصاب، بما أن ذلك فيه طبيعة. أما أن يكون «أفنى نفسه بنفسه»، وقبل وضع العبد، وأصبح مثل البشر، وفي مظاهر إنسان، وأن يكون أذلّ نفسه، وأصبح كالخاضع للموت عينه، بل للموت فوق الصليب، وأن الإله، لهذا السبب، رفعه وأخرجه من عداد الموتى وأعطاه اسمًا أرفع من جميع الأسماء، كي يركع لاسم اليسوع كلّ ما في السماء وما في الأرض وما في الجحيم، وكي يُقرّ كلّ لسان بأنّ المولى اليسوع في عزّ الإله أبيه»، فكلّ هذا لم تتضمنه تلك الكتب.

أما أن يدوم قبل كل الأزمـة وبعد كل الأزمـة ويلا تغير ابنـك الوـحـيد وشـريكـك في

الأبدية، وأن تأخذ الأرواح من «كماله» لتكون سعيدة، وأن تتجدد عن طريق المشاركة في الحكمة الدائمة في ذاتها» فذلك موجود في تلك الكتب؛ أما «أنه مات حسب الوقت الذي سجله الملحدون» وأنك لم تعرف عن ابنك الوحيد، بل «سلمته للعذاب من أجلنا جميعاً»، فليس موجوداً هنالك. فأنت «أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء، وكشفتها للصغار» حتى يأتيه «المعذبون والذين يحملون أوزارهم، فيشد أزرهم، إذ إنّه لطيف ذو قلب متواضع، ويوجه الطّيّفين نحو العدل، ويهدى الحليمين إلى طريقهم، ناظراً إلى تواضعنا وعداننا، وما حيا كلّ ذنوبنا». أما أولئك الذين تخالهم متتصبين على كوثُرَنْ مذهبِ أسمى (cothurno = le cothurne)⁽¹⁾، فلا يسمعونه وهو يقول: «اعلموا أنني لطيف، ذو قلب متواضع، وسوف تجدون الراحة لنفسكم»، وإن عرفوا الإله، «فهم لا يمجدونه في صورة إله، ولا يحمدونه، بل يتهمون في أفكارهم الخاصة، وتُظلم قلوبهم الخرقاء، يقولون إنّهم حكماء والحال أنهم يصبحون أغبياء».

15. ولذا كنت أقرأ في تلك الكتب الأفلاطونية أيضاً «المجد الذي لا يعرف إليه الفساد سبيلاً» متن克拉ً في صورة العديد من الأصنام والتماضيل، «التي تمثل صورة الإنسان القابل للفساد، وصور الطيور والسوائم والحيّات»⁽²⁾. وهذا بلا شك طبق الطعام المصري⁽³⁾ الذي خسر به إيزاؤ حقّه الخاص في البكورية، لأنّ شعبك المولود الأول، عبد، بدل أن يعبدك أنت، رأس سائمة تمثي على أربع (caput quadrupedis = la tête d'un quadrupède) صورتك، أمام صورة «عجل يأكل علفاً»!

(1) ...nec tempora nec os meum sufficiebat ... = لم أكن أجد من الوقت ما يكفي لتبليغهم إياه، ولا كان صوتي قادرًا على إسماعه. نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة 1، هامش من 157. «الاعترافات المتباينة التي يقدم عنها في الكتاب الرابع الفقرة 17، X، صورة على قدر كبير من الحيوانية لم تكن تبُوح إذن بأسرار جميع القلوب، وبالخصوص قلب أوغستينوس لأنّ التأمل الباطني أصبح أشدّ تأجّجاً وأكثر شجوى».

(2) in similitudinem imaginis corruptibilis hominis et uolucrum et quadrupedum ... et serpentium ... «التي تمثل صورة الإنسان القابل للفساد، وصور الطيور والسوائم والحيّات: نفس المرجع، الملاحظة 2، هامش من 160» فقد كان إذن متأثراً بطابع تعدد الآلهة الموجود في الكتابات الأفلاطونية.

(3) «لقد كان الشره أمام طبق طعام مصرى السبب في فقدان «إيزاؤ» حقّ البكورية. وكذا الأمر بالنسبة إلى الشعب اليهودي...» كما قال أوغسطينوس في موضع آخر: نفس المرجع، الملاحظة 3، هامش من 160.

هذا ما وجدته في تلك الكتب، لكن لم أكل منها. لأنك، يا مولاي، قررت أن تُبعد خزيَّ التبعية عن يعقوب، كي يمثل الأكبر للأصغر، وناديت الشعوب لميراثك. وأنا كنت قد أتيت إليك أيضاً، من صلب الشعوب، وطمحت إلى الذهب الذي أردت أن يقتصيه شعبك من مصر، لأنك لك أيّما كان. وقلت للآثيتيين بواسطة حوارتك «إننا فيك نعيش، وتحرزك وجودنا»، كما قال ذلك أيضاً بعض الكتاب منهم. وعلى كل فقد كانت تلك الكتب صادرة عنهم⁽¹⁾، ولم أهتم بأصنام المصريين التي كان يضحي لها من ذهبك، «من حولوا حق الإله إلى كذب، وعبدوا الخلقة عوضاً عن الخالق وخدموها».

X.16. ومن ذاك تنبأت إلى أن أرجع إلى نفسي ذاتها، وكانت دليلي، فدخلت إلى باطنِي بالذات، استطعت ذلك، لأنك «أصبحت سدي». دخلته، ورأيت بقلبي رغم الغشاوة التي عليه، فرق بصر روحي، وفرق عقلي، نوراً مستقراً. ليس ذلك النور المألف الذي يراه كل كائن من لحم، ولا نوراً من نفس الجنس، بل نوراً ربما أقوى، ذا بريق ساطع، أكثر فأكثر حدة، تغمر قرة أشعته كل شيء على السواء. لا، لم يكن هذا ذلك النور، بل كان شيئاً آخر، مختلفاً عنه اختلافاً تاماً. ولم يكن أيضاً فرق عقلي، كالزريت فوق الماء، ولا كالسماء فوق الأرض، بل كان أعلى مني وأرفع لأنه خلقني، وأنا دونه، لأنني خلقت من صنعه. إن من يعرف الحق، يعرف الحق، ومن يعرفه، يعرف الأبدية. وتعرفها المحجّبة!

أيتها الحق الأبدية، أيتها المحجّبة الحق، أيتها الأبدية الحبيبة! أنت إلهي، وإليكم أتوق «ليل نهار». وعندما عرفتكم أول مرة، رفعتوني إليكم، كي أرى أن هناك شيئاً جديراً بأن أراه وأنني مازلت غير قادر على أن أراه. وبإشعاعكم العنيف نحوه بهرت بصرِي الضعيف، وارتختت جباه ورعاها: ووجدتني بعيداً عنكم، في إقليم غريب، وكأنني أسمع صوتكم آتياً من العلياء ينادي: «أنا طعام الأقوياء، آمنٌ وستأكلني. وأنت لن تمتصني امتصاص لحمك للغذاء، بل ستتحول أنت إلى وتحل في».

عرفت عندئذ أنك «سبب الجور أصلحت الإنسان» و«أنك جعلت روحي تجفّ

⁽¹⁾ ...et utique inde erant illi libri ... المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة 3، هامش ص 161: يوحى بهذا الكلام أنه «باستعمال» الأفلاطونية الجديدة لا يعدو أنه يمارس حقاً شرّعه له مسبقاً قوانين الإيمان الإنجيلية وكلام الحواري بولس Paul.

كشع العنكبوبت» وقلت في نفسي : ألم يكن ذاك إلأ الحق، بما أنه لا ينتشر في الفضاء المحدود، ولا اللامحدود؟» وناديتني من بعيد: «لا بل بالعكس، أنا الذي هو أنا». سمعت ذلك كما يسمع السامع بالقلب، ولم يكن لي بتاتا مجال للشك، وكنت أقرب إلى الشك في حياتي، من أن أشك في عدم وجود الحق الذي يُرى «بواسطة المخلوقات معقولاً».

XI. 17. وتعقنت في جميع الأشياء التي هي تحتنك، ورأيت أنها إما أن توجد إطلاقاً، أو لا توجد إطلاقاً: هي توجد، لأنها صادرة عنك، وهي من جهة أخرى لا توجد، لأنها ليست ما هو أنت. لأن ما يوجد بحق هو ما يبقى على الدوام. «أما الخير لي ففي التعلق بالإله»، لأنني لولم أبق في ذاته، لما كنت أبقى في ذاتي. أما هو « فهو الباقي في ذاته، يجدد الكل»؛ و«أنت مولاي لأنك لا تحتاج لخيراتي».

XII. 18. وتبينت أن الأشياء لا تكون عرضة للفساد إلا إذا كانت طيبة، ولو كانت أرقى الطيبات، لما كان يأتياها الفساد، كما أنها لا تعرف الفساد لو لم تكن طيبة بأية درجة، لأنها لو كانت أرقى الطيبات، وكانت غير قابلة للفساد. إن الفساد مضرة، ولو لم يكن يغتير الطيب، لما كان يضر. إذن فإنما أن ما يُنسد لا يضرّ البة، وليس الأمر كذلك، وإنما - وهو أمر ثابت موثوق به - أن جميع الأشياء التي يطالها الفساد محرومة من الطيب. أما إذا تجرّد الشيء من كل ما هو طيب فيه، فإن كيانه سيزول إطلاقاً. إذ لو حافظت على كيانها دون أن تظلّ عرضة للفساد، وكانت أحسن حالاً من ذي قبل، حيث أنها سوف تدوم كغير القابلة للفساد. وما أغرب أن تقول إنها، بفقدان الطيب كلّه، قد أصبحت أحسن؟ فانعدام الطيب مطلقاً إذن يعني العدم: لذا فما دامت الأشياء موجودة فهي حسنة، وكل ما هو كائن، يكون حسناً. والشرط الذي كنت أبحث عن مصدره ليس جواهر، إذ لو كان جواهر لكان حسناً. فاما أن يكون جواهر غير قابل للفساد، وبالتالي يكون خيراً كبيراً، وإنما أن يكون جواهر قابلاً للفساد، وبالتالي لا يعرف الفساد لو لم يكن حسناً.

والخلاصة التي تبيّنت، وأصبح ذلك بالنسبة إليّ جليّاً، أنك خلقت كل الأشياء حسنة، وعلاوة على ذلك، لا يوجد جواهر لم تخلقه أنت. وحيث أنك لم تخلق كل الأشياء متساوية، لذا كانت كل الأشياء التي هي حسنة فرادى، حسنة جداً في مجدها، لأن إلها خلق «كل الأشياء حسنة جداً».

XIII. 19. وفي نظرك، الشر لا يوجد إطلاقاً، لا فقط بالنسبة إليك، بل وبالنسبة إلى خلائقك جماعة، لأنه لا شيء خارج هذه الخلية يستطيع أن يغزو النظام الذي رسمته فيها ويفسده.

أما الخلقة في أجزائها، ببعضها، لكونه لا يتفق مع بعض، يعتبر شرّاً، وتلك الأجزاء عينها تتوافق رغم ذلك مع أجزاء أخرى، فتكون حسنة، وهي في جوهرها حسنة أيضاً. وهذه جماعة التي لا يوافق بعضها بعضاً، تتوافق هذا الجزء الأسفل من الكون الملائم لنفسه الذي نسميه الأرض، والذي له سماوه بنبيومها ورياحها. وحاشا أن أقول بعد: «ما كانت هذه الأشياء لتكون!» لأنني، وإن لم أر سواها، كنت أرغب لعمري أن تكون أحسن، لكن علي أن أمدحك أيضاً في شأنها وحدها، لأن كل شيء على الأرض يستحب ضرورة بحمدك: «الثنيات، وكل الوهاد، والنار، والبرد، والثلج، وهبوب العاصفة التي تردد كلها كلامك المقدس، والجبال وجميع التلال، والأشجار المثمرة، والأرز، وجميع الماشي، والزواحف، والعصافير المجنحة، وملوك الأرض وكل الشعوب، والأمراء وكل حكام الأرض، والشبان والفتيات، والشيخ مع الشباب يمدحون اسمك». أما وأنت يمدحك أيضاً «من السماوات»، أجل، يمدحك، يا إلهنا، «على القمم، كل ملائكتك، وكل قواك، والشمس والقمر، وكل النجوم والنور، وسموات السماوات، والمياه التي فوق السماوات، يمدحون جميعاً اسمك»، كذلك أصبحت لا أرغب في شيء أحسن، لأنني أجلت فكري في كل شيء فتبيّنت لعمري أن العلية منها أحسن شأنها من السفلي، لكن التفكير بأكثر حكمة جعلني أعتبر أن مجموع الخلقة هو لعمري أحسن من الأجزاء العليا مفردة⁽¹⁾.

20.XIV. «لا حكمة لهم» أولئك الذين لا يروقهم شيء في خليقتك، شأنهم شأنى لما كانت لا تروق لي أشياء كثيرة أنت خلقتها. ولما كانت روحى لا تبلغ بها الجرأة إلا يعجبها إلهي، فإنها أبىت أن ترى خليقتك في كل ما لا يعجبها، من هناك انتقلت إلى نظرية اثنينية الجوهرتين، لكنها لم تجد فيها ما يريح، بل كانت تقول قولًا مباینًا لا يصدر من الأعماق. وعندما رجعت من ضلالها، كانت قد صنعت لنفسها إليها موجوداً عبر الفضاء اللانهائي في كل الأمان، وظلت أنه أنت، وكانت قد نصبته في قلبها، وأصبحت من جديد معبد صنمها المقيت لديك. لكن بعد أن أملأت نحوك رأسي، دون علمي، وأغمست «عيني، كي لا تريا التفاهة»، فقدت شعوري قليلاً، وغفا جنوبي،

(1) ... *melliora omnia quam sola superiora* = أحسن من الأجزاء العليا على انفراد. نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة 1، هامش ص 161: «فضل الأفلاطونية الجديدة يفتخر أوغسطينوس بأنه قد انتهى به الأمر إلى أن يتبيّن الحقيقة بشأن مسألة الشر. فالشر ليس من ناحية مادة ملموسة، ولو كان كذلك لما كان شرًا. ومن ناحية أخرى فإنّ الجزئية ليست سوى نثار جزئي ولا تتناغم ولا تتناسق إلا مع الخلقة في كلّيتها».

وأفقت بين يديك، ورأيتك لا متناهياً، وعلى هيئة أخرى، وما كانت هذه الرؤية صادرة عن اللحم.

21.XV. وأدرت نظري إلى الأشياء الأخرى، ورأيت أنها مدينة لك بكونها موجودة، وأن كل شيء حدوده فيك، لكن بصورة أخرى، لا كما في الفضاء، لأنك أنت ماسك كل شيء بيد الحق، وجميع الأشياء هي حقيقة، بقدر ما هي موجودة، وليس الباطل إلا عندما يعتقد وجود ما لا وجود له.

ولم أدرك فقط أن كل شيء في مكانه المناسب، بل وفي زمانه المناسب أيضاً، وأنك أنت، الوحيد الدائم، لم تبدأ العمل، بعد مدد من الأوقات لا تحصى، لأن مدد كل الأوقات التي سبقت والتي سوف تأتي، ما كانت لتنقضي، ولا لتنتهي مستقبلاً، ولو لم تكن أنت فاعلاً ثابتاً قاراً.

22.XVI. وأدركت بالتجربة ألا عجب أن يكون نفس الخبز، عذباً بالحلق غير سليم، عذباً للتسليم، وأن يكون النور مقيناً للأعين المريضة، محبوباً للتسليم. إن عدلك نفسه لا يرق للجائزين، وبالأحرى الأفعى والدويدة، اللتين خلقتهما حستين، ومناسبتين للأجزاء السفلية من خليقتك التي يتطابقون بها الجائزون أنفسهم أيضاً، بقدر ما هم أقل شبهاً بك، في حين أنهم يتطابقون بالأجزاء العليا، بقدر ما يصيرون أشبه بك. وبحثت عن ماهية الفساد، فوجدت أنه ليس جوهراً، بل انحراف للإرادة عن الجوهر الأسمى، أي عنك يا إلهي، وتوجه نحو الأشياء الدنيا، لافتاً «أحشاءه» ومتورزاً خارجها.

23.XVII. وكنت أتعجب أنني أحبتك بعد، ولا أحب وما عوضاً عنك، ولم تكن متعتي باللهي تعرف الاستقرار، بل كنت أنجذب إليك بفعل جمالك، ثم سرعان ما كنت أبعد عنك بفعل ثقل وزني، وكانت أسطوط على هذا الأديم وأنا أئت، وثقل وزني هذا هو ديني الجسماني. لكن ذكرك كانت تلازمني ولا تفارقني، ولم أكن أشك لحظة أنه يوجد كائن يجب علي أن أتعلّق به، لكنني لم أصبح بعد قادراً على التعلق به، لأن «الجسم الأيل إلى الفساد يثقل الروح، والبيت المبني من الغربين يوهن الحسن، فيتهي في الأفكار». وكنت واثقاً وثوقاً تماماً «أن آيات كمالك الخفية أصبحت بيته منذ نشأة الكون، بفضل تلك المخلوقات، وكذلك آيات قوتك الدائمة وألوهيتها». وأثناء بحثي عما يمكنني من الوقوف على جمال الأجسام، السماوية أو الأرضية، والقدرة على أن أحكم بنزاهة على تلك المتنغيرات (*de mutabilibus = sur ces choses*)، قائلًا: «مذا ينبغي أن يكون هكذا، ذلك ينبغي أن لا يكون هكذا»، باحثاً

كما قلت عَنِّي أعتمد عليه لأحكم بما كنت أحكم به هكذا، كنت قد وجدت الأبدية الحقّ الثابتة أعلى وأرفع من عقلي المتغير.

ولذا صعدت هكذا شيئاً من الأجسام إلى الروح التي تحس بواسطة الجسم، ومن هناك إلى قوتها الداخلية التي تبلغها الحواسُ الجسدية للأحساسِ الخارجية، والتي تمثل حدود القدرات الحيوانية)، ومن هنا أيضاً إلى القوة العقلانية التي يعود إلى حكمها ما يدرك بحواسِ الجسم. وتلك القوة التي اكتشفت في أيضاً أنها متغيرة في ذاتها، ارتفعت إلى عقلانيتها الخاصة، وأبعدت تفكيري عن طغيان العادة، مفلتة من حشود الأوهام المتناقضة، لتكتشف بأني نور كانت تُغمر، وهي تصرخ دون أي تردد أن اللامتغير ينبغي أن يكون أفضل من المتغير⁽¹⁾، ومن أين كانت تعرف اللامتغير ذاته - إذ لو لم تكن تعرفه بصورة ما، لما كانت بآية صورة تفضله بحق على المتغير - ووصلت أخيراً في لمح البصر المرتجف إلى ما هو موجود، إلى الكائن الأسمى، إلى الإله. عندئذ رأيت أن «اللامرتيات فيك أصبحت معقولات بواسطة تلك المخلوقات»، لكنني لم أقدر أن أحذق فيه، فعدت مدحوراً بضعفِي إلى عادتي، لا أحمل معي سوى الذاكرة المُحبطة التي كانت كأنّي بها راغبة في المأكولات الفانحة التي لا أزال غير قادر على أكلها.

24.XVIII. وكنت أبحث عن طريقة أحصل بها على القوة التي قد تمكنت من التمتع بك، وما كنت لأجدها، ما لم أعائق «الوسط بين الإله والناس، الإنسان المسيح اليسوع الذي هو فوق الكل، الإله المبارك إلى الأبد»، وهو ينادينا قائلاً: «أنا هو الطريق، والحق والحياة» وخلال الطعام الذي كنت عاجزاً عن تناوله بلحم الجسد بما أن «الكلمة المقدسة أصبحت لحماً» لترضع طفولتنا بحكمتك التي خلقت الكل بها.

لم يكن لي من التواضع ما به أملك إلهي، اليسوع المتواضع، ولم أكن أعرف الدروس التي كان ضعفه يلقنها، إذ إن كلمتك المقدسة أي الحق الأبدية الأعلى شأنها من أرفع أجزاء خليقتك، يرفع إلى مستوى بالذات الخاضعين له، في حين أنه في

(1) ... = ثابت يجب أن يقدم ويفضل على المتحول. نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة 1، هامش ص 167: 11. الصور الحسنة بمحاجتها الذكاء تنقص من سرعة ارتقائه نحو الحقيقة الشعسانية التي كان أوغسطينوس يعترف أنه لم يرها إلا لماماً في لمح لذة خاصة. وكل هذا الكلام من كلام الأفلاطونية الجديدة».

أسفالها بني لنفسه داراً متواضعة من وحلنا، كي يخلص فيها من أنفسهم من كان يريد أن يخضعهم، ويجرّهم إليه، ويداوي غرورهم وينهي حبهم. أراد أن يحميهم من الضلال بشدة الوثوق في أنفسهم، فيضعفوا ويلينا وهم يرون عند أرجلهم ضعف الألوهية بارتدائها معنا «رداء الجلد» وليخروا تعباً أمامها، في حين تستقيم هي وترتقي بهم.

25. أما أنا فكنت أظن غير ذلك، كنت لا أرى في مولاي المسيح سوى إنسان ذي حكمة سامية لا يستطيع أحد أن يعادلها. فولادته العجيبة من عذراء، - باعتبارها مثلاً لضرورة احتقار الخيرات الفانية (*temporalium = les biens temporels*) - يبدو أنها جعلته يستحق سلطة المعلم، مقابل الحصول على الخلود بفضل عناية الإله بنا. ترى أيّ سر يحتويه قوله «الكلمة المقدسة أصبحت لحماً»، لم يكن ذلك حتى ليخطر بيالي. كلّ ما عرفته مما نقل عنه في الكتب المقدسة، هو أنه أكل وشرب، ونام، وسار، وفرح، وحزن، وتحدث، وأنّ هذا اللحم لم يلتجم بكلماتك إلا بروح وعقل إنسانيين⁽¹⁾. يعرف هذا كلّ من يعرف لقابلية تغيير كلمتك التي كنت أنا أعرفها بعدُ قدر المستطاع، ولم أكن أشك فيها البتة أدنى شكّ، إذ إن تحريك أعضاء الجسم بالإرادة تارة، وعدم تحريكها تارة أخرى، والتأثير بعاطفة ما تارة، ثم عدم التأثير بها، والتفرقه مرّة بأراء حكيمه، ثم ملازمه الصمت، تلك خصائص قابلية الروح والعقل للتغيير. ولو كانت الكلمة المقدسة منسوبة إليه باطلًا في الكتب المقدسة، لأصبح كلّ شيء أيضًا محمولاً على الكذب ولما بقي في تلك الكتب أيّ إيمان ينجمي الجنس البشري. وبما أنها صادقة اعترفت أنّ المسيح إنسان كامل، لا بجسم إنسان فقط، أو بروح وجسم دون عقل، بل إنسان حقيقي كنت أعتبره في تقديري مفضلاً على كلّ الآخرين، لا كالحقّ عينه، بل بسبب سموّ كبير في طبيعته البشرية، وإسهام في الحكمة أشدّ كمالاً.

أما أليبيوس Alypius، فكان لا يعتقد أن الكاثوليكين يؤمنون بإله مكسوة لحما، يعتبر أنّ المسيح لحم وإله ولا توجد فيه روح، ولم يكن يعتبر أنّهم يقولون بوجود عقل الإنسان فيه. وهو، لشنّ كان مقتنعاً أنّ الأفعال المنسوبة إلى المسيح لم

(1) ...cum anima et mente humana ...=... بروح وعقل إنسانيين. نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة 1، هامش ص 168: «وعلى هذا النحو، حتى في ذلك العهد، كان أوغسطينوس يجهل، أو يكاد، مقالاً من المقالات الرئيسية عن الديانة الكاثوليكية. فـ«فوتان السريومي» Photin de Sirmium وقد ذكر اسمه في مكان لاحق «قد صرّح بصورة لا غبار عليها أنّ المسيح لم يكن إلا بشراً، وكان شبيهاً في كلّ شيء بسائر البشر إلا في ولادته المعجزة وفي كمال الرحمة التي نزلت منه بسبب كمال خلقه». نقلًا عن «غاستاف باردي» Gustave BARDY ...

تقع من خلية مجردة من الحياة والعقل، فإنه كان يقترب نحو العقيدة الكاثوليكية بالذات ببطء وكسل، لكنه لم يعترف إلا في وقت متاخر أن ذلك هو خطأ الهرطقيين *haereticorum Apollinaristarum = des disciples de* أبوليانيوس (l'hérétique Apollinaire)، فابتسم واعتنق العقيدة الكاثوليكية.

أما أنا فأعترف أنني تعلمت، بعد وقت قصير، كيف أنه، في تلك «الكلمة المقدسة أصبحت لحما»، يبتعد الاعتقاد الكاثوليكي عن ضلاله فوتينوس (*a Fotini falsitate avec l'erreur mensongère de Photin*). وشجب الهرطقيين يبرز موقف كنيستك وما تتضمنه العقيدة الصحيحة. «إذ كان لزاماً أيضاً أن تكون الهرطقات، حتى تميّز القلوب الفوريّة بالإيمان من القلوب الضعيفة».

XX.26. غير أنني آنذاك، بعد أن قرأت تلك الكتب الأفلاطونية، وبعد أن تبتهت فيها إلى البحث عن الحقيقة خارج عالم الأجسام، أبصرت «مربياتك الخفية التي أصبحت تدرك عبر المخلوقات»، ورغم أنني طردت منها، فقد شعرت أنه ما كان ليسمح لي بأن أراها عبر ظلمات روحي. كنت واثقاً من ذلك من كونك موجوداً، ولا محدوداً، دون أن تكون مقسماً عبر فضاءات محدودة أو لا محدودة، ومن كونك أنت بحق الذي تكون دوماً أنت ذاتك، وغير متغير في أيٍ جزء ولا أية حركة منك عتا كنت، وأنا جميع الأشياء الأخرى فهي صادرة عنك، بناء على هذه الحججة الوحيدة والأكثر م坦ة وهي كونها موجودة، وكانت لعمري واثقاً من هذا، لكنني كنت لا أزال ضعيفاً جداً لأن أتمتع بك. كنت أهذى تماماً هذيان الرجل المحنك، ولو لم أبحث عن طريقك «في المسيح المنتج» لما كنت عالماً بل مهدداً بالموت. لأنني بدأت بعد أريد أن أظهر مظهر الحكيم، مملوءاً بعقابي، ولم أكن أعرف البكاء بل كنت مغروراً بعلمي. فـأين كان ذلك الحب (charité = *caritas*) المشيد على التواضع، الذي هو المسيح اليسوع؟ وهل كانت تلك الكتب لتعلمنيه؟ فلو كنت تريد أن أرتمي عليها، قبل أن أتمعن في كتبك المقدسة، فـذلك كان، فيما أقدر، لتحتفظ ذاكرتي بما قد أكون تأثرت به من قراءتها، ولادرك وأميـز - بعد أن أكون وجدت السكينة في كتبك، وتكون جروحي قد ضمدت بأصابعك الشافية - الفرق بين افتراض الخطأ والإقرار به، بين الذين يرون إلى أين ينبغي أن يذهبوا، ومع ذلك لا يرون عبر أي طريق، والطريق المؤدي إلى وطن السعادة العظمى (ad beatificam patriam = à la patrie bienheureuse)، لا فقط لتشاهده بل وأيضاً لتسكن فيه.

ولو تعلمت في الأول من كتب المقدسة، وعوّدت نفسي على عذوبتها، ثم وقعت إثر ذلك على تلك المجلدات الأفلاطونية، فلعلها كانت تجتثني من هيكل التقوى. أو لو كنت قد بقيت على الهيئة السليمة التي كنت تشبّعت بها، فلربما اعتبرت أنه يمكن أن نجني فائدة مماثلة حتى بالاقتصار على دراسة تلك الكتب.

27.XXI. أقبلت إذن بشغف كبير على كتب روحك الموقرة، وبالخصوص على كتب المقدم على كل الآخرين العواري باولوس (*apostolum Paulum = l'apôtre Paul*)، واضمحلّت تلك المسائل التي ظهر لي فيها أن هذا الأخير أحيانا ينافق نفسه، ولا يتتطابق نص خطابه مع شواهد القانون والرسل. ويرز لي المحتوى الأوحد لأقوال العفة، وتعلّمت «كيف أهلل بارتّجاف». وبعد أن بدأت في التمعن، وجدت أن كل ما كنت قد قرأته من حق هناك في الكتب الأفلاطونية (*illac = là bas*)، يقال هنا عند باولوس⁽¹⁾ (*hac = ici*) برحمة من نعمتك، حتى لا يتبااهي الذي يرى، كما لو أنه لم يتسلّم لا فقط ما يراه، بل كذلك قدرته على أن يرى: فهل يملك غير ما تسلّمه⁽²⁾? وهكذا فإنه مدعّع لا فقط إلى أن يراك، أنت الذي لا تختلف عن ذاتك، بل وأيضاً إلى أن يُشفى ليملكك. ومن لا يقدر أن يراك من بعيد، فليس مع ذلك في الطريق، الذي يقدر به أن يأتي إليك ويراك ويلمّلك، لأنّ الإنسان، «وإن سعد بقانون الإله من جهة الإنسان الداخلي»، فماذا سيفعل «بالقانون الآخر المناهض، في أعضائه لقانون عقله والمؤدي به كالسجين إلى قانون الذنب الذي يوجد في أعضائه؟ «لأنك عادل» يا مولاي، أما نحن «فأخذتنا وارتكتنا الجور»، وارتكتنا المعصية و«ثقلت يدك فوقنا»

(1) إذن فقدقرأ رسائل القديس «بولس» Paul بعد أن قرأ كتب الأفلاطونيين الجدد. وكانت هذه الكتب، بالإضافة إلى ما وفرته له من وضوح حاسم، لم تسهل عليه إصلاح شأن حياته. فعلاوة على مظاهر المؤس الأخرى زادته بؤس الكيريات. فقد غير الكتاب المقدس من نفسه أكثر مما غيرت منه كتب الأفلاطونيين الجدد. فقد وجد فيها درساً في التواضع، وقد لطفها مشروح عذب وحث متواصل على الثقة بالله.... كما ذكر «ب. دي لا بريول» في الجزء الأول من الاعترافات من 171 نثلاً عن «شارل بواني» Ch. BOYER في كتابه «المسيحية والأفلاطونية الجديدة» في *Christianisme et Néo - Platonisme dans la formation de saint Augustin*, Paris, 1920, page 126

(2) نفس المرجع، الملاحظة 1، من هامش الصفحة السابقة: الجملة اللاتينية *quid enim habet que non accepit* Que possède t - il, en effet : *que non accepit* أي « فهو قد تقبل كل شيء » (من الإله). وهذا الاستفهام يوافقه إذن إثبات قوي شامل. والسياق مؤثر والمقام صوفي بالطبع.

وسلمتنا بعدلك إلى المذنب العتيق، متدوب الموت الذي أقنع إرادتنا بالامتثال لإرادته التي لم يبق فيها «في حقلك». ماذا سيفعل إذن «الإنسان الشقي»؟ «من سوف يحرره من هذا الجسم الميت، سوى عنايتك، بواسطة اليسوع المسيح، مولانا» الذي نسله شريكا في الأبدية، وخلقه «في بداية طرقاتك» والذي لم يجد فيه «أمير هذه الدنيا» أي شيء جديرا بالموت والذي قتله مع ذلك وبذلك فسخ العهد الذي كان مضادا لنا؟

هذا ما لا تتضمنه تلك الصحف. تلك الصحف لا تتضمن هذا الوجه من التقوى ومن دموع الاعتراف و«قربانك وروحك المسحورة والقلب المدمر المهاهن» ونجاة شعبك و«المدينة الخطيبة وعربون الروح القدس» و«كأس فديتنا». فهنا لا أحد يعني: «هلاً كانت روحي خاضعة للإله؟ فمنه بالذات نجاتي لأنّه بحق إلهي ومنقذِي وستَّادي فلن أرْتَجَّ بعد الأن». لن يُسمع فيها مناد ينادي: «هلتموا، أنتم الذين تعانون». يزدرون أن يتعلّموا منه «لأنه لطيف ذو قلب متواضع». فأنت «أخفیت هذه الأشياء على الحكماء والحاذقين وكشفتها للصغار». وشتان بين أن ترى من قمة جبل مشجر وطن السلام، ولا تجد السبيل إليه، فتحاول عبئا الوصول إليه عبر الأوغار وسط المحاصرين والمترصددين الهاربين الفارين، مع أميرهم الأسد - التنين، وأن تتبع الطريق المؤذي إلى هناك، المحمي بعنابة الإمبراطور السماوي، حيث لا يتلخص من فروا وخرجوا عن الجيش السماوي، لأنهم يتجلبونه تجنيهم للعقاب.

هذه الأفكار كانت تمسك بأحشائي بصور غريبة، كلما كنت أقرأ الأدنى من حواريتك، وكانت قد تمعنت في آثارك وانبهرت بها.

الكتاب الثامن

١. يا إلهي، لأنذَّكَ وأنا أُعرب عن شكري لك، شفقاتك نحوِي، ولأقتَبها، ولتشتَّبع عظامي بحثك، ولتقلُّ: «مولاي، من ملوك؟ لقد حطمت قيودي: فلأقدم لك قربان المديح». كيف حطمت قيودي، ساروي ذلك، وسيقول كلَّ الذين يعبدونك، عندما سيسمعونني: «حمدًا لله الذي في السماء وعلى الأرض! عظيم رائع هو اسمه!» كانت كلماتك قد انتقدت في صدري، وكانت محاطاً بك من كلِّ جهة، كتَّت واثقاً من حياتك الأبدية، غير أنَّي كنت قد رأيتها «كاللغز وعبر مرآة»؛ لكنَّ كلَّ شَكَ انتزع مني في خصوص جوهرك الذي لا يعرف الفساد، لأنَّ كلَّ جوهر صادر عنه، ولم أكن أكثر يقيناً فيك، بل كنت أرغب أنْ أكون أكثر ثباتاً. أما عن حياتي الدهرية، فكان كلَّ شيء فيها يتَّرَجَّح، وكان علىَّ أنْ أظهر قلبي من خميرته القديمة. وكان يرُوق لي الطريق - المُنجِي ذاته - (ipse saluator = le Sauveur même) ، ولكنه كان يصعب علىَّ إلى حدَ ذلك الوقت أنْ أُسِيرَ عبر دروبه الضيقَة^(١).

وأوَّلتَ لِي، ونَعَمَّ ما أوَّلتَ، أنْ أذهب إلى سمبليسيانوس (ad Simplicianum)، كان يَدُوِّلَي خادماً فاضلاً من خدمتك، وكانت نعمتك تتألق فيه. وكانت قد سمعت أيضاً أنه، منذ الشباب، كان يحيَا لك في أشدَّ الورع. لكنَّه كان آنذاك قد شاخَ، وكان اتَّبَاعُه في حياته الطويلة طريقَك بتfan وإخلاص متنه دليلاً على خبرته وعلمه الواسعين: كان ذلك عين الصواب! لذلك كنت أريد أنْ أتشاور معه في

(١) ... et ire per eius angustias = أنْ أُسِيرَ عبر دروبه الضيقَة. المرجع نفسه، الكتاب الثامن، الملاحظة ١، هامش ص ١٧٥: «التقدم الذي يَقُولُ عليه أنْ يتحققَ واضحَ جليّ هنا. لقد تأسست قناعاته واكتملت، لكنَّ الأمر بالنسبة إليه يتعلَّق باستخلاص النتائج العملية وقبول الانصراف الشديد القاسي عن أطابق الحياة الذي كان يشعرُ أنه مطالب به».

تردداتي، حتى يعرض لي، ما هي الطريقة الملائمة للحالة التي كنت عليها، حتى أتقدم على دربك.

2. وكنت أرى الكنيسة ملائى بالمؤمنين، وكان كلّ واحد يسير على طريقة خاصة. أما أنا فلم يكن يرور لي ما كنت أفعل في الدنيا؛ بل كان عبءاً يثقلني، إذ لم تعد شهواتي تؤججني كالعادة بآمال العزة والثراء، حتى أتحمل تلك العبودية الثقيلة للغاية. فتلك الآمال لم تكن تعد تسحرني، مقارنة بعذوبتك و «بجمالك يتيك» الذي «أحببته». لكنني كنت لا أزال وثيق الارتباط بالمرأة، وما كان الحواري ليمعنى من الزواج، رغم أنه يبحث على وضع أحسن، مريراً بكل قواه أن يكون الناس مثله هو بالذات. إلا أنني كنت أختار، بسبب كوني لا أزال ضعيفاً، موقع المجهود الأدنى، ولذلك فقط كنت أختلط في سائر المجالات، وهنا مضنى بهمومي المثيرة، لأنني كنت مجبراً على أن أتلاءم، بالإضافة إلى الأشياء الأخرى التي كنت أرفض تحملها، مع الحياة الزوجية التي كنت موعداً بها وملتزاً بها.

كان قد تناهى إلى علمي، من فم الحق وجود «مُخصَّصين»، كانوا خصصوا أنفسهم من أجل مملكة السماوات؛ لكنه أضاف قائلاً: «من استطاع أن يفهم، فليفهم»، «تافهون هم بحق كلّ الذين لا يسكن فيهم العلم بالإله، والذين لم يستطعوا في هذه الأشياء التي تبدو حسنة، أن يجدوا ذاتك الموجود». أمّا أنا فقد تجاوزت تلك التفاهة، كنت قد ترقصت عنها وبشهادة الخلقة جماعة، فوجدتك أنت خالقنا، وكلمتك، التي هي إله بالقرب منك، إله واحد معك، وبه قد خلقت كلّ شيء.

وهنالك صنف آخر من الكافرين الذين «وإن عرفوا الإله، لم يمجدوه كما يُمجَّد الإله ولم يشكروه». في هذا الخطأ كنت قد وقعت أيضاً، «ويُدْك انتشلتني» وأخر جنتي منه، ووضعتني حيث كنت أتعافي، لأنك قلت للإنسان: «ها إن التقوى حكمة» و«لا تحاول أن تبدو حكيمًا»، لأنّ الذين زعموا أنهم حكماء أصبحوا أغبياء». وكنت قد وجدت بعد «الدُّرَّة الشميّة» وكان علىي أن أبيع كلّ أملاكي، كي أشتريها، وكانت متربدة. 3.II. إذن ذهبت إلى سمبليسيانوس. كان آنذاك «أب» الأسقف أمبروزيوس في تقبل النعمة الإلهية، وكان هذا الأخير يحبه حقاً «حب الأب»⁽¹⁾. رويت له متأهات

(1) ... كالاب...، المرجع نفسه الكتاب الثامن ص 177: «كان سمبليسيانوس» Simplicianus مضطراً لأن يخلف القديس أمبرواز saint Ambroise في منصب الأسقف لمدينة ميلانو سنة 397. وكان أمبرواز وأوغستينوس يكتنان له كل التقدير. ورسائله التي يشير إليها «جيتديوس» Gennadius في كتابه «مشاهير الأعلام» De Viris illustribus (§ 37) ضائع ولم يصلنا.

ضلالتي. لكن عندما ذكرت آني قرأت بعض الكتب الأفلاطونية التي كان وكتورينوس (*Victorinus*)، وهو مدرس للبيان في مدينة روما قديماً، وقد سمعت أنه مات مسيحيّاً⁽¹⁾، قد نقلها إلى اللغة اللاتينية. هنائي أن لم أكن قد وقعت على كتب فلاسفة آخرين مليئة بالأكاذيب والضلالات «طبقاً لعناصر هذه الدنيا»، بينما توجد في تلك الكتب جميع الأبواب المُوصلة إلى الإله وكلمته المقدسة. ثم عرض ذكرياته، كي يحرّضني على تواضع المسيح «الخفى للحكماء، الظاهر للصغار».

كان يعرف وكتورينوس وكان قد عاشره في روما معاشرة حميمة. روى لي عن ذلك الرجل ما لا أود كتمانه، لأنّه يقرّ لك بواجب مدخلك مدحراً كبيراً، كان شيخاً علامّة عظيم الخبرة بجميع المذاهب الشريفة⁽²⁾، وكان قد فرأ ونقد الكثير من كتب الفلاسفة، وكان معلم عدلاً يحصى من الشيوخ النبلاء. وكان نجاح دروسه الذي نال به في نفوس مواطنه شرقاً منقطع النظير، قد جعله يستحق إقامة تمثال له في الساحة العمومية بروما (*sur le forum romain = Romano foro*) وقبل ذلك عن طيب خاطر. وكان إلى حدّ تلك السنّ المتقدمة يعبد الأصنام ويشارك في الطقوس الخارقة للقدسيّات التي كان جميع النساء الرومان تقريباً⁽³⁾ آنذاك مهتاجين لها، نافخين في الشعب حتّ أوزوريس (*Osirim = pour Osiris*) وكل أجناس الأغوال المؤلّهة و«أنوبيس النابح (*Anubem = pour Anubis l'aboyeur*)»، تلك الآلهة التي حملت قديماً الأسلحة «ضدّ نبتونوس (*Neptunum = Neptune*)» ووينوس (= *Venerem*)، «ضدّ مينروا (*Mineruam = Minerve*)» والتي أصبحت روما تبتهل إليها بعد أن هزمتها. وكان الشيخ وكتورينوس، بعد أن دافع عن تلك الآلهة مراراً في السنين الطوال ببلاغته الرائعة الصدى، لا يخجل من أن يكون خادم مسيحه، وابن ينبع رحمتك، مطأطناً عنقه لنير التواضع، ومخلصاً جهته كلّها لشين الصليب.

(1) *Victorinus... christianum defunctum...* = «فيكتورينوس... وقد مات مسيحيّاً». ويعيل «دي لا بربول» DE LABRIOLLE على كتابه «تاريخ الأدب في إفريقيا الرومانية» ص 346 - 350. نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة 2، هامش ص 177.

(2) *Liberalium doctrinarum peritissimus* = متعرّس بجميع المذاهب: لقد كانت جميع الترجمات القصيرة لكتاب أوغسطينوس مدينة، إلى حدّ كبير لطبعه لكتاب *princeps* الذي أخذنا منه أيّاماً إفاده في ترجمتنا العربية وفي المعجم الثلاثي اللغة الذي أرققتنا بها. *tunc tota fere Romana nobilitas* ...tunc ...= كلّ نبلاء مدينة روما تقريباً...: المرجع نفسه، الكتاب الثامن، الملاحظة 1 هامش ص 178. *Tota fere*: (الكلّ تقريباً). يتضمّن هذا الكلام شيئاً من المبالغة. ومهما يكن، فإنه بعد مرور حوالي ثلاثة سنّة، أصبح التواب المسيحيون يمثلون الأغلبية في مجلس التواب. وأقرّ القديس «أميرواز» ذلك في مناسين.

4. يا مولاي، يا مولاي، أنت «الذى أنزلت السماوات، ونزلت منها، ولست العجال فأخذت تدخن»، بأية كيفيات تسللت إلى مثل هذا الصدر؟

كان وكتورينوس، على حد قول سمبليسيانوس، يقرأ الكتب المقدسة، وكان يبحث بأشد الاهتمام عن جميع الكتب المسيحية، وكان يستقصيها، وكان يقول لسمبليسيانوس سرًا لا علانية: «أتعلم أنني أصبحت مسيحيًا؟». وكان الآخر يجيبه: «لن أصدقك ولن أحشرك في زمرة المسيحيين مالم أرك في كنيسة المسيح!» وكان وكتورينوس يقول له ضاحكاً: «الجدران إذن هي التي تصنع المسيحيين؟» ذلك ما كان يقوله ويكرره، أي أنه أصبح مسيحيًا، وذلك ما كان يجب به سمبليسيانوس ويكرره، وكان الأول يعيد نكتة الجدران. والحق أنه كان يخشى أن يخرج أصدقاءه، عابدي الشياطين المتكبرين الذين كان يعتقد أنه سينصب عليهم، من قمة علياء بابل (*Babylonicae dignitatis = de ex cedris Libani = de ces cèdres leur altière Babylone du Liban*) على الذين لم يمحقهم المولى بعد، ببابل من العداوة. لكن بعد أن قرأ الكتب بنهم واغترف منها الحزن، خشي، إن هو أقرب به «أمام البشر» أن ينكره المسيح أمام الملائكة المقدسين؛ ويدا له أنه سيرتكب جرما كبيراً، لو خجل من الأسرار التي أرستها كلمتك المقدسة، ولم يخجل من الطقوس الخارقة لقدسيات الشياطين المتكبرين، والتي كان قد تقبّلها مقلداً متكتبراً، ولم يخجل بعد من التفاهمة، بل خجل من الحق. وفجأة باعث سمبليسيانوس، على حد ما رواه هذا الأخير، قائلاً له: «فلنذهب إلى الكنسية، أريد أن أصبح مسيحيًا!» ولم يتمالك الرجل نفسه من الفرح فذهب معه إليها. وبعد أن تلقن مبادئ تعلم الطقوس (*primis instructionis sacramentis = aux premières vérités de la catéchèse التعميد*⁽¹⁾). في حين أن روما استغربه، والكنيسة سرت به. أما المتكبرون فكانوا ينظرون، وكانوا غاضبين، كانوا يصرّرون بأسنانهم ويدوّبون غيظاً: أما خادمك فكان المولى والإله «أمله» و«ما كان ليختلف إلى التفاهات والأكاذيب الجنوية».

5. وأخيراً حلّت ساعة الإقرار بالعقيدة. كان المرشحون الذين يتقدمون في روما

(1) ...*ut per baptismum regeneratur* = للحصول على الإحياء العمادي». نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة 1، هامش ص 179: «لمن كان مرید التصريح يرغب في استكمال تعلمه ولمن كان رؤساء الكنيسة يعتبرونه جديراً بالتعميد فإنه انتقل إلى مصاف المختارين أو الأκτιναι». نقل عن L. DUCHESNE

لتلقى نعمتك يتلون من مكان مرتفع نسيتاً وعلى مرأى من الشعب المسيحي كلاماً مضبوطاً، محفوظاً عن ظهر قلب. وكان القساوسة، على حد قول «سمبليسيانوس» قد سمحوا لـ«وكتورينوس» أن يقوم بذلك في الخفاء، وقد جرت العادة أن يسمحوا بذلك للذين كانوا يضطربون من شدة الوجل. أما هو فقد خير أن يقرّ بنجاته على مرأى من الحشد المقدس. لم تكن النجاة مثل ما كان يدرسه في درس البلاغة، ومع ذلك فقد كان يعلمها علاتية. لم يكن «وكتورينوس» وجلاً عندما كان يعلم، أمام جماهير المتعوهين كلماتك الخاصة، وكان عن الرجل أبعد وهو يتلو أمام قطيعك المسالم كلمتك المقدسة؟ لذلك، عندما صعد ليتلقى الكلام المعهود، أعاد جميع الناس الذين كانوا يعرفونه جيداً، بعضهم البعض ذكر اسمه، في جلة التهنة. فمن كان لا يعرفه هناك؟ وكان يدوّي دويّ خافت وسط أصوات عصبة المهلّلين : «وكتورينوس! وكتورينوس!». وسرعان ما دوى ابتهاجهم، وهم يروننه، وسرعان ما صمتوا ليصغوا إليه باهتمام. ونطق هو بعبارة العقيدة الصحيحة بثقة مشهودة، وكانوا يريدون جميعاً أن يختطفوه، وأن يدخلوه في قلوبهم. وكانوا يختطفونه بالحب والفرح : ذاتك كانا يديني الاختطاف !

6.III. إلهي الطيب، ماذا يجري في الإنسان حتى يتبعه لنجاة روح ميقوس منها وتحررها من خطر أكبر، أكثر مما لو كان لديه دوماً أمل في نجاتها، أوَ كان الخطر أقل؟ إنك أنت أيضاً، يا أب الشفقة، تتبعه «بتوبة مذنب واحد أكثر من ابتهاجك بتوبة تسعه وتسعين عادلاً ليسوا في حاجة إلى التوبة». نحن نشعر بفرحة كبيرة عندما نسمع قصة الراعي كم يكون شديد الاحبور، وهو يعود وعلى كتفيه النعجة التي ضلت الطريق، وقصة الدرّهم (*dragma = la drachme*)⁽¹⁾ الذي يعاد إلى كنوزك، تعيده المرأة التي وجدته، وسط تهليلات الجيران قاطبة. وتنهر دموعنا فرحاً باحتفالات «بيتك» الخاشعة عندما نقرأ عن ابنك الأصغر أنه في بيتك «مات وبيث حيَا، وأنه ضاع وُجِد». وتفرح لعمري بنا ويملا نكتك، المقدسين بحب مقدس، لأنك تظل أنت دوماً في ذاتك ولأن الأشياء التي لا توجد دوماً أو لا توجد بنفس الصورة تعرفها كلها، دوماً، وبنفس الصورة.

7. ماذا يجري إذن في النفس، عندما تجد في الأشياء المحبوبة التي تظفر بها أو

(1) هي القطعة النقدية الأثنين المساوية لفلس روماني، وهي صورة الرسم المتأخرة للكلمة *drachma*

تعاد إليها، فرحة أكثر مما لو كانت تملكتها دوما؟ هناك أشياء أخرى كثيرة تشهد بذلك، والعالم مملوء بشهادة عنها صارخة: «تلك هي الحال!» الامبراطور المتتصر يتغلب، وما كان ليتصر لو لم يحارب، وبقدر ما يكون الخطر أكبر في المعركة، تكون الفرحة بالنصر أكبر. والعاصفة تزعز الملاحين، وتهددهم بالغرق، وكلهم شاحبون بسبب الموت المحدق^(١): وتهدا السماء والبحر، فيتهجون بيافاراط، لأنهم خافوا بيافاراط. ويكون عزيز عليك مريضا، وينذر نبضه بالخطر؛ فتمرض لمرضه أرواح جميع الذين يرجون نجاته، وتعود إليه صحته، لكنه لا يمشي بعد بقواه القديمة، فتكون الفرحة بعد، كما لم تكن من قبل قط لما كان يمشي صحيحاً معافي. والناس أيضاً لا يتحصلون على ملذات الحياة إلا مقابل هموم ليست فقط مفاجئة تداهمهم رغم إرادتهم، بل وهموم متوقعة وتطلب بصورة إرادية. ولذات الأكل والشرب لا تمثلان شيئاً إلا إذا سبّقهما المألام الجوع والعطش. وترى الندامي يتناولون بعض الموارح حتى تنشأ فيهم حرارة مؤلمة، تنشأ عنها اللذة بعد أن يُطفئها الشراب. وجرت العادة إلا يجعل الخطيب بالدخول بخطيبته الموعودة بالزواج، حتى لا يحتقر الزوج المرأة التي كتب لها، دون أن يكون قد ترقّبها بفارق الصبر خطيباً^(٢).

8. وهكذا سواء في حالة المسرة المخزية الحقيرة، أو في حالة المسرة المباحة الجائزة، وفي حالة الصدقة الأكثر نقاء وعفة، أو في حالة الابن الذي «مات ثم بُعث، وضَاعَ ثُمَّ وُجِدَ» : في كل الحالات تُشبّق الفرحة الكبرى بألم أكبر.

ما معنى هذا، يا مولاي وإنلهي؟ أنت، الذي تمثل في ذاتك المسرة الأبدية لنفسك، وتسرّ المخلوقات المحيطة بك دوما. ما معنى أن يتناوب، في هذا الجزء من الكون، النقص والتقدّم، التشارز والتناست؟ هل هذا هو نصيبي الذي كتب له، وهل منحته إياته بهذه القوّة، من «أعلى طبقات السماوات» إلى أدنى أعمق الأرض، ومن بداية القرون إلى نهايتها، ومن الملائكة إلى الذويّدة، ومن الحركة الأولى إلى الحركة الأخيرة لتنا كنت تضع كلّ أجناس الخير وكلّ آثار العادلة في أماكنها الخاصة بها، ولما كنت تستير كلّ واحدة منها في إياتها؟ آه! كم أنت رفيع على القمم، وكم أنت عميق في الوهاد! أنت لا تبعد عنّا أبداً كنت، وأنت نحن فلا نصل إليك إلا بصعوبة!

(١) ... non suspirauerit sponsus dilatam = دون أن يكون قد ترقّبها خطيباً بفارق الصبر... نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة 1، هاشم ص 182: «كانت الخطوبة أحياناً تعقد قبل الزواج بزمن طويل. وكان أوغستينوس ذاته (انظر ص 140 من الترجمة الفرنسية) قد انتظر الفتاة التي طلب يدها طيلة ستين. وكان من النادر أن تترّجف الفتيات قبل سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة».

IV. 9. هيا، يا مولاي، إلى الفعل، إلى العمل، أيقظنا وأعدنا، أشعلنا واحتطفنا، أضرمنا، أسرحنا : فلنحبّ، ولنَغْدُ ألا يعود إليك كثيرون من جحيم من العمى أعمق من جحيم «**وِكتُورِينُوسَ**»؟ ويقتربون منك، ويستبرون بك وهم يتقبلون نورك، والذين يتقبلون نورك فيتقبلون أيضاً القدرة على أن يصبحوا أبناءك؟ لكن كلما قل عدد الناس الذين يعرفونهم قلت فرحة أولئك الذين يعرفونهم بهم. والفرحة إذا عمت وشملت الكثيرين، كانت أيضاً أشدّ وأقوى لدى الأفراد، لأنهم يتحمسون ويلهب بعضهم بعضاً. وكلما زادت شهرة بعضهم بين الناس، كانت هيئته مدعاه لنجاة الكثيرين، وتبعه الكثيرون متخذين إياه قائداً، لذلك يرتبط به أيضاً بشدة أولئك الذين سبقوه، لأنهم لا يغبطون بنجاة المشهورين فقط.

إذن، حاشى أن أعتبر أن أشخاص الأغنياء يتقبلون في قبتك قبل الفقراء، والبلاء قبل السوقـة. ألم تصطـف «من أهل هذه الدنيا، الضعفاء كي تُفحـم الأقويـاء؟ ألم تخـتر السوقـة والمحترـين وما هو لا شيء، لتحول الكـائن المـوجود عـدمـاً». ومع ذلك «فـاذـى حـوارـيـكَ» بالـذـاتـ هوـ الـذـي دـوـتـ بـلـسانـهـ كـلـمـتـكـ المـقدـسـةـ هـذـهـ، لـمـاـ اـنـتـصـرـ بالـسـلاحـ علىـ كـبـرـيـاءـ الـوـالـيـ الرـوـمـانـيـ باـولـوسـ (**Paulus proconsul = proconsul**) مـخـضـعـاـ إـيـاهـ «لـنـيرـ» مـسيـحـكـ «الـخـفـيفـ»، جـاعـلاـ إـيـاهـ وـاحـدـاـ منـ رـعـيـةـ الـمـلـكـ (**Paulus ex Saulo = Saü**) الأـعـظـمـ، فـيـ حـينـ آـنـ هوـ بـعـينـهـ أـرـادـ أـنـ يـبـدـلـ اـسـمـ الـقـدـيمـ سـاـولـوسـ (**Victorini pectus = le cœur de Victorinus**) الذي احتله الشيطـانـ يـعـدـ حـصـنـاـ مـنـيـعاـ، وـلـسانـهـ الـذـيـ كانـ قدـ قـتـلـ بـهـ الـكـثـيـرـينـ يـعـدـ سـلـاحـاـ قـوـيـاـ حـادـاـ، قـلـناـ بـقـدرـ ذلكـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـتـهـجـ أـبـنـاؤـكـ بـأـكـثـرـ حـفاـوةـ، لـأنـ مـلـكـنـاـ «قـيـدـ الـقـوـيـ بالـسـلاـسلـ»، وـلـأـنـهـ كانواـ يـرـوـنـ أوـعـيـتـهـ الـمـسـلـوـيـةـ تـطـهـرـ، وـتـصلـحـ لـلـإـسـتـعـمـالـ إـجـلـالـاـ لـكـ، وـتـصـبـحـ «ـصـالـحةـ لـلـمـؤـمـنـ فـيـ كـلـ عـقـلـ خـيـرـ».

V. 10. لكنـ حـالـمـاـ روـيـ لـيـ خـادـمـكـ سـمـبـلـيـسـيـاـنـوـسـ هذهـ التـفـاصـيلـ فيـ خـصـوصـ

(1) هامش ص 183: «هذه الاعتبارات تفترس لنا كيف أن المسيحية قد وتجهت عنيتها في حركة التشhir منذ البداية إلى الطبقة العليا... فقد وجد مفكرون حتى في قصور الأباطرة...»

و^كثُرِيُّونُوسْ، تحرقت نفسي لتقليده، ولم يكن هو يرغب فيه. لكنه أضاف إثر ذلك، أنه صدر، في عهد الإمبراطور يوليانوس (imperatoris Iuliani = l'empereur Julien) قانون «يمعن المسيحيين من تدريس الأدب والخطابة» (litteraturam et oratoriam = la littérature et l'art oratoire) فقبل و^كثُرِيُّونُوسْ هذا القانون، وخير أن يهجر مدرسة التراثة، عوضا عن كلمتك المقدسة «التي تجعل بها ألسنة الأطفال طليقة فصيحة»، لذا بدا لي أن همة (و^كثُرِيُّونُوسْ) أقل من حظه، لأنه وجد الفرصة للتفرغ إليك. إلى ذلك الشيء كنت أنا أيضاً أتوق، مكتلا لا بإرادة الآخرين، بل بقيد إرادتي. كان الشخص ممسكا بمشيتي، وقد جعل لي منها قيداً قيدني به. فلعمري من الإرادة المنحرفة يأتي الشبق (libido = la passion)، ومن الخضوع للتبني يأتي التعود، ومن عدم الصمود للتعود تأتي الحاجة⁽¹⁾. يا لها من عبودية قاسية مسرودة من حديد تشدني وتكتبني! إنها بالفعل سلسلة. أما الإرادة الجديدة التي فرخت في نفسي، وجعلتني أعبدك بلا مقابل وأنشد التمتع بك أنت، يا إلهي، يا الذي الوحيدة الحق، فكانت لا تزال غير مؤهلة التغلب على الإرادة الأولى التي أكسبها القدم قوة. إذن لدى إرادتان، واحدة قديمة والأخرى جديدة، الأولى جسمانية والثانية روحانية، وكانتا تتصارعان، وبتصارعهما كانتا تقضيان على روحي.

11. لقد فهمت، بتجربتي الذاتية، متى قرأته أن «اللَّحْمَ مُغَنِّمٌ ضِدَّ الرُّوحِ، وَأَنَّ الرُّوحَ مُغَنِّمَةٌ ضِدَّ الْلَّحْمِ». وكنت في كلّيهما في آن واحد، لكنني كنت موجوداً أكثر في ما كنت أشتَهِيَّ في نفسي، متى في ما كنت أشتَهِجُّهُ فيها. ففي ما كنت أشتَهِجُّهُ، كان الأمر أقرب إلى عدم الأنماط، لأنني كنت أتحمّل مكرّهاً أكبر جزء منه، بدل أن أفعله راغباً. ومع ذلك أصبح التعود أكثر شراسة ضدّ نفسي بفعالي، لأنني بمحض إرادتي كنت قد وصلت إلى مكان لم أكن أرغب أن أجده فيه. ومن يملك أن يعارض هذا؟ العذاب الذي يتبع الإثم عذل. وزال ما كنت أتعلّل به من كوني إن كنت لا أحترم الدنيا بعد من أجل خدمتك، فلأن إدراكي للحقيقة غير واضح. كلاماً، الحقيقة عندي كانت واضحة المعالم بعد. أما أنا الذي كنت لا أزال مرتبطا بالأرض، فكنت أرفض أن آتَجَنَّدَ لخدمتك، بقدر ما كنت أخشى أن أخلص من جميع عرقي لي التي من المفترض أن أخشى أكبالها.

(1) ... *et dum consuetudini non resistitur, facta est necessitas*: «عدم مقاومة العادة هو الذي يخلق الضرورة». هذه قوله موجزة وقوية للغاية، وهي تبدو نابعة عن معرفة عميقه بأغوار النفس... نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة 2، هامش من 184. والحقيقة أن أوغستينوس في هذا الكتاب بالخصوص، عالم كبير من علماء الأخلاق.

12. هكذا كان عبء الدهر ينوء عليّ بلطف، كأنه حلم، وكانت أفكاري بشأنك شبيهة بمحاولة من يريد أن يستيقظ ولكنه يغلب بعمق سباته فينغمض فيه. لا أحد يريد أن ينام دوماً؛ وجميع الناس، طبق الحكم السليم، يفضلون اليقظة، غير أن الإنسان يؤتجل عادة وقت طرد النوم، عندما يكون عنده فتور يشلل أعضاءه ويجهن منه لذة، وإن لم يرق له بعد، بسبب حلول ساعة الإلقاء. كذلك كنت وائقاً من تفضيل الاستسلام لحبك على الخضوع لشهوتي، لكن الأول كان يعجبني ويستولي علىّ، أما الثاني فكنت أهواه وأظلّ مكبلاً به⁽¹⁾. ولم يكن لي ما أجييك به، وأنت تقول لي : «قم، أيها النائم! قم من بين المؤتى! سُوفَ يُبَرِّكَ الْمَسِيحُ!»، ورغم أنك كنت تربيني في كلّ مكان أنك تقول الحق، لم أكن أجد البتة ما أجييك به، وإن كنت غير مقتنع في الحقيقة، إلا بعبارات الاسترخاء والنعاس: «في العين!» و«حالاً!» و«أمهلني قليلاً!». لكن «في العين!» و«حالاً!» كانا لا يتهديان، و«القليل من الوقت» كان يترافق ولا تعرف له نهاية. عيناً كنت أنتدّ بقانونك من جهة «الإنسان الباطني»، في حين أنّ قانوناً آخر كان يقاوم في أعضائي قانون عقلي، ويقودني أسيراً، تحت قانون الإثم الذي كان في أعضائي. إنّ قانون الإثم هو عُنْفُ التعود الذي تُجَرَّ به الروح وتقاد أيضاً مكرهةً، نائلةً ما تستحق، لأنها تسقط فيه مریدةً له. ما أشقاني! «منْ قَدْ يُحَرِّزْنِي مِنْ مَوْتِ جَسْمِ هَذَا الْمَوْتِ هَذَا، خَلَّا نِعْمَتَكَ بِوَاسِطَةِ الْيَسُوعِ الْمَسِيحِ، مُؤْلَانَا؟»

13. VI وكيف خلّصتني، من قيد شهوة الجماع (*concubitus = le coït*) الذي كان يشدّني شدّاً وثيقاً، ومن عبودية الشّؤون الدنيوية، ساروي ذلك «وأعترف به، إجلالاً لك، أنت مولاي، أنت السند والفادي (*redemptor = rédempteur*) لي».

كنت أحيا حياة عادية، وكان الغمّ ينمو فيّ، كنت أتوق إليك كلّ يوم، كنت أتردد على كنيستك، بقدر ما كانت تسمح لي به شؤون الحياة التي كنت أتأوه تحت أعبائها. كان **أليبيوس** (*Alypius*) معـي، خالياً عاطلاً عن عملـه، عملـ الخـير في الحقوق، بعد أن كان مستشاراً للمرة الثالثة. كان يتـضرـرـ منـ بيـعـهـ استـشـارـاتـهـ منـ جـدـيدـ، كماـ كـنـتـ أناـ

⁽¹⁾ **hoc libebat et uinciebat** = كنت أهواه وسأبقى في قبوده. نفس المرجع، الكتاب الثان، الملاحظة 2، هامش ص 185. والحقيقة أن: «جميع هذه المحاولات الحميمة تؤدي باللغة اللاتينية على نحو أكمل بواسطة الجناسات والطريق التي كان أوغسطينوس يُولّف بينها بشكل بدبيع (انظر *dedere* أي الإسلام *cedere* أي الخضوع؛ وانظر *placebat* أي يعجبني و *uincebat* أي يستولي على؛ *libebat* أي أهواه و *uinciebat* أي كان يقتيني). (وهي أساليب قديمة جداً في الأدب اللاتيني».

أبيع فن الفصاحة، هذا إن صحت تحصيله بالتعلم. أما نبريديوسُ فكان قد ضخى من أجل صداقتنا، بأن أصبح مساعدٌ ويرِيكتُوسَ^(١) في التدريس، ذلك المواطن والنحوي بمدينة ميلانو، الذي كان من أشد الناس قرباً متأناً جميراً. لقد عبر ويرِيكتُوسَ عن رغبته الشديدة فيه، وطلب من فريقنا، باسم الصداقاة، خالص العون الذي كان في أشد الحاجة إليه. إذن ليست الرغبة في الربح هي التي جرت نبريديوسَ إلى هذا القبول، إذ لو أراد، لكن بإمكانه أن يحرز بتفاقه أكثر من ذلك. ويدافع حسن المعاملة لم يردد الصديق اللطيف الحبيب، أن يعرض عن مطلبنا. وقد أبدى من ناحية أخرى حكمة كبيرة جداً، بتحاشي أن يشتهِر أمره بين كبار القوم، واقياً على هذا النحو نفسه من كل اضطراب، إذ كان يريد أن يملكها حرّة، حتى تكون، في معظم الأوقات هادئة مرتاحة مهيأة للقراءة أو لسماع شيء ما عن الحكم.

14. استقبلنا ذات يوم أنا وأليبيوس - ولا أذكر سبب غياب نبريديوس عنا - في بيتنا فجأة شخصاً إفريقياً يدعى بُونسياتُوس (Pontianus)، كان من أبناء وطننا، وكان يشغل في البلاط مهاماً سامية، لا أدرى ما كان يريد متأناً. جلسنا معاً تتعاهد. وصادفةً لمح، فوق طاولة لعب كانت أمامنا، كتاباً. أخذه وفتحه، فوجد بين دفتير رسائل الحواري باولُوسَ. لم يكن لعمرِي يتوقع ذلك! كان يظن أنه واحد من الكتب التي كتبت، بحكم مهنتي، أفي النفس فيها. عندئذ ضحك لي وهو ينظر إليَّ، وهنائي، متتعجبًا من أنه وجد، أمام عيني، ذلك الكتاب فقط صدفةً. لقد كان، لعمرِي، مسيحيًا مواطبياً، وكثيراً ما كان يجثُر إليك، يا إلهنا، في الكنيسة في صلوات متكررة، تدوم طويلاً. ولما ذكرت له أبي أصرف في تلك النصوص المقدسة جل اهتمامي، أخذنا نتبادل الحديث، فروي لي من حكايات الراهب المصري أسطونيُوسَ de Antonio (monacho = Antoine, le moine égyptien) ، الذي كان اسمه مشهوراً أيام شهرة بين خدامك، لكنه كان إلى حد ذلك الساعية، مغموراً بيَّنا^(٢). وما أن اكتشف ذلك، حتى

(١) ... أن أصبح مساعدًا في التدريس,... = suboceret... (Verecundo = de Verecundus) : (هذا الفعل subdocere كان موجوداً بعد عند شيشرون Cicéron (في مراسلاتِه مع صديقه Atticum VIII,4) الذي صرَّح أنه اضطر للقيام بذلك دوراً مؤذباً بسبب عجز العبد المعتوق (أي المعربي) المكلَّف بتاديدهم . نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة 1، هامش ص 186.

(٢) ... nos... latebat = ... ظل مجهولاً بالنسبة إلينا. المرجع نفسه، الكتاب الثامن، الملاحظة 1، هامش ص 187: «كان القديس أثanasie» Athanase قد ألف سيرة أسطونيُوسَ Antoine حوالي سنة 357، أي سنةً بعد موت الراهب الشهير. ونقلت هذه السيرة من اليونانية إلى اللاتينية، نقلها =

تراث في الكلام عنه، مزيلاً جهلنا بذلك الرجل العظيم، ومتعجبًا منه في الآن نفسه. أما نحن فكنا مشدوهين لسماع «عجائِبَك» المشهود بها، في وقت قريب جداً منا، والتي تكاد تطابق عقيدة الحق في عصرنا هذا، في الكنيسة الكاثوليكية. كنا كلنا نعجب من عظمة مثل هذه الخوارق، وكان هو يعجب من كوننا لا علم لنا بها.

15. ومن هناك دار الحديث عن أهل الأذيار وعن عوائدهم ذات الرائحة الزكية الصاعدة إليك، وعن العزلة الخصبة في الصحراء التي كنا نحن لا نعلم عنها شيئاً. وكان بمدينة ميلانو ديرٌ خارج أسوار المدينة، مليءٌ بربان طيبين، تحت رعاية أميرٍ رُوسَ (sub Ambrosio nutritore = sous le patronage d'Ambroise) ولم نكن نعرفه. كان بُونتيسيانوس يمشي دوماً، وكان لا يزال يتحدث، وكنا نحن ساكتين، مهتمين به. وانتهى به الأمر إلى أن ذكر لنا، لا أدرى متى، أنه خرج، صحبة ثلاثة آخرين من رفقاء، بالطبع بالقرب من تريوا (apud Treveros) (près de Trèves ou (apud) Treveros) للتنزه في الأجرة المجاورة للأسوار، بينما كان الإمبراطور عشيته منشغلًا بمشاهدة سباق الخيل (circensium). وهناك، حيث أنهم كانوا يتفسرون بالصدفة في مجموعتين، إحداهما تتركب منه ومن بونتيسيانوس، والأخرى من الصديقين الآخرين معاً، اتفق أن اتجهوا اتجاهين مختلفين. لكن، في تجوالهم، دخلاً إلى بيت من خشب كان يسكنه بعض خدامك من «فقراء الفكر الذين لهم مملكة السماوات»، وووجدا به مخطوطات كتب عن حياة أنطونيوس (Vita Antonii = la vie d'Antoine). فأخذ أحدهما يقرؤها، ويُعجب بها، ويتحمس لها، وفيما هو يقرأ، ويفكر في تقتضي مثل تلك الحياة، وفي ترك الخدمة الدينوية ليخدمك وكانتوا من ناحية أخرى من بين الذين يسمونهم «أعوان» الإمبراطور (agentes in rebus = les «agents» de l'empereur). وفجأة ملئ قلب ذلك القارئ بالحب المقدس وبخجل الفضيلة، فغضب على نفسه، ونظر إلى صديقه، وصاح: «قل لي، بالله عليك، إلى أين نطمأن أن نصل بكل أتعابنا هذه؟ وعمّن نبحث؟ ولائي سبب نبقي في خدمة الإداررة؟ هل يمكن أن نأمل، ونحن في البلاط، في أكثر من أن نصبح أصدقاء الإمبراطور؟»؟ كم من التقلبات والأخطار الحادة بذلك المنصب؟

= «إفاغريوس» الأنطاكي Evagrius d'Antioche قبل سنة 388. ونحن نملك النص الأصلي وترجمته (مؤلفات آباء الكنيسة اليونانية XXVI Patrologie grecque من 835 والتي تليها)».

(1) نقل هنا الملاحظة 1 التي أوردها دي لا بريول DE LABRIOLLE بالصفحة 188 من الجزء الأول من طبعة الأداب الجميلة، نقلًا عن العالم الألماني MOMMSEN : «كان

وكم من المخاطر، لمواجهة الخطر الأكبر؟ ومتى سيكون الوصول إليه؟ أما إذا طلبت صدقة الإله، حصلت عليها في الحال!».

هذا حدث، وهو في أزمة الولادة لحياة جديدة، ثم أدار عينيه ثانية نحو الصفحات، وعاد يقرّها، وكان يجري في قلبه تحول داخلي لا يراه إلا أنت، وكان عقله يُسلّخ عن الدنيا، كما ظهر من بعد. في بينما كان يقرأ وأمواج قلبه المرتجف تهتز، وقد تبيّن الأحسن، وقرر اتباعه، وقال لصديقه، وقد تحول بعد خادمك : «ها أنا قد قطعت من الآن مع أملانا القديم، وعزمت على خدمة الإله، وهذا أنا أباشر هذا بدءاً من الساعة، وفي هذا المكان! إن عزّ عليك أن تقلّدّني، فلا تعارضني على الأقل». أجاب الآخر أنه متعلق برفيقه ليشاطره مثل هذه الجائزة ومثل هذه الخدمة. لقد كانا يَقْدِمُ معاً خادميك، وهما يشيدان صومعة النجاة على نفقهما الخاصة، تاركين كل أملاكهما، ليتبعوك.

وعندئذ كان بونتيسيانوس ورفيقه يتوجّلان في أرجاء أخرى من الجنان، وفي بحثهما عن الآخرين، وصلا إلى نفس المكان، ولما وجداهما، تباهمَا لضرورة العودة، لأن الشمس أخذت في الغروب. لكن الصديقين الآخرين بعد أن روايا لهما قرارهما وعزمهما، وكيفية نشأة تلك الإرادة، ورسوخها، طلباً منها آلاً يرفضا قرارهما، لو رفضا أن يتبعاهما. أما الصديقان، اللذان لم يتحمرا عتاً كانوا عليه من قبل، فبكيا مع ذلك على نفسيهما، على حد قول بونتيسيانوس، وهنّاهما بكل لطف، وتوصلا إليهما أن يذكراهما في دعواتهما، وعادا إلى البلاط جازين قلبיהם في الأفكار الدنيا، في حين بقي المهديان الراسخا القلب في السماء، في الكوخ الخشبي.

وكان لكلِّيَّهما خطيبة: وكلِّيَّاهما، بعد أن علمتا بالأمر، ندرتا أيضاً إليك عذرٍ بتبنِّهما.

16. VII. ذاك كان حديث بونتيسيانوس. أما أنت، مولاي، فكنت، وسط حديثه، تُرجعني إلى ذاتي، جاراً إبّاً من وراء ظهري، حيث كنتُ أخفى وجهي، لأنّي كنتُ أرفض أن أنظر إلى نفسي وجهها لوجه. وكنتُ تضعني قبالة وجهي، حتى أرى كم كنتُ بشعاً، كم كنتُ ذمِّيًّا قبيحاً أرقَطَ مُتقَرِّحاً. وكنتُ أرى نفسي في تملّكتي الرعب.

أصدقاء قيسar amici Caesaris يكتونون، في عصر الإمبراطورية طبقة خاصة تتمتع بمحظة وشهرة متّميزين ويشغلون في الغالب وظائف عالية... أضف إلى ذلك أنّنا نجد في نص أوغستينوس العبارة «أصدقاء الإمبراطور» amici imperatoris. ومن المعلوم أن العبارتين Caesar أي قيسar وimperator أي إمبراطور عبارتان متّرادفات. ومع ذلك من المفيد أن نبرز العبارتين الأوّلتين ذاتهما وأن نذكر أنّ العبارة «agentes in rebus» أي أموان الإمبراطور المذكورة أعلاه تكتمل معارف القارئ الحديث.

أين أفرز من نفسي؟ وكلما حاولت أن أحول نظري عن ذاتي، كان بُونٌتِيسيانوس = illie = يروي لي ما كان يرويه، وكنت أنت بالعكس تجاهبني بذاتي، وكانت ترغمني على رؤية نفسي، حتى «أَقْعَ عَلَى جَوْرِي وَأَكْرَهُهُ». لقد كنت أعرف جوري، لكنني كنت أبكيه وأطُرُدُهُ وأنساه.

17. أما آنذاك، فقدر ما كنت أحب ذينك الشابين حتا جمما بسبب ما سمعته عن عواطفهما المنجية، بما أنهما كانوا قد سلما لك نفسيهما كلبا لتداويهما، كنت أمقت نفسى أكثر وأكرهها مقارنة بهما؛ هذا وكانت قد مرت على الكثير من السنين - حوالي اثنى عشرة سنة - منذ أن قرأت وأنا في التاسعة عشرة من عمري مؤلف شيشرون⁽¹⁾ **الهرزطنيوس** = l'Hortensio = Hortensius⁽²⁾، وكانت قد اضطررت ببحث الحكم، وأوجل احتقار السعادة الدنيوية، للتقرّغ للبحث عنها، هي التي ليس اكتشافها فحسب، بل والتقصي فيها وحده، كانا ينبغي أن يفضلان بعد أيضا على كل ما يوجد من الكثوز، وعلى الممالك الدنيوية، وعلى الملاذ المحيطة بي، من كل صوب، لمجرد إيماءة. إلا أنّي، أنا المراهق الشقي للغاية، الشقي في مستهل المراهقة عينها، كنت قد طلبت منك أيضا العفة، وكانت قد قلت : «أُغْطِنِي العِفَةُ وَالرُّزْهَدُ، لَكِنْ لَا تُغْطِنِنِيهِمَا فَوْرًا!» إذ كنت أخاف أن تستجيب لي بسرعة، وأن تشفياني بسرعة من داء الشبق concupiscentiae (= la concupiscence) الذي كنت أفضل أن أشبّعه عوض أن أهدّه. وكانت قد سرّت عبر «الطرقات المُفترسة» للمعتقدات الباطلة المرجسة، دون ثقة فيها، بل مفضلا إليها على الآخريات التي لم أكن أستقصي فيها النظر بصدق، بل كنت أحاربها بعداء⁽³⁾.

18. وتصورت أنّي، لو أخرت «من يوم إلى يوم» أن أحقر آمال الدنيا، لأنّي لك أنت وحدك، فلا تهـ لهـ لم يظهـرـ ليـ أيـ نورـ موـثـقـ بـ يـهـ دـيـنـيـ فيـ تـرـحالـيـ. وكان قد أتى اليوم

(1) انظر بالخصوص، الكتاب الثالث الفقرة 7, IV، إلى الملاحظة المستفيضة عن هذين العلمين الرومانيين، والخطيبين الشهيرين اللذين اهتم القديس كثيراً بأثارهما وتأثيرهما في تكوينه الثقافي.

(2) ... **sed inimice oppugnabam** = ... كنت أحارب بعداء. نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة 1، هامش ص 190: «تعلق المسألة بمعرفة إلى أي حد كان أوغستينوس يولي المذاهب المانوية انحرافه المطلق فيها. فإن يكون ناضل في سبيلها فهذا أمر لا مجال للشك فيه (انظر ص 88 ص 1). ومع ذلك فهو يقرّ أنه لم يطمئن إليها الاطمئنان كله لأنها لم تكن ترضي عقله. وهو من جهة أخرى قد ابتعد عنها دون كبير ضجة، محترماً «معتقداته القديمة» وكاشفاً عن «خذر سابق»، كما قال بول مونسو Paul MONCEAUX .

الذى صرت فيه عاريا بين يديك، وصار ضميري يؤنبني قائلاً: «أين لسانك؟ كنت تقول فيما مضى إلئك، بسبب الشك في الحق، ترفض أن تلقى عنك عبء التفاهة. إنه صار موثقا به، وهو لا يزال يثقلك، وهو أن كتفيك الأكثر حرية صارا مجتدين، دون أن تكون هكذا قد أضيئت نفسك في البحث، وتأملت في هذه الأشياء مدة عشر سنين وأكثر...».

هكذا كنت أتخّر نفسي من الدّاخِل، وخجلت خجلاً شنيعاً جدّاً، وبُونتيسيانوسُ يتكلّم. وعندما أنهى كلامه وقضى الأمر الذي جاء من أجله، انسحب، وعدّ أنا إلى نفسي. ماذا كتمت من الكلام ضدّي؟ وبأيّ سياط أفكارٍ لم أجِلْد روحِي كي تتبعني، في سعي للالتحاق بك؟ كانت تصدى، كانت ترفضني، ولم يخطر لها الاعتذار. كلَّ البراهين كانت قد استُنفِدَت وُدُحِضَتْ: كانت قد بقيت لها ارتجافَةٌ صامدةٌ، وكانت تخشى، كالموت، أن توثق إلى الخلف، بعيداً عن تيار العادة الذي كانت تنهل منه الفساد والموت.

VIII. 19. عندئذ، في ذلك الشجار الكبير، وفي بيتي الدّاخِلي الذي كنت قد زعزعته بقوّة، ضُدَّ روحي الموجودة في غرفتها الخفية قلبي، اندفعت نحو أليبيوسَ، مضطربَ المحتوى مضطرب الفكر، وأنا أصرخ : «ماذا يحدث لنا؟ ما هذا الذي سمعته؟ يقوم الجهلةُ ويختطفون السماء، ونحن، رغم علومنا الخالية من الإيمان، ها إننا نتمزغ هنا، في هذه الدنيا، في الشحوم واللحم! ألكونهم سبقونا، نخجل أن نتبعهم. أليس الخجلُ في ألا نقدر حتى على اتباعهم؟»

قلت له ما قلت من هذه الأقوال، واحتطفني منه اهتياجي، وهو صامت مذهول يحدّق فيّ. نبراتُ صوتي لم تكن كالعادة. كان كُلُّ شيء فيّ، الجبينُ والخذانُ والعينانُ والبشرة ونبرة الصوت، يكشف عما بداخلي أكثر من الألفاظ التي كنت أتفوه بها. كان بمتنزلاً بستان صغير كُتُّا نستغلُه، شأنه شأن سائر المتنزّل، إذ لم يكن المؤجرُ صاحبُه يقطنُ فيه. هنالك رمني عواصف صدرى. لا أحد يستطيع أن يقطع الخصومة المتقدة التي كنت أعلنتها على نفسي لتزول المآل الذي كنت أنت تعلمُه، أمّا أنا فلا. لكنَّ هذيانِي كان يدفعني إلى الصواب، وكان هذا الموت يدفعني إلى الحياة، عارفاً أيَّ شرٍ كنت، وجاهلاً أيَّ خير سأكون بعد لحظة.

اختليت إذن في البستان، وأليبيوسُ يقتفي أثري خطوة بخطوة. أشعر أنَّ المكان حال، وإن كان هو معي. وهل يتخلّى عنّي، وأنا في تلك الحال؟

جلسنا بعيدين عن البيت قدر المستطاع، وكانت روحني ترتجف، ساخطة مُخططاً فيه الكثير من الصخب، على عدم سيري نحو مشيتك وعهدك، إلهي، اللذين إليهما كانت «كل عظامي» تناديني بوجوب السير، وترفع إلى السماء أصواتها بأماديحك. لا أحتج للوصول إليك لركوب السفن أو المركبات ذات الجياد الأربع = quadriges (char tiré par quatre chevaux) ou quadriga القليلة التي تفصل بين المنزل وذلك المكان الذي كنا به جالسين. فليس السير فقط، بل والوصول إليك أيضاً، لم يكونا شيئاً آخر سوى إرادة السير بقوّة وحزم، لا إرادة شبه جريحة، تتمايل يمنة ويسرة، وتضطرب في عراك، يشتد فيه جانب منها ويتوتر، بينما يتراخي الجانب الآخر ويتداعى.

20. وكنت في خضم ترددك جسمياً حركات عديدة كما يطيب للناس أحياناً أن يفعلوا فلا يستطيعون، إما لأنهم لا يملكون الأعضاء الالازمة لذلك أو لأنهم مكتبلون بالقيود أو لأن نفوسهم مثقلة بالفتور أو معوقة لأي سبب من الأسباب. إن أنا اقتلعت شعرى أو لطمته جيبي أو احتضنت ركبتي بأصابعى مشتبكة، أكون فعلت ذلك، لأنى أردته، ولكن كان بوسعي أن أرده دون أن أفعله، لو أن حركة أعضائى لم تطاوعنى فالإرادة والاستطاعة، بالنسبة إلى هذه الحركات المتنوعة التي فعلتها، ليست شيئاً واحداً: لم أكن أفعل ما كانت أرغب في القيام به رغبة شديدة، أي ما كنت أستطيع القيام به، بمجرد أننى كنت أريد على الفور ما كنت أريد حقاً. فهنا تستوي القدرة والإرادة، وإرادة الشيء هي فعله، إلا أنها لا تُحدّث، وكان جسمى يطيع أدق إرادة لروحى، بتحريك بعض الأعضاء لأدنى إشارة، بأكثر سهولة من روحى ذاتها عندما كانت لا تطيع نفسها، كي تتحقق إرادتها الكبيرة بمحض إرادتها.

IX. 21. من أين هذه الأعجوبة؟ ولم هذا؟ لتشتّر حمتك، ولأسألها، إن كانت تملك الجواب، عن ظلمات البشرية المعدّبة، ومصائببني آدم الحالكة جداً. من أين هذه الأعجوبة؟ ولم هذا؟ الرزوح تأمر الجسم، فتقطع حالاً، وتأمر الرزوح نفسها فتقاوم. وتأمر الرزوح اليد بأن تحرّك فيكون الشيء على درجة من السهولة، بحيث أن الأمر لا يكاد يتميّز عن التنفيذ: ومع ذلك، فالرزوح روح، وأما اليد فهي جسد. تأمر الرزوح أن تزيد الرزوح، والحال أنها هي لا غيرها، لكنّها لا تفعل. من أين هذه الأعجوبة؟ ولم هذا؟ تأمرها، قلت، كي تزيد، وما كانت تأمر لو لم تكن تزيد، ولا يحصل ما تأمر بها! لكنها لا تزيد كلّياً، لذلك هي لا تتحكم كلّياً. إذ لا تتحكم إلّا بقدر ما تزيد، وفشل

التنفيذ مناسب مباشرة لفشل الإرادة، إذ إن الإرادة تأمر بأن تكون ذاتها، لا غيرها. إذن فهي لا تأمر أبداً ما تأمر به. إذ لو تعلقت بالحكم تعلقاً تماماً لما احتاجت إلى أن تأمر نفسها بأن تكون، لأنها تكون قد تحققت بعد. العجب ليس إذن في كونها، من ناحية تزيد، ومن ناحية ترفض، بل هي مرض في الروح. لأن الحق يردها لكنه لا يرفعها كلّها، لأنها ترث تحت وطأة العادة بكل ثقلها. لذا هناك إرادتان، ليست واحدة منها كاملاً، وما يوجد في واحدة منها ينقص في الأخرى.

X.22. «لِيَغْبُ عَنْ مُخْتَاكَ» يا إلهي، كما يغيب «المُتَحَدُّثُونَ التَّافِهُونَ» و«المُضَلُّونَ» للزوج، أولئك الذين رأوا في التزوّج إرادتين فأكّدوا وجود روحين ذاتي طبيعتين، إحداهما حسنة والأخرى سيئة. ألا بل هم السّيّتون بحق لأنهم يرون تلك الآراء الضالة، وسوف لن يصبحوا طيبين، إلا إذا عادوا إلى الصواب، واتفقوا مع أصحاب الحقيقة. حتى يصدق عليهم قول حواريك، «كُثُّمْ قَدِيمًا ظُلْمَاتٍ، أَمَّا الْآنَ فَأَلْتَمْ نُورًا فِي الْمَوْلَى». إلا أنّهم يريدون أن يكونوا لا نورا في المولى، بل نورا في أنفسهم، ظانّين أنّ طبيعة الزوج هي الإله، ولذلك انقلبوا ظلمات أشدّ كثافة، لأنّهم أرادوا بعده عنك، بغرورهم الشّائن، أنت النور الحق المنير «الْكُلُّ إِنْسَانٌ آتٌ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا». تنبهوا لما ستقولون، وانجلوا، و«اقْتَرِبُوا مِنْهُ، واسْتَبِرُوا بِهِ»، و«اسْفَفْ لَنْ تَخْمَرْ وَجْهُكُمْ خَجْلًا».

عندما كنت أقلب النظر في الكيفية التي كنت أتّري أن أدخل بها في خدمة المولى إلهي، كما خطّطت لها منذ زمن طويّ، كنت أنا الذي كنت أريد، وأنا الذي كنت لا أريد، كنت أنا، أجيّل كنت أنا. فلم أكن أريد إرادة تامة، ولم أكن أرفض رفضاً تاماً. كذلك كنت في خصام مع نفسي، وكانت مشتتاً في قراراتها، وذلك التشتت (scission =) كان لعمري يقع ضدّ مشيتي، لكنه لم يكن يبرّز سوى عقاب روحي، ولم يكن يبرّز في نفسي حضور روح أجنبية. فانا إذن لم أكن بعد الفاعل له، بل «الإِنْمَ الذي كَانَ يَشْكُنُ فِي»، كان عقاباً لي على إثم الحرية الكبri، بما آتني كنت ابن آدم.

23. فلو كان عدد الطيّان المتضادّ مساوياً لعدد الإرادات المتضارعة فيما بينها لما كانت اثنين، بل أكثر. فلو تساءل أحد هل يذهب إلى أحد اجتماعات المانويين الضّيقة⁽¹⁾ أو إلى المسرح لصالح القوم: «ها هما الطبيعتان، الأولى الحسنة تقوده إلينا

(1) ...ad conuenticulum eorum perget = الذهاب إلى بعض اجتماعاتهم. نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة 1، هامش ص 195: «... يتعلّق الأمر في هذه الفقرات بالمانويين، وقد كان نكر أوغستينوس مهؤساً بهم».

والأخرى السيدة تعود به إلى هناك. وإلا من أين هذا التردد للإرادتين المتعاكستين؟ أما أنا فأقول إنهما كلتيهما سيتستان، سواء التي تقوه إلى المانويين أو التي تعود به إلى المسرح. لكنهم يعتقدون أن الطبيعة التي تؤدي إليهم، ليست إلا حسنة. ثم ماذا؟ فلو أن واحداً منها تساءل، واحتار، بسبب تضارب الإرادتين، هل سيذهب إلى المسرح، أو إلى كنيستنا؟ فهل سيختار أولئك أيضاً، فيما سيجيبونه به؟ فلماً أنهم سيعترفون - وهو أمر يرفضونه - بأن الذهاب إلى كنيستنا يكون بالإرادة الحسنة، كما يذهب إليها، من هم مُشبعون بالقربابين المقدسة (*sacramentis = sacraments*) التي تشغلهما؛ وإنما أنهم سيظلون أن طبيعتين سيتستان وروحين سيتستان تتحاصلان في الإنسان الواحد، وسوف لن يكون ما يقولونه عادةً صواباً، من كون واحدةً منها حسنة، والأخرى سيئة، أو سيهتدون إلى الحق، ولن ينكروا عند التروي، أن روحًا واحدةً تغور بفعل إرادتين متخالفتين.

24. فإن صادف أن يلاحظوا في الإنسان الواحد إرادتين متصادمتين، فلا يقولوا بوجود تدافع بين روحيين متضادتين، تتكونان من جوهرين متناقضين ومن مبدأين متناقضين، الأولى حسنة والثانية سيئة، لأنك أنت، «يا إله الحق»، لا توافقهم، بل تدحضهم، وتفهمهم. فهبه أنك تجاه إرادتين سيتستان، كأن يتردد بعضهم بين أن يقتل إنساناً بالسم، أو بالخنجر، أو بين أن يستولي على ملك هذا أو ذاك، وهو لا يستطيع الاستيلاء على كليهما، أو بين أن يشتري اللذة بنفقات باهضة، أو يُبقي على ماله بفعل بخله، أو بين أن يذهب إلى سباق الخيل (*ad circum = au cirque*)، أو المسرح، إن كانا يعرضان نفس اليوم. وأضيف إلى هذا تساولاً ثالثاً: هل سيرتكب سرقة في منزل غيره، إن سنتحت الفرصة؛ وتساؤلاً رابعاً: هل سيزنني، إن كانت الظروف ساتحة. فلو اجتمعت كل هذه الإمكانيات في وقت واحد، وكانت كلها مرغوباً فيها بالتساوي، دون أن يمكن بلوغها معاً، لتنزق حقاً الزروح، بتنازع أربع إرادات في قرارتها، بل حتى أكثر، نظراً للمثل هذه الكثرة من الأشياء المرغوب فيها. ولكنهم لا يتحذّرون عادةً عن مثل هذه الكثرة من الجواهر المختلفة.

وكذا الشأن بخصوص الإرادات الحسنة. فهل يحسن الالتزام بقراءة الحواري، وهل يحسن الالتزام بمزمور جاذ (*psalmo sobrio = le sérieux d'un psaume*)، وهل يحسن شرح الإنجيل؟ سيجيبون عن جميع الأسئلة: «نعم، هذا حسن». ثم ماذا؟ لو أن جميع هذه الأشياء تلذّ بالتساوي معاً وفي نفس الوقت، أفلأ تتجاذب الإرادات المتعارضة قلوبنا، عندما نتساءل بأيتها ستكون البداية؟ فجميع هذه الإرادات حسنة،

ومع ذلك فهي تتصادم فيما بينها، حتى يتم اختيار مبدأ واحد، يوحد الإرادة، بعد أن كانت مقسمة أجزاء كثيرة.

وكذا الشأن، عندما توفر لنا الأبدية اللذة العليا وتبقينا شهوة الخير الديني في الأسفل: نفس الرزوح ت يريد هذا أو ذاك، لكن بنصف إرادة. لذلك تتمزق تحت وطأة الكرب: تزيّن لها الحقيقة هذا، في حين أن التعمّد يشدّها إلى الآخر.

25.XI. هكذا كانت نفسي مريضة، كنت أتعذّب، متهمًا نفسي ب بنفسه، بأكثر مرارة من المعناه، متقلباً، متختبطاً في أغلالي حتى تنصّص كلّيَّاً، إذ كانت لي قياداً واهياً. إلاّ أنّي كنت مقيداً به مع ذلك. وكنت أنت تضغط، مولاي، على خفايا روحِي، ضارياً إياها، في شفقة جادة بسياط مزدوجة من المخوف والخجل، كي لا أخور ثانية، فلا تنصّص تلك الحلقة الضعيفة التي بقيت، بل كي تقوى من جديد، وترتبطني بأكثر منانة. فكّت أقول في قراره نفسي: «فليكن ذاك حالاً، يكن حالاً»، ومن اللفظ كنت أمشي إلى القرار، كنت أكاد أن أفعل ولم أكن أفعل، لكن لم أكن أسقط في هوة حياتي القديمة، بل كنت أقف على حافتها وأتنفس الصعداء. وكانت أعياد الكرّة، كانت على قاب قوسين أو أدنى من الهدف، أجل، قريباً من الهدف، كنت قد وصلت بعدُ إليه، وكانت أمسك به. كلاً، لم أصل إليه، ولم أمسك به، كانت متراجدة في الموت أمام الموت، وفي الحياة أمام الحياة. وكان الشر المتأصل في أكثر قوّة من الخير الجديد، وبقدّر ما كانت البرهة التي كنت سأتفتّر فيها تقترب أكثر، كانت تبعث في رعباً شديداً، لكنها لم تكن تُثيرني عن السير، ولا ترْدُني إلى الوراء، بل كانت تتركني معلقاً بين بين.

26. ما كان يشدّني هو ترّهات الترّهات وتفاهات التفاهات وصديقاتي القديمات اللائي كنت يجذبنّي من تحت من ثيابي اللحمي، وكأنّ يهمسن لي بصوت خافت: «أنتَ رُذْنَا؟» «من هذه اللحظة، لن تكون معلمك، إلى الأبداً»، و«من هذه اللحظة، لن يُسمح لك بهذا وبذلك، إلى الأبداً»⁽¹⁾. ما هي الأشياء التي كانت تشير إليها بقولك «بَهَدَا وَبِذَلِكَ»، ما هي الأشياء التي كنت تشير إليها، إلهي؟ فلتُنمِّحها شفقتك من روح خادمك! يالها من أدناسِ، يالها من أعوازِ كنت تشير إليها! وكانت لا أكاد أسمع صوتها،

(1) ... إلى الأبداً؟»، نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة 1، هاشم ص 197: «لم يكن الأسلوب الممتدّ في تشخيص الأشياء بالأمر الغريب عن الأدب اليوناني... وقبله الذوق الروماني منذ زمن بعيد؛ ولنذكر على سبيل المثال التجريدات المؤلمة الكثيرة العدد في الديانة الرومانية؛... وفي الأدب المسيحي صورة «الصبر» la Patience كما رسمها بصورة سريعة «ثارنولييان» Tertullien... وعدداً كبيراً من عمليات النقل الأخرى».

لأنها لم تكن تعترضني في الطريق وجهاً لوجه، بل كانت تتمم في ظهري وتلاحقني خفية، وأنا أبتعد عنها، كي أدير إليها البصر. كانت مع ذلك تجعلني أتألم وأتردد في نبذها، والإفلات منها، كي أواصل السير حيث كنت مدعواً، والحال أن العادة القاسية تقول لي : «أظُنْتُ أنت تستطيع الحياة بِدُورِنَها؟»

27. لكنها أصبحت بعد لا تكلمني إلا بصوت خافت جداً، لأنه من الجهة التي كنت أقبل إليها وجهي، والتي كنت أخشى أن أسير إليها، كانت تتجلّى العزة العفيفة في طهارة النفس، صافية ضاحكة بدون آية خلاعة، ملامسة إيماني بالورع، كي أذهب إليها، ولا أترى، باسطة ذراعيها التقيتين الملبيتين بكثير من الأمثلة الطيبة لتقبلني وتعانقني. وكم فيها من الأطفال والصبايا! وكم فيها من الشبان من جميع الأعمار، ومن الأرامل الموقرات، والعوانس؛ ولنست العفة، في حد ذاتها، في جميعهم عقيمة، بل هي الأم الشُّورُ لأبناء السعادة أنججتهم منك أنت بعلها، يا مولاي.

وكانت تبسم ابتسامة ساخرة مشجعة، كما لو كانت تقول : «ألا تستطيع ما استطاعه هؤلاء الأطفال وهؤلاء النساء؟ وهل يستطيع هؤلاء رجالاً ونساء ذلك بذاتهم، لا بالموالى، إلههم؟ المولى إلههم، هو الذي وهبني لهم. لم تتوّك على ذاتك، وتتمايل؟ ألقِ بنفسك نحوه ولا تخف، سوف لن يختفي ويتركك تقع : إزم بنفسك في أمان، وسيقتلك ويداويك!» وكانت أخجل كثيراً، لأنني كنت لا أزال أسمع همسات تلك الترهات، وكانت معلقاً، متربداً للغاية. وتوجهت هي إلى ثانية وكانتها تقول : «كن أصم لأذنات جسدك على الأرض، حتى يموت فيك الجسد» فـ«الملاذ التي ترويها لك»، ليست كـ«الملاذ قانون المولى، إلهك». كل هذا الصراع كان يجري في قلبي. لم يكن إلا صراعاً بين نفسي ونفسني. أما أليبيوسُ القابع حذوي فكان يترقب صامتاً مآل أرمتي غير المعتادة.

28. ولما جرّتني تفاصُل معمقة في أعماق نفسي، كل شقائني وجمّعه «بِمَزَائِي» من قلبي، نشأت في عاصفةٍ عاتية جلبت وابلاً من الدموع. ولكي أجعل العاصفة تهدأ وسط صخباها، وقفت وابتعدت عن أليبيوس. كنت أرغب في الوحيدة لأطلق العنان للبكاء. وانسحبت إلى مكان بعيد لا يمكن أن يضايقني فيه حضوره.

كانت تلك حالي آنذاك، وقد شعر هو بحالٍ، لأنني أطلقت كلاماً نسيت ما هو، كانت نبراته مثلثة بالنحيب. كنت قد نهضت واقفاً. وبقي هو حيث كتا جالسين مرؤعاً

جداً. أما أنا فتمددت تحت إحدى أشجار التين، لا أدرى كيف، وأطلقت العنان للدموع فتدفقت عيناي أنهارا غزيرة، تدفقت قربانا جديرا ببقبلك. وخطابتك قائلة، لا حرفتها، بل ما معناه: «وأنت، مولاي، حتى متى؟ حتى متى، مولاي، ستعذب، وإلى أي حد؟ لا تكون مُندَّكرا للأصناف جُنُونًا القديم». إذ كنت أشعر أنني لا أزال أسيرا لها. كنت أفي صيحات شقية: «في أي مدى، ومتى سيكون «غدا» هذا؟ لم لا يكون حالاً؟ لم لا تكون في هذه الساعة نهاية خسيسي؟» (turpitudinis = *ma honte amarissima*)

29. كنت أقول هذا الكلام، وكنت أبكي بسبب انسحاق قلبي المريض (contritione = toute l'amertume (de mon cœur broyé). ها أنذا أسمع من المترجل المجاور، صوت صبي أو صبية، لست أدرى، يعني مرددا: «خذ، اقرأ، خذ، اقرأ». (Tolle, lege!) وعلى الفور، حاولت أن أتذكر، بكل اهتمام، وقد تغير وجهي هل ما سمعته غناه من غناء الصبيان كانوا عادة يرددونه في بعض العابهم. لا أتذكر البة التي سمعت شيئا من هذا القبيل، وبعد أن كبحت جماح دموعي، رأيت أنني لم أتلقي أمرا إلهايا آخر غير أن أفتح الكتاب⁽¹⁾ (codicem)، وأن أقرأ أول باب أجده فيه. فقد بلغني يشان أنطروپیوس (de Antonio = au sujet d'Antoine) أنه قد اتفق له ذات يوم، أثناء قراءة الإنجيل، أن يعتبر الكلام التالي نذيرا وتنبيها له: «إذْهَبْ، يَعْ كُلَّ مَا تَمْلِكُ، أَعْطِهِ لِلْفَقِيرِ، وَسَوْفَ تَمْلِكُ كُلَّاً فِي السَّمَوَاتِ، وَجِئْ، وَاتَّبِعْنِي»، وأنه اهتدى إليك تَوَّا بهذا الوحي (tali oraculo = (par) un tel oracle). لذلك أسرعت بالعودة إلى ذلك المكان، الذي كان أليبيوس⁽²⁾ جالسا به: إذ إنني كنت قد وضعْت هناك كتاب الحواري عندما نهضت منه، وأمسكته، وفتحته، وقرأت في صمت أول باب وقعت عليه عيناي⁽³⁾: «لَا تَعِيشُوا فِي الْمَآدِبِ وَالْخَتَاسَاتِ، وَلَا فِي الْمُضَاجَعَاتِ وَالْفُجُورَاتِ، وَلَا فِي الْخِصَامِ وَالْغَيْرَةِ، بَلْ ابْسُوا الْمَؤْلِي الْيَسْوَعَ الْمَسِيحَ، وَلَا تَحَاوِلُوا إِلَى ضَاءِ اللَّنَّمِ، فِي عِلْمَاتِهِ». لم أرد أن أقرأ أكثر، فلم أكن في حاجة إلى ذلك، فما أن انتهيت، لعمري، من هذه الجمل، حتى انتشر في قلبي ما يشبه نور الأمان، وانقضت كل ظلمات الشك.

(1) يعني كتاب الحواري (le livre de l'Apôtre)

(2) ...quo...coniecti sunt oculi mei = «حيث اتجهت عيناي». نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة 1، هامش من 200: «الأمر الغريب في الرسالة LV, 37 التي بعث بها أغستينيوس بعد سنة أو سنتين من نشر الاعتراضات، إلى «يانواريوس» Ianuarius أنه يستذكر عادة القرعة (sortes) في الإنجيل؛ ومن الواضح أن الاستشارات التي يستذكرها تتعلق بمصالح مادية صرف، negotia saecularia».

30. آنذاك، بعد أن وضعت علامة إما باصباعي أو علامة أخرى لا أدرى ما هي بين صفحات الكتاب، أغلقته وأخبرت بوجه هادئ أليبيوس بالأمر. فأخبرني، بدوره، بما كان يقع في نفسه ولا علم لي به. طلب أن أطلعه على ما قرأت، فأطلعته عليه، وقرأ أيضاً أكثر مما قرأت، وكانت أجهل بقية ما قرأ. وجاء في تلك البقية: «وَأَمَّا الضَّعِيفُ فَأَزْرُوهُ فِي الْعَقِيْدَةِ». وذلك ما رأده إلى ذاته وما فاتحني به. وبرسوخ عزيمته بهذا الشيء، على هذا القرار الطيب الملائم كل الملاعنة لأخلاقه العفيفة التي كنت بعيداً عنها كل البعد منذ زمن قديم جدّاً، انضمَّ إلى دون تردد دون اضطراب.

ومن ثمة ذهبنا إلى أمي نزف إليها الخبر ففرحت له. روينا لها كيف وقع الأمر، فهلهلت وانتصرت، وكانت تحمدك أنت، «الذِي هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ تَفْعَلَ أَكْثَرَ مَا نَطَّلُبُ أَوْ مَا نُفَكِّرُ فِي فِعْلِهِ»، لأنها كانت ترى أنك منتحتها في أكثر بكثير، مما تعودت أن تطلبه منك بتاؤهاتها ونجيبها المثير للشفقة. لقد هدّيتك إليك هداية خالصة، جعلتني أعرض عن طلب الزوجة، وعن كل أمل دنيوي، ثابتًا على ذلك القانون من عقيدتي التي كنت قد كشفتها لأمي في بعض رواها⁽¹⁾، منذ عدة سنين خلت، و«حَوَّلْتَ حِدَادَهَا إِلَى فَرَحٍ» أشد بكثير مما كانت أرادته، وأعزّ بكثير، وأعفّ، مما كانت تترقبه من أحفادها، أي من لحمي.

(1) يحيل «ب. دي لا بريول» P. DE LABRIOLLE هنا على ملاحظة من الكتاب الثالث الفقرة 19, XI, المتعلق بحلم مونيكا والذي جاء فيه: حسب كتاب «الردة على الأكاديميين» *Contra Academicos* II, II, 3 يبدو أن أوغستينوس عاش في مدينة تاغست ذاتها في بيت صديقه Romanianus، إلى أن سمحت له أمي «مونيكا» بالعودة إلى الإقامة معها. انظر الصفحة 61 من المجلد الأول. ولننصل إلى ما تقدّم العبارة الأوغسطينية même... fidei, in qua me... ei reuelaueras = (ذلك) الإيمان الذي أبداني فيه وحيث (وافقاً بين يدي أمي). وفي هذا الموضع تبين المنزلة الخارقة للعادة في نهاية هذا الكتاب الثامن، والدلالة البعيدة الرمزية للرابط الذي لا ينفصل بين مصيري أوغستينوس ومونيكا. فالآم تدعو الابن لاعتناق الديانة.

الكتاب التاسع

1.I. «يا مولاي، أنا خادمك، أنا خادمك وأبن أمتك، لقد حطمتَ قيودي، إليك سأعفر قربان المديح». فليحمدك قلبي ولسانني، ولكنك عظامي جموعه ولتقل لك: «مولانا من هو شبيه بك؟» أجبني أنت وقل لروحي: «في أنا نجاتك».

ماذا كنت أنا، ومن كنت؟ أي شرّ جعلتُ في أفعالي، وإن لم يكن في أفعالي، ففي أقوالي، أو إن لم يكن في أقوالي ففي إرادتي؟ أما أنت، يا مولاي، فقد كنت الطيب والمشفق، وسبرت بنظرتك عمق موتي، واستأصلت بيمناك، من قاع قلبي، هوة الفساد، وكان كل ذلك كي لا أريد ما كنت أريده، وكيف أريد ما كنت تريده.

لكن أين كانت حرية اختياري خلال تلك السنين الطويلة؟ ومن أية خلوة بعيدة عميقه استرجعتها في لحظة؟ لأخفض عنقي لنيرك اللين وكتفي لعيثك الخفيف، أيها المسيح اليسوع «معيني ومنقذِي»! يا لها من عنوية نشأت في نفسي الجائعة لعنويات طيشي، وكانت أخشى أن أفقدوها، فإذا أنا أفرح بطردتها وفقدانها! «وأنت الذي كنت تبعدها عنِّي، أنت العنوية الحق والعنوية القصوى، لتخرجها مني وتحل مكانها، يا الله من كل لذة، لكنها ليست لذة اللحم والجسد، يا أسطع من كل نور، ولكنك أعمق سريرة من كل سر، يا أسمى من كل شرف، ولكن ليس لدى طالبي هذا الشرف

dimittere gaudium erat ...⁽¹⁾)
الملاحظة 1. قارن بين هذه الحالة النفسية وحيرته في السابق : « لا أرى إلا أناساً يعتبرون من المستحيل ما عجزوا عن تحقيقه. نذاهينا رفيعة جداً... وتجاوز قدرة البشر. آما كم أكثُر لها من التقدير أكثر مما يكتُنون ! هم أيضاً قادرُون، لكنهم لا يريدُون. هل كشفت المحاولات التي Sénèque. (Ad Luc. = A Lucilius CIV, « سيناتك »).

أنفسهم. كان قلبي حراً بعدُ من الهوا جس الملحقة للطموح والثراء والتترغ في الملاذ والاحتکاك بجربها (*scabiem = la lèpre ou la gale*)، وكنت أُثْنَع إِلَيْكَ أَنْتَ، أَنْتَ نوري وثروتي ونجاتي، أَنْتَ مولاي والنهي.

II.2. وقررت «بمرأى منك» ألا أعرض في جلبة عن وظيفة لسانِي، بل أن أسحبه بلطف من سوق الثرثرة، كي لا يجعل صبياناً لا يفكرون في قانونك ولا في سلمك بل في حماقات كاذبة وفي حروب بالساحة العمومية (*bella forensia = batailles de forum*) يشترون بفمي أسلحة لجنونهم.

ومن حسن الحظ لم تكن تفصلني عن عطلة قطف العنبر إلا أيام قليلة جداً. وعزمت على تحملها كي أنسحب حسب العادة؛ لكن بعد خلاصي بفضلك لن أعرض نفسِي للبيع ثانية (*uenalis me = me vendre moi - même*).

إذن هذا ما عقدت العزم عليه بين يديك، لم يكن يعرفه من الناس إلا المقربون مثناً، وقد كان تم الاتفاق بيننا ألا نخشى منه لأحد من العموم شيئاً، ولو أنك «كنت قد أعطيتنا، ونحن صاعدون وادي التواح نغتني نشيد المدارج، سهاماً حادة وجمرات ملتهبة ضد اللسان الماكر» الذي يعارض بتعلة النصح، ويفرق الناس بحجه، كما يفعل عادة بلون الطعام الذي يحبه.

3. كنت قد خرقت بسهامك الحبيبة قلبنا، وكنا نحمل كلماتك مغروزة في الأحشاء، وأمثلة خدامك الذين كنت قد حرّكتهم من الظلم إلى الضياء، ومن الموت إلى الحياة، تجمعت في أعماق فكرنا لترافق قبورنا الشديد وتلهبها، حتى لا ننحني نحو الأشياء السفلية. وكنا نشعر بشدة لهبها، حتى أن كل رياح المعارضة في «اللسان الماكر» كانت قادرة على بعث الحماس فينا أكثر من أن تطفئه.

ولكن مع ذلك، فبسبب اسمك الذي مجده عبر الكون، كان يوجد بالطبع مادحون لأمنيتي ولمذهبِي في الحياة. فقد كان يبدو فيه ما يشبه التبجح، إن لم أنظر زمن العطلة القريب للغاية، فالإعراض المبكر عن وظيفة عمومية يتطلع إليها الجميع كاتني به يجلب كل الأنظار إلى عملي الذي أردت أن أستبق به عيد قطف العنبر القادم، بحيث سيقول القوم فيه كلاماً كثيراً، وسيقولون بالخصوص إني كنت راغباً في التباهي بمنفسي، لم أعرض للنقاش والخصومات وجهتي الخاصة، ولم «أدنس خيري»؟

4. أضفت إلى ذلك آني في نفس الصائفة وبسبب انكبابي المفرط على التدريس، كنت قد أخذت أحسن بضعف في رتني. كنت أُنْفَس بصعوبة، وكانت الجروح التي

تدلّ عليها آلام صدري تمنعني من أن يكون صوتي جهوريًا واضحًا، كان ذلك قد أحبطني أولاً، لأنّه كاد يرغمي على التخلّي عن عبء مهمّة التدرّيس تلك، أو على التوقف عنها مؤقتاً، إلى أن يقدّر لي أن أشفى وأسترّ قواي. لكن عندما تكونت في كامل الإرادة وتفوتت وتفوتت «الأصرف الوقت لرؤية كونك المولى» شعرتُ كما تعلم، بالفرحة لأنّه كانت لي حجّة صادقة أقدر أن أخفّ بها استنكار الناس الذين كانوا ي يريدون أن يحتكروني لصالح أبنائهم.

لذلك ونظرًا لامتنانّي بهذه الفرحة، قابلت نهاية تلك المهلة الزمنية بالإذعان - ولا أدرى أكانت ستدعوم عشرين يوماً - لكن هذا الإذعان كان ثقيلاً على نفسي، بسبب فتور الرغبة في الربح التي كنت عادة أصبر بها على هذه المهمّة الشاقة، ولو لم يحلّ الصير محلّها لبقت مرهقاً بها.

قد يقول بعض خدامك إني أذنبت في هذا، بما آتني قبلت أن أبقى ساعة أخرى على كرسي الكذب، وأنا مفعم القلب بخدمتك. أمّا أنا فلا أجادل في هذا. لكنك، يا مولاي، شديد الشفقة، ألم تغفر لي وتمحّ عنّي بالماء المقدس هذا الإثم مع جميع الذنوب الأخرى المقيمة المميتة؟

III.5. كانت سعادتنا تملأ ويريكتُوس (*Verecundus*) هما وغما، كان يرى أن قيوده التي كانت تكبله تبعده عن جمعنا. لم يصبح مسيحيًا بعدُ، في حين أن زوجته كانت مسيحية: لقد كانت حجر العثرة في طريقه إلى الطريق الذي انتهجهناه، وكان يقول إنّه لا يريد أن يكون مسيحياً بغير الصورة التي كانت محظوظة عليه.

ومع ذلك فقد عرض علينا بقلب طيب أن نبقى في بيته، طيلة المدة التي نريد أن تقضيها فيه. وستجازيه، مولاي، يوم يبعث العادلون. وقد جازيته بعد نفس الجزاء، إذ عند غيابنا، لما كنا في روما، أصيب بمرض عossal، وأصبح في مرشه مسيحياً واعتنق المسيح، وغادر هذه الحياة. فهكذا لم تشفع عليه فحسب، بل علينا كذلك، حتى لا نتعذّب عذاباً لا يطاق، ونحن نذكر إنسانية الصديق تجاهنا، دون أن نستطيع عده ضمن قطبيعك.

حمدًا لك إلهنا، فنحن ملك لك. علامه ذلك عظاتُك وعزاؤك. في وفائك بوعودك، ستهب ويريكتُوس، بدل تلك الضيعة الكائنة بكسيساً كوم (*Cassiciaco*) = (*Cassiciacum*) حيث استرحنا في كنفك من قيظ الحياة الدنيا، فتنة جنتك الدائمة

(1) المرجع نفسه الكتاب الناجع، ص 212 الملاحظة 1. تم البحث عن بلدة «كامسيساً كوم» =

الخضرة، بما أنك غفرت له ذنبه على الأرض، ووضعه «على الجبل الدسم، جبلك، الجبل الخصب».

6. إذن كان نيريندوس آنذاك مغتماً، بينما كان نيريديوس (Nebridius) يشاركتنا غبطتنا. ومع ذلك فهو لم يكن بعد مسيحيًا، وكان قد سقط في هزة أسوأ خطلاً لاعتقاده أن لحم الحقيقة أي ابنك وهم، لكنه تنصل من هذا الرأي وكان يقف موقف التالي: لم يكن متسبعاً بأسرار كنيستك، ومع ذلك كان الباحث الأكثر حماساً عن الحقيقة. وبعد زمن قصير من اهتدائنا إليك وإحيائنا بالتنصير، جعلته هو أيضاً كاثوليكياً معتقداً المسيح، خادماً إياك في عفة فائقة واعتداً في إفريقيا (in Africa = en Afrique) بين ذويه، فأصبحت عائلته كلها بواسطته مسيحية، ثم خلصته أنت من حياة الجسد.

فهو يعيش الآن «في أحضان إبراهيم» (Abraham)⁽¹⁾، مهما كان مدلول عبارة الأحضان (sinu = le sein illo...), هناك يعيش عزيزي نيريديوس صديقى اللطيف الذي صار ابنك بالتبني (adoptiuus = adoptif)، بعد أن كان معترقاً (ex liberto = d'affranchi)؛ هناك كان يعيش. فأي مكان آخر يليق بمثل روحه؟ يعيش في ذلك المكان، الذي كان يسألني عنه كثيراً، أنا الإنسان الضعيف الخالي من الخبرة؛ لم يعد يقرب أذنه من فمي، بل يضع فمه الروحي قرب منهلك، وينهل، قدر ما يستطيع، الحكمة وفق عطشه، سعيداً دون حداً لكنني لا أخالة يتتشى منها حتى ينساني، بما أنت، مولاي، أنت الذي يشريك، تذكرنا.

إذن كنا هكذا نسللي لويريندوس الممتعض من اهتدائنا هذا (= conuersione)، دون مساس بما يبتنا من صداقه، حاتئن إتاه على القيام بواجهه الزوجي بإخلاص، مترقبين من ناحية أخرى الوقت الذي قد يتحقق فيه نيريديوس بنا. وكان ذلك ممكناً لشدة قربه منا، وكان يحس أن قراره يقوى رويداً رويداً، وهو هي أخيراً تلك الأيام تمرّ، تلك الأيام التي كانت تبدو لي طويلة وكثيرة مقارنة بحبي للحرية والتغيّي فيها من صميم جوارحي بـ: «لك قال قلبي: بحثت عن وجهك، أنا يا مولاي، أريد وجهك».

Cassicium في ضواحي مدينة ميلانو. ويرجع السيد «لويس بارتران» Louis Bertrand (حول القديس أوغسطينوس، باريس...) بعد البحث والتحري على عين المكان، أنها بلدة Cassago di Brianza التي تبعد 33 كلم عن مدينة ميلانو».

(1) المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 212 الملاحظة 2: «تضمن رسائل أوغسطينوس في أكثر من موضوع آخر تردد بشأن المعنى الحقيقي لهذه العبارة. انظر الرسائل، الرسالة 164، 6-7 وكذلك 187، 8-7، إلخ....».

7.IV . وأتى اليوم الذي سأتخلص فيه بالفعل من وظيفة البلاغي التي كنت قد تخلصت بعده منها بالفker، وتم ذلك، وحررت لساني، كما كنت قد حررت بعده قلبي، وكانت أحمسك في الغبطة، وأنا ذاهب، مع كل أقارب، إلى المنزل الريفي.

أما ما صرفت إليه بعد موهابي الأدبية، خدمة مني لك، ولكن في لهاث لا يزال به غرور المدرسة، كالصراع عند الاستراحة، فتشهد به حواراتي مع أصدقائي ومع نفسي ذاتها أمامك فقط، وأماما كان لي مع نبريديوس وهو آنذاك غائب، فتشهد عليه رسائلي⁽¹⁾. ومني أجد متسعًا من الوقت لذكر كل فضائلك تجاهي، خاصة في ذلك الوقت البعيد، لأنني متطلع إلى الانتقال بسرعة إلى فضائل أخرى أعظم منها؟ ذاكرتي تعود بي إلى تلك الأيام، ويحلو لي، مولاي، أن أتعرف لك بأية من اخنس داخلية سيطرت على كلّيَا، وكيف سوتَ كالبساط جبال أفخاري وتلالها، وكيف قوّمت اعوجاج طرقاني، وسهّلت أوغاري بنفس الصورة وكيف أخضعت بها ألييوس ذاته، أخ قلبي، لاسم ابنك الوحيد «مولانا ومنجينا اليسوع المسيح» الذي كنت أكره أن أحشر احتقاره في كتاباتي. كان يفضل أن يستشق فيها رائحة «أشجار الأرز» (cedros = cèdres) التي

«كسرها» المولى بعد، عوضًا عن الأعشاب المنجية لكتنيستك الحامية من سم الأفاعي. 8. إلهي! ما أقوى الصيحات التي وجهتها إليك، وأنا أرتل مزامير داود، أنا شيد الإيمان وأغاني التقوى النابلة لروح الصلف، مترهينا في حبك الحق بعد، مريدا التنصر في بيت ريفي، لاهيا فيه مع ألييوس المرید للتنصر، صحبة أمي ذات اللباس النسائي والعقيدة الرجالية وثقة المستان وحنان الأمهات وتفوى المسيحيات! ما أقوى الصيحات التي كنت أوجهها إليك في تراتيل تلك المزميراء! وكم كنت أتقد حبا فيك من جرائمها، وأضطرم وأنا أتلوها، لو استطعت، إلى الكون كله، مناهضاً كبراء الجنس البشري! ومع ذلك فهي تغنى في الكون كله، ولا يوجد أحد «ليتهرب من حرارتها». كم كنت أسرخط في ألم حادّ مُت على المانويين، ثم انقلب لأشفق عليهم، بسبب جهلهم تلك الأسرار وتلك الأدوية، ولرفضهم في صخب جنوني تزيقاً كانوا يستعبدون به الصحة⁽²⁾! كنت أود لو أنهم كانوا بالقرب متى الآن، في مكان ما، ودون أن

(1) المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 214 الملاحظة 1: الرسائل 3 و4 و7 و9-14 ووجهها أوغستينوس إلى «نبريديوس» Nébridius وقد احتفظ بالرسائل 5 و6 و8، وهي لا تمثل إلا عدداً قليلاً من الرسائل التي تم تبادلها والتي كانت زاخرة بالنقاشات الفلسفية» ...

... testantur epistulae ، كما تشهد على ذلك رسائلنا. !quo sani esse potuissent ... (2)

أكون على علم بوجودهم فيه، ولو أنهم نظروا إلى محتيائي وسمعوا كلماتي عندما كنت أقرأ المزمور الرابع (psalmum = le Psaume) في ذلك الوقت من الفراغ، فيفهمون ما فعله بي ذلك المزمور: «الما ناديتك، أصغيت إليّ، يا إله عداتي»، في محتي أرجحتني، أشفق علىّ، مولاي، وأصغي إلى دعائى!» فليس معونى، دون أن أكون على علم بذلك، حتى لا يظنوا أنّي بسببهم أقول تلك الكلمات التي قلتها خلال تلاوة المزمور الرابع، لأنّي ما كنت لأقولها حقاً لا كما هي، ولا كما كنت أقول لها، لو شعرت بكونهم يسمعونني ويرونني. ولو قلتها على نفس الصورة، لما كانوا يتقبلوها كما أقولها لنفسي وفي نفسي، أمامك، في قراره عاطفة قلبى.

9. اقشعررت خوفاً، وفي الآن نفسه اتقدت أملاً وابتهاجاً «بشفقتك»، يا أبي. وكل هذا كان بارزاً في عيني وفي صوتي، عندما كان روحك الطيب يخاطبنا قائلاً لنا: «أيا أبناء البشر، حتى متى تكونون مُقلّي القلوب؟ لِمَ تحبون الغرور وتحثون عن البهتان؟» إذ كنت قد أحبت الغرور وبحثت عن البهتان. وأنت، مولاي، «كنت قد مجدهت بعد قديسك، باعثاً إيهام من بين الموتى ومنتصباً إيهام على يُمناك» كي يرسل من عليائه موعد «البارقليط»، «روح الحق» (Paracletum = le Paraclet). وكان قد أرسله بعد، لكنني لم أكن أعلم بذلك، لقد أرسله لأنه كان قد مجده، وأحياناً من بين الموتى، ورفعه إلى السماء، لأنّه «لشنْ كان الروح لم يعط بعد فلان اليسوع لم يمجّد بعد». وصاح الرسول قائلاً: «حتى متى تكونون مُقلّي القلوب؟ لِمَ تحبون الغرور وتحثون عن البهتان؟ اعلموا أنّ المولى مَجَدْ قَدِيسه». يصبح فيما قائلاً: «حتى متى؟»، يصبح فيما: «اعلموا!»، أما أنا فخلال مدة طويلة «عن جهل» أحبت الغرور، وبحثت عن البهتان. لذلك ارتعشت وأنا أستمع إليه لأنّي كنت أتذكرة أنّي كنت شبّهها بأولئك الذين يوجه إليهم هذا التحذير. ففي الأوهام التي كنت أعتبرها حقيقة، كان يكمّن الغرور والبهتان. ودّوت في نفسي الآهات بقوّة وحدة وسط آلام التذكرة. ليته قد سمعها بعد من يحبون إلى حدّ اليوم الغرور وبحثون عن البهتان! لعلّهم كانوا يضطربون ويتقّدون بذلك، ولعلك كنت تستجيب لهم، لو صاحوا تجاهك قائلاً: لأنّه «مات من أجلنا ميّة اللحم الحق، ذلك الذي يتّشفع لنا»..

= 215 الملاحظة 1: «وفرة الاستعارات المأكولة من السجل الطبي مظهر أسلوب بارز في الأدب المسيحي في القرون الأولى».

10. كنت أقرأ: «اغضبوا ولا تذنبوا»⁽¹⁾، وكم كنت أتأثر لهذه الكلمات، يا إلهي، أنا الذي كنت قد تعلمت بعد أن أغضب على نفسي بسبب الماضي، كي لا أذنب في المستقبل: أن أغضب غضباً مشرعاً لأنه ما كانت لتغضب في طبيعة أخرى من جنس الظلمات، كما يقول الذين لا يغضبون ضد أنفسهم، والذين يكتنون الغضب لأنفسهم ليوم الغضب، يوم حكمك العادل! لم تعد خيراتي خارج نفسي، ولم أعد أبحث عنها بأعين حقيقة في ضوء الشمس. إن الذين يريدون أن يفرحوا بما هو خارج أنفسهم يضمحلون بسهولة، ويسللون على ما هو مادي ودنيوي، ولا يلعن منه تفكيرهم السగban إلا الأوهام، آه! لو أنهم كانوا من الجوع المميت وقالوا: «من سيرينا الخير؟» لنجدهم، وليس معنا نقول: «نور وجهك، يا مولانا، نقش فينا كالطابع». لست أنا من «النور الذي ينير كل إنسان» بل أنت منيرنا، حتى نصبح «من الظلمات التي كنا فيها قديماً نوراً فيك»، آه! لو كانوا يرون من داخلهم النور الأبدي الذي كنت قد ذقته فارتعدت، لكوني غير قادر على أن أبرزه لهم! ليتهم فدموا لي قلوبهم المزورة عنك، والمرسومة في أعينهم، وقالوا: «من سوف يرز لنا الخيرات؟»؟ فهناك انقلبت على نفسي معتقداً، داخل المسكن الذي كت فيه مضني والذي عقرت فيه شيخوختي قرباناً، معلقاً آمالي فيك في بداية استعدادي لحياة جديدة جذرية، هناك كنت بدأت أحسن بعذوبتك، و«كنت قد أعطيت الغبطة لقلبي». وكنت أهتف في تلك القراءة الخارجية بما كنت معترفاً به داخلياً، وما كنت أريد التشتت بين الخيرات الدنيوية، أنتِهم الزمان والزمان يلتهمي، بما آتني كنت أجد في البساطة الأبدية «بُرا آخر وخمرة أخرى وزينة آخر».

11. وكانت قراءة الآية الموالية تسلّ من قلبي هتافاً طويلاً: «آه! في السيلم! آه! في كيانه بالذات!» لكن ماذا قال: «سوف أيام وسوف استسيغ النوم؟؟ فمن سوف يجاهاها، عندما سيتحقق القول الذي كتب: «الموت امْتُصَنْ في النصر»؟ أنت بحق ذلك «الكيان ذاته» أنت الذي لا تتغير، وفيك الاستراحة في نسيان الاتهاب كلها، بما أن لا أحد غيرك بجانبك، ولا رغبة لي في الكثير من الأشياء الأخرى التي ليست هي أنت، بل أنت، مولاي «الذي رستخني شخصياً في الأمل».

كنت أقرأ هذا وأضطرم، ولا أجد ما أفعله مع هؤلاء الصنم الأموات، كنت واحداً

(1) ... irascimini et nolite peccare = «اغضبوا ولا تذنبوا». المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 216 الملاحظة 1: يقدم أوغستينوس، في موضع آخر، تفسيرين لهذه الآية: أ) إذا اتفق أن غبك الغضب فلينتظر على الأقل، عقللك مثل هذا التصرف الطائش، ب) أغضب على نفسك بسبب ذنوبك الماضية ولا تدع إلى ارتكاب ذنوب أخرى....»

منهم، آفة، نابحا بكل قوای، أعمى وعدوا للكتب المقدسة المعسولة بعسل السماء
المضيئة بضيائلك، و«كنت أنسحق وأنا أفك في أعداء كتبك المقدسة».

12. متى سأذكر عطلات كل تلك الأيام المشهودة؟ غير أنني لم أنس ولم أكتم
قسوة سياطرك وسرعة شفقتك العجيبة.

كنت آنذاك تعذبني بالآلام في الأسنان، ولما كانت تتضاعف أكثر فأكثر حتى لم أعد
قادرا على الكلام، حلّ بخاطري أن أدعوا ذوي جمِيعاً أن يتولوا إليك من أجلي، يا
إله شفائي كله. وكتبت هذا على لوح، وعرضته عليهم كي يقرؤوه. وما أن جثونا على
ركبتينا في هيئة المتوجّل حتى سكن الألم، وبالله من ألم! كيف أضحم؟ لقد أزعجني،
أعترف بذلك، يا مولاي وإلهي، منذ بداية حياتي لم أعرف مثله، وفي أحشائي شعرت
بتبيهك، وفي فرحة الإيمان مدحت اسمك، وهذا الإيمان ما كان يسمح لي بالأمان في
خصوص ذنوبي الماضية التي ما زالت لم يغفرها لي التعميد.

13. بعد انتهاء حفلات قطف العنب تبعت أهل ميلانو = les Milanais
(Milanais) أن يفكروا مسبقاً في باائع كلام آخر لطلبتهم لأنني قد اخترت أن أخدمك،
ولأنني لم أعد قادراً على تلك الوظيفة بسبب صعوبة في التنفس وألم في الصدر.

وأعلمُ برسالة أسقفك أمبروزيوس الرجل المقدس، بأخطائي السابقة ويرغبتي
الراهنة كي ينبهني إلى ما كان علي بالآخرى أن أقرأه من كتبك المقدسة، حتى أصبح
أكثر تأهلاً وكفاءة لتقبّل النعمة القصوى. أما هو فأمرني بقراءة الرسول إيزاى (Esaiam
= Isaïe) لأنه، على ما أظن، أعلن بوضوح قبل الآخرين جميعاً الإنجيل ونزعه الوثنين
(Gentium = des Gentils ou Païens)، غير أنني مع ذلك، نظراً لأنني لم أفهمه من
أول قراءة، ولأنني كنت أظنّ جميع الناس على هذا النمط، أجلتها إلى ما بعد في انتظار
أن أتمكن من لغة المولى تماّناً.

14. VI. من هنا، عندما حان الوقت الذي كان لزاماً علي فيه أن أترسم، غادرنا
الريف لنعود إلى ميلانو. أليبيوسُ قرر هو أيضاً أن يولد ثانية فيك معي، مرتدياً بعدُ
التواضع اللائق بأسرارك، والجسم منه كأبسل ما يكون وأقوى، حتى أنه كان يدوس
أرض إيطاليا الجليلية حافي الرجلين، في إقدام غير معهود.

ضممنا إلينا كذلك الشاب أدريوداتوس: (Adeodatum = son fils naturel,) ذلك الابن المولود من خطيبتي الجسدية. أنت كنت قد فعلت به خيراً:

كان تقريباً في الخامسة عشرة من عمره. وكان ذكاؤه يفوق ذكاء كثير من الرجال الوقورين والمثقفين.

أعترف لك بنعمك، يا مولاي والاهي، يا خالق كل الأشياء وال قادر على تقويم دمامتنا. لم يكن لي في ذلك الطفل سوى الخطيئة، وإن كنا غذيناها في تأدبك، فأنت الذي كنت تلهمه وليس أحد غيرك، أفر لك بنعمك.

هناك كتاب كتبته يسمى «المعلم» (*de Magistro = le Maître*)، وكان يحاورني فيه. أنت تعلم أن جميع الآراء التي نسبتها إلى مخاطبي هي آراؤه عندما كان في السادسة عشرة من عمره. لقد عرفت منه أشياء أخرى أكثر عجباً. كانت عبقريته تبعث في نفسي فظاعة مقدسة. ترى من عداك يمكن أن يكون صانع مثل تلك المعجزات؟

سرعان ما رفعت حياته من الأرض، فصرت أتذكرة في أمان أكبر دون أي خوف على صباح وعلى مراهقته وعلى جميع ما فيه من ضعف البشر. اقترننا به إذن، كان مزامينا لنا في نعمتك، وكنا نريد تشتيتكم على تأدبك، وتلقينا التعميد، فراح عتنا قلقنا وحزننا بخصوص الحياة الماضية.

وما كنت لأنشفي في تلك الأيام غليلي من العذوبة العجيبة، وأنا أتأمل رفعه تصميمك في شأن نجاة الجنس البشري. كم بكت لأناشيدك ومزاميرك، متاثراً أیما تأثر بالأصوات العذبة المدوية في كنستك! تلك الأصوات كانت تنصلب في ذنبي، فكان الحق ينسكب في قلبي، وكانت مشاعر التقوى تتقدّمنه في، وكانت الدموع تنهر من عيني، ومع ذلك كان لي في الدموع لذة.

15.VII. كانت كنيسة ميلانو قد بدأت منذ وقت غير بعيد في تقديم هذا النوع من اللسان والوعظ، وكان الإخوان يغتون في حماس كبير، وأصواتهم وقلوبهم متحدة. كان ذلك ربما منذ سنة أو أكثر بقليل، عندما كانت يُوستينا (*Iustina = Justine*) أم الإمبراطور الصغير والثيانيوس (*Valentiniani = Valentinien*) التي كانت قد فُتنت بالأريانيين (*ab Arrianis = par les Arriens*) تضطهد أمبروزيوس عبدك بسبب بدعهم. كان الشعب التقى ينام في الكنيسة، مستعداً للموت مع أسقفه، خادمك. وهناك أصبحت أمي، خادمتك القائمة بالدور الأول في الحمية وفي السهر، لا تعيش إلا للصلوات. نحن، وإن كنا حتى ذلك الوقت غير متأثرين بروحك الحامية، كانت المدينة تثير فينا الدهشة والدهشة^(١).

= ... الدهشة والدهشة. المرجع نفسه الكتاب التاسع، ciuitate adtonita atque turbata ... (1)

عندئذ تقرر أن تُغنى الأنماض والمزامير، كما هي الحال في المشرق، مخافة أن يفتر الشعب من شدة الضجر والغم: ومن ذلك الوقت إلى يومنا هذا، حفظت هذه العادة وقلّدتها أيضاً، في بقية أصقاع الكون، كل قطعان رعاياك تقريباً.

16. عند ذاك كشفت عن طريق الرؤيا الأسفوك المذكور، المكان الذي دُفن فيه جسماً الشهيدين بروتازيوس وجريفيس (Protasi et Gervasi = Protais et Gervais) اللذين حفظتهما مدة سنتين طويلة غير متعمقين في كنز سرك، حتى تخرجهما منه في الإبان، لتکبح جماح حنق امرأة هي أيضاً إمبراطورة! فعندما أخرجها علناً من قبريهما ونقلها في حفل بهيج نحو البازيليكية الأمبروزية، (ad Ambrosiam basilicam = à la basilique ambrosienne)، لم يكن فقط الممسوون الذين كانت تزعجهم الأشباح الدنسة، يشفون منها، باعتراف تلك الأشباح ذاتها، بل كان هناك أيضاً مواطن أصيب بالعمى منذ سنتين عديدة، وكانت له شهرة كبيرة جداً في المدينة. سُأله عن سبب فرحة الشعب العارمة، فأخبروه، فنهض وطلب من مرشدته أن يقوده إلى ذلك المكان. ولما أوصل، توسل أن يسمح له بأن يتمتع بمنديله تابوت «شهيدينك اللذين كان موتهم نفيساً في نظرك»، وما إن فعل وقرب المنديل من عينيه حتى فتحهما في الحال. فانتشر النباء في كل مكان، فصعد إليك مدعي حازٌ لامع. ولشن لم يهدِ ذلك روحَ تلك العدوة نحو سوء العقيدة، فإنه قد أجبرها على الأقل على كبح جماح رغبتها في التشكيل.

«حمدًا لك، يا إلهي!» من أين وإلى أين جلبت لي هذه الذكرة، حتى أعترف إليك أيضاً بهذه الأحداث التي كنت قد أغفلتها، ناسيًا إياها، على أهميتها؟ ولكن آنذاك، رغم أن «رائحة عطورك» كانت تفوح بهذه القوة، لم نكن «نجري» مسرعين نحوك، لذلك كان نحبي يشتَّد أكثر وسط غاء مزاميرك، وكنت تائفًا إليك قديماً، وتنفسَت أخيراً ملء رثي بقدر ما يدخل الهواء «مَنْزِلاً مِنَ الْبَنْ» (in domo faenea = dans une «demeure de foin»).

17. VIII أنت يا من «جعل القلوب تسكن متحدة في منزلنا» ضممت إلينا إيووديوس (Euodium = Evodius) أيضاً، وهو واحد من شباب مدینتنا؛ كان يشتغل في الإدارة وكيلًا للإمبراطور، مهتمًا إليك قبلنا، ومتعمداً، وتاركاً العمل الدنيوي، ومتأهلاً لخدمتك. كنا متلازمين دائمًا وعقدنا العزم على الإقامة معاً بعزيمة مقدّسة.

= ص 220 الملاحظة 1: «انظر في هذا الشأن «بار دي لا بريول» P. DE LABRIOLLE .Saint Ambroise, Paris 1908, pages 87 & 95»

كنا نبحث عن المكان الذي تكون لنا فيه أكبر منفعة في خدمتك: كنا عائدين سويا إلى إفريقيا، وعندما وصلنا إلى بلدة أستيا، عند مصب النيل (apud Ostia Tiberina) قبضت أمي نجها.

أمز على الكثير من التفاصيل، لشدة ما أنا متلهف. تقبل اعترافاتي وتشكراتي، يا إلهي، مقابل النعم التي لا تحصى والتي سأشكك أيضا عنها: لكن لن أشكك عما يولد في نفسي من أفكار في خصوص تلك المرأة خادمتك التي ولدتنى لحماء، لأرى هذا النور الدنيوي، لن أذكر خصالها، بل نعمك عليها. لأنها لم تخلق نفسها بنفسها ولا رأيت نفسها بنفسها: أنت خلقتها، ولم يكن أبوها ولا أمها يعلمان ما سوف تكون بتهما. عصا مسيحك هي التي ربّتها «على خشتك»، أجل، تأديب ابنك الوحيد في منزل الإيمان، والعضو الطيب في كنيستك.

لم تكن ثني في تربيتها على عنابة أنها بقدر ما كانت ثني على خادم عجوز كانت قد حملت أباها وهو طفل، على عادة البنات الكبيرات قليلا، حين يحملن الأطفال على ظهورهن. ويسبب هذا ويسبب الشيخوخة وعفة سلوكيها، كانت محل احترام كبير جداً من مواليها في البيت المسيحي. لذلك أيضاً أوكلوا إليها تربية بناتهم وكانت تقوم بذلك بكل تقان. وكانت تشدد عليهم، كلما اقتضت الحاجة ذلك، في صرامة مقدسة حازمة، وكانت في تطبيقهن ذات حذر معتدل مليء بالحصافة.

فهي لم تكن تسمح لهم، خارج تلك الساعات التي كان يتناولن فيها غذاءهن الخفيف جداً على مائدة والديهين، أن يشربن حتى الماء، وإن كان ظامنات أثماً ظلماً، وكانت تنبههن لمعنة تلك العادة السيئة، وتضيف قائلة حسب حكمتها: «لا تشربن إلا الماء، لأنكم لا تقدرن على الخمرة، لكن عندما ستذهبن إلى بيوت أزواجكن، وقد أصبحن صاحبات مؤن ومخازن، ستغفنن الماء، لكن عادة الشراب ستغلب». بهذه العقلانية في النصح وهذه الصرامة في الأمر، كانت تحدث من الرغبة في هذا العمر الذي لا يزال هشا وتدرب عطش الصبايا ذاته على الاستقامة والاعتدال، كي لا يرغبن مستقبلاً في ما لا يليق بهن.

18. ولكن قد انتقل إلى نفس مونيكا خادمتك - كما كانت هي تقضي على ذلك، أنا ابتها - ميل إلى الخمرة. فقد كان والدها يأمرها، باعتبارها البنت الرصينة، باعتراف الخمر من البرميل، فتفطرس القدح في فتحته العليا، قبل أن تصبت النيد في الغرافة. كانت تشرب منه قليلاً على طرف شفتيها، لأنها لم تكن قادرة على أكثر من ذلك ولأنَّ

ذوقها يرفضه، وكانت تفعل ذلك لا رغبة في الشوّه بل بفعل نوع ما من الترق الفائض في ذلك العمر الذي يفور بحركات مازحة، فتُقْعِد عادة السيطرة عليه في نفوس الأطفال، بنفوذ الأبوين.

لذلك بإضافة جرعة صغيرة إلى جرعة صغيرة يومياً - إذ «من يحترم الأشياء الصغيرة يتدهور شيئاً فشيئاً» - كانت قد انساقت إلى تلك العادة، حتى أنها كانت تجتمع بشره أقداحاً من الخمرة الصافية تكاد تكون ملأى.

أين كانت آنذاك تلك العجوز الحصيفة، وأين كان ذلك الحظر الصارم؟

من كان يقوى على مقاومة هذا المرض الخفي، يا مولاي، لو لم ترعنا بطبتك؟ في غياب أبيها وأمهها ومربيتها، كنت أنت حاضراً، أنت الذي خلقتنا والذي تnadينا إليك والذي - حتى بواسطة أناس مسخرين - تجلب بعض الخير لنجاية الأرواح.

ماذا فعلت آنذاك، يا إلهي؟ كيف داويتها؟ كيف شفيتها؟ ألم تخرج، من روح شخص آخر، شتيمة صلبة حادة كـالحديد الذي يُتطيب به (*medicinale ferrum = l'acier*) والمستخرج من مدخلاتك السرية، لتجتئ بها ذلك التعفن دفعه واحدة؟ وكانت الخادم التي تعودت مراقبتها إلى البرميل، تشاجرت مع سيدتها الصغرى، كما يقع بين صيَّتين ثُرَّكان لشأنهما، فرمتها بهذه التهمة ووسمتها بالشربية (*meribibulam = biberonne*)، وهي أمرٌ شتيمة. أمّا هي فارتاجت من جراء هذا النعت الجارح، وأدركت فظاعة عادتها واستنكرتها في الحال وتخلصت منها.

يفسدك الأصحاب بتلقيهم، والأعداء كذلك كثيراً ما يصلحونك بشتائمهم. وأنت لا تتجاوزهم على ما أنت فاعل بهم، بل على ما كانت نيتهم تجاهلك. فتلك الخادم ابتغت في حنقها أن تغيط السيدة الصغرى، لا أن تشفيها، ولذلك قالت لها ما قالت سراً، إما لأنهما وُجدتا وحدهما في مكان الخصم وزمانه، أو ربما كي لا تقع إدانتها لأنها تراخت في فضح الجانحة.

(١) الملاحظة ١، ص 244، المرجع نفسه الكتاب التاسع: «هو المثال الوحيد المعروف من الكلمة *meribibula* هذا علاوة على كون هذه الكلمة البنتية (ذات الاستعمال الوحيد) تذكرنا بالكلمة *merobibus, -a, -um*، أي السكير الذي يحب شرب الخمر، وقد استعملها بلاوت *Plaute* في كتابه «كوركيليو» *Curculio* GAFFIOT إلى ذلك من 970، (العمود الثالث). وبذلك هذه الصفة النادرة مستعملة في سياقها الأوغستيني: ... *amarissima insultatione... = uocans meribibulam* ... قذفتها... بذلك الصفة المقيدة، صفة «الشربية»».

أما أنت، يا مولاي، يا مسيرة السماء والأرض، ومبذل مجاري السيول العميقية ومسار الأزمنة التي تخضع تقلباتها لنظام محدد، فقد شفت بجنون روح روحًا أخرى، وبالتمعن في هذا المثال لن ينسب أحد إلى نفسه أن كلماته أصلحت شأن شخص آخر يرغب هو في إصلاح شأنه.

19.IX. إذن تربت في العفة والاعتدال، وبالآخرى تربت خاضعة بك لوالديها أكثر من خضوعها بوالديها لك، ولما أصبحت في تمام سن البلوغ، زوجت لجعل خدمته «كمولاها»، وحاولت أن تستهويه لك، محدثة إياه عنك بخصالها التي كنت تجمّلها بها وتجعلها محبوبة ومحل إعجاب بعلها وتقديره. من ناحية أخرى، تحملت خياناته بصبر جعلها لا تدخل مع زوجها أبدا في أي خصام في خصوصها، إذ كانت ترقب نزول «رأفتك» عليه، حتى تتطهر نفسه بعقيلتك.

أما هو فكان يمتاز بقدر كبير من طيبة القلب، لكنه كان عرضة لسُورات الغضب. وكانت هي تعرف كيف تتحاشى مواجهة غضب بعلها، لا فقط بالفعل، بل وحتى باللفظ. فإذا رأته ثاب إلى رشده وعاد إليه هدوئه، رأت الفرصة سانحة لتعلّل له ما فعلته، إن صادفه أن ينفع أكثر من اللزوم. وباختصار كنت ترى كثيرا من السيدات (matronae = femmes ou dames) اللكرمات أيضا على وجوه مشوهة. كنْ يتهمن، في أحاديثهن مع صواحبهن، سلوك أزواجهن تجاههن. أما أمي فكانت تتهم لسانهن متبعة إياهن، جادة كالمازحة، أنه كان عليهن، منذ أن أنصتن لقراءة عقد زواجهن⁽¹⁾، أن يعتبرنه بمثابة الميثاق الذي أصبحن بمقتضاه خادمات لهم. لذا عليهن أن يتذكرن وضعهن conditionis = leur dominos = leurs condition (d'esclaves) وألا يتكبرن على مواليهن وأسيادهن seigneurs et maîtres = leurs maris. أما الآخريات اللائي كنْ يعرفن أي زوج قاسٍ كانت أمي تتحمله، فكنْ يتعجبن من أنهن لم يسمعن شيئاً قط، ولم تنبههن علامه ما، إلى كون باتريسيوس والدي قد انهال ضربا على زوجته، أو إلى كون والدي قد

(1) في الصفحة 225 من المجلد الثاني من الاعتراضات نجد ما يلى: «يقرأ عقد القرآن بحضور جميع الشهود، ويحضر الأبوين عندما يزور جان بنتهما». ويحيلنا "دي لا بريول" DE LABRIOLLE على اليدين 22 § LI بشأن هذا الشاهد الذي يؤكد فيه أوغستينوس عظمة الزواج الذي يجعل من المرأة الزوج الخاضعة للزوج. والأمر لا يتعلّق بعد بالزواج المسيحي الذي يعتبر ضربا من التقرب sacrament.

تخاصما خاصاما زوجيا في ما بينهما، ولو لمجرد يوم واحد. ولما كنّ يسألنها بلا كلفة عن السبب، كانت هي تخبرهنّ بطريقتها التي ذكرتها أعلاه. فاللائي اتبعنها واحتبرن صحتها شكرنها عليهما، واللائي لم يتبعنها، كنّ دوماً مُهانات مُعذبات.

20. في البداية تحاملت حماتها عليها بسبب تلميحات الخادمات المغرضة. لكنها تغلبت على ذلك بفضل المثابرة على التقدير والصبر والدّماثة حتى أنّ حماتها أخبرت من تلقاء نفسها ابنتها عن صاحبات الألسنة النّقامة اللائي كنّ يعكّرن صفو الحياة في البيت، بالدّس بينها وبين كنّتها، وطلبت منه أن يعاقبهنّ. لذلك أطاعها هو من بعد، وسهر على تركيز الآداب العائلية، وعمل على إحداث الوئام بين أهله، مسلطاً على المجرمات السّيّاط، طبقاً لارادة مخبرته أمّه، ووعد بمثل ذلك الجزاء كلّ خادم تزيد أن تثال استحسان أمّه بأن تقول بحضورها شرّاً في كنّتها بأيّ شكل من الأشكال، وبما أنه لم تتجرأ أيّة واحدة من الخدم من بعد على ذلك، عاشتا معاً، الحمّة والكتّة، في وفاق عذب يستحق الذّكر.

21. لأمّتك الطيبة تلك التي خلقتني في أرحامها، «يا إلهي ورأفي»، كنت قد وهبت أيضاً هذه الموهبة العظيمة، وهي أنها كلّما وجدت نفسها أمام روّحين متخالفتين ومتخاصمتين، تقدمت من أجل المصالحة بينهما: فإذا سمعت عدوّتين تقول كلّ واحدة في الآخر الكثير من مُزّ الاتهامات التي يقولها عادة أهل الشّقاق المتورّم بالشّكاوى، وعندما تحدث بعضهن بالنميمة صديقة لها بشأن عدوّة غائبة^(١) في شكل مُسارات لاذعة، لم تكن أمّي مع ذلك تنقل للواحدة عن الأخرى إلا ما من شأنه أن يصلح ذات البين.

هذا السلوك كان يبدو لي شيئاً حقيقة، لكنني أعلم عن تجربة باشة أنّ أنفواجا لا تحصى من الناس، لا أدرى بفعل أيّة عدوّي فظيعة من الخطايا المنتشرة أيمًا انتشار، لا ينقولون فقط إلى الأعداء الغاضبين الأقوال التي قالها الأعداء في حالة غضب، بل ويضيفون إليها ما لم يقولوه أيضاً، والحال أنه بالعكس يجب على الإنسان «الحق» الجدير بهذا الاسم (*homini humano = un homme vraiment digne de ce nom*) اعتبار تغذية عداوات الناس وتقويتها بالكلام السيء شيئاً تافهاً، هذا إن هو لم يجتهد أيضاً في إخمامها بالكلام الطيب.

هكذا كانت أمّي، وأنت معلمها ومدرّسها الذي سوتّها هكذا في قرار مدرسة صدرها.

22. وانتهى بها الأمر أيضاً إلى أن استمالت إليك من بعد بعلّها في نهاية حياته الدينيّة، وبعد أن أصبح مسيحيّاً لم تتدمر مما كانت قد تحملته منه، عندما كان غير

مسيحي. كانت كذلك «خادمَ خادِمِك»، وكل من كان يعرفها كان يمدحُك فيها ويُجلّك ويحبُك، لأنَّ حضورك في قلبها كان يجعلُه يحس بدلائل ثمار الحياة المقدسة. لقد كانت «قرينة زوج واحد، وسَدَّدت لوالدها دين الجميل الذي عليها، وسيرت شؤون منزلها بتفاني، وقامت بما قامت به من أعمال الخير التي تشهد لها بذلك».

كانت قد رأيت أبناءها بالام الوضع تعودها من جديد كلما رأتهُم يحيدون عنك. وبالنسبة إلينا جميعاً، يا مولانا، بما أنك في نهاية الأمر تسمح لعبادك، بسبب جميلاك، بالتحدث إليك، كانت قبل أن تنام نوم الموت، وكنا نحن قد ارتبطنا بك عائشين بهبة التعميد، تعتنى بنا معاملة إيانا، كما لو كانت قد أتتْجتنا جميعاً، وخدمتنا تماماً كما لو كنا جميعاً منجيهاً.

X. 23. وباقتراب اليوم الذي ستفارق فيه هذه الحياة وهو يوم تعرفه أنت، ونحن نجهله كان قد حدث تباعاً، حسب ما أعتقد، ويتذير من طرقك الخفية، أن تكون أنا وهي وحدنا، واقفين متكتفين إلى نافذة كانت منها ترى الحديقة، في المنزل الذي كنا نسكنه بالقرب من بلدة أستيا (*apud Ostie* = à Ostie) على نهر التiber Tiberina (= sur le Tibre). كنا هناك نستريح من أتعاب السفر الطويل ونتهيأ للإبحار. كنا إذن نتحادث وحدنا بفاتق العذوبة⁽¹⁾ ونبحث معاً «ناسين الماضي وتألقين إلى المستقبل» عن ضوء الحقيقة التي تمثلها، وعما ستكلون حياة القديسين الأبدية التي «لم ترها عين، ولم تسمع عنها أذن، ولا خطرت ببال إنسان». لكننا كنا نفتح شفتي قلبينا إلى السيل العالى «للبعك، نبع الحياة التي هي فيك» كي نرشّ أنفسنا بما تأخذنا منها ونكون لأنفسنا، بأية صورة كانت، فكرة عن قضية رفيعة من هذا القبيل.

24. وانتهى بنا الحديث إلى استخلاص أنَّ لذة الحواس الجسدية، مهما كانت قوتها، ومهما كانت قوة نور جسديتها، تبدو غير جديرة بالمقارنة، ولا حتى مجرد الإشارة إليها، مقارنة بعدوية تلك الحياة. وفي ارتفاعنا بشغف حاز إلى «الكيان الحقيقي بالذات»، مررنا تدريجياً بمجموع الأشياء المادية، وبالسماء ذاتها التي تنير من عليانها

(1) ... *dal dulciter* = «باتفاق العذوبة». المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 228 الملاحظة 1: «ساهمت اللوحة الشهيرة التي رسمها "أري شيفر" Ary Scheffer والتي عرضت للمرة الأولى بمتحف اللوفر سنة 1846 في شهرة هذا المشهد. على أن "شيفر" أهل جزئية دقيقة لاحظها أوغستينوس (*incumbentes ad quandam fenestram*) = «مطلين من نافذة ما»، انظر أعلى، ص 227، وهو شرح موقف قدمه "L. فيتيت" L. VITET في مجلة *la Revue des Deux Mondes* بتاريخ 1er octobre 1858 des

الشمس والقمر والنجوم الأرض. وما زلنا مصعدين ونحن نفكّر في قراره فهو سنا في آثارك، متهددين عنها ومعجبين بها، حتى بلغنا رحينا، وتجاوز زناه لنصل إلى إقليم الخصوبة اللامحدود الذي ترعى فيه إسرائيل إلى الأبد مراعي الحق، حيث الحياة هي الحكمة التي بها يكون كل ما هو كائن وما كان وما سيكون، دون أن تكون هي فعلت، لأنها كانت تماماً كما كانت، وسوف تكون هكذا دوماً، أو قل ليس فيها ما كان وما سيكون، بل فيها كيان فقط، لأن ما كان وما سيكون ليساً أزليين. وبينما كنا نتحدث عن هذه الحكمة ونستوّق إليها، بلغناها في برهة من الوقت، باندفاع شامل من قلبينا. ثم تنفسنا الصعداء، وتركتنا هناك «طلاع الروح» مقيدة، ونزلنا إلى حيف شفاهنا الفارغ، حيث تبدأ الكلمة وتنتهي؛ كلمة لا تشبه كلمتك التي هي أنت مولانا الدائم في ذاتك، أنت الذي لا تشين، والمجدّد لكل شيء^١!

25. كنا إذن نقول: «لو سكتت في بعضهم ضوابط الجسم، لو سكتت صور الأرض والمياه والهواء، لو سكتت أيضاً السماوات، ولو سكتت الروح نفسها كذلك، ولو تجاوزت نفسها غير مفكرة في ذاتها، لو سكتت الأحلام والرؤى الخيالية وسكت كل لسان وكل علامة، وكل ما يوجد ليضمحل، لو سكت في بعضهم كل شيء» (فمن سيسمع هذا الكلّ وهو يقول له: «لسنا نحن خالقين أنفسنا، بل خلقنا من يدوم إلى الأبد»؛ وصمت كل شيء بعد أن قال هذا الكلام، لأنه وجه سمعه نحو الذي خلقه). ولو تكلم الذي يتكلم وحده، لا على لسان جميع الأشياء، بل على لسانه الخاص، لسمعنا كلماته لا بكلام الجسم ولا بصوت الملائكة ولا بقفص الغيم ولا بلغز الرموز، بل بصوته هو الذي نحبه في جميع الأشياء والذي نسمعه دون وساطتها. وكذلك لو تمادي هذا ونحوه في الآن ذلك، وقد وصلنا في لمح برق التفكير إلى الحكمة الأزلية الدائمة فوق الكل، ولو امتحن تحته الرؤى الأخرى المختلفة اختلافاً تاماً، فلتتصدِّي الناظر تلك الكلمة الحكيمية وحدها، ولتمتصَّه، ولتنتفخ في اللذات الداخلية، بحيث تكون الحياة الأبدية التي تَشَدَّدناها، شبيهة بذلك الحدس العابر؛ ألم يكن الأمر كما قيل: «ادخل في غبطة مولاك»؟ ومتى يكون ذلك؟ «ألا يكون يوم تُبعث جميعاً ولا تكون قد تغيرنا جميعاً؟»^(٢).

(1) ليس من المستبعد أن تجد هنا آثراً خفياً عن PLOTIN (بلتون)، *Ennéades V, I, 1, 2, 3* (ترجمة BOUILLET, III, p. 5): «كيف تنشر الحياة في الآن نفسه في الكون وفي كل فرد؟ لفهم هذا الأمر يجب أن تتأمل الروح الكونية. إلا أنه لكي ترقى الروح إلى هذا المستوى من التأمل يجب أن تكون جديرة بذلك وأن تكون قد تخلصت من الخطية وأن تخفي وجهها عن الأشياء =

26. كنت أقول مثل هذا الكلام، وإن لم يكن على هذا النمط وبهذه الألفاظ، ومع ذلك، مولاي، أنت تعلم أنه في ذلك اليوم، الذي كنا نتحدث فيه على هذه الصورة، والذي كان فيه عالمنا هذا يشحب مع كل لذاته، في سياق كلامنا، قالت هي آنذاك: «يا بني، لم أعد فيما يخصني أتذَّ بشيءٍ من هذه الحياة، ماذا سأفعل مستقبلاً في هذه الدنيا؟ ولماذا أوجد في هذه الدنيا؟ لا أعلم. كلُّ أملِي في هذه الدنيا قد نفد. والشيءُ الوحيد الذي يشدني إلى هذه الحياة هو أن أراكَ مسيحيًا كاثوليكيًا قبل أن أموت. إلهي أعطاني هذه الغبطة بزيارة، بما أني أراك في خدمته لا تتوانى حتى عن احتقار الملذات الدنيوية. ترى ماذا أفعل إذن هنا؟»

27.XI. لا أتذكر جيداً بم أجبتها عن هذه الكلمات. ومهما يكن، فبعد خمسة أيام تقريباً، أو ليس أكثر بكثير، لزمت الفراش بالحمى. وأثناء مرضها كان يتقدَّم أن تفقد الوعي، وأن تبقى بعض الوقت في غيبوبة عن الحاضرين، أما نحن فأسرعنا إليها، لكنها استعادت بسرعة وعيها، ولمحتنا، أنا وأخي، واقفين بالقرب منها، فقالت لنا، وكانتها تبحث عن شيء: «أين كنتُ؟» ثم أضافت، ناظرة إلينا، ونحن مذهولان في كربتنا: «ستدنfan هنا أتمكما». كنت أنا ساكناً أكبُّع جماح دموي. أما أخي فقال كلمات يفهم منها أنه كان يتنبغي ألا تموت في بلاد الغربة بل داخل الوطن. ما إن سمعته حتى أدارت نحوه عينين في وجه ملؤه العيرة واللوم، لكونه فكر في مثل هذا، ثم قالت لي محدقة في: «انظر ماذا يقول». ثم قالت لنا بعد ذلك: «ادفنا هذا الجسد حيثما شاءان: لا تهتموا ولا تضطرباً، أطلب منكم شيئاً واحداً، أن تذكرياني أمام مذبح المولى (*ad domini*) (altare = devant l'autel du Seigneur) حيثما كنتما». وبعد أن تلفظت بوضوح بهذه الجملة، سكتت، لقد كان الداء فيها يتفاقم ويشتَّد.

28. أما أنا، يا لإلهي الخفي، فقد كنت أفكُّر في هباتك التي تزرعها في قلوب الذين آمنوا بك والتي يأتي منها حصاد رائع. كنت مغتبطاً وكنت أحمدك، ذاكراً ما كنت أعلمه من شدة اهتمامها الذي كانت دوماً تضطرم به في خصوص لحدها، وكانت قدراته وقد هيأت موقعه مسبقاً بجانب قبر بعلها، لأنهما عاشا في وثام تام. كانت تريد كذلك كما

التي تستدَّ إليها ذوي الأرواح السوقة، وأن تغمس في ابتهالات عميقة، وأن تسكَّت من حولها لا اضطراب الجسم الذي يلفها وتشويش الأحاسيس، بل وجميع ما يحيط بها. فليسكنْ كلَّ شيء ولتصمت الأرض والبحر والهواء وحتى السماء...» المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 229 و 230
الملاحظة 1.

هي حال النفس البشرية في كونها أقل إلاما بالإلهيات⁽¹⁾—أن يضاف إلى تلك السعادة سعادة أخرى وأن يقول الناس إنه سمع لها بعد السفر إلى ما وراء البحار أن تجمع رفاتها إلى رفات بعلها، تحت لحد واحد.

أما متى بدأ هذا الغرور يفارق قلبها بفضل طبيتك الكاملة، فلم أكن أعرف ذلك، لكنني كنت مغتبطاً متعجباً لأنني قد تبنت بذلك، والحال أنها، في تلك المحادثة بالقرب من النافذة عندما قالت: «ماذا أنا فاعلة هنا مستقبلا؟» لم تبدُ راغبة في الموت في أرض الوطن. وعلمت أيضاً من بعد، أنها عندما كانت ببلدة أشتينا، كانت ذات يوم تتحدث مع بعض أصدقائي بطمأنينة وفي ثقة الأم، عن احتقارها لهذه الحياة وعن فوائد الموت، ولم أكن أنا حاضراً معها، وكانتا مبهوريين بالفصيلة التي كنت قد وهبتهما أنت لتلك المرأة فسألوها إن كانت تخشى أن تترك جسدها في ذلك المكان البعيد للغاية عن مديتها، فقالت لهم: «لا شيء بعيد عن الإله، ولا يُخشى عليه ألا يعرف في آخر الحياة الدنيا المكان الذي سوف يعيشني منه».

وختاماً، في اليوم التاسع من مرضها، تخلصت تلك الروح المقدسة التفية من جسدها، عن سن السادسة والخمسين، في حين أني كنت في الثالثة والثلاثين من عمري.

29.XII. أغلقت عينيها، وكان الحزن العارم ينصب في قلبي، ويتحول إلى دموع، وفي الآن نفسه كانت عيناي بأمر قاهر من إرادتي، تُفلّص نبعها إلى حد الجفاف، وفي مثل هذا الجهد، كنت أشعر بالظمير الكبير جداً، أما عندما لفظت أنفاسها الأخيرة، فإن أبني أديوداتوس (Adéodatus) أجهش بالبكاء، لكن الجميع نهروه فسكت. بهذه الكيفية أيضاً وبصوت الصبي، صوت القلب، مُفع في وسكن ما كان يسيل من عبرات صبيانية، إذ كنا نعتقد أنه لا يليق أن نحتفل في ذلك المأتم بالتأوهات والدموع والتحسرات، لأنه، في أغلب الأحيان، من العادة أن نرثي بها هكذا تعasse الموتى، أو قل انقراظهم الشام. غير أنّ أني ما كانت لتموت تمسة، ولا كانت لتموت تماماً. كنا واثقين من ذلك بطبعها و«بعقبية صادقة»، ولأسباب ثابتة⁽²⁾.

(1)...minus capax diuinorum... = «...أقل إلاما بالإلهيات!» المرجع نفسه الكتاب التاسع، من 231 الملاحظة 1: «هذا المشغل الذي اختلطت فيه ذرة من حب الذات بتقوى الذكرى (الإيراز من المترجم) يبدو إذن لأوغستينوس ضرباً من الضعف. وستقف في موضع لاحق (ص 235) على معلم له نفس القيمة، أو نفس التجدد».

(2)...rationibusque certis ... = "... ولأسباب ثابتة...". المرجع نفسه الكتاب التاسع، من 232

30. إذن ما السبب الذي من أجله كنت أتألم كثيراً في أحشائي، إن لم يكن الانفصام الفججي لعادة العيش معاً، تلك العادة الحلوة جداً والعزيزة على نفسي كثيراً، وهو جرح حديث؟ كنت مع ذلك مبتهاجاً بشهادتها في، عندما كانت في آخر أيام مرضها تربت علىي وأنا أخدمها بوقار وتناديني «بابنها الحبيب»، وكانت تذكرني، بحنان فياض لا مثيل له، أنها لم تسمعني قط أتفوه بكلمة عنيفة أو شائنة⁽¹⁾.

لكن مع ذلك، يا إلهي الذي خلقتنا، كيف لي أنأشبه الاحترام الذي كنت أكتنه لها بالعبودية التي كانت فيها تجاهي؟ لذلك، عندما حرمت من سلوانها الأكبر، أصبحت روحي جريحة، وصارت حياتي كالمزقة، بعد أن كانت تمثل مع حياتها وحدها لا تنفس.

31. إذن، بعد أن أوقفنا عن البكاء ذلك الولد⁽²⁾، أخذ إيووديوس (Evodius) كتاب الزبور (psalterium = le Psautier)، وطبق ينشد زبورا (psalmm = un psaume). فأجابته الدار جميراً بمن فيها: «الشفقة والعدالة سوف تُنشدُهُمَا إِلَيْكَ، يا مؤلأَيَّ». ولسماع ما كان يجري من جهة أخرى، تجمع حولنا الكثير من الإخوان ومن النساء التقييات، وفيهم من كان، حسب العادة، موكلاً إليه الإشراف على المأتم، أما أنا فمكثت في الجهة التي كان يليق بي أن أستطيع ذلك، مع أولئك الذين كانوا يرون أنه عليهم آلا يتركوني وحدي، حيث كنت أحاديثهم بما كان يناسب الظرف، وبهذا البلسم من الحق، كنت أهون العذاب المعروف لديك، في حين كانوا يجهلونه، مستمعين إلى بانتباه، ولكن ظلتني أني غير شاعر بالألم. أما أنا فقد كنت بالقرب من أذنيك، حيث لا أحد منهم كان يسمع، أو يتخ ضعف مشاعري، وأكبح جماح حزني، فيذعن لي بعض الإذعان: إلا أنه كان ينطلق من بعد بفعل اندفاعه، لا إلى حد تدفق الدموع، ولا إلى حد تغير المحيا، غير أني كنت أنا أعرف ما كنت أكتمه في قلبي، وحيث أنه كان لا يرافق لي البتة أن تتمكن مني إلى هذا الحد هذه الأعراض الإنسانية التي تحدث بالضرورة،

= الملاحظة 1: قارن بين قول القديس بولس في كتابه "رسالة إلى أهل تيسالونيا" "Thessaloniciens" IV, 13 : "لا تزيد، يا إخوانى أن تجهلوا أمر الذين دخلوا في السبات، حتى لا تحزنوا كما حزن الرجال الآخرون الذين لم يكن لهم أمل..."⁽¹⁾

(1) ...durum aut contumeliosum = (كلام) عنيف أو شائن: «وهذا القول يتفق اتفاقاً تاماً مع ما حكاه أوغستينوس، أعلاه، بشأن موقف آلة تجاهه. الجزء الأول، ص 61 الملاحظة 2.

(2) أي الابن أديوداتوس (Adéodatus).

حسب نظام إجباري وقدّر مصيرنا. كنت أتألم من كون ألمي ناشئاً عن ألم ثان، وكانت مضني بحزن مزدوج.

32. ثم بعد أن أخرجت الجثة للدفن، ها نحن نذهب ثم نعود بدون دموع، فحتى في تلك الدعاءات التي أغربنا عنها لك، بينما كانت تهدى لها أضحية خلاصنا، وقد وُضعت بعد جثتها بالقرب من قبرها، قبل أن توارى فيه التراب، كما يقع عادة هناك، ولا حتى في تلك الدعاءات يكفي، بل كنت، طيلة اليوم كله، حزينًا حزنًا شديداً حفيفاً، وكانت أتوسل إليك، مضطرب الفكر، وبكل ما أوتيت من قوة، أن تشفي ألمي. ولم تستجب لدعائي، لا بد أن ذلك كان من أجل أن تنقض في ذاكرتي، ولو بواسطة هذا البرهان الوحيد، مدى قوة قيد العادة حتى لدى النفس التي تتغذى بعد من الكلمة التي لا تعرف الضلال. خطر لي أيضاً أن أذهب إلى الحمامات، لأنني كنت قد سمعتهم يقولون إن هذا الاسم سميت به الحمامات (*balneis = aux bains*)، لأن اليونان قالوا βαλανεῖον (بالإغريق)^(١)، أي إن الحمام هو ما يطرد عن الروح الحصر النفسي (anxietatem = l'angoisse)، وهو آنذا أتعرف لشفقتك، يا إله «الأيتام» أنتي استحممت، وبقيت تماماً كما كنت قبل أن أستحم. إذ لم ترق لقلبي مرارة حزني. ثم نمت، وأفقت، ووجدت ألمي قد خفت بصورة غير ضئيلة، كنت وحدي في الغرفة، فتذكرت أبياتاً صادقة لأمبروزيوس عبده^(٢) (*Ambrosii tui = votre Ambroise*):

نعم أنت هو
«الإله، خالق الكلّ
ومُسِير السماء»،
ملبس النهار بالنور الساطع،
والليل بنغمة النوم،
حتى تعيد الراحةَ

(١) تكتب بالحروف اللاتينية على النحو التالي : .BALANEION

(٢) لendum ذكر الملاحظة عدد 1 من الجزء الثاني ص 234: «... كان القدامى يعزّزهم المنهج في البحوث الإيمولوجية، فكانوا يرجون بالأمور التقريبية...».

(٣) «أناشيد تسمى بالأناشيد الأمبروازية (نسبة إلى «أمبرواز»)، أربعة منها يرى النقاد أنها صحيحة النسبة... وثمانية أخرى مشكوك في نسبتها. ولدينا عن الأربعية الأولى شهادة أوغستينوس الصريحة التي تعدّ شهادة حاسمة...» المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 234 الملاحظة 2.

الأَغْصَاءُ الْمَنْهُوَةُ إِلَى الْعَمَلِ الْعَادِيِّ،
وَتَخَفَّفُ الْقُلُوبُ التَّعِيَّةُ
وَتَمُحُّوُ الْهُمُومُ الْحَاضِرَةُ فِي النَّفْسِ.

33. بعد ذلك، وشينا فشيئا، كنت أرجع إلى الشعور السابق بشأن خادمتك وعلاقتها التقية بك، والمقدسة في طيبتها ولطفها بنا التي حرمت منها فجأة. وراق لي «في حضورك» أن أبكيها وأبكي لها، وأن أبكي نفسي وأبكي لها. وذرفت الدموع التي كنت جبستها، لتسيل ما شاء لها أن تسيل، والقلب مني قد توسلها ولقي فيها الراحة، لأن هنا كانت أذناك تسمعها، ولا أحد كان يقول بكافئي. والآن، يا مولاي، أفر لك بكل هذا في هذا الكتاب. فليقرأه من يريد، وليتأنزله كما يريد. وإن اعتبر خطيئة، كوني بكثي أمي مدة قصيرة، أمي التي ماتت بسرعة على مرأى مني، والتي بكثني سنتين طويلة، كي تراني أعيش في رعايتك⁽¹⁾، فلا يسخر مني، بل بالعكس إن كان ذا إحسان (= caritate) كبير، فليريك هو لخطاياي أمامك، أنت أب كل إخوان مسيحك.

34.XIII. أما أنا، وبعد أن شفي قلبي من ذلك الجرح الذي كان من الممكن أن يشهر فيه بشدة تعلقه بالعاطفة الجسدية، أذرف الآن أمامك، يا إلهنا، لخادمتك تلك نوعا مختلفاً جدًا من الدموع، يفيض من فكر مزعزع بالتأمل في أخطار كل روح «تموت في أدم». فهي، وإن أحivist أيضًا في المسيح، قبل أن تخلص من الجسد، قد عاشت عيشة يُحمد بها اسمك، عقيدة وخلاصا، ومع ذلك لا أجرؤ أن أقول إنها، بعد أن جدّتها بالتعميد، لم تتلفظ بأية كلمة مخالفة لقانونك. وقد قال الحق الذي هو ابنك: «إذا قال أحدكم لأخيه «أنت مجنون»، فليعاقب بنار جهنم»؛ تبا كذلك لحياة البشر المرموقة، إن تفحصتها وصرفت عنها شفقتك! ونظرا إلى كونك لا تحصي ذنوبنا بصرامة، فإننا نرجو واثقين فيك مكانا بالقرب منك. أما من يعدد أمامك مزاياه الخاصة، فهو لا يعدد في الحقيقة إلا هباتك؟ آه لو عرف الناس أنفسهم كأناس! «ومن يتباكي فليتباهي في المولى!».

(1) ut oculis tuis inuerem ... كي أعيش في رعايتك،... المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 235 الملاحظة 1: انظر أعلىه ص 231. والأمر يتعلق باللحظات الأخيرة من حياة مونيكا، المشغولة بالخصوص بشأن قبرها والرغبة على حد تعبير "بار ديه لا بريول" Pierre DE LA BRIOLE في ترجمته الرائعة في أن يختلط غبار (رفاتها) بغار رفات زوجها تحت أرض واحدة.

35. لهذا، «يا عزتي وحياتي، يا إله قلبي»، بعد أن أعرضت للأدي عن أفعالها الحسنة التي من أجلها أدخلتك بفرح، ها أنذا الآن أدعوك من أجل ذنوب أمي: «أضخْ» إلى بجاه طبيب جرو حنا المسيح الذي عُلق على الخشب⁽¹⁾«والذي هو جالس «على يمناك»، «متشفعاً» لنا لديك. أعلم أنّ أفعالها اتسمت بالشفقة، وأنها أبرأت من قلبها مدينيها من ديونهم: أبرئها أنت أيضاً من ديونها، إن استدانت بعض الدين أيضاً، طيلة كل هذه السنين، بعد ما النجاة بالتعميد. أبرئها، مولاي، أبرئها، أتوسل إليك، «كي لا تُدخلها في محاكمة». «ولتتصر الشفقة على العدالة»، بما أنّ أقوالك صادقة، وبما أنك وعدت بالشفقة المشفقين، إذ إن كانوا كذلك، فأنت أعطيتهم إياها، أنت الذي «تشفق على من أردت أن تُشفق عليه والذي تُمد بالشفقة من كنت مشفقاً عليه».

36. ستكون، أظن، قد فعلت بعد ما أنا طالب، لكن «تقبل عطيته إرادية من فمي، يا مولاي». فهي لم تفكّر، عندما اقترب يوم تواريها، في أن تدفن في جنازة فاخرة، أو في أن تحنط بالعطور، ولم ترغب في ضريح ممتاز، ولم تشغل بقبر في أرض الوطن: لم توصنا بهذه الرغبات، بل ابفت فقط أن نذكرها عند مذبحك (*à ad altare tuum = votre autel*) الذي كانت تخدمه دون أن تتوقف عن خدمته يوماً واحداً والذى كانت تعلم أن به يتنصب القربان المقدس الذي محيت به «الوثيقة التي كانت ضدنا»، والتي انتصرنا بها على العدو الذي يُعد زلاتنا، وبحثت عما يرمينا به، فلا يوجد شيئاً عند من نحن به متصررون. من سيريق له الدم البري؟ من سيعيد إليه الثمن الذي اشتراهنا به، كي يتزعننا من ذلك العدو؟ لست افتداك ربطت خادمتك روحها بقييد العقيدة. فلا يفصلها أحد عن حمايتك، ولا يتوسط بينكمما أسد ولا تنين، لا بالقرفة ولا بالأحجلة: فهي لن تجيب أنها غير مدينة، مخافة أن تُفهم، وأن تسلم لمتهم ماهر، بل ستجيب أنّ ديونها أبرئت، وأنّ من أبرأها لا أحد سيريد إلى ما أبرأه لنا، دون استدانة.

37. لتنتم إذن بسلام مع بعلها، هي التي لم تتزوج قبله ولا بعده أيّ رجل، بل خدمته «بالصبر»، مقدمة لك «ابنها» كي يفوز بك هو أيضاً. وألهم، يا مولاي وإلهي، ألمهم خدامك وأخوانك وأبناءك وأسيادي الذين أخدمهم بالقلب والصوت والكتب، يوم

(1) *quae pependit in ligno...* = ... الذي عُلق على خشب الصليب... المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 236 الملاحظة: «بيان معنى المسيح الطبيب انظر مقال «مونسو» MONCEAUX الذي أشرنا إليه ص 215». ونجد في هذا المقال هذه المعلومة البليغة لـ «مونسو» في أعمال مجمع التقوش والأداب الجميلة، *l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres*، 1920، ص 75 - 83.

سيقرؤون هذه الأسطر، أن يتذكّروا عند مذبحك مونيكا⁽¹⁾ خادمتك، مع بارتيسيوس، زوجها سابقًا، اللذين أدخلتني بلخيمهما هذه الحياة، لا أدرى كيف. ليتذكّروا، بعاطفة التقوى، والدّي في هذه الحياة الفانية، وإخواني في القدس الخالدة (Hierusalem)⁽²⁾ التي يتوق إليها في الحج شبك من الذهاب إلى الإياب، حتى يكون ما طلبه مني، في النهاية، يتحقق لها بصورة أوفّر في هذه الدعوات الكثيرة منه في أدعّي الخاصة، وذلك بفضل هذه الاعترافات per confessiones = grâce à ces confessions.

(1) يتضمن اسم أم أوغستينوس في اللاتينية حرفاً خيشومياً مضاعفاً Monnicae وأصبح حرفاً غير مضاعف في اللغات الرّومنية (الفرنسية والإيطالية وغيرهما).

(2) هي الصورة القديمة لكتابه اسم المدينة Jérusalem (مدينة القدس)، أما اللفظة Hierusalem هي فالصورة اليونانية القديمة hiéros التي تعني « المقدس و ذو أصل إلهي». أمّا في اليونانية المسيحيّة تعني العبارة To hiéron كلّ شيء مقدس أو متقدّس مثل المعبد اليهودي في الترجمة السبعينية للإنجيل، la Bible des Septante, 1 Par, 29, 4, ou Macc. 10, 43 معجم «هاشات» Hachette اليوناني اللاتيني لـ «بالي». أمّا Ta Hiérosolyma فهي صيغة اسم المدينة التي تمثل مهد البيانات الثلاث المورخة كما تُوّجد في الترجمة السبعينية Tob., 1,4 .(Agrippa d'Aubigné) وكان الناس لا يزدرون يقولون Hiérosolyme في القرن السادس عشر.

الكتاب العاشر

1.I. «سأغرُّكَ»، يا من تعرفي، «سأعرفك كما تعرفي أنت نفسك». يا فضيلة روحي، أدخلُها وصورها، حتى تحملها وتمتلكها «دون شامة ولا بعنة». ذلك هو أ مليٍ، لذلك أنطق، وفي ذلك الأمل أغبط عندما أغبط غبطة سليمة. أما بقية خيرات هذه الحياة فهي خلقة أن نبكيها أقل، كلما بكيناها أكثر، وخلقة أن نبكيها أكثر، كلما بكيناها أقل، لكنك أنت «أحببت الحق»، بما أن «الذى ينجز الحق يأتي إلى النور». أريد أن أتجزه في قلبي، أمامك، في الاعتراف ومن ناحية أخرى في نص ما أكتبه، أمام الكثير من الشهدود.

2.II. يا مولاي، وما الذي يمكن أن يخفى عليك أنت الذي ترى بالعين المجردة أعماق ضمير الإنسان، وإن رفضت أن أتعرف لك به؟ فأنت الذي أحيفك عن نفسِي، دون أن أستطيع أن أخفِّي نفسي عنك، أمّا الآن، وحسرتي شاهد على غمّي من نفسِي، فأنت ضيائي ومسرّتي، وأنت حبي ومرادي، حتى آني أخجل من نفسِي، وأعرض عنها وأختارك، ولن أسرّ بنفسي أو بك، إلّا بوساطتك.

أنت تعرفي تمام المعرفة إذن، يا مولاي، مهما كنتُ. وأنت تعرف الغرض من اعترافاتي، فقد قلت لك ذلك. أفعل ذلك، لا باللفاظ الجسم وأصواته، بل باللفاظ الروح وهتاف الفكر الذي تعرفه بذلك. عندما أكون شيئاً، لا أقر لك إلّا بكوني مستاء من نفسِي؛ أمّا إذا كنت تقينا، فلا أقر لك إلّا بكوني لا أنسبه إلى نفسِي، «بما أنت»، يا مولاي، «تبارك العادل»، لكن ليس قبل «أن ثبته مذنبًا». إذن فاعترافي هذا، يا إلهي، يكون «أمامك» بالصمت وبدون الصمت. فهو صمت بالنسبة إلى صوتي، لكنه هتاف العاطفة. إذ لا أقول للناس شيئاً صاباً لم تكن سمعته أنت متى من قبل، أو لا تسمع مني كذلك شيئاً مثله، لم تكن قد قلته لي من قبل.

III.3. ما لي إذن مع الناس، وما الحاجة أن يسمعوا اعترافاتي، كما لو كانوا سيداؤون «جميع أسلوبي»؟ يا لهم من جنس فضولي في معرفة حياة الآخرين لكنه كسول في تقويم حياته! لماذا يريدون أن يسمعوا مني ما أنا، هم الذين يرفضون أن يسمعوا منك ما هم؟ وكيف يعرفون، عندما يسمعونني أتكلم بتفصي عن نفسي ذاتها، هل أقول حقاً، إذ لا أحد من الناس يعلم «ما يدور في الإنسان، خلا نفس الإنسان التي توجد فيه»؟ لكن لو سمعوا قولك عن أنفسهم ذاتها، لما استطاعوا أن يقولوا: «المولى يكذب». فما معنى أن يسمعوك تتكلّم عنهم، سوى أن يعرفوا أنفسهم؟ زد على ذلك، هل من أحد يعرف نفسه ويقول: «هذا خاطئ» دون أن يكذب هو؟ لكن بما أن «الرحمة» تؤمن «بالكلّ»، على الأقلّ بين الذين يجعلهم ملتحمين بعضهم بعض في صلبها، فأنا كذلك، مولاي، أُعترف لك بنفس الكيفية، حتى يسمعني الناس»⁽¹⁾، وإن كنت لا أقدر أن أبرهن على كوني أُعترف بالحق؛ إلا أنَّ الذين تفتح الرحمة آذانهم يؤمنون بقولي.

4. أمّا أنت، مع ذلك، يا طبيب روحي، فأوضح لي الفائدة التي من أجلها أفعل هذه الأشياء. فاعترافاتي بخطاياي السالفة التي غفرتها ويرأتنى منها، كي تجعلني مرتبطاً في قرارك، مغتراً روحي بعقيدتك وسرّك، عندما تقرأ أو تسمع، تحبي القلب، مخافة أن ينام في اليأس فيقول: «لا أستطيع»، بل وتجعله يستيقظ لحب رأفك وعذوبة نعمتك التي يكون كلّ ضعيف بها قويًا ويصبح واعياً بضعفه بها. ويلذ للأخيار أن يسمعوا خطاياهم السالفة التي لم يعودوا يشتكون منها، ولا يلذ لهم كونها خطايا، بل كونها كانت ولم تعد كذلك.

إذن لأية فائدة، يا مولاي، أنت الذي يعترف لك يومياً ضميري، متأنكاً من شفقتك أكثر من تأكده من براءتي، لأية فائدة، أرجوك، أُعترف كذلك للناس أمامك في هذا الكتاب لا بما كنت بل بما أنا الآن؟ إذ الفائدة من الأولى رأيتها، وذكرت بها. أما ما أكون الآن بالذات في نفس الوقت الذي أذكر اعترافاتي، فالكثيرون يرغبون في أن يعرفوه، منهم من يعرفونني، ومنهم من لا يعرفونني، ومنهم من سمعوني أو أنهم سمعوا الناس يحدثون عني، غير أنَّ آذانهم ليست على صدرِي عند قلبي، حيث أكون على حقيقة

(1) ...ut audiant homines... = «ليسمعه جميع الناس». المرجع نفسه الكتاب العاشر، ص 241
الملاحظة 1: «بداية الكتاب العاشر هذا مفيدة لمن يريد أن يحدّد معنى العبارة "اعترافات" الذي لا يخلو من التشتبّب».

ذاتي، مهما كنت. يريدون إذن أن يسمعوني أعترف بما أكون حقاً في قراري، حيث لا تستطيع أن تصل أعينهم ولا آذانهم ولا عقولهم؛ يريدون أن يسمعوني وهم أقرب ما يكونون إلى تصديقي، فكيف يُثُوّنَ أن يعرفوني؟ هو الإحسان الذي يكونون به طيبين، يقول لهم في قرارتهم إني لا أكذب في ما أعترف به، فذلك الإحسان عينه الموجود فيهم هو الذي يصدق بي.

5.IV. ولكن لأية فائدة يريدونه؟ هل يرغبون في أن يشاركوني شكري لك عندما سيعلمون كم أن هبّتك والدعاء لي يقرباني منك، عندما سيعلمون كم أنا مسلول بشقلي. لمثل هؤلاء سأكشف عن سريرتي، فليس بالفائدة القليلة، يا مولاي وإلهي، «أن يتقدم إليك الكثرون بالشكراط في خصوصنا»، وأن يتوصل إليك الكثرون لفائدةنا.

وليحيط قلب إخواني في، ما تحب أن يحب، وليتآلم مما تُحبت أن يتألم منه في! ليفعل هذا قلب أخ حقيقي، لا قلب أجنبي، ولا قلب «أبناء ليسوا من جنسى»، لسانهم لا يقول إلا علينا، ويُمناهم بِمَنْيَ جور»، ذلك القلب الأخوى يفرح لي إذا استحسنتني، أما إذا شجبني فإنه يحزن من أجلى، لأنه يحبني، سواء استحسنتني، أو شجبني. لمثل هؤلاء سأوضح سريرتي: ليتفسوا الصعداء للخير في، ولি�تحسروا على الشر في. الخير في أنت رَكْزَنَه وأنت أعطيني، أما الشر فهو جنابي ومرکز عدلك. فليتفسوا الصعداء للأول، ولি�تحسروا على الثاني، ولি�تصاعد النشيد والنحيب بمرأى منك من القلوب الأخوية «التي يحرق فيها بخورك» (*turibulis tuis = vos encensoirs*).

أما أنت، يا مولاي المستشي برائحة هيكلك المقدس (*sancti templi tui = de votre saint Temple*)، فأشفق علي طبق شفقتك الكبيرة» بسبب اسمك، وبما أنك لا تهجر أبداً مشاريعك، وأكمل الناقص في.

6. تلك هي فائدة اعتراضي، لا كيف كنت، بل كيف أنا الآن^(١)، أريد أن أقدمها، لا فقط بين يديك في تهليل سريري مشوب بالرعشة وحزن سريري مشوب بالأمل، بل في آذان بني الإنسان المؤمنين الذين يشاركونني فرحتي وفناء مصيري، أبناء وطني المسافرين معي في الحياة الدنيا، السابقين لي واللاحقين بي، ورفاق طريقي. إنهم خدامك إخواني الذين أردتهم أبناء لك وأسياداً لي والذين أردتني أن أخدمهم، إن أنا

(1)... بل كيف أنا الآن. المرجع نفسه، ص 243 الملاحظة 1: «يذكر بكل وضوح أن قصة ماضيه قد تمت وختمت. والأمر يتعلق بأوغستينوس في سنة 398 الذي سيعاول أن يكشف عن ميلوه ويدقق أمر معتقداته...»

أردت أن أعيش منك معك. وهذه الكلمة ستكون غير كافية، لو أنها أمرتني فقط بالقول ولم تسبقني بالفعل أيضاً في طرفي.

ها أنا إذن أخدمهم بالقول وبالفعل، أفعله «تحت جناحيك»، لأن الخطر سيكون كبيراً جداً، ولو لم تزور روحي تحت لواء جناحيك، ولو لم تكن تعرف ضعفي. لست إلا طفلًا صغيراً، لكن أبي حتى دائمًا، وهو أهل لأن يكون وصيًا عليّ، فهو عينه الذي أوجدني بالذات والذي يُشرف علىّ. أنت بحق كلّ خيري، أنت القدير الذي توجد معي، قبل أن أكون معك. سأوضح إذن لمثل هؤلاء الذين تأمرني أن أخدمهم، لا كيف كنتُ بل كيف أصبحتُ بعدُ، وكيف أكون الآن، إلا «أني لا أحكم على نفسي ذاتها».

فليسمعوا اعترافاتي إذن حسب هذا!

7.7. فأنت، يا مولاي، تحاسبني. «لا أحد من الناس يعلم، ما يدور في الإنسان عدا روح الإنسان التي هي فيه»، ومع ذلك هناك شيء في الإنسان لا تعرفه حتى روح الإنسان التي هي فيه. أما أنت، يا مولاي، فتعلم كلّ ما فيه لأنك خلقته. غير آني، وإن احتررت ذاتي بين يديك وحسبت نفسى تراباً ورماداً، أعرف مع ذلك شيئاً ما عنك لا أعرفه عن نفسي. «نحن نرى الآن ما نرى في المرأة، بصورة غامضة»، ولا نراه بعدُ «وجهها لوجه». لذلك، مادمت أسفار (peregrinor = j'accomplis... mon) بعيداً عنك، فأنا أقرب لنفسي متى إليك، ومع ذلك فإنني أعلم أنك لا يمكن أن تَفْسُدْ بآية صورة، أما أنا، فلا أعلم أيّ التزغات أقدر أن أتصدى إليها وأيتها لا أقدر. وأمي هو أنك «مخلص»، أنت الذي لا تسمح أن تكون تزغاتنا أقوى مما نستطيع أن نتحمله، بل تجعل مع التزغات انفراجاً، وتعطينا القدرة على أن نطبقها». فلا أعرف إذن بما أعلم عن نفسي، وبما لا أعلم عنها، بما آني فيما أعلم عن نفسي، أعلمه بإثارة منك، وفيما لا أعلمه عنها، لا أعلمه طيلة المدة التي ستصبح بعدها «ظلماتي كالشمس في الظهر» أمام وجهك.

8.VI. أحبتك، يا مولاي، حباً لا يعرف الشك، حباً محققاً. لقد اخترق قلبي بكلامك، وأحببتك، لكن السماء والأرض، وكل ما يوجد فيهما، هما هي تأمرني من كل جهة أن أحبتك، ولا تتوقف عن قوله لجميع الناس حتى يقطع عليهم سبل التعلل. أما أنت فستكون أشد رأفة بمن سبق أن رأفت به، وستمدّ بالشفقة من كنت مشفقاً عليه: وإنّ كانت السماء والأرض كالصادح بمديحك إلى الصنم.

لكن ماذا أحب، عندما أحبك؟ ليس جمالَ الجسم، ولا فتنَةِ الزائلة ولا بريق النور، هذا الحبيب لعيني ولا الألحان العذبة للأغاني الكثيبة (*cantilenarum = des*)، ذات الألف نغمة ونفحة (*omnimodarum = aux tons variés*) (*cantilènes*) الرائحة الفائحة من الأزهار والعطور والطيب، ولا حلوة النرجين والشهد، ولا الأعضاء التي نعشق بها الأجساد: لا أحب هذه الأشياء، عندما أحب إلهي. ومع هذا فهو نور وصوت ورائحة وطعم وعناق عندما أحب إلهي: هو النور والصوت والشذى والغذاء وعناق «الإنسان الداخلي» في، حيث يسطع لروحه نور لا يحتويه مكان وحيث يدوّي نغم لا يخطفه الزمان، وحيث تفوح رائحة لا يشتتها ريح، وحيث يُستساغ طعام لا يمحوه نهم وحيث يتعانق جسمان لا يفصلهما انتهاء النشوء. هذا هو ما أحب، عندما أحب إلهي.

9. ومن هو هذا الإله الذي أحبه؟

سألت الأرض فقالت: «لست هذا (الإله)؟ وكل ما يوجد عليها أقر لي بنفس الشيء». سألت البحر والأعماق والزاحفات الحية العائشة فيه، فأجبت: «لسنا إلهك؟ أبحث عنه فوقنا». وسألت نسمات الهواء، فقال الهواء، مع سكانه قاطبة: «يخطيء أناكسيماناسُ (Anaximenes)⁽¹⁾، لست إلهها». سألت السماء والشمس والقمر والنجموم فقلن: «لسنا الإله الذي تبحث عنه». وقلت لجميع الكائنات التي تحيط بأبواب جسمي: «حدثني عن إلهي الذي لا تمثله، قلن لي شيئاً ما عنه». فصحن بصوت عال: «هو الذي خلقنا». كنت أسألها في تأملي، وكانت تجيئني في جمالها. وأدرت النظر إلى نفسي وقلت: «وأنت، من تكونين؟» فأجبت: «أنا إنسان»،ولي في خدمتي جسم وروح، هما هكذا في، الأول خارجي والثاني باطني. فعند أيهما كان عليّ أن أبحث عن إلهي الذي كنت قد بحثت بعدّ عنه بواسطة الجسم، من الأرض إلى السماء، إلى مدى ما استطعت أن أرسل إليه أشعة عيني رُسلاً؟ لكن الباطني نفس، لأن جميع رجل جسمي يخبرونه وهو بالطبع، كما يخبر الرئيس والحاكم، في خصوص أجوبية السماء والأرض، وكل ما يوجد فيهما، كانت تخبره قائلة: «لسنا بالإله»، «هو الذي خلقنا». والإنسان الباطني يتعرّف عليها بواسطة الإنسان الخارجي. أنا، الباطني،

(1) في الصفحة 246 من الجزء الثاني الملاحظة كتب «دي لا بريول» DE LABRIOLLE ما يلي: «كان «أناكسيمان» Anaximène، في أواسط القرن السادس قبل الميلاد، يعتقد أن الهواء هو أصل كل شيء...» بل إن "شيشورون" كان يعتبره إلهها.

تعزّزت عليها، أنا، أنا الروح، تعرّفت عليها بحواسٍ جسمى، سأّلت كتلة الكون عن إلهي، فأجابتنى: «أنا لست هو، بل هو الذي خلقنى».

10. هل يظهر هذا الجمال لكلّ من كانت حواسهم سليمة؟ لم لا تقول لهم جميعاً نفس القول؟ ترآه الحيوانات الصغيرة والكبيرة، لكنّها لا تقدر أن تأسّلها. إذ لا يوجد لديها العقل حاكماً على إشارات الحواس. أمّا الناس فيستطيعون أن يسألوه كي «يصرّ العقل كمالاتِ الإله التي لا تُرى بواسطة أفعاله»، لكنّهم يخضعون لها حتّى، ويمنعهم خضوعهم لها من أن يحكموا عليها. وهي لا تجيز إلا من يسألونها ويحكّمون عليها، ولا تغيّر من لهجتها، أعني جمال مظاهرها، إن رآها أحد واقتصر على رؤيتها، في حين يراها الآخر ويسأّلها، بحيث لن تبدو بصورة مختلفة لهذا ولذلك. بل قل إنها وإن بدّت لهما بنفس الصورة، تكون خرساء للأول، في حين أنها تكلّم الثاني، أو بالأحرى تكلّم الجميع، غير أنّ الذين يفهمونها هم الذين يقارنون الصور القادمة من الخارج بالحقيقة الداخلية، إذ الحقيقة تقول لي: «إنهك ليس السماء، ولا الأرض، ولا أي جسم». وتؤكّد ذلك طبيعتها. فالكتلة في أجزائها تبدو لجميع الناظرين أصغر منها في كثيّتها. أنتِ يا روحى أحسن بعد، أقوله لك هذا، لأنّك تُحيّن كتلة الجسم الذي توجّدين فيه، تمديّنه بالحياة التي لا يمدّ بها أيّ جسم جسماً آخر، أمّا إنهك فهو بالنسبة إليك حياة حياتك.

11. VII. إذ ماذا أحبّ، عندما أحبّ إلهي؟ من هو هذا الذي يهيمن على قمة روحي؟ فلا أصلح مستعيناً بروحى ذاتها إليه. نعم سأتجاوز قوتي التي تربطني بالجسم والتي تملأ كتلته حيوية. ليست تلك القوة هي التي سأجد بها إلهي، ولو كان الأمر كذلك لوجوده أيضاً «الحسنان والbulle، المحرومان من العقل»، ولكن لهما نفس القوة التي يحيا بها جسماهما.

ولي قوّة أخرى، وهي لا تتحيي جسمى فقط، بل تبعث فيه الحس، جسمى الذي خلقه لي المولى، أمراً العين لا تسمع، والأذن لا ترى، ولكن أمراً الأولى أن أرى بها، والثانية أن أسمع بها، وهكذا دواليك في خصوص جميع الحواس الأخرى، حسب خصائص الأعضاء القائمة بها وأدوارها: وب بواسطتها أقوم بتلك الوظائف المختلفة مع الحفاظ على وحدتي الروحية. وسأتجاوز أيضاً قوتي هذه لأنّي أشتراك فيهما مع «الحسنان والbulle»، فهما كذلك يحسنان بجسميهما بالذات.

12. VIII. أريد إذن أن أتجاوز إذن هذه القوة من طبيعتي أيضاً، صاعداً تدريجياً إليك أنت الذي خلقتني، وأصل إلى حقول الذاكرة وقصورها حيث توجد كنوز من

الصور لا تحصى ولا تعدّ، وقد جاءت بها مدرّكات الحواس المتعددة **الأشكال**^(١)، فيها أودعت جميع الصور التي صورناها أيضاً إما بالزيادة أو بالنقصان أو بأي شكل من أشكال التحويل لما بلغته حواسنا، وكل ما أودع وادخر هناك، ما لم يغمّه النسيان ويدفعه.

عندما أكون هنالك، أستدعي من تلك الصور ما أريد أن يحضرني، يأتي بعضها في الحال، وبعضها أترقبه مدة أطول، وكأنه انتزع من أماكن أكثر عزلة وخفاء، أما بعضها الآخر فيندفع حشوداً، وبينما نطلب غيرها ونبحث عنها تقفز إلى الصف الأول، وكأنها تقول: «لعله دورنا نحن...؟»، وأطردها بيد قلبي من محيّا ذاكرتي حتى تخرج الصورة التي أريدها من السحاب وتتأتي أمام عيني من أعماق مخبئها (*ex abditis = du fond de sa cachette*). وبعضها يتقدم، حالماً يستدعي بكل بسر وفِي صفوِّف متظمة، ويترك السابق منها المكان للأحقن، وفيما هي تفوح لها المجال، تصطف جانبها حتى تقدم ثانية بإذن مني. فذاك كل ما يحدث، عندما أروي شيئاً ما تذكراً.

13. هنالك تحفظ جميع الأحساس مصنفة أصنافاً منفصلة طبق الأجناس وحسب المدخل الخاص الذي سلكه كل واحد، كالنور وجميع الألوان وأشكال الأجسام عن طريق العيون، أما عن طريق الأذنين فتأتي جميع أجناس الأصوات، وتتدخل جميع الروائح من المنخرتين، وكل الطعمون من الأفواه، وأخيراً بواسطة حسّ الجسم كاملاً يميّز ما هو حلب وما هو طري، وما هو ساخن أو بارد، ما هو لين أو خشن، وما هو ثقيل أو خفيف، سواء أكان خارجيّاً أم داخليّاً بالنسبة إلى الجسم. وتتفتّل الذاكرة مجموع الأحساس في خفاياها العميقـة المجهولة، وفي منعطفاتها السرية، ل تستظهرها عند الاقتضاء، ول تستدعيها: فتدخلها قاطبة، من الباب الخاص بكل واحد منها، وتصطف بانتظام فيها، إلا أنّ الأشياء المحسوسة عينها لا تدخلها، بل تدخلها صورها تكون جاهزة هنالك للفكر المتذكّر لها.

وهذه الصور كيف تكونت؟ لا أحد يملك الجواب، رغم أننا نعلم بأيّة حواس التقطت وأودعت في الدّاخـل. فحتى عندما أنعزل في الظلـمات وفي الصمت، أستطيع إن أردت ذلك، أن أتصور في ذاكرتي الألوان وأميّز الأبيض من الأسود وأيّ فوارق أخرى بينها، دون أن تتدخل الأصوات وتُحدّث البلبلة في ما أتأمّله بعيني، رغم أنها

(١) ... *rebus sensis* = الأشياء المحسوسة المتعددة الأشكال، المرجع نفسه، ص 248 الملاحظة ١: «تحدّث أوغستينوس في مناسبات عديدة عن الجانب النفسي من الذاكرة...».

بذاتها هناك، لكنها مخفية في مخزن منفصل. وإنني أدعوها هي أيضاً، إن راق لي، فتحضر في الحال، ورغم سكوت لسانه وصمت حنجرتي، أغتنى قدر ما أشاء، ومع ذلك فتلك الصور للألوان التي توجد هناك لا تتدخل ولا توقفني عن الغناء، وأتذكر، بقدر ما يروق لي الكنوز التي جاءت بها جميع العوائض الأخرى، فتكدست هناك، وأميز رائحة زهور الزنبق من رائحة البنفسج، دون أن أشم أية زهرة، وأفضل الشهد على الخمر المطبوخ، والناعم المصقول على الأخرش، بدون أن أذوق أو أمس آنذاك أي شيء، بل بالذكر.

14. أقوم بهذه الأشياء في الداخل، في بلاط ذاكرتي الفسيح. هناك تكون السماء والأرض والبحر تحت تصرفني، مع كل ما استطاعت أن تحسن به حواسِي، ما عدا ما نسيته. هناك ألتقي بنفسي مع نفسي، وأتذكر ماذا فعلت ومتى فعلت ما فعلته، وأين، وبأية صورة، والمشاعر التي أحست بها عندما فعلتها. فهناك يوجد كل ما أتذكره، سواء أكنت اختبرته اختباراً أم سمعته فصدقَتْ. ومن نفس الحشد من الصور أقتبس ما يقارن بالأشياء إما التي اختبرتها وإما التي صدقَتْ بها، تبعاً لاختباري لها، هذه تارة، وتلك تارة أخرى، وأربطها أنا بالماضي، وبه كذلك أتصور أعمالاً مقبلة وأحداثاً وأملاً؛ فكل هذا يصبح بمثابة الحاضر: «أُسأَلُ هَذَا ثُمَّ ذَاك»، أقول هذاً في قرارة نفسي، في منعطف روحي الفسيح الملآن بالكثير من صور الأشياء العظيمة للغاية، واستخلص هناً مرةً وذاك أخرى: «إِنَّمَا لِيَتْ هَذَا أَوْ ذَاك يَقْعُدُ». «لِيَبْعَدَ إِلَّاهٌ عَنِّي هَذَا أَوْ ذَاك!» أقول هذه الكلمات في قرارة نفسي، وعندما أقولها، تحضر صور جميع الأشياء التي أقولها من نفس كنز الذاكرة، وما كنت لأقول بتناً واحدة منها، لو كانت تعوزني.

15. كبيرة هي قوة هذه الذاكرة، كبيرة جداً، يا إلهي. هي معبَدٌ متسعٌ لا متناهٍ من يصل إلى نهايته؟ وهذه القوة تكمن في فكري وتعلق بطبيعتي، غير آتي لا أفقه تماماً ما أنا بالذات. إذن فالتفكير أضيق من أن يحتوي نفسه، بحيث أتساءل أين يذهب ما لا يفقهه منها؟ أ يكون خارجاً عنه وليس فيه؟ كيف لا يُفْقِه إذن؟ يبعث هذا في نفسي دهشة كبيرة، ويتملّكني الذهول.

ويخرج الناس ليغتربوا على ارتفاع الجبال وأمواج البحر الكبيرة ومجاري الأنهار الواسعة للغاية وشواطئ المحيط المتلوية ومدارات حركة الكواكب، ويهملون أنفسهم ذاتها. إنهم لا يعجبون من كوني، عندما كنت أحدث عن جميع هذه الأشياء، لم أكن أراها بعيني، ومع ذلك فما كنت لأحدث عنها لو أنَّ هذه الجبال وأمواج وأنهار والكواكب التي رأيتها والمحيط الذي أعرفه بالسماع فقط لا أراها في قرارة نفسي في ذاكرتي بنفس الحجم الذي كنت أراها به في الواقع. إلا أنني لم أبتلعها بالنظر، عندما رأيتها بالعينين،

وليس هي بالذات لدى، بل صورها، وأعلم بأية حاسة من الجسد انطبع في.

16.IX. لكن لا تحتوي هذه القدرة الواسعة لذاكريتي هذا القليل من الأشياء فقط، بل يوجد فيها أيضاً جميع الأشياء التي تعلمتها من العلوم الشريفة والتي لم أستوعبها بعد؛ وكان جميع ذلك محفوظاً في مكان داخلي، وما هو في الحقيقة بمكان لا أحمل في نفسي مجرد صور، بل أحمل تلك المعارف ذاتها؛ فما هو الأدب وما هو فن النقاش وكم هو عدد أجناس المسائل، جميع ما أعلمه من هذه الأشياء لم يستقر في ذاكريتي، كما لو أنني احتفظت فيها بالصورة، وتركت الشيء خارجها، أو كما لو كانت صوتاً عابراً، كالصوت المنطبع في الأذن بأثره الذي تذكره به، كما لو كان يرن، والحال أنه لم يعد يرن فيها، أو كالرائحة وهي تعبير في الهواء وتتلاشى، مؤثرة في الشم ومرسلة منه إلى الذاكرة صورتها التي تستقدمها منها بالتذكر، أو كالطعام، الذي لم يعد له بالطبع طعم في المعدة، ومع ذلك فكانه في الذاكرة ذو طعم، أو كشيء ما نحس به بحاسة اللمس وتتصوره الذاكرة، وإن كان أيضاً منفصلاً عنا. وعلى كل، فهذه الأشياء لا تلتج الذاكرة، بل صورها فقط تلتقط بسرعة عجيبة وتختزن في شبه بيوت، وتستخرج منها عند التذكر بصورة عجيبة.

17.X. أمّا، عند سماع من يقول إن هناك ثلاثة أجناس من المسائل، يعني هل الشيء يوجد؟ وما كنه؟ وما كيده؟ فإني على كلّ أحفظ صور الأصوات التي تكونت منها هذه الكلمات، وأعرف أنها اخترت الهواء بضجة، وأنها لم تعد موجودة. لكن الأشياء ذاتها التي تدلّ عليها تلك الأصوات فلم أبلغها بأية حاسة في الجسم ولم أرها في أي مكان، خلا فكري، وثبتت في الذاكرة لا صورها، بل هي بالذات.

فمن أين دخلت في؟ أخبرني، إن استطعت. أجوب أبواب لحمي كلها، فلا أجد من أيها ولجتني. على كلّ تقول العينان: «إن كانت ملوّنة، فنحن اللسان نقلناها»؛ وتقول الأذنان: «إن دوّتا، فنحن اللسان أشرنا إليها»؛ ويقول المنخران: «إن فاحت، فقد مرّت بنا»؛ وتقول أيضاً حاسة التذوق: «إن لم يكن لها طعم، فلا تسلّنى عنها»؛ ويقول اللمس: «إن لم تكن جسماً، فلم أمسّها، وإن لم أمسّها، لم أشر إليها».

فمن أين وعبر أيّ طريق دخلت هذه الأشياء إلى ذاكريتي؟ لا أدرّي كيف. وعندما حفظتها، لم أحفظها على أساس تصدق غيري بها، بل تعرّفت عليها في فكري، ووافقت على صحتها، وسلمتها له وديعةً بإمكانني أن أستردها متى شئت. إذن، فهي كانت فيه أيضاً، قبل أن أحفظها، لكنها لم تكن في الذاكرة. إذن أين كانت؟ ولأي سبب عندما قيلت لي، عرفتها وقلت: «هذا صحيح، هذا حقيقي!؟ ما ذلك إلا لأنها كانت من قبل في الذاكرة، لكنها كانت مخفية، وكانت مدفونة في إعماق عجيبة على قدر من العمق بحيث لو لم تنبشها يد معلم، لربما ما كنت أفكّر فيها.

XI. لذلك نستخلص أن حفظ الأشياء التي لا نستوعب صورها بالحواسن لكتنا نراها بلا صور كما هي بالذات، ليس شيئا آخر سوى التجميع بالفكر لما كانت الذاكرة تحتويه هنا وهناك مبعثراً دون نظام، وجعلها، عن طريق الانتباه، في المتناول وتحت الطلب في الذاكرة عينها، بعد أن كانت مخفية فيها مبعثرة ومهملة، فيسهل على طالبها المتعدد على ذلك استحضارها.

وكم من معارف من هذا القبيل تحملها ذاكرتي، وهي معارف موجودة بعد، كأنها كما قلت، موضوعة تحت الطلب، ونقول بشأنها: حفظناها وعرفناها فلو توقفت، مدة وجيزة من الزمن، عن تذكرها لرأيتها تُغمر من جديد، وكانتها تنشتت في حجرات أكثر خفاء، حتى أنه يجب التفكير فيها مرة ثانية، كما لو كانت جديدة، وإخراجها منها مرة أخرى من هناك - إذ إنه ليس لها مكان آخر توجد فيه - وتجمعيها ثانية (cogenda)، لأنك من أن أعرفها، أي يجب علي، إن صبح التعبير أن أحشدها بعد تشتتها، ومن قبل قيل *cogitare* أي «عقل وفکر» فالعلاقة بين «جمع» (*cogo*) و«فکر» (*cogito*) هي التي توجد بين «فعل» (*ago*) و«حَمَّنَ» (*agito*)، وبين «فعل» (*facio*) و«فَعَلَ بـكثرة» (*factito*). لكن العقل طالب مع ذلك لنفسه بتلك اللفظة (*cogito*، لاستعماله الخاص، بحيث أن تلك التجمعات التي لا تقع إلا في الفكر أو تلك التجمعيات (*cogitur*)، هي بالذات التي تسمى الآن فكرا (*cogitare*).

XII. تحتوي الذاكرة أيضا على العلاقات والقوانين الامحدودة للأعداد والمقاييس. ولا شيء منها انطبع فينا بواسطة حس جسماني، فهي لا لون لها ولا صوت ولا رائحة ولا طعم ولا هي بالملمسة. ونحن عندما نتكلم نسمع بالفعل الأصوات التي تدل على الكلمات عندما ننطق بها، لكن شتان بين الكلمات والأشياء، فالأولى تنطق بصورة مختلفة، من جهة ما تكون يونانية أو لاتينية، أما المفاهيم فليست وقعا على آية لغة من اللغات. ورأيت خطوطا من صنع صانعين مهرة، في متنهي الدقة، كخطوط العنكبوت؛ لكن الخطوط الأخرى، أي خطوط الرياضيين، مختلفة عنها، فهي ليست صور تلك التي عزقتني إليها العين العجارة، إذ يعرفها كل من تعرف عليها داخليا، دون أدنى تفكير في أي جسم كان. أدركت أيضا، بجميع حواسن الجسم، الأعداد المحدودة التي نعدّها، لكن الأعداد التي نعد بها مختلفة عنها اختلافا تاما، وليس بصور الأولى، لذلك فهي موجودة وجودا مطلقا⁽¹⁾. فليسخر مني، وأنا أقول

(1) ... = et ideo valde sunt ... فهي موجودة وجودا مطلقا. المرجع نفسه، ص 254 الملاحظة =

هذا للذين لا يميزون بين نوعي العدد، ولأشق أننا عليهم، لضحكهم متى!
20.XIII. جميع هذه الأشياء، أحفظ بها في الذاكرة، وكيفية تعلمها أحفظ بها أيضاً في الذاكرة. والعديد كذلك من الاعتراضات التي قدمت ضدها على وجه الخطأ، سمعتها وأحفظ بها في الذاكرة؛ ورغم أن هذه الأطروحتات غالطة، فتذكرها ليس بالغلط؛ والفرق بين تلك الحقائق وهذه الأغلطات التي تقال ضدها، أتذكره أيضاً، وأرى الآن من ناحية أنني أميز بينها، ومن ناحية أخرى، أذكر أنني كثيراً ما ميزت بينها، وأنا أفكّر فيها عديد المرات. إذن أتذكر أنني فهمت هذه الأشياء في الغالب، وكوفي أميزها الآن وأفهمها، فأشدّ عليه في الذاكرة، كي أتذكر من بعد أنني فهمته الآن. إذن أتذكر أيضاً أنني تذكرت، كما أتي، من بعد، إن تذكرت أنه أذكرني الآن أن أتذكر، فإنني سأتذكر طبعاً بفضل قوة الذاكرة.

21.XIV. مشاعر روحي تحتويها أيضاً نفس الذاكرة، لا بالكيفية عينها التي تملكها الروح ذاتها فيها عندما تفعل من جرائها، بل بكيفية أخرى مختلفة جداً، شبيهة بالقوة التي تملكها الذاكرة.

فأنا أتذكر أنني كنت فرحاً، ولست فرحاً، وأستعيد حزني السابق، ولست حزيناً، وأتذكر أنني خشيت في يوم ما، وأنا دون خشية، وأتذكر رغبة قديمة، وأنا بلا رغبة. وقد يحدث بالعكس أن أتذكر حزني السابق وأنا فرح، وأتذكر فرحي وأنا حزين.

ولا مجال للاستغراب إذا تعلق الأمر بالجسم، لأنّ الروح شيء والجسم شيء آخر. لذلك، إن أنا شعرت بالشدة عند تذكر ألم قديم في الجسم، فلا مقدمة للاستغراب من ذلك. لكن الأمر يختلف عن هذا على الصعيد الذهني، فالذاكرة هي الفكر عينه. يدل على ذلك حتى كلامنا عندما نأمر شخصاً بالقيام بشيء ونؤكّد على حفظه في الذاكرة فنقول: «احرص على أن تمسّكه بتفكيرك»¹ وإذا نسينا قلنا: «لم يعد ذلك في فكري»، أو «أفلت من فكري»، مستعينين الذاكرة ذاتها بالتفكير.

وإن كان الأمر إذن هكذا، فما السبب في كوفي، عندما أتذكر حزني السالف، وأنا فرح، يكون الفكر فرحاً، وتكون الذاكرة حزينة، وإن كان الفكر فرحاً، فبسبب كون

= 1: «هذا التمييز بين الأعداد الملموسة والأعداد المجردة عرضه أرسسطو... فالأعداد الملموسة تصلح لعد الأشياء، لكن هذا العدد الملموس يستعصي ويكون متذرّاً ولو لم تكن لنا تلك المعرفة المسبقة للأعداد المجردة».

الفرح موجوداً فيه، أما والذاكرة يوجد فيها الحزن، فلماذا لا تكون حزينة؟ تكون ربما دون اتصال بالتفكير؟ من يتجرأ على القول بمثل هذا؟
لا غرو إذن أن تكون الذاكرة بمثابة مِعْدَةُ التَّرَوْحِ، والفرح والحزن بمثابة الطعامين الحلو والمُرّ؛ فعندما يبلغ هذان الشعوران إلى الذاكرة، فكأنّي بهما، بعد أن يحلان بالمعدة، يستطيعان أن يظلان هنالك، دون أن يكون لهما طعم.
وليس من الجد القول بكون هذه الأشياء تشبه تلك، لكنه مع ذلك لا يوجد فرق كبير بينهما.

22. بل إنني أصدر عن الذاكرة، عندما أقول إنّ هناك أربعة انفعالات في النفس: الرغبة والفرح والخوف والحزن. وأأخذ من الذاكرة أيضاً جميع الأطابع التي يمكن أن تثيرها عنها، مقسماً كل واحدة إلى مختلف أصنافها ومحدوداً إياها، فأجد في الذاكرة ما أقوله، ومنها أخرى. ومع ذلك لا أشعر من جزائتها بأدنى اضطراب، عندما أسترجعها بالتذكر. وقبل أن أسترجعها وأسهب فيها، كانت هي هنالك، في الذاكرة؛ لذلك تمكنت من استخراجها منها بالتذكر.

إذن لعلّ ما يقع للطعام في المعدة بالاجترار شبيه تماماً بعودة تلك الأشياء من الذاكرة بالتذكر. لماذا إذن لا يشعر المناقش، وهو المتذكر، في فم الفكر، بحلوة الفرح أو مرارة الحزن؟ لا يكون هنا الفارق، بما أن التشابه لا يوجد من كل جهة ولا يعني التطابق؟ إذ من يقول بمثل هذا، لو كنا كلما سمعنا الحزن أو الخوف نجبر كل مرة على الحزن أو الخوف؟

وعلى الرغم من ذلك، فما كنا نحدث عنها، لو لم نكن نجد في ذاكرتنا، لا فقط أصوات الكلمات، من جهة الصور المنطبعة فيها بواسطة الحواس الجسمانية، بل وأيضاً الأفكار المتعلقة بالأشياء ذاتها التي تقبلناها لا عبر أي باب من أبواب لحمتنا، بل عبر الروح نفسها الخبرة بانفعالاتها المحسنة بها، وقد أوصلتها إلى الذاكرة، أو أن هذه الأخيرة هي التي سجلتها، وإن لم تكلّف بذلك.

XV. لكن هل يتم هذا عن طريق الصور أم دونها؟ لا يمكن أن نجيب عن هذا السؤال بسهولة؟

أسمى الحجارة، وأسمى الشمس، لكن دون أن تكون إحداهما حاضرة لحواسي، بل تحفظ في الذاكرة صورتهما على ذمي. وأسمى ألم الجسم، وهو غير حاضر، بما أني لا أتألم، مع ذلك، لو لم تحضر صورته في ذاكرتي لما فقهت ما أقوله عنه، ولما

ميّزت في النقاش بينه وبين اللذة. وأسمى صحة البدن، عندما أكون سليماً معاّفياً؛ فهذه الحال حاضرة حقاً لدّي، لكن مع ذلك، لو لم تكن أيضاً صورتها موجودة في ذاكرتي، لما تذكرت بأيّ وجه من الوجوه ما تدلّ عليه الأصوات المكونة لهذا الإسم، ولما تعرّف المرضي على ما يشير إليه ما يسمى بالصحة، لو لم تحفظ قوّة الذاكرة عندهم بالصورة عينها، وإن كان الشيء بالذات غائباً عن أجسامهم.

أسمى الأعداد التي تُعَدّ بها، فإذا هي ذاتها في ذاكرتي، لا صورها. وأسمى صورة الشمس، وهو هي حاضرة في ذاكرتي، فأنا لا أتذكر صورة صورتها، بل أتذكرها هي بالذات: هي بالذات حاضرة على ذمة ذاكرتي حالماً أستحضرها. أسمى الذاكرة، وأتعرّف على ما أسمى. فـأين أتعرّف عليها، إن لم يكن في الذاكرة ذاتها؟ فهل تكون هي بصورتها حاضرة لنفسها، ولا حقيقة ذاتها؟

24.XVI. ثم ماذا؟ عندما أسمى النسيان وأتعرّف هناك على ما أسمى، فـأني لي أن أتعرّف عليه إن لم أتذكّر؟ لا أقصد هنا لفظ الإسم ذاته، بل المعنى الذي تدلّ عليه، فلو كنت قد نسيته، لما كنت قادراً على أن أتعرّف على ما يدلّ عليه تلك الأصوات. إذن، عندما أتذكّر الذاكرة، تكون الذاكرة نفسها تحت طلب نفسها بالذات؛ أمّا عندما أتذكّر النسيان فالذاكرة والنسيان يكونان معاً تحت الطلب، الذاكرة التي بها أقدر أن أتذكّر، والنسيان الذي أقدر أن أتذكّر. لكن ما عسى أن يكون النسيان، إن لم يكن فقدان الذاكرة؟ إذن كيف يمكن أن يكون حاضراً كــأني أتذكّر، والحال أنه، عندما يكون حاضراً، لا أستطيع أن أتذكّر؟ أمّا وــأنا، إن احتفظنا بما نــتذكّر بالذاكرة، فــلو لم تذكّر النسيان، لما استطعنا البتة وقد استمعنا إلى هذا الإسم، أن تعرف على ما يدلّ هو عليه، لــذا فالنسيان تحفظ به الذاكرة. إذن فهو حاضر، مخافة أن ننساه، أمّا عندما يحضر، فــنتسى.

هل يستخلص من هذا أنه لا يمكن هو ذاته في الذاكرة، عندما نــتذكّر، بل صورته، حيث أن النسيان، لو كان بــذاته حاضراً تحت الطلب، لــجعلنا لا نــتذكّر، بل ننسى؟⁽¹⁾
ومن سيقتفي هذا الأثر إلى النهاية؟ من سيفهم كــه المسألة؟

(1) ...non ut meminissemus, sed ut obliuisceremur ص 243 الملاحظة 1: «ينتروض التحليل الثاقب الذي يقوم به أوغستينوس في متألهات و دقائق متناقضة... لا تخفي منها نزعته التصرف؛ كما لو كان مجرد العذ الذهني "للنسيان" امراً كافياً لتضليل الذاكرة!».

25. أنا حقا، مولاي، أجهد نفسي في هذه المسألة، أجدها في ذاتي: أصبحت لفسي أرض عسر وعرق مفرطين. لأننا الآن «لأنفس مناطق السماء» ولا نقيس بعذ الكواكب، ولا نبحث عن توازن الأرض. أنا الذي أتذكر، أنا، أعني فكري. لا غرابة هكذا أن يكون بعيداًعني كُلَّ ما ليس أنا. لكن أي شيء هو أقرب مني من ذاتي عينها؟ وهـا أنا لا أفهم حتى قوة ذاكرتي، إذ إنني دون الذاكرة لا أقدر أن أسمى حتى نفسي ذاتها. فماذا سأقول إذن، عندما أكون متحققاً من كوني أتذكر النسيان؟ هل سأقول إنـا ما أذكره ليس بذاكرتي؟ أم هل سأقول إنـا النسيان يكمن في ذاكرتي من أجل الأنسى؟ كلا الرأيين غاية في العبث.

ما حظ هذا الرأي الثالث من الصحة؟ كيف يمكن أن أقول إن صورة النسيان هي التي تحفظ في الذاكرة لا النسيان عينه، عندما أذكره؟ نعم بأية طريقة أقدر أن قول هذا، خاصة وأنـه - عندما تنطبع صورة شيء ما في الذاكرة - لا بد أولاً أن يحضر الشيء ذاته، كي يمكن أن تنطبع منه تلك الصورة؟ فـها أنا أذكر قرطاجة⁽¹⁾، وهـا أنا أذكر جميع الأماكن التي عشت فيها، وهـا أنا أذكر وجوه الناس الذين رأيتهم، وكل ما تعرفت عليه بحواسـي الأخرى؛ كذلك صحة الجسم أو الألم. عندما كانت هذه الحقائق حاضرة تقبلـت منها ذاكرتي صورـا، حتى أتأمل فيها كالحاضرة، وأستعرضها في الفكر وأنا أذكرـها كالغائبة.

إذن، لتحفظ الذاكرة لا النسيان ذاته بل صورـه، لابد أنهـ كان حاضرا، كـي تأخذ صورـه. لكن لو كان حاضرا، فكيف ستسجل صورـه في الذاكرة، بما أنـ النسيان، بمجرد حضورـه يمحـو كلـ ما يـجده بعد مـسجلـاً؟ ومع ذلكـ، وبـأية كـيفية كانتـ، رغم أنـ تلكـ الصورة لا تـفهم ولا تـفترـ، أنا مـتحققـ من كـوني أـذكرـ أيضاـ النسيان ذاتهـ، الذي يـهدـم جميعـ ماـ تـذكرـهـ.

26.XVII. عظيمة هي قوة الذاكرة! إنـها شيء لا أدرـي ماـ هوـ، يا إلهـيـ، شيء مرعب بعيدـ القرـارـ، لا محدودـ التـنـوعـ (*multiplicitas = multiplicité*)؟ ذاكـ هوـ الفكرـ، وأـنا بالـذـاتـ هوـ ذاكـ، لـذا فـما أناـ، يا إلهـيـ؟ ماـ هوـ كـنهـيـ؟ حـيـاةـ مـتنـوعـةـ، مـتـعدـدةـ الأـشـكـالـ، شـاسـعةـ للـغاـيةـ.

انـظرـ، فيـ ذـاـكـرـتـيـ الحـقـولـ والـكـهـوفـ والـمـغـارـاتـ التيـ لاـ تـحـصـيـ، والمـلـيـنةـ بـعـدـ بـعـدـ الأـجـنـاسـ منـ الأـشـيـاءـ، سـوـاءـ بـالـصـورـ كـمـاـ هوـ شـائـنـ جـمـيعـ الـأـجـسـامـ أوـ بـالـحـضـورـ كـمـاـ فيـ

(1) ...=Carthaginis memini...، المـرجعـ نفسهـ، صـ258ـ المـلاحظـةـ 2ـ: «سبـقـ أـسـتـعملـ أوـغـسـتـينـوسـ هـذـاـ المـثالـ فـيـ الرـسـالـةـ 1ـ، VIIـ الـيـ كـتـبـهاـ قـبـلـ عـشـرـ سـنـواتـ».

العلوم، أو بما لا أدرى من الأفكار أو التدوينات، كما في مشاعر الروح التي تحفظها الذاكرة، وإن لم تفعل الروح من جرائها رغم أن كلّ ما يوجد في الذاكرة يوجد في الفكر أجري مخترقاً جميع هذه الأشياء وأطير هنا وهناك، ألا جها أيضاً، بقدر ما أستطيع: لا شيء يحدّها! ما أعظم قوّة الذاكرة، وما أعظم قوّة الحياة عند الإنسان الحي الفاني! ثُرى، ما العمل، يا حياتي الحق، يا إلهي! سأتجاوز أيضاً هذه القوّة لدى التي تسمى الذاكرة، سأتجاوزها حتى أتجه نحوك، يا نوري العذب. ماذا تقول لي؟ ها أنذا صاعد بفضل روحي إليك، أنت الذي تسكن عالياً فوقني، وسأتجاوز قوّتي هذه التي تسمى الذاكرة، راغباً في الوصول إليك، من الجهة التي أستطيع أن أصل إليك منها، وفي معانقتك من الجهة التي يمكن أن تُعائق منها، فالذاكرة تملّكها أيضاً الدواب والعصافير، وإلا لما عادت إلى مرابضها وأعشاشها، ولما قامت بأشياء كثيرة أخرى عادية لديها، إذ ما كانت لتعود كذلك على أيّ من هذه الأفعال إلا بالذاكرة، إذن سأتجاوز أيضاً الذاكرة، حتى أصل إلى الذي «فصلني عن السوانح وجعلني أكثر حكمة من الطيور في السماء». سأتجاوز أيضاً الذاكرة لأجدك: أين أنت، أيتها الطيب الحق، أيتها العذوبة الثانية؟

إن وجدتك خارج ذاكرتي، فهذا دليل على أنني نسيتك، وأتّى لي أن أجده مستقبلاً،
إن لم أعد أتذكّرك؟^(١)

27.XVIII. والمرأة التي أضاعت دراخمتها^(٢) (Drachme ou dragman)، فهبت تبحث عنها على ضوء المصابح، لو لم تكن تذكر مكانها، لما وجدتها. فمن أين كان لها، بعد أن وجدتها، أن تلك القطعة المالية هي القطعة التي فقدتها، إن لم تكن تتذكّرها؟ أذكر أتّي أضعت كثيراً من الأشياء، فبحثت عنها ووجدتها؛ وأعرف جيداً أتّي، أثناء البحث عن شيء ما، كان يقال لي: «ألا يكون ربّما ذاك؟»، وكانت أجيب «كلاً»، طالما لم أهتد إلى ما كنت أبحث عنه. فلو لم أكن أتذكّره، مهما كان هو، ما كنت - وإن كنت اهتديت إليه - لأجده، لأنّي ما كنت لأتعرف عليه. هكذا يحدث دائماً، عندما نبحث عن شيء مفقود ثم نجده. وبالعكس، إن صادف أن

(١) ... إن لم أعد أتذكّرك؟ memor non sum tui... المرجع نفسه، ص 260 الملاحظة 1: «مو نفس الاعتراض الذي تقدّم به "مينون" Ménon بين يدي سقراط عندما أعلن هذا الأخير أنه يقوم بالبحث عن حقيقة العلة التي كان يتظاهر بتجاهل حقيقة أمرها».

(٢) هي القطعة النقدية اليونانية المعروفة: انظر الكتاب الثامن 6.III.

غاب شيءٌ ماعن بصرنا لا عن ذاكرتنا، كأن يكون جسماً مادياً يُرى، فإن صورته تحفظ فيينا، ونبحث عنه حتى تُرَد إلى نظرنا. وبعد أن نجده، نتعرّف عليه طبقاً للصورة التي هي فيينا، ولا نقول إننا قد وجدنا ما كان قد فُقدَ، مالم نتعرّف عليه، ولا نستطيع أن نتعرّف عليه، إن لم نتذكّره: فذلك الشيء قد ضاع لعمري عن بصرنا، لكنَّ الذاكرة حفظته ولم تضيّعه.

XIX. 28. ثم ماذا؟ عندما تفقد الذاكرة ذاتها شيئاً ما، كما يحدث، عندما ننسى شيئاً ونبحث عنه لتذكّر، أين إذن نبحث عنه، إن لم يكن في الذاكرة بالذات؟ وإن قدمت لنا صدفة شيئاً مكانَ آخر، رفضناه، إلى أن يأتي ذلك الذي نبحث عنه، وعندما يأتي، نقول «ها هو!»؛ وما كنَا لنقوله، لو لم نتعرّف عليه، وما كنَا لنتعرّف عليه، لو لم نتذكّر. والحقيقة أننا قد نسيناه بالفعل.

أم هل يجب أن نعتبر أن الشيء لم يفلت مِنْ كليّاً، بل كنَا اعتماداً على الجزء الذي نمسكه، نبحث عن الجزء الآخر، لأن الذاكرة كانت تشعر أنها لا تستطيع أن تصوّره كليّاً، كما اعتادت ذلك، ولأنها كما لو كانت مقطوعة من عادتها كانت عرجاء طالب بأن يرد لها الجزء الذي كان ناقصاً؟

ذلك ما يقع، عندما نرى بأعيننا رجلاً نعرفه، أو عندما نفكّر فيه، ونبحث عن اسمه لكن دون جدوٍ، فيبتادر اسم آخر، لكنه لا يرتبط به، لأنَّا لم نعد أن نقرنه به في فكرنا، ولذلك لا تقبله حتى يحضر الإسم الذي تَجِدُ فيه أخيراً الدلالة المعتادة موافقتنا التامة. فمن أين يحضر إن لم يكن من الذاكرة عينها؟ فعندما نتعرّف عليه بعد أن يعيينا شخص آخر على ذلك، فهو يخرج من هناك. إذ إنه ليس شيئاً جديداً نصدق به، بل هو شيءٌ تذكّره وتفقّر بكونه هو الذي قيل. ولو مُحي من داخل فكرنا محواناً لما تذكّرناه، وإن تبهنا إليه، إذ إن تذكّر كونك قد نسيت شيئاً دليل على كونك لم تنسه تماماً. فتحنّ لنقدر أن نبحث عن هذا الشيء المفقود، إن كنَا قد نسيناه تماماً.

XX. إذن كيف أبحث عنك، يا مولاي؟ عندما أبحث عنك، يا مولاي، أبحث عن السعادة. فلا يبحث عنك، كي تحيا روحي! لأنَّ جسدي يحيا من روحي، وتحيا روحي منك! كيف أبحث إذن عن السعادة والحال أنها ليست ملكي طالما لم أحمل على أن أقول: «كفى، هي هنا». فكيف أبحث عنها؟ هل يتم ذلك بتذكّرها من جديد، وكأنني نسيتها ورغم نسياني فلا أزال أشعر بها. أولىست السعادة مطلبَ جميع الناس وما يرغبون في إدراكه والفوز به؟ أين عرفوها حتى يريدوها هكذا؟ أين رأوها حتى يحبّوها؟ لا شك أننا نملكها، لكن لا أدرى كيف. هناك معيار آخر للسعادة، به يكون

من يملكون سعيداً، وثمة من يكونون سعداء بالأمل. هؤلاء يملكون منها معياراً أقل من أولئك الذين هم بعد في السعادة الحق ذاتها، لكنهم أسعد مع ذلك من الذين ليسوا بالسعادة لا بالفعل، ولا بالأمل.

ومع ذلك فهو لاء أيضاً، لو لم يملكون منها قسطاً ضئيلاً، لما كانوا يريدون هكذا أن يكونوا سعداء: أما أنهم يريدون السعادة، فذلك مؤكداً كيف تم ذلك؟ لا أدرى كيف عرفوها، على كلّ فهيم ترجم عندهم، ولهم عنها فكرة لا أدرى ما هي. والأمر الذي يشغلني هو هل تكمن هذه الفكرة في الذاكرة؟ فإن كانت فيها، كتنا إذن سعداء في الماضي؛ هل كتنا جميعاً سعداء فرداً فرداً، أم هل كانت السعادة في ذلك الإنسان الذي كان أول مذنب والذي مثناً أيضاً فيه جميعاً والذي ولدنا منه جميعاً بشقائنا؟ لا أبحث فيه الآن، بل أبحث هل توجد السعادة في الذاكرة. إذ ما كتنا نتحبّها، لو لم نعرفها. نسمع هذا الاسم، فنعرف جميعنا بأننا نتوق إلى هذا الشيء؛ إذ لا نُفتن بالصوت وحده. فعندما يسمع يوناني هذه الأصوات اللاتينية لا يفتن بها، لأنّه يجهل ما تعنيه، أما نحن ففتن بها فتنة اليوناني إذا سمعها باللغة اليونانية، ذلك أن الدلالة عينها ليست يونانية ولا لاتينية، وهي التي يحمل بالبلوغ إليها اليونانيون واللاتينيون والناطقون بجميع اللغات الأخرى. إذن فهي معروفة، يعرفها الجميع، فلو أمكن أن يُسألوا مرتّة واحدة، هل يريدون أن يكونوا سعداء، لأجابوا دون أي تردد: نعم. وما كان ليقع ذلك، لو لم تكن الدلالة عينها التي ذلك الاسم هو اسمها، محفوظة في ذاكرتهم.

30.XXI هل ذلك التذكرة هو كما يتذكرة قرطاجة من رآها؟ لا: فالسعادة لا ترى

بالعينين، لأنّها ليست بجسم^(١).

وهل هو كما تذكرة الأعداء؟ لا: فمن له فكرة عنها لا يحاول من بعد أن يحصل عليها، أما السعادة فيما ألمّ لنا فكرة عنها، فتحنّ تحبّها لذلك، ومع ذلك نريد أيضاً أن تحصل عليها، حتى تكون سعداء.

هل هو كما تذكرة قواعد البلاغة؟ لا: رغم أنّ الذين ليسوا بعد بلغاء يتذكرون الشيء بالذات لمجرد سماع هذا الاسم، ورغم أنّ الكثير منهم يرغبون في أن يكونوا هكذا سعداء - من هنا يظهر للعيان أنّ لهم فكرة عنها - مع ذلك فيحواس الجسم

(١) المعنى العام لهذا الكلام، حسب هذا الشارح، المرجع نفسه، ص 264 الملاحظة ١: "... توجد فكريتان متتسامتان: ١) تملك عن الفضاحة وكذلك عن السعادة تصوراً باطلياً، ٢) لكننا نلاحظ الفضاحة بالحواس، أما السعادة ففضلت من قبضتها".

لا حظوا أن الآخرين بلغاء، وفُتنوا ببلاغتهم، وكانوا يرغبون فيها. على أن افتنائهم بهم، ورغبتهم فيها يقتضي أن تكون لهم عنها فكرة داخلية، وأن يكونوا قد ذاقوها واحتبروها بحواسهم: أما السعادة فلا تختبرها عند الآخرين بأية حاستة جسمانية.

وهل هذا التذكرة كما تذكرة الفرح؟ لعله كذلك. فأنا أتذكر فرحي، ولو كنت حزينا، تذكري لسعادتي ولو كنت شقينا، والحال أن فرحي ما رأيته ولا سمعته ولا شممته ولا ذقه ولا لمسته بأية حاستة جسمانية، بل اختبرته في روحي عندما سُرت، وبقي المفهوم منه عالقا في ذاكرتي، كي أقدر تارة أن أذكره بازدراة، وطورا بشهوة، طبقا لاختلاف تلك الأشياء التي أذكر أني فرحت بسيبها. فقد اتفق أن عمرت بنوع من الفرح، تارة في ظروف مخيبة أكرهاها وأعنها الآن في ذاكرتي؛ وتارة أخرى لأسباب طيبة وشريفة، أذكرتها بالندم، وإن لم تكن حاضرة، فإني أذكر لذلك بالحزن فرحي السالف.

31. أين إذن ومتي اختبرت السعادة، حتى أذكرها، وأحبها وأرغب فيها؟ لا أريد ذلك لنفسي وحدها، أو لتجربة ضيقة، بل أريد أن تكون جميعا سعاداء. ولو كنا نعرفها معرفة غير ثابتة، لما طلبناها بهذه الإرادة الثابتة. لكن ماذا تكون؟ فلو طُلب من اثنين هل يريدان أن يحاريا، لربما أجاب أحدهما أنه يريد ذلك، والثاني أنه لا يريد؛ أما لو طلب منهما هل يريدان أن يكونا سعيدين، لأجاب كل منهما على الفور دون أي تردد أنهاهما يرغبان في ذلك. ولم يرغب الأول في الحرب، ولا رغب عنها الآخر إلا لكونهما يريدان السعادة.

فقد يختلفان فيحب أحدهما شيئا ويحب الآخر شيئا آخر، لكنهما يتفقان معا على طلب السعادة، تماما كما يتفقان، لو سللا هل يريدان الفرح، ويسميان فرجهما عينيه بالسعادة، أما إن أتبع الواحد هذا المسلك، والأخر مسلكا مغايرا، فمع ذلك يتهدان في كونهما يحاولان معا أن ييلغا الفرح. وبما أنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه لم يختبر الفرح فإننا نجده في الذّاكرة، ونتعرف عليه فيها، عندما نسمع اسم «السعادة» ينطق.

32. XXII. ليتعذر عن قلبي، يا مولاي، ليتعذر عن قلب خادمك الذي يعترف إليك، ليتعذر عن قلبه كوني أظن أنني سعيد بأي فرح بها إذ هناك فرح لا يعطى للكافار، بل يعطى لمن يبعدونك مجانا، أنت ذاتك فرجمهم، والسعادة ذاتها هي الفرح بك ولك ويسبيك: تلك هي بالذات ولا غيرها. أما الذين يظنونها فرحة أخرى، فيقتلون أثر فرح آخر، لا الفرح الحق بالذات. ومع ذلك فلا تحدد إرادتهم عن صورة ما من صور الفرح.

33. XXIII. أليس من الثابت إذن أن جميع الناس يريدون أن يكونوا سعداء، بما أن الذين لا يبحثون عن الفرحة فيك أنت - مصدر السعادة الوحيدة - لا يريدون السعادة بأنتم معنى الكلمة؟ أم هل يريد الجميع ذلك، لكن بما أن «اللحم يشتهي ضدّ الروح، والروح ضد اللحم، حتى لا يفعل ما يريدان»، فهما يتزلان إلى ما يقدّران عليه، ويقنعان به، لأن ذلك الذي لا يقدّران عليه لا يريدانه بما يكفي من القوة ليكونا قادرّين عليه؟

أسأل جميع الناس أيفضّلون الفرح في الحق أم الفرح في الباطل، فيقولون دون تردد إنّهم يفضّلون الحق، تماما كما يفضّلون أن يكونوا سعداء. السعادة هي لعمري الفرح في الحق. فذاك هو الفرح فيك، أنت الحق، أنت إلهي «ونوري وسلامة مُحيّي يا إلهي!»! جميع الناس يريدون تلك السعادة، هذه الحياة السعيدة دون سواها، الجميع يريدونها، الفرح في الحق يريد الجميع.

عرفت كثيرا من الناس يريدون أن يغالطوا غيرهم، لكن لم أعرف أحدا يريد أن يغالط. إذن فأين عرّفوا هذه السعادة، إن لم يكن حيث عرفوا أيضا الحق؟ يحبونه هو أيضا، لأنّهم يرفضون أن يغالطوا، وبما أنّهم يحبّون السعادة، ولنست سوى الفرح في الحق، يحبّون بالطبع الحق أيضا، وما كانوا ليحبّوه لو لم يكن شيء ما من معناه في ذاكرتهم.

إذن لم لا يفرّحون فيه؟ لم هم ليسوا سعداء؟ لأنّهم منشغّلون انشغالا أكبر بأمور أخرى تجعلهم تتعسّ، أكثر مما يجعلهم سعداء ذلك الشيء الذي يتذكرون به بصورة ضئيلة. « فهو لا يزال نورا ضئيلا بين الناس»: فليمشوا! ليمشوا «حتى لا تمسك بهم الظلمات!».

34. من ناحية أخرى لماذا «يلد الحق الكراهة»؟ لماذا أصبح الإنسان المبشر بالحق باسمك، عدوا لهم، والحال أن السعادة محبوبة وليس إلا الفرح في الحق، ولو لم يكن لأن الحق يُحبّت بكيفية تجعل الذين يحبون غيرهم يريدون أن يحبون ما يحبونه هو الحق، ولما كانوا راضين الزلل، فهم يرفضون أن يفهموا بضلالهم؟ لذلك يكرهون الحق، بسبب ذلك الشيء الذي يحبونه وكانته الحق. يحبونه لضيائه، يكرهونه لمؤاخذة الناس لهم. فلأنّهم يرفضون كونهم ضالّين، ويريدون تضليل الآخرين، يحبّون النور عندما ينكشف في ذاته، ويكرهونه عندما يكتشف أمرهم. لذا سيعاقبون: عقابهم أنّهم لا يريدون أن يكشف النور أمرهم، لكنه سيفضحهم لا محالة، وسيقى محجوبا عنهم. ذلك هو شأن القلب البشري، نعم ذلك بحق شأنه، قلب أعمى كسل مخجل وقع،

يريد أن يختفي، لكن لا يريد أن يخفى عنه شيء. فيجازى بعكس هذا: لا يخفى هو عن الحق، في حين أن الحق يخفى عنه. ومع ذلك أيضاً، ومهما كان شيئاً، فهو يفضل أن يفرح في الحق عوضاً عن الضلال. سيكون إذن سعيداً، إن لم تتعرضه أية عقبة، فيفرح في الحق وحده الذي من ذاته عينها تأتي كل الحقائق.

35. انظركم بحسب في ذاكرتي، باحثاً عنك، يا مولاي، ولم أجده خارجها! لم أجده منك شيئاً لم أتذكره، منذ أن عرفتك. إذ منذ أن عرفتك ما نسيتك، فعندما وجدت الحقيقة، وجدت فيها إلهي الحق بالذات، ومنذ أن عرفته، لم أنسه. إذن منذ أن عرفتك، وأنت دائماً في ذاكرتي، وهنالك أجده، عندما أذكرك، وألتقاك. تلك هي ملامي المقدسة التي أعطتنها رأفك، ناظرة إلى فقري بالشفقة.

36. لكن، أين مقرك في ذاكرتي، يا مولاي، أين مقرك هناك؟ أية حجرة أعددتها لنفسك؟ أي معبد بنيته لك؟ أنت أعطيت ذاكرتي هذا الشرف، لتقيم فيها، لكن في أي جزء منها تقييم؟ ذاك ما أسأل عنه نفسي، وعندما سألتها تجاوزت أجزاء ذاكرتي التي أشتركت فيها مع السواد، ولم أجده فيها بين صور الأشياء الجسمانية، وانتقلت إلى أجزائها التي أودع فيها مشاعر روحي، فلم أجده هنالك أيضاً. ودخلت إلى مركز روحي ذاتها الذي يوجد في ذاكرتي، بما أن الروح تتذكر كذلك ذاتها، فما كنت أنت هناك، لأنك لست صورة جسمانية ولا شعوراً من مشاعر الكائن الحي كالفرحة مثلاً أو الحزن أو الرغبة أو الخوف أو التذكر أو النسيان وهلم جراً، ولست أيضاً الفكر ذاته، لأنك مولى الفكر وإلهه. كل هذا يتغير، أما أنت فدائماً لا متغير، وتظل فوق كل شيء، وتكررت فسكت في ذاكرتي منذ أن عرفتك.

لِمَ أبحث فيها عن المكان الذي تسكته، كما لو كانت الأماكن فيها مميزة؟ فيها تسكن حقاً، بما أني أذكرك، منذ أن عرفتك، وفيها أجده، عندما أعود إليك.

37. إذن أين أجده كي أتعرف عليك؟ إذ لم تكن بعد في ذاكرتي، قبل أن أتعرف عليك. إذن أين وجدتك، كي أتعرف عليك، إن لم يكن فيك، أنت الأعلى مني؟ إذا سرنا نحوك فلا مسافة تبعدنا عنك أو تقربنا منك. أنت الحق، ترأس كل الاستشارات أيضاً، الموجهة إليك في كل مكان، وفي نفس الوقت تجيب جميع أصحابها في مختلف أغراضهم. أنت تجيبهم بوضوح، ولكنهم جميعاً لا يسمعونك بوضوح. كلهم يستشيرونك فيما يريدونه، ولكنهم لا يسمعون دوماً منك ما يريدون. خادمك الأمثل ليس الذي يشغل بأن يسمع منك ما يريد هو، بل الذي يشغل بأن يرى ما يسمعه منك.

38.XXVII. تأخرت في حبك، أيها الجمال القديم كلّ القدم الحديث كلّ الحداثة، تأخرت في حبك! وها إنك كنت في داخلي، وأنا خارج نفسي، وكنت أبحث عنك فيها، وكنت أنقضّ، أنا الدميم، على جلال خلائقك. لقد كنت معي، ولم أكن معك. كانت تشدني بعيداً عنك، تلك الأشياء التي لو لم تكن فيك لما كانت. ناديتني فأسمعت صمّي، وأشرقت فرفعت عمامي، وفُحشت فشمت عيّنك وتنشقته؛ ها إنذا أحن إليك، ذقتك فازداد جوعي لك وعطشي، ولستني فاتقدت (شوقاً) إلى سلامك.

39.XXVIII. عندما سأحلّ فيك كلياً، لن يكون لي في أيّ مكان ألم ولا ضئّ، وستكون حياتي، وهي ملأى بك كلياً، الحياة الحق. إنك من تملؤه تُخفّه. أمّا الآن، وأنا ما زلت غير مليء بك، فأنما عبء لنفسِي، فأفراحِي التي عليّ أن أبكيها تتنافس مع أحزاني التي عليّ أن أفرح منها، ولا أدرِي لمن سيكون النصر.

ويل لي، أنا الفقير! «مولاي أشفق عليّ!». تتنافس أحزاني السيئة مع أفراحِي الطيبة، ولا أدرِي لمن سيكون النصر، ويل لي! «مولاي، أشفق عليّ!» ويل لي! ها إنذا لا أخفي جروحي؛ أنت الطبيب وأنا المريض؛ أنت المشفّق وأنا الشقيّ، هلاً تكون «الحياة البشرية فوق الأرض نزعة؟» (*temptatio = graphie tardive de temptation*) *tentatio* = «من يريد العقاب والمصاعب؟ تأمرنا بأن نتحمّلها، لا بأن ننجّبها، لا أحد يحبّ ما يتحمّل، وإن أحبّ أن يتحمّل، فعلى الرّغم من كونه يفرح بأن يتحمّل، إلا أنه يفضل ألا يكون له ما يتحمّل. عند المحن أرّغب في السعادة، أما في السعادة فأشخى المحن. هل بين هذين التقييدين من متزلّه وسطّي حيث لا تكون «الحياة البشرية نزعة؟»؟ تبا لسعادات الدنيا أولاً، وتبا لها بسبب الخوف من المحن ومن فساد السرور ثانياً! تبا للمحن الدنيا مرّة أولى، وثانية، وثالثة، تبا لها بسبب الرّغبة في السعادة، ولكن المحنّة قاسية فيها، ومن أجل حماية الصبر من الاندثار! هلاً تكون «الحياة البشرية فوق الأرض نزعة دون انقطاع؟».

40.XXIX. وكلّ أملٍ ليس إلّا في شفتك الكبيرة للغاية. أعطِ ما تأمر به، ولتأمّز بما تريده. تطالبنا بالعفة، و«كنت أعلم، كما قال أحدهم، إلّا أحد يستطيع أن يكون عفيفاً، إن لم يعطه الإله ذلك، ولذاك بالذات كان من الحكمة أن نعرف هبة من هو؟» فالعفة لعمري تجمّعنا، وتردّنا إلى الواحد الذي انحرفت عنه متبعرّين. إذ لا يحبك بما فيه الكفاية، من يحبّ معك شيئاً آخر لا يحبّه من أجلك. يا حباً يتقدّ على الدوام ولا يخبو أبداً، أيتها الرحمة، يا إلهي، أضرم في النار طالبنا بالعفة: أعطني ما تأمر به، ومؤنّني بما تريده.

XXX.41. تأمرني حقاً بأن أتقي «شبق اللحم، وشبق العينين، وطموح الدنيا». أمرت بالإعراض عن المضاجعة غير الشرعية، وفي خصوص الزواج بالذات، الذي أجزته، تباهي إلى ما هو أفضل منه. وبفضل متك وهبتيه، وعملت بمقتضاه قبل أن أصبح ناشر سرك. ولكنها لا تزال تحيا في ذاكرتي التي حدثت كثيراً عنها صور تلك الملاد التي رسمتها هنالك العادة. كانت تتقدم إلي في يقظتي، خالية من قواها، لكنها في النوم تأتي قوية لا فقط إلى حد بلوغ اللذة، بل وأيضاً إلى حد الرضا بها وتوهُّم عملية الجماع ذاتها. ورغم كونها صورة وهمية فإنها تسيطر على روحي ولحمي، بقوَّةٍ تجعل الرؤى الباطلة تقنعني في النوم بما لا تستطيع أن تقنعني به الحقيقة في اليقظة. هل أنا آنذاك مختلف عن ذاتي، يا مولاي وإلهي؟ إن البون شاسع بيني وبين ذاتي، منذ الآونة التي انفصمت فيها في النعاس إلى التي أعود فيها إلى اليقظة! أين هو الآن السبب الذي أقاوم من أجله، يقظاً، مثل تلك الإيمادات، وأبقى ثابتنا أمام هجوماتها علينا؟ هل يوصد مع إغماض العينين عند النعاس؟ هل ينام مع حواس الجسم؟ لماذا كثيراً ما نصمد، حتى في المنام، فلا ننسى قراراتنا الصارمة، ونبقي مخلصين لها كل الإخلاص، ولا ننساق مع أية واحدة من تلك الإغراءات؟ ومع ذلك فالبون شاسع جداً، إلى درجة أن هذه المقاومة عندما تتضعَّف نعود عندها نستيقظ إلى راحة الضمير، والمسافة الفاصلة بين الحالتين تجعلنا نكتشف أننا، وإن أسفنا لذلك، لسنا نحن الذين فعلنا ما فعلَّا فينا.

42. هل تقدر بذلك، يا إلهي القدير، أن تداوي أسلام روحي، وينعمه منك أوفراً أن تطفئ أيضاً الحركات الخالية في نعاسي؟ ستزيد، مولاي، أكثر فأكثر في نعمك علىي، حتى تتبعني روحي إليك، متخلاصة من دبق الشبق (*concupiscentiae uisco = de la concupiscence*)، حتى لا تكون ثائرة على نفسها، ولا ترتكب، في النوم أيضاً، لا فقط تلك الذناءات المخزية، عن طريق صور حيوانية تجر اللحم إلى الفسق، بل وحتى لا توافق عليها بثبات، فالألا يرافق لي شيء كهذا، وإن كان ضئيلاً جداً، بحيث يمكن لي أن أمنعه أيضاً بإشارة مني، وأنا نائم في شعور عفيف، لا فقط في هذه الحياة، بل وأيضاً في تلك الأيام الآتية، فليس بالعزيز عليك، أنت القدير الذي «تقدر أن تفعل أكثر مما نطلب ونفقه». ومع ذلك، فما أنا لا أزال فيه الآن من هذا النوع من الضنى، قد قلتَه فيما ينفعني، أملاً أن تتم في شفقاتك، حتى السلام الكامل الذي ستملكه ذاتي، الداخلية والخارجية، عندما «سوف يُلتهم الموت من أجل النصر».

XXXI.43. ويأتي اليوم بمتحنة أخرى، كم أود أن «تكون كافية» لك! نصلح يومياً بالطعام والشراب الجسم المنهوك، قبل أن يأتي يوم «تهدم فيه المأكل والمعدة»،

وتقضى على العوز في بشيع عجيب وتُلِّبس «هذا الجسم الفاسد ثياب اللافساد الدائم». أما الآن فأجد في الاضطرار إليهما عذوبة، وأحارب تلك العذوبة حتى لا أصبح لها أسيراً، وأقوم بحرب يومية قوامها الصيام، وكثيراً ما أُلزم جسمي «بالخضوع» إليه⁽¹⁾. ومع ذلك فالآلام في تطرد باللذة، لأن الجوع والعطش هما ضربان من الألم، يحرقان ويقتلان كالحمى، لولا نجدة الأغذية كالأدوية. لكن بما أن هذه الأغذية جاهزة، بفضل سلوان هباتك التي تخدم الأرض والماء والسماء بها ضعفنا، فإن الضرورة المؤلمة تصبح ضرباً من اللذة.

44. ذاك ما علّمتني: أن أتقدم للأغذية لأنتناولها كالأدوية. لكن، عندما أمر من ضنى الجوع إلى راحة الشبع، يتضمني عند مروره بالذات فتح الشبق. إذ للمرور ذاته لذة، ولا يوجد غيره، كي أمر حيث تفرض علىي الضرورة العبور. ورغم أن الصحة هي سبب الأكل والشراب، فالعدوية تنضم بخطرها، كأنها تابعة، وكثيراً ما تحاول أن تحوز السبق حتى تصبح السبب الذي من أجله أقول أو أريد ما أفعله من أجل الصحة.

لكن المعيار ليس عينه في كلتا الحالتين، إذ ما يكفي للصحة قليل بالنسبة إلى المتعة، وكثيراً ما يكون مشكوكاً فيه، هل إن العناية الضرورية بالجسم تتطلب زيادة أخرى، أم أن خدمة الشبق الخلبي تقضي بذلك باطلأ. لهذا الشك تتيه الروح الشقيقة، وفيه تهتئ الدفاع على اعتذارها في هذا المضمار، مبتهجة بكونه لا يتضح أن ما يكفي دعامة للصحة يغطي خدمة اللذة تحت غطاء سلامتها. أحارب يومياً أن أتصدى لهذه التزاعات، وأنادي يمناك، وأعرض عليك ارتباكي، لأن رأي لا يزال غير ثابت في هذا شأن.

45. أسمع كلمة إلهي تأمرنا: «لا تقلوا قلوبكم بالشرابة والإدمان»؛ الإدمان بعيد عنّي، إزاف بي كي لا يقترب مني! أما الشرابة فتسرب أحياناً إلى خادمك⁽²⁾: إراف بي

(1) ...in seruitutem redigens corpus ... = «أُلزم جسمي بالخضوع إليه». المرجع نفسه، ص 272 الملاحظة 1: «يقدم لنا «بوسidiوس» Possidius الذي كتب ترجمة حياة أوغسطينوس بعض التفاصيل عن بساطة التقشف التي كانت تتصف بها مائدة أوغسطينوس. على أن اللحم والخمرة كانوا مباحين...». «حتى في الحالات التي كان فيها الأسقف يصوم النهار كله، فإنه كان يخصص ذلك الوقت لحل القضايا التي تعرض عليه...».

(2) ...subrepit seruo tuo.. (Crapula, s'entend...) = الشرابة تسرب أحياناً إلى خادمك. المرجع نفسه، ص 273 الملاحظة 1: «La crapula هي البدانة المفرطة بسبب الإفراط في الأكل أو الشرب. والكلمة تسمى إلى أقدم العصور اللاتينية... لدى الكتاب الكلاسيكيين. والكلمة =

كي تبتعد عنّي! «إذ لا أحد يقدر أن يكون عفيفاً، إلا لو وهبته ذلك». تعطينا الكثير، ونحن ندعوك، وكل الخير الذي تقبلناه قبل أن ندعوك، تقبلناه منك؛ وما نتعرّف عليه من بعد، تقبلناه منك. ما كنتُ قط سكيراً مدمداً، بل أعرف مدمدين أصبحوا بفضلك معتدلين. إذن فكون بعضهم اليوم ليسوا البتة كما كانوا هو من صنيعك، وكون بعضهم الآخر لم يعودوا ما كانوا هو أيضاً من صنيعك، وكون أولئك وهؤلاء يعلمون من صانع ذلك فمن صنيعك أيضاً.

سمعت كلاماً آخر منك: «لا تجرِ وراء شراحتك، وابتعد عن الملاذ». وسمعت كلاماً آخر أنتَ به على فأحببته: «إن أكلنا، لم نزدد شيئاً، وإن لم نأكل لم ينقصنا شيء». وهذا يعني: الشيء الأول لن يجعلني غيتاً، والشيء الثاني لن يجعلني فقيراً. وسمعت كلاماً آخر: «تعلمتُ أن أكون مقتنعاً بما أنا فيه: أعرف العيش في الوفرة، وأعرف تحمل الفاقة. أقدر على كل شيء بالذي يقويني». ذاك هو جندى المعسّر السماوي⁽¹⁾ لا الغبار الذي نمثله، لكنك تذكر، يا مولاي، «أتنا غبار»، ومن الغبار (de puluere = avec de la poussière) خلقت الإنسان، «وكان قد ضاع وجود نفسه». ولم يقو العواري فيه، لأن غبار مثله، وأحبيت قول وحيك هذا وإلهامك «أقدر على كل شيء في الذي يقويني». قوني كي تكون لي القوة، أعطني ما تأمر به، ومُزنني بما تريده⁽²⁾، فهو يعترف أنه تقبل منك كل شيء، وأنه «يفتخرون بما يفتخرون به في المولى». سمعت غيره يطلب أن يتقتل ما يقول: «أبعد عنّي غلمات البطن». واضح، يا إلهي المقدس، أنك أنت الواهب، عندما يحدث أن يقع ما تأمر به.

46. علمتني، يا أبي الطيب، أن «كل شيء صاف للأصفباء»، لكنه يسوء «المرأة أن يأكل للفضيحة»؛ وأن كل مخلوق ملك طيب»، وألا شيء يجب أن يطرح، مما يؤخذ منك بالشكر؛ وأن نوع الطعام لا يشفع لنا لدى الإله»، وألا أحد يديتنا بسبب ما نأكل أو ما نشرب»؛ وأن من يجد ما يأكل يجب ألا يحتقر من لا يأكل»، وأن من لا يأكل

⁼ crapula تعني الإفراط في شرب الخمرة، في حين أن الكتاب المسيحيين كانوا يستعملونها وهم يعنون بها الإفراط في تناول الطعام.

(1)... miles castrorum caelestium = جندى المعسّر السماوي. المرجع نفسه، ص 274 الملاحظة 1: «نمت الاستعارات الحرية بزيارة وتکاثرت في لغة رجال الكنيسة حول معنى مكر المؤمن الذي أصبح جندى الغلاء بفضل القدسية البابوية...».

(2) ذكرت هذه القاعدة الأخلاقية العديد من المرات في هذا الكتاب quae iubes et iube quod... uis... = هب ما تأمر به ومز بما تريده. المرجع نفسه، ص 274 الملاحظة 2.

يجب ألا يُدين الأكل». تعلمت هذا، فالشكر لك والحمد، يا إلهي ومعلمي وطارق أذني ومنير قلبي: خلصني من كل نزعة. أنا لا أخشى دنس الغذاء بل دنس الشهوة، أعلم أنه سمح لنوح (Noe = Noé) أن يأكل كل نوع من أنواع اللحم الصالحة للأكل، وأن إلياس (Heliam = Hélie) استعاد قواه بأكل اللحم، وأن يوحنا (Iohannem = Jean)، رغم الرَّهْد العجيب الذي كان يوصف به، لم يتتجس بتلك الحيوانات، ذلك الجراد الذي كان منه طعامه: وأعلم أنَّ إيزاوا (Esaü = Esau) غالطه شهوته العاتية للعدس، وأنَّ داود (Dauid = David) لام نفسه ذاتها بسبب الرغبة في الماء، وأنَّ ملكتنا استهواه لا اللحم بل الخبز. ولذلك بالذات حُقَّ للشعب في الصحراء أن يلام، لأنَّه رغب في اللحوم، بل لأنَّه بسبب الرغبة في الطعام قد تذمر من المولى^(١).

47. إذن بما أني وُضعت وسط هذه الترغبات، فلاني أصارع يومياً شهوتي الطعام والشراب، لأنَّ هذه المتعة ليست كالشهوة الجنسية: لم أكن قادرًا على أن أقطعهما دفعَة واحدة، وألا أعود إليهما من بعد، كما فعلت ذلك في خصوص المضاجعة. لذلك كان عليَّ أن أكبح جماح بطني، كبحا خفيفاً تارة، وقوياً تارة أخرى. ومن، يا مولاي! من ذا الذي لن يُجرِّ في يوم ما إلى ما وراء حدود الضرورة؟ من يكن عظيمًا، أيا كان، فليعظم اسمك! أتنا أنا فلست بذلك الإنسان العظيم، لأنَّي إنسان مذنب. لكنني أنا أيضًا أمجد اسمك، ويشفع لي لديك من أجل خطايايَ ذلك الذي «غلب الدنيا». وهو يُعذبني ضمن «الأعضاء الضعيفة في جسمه» لأنَّ «عينيك رأياً اللاكامل فيه، وسوف يسجل كل شيء في كتابك».

48. XXXII. فتنة الروائح لا تشدني أكثر من اللازم: عندما تكون غائبة، لا أبحث عنها، وعندما تكون حاضرة، لا أزدرها، لكنني متهمٌ أيضًا لاستغنى دومًا عنها. ذلك على كلِّ ما أظن، ولعلي مخطئ، إذ في كذلك من تلك الظلمات ما يجب الانتساب بسيبه، لأنَّه يخفى المقدرة التي توجد في نفسي، بحيث أنَّ فكري – عندما يتساءل بذاته عن قواه الخاصة لا يعتقد أنه من السهل جداً أن يشق بمنفسه، لأنَّ ما يكمن فيه يكمن في الغالب مكتوماً، إلا أنَّ تظاهره التجربة، ولا أحد ينبغي أن يكون آمناً في هذه الحياة التي تسمى «بالترغبة الدائمة»: هل الذي أمكنه أن يتحول من الأسوأ إلى الأحسن، لا يستطيع أن يتحول من الأحسن إلى الأسوأ؟ الأمل الوحيد والثقة الوحيدة والوعد الصادق الوحيد في رأفتكم.

(١) ذكر هذا الكلام «بوزيديوس» (Vita Augustini, § 22) لبيزير به عادة أوغسطينوس في وضع الخبرة دائمًا بارزة على مائدته، انظر أعلاه ص 272 وهنا ص 275 الملاحظة ١..

XXXIII. 49. ملاد السمع كانت قد عانقتني، وأسرتني بأكثر شدة، لكنك فككت وثافي وحررتني. فالآن في الألحان التي تعبيها كلماتك، عندما تغنى بحق بصوت عذب. أقرّ أنني أطرب لها، لا إلى حد الفتنة، بل إنني قادر أن أتوقف، متى شئت. لكن مع ذلك، عندما كانت روحي تتقبلها صحبة الأفكار عينها التي تحيا بها، فهي تبحث في قلبي عن مكان يليق بها بعض الشيء، وأقدم لها بصعوبة ما يناسبها. إذ أحياناً يبدو لي أنني أمنحها من الشرف أكثر مما يليق بها، وأنا أحسّ بكل الكلمات المقدسة ذاتها والمعنّاة هكذا، تؤثّر في روحي بنار من التقوى والإيمان أكثر اتقاداً منها، لو لم تكن معنّاة، وكلّ مشاعر روحنا تجد فيها، حسب اختلافها، طابعها الخاص في الصوت والغناء، وتتحرّك بتناقض خفي بينهما لا أدرّي ما يكون، إلا أن لذة اللحم في التي يجب ألا تُزعج روحي، تضليلني كثيراً، عندما يرافق الإحساس العقل، دون أن يصبر على وجوده خلفها، ولكنه بسيتها استحق فقط أن يقبل فيها، ومع ذلك يحاول أن يسبّها وأن يقودها. إذن، في هذه الأشياء، أذنب دون أن أشعر، ولكنني أشعر، بعد ذلك.

50. لكن أحياناً، بسبب انتقاء ذلك الغلط انتقاء مفرطاً أكثر من اللزوم أقع في زلل الصرامة المفرطة، لكن من حين إلى آخر أودّ بحق أن أُبعد، عن أذني وعن الكنيسة ذاتها جميع الألحان الرثائية العذبة التي يرافق بها زُبُور داؤد (= *Daudicum psalterium*) (les psaumes de David)، ويبدو لي أضمن أن يقتصر في هذا على اتباع أثانا زيوس (Athanasio = Athanase) أسقف الإسكندرية، وأتذكر ما قيل لي عنه أكثر من مرّة، من أنه كان يجعل قارئ المزامير ذا صوت يخرج منه في ترّتم ضعيف، أشبه بالإلقاء منه بالفناء^(١).

أما عندما أتذكّر مع ذلك دموعي التي كنت أذرّها بسبب غناء كنيستك، في أوائل استرجاعي لعقيدتي، وبما آتي لا أناثر الآن بالغناء، بل بالكلمات التي تغنى، عندما تغنى بصوت جهوري وفي ترّتم مناسب جداً، أعترف من جديد بفائدة هذه الطريقة الكبيرة. هكذا أتموّج بين خطر اللذة الحسية واختبار السلامـة الحاصلة منها، ولذا أتقاد أكثر لا لعمري للبوج برأي لا رجوع فيه، بل لكوني أواقـق على عادة الغناء في الكنيسة،

(١) ص 277 الملاحظة 2: وفي موضع آخر يتصرّ أوغسطينوس للغناء الكنائسي، اعتماداً على المبدأ القائل: إنه يسبّ من الخير للنفوس الحسنة التي أكثر من الشر الذي يمكن أن يسبّه للذوي النفوس "المريضة" ...

حتى تصعد الروح التي لا تزال ضعيفة، من متعات الأذان إلى مشاعر التقوى. ومع ذلك، عندما يتفق لي أن يزور في الغناء أكثر من الكلمات، أفرج بأتي مطالب بالتكفير عن خططيتي، وكم أود عند ذاك ألا أسمع الغناء!

هذا ما أنا فيه! أبكيوا معي، وأبكونا لي، أنتم الذين تحسون في نفوسكم من التقى ما يصدر عنه العمل الصالح. فأنتم الذين لا تحسون به، لا يحرّككم هذا. أما أنت، يا مولاي وإلهي، فأصagne إلى، أدر إلى عينيك، وانظر، وأشفق علىي، وداوني»، أنت الذي أصبحت في عينيك لغزاً، وذاك سقمي عينه.

51. XXXIV. تبقى للذة عيني لحمي تلك. ما أريد أن أقوله عنها من الاعترافات يجب أن تسمعها آذان معبدي⁽¹⁾ الأخوية التقية، فنضع حداً لترغبات الغلمة الجنسية (concupiscentiae carnis = de la concupiscene charnelle) التي لا تزال تزهقني، رغم آهاتي ورغم أني «راغب في أن يُضفي على مسكنى الذي هو في السماء». تحب عيني الخلائق الجميلة المختلفة والألوان الساطعة النصرة، وكم أود ألا تؤثر روحـي! ليؤثرـها الإله دون سواه، فقد خلق لعمري تلك الأشياء «الحسنة جداً»، لكنـه هو بالذات خيري، لا هي. فهي تغرنـي، كل يوم، في الـيـقـظـةـ ولا تعطـينـي الـرـاحـةـ، كـماـ تعـطـينـيـهاـ الأـصـوـاتـ الرـخـيمـةـ، وـيعـطـينـيـهاـ الكـوـنـ أـحـيـاـنـاـ فـيـ ساعـةـ السـكـونـ. فـمـلـكـةـ الأـلـوـانـ عـيـنـاهـ وـالـنـورـ ذـاـهـ المـتـشـرـ فـرـقـ كـلـ، ماـ نـبـصـرهـ، حـيـشـماـ كـنـاـ، طـلـيـةـ النـهـارـ، هـذـهـ الـمـلـكـةـ تـسـرـبـ إـلـيـ بـأـشـكـالـ عـدـيـدةـ، فـتـلـامـسـيـ، حتـىـ عـنـدـمـاـ أـكـوـنـ مـنـهـمـكـاـ وـمـنـصـرـافـاـ عـنـهـ إـلـيـ شـيـءـ آخـرـ. لـكـنـهاـ تـفـذـ فـيـ بـقـوةـ فـاقـحةـ تـجـعـلـنـيـ إـنـ تـعـطـلـتـ فـجـأـةـ أـطـلـبـهاـ بـرـغـبةـ شـدـيـدةـ، وـإـنـ غـابـتـ طـوـيـلاـ، أـحـزـنـتـ رـوـحـيـ.

52. أيها النور الذي كان يراه طوبيس⁽¹⁾ (Tobis = Tobie) عندما كان، وهو مكفوف البصر، يعلم ابنه طريق الحياة، وكان يسبقه بخطى المحجة دون أن يضل أبداً؛ أو النور الذي كان يراه إسحاق (Isaac)، وقد أفل بصره حجاب الشيخوخة الثقيل، عندما استحق لا أن يبارك أبناءه وهو يتعرف عليهم، بل أن يتعرف عليهم، وهو يباركهم، أو

(1) انظر القديس باول، Saint Paul الرسالة الثانية للكورنثيين VI, 16 «Ille Epître aux Corinthiens aures: «نحن جمعينا معبـدـ الإلهـ الحـيـ». المرجـع نفسهـ، صـ 278 الملاحظـةـ 1:... templi tui,... = les oreilles de votre temple»... وهو الأسلوب الذي يسمى التشخيص والكنائية، وتوجد من هذا الأسلوب أمثلة أخرى في الاعترافات. فهو ينسب الأذنين مثلاً إلى القلب، مقيماً على ذلك التصور علاقة بين التائب (أي أوغسطينوس) وربه المخلص حين عباده من البشر (والتدقيق من المترجم).

النور الذي كان يراه يعقوب (Jacob = Jacob) فتشعر عيناه بسبب سنه المتقدم، فأضاء بأشعة قلبه التير أجيال الشعب المقرب المتجلد في أبنائه، ولمس أحفاده من ذرية يوسف (Joseph = Joseph) ببركة يديه المتصالبين طبق الروحانية المسيحية، لا كما كان يصلحهم أبوهم من الخارج، بل كما كان هو يدركه في قراره نفسه! ذلك هو النور، هو واحد أحد، ويكون وحدة مع كل من يراه ويحبه.

أما ذلك النور الدنيوي الذي كانت تتحدث عنه، فيفوه بالعدوية الفاتحة الخطيرة حياة المكفوفين، عشاق الدنيا. أما الذين يعرفون كيف يمدحونك في شأنه، «يا إلهي الخالق للكل» فيتسلمونه في نشيدك، ولا يستسلمون له في سباتهم: أريد أن أكون هكذا، أتصدى لفتنت العيون، حتى لا تعرقل فيها رجلاي التي أتقدم بهما في طريقك، وأرفع إليك عينين خفيتين «حتى تفك القيد عن رجلي». أنت الذي تفكه دوماً عنهم، لأنهما تعرقلان فيه. أنت الذي لا تتوقف عن تخليصي، أما أنا فكثيراً ما أتوقف في كل مكان، بسبب الفخاخ المنتشرة، حيث «أنك لن تنام ولن تنفس، أنت الحارس لإسرائيل».

53. كم هي عديدة لا تحصى الإغراءات التي عرف الناس كيف يضيغونها إلى ما يفتن الأنوار، بالفنون بمختلف أشكالها، وبمهارة العاملين في الشباب والأحذية والأواني والمصنوعات من جميع أنواع اللوحات والرسوم الأخرى التي تتجاوز كثيراً حدود الفائدة الضرورية المعتدلة، ذات الدلالة المطابقة حقاً للتقوى! فيهتمون خارجياً بمهارة أيديهم خاصة، تاركين في قراره أنفسهم ذلك الذي هم مخلوقاته، ومبددين صناعة الخالق فيهم.

أما أنا، يا إلهي وعزتي، فمن هذا أيضاً أنشدك نشيداً، وأصحي أضاحية المدح للذي ضحتي من أجله، حيث أن آيات الجمال المتنقلة من أرواح الفنانين إلى أيديهم تأتي من ذلك الجمال الذي يوجد فوق الأرواح والذي تتوقد إليه روحى ليل نهار. لكن المبدعين للجمالات الخارجية والمغربين بها يأخذون منه صيغة موافقتهم عليه، ولكن لا يأخذون منه صيغة الاستعمال السليم. ورغم أن هذه الأخيرة موجودة هناك، فإنهم لا يرونها، وإنما ذهبوا إلى ما هو أبعد، و«الحفظوا قوتهم لك» ولم يذدوها في الملاذ الموهنة.

أما أنا الناطق بهذه الحقائق والمبصر لها، فإني أعيق أيضاً مسيرتي بهذه الجمالات، لكنك، مولاي، أنت تخلصني منها، تخلصني أنت، «لأن شفقتك دوماً أمام عيني». أفع فيها بشقائي، وتخلصني أنت منها بشفقتك، وأنا غير شاعر بذلك في بعض الأحيان، لأن

سقوطي كان خفيفاً ناعماً، وفي بعض الأحيان بشيء من الألم، لأنني كنت قد تعلقت بها بعدُ.

54.XXXV هنا يضاف شكل آخر من التزغات، أكثر تعقداً وخطراً، فعلاوة على الشهوة الجسدية التي تحكم في استمتاع كل الحواس بلذاتها التي يفني في خدمتها العباد الذين يجعلون أنفسهم في عزلة عنك، توجد في الروح شهوة أخرى. وهي تمر عبر نفس الحواس لكنها لا ترمي إلى المتعة الجسدية، بل إلى إجراء اختبار الله اللحم، فهي رغبة تافهة فضولية مغطاة وراء اسم المعرفة والعلم. وبما أنها بالأساس رغبة في المعرفة وبما أن للعيون دوراً رئيسياً في العلم، فإن وسيط الوحي الإلهي (*eloquio*) قد دنعتها باسم «شهوة العيون».

فالرؤية تعود بالخصوص إلى العيون. لكننا نطلق هذه الكلمة أيضاً على الحواس الباقية، عندما تقصد بها المعرفة، فلأنقول: «اسمعْ كم يلمع»، ولا «استنشقْ كم يبرق»، ولا «اذْقْ كم يسطع»، ولا «المنْ كم يومض»؛ بل نستعمل «انظر» (*vu* = *uideri* = *être*)⁽¹⁾ في جميع هذه الإحساسات. فلأنقول فقط: «انظرْ كم هذا مُنير»، الشيء الذي لا تقدر أن تحسن به إلا الأعين، لكننا نقول أيضاً: «انظرْ ما الصوت، انظرْ ما الرائحة، انظرْ ما الطعام، انظرْ كم هذا صلب».

ولذلك فخبرة الحواس العامة، كما سبق أن قلنا، تدعى «شهوة العيون»، لأنّ وظيفة الرؤية التي تحتل العينان فيها الصدارة تقوم بها أيضاً سائر الحواس بسبب التشابه، عند تقسيها موضوعاً معرفياً ما.

55. من هنا نتبين من ناحية أخرى ما تقوم اللذة به، وما حب الإطلاع في حركة الحواس، وأن اللذة تبحث عن الجميل وعن المطروب وعن العذب وعن حلول المذاق وعن لطيف اللمس، أما حب الإطلاع فيبحث عن إحساسات مضادة تماماً، من أجل التجربة، لا من أجل مواجهة غمة، بل رغبة في الاختبار والمعرفة. فما هي اللذة في رؤية جثة ممزقة أشلاء تملئنا رعباً؟ ومع ذلك، فكلما طرح

(1) يقول «ب. دي لا بريول» P. DELABRIOLLE ص 282 من الجزء الثاني من الاعتراضات، نقلاً عن «بوسوبي» BOSSUET من كتابه *Traité de la Concupiscence*، لأن العينين، من بين جميع الحواس الأخرى، هي التي توسيع أكثر من غيرها من مجال معارفنا. فجميع الحواس الأخرى تتضوّي ضمناً في العينين أي حاسة البصر. لا ترى أن الناس كثيراً ما يجررون في كلامهم على الترافق «أرى» و«أشعر» من رؤية البصر ورؤية البصيرة...».

بعضهم أرضا، هب إليه الناس واصفرت الوجوه ومن فرط الاندھال. ويختاف الناس أيضا رؤية الميت في المنام، كما لو أن أحداً أجرهم، في اليقظة على أن يرؤه، أو أن شيئاً من الجمال شهر فيه، فشدهم إليه.

وكذلك الشأن في بقية الحواس، والحديث عنها يطول. وعن هذه الرغبة المرضية يصدر، في عروض الفرجة، عرض المخلوقات الوحشية (= *quaeque miracula*) . وعن ذلك نصدر في سبر أغوار الطبيعة التي تتعذّانا فلا نجني من معرفتهافائدة والتي لا يريدون منها إلا العلم. ومن ذلك أيضا كل ما يبحثون عنه بفنون الشعوذة لنفس الغاية إلا أنه لعلمٍ مضلل ومن هنا أيضا، في الدين عينه، «امتحان الإله» عندما تطلب منه إشارات ومعجزات، لا للنجاة بل لمجرد الرغبة في اختباره.

56. في هذه الغابة الواسعة، الملائى بالفخاخ والأخطار، ها أنا قد قلعت منها الكثير وطرحته من قلبي، كما وهبتهي القدرة على فعله، «يا إله نجاتي»، ومع ذلك فمتى أجراً أن أقول، وهذه الإحساسات الكثيرة والمتنوعة جداً تدوي حولي في حياتي اليومية، متى أجراً أن أقول إنّي غير مهمّ بأية واحدة من الشبيهات بها، وإنّي لا أنظر إليها، ولا أتناولها بفضولي التافه؟

حقالم بعد المسرح يستهويوني، وصرت لا أكترث بمعرفة مسارات النجوم، وروحى لم تبحث قط عن أجوبة عند أشباح الظلال؛ أكره كل الطقوس المرجسة، أطلب منك، مولاًي وإلهي، أنت الذي يجب أن تكون خادمك المتواضع البسيط، كم من دسائس يدسها لي العدو الشيطان (*inimicus = l'Ennemi ou Satan*) في إياعاته بأن التمس منك معجزة ما! لكنني أرجوك، باسم ملكنا وباسم القدس (*Hierusalem*)⁽¹⁾ وطنينا النقى التقى، أن تكون موافقتي المذنبة هذه التي هي بعيدة عنّي دوماً بعيدة، وتزيدها بعداً أمّا، عندما أتوسل إليك للنجاة شخص آخر، ف تكون الغاية من إرادتي هذه مبaitة جداً، أجعلني دائمًا أتبع بطيبة الخاطر إرادتك، مهمماً كانت.

57. لكن مع ذلك، ما أكثر الأشياء التي يمتحن فيها يومياً حبتنا للإطلاع وما أدّقها وما أحقرها! وما أكثر سقوطنا فيها، فمن يحصيها؟ كم من مرة نتحمّل في البداية من يرون لنا الترهات كي لا نهين ضعفهم، ثم نهتم شيئاً فشيئاً بهم عن طيب خاطر! لم أعد أقصد الملاعب لأنّ شاهد كلّها يجري وراء قُواع (*le porem = un lièvre*) ، وبالعكس إن صادفي ذلك في حقل من الحقوق، فإنّ مشهد الصيد ذاك قد يلهيني عن تفكير عميق،

(1) انظر ص 189 في نهاية الكتاب التاسع الفقرة 37، XIII، بشأن اشتراق اسم هذه المدينة الشهيرة.

وقد يوجهني إلى وجهته، لكن دون أن يجربني على تغيير وجهة الذابة التي تحملني، في حين أن قلبي يتعلق به؛ ولو لم تنتهي أنت لضعي، سريعاً، بواسطة هذا الدليل، أو بالابتعاد عن هذا المشهد، كي أرتفع إليك بنوع آخر من التفكير، أو باحتقاره كلياً وتجاوزه، لبقيت فاغر الفم من تفاهتي.

ماذا أقول؟ عندما أكون جالساً في متزلي، والحرباء تصطاد الذباب، والعنكبوت يلف بشبّعه⁽¹⁾ الحشرات الساقطة فيه، كثيراً ما يجعل هذا انتهاي. أفلأ يقع نفس الشيء لأن تلك الحيوانات صغيرة؟ أنتقل من ذاك إلى مدخلك، أنت الخالق العجيب المنظم لكل الأشياء، لكنني لم أبدأ بالاهتمام بهذا. فإن تهب واقفاً بسرعة ورشاقة شيء، أما ألا تسقط أبداً فتلك قضية أخرى.

حياتي ملأى بمثل هذه الأشياء، وأملـي الوحـيد في رأـفتـكـ الكـبـيرـ جداـ، لأنـ قـلـبـنـاـ مـلـجـأـ لـمـلـأـ هـذـهـ الأـشـيـاءـ، وـحـامـلـ لـفـيـالـقـ عـدـيـدـةـ منـ الـحـمـاـقـاتـ. لـذـلـكـ كـثـيـراـ ماـ تـوـقـفـ دـعـواـتـنـاـ وـتـلـعـشـ، وـبـيـنـماـ نـحـنـ، بـمـرـأـيـ مـنـكـ، نـوـجـهـ إـلـىـ أـذـنـيكـ صـوتـ قـلـبـنـاـ، لـأـدـرـيـ مـنـ أـينـ تـنـقـضـ عـلـيـنـاـ الـأـفـكـارـ السـخـيـفةـ، فـتـقـطـعـ مـثـلـ هـذـاـ عـلـمـ الـجـلـيلـ.

58.XXXVI. فهل سنعتبر هذا أيضاً ضمن ما يجب احتقاره؟ أم هل أن شيئاً غيره سيعيد إلينا الأمل ولا يكون رأفتـكـ المـعـرـوفـةـ، بما أـنـكـ بـدـأـتـ تـغـيـرـ ماـ بـأـنـفـسـنـاـ؟ وأـنـ تـلـعـبـ العـجـابـ الـكـبـيرـ الـذـيـ غـيـرـتـهـ فـيـنـاـ، أـنـ الـذـيـ تـداـوـيـنـيـ فـيـ الـبـدـاـيـةـ مـنـ هـوـىـ الـاـنـقـامـ، كـيـ «ـتـصـبـحـ أـيـضاـ عـطـوـفـاـ عـلـىـ كـلـ أـشـكـالـ جـوـرـيـ الـأـخـرىـ، وـكـيـ تـداـوـيـ كـلـ أـسـقـامـيـ وـتـنـقـذـ حـيـاتـيـ مـنـ الـفـسـادـ وـتـتـوـجـنـيـ فـيـ الشـفـقـةـ وـالـرـأـفـةـ، وـتـشـفـيـ بـخـيـرـاتـكـ غـلـيلـيـ»ـ، أـنـ الـذـيـ أـخـضـعـتـ بـالـخـوـفـ مـنـكـ كـبـرـيـاـنـيـ وـرـوـضـتـ لـبـرـكـ عـنـقـيـ. هـاـ أـنـذـاـ أـحـمـلـهـ وـهـوـ لـيـنـ «ـمـرـيـعـ»ـ (lene = doux)، كـمـاـ وـعـدـتـ وـأـنـجـزـتـ حـقـاـ مـاـ وـعـدـتـ، وـكـانـ كـذـلـكـ حـقـاـ، وـلـمـ أـكـنـ أـعـلـمـ ذـلـكـ عـنـدـمـاـ كـنـتـ أـخـافـ أـنـ أـطـاطـيـ لـهـ رـأـسيـ.

59. لكن، قـلـ ليـ ياـ مـوـلـايـ، أـنـتـ الـذـيـ تـسـودـ وـحدـكـ دـونـ كـبـرـيـاـ⁽²⁾ لـأـنـكـ «ـالـمـولـيـ الـوحـيدـ الـحقـ»ـ الـذـيـ لـاـ مـولـيـ لـهـ، قـلـ ليـ: هـلـ اـنـتـهـيـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـ هـذـاـ النـوعـ الثـالـثـ أـيـضاـ مـنـ الإـغـراءـ، أـمـ هـلـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـهـيـ فـيـ هـذـهـ الـحـيـاةـ، أـعـنـيـ الإـرـادـةـ الـمـتـعـلـقـةـ بـخـشـيـةـ النـاسـ

(1) العُخَاشُ أو الشُّعْ = بَيْتُ العنْكُبُوتِ،

(2) يقارن «ب. دي لا بريول» P. DE LABRIOLLE (ص 285 الملاحظة 1) هذه المعلومات المتعلقة بـجـحـيمـ «ـدـانـيـ»ـ DANTE, Enfer , chants XXXI - XXXXII ، الدائرة الأخيرة التي تسمى «ـكـروـسـيـتـ»ـ Cocytus كانت مبلطة بالجليد»ـ.

وحبهم لنا، لا من أجل شيء آخر، بل لنحصل منها على فرح ليس بالفرح الحق. تلك هي الحياة الشقية والمباهاة الكثيبة! من هنا يأتي كونهم بالخصوص لا يحبونك، ولا يخسرونك بالتفوى، ولذلك أنت «تصدى للمتكبرين، لكنك تعطي النعمة للمتواضعين»، «أنت تُرعد» فوق طموحات الدنيا، فترتجف «أسس الجبال».

إذن، فبسبب بعض وظائف المجتمع البشري، نحن في حاجة إلى أن يحبنا الناس ويخشوننا، لكن عدو سعادتنا الحق يلاحقنا حينما كنا، ناشرا الفخاخ أمامنا بقوله «مرحى، مرحى!» كي توقعنا لهفتنا على جمع هذه الأشياء المظللة في شراكها ونحن في غفلة من أمرها. إن ما ينشده هو إبعاد فرحتنا عن الحقيقة، وربطها بكذب الناس، جاعلا إيانا نتمتع بحبهم لنا وبخوفهم متى، لا بسيك بل عوضا عنك، فنصبح بهذه الكيفية شبيهين به هو عينه، لا من أجل الوفاق في المحبة، بل من أجل الإشتراك في تعديه، هو الذي قرر «أن يضع منزله فوق الشمال (in aquilon = sur l'aquilon) حتى نخدم، في الظلمات والثلوج»⁽¹⁾ مقلدك المنحرف الملتوى.

أما نحن، يا مولاي، انظر كيف كنا «قطيعك الصغير»، فاملكنا أنت وابسط علينا جناحيك، ولنحتم إليهما. ولتكن أنت عزتنا! ولنحبنا المحبوون من أجلك، ولنخش فيما كلامتك. من يريد أن يمدح الناس رغم توبيخك له، لن يحميه الناس يوم تحاسبه فلا يُسترع من عقابك. لكن رغم أنه ليس بالمذنب «الذي يمدح من أجل شهوات روحه»، ولا «من تُبارِك أفعاله الجائرة»، بل إنسان يُمدح بسبب هبة وهبته إليها، فمع ذلك، إن فرح هو بكونه يمدح لشخصه بالذات أكثر من فرحه بالهة التي مدح من أجلها، فإن مدحه يستحق التوبيخ، فيكون المادح عندئذ أحسن من الممدوح! فللاؤل راقت هبة الإله لذلك الإنسان، بينما راقت للثاني هبة الإنسان أكثر من هبة الإله.

60.XXXVII. بهذه التزغات، يا مولاي، نُمتحن يوميا، نُمتحن دون انقطاع. لسان البشر يكون لنا يوميا وطيسا من المحن. تأمننا، في هذا الشأن بالعقبة: أعط ما تأمر به، ومر بما تريدا أنت تعلم في هذا الشخص تنهد قلبي وسيول عيني بالدموع. لا أرى بوضوح كم أكون أكثر طهارة من هذا الوباء، بل أخشى كثيرا أحشائي التي تعرفها

(1) ... sans orgueil... =... sine tyfo... . المرجع نفسه، ص 284 و 285 الملاحظة 1: يذكر دب. دي لا بريول «أيضا كتاب الشهوة» *Traité de la concupiscence*, X لـ«بوسوبي» بشأن «كيريات الحياة»، يقول: هي غواية أكثر عمقا، بسيها ينظر الإنسان إلى نفسه، وقد ترك هو شأنه، كما لو كان إليها بسبب حبه المفرط لشخصه... وهذا العيب تخلى عظامنا حتى النخاع، ونفسنا مستفنة به... (قمنا بإبراز العبارات الهامة (المترجم)).

عيناك، أما عيناي فلا. ففي أنواع التزغات الأخرى أملك نوعاً من المقدرة على رؤية نفسي رؤية واضحة، أما في هذه فتقريباً لا.

فكم توصلت إلى القدرة على كبح جماح روحي من لذات اللحم، ومن حب الاطلاع التافه للغاية، أعرف ذلك، وأنا أرى تلك الأشياء التي أحقر منها، إما بارادتي أو بغيابها، فعندئذ أتساءل هل الوضع أسوأ أم أقل سوءاً بالنسبة إلى، إن لم أكن أملكها. أما المال الذي نبتغيه لخدمة شهوة من تلك الشهوات الثلاث أو شهوتين أو ثلاث فإن لم تستطع الروح أن تكتهن هل إنها تحقره وهي تملكه، فيإمكانها على أي حال أن تخلص منه لتمتحن نفسها.

لكن لثحرم من الحمد والمجيد، ونختبر درجة استقلالنا عنه، هل يجب علينا أن نرضى بحياة شقية مهلكة فظيعة لا يرانا أحد فيها دون أن يكرهنا؟ هل يمكن أن نقول أو نتصور حماقة أكبر؟ لكن، إن كان الحمد، عادة وبالضرورة، رفيق الحياة الطيبة والأعمال الصالحة، فلا ينبغي أن نتخلى عن رفقته، بقدر ما لا نتخلى عن الحياة الطيبة، إلا أنني لا أعلم هل أتحمل الحرمان من الشيء باللامبالاة أم بالامتعاض إلا عندما يكون غائباً عنّي.

61. إذن بمَ أترف لك، يا مولاي، في هذا الصنف من التزغات؟ بمَ أترف، سوى كوني التذ بالمدح⁽¹⁾؟ لكنني التذ بالحق أكثر من المدح. فلو عرض عليّ أن اختار بين أن تمدحني البشرية جماعة لحمقي أو ضلالي، في جميع المسائل، أو أن يوبخني الجميع لشبواني ووثوقي في الحق، لعرفت ما سأفضل. لكنني أرفض، لا محالة، أن يزيدني فرحاً رضا الآخرين بأي عمل من أعمالي الصالحة لكنه ينميه، أفرز بذلك، أما التوبيخ عينه فيقلصه.

وبما آتي شقي هكذا، ومضطرب، يتسرّب إلى ذهني عذر؛ أنت تعلم، يا إلهي، قيمته، أما أنا فيتركني حيران، لأنك لم تأمرنا بالعفة فحسب، أي بما يجب علينا أن نتقيه من الأشياء بالحسب، بل بالعدل أيضاً، أي بما يجب علينا أن نقصده؛ وما أردت أن نجبك أنت وحدك، بل أن نحب أيضاً أخانا الإنسان (*proximum = mon prochain*):

(1) ... التذ بالمدح؟ delectari me laudibus... المرجم نفسه، ص 286 الملاحظة 1 : «الرسالة الثانية والعشرون لأوغسطينوس إلى أسقف قرطاج [أوريлиوس] Aurelius تتضمن تأملات قصيرة بشأن حب المدح... والمخاطر التي تهدّد رجال الكنيسة عندما يعجزون عن مقاومتها». لكنه يؤكد أيضاً أنه «يُكَنَّ بعض الميل إلى ذلك».

فكثيراً ما يبدو لي أني أتذبذب قدماً أخي الإنسان أو بأمله، عندما أتذبذب مجيد ذكي جداً، وأني بالعكس أحزن بسبب إساءاته إلي، عندما أسمعه يوتخي، بسبب إما ما يجهله، أو ما هو حسن.

وأحزن أيضاً أحياناً لما يمدح في، إما لكونه لا يروقني، أنا بذاتي، أو لأن ميزات ثانية ذات قيمة تافهة تعتبر في ذات بال أكثر مما تستحقه. ولكن بالعكس من أين لي أن أعرف هل أن لي هذا الشعور، بسبب كوني أرفض أن أختلف، في خصوصي ذاتها، مع المادح لي، لا بحيث أكون متاثراً بذلك الاهتمام، بل لأن الخصال التي تروقني في نفسي، إن راقت هي بعينها لغيري، فسوف تجعلني أتذذب أكثر؟ بصورة ما أنا لاأشعر أنني ممدوح بحق عندما لا يتفق المديح مع الرأي الذي لي عن نفسي، إما لأن ما يمدح في لا يروق لي، أو لأن ما يمدح في ياطب لي يروق لي أقل. أليس إذن هذا دليلاً على شكّي في نفسي؟

62. وها أنتا، أيها الحق، أرى فيك أنه يجب ألا تتأثر بما يمدح في من أجلني أنا، بل من أجل مصلحة أخي الإنسان. هل الأمر على هذه الحال، لا أدرى؟ معرفتي بك في هذا المضمار أكثر من معرفتي بنفسي. أتوسل إليك، يا إلهي، عزف نفسي بنفسي كي أتعرف لأخواتي المستعددين للدعاء لي، بما سأكون قد وقفت عليه من جروحي. يجعلني أسئل من جديد بأكثر حزماً. لو كانت مصلحة أخي الإنسان حقاً هي التي تهزّني، فللمّ أكون أقل تأثراً، إن وقع لأحد غيري تأنيب غير عادل، متى لو وقع لي أنا؟ لم يؤلمني وخز الإهانة التي تسلط عليّ أكثر من وخز التي تسلط على غيري بمرأى مني لنفس الجرم؟ هل كنت أجهل هذا كذلك؟ وهل أستخلص منه أيضاً أنّي «أشعر نفسي بنفسي» وأني أخون الحق أمامك «في قلبي ولسانني»؟ أجعل، يا مولاي، هذه الحماقة بعيدة عنّي، مخافة «أن يكون كلامي كزب المذنب لتطييب رأسه».

63. XXXVIII «أنا فقير مُعوز» أنا لا أساوي شيئاً إلا عندما لا أروق لنفسي غارقاً في تأوهاتي الخفية، فأبحث عن رأفتكم، إلى أن يتم صلاح النقاد التي في واتصالها، من أجل السلام الذي تجهله عين المتعطّرس: أما الكلام الصادر من أفواهنا والأفعال التي تعرف الناس بنا، فهي ذات نزعة خطيرة جداً، ناتجة عن حب المديح الذي يجمع كالمسئولة أصوات المؤيدين، من أجل التفوق في الحياة الخاصة؛ إغراء دائم متواصل وإن انتقدته بنفسي عن نفسي، بسبب ما يعتقد فيه ذاته. وكثيراً ما يفتخر الإنسان في نفسه افتخاراً تافهاً باحتقاره للفخر، ولذلك فهو لا يفتخر حقاً باحتقار الفخر، لأنه إن افتخر به فذلك دليل على أنه لا يحترمه.

XXXIX. 64. يوجد أيضا في داخلنا، في أعمق أعماقنا، نوع قبيح آخر من نفس التزغات يجعل من يعجبون بأنفسهم في أنفسهم تافهين للغاية، رغم أنه لا يعجب بهم الآخرون، أو لا يروقون لهم، أو أنهم لا يحاولون أن يروقوا لغيرهم أجمعين. لكنهما بلغ إعجابهم بأنفسهم، فهم لا يروقون لك، لا فقط وهم يفتخرون بما ليس خيرا كما لو كان خيرا، بل أيضا بخيراتك، كما لو كانت خيراتهم؛ أو أنهم يعترفون أنها من خيراتك، لكنهم يرجعونها إلى خصالهم الخاصة، أو وهم يعزونها إلى نعمتك (*ext tua* = *gratia* = *otre grâce*)، لكن دون أن يشركوا غيرهم في الفرحة بها، فيحرمونهم منها. ووسط جميع هذه الأنواع من الأخطر والمحن، ترى ارتجاف قلبي بقوه، وأشعرتني لست في مأمن قط من جروح جديدة، وإن كنت تشفيها في الحال.

XL. 65. متى توقفت عن السير معى، أيها الحق، تعلمنى ما يجب أن أتقىه أو أن أتوقف إليه، وأنا أعرض عليك ما استطعت آرائي المتواضعة وأستشيرك؟

جبت العالم الخارجي بحواسى، قدر المستطاع، وتأقلت في الحياة التي أحببى بها جسمى وحواسى عينها. ثم نفذت إلى غياهبا ذاكرتى، وكهوفها العديدة الملايى بأنواع عجيبة من المذخرات التي لا تحصى، وتمعنت فيها واندهشت، وما كنت لألاحظ أى شيء منها بدونك، ووجدت أنك لست أى شيء منها.

لست أنا بذاتي الذي وجدتها، وأنا أستعراضها جمماه وأحاول أن أتبينها وأن أغيّرها، كلا حسب قيمتها الخاصة، متقبلأ بعضها من إشارات الحواس ومسائلها إليها، محضا بعضها ممزوجة بذاتي، متقصيا في أعضائنا بالذات، ومحصيا إليها، ومعالجا بعضها علاجا طويلا في مخازن الذاكرة الفسيحة، خازنا بعضها، مظهرا بعضها الآخر: لست أنا بذاتي ذلك الرجل الذي كان يقوم بهذه الأشياء، أعني القوة التي كنت أعمل بها هذا العمل، إذ لم تكن هي أنت، لأنك أنت النور الدائم، الذي كنت أستشيره في ماهية المسائل المطروحة وكيفها وكتمها: وكنت أستمع لدروسك ولأوامرك وكثيرا ما أفعل ذلك، ذاك يروق لي، وبقدر ما أستطيع أن أستريح من الأعمال الضرورية، ألتتجىء إلى هذه اللذة. وفي كل هذه الأشياء التي أطوف بها، مستشيرا إليك، لا أجده مكانا لروحي إلا عندك، به تتجمع مشاعري المبعثرة، فلا شيء متى يتبعك. وأحيانا تعودني بشعور غير عادي، يقودني في الداخل إلى عنوية لا أدرى ما هي، لكن - إن اكتملت في - ستصبح شيئا لا أدرى ما هو، لا علاقة له بهذه الحياة. إلا أنني أسقط من

جديد في الأشياء الدنيوية وفي أعبانها الشفقة، وأنغمس فيها كالعادة، فتشدّني إليها، وأبكي كثيراً، لكنها تشدّني كثيراً. كم تُقلل العادة لعمرى كاهلنا! فحيث أقدر لا أريد، وحيث أريد، لا أقدر؛ أنا شفقي في كلتا الحالتين.

XLIX. ولذلك تأملت في أقسام ذنبي في خصوص التزغات الثلاث، وناديت يمناك من أجل شفائي، إذ رأيت بهاءك بالقلب الجريح، وقلت مذحوراً: من يصل إلى هنالك؟ «قُذف بي بعيداً عن مرأى عينيك». أنت هو الحقّ تسود الكلّ. أما أنا فسبّب بخلي، لم أرد أن أفقدك، بل أردت أن أملك معك الكذب: فلا أحد يريد أن يقول باطلًا إلى درجة أنه ذاته لا يعلم ما هو الحقّ. لذلك فقدتك، إذ إنك لا تقبل أن يملكك أحد كذباً وبهتانًا.

XLII. من عساه يوقّي بيني وبينك؟ أكان على أن أوسل للملائكة؟ وبأيّ دعاء؟ وبأيّ طقوس؟ الكثيرون المحاولون للرجوع إليك، وغير القادرين على ذلك بأنفسهم ذاتها، جربوا تلك الطريق، وسقطوا في شغف بالرّؤى الشاذة، واعتبروا جديرين بالأوهام، كما علمته.

فهم في صلفهم كانوا يبحثون عنك، متنفّхи الأوداج بعلم كلّ غرور، عوض أن يضرّبوا بها بأيديهم، وجلبوا إلى أنفسهم، بسبب تقارب سرائرهم، «قوى الهراء» المتواترات المتضامنات مع غرورهم، والمصلّلات لهم بقدراتهن السحرية، وكانوا باحثين عن وسيط يقبل تنقيتهم، ولم يكن موجوداً. «فالشيطان كان متّكراً في صورة ملاك النور». وفتن أئمّا فتنة غرورهم كونُ جسمه غير مكسوٌ في ذاته لحمًا⁽¹⁾.

كانوا فانيين مذنبين، أمّا أنت، يا مولاي المتكبر، الذي كانوا يبحثون أن يتصلّحوا معك، فأبدي دائم دون خطيئة. أمّا الوسيط بين الإله والبشر، فكان ينبغي أن يكون له من الإله شبه ومن البشر شبه، حتى لا يكون شبّيها بالبشر فقط، ومن ثمّ بعيداً عن الإله، أو شبّتها بالإله، فقط ومن ثمّ بعيداً عن البشر، وبالتالي لا يكون وسيطاً. فيكون لهذا الوسيط الكاذب بما يتمتع به من تضليل المتكبرين بقراراتك الخفية، شيء يشارك فيه البشر، هو الخطيئة، ويريد أن يظهر أنّ له شيئاً آخر مشتركاً مع الإله، فيما آنه غير

الملاحظة 1: «إنه يقصد هنا بالفعل الأفلاميين الجدد... وهو يواحدهم (في مكان آخر) أنهم أرسدوا إلى الشيطان دور الوساطة بين الإله والإنسان...».

مكتوب لحم الفناء، يتتجح بكونه أبداً، لكن - بما أن «الموت هو أجرة الخطيئة» - فهو يشترك مع البشر في كونه مثليهم محكوماً عليه بالموت.

XLIII. أما الوسيط الحق، الذي أبرزته وأرسلته إلى البشر في رأفك الخفية،
كي يتعلموا أيضاً، أسوة به، عين التواضع، «ذلك الوسيط بين الإله والبشر، الإنسان
المسيح اليسوع»، ظهر بين المذنبين الفانين والعادل الدائم، فانيا كالبشر، عادلاً كالإله،
وبيما أن الحياة والسلام هما جزاء العدل، بالعدل المرتبط بالإله كان يزيل الموت
عن المذنبين المترئين، فأراد أن يشترك فيه معهم. هو الذي أبرز للقديسين القدامي،
حتى يكونوا ناجين هم أنفسهم بالإعتقاد في آلامه المقبلة (= futurae passionis sa passion à venir)، كما نجينا نحن بآلامه الحاصلة فباعتباره إنساناً، هو
وسيط، أما باعتبار الكلمة، فليس وسيطاً، لأنه مساوٍ للإله وإلهٌ لدى الإله، وفي نفس
الوقت إنه واحد.

69. كم أحبتنا، أيها الأب الطيب، إنك «لم تُنجِّي ابنك الوحيد، بل ضحيت به من
أجلنا، نحن المذنبين»! كم أحبتنا، نحن الذين من أجلنا «ذلك الإبن الذي لم يعتقد
أنه من التطاول عليك أن يكون مساوياً لك، فأطاعاك إلى حد الموت على الصليب،
الوحيد الخر بين الأموات، ذو القدرة على التخلّي عن روحه، ذو القدرة على
استرجاعها من بعد»، المنتصر من أجلنا أمامك والضحية، والمنتصر لكونه الضحية،
القسى من أجلنا أمامك والقريبان، والقسّ لكونه القريبان، الجاعل منا أبناء لك، بعد
أن كنا عبيدك، المولود منك ثم الخادم لنا. لي بحق الأمل الثابت فيه أنك ستداوي
كل أسلامي بواسطته، هو الذي يجلس على يمينك و«يتشفّع لديك من أجلنا»: وإنـا
تملكني اليأس إذ كثيرة وكبيرة هي أسلامي عينها، قلت كثيرة وكبيرة، لكن دوائـك
أقوى. كـنا نظـنـ كلـمـتهـ بعيدـةـ عنـ الـارـتـباطـ بـالـإـنـسـانـ، وـكـناـ نـيـأسـ مـنـ أـنـفـسـنـاـ، لـوـ لـمـ تـصـبـحـ
لـحـماـ وـتـسـقـرـ بـيـنـاـ.

70. كان قد جال بخاطري، وأنا مذعور بخطايا شقائي وعيه، وكنت قد تدبرت
منعني منها، وسكنت روعي، قائلاً: «ها إن المسيح قد مات، كي لا يحيا من سيحيؤن
لأنفسهم، بل الذي قد مات من أجهم». ها أنتا، مولاي، ألقى فيك هومي، حتى

(1) الملاحظة 2 من الجزء الثاني من الاعترافات، يقول دي لا بريول: «هذه معلومة تضاف إلى المعلومات التي وفرها لنا بشأن مستقبل حديثه».

أحياناً، و«سوف أتمعن في عجائب قانونك». أنت تعرف جهالتي وضعيفي: علماني وداوني. «ذلك الإبن الوحيد الذي حفظت فيه كلَّ كنوز الحكمة والعلم» افتداني بدمه. فلا يفتر عليَّ المتكبرون الكذب لأنِّي أفكُر في ثمن فديتي، وأكلها، وأشربها، وأوزعها، ولأنِّي - أنا الفقر - أبتغى أن أشبع منها، مع أولئك الذين «يأكلون فيسبعون»: «وسوف يمدح المولى أولئك الذين يبحثون عنه».

الكتاب الحادي عشر

1.I. مولاي، بما أنَّ الأبدية لك، فهل تجهل يا ترى ما أقوله لك؟ أم هل ما يقع في الزمان تراه في الزمان فقط؟ لم إذن أقصُّ عليك جميع تفاصيل تلك الأحداث؟ لا أفعل هذا، على كلٍّ لعلَّها متى، بل لأوقف تجاهلك مشاعري ومشاعر الذين سيقرؤون هذه الاعترافات فيقولون جمِيعاً: «كبير هو المولى وجدير بالمديح»! قلت هذا بعد، ولأعدُّه: أفعله حتَّى في حبك. إذ ندعوك حقًا، ومع ذلك، الحق يقول: «يعلم أبوكم ما تحتاجون إليه، قبل أن تطلبوه منه». لذا نفتح لك قرارة نفوسنا، ونحن معترفون بشقاوتنا ويرأفك بنا، حتى تحررنا بالتمام كما بدأت، وحتى ننتهي من الشقاء فينا، ونبلغ السعادة فيك، حيث أنت حضتنا على أن تكون فقراء الفكر، لطيفين، مشفقين، نقبيِّين، القلوب، ومسالمين.

ها أنذا قد قصصت عليك الكثير، كما استطعت وكما أردت، إلَّا أنك الأول الذي أردت أن أعرف لك، «يا مولاي وإلهي، حيث أنت طيب، حيث أنت شفقتك هي دائمة إلى الأبد».

2.II. من ناحية أخرى، إلى متى سيكفي لسان قلمي لتعديد كلَّ تحرِيضاً لك وكلَّ أهواي والتسليات والتوجيهات التي أوصلتني بها إلى الوعظ بكلماتك وإلى تدريس سرك لشعبك؟ فإن كفى الزمان لعدها بحدايرها كانت كلَّ قطرة منه بالنسبة إلى غالبة. ومنذ القديم أضطرُّم، وأنا أناقُلُ في قانونك، وأعترف لك بعلمي وجهالي، بأنوارك الأولى وبيقايا ظلماتي، ريشما تلتهم قوتُك ضعفي. ولا أريد أن تنقضي في شيء آخر الساعات التي أجدها خالية من ضروريات الإصلاح الجسماني والعمل العقلاني والخدمات التي نطالب بها الناس أو نؤديها لهم دون أن نطالب بها.

3. مولاي وإلهي، «أصحُّ لدعائي»، ولتسمع شفقتك رغبتي، فهي لا تحرقني

أنا فقط، بل تريد أن تكون صالحة للمحبة الأخوية. وترى في قلبي أنَّ الأمر هكذا. دعني أضخِّي لك بعبودية فكري ولساني، وأعطيك «ما أهديه إليك». «فأنت معوز وفقير، وأنت غنيٌّ لكلَّ المتواطلين إليك»، أنت الآمن القائم بهمومنا. طهُر شفتني من كلِّ مجازفة وكلِّ كذب، من الداخل والخارج. ولتكن كتبك المقدسة ملذاتي كي لا أضلُّ فيها، ولا أضلُّ غيري بها! مولاي، أصغِ إلى وأشفق على، مولاي وإلهي، يأنور العميان وفضيلة الضعفاء، وفي الآن نفسه يأنور المبصرين وفضيلة الأقواء، أصغِ إلى روحي واسمعها «منادية من الهاوية». إذ لو لم تكن آذناك حاضرتين أيضاً في الهاوية، فأين ستروح؟ ومن ستنادي؟

«النهار لك والليل لك»: لمجرد إشارة منك تعطير اللحظات. أسبغ على إذن الوقت لتأملاتي في أسرار قانونك، ولا تغلق بابه «أمام الطارقين». إذ لم تنشأ عيناً أن تكتب تلك الصفحات العديدة جداً من الأسرار الغامضة، أو إن كانت تلك الغابات ليس لها «أياتها» الآوية إليها، الآمنة فيها، الرائحة والгадية، الراعية، النائمة المعجترة، مولاي، أكمل في عملك، وأربنها. ها إنَّ كلمتك هي فرحني، وصوتك أعلى من وفرة الملاذ. أعطني ما أحبت: إذ إنَّي أحبه، وأنت الذي أعطيته. لا تخلي عن هباتك ولا تحقر كلامك العطشان. ولا تعرف إليك بما سأكون قد وجده في كتبك، «الأسمع صوت المدح»، ولا تشربك، ولا تأمل في «عجائب قانونك»، ابتداء من اليوم الذي خلقت فيه السماء والأرض، ووصولاً إلى العهد الأبدي المشترك بينك وبين مدینتك المقدسة.

4. «مولاي، أشدق على، وأصغي» لرغبتي. فأظنُّ أنها لا تتصل بما هو من الأرض ولا بما هو من الذهب والفضة والحجارة الكريمة، أو من الشياط الرائقة، أو من الأمجاد والمناقب العالية، أو لذات اللحم، ولا من ضروريات الجسم، طيلة رحلتنا في هذه الحياة، فتلك كلها «تضاف إلينا، ونحن باحثون عن مملكتك وعن عدالتك».

انظر، إلهي، متاهي رغبتي. «قصت على الجائزون لذاتهم، لكنها ليست كقانونك، يا مولاي»: ذاك هو مصدر رغبتي⁽¹⁾. انظر، يا أبي، تأمل وانظر ووافق، وليرق لك «بمرأى» من شفقتك أن أجدد النعمة أمامك، بحيث يفتح للطارق، الذي أكون، هيكل كلماتك

(1)... *Ecce unde... desiderium*: ... = ذاك هو مصدر رغبتي. المرجع نفسه، ص 298 الملاحظة 2: «لم يكن أوغستينوس يحمل في دراسته للكتاب المقدس حتَّى اطلاع فاترا وذهبا خالصا، فهو يجده ويستطرد منه أن يكشف له عن معظم صور الروح الأساسية».... الكتاب الحادي عشر من الاعترافات، طبعة *la C.U.F. (les Belles Lettres)*

في داخله. أتوسل إليك بمولانا يسوع المسيح ابنك، الإنسان الذي على يمناك، ابن الإنسان الذي ثبته وسيطأ يبنك وبيتنا، والذي بحث به عنا، ونحن غير باحثين عنك، (نعم بحث عنا كي نبحث عنك!) هو كلمتك التي خلقت بواسطتها الكل الذي أنا واحد منه، ابنك الوحيد الذي ناديت به إلى التبني (*adoptionem = l'adoption*) شعب المؤمنين الذي أنا منه كذلك: بواسطته أتوسل إليك، وهو «الذي يجلس على يمناك، وينتشر لنا، والذي حفظت فيه كلّ كنوز الحكمة والعلم». أبحث عنه بهذه الألقاب في كتبك. كتب عنه موسى: «هو يقول ذاك، الحق يقول ذاك!»

5.III. ولأسمع منك ولأفهم كيف «في البداية خلقت السماء والأرض». كتبه موسى، كتبه ومضى، انتقل من هنا حيث أنت إليك هنالك، وهو الآن ليس أمامي. إذ لو كان حاضراً تعلقت به وسألته ولو تولست إليه باسمك، أن يبسط لي هذا، ولو توجهت أذني جسمي للكلمات الصادرة عن فمه، ولو نطق باللغة العبرية، لقوع سمعي سُدِّي، ولما مت عقلني شيء منها، أما لو نطق باللاتينية، لفهت ما يقول. لكن من أين لي أن أعلم هل يقول حقاً؟ وهب أنني علمت ذلك، فهل سأعلم منه؟ لا، بل سيكون بالتأكيد في قراري، في منزل الفكر، سيقول الحق - الذي ليس عرياناً، ولا يونانياً، ولا لاتينياً، ولا أعمجنياً، دون حاجة إلى لسان وشفتين، دون رنين المقاطع اللفظية: «يقول الصواب»، وأنا في الحال سأقول لخادمك ذاك، واثقاً من الحق: «تقول صواباً».

إذن، بما أنني لا أستطيع أن أسأله، أطلب منك أنت أيها الحق الذي كنت تملؤه عندما قال صواباً، أطلب منك، إلهي، أن «تففر لي ذنوبي»، وأنت الذي جعلت خادمك ذاك يقول تلك الكلمات، اجعلني أنا كذلك أفهمها.

6.IV. ها إنّ السماء والأرض أمامنا. إنهم تnadيان: «القد خلقنا». الدليل على خلقهما في تحرّر لهما واحتلافهما. أما الشيء الذي لم يخلق، وهو موجود، فلا يكون فيه أي شيء لم يكن موجوداً من قبل، وإلا يكون فيهما التحول والاختلاف. يناديان أيضاً أنهما ما خلقا نفسيهما بنفسيهما، يقولان: «نوجد بسبب كوننا خلقنا، إذ لم نكن، قبل أن تكون، كما لو أننا استطعنا أن نخلق نفسينا». وصوت قولهما صداه في الواقع.

إذن أنت، مولاي، هو الذي خلقتهم: أنت جميل لأنهما جميلان؛ أنت طيب لأنهما طيبان، أنت توجد لأنهما يوجدان. لكنهما ليسا جميلين ولا طيبين ولا كائنين بنفس

درجتك أنت خالقهما، وهم بالمقارنة بك، ليسا لا جميلين ولا طيدين ولا كائنين. نحن نعرف هذه الحقائق، وشكرا لك؛ معرفتنا جهالة مقارنة بمعرفتك.

7. لكن كيف خلقت السماء والأرض، وما هي الآلة في مثل هذه العملية الضخمة؟
فأنت لست كالإنسان الفنان الذي يصنع جسما بجسم آخر طبقا لخياله قادر على تحقيق أي شكل كان يتصوره في قرارة نفسه بالعين الداخلية - وأنت له أن يستطيعه لو لم تخلقه أنت؟ - فهو يصور الأشكال في مادة سابقة ذات كيان، كالارض أو الحجر أو الخشب أو الذهب أو أي صنف غيرها من هذه الأشياء. ومن أين تصدر هذه الأخيرة، لو لم تخلقه أنت؟ أنت الذي خلقت جسم الصانع والروح التي تستير أعضاء والمادة التي يصنع منها تحفة ما والموهبة التي يمارس بها الفن (artem = ses conceptions artistiques)⁽¹⁾ ويرى بها داخليتنا ما سيفعله خارجيتنا، أنت خلقت حواس جسمه التي ينقل بها من الروح إلى المادة ما يصنعه، ويعرض بها من بعد ما صنع على فكره، حتى يتشاور هذا الأخير مع الحقيقة الحاكمة الداخلية عن قيمة المصنوع.

هذه الأشياء كلّها تمدحك أنت، يا خالق كل شيء. لكن أنت كيف تخلقها؟ كيف خلقت، يا إلهي، «السماء والأرض»؟ لا ريب أنت لم تخلق السماء والأرض لا في السماء ولا في الأرض، ولا في الهواء، ولا تحت المياه، بما أن هذين الوسطين يعودان إلى السماء والأرض، ولا أنت خلقت الكون بأسره، في الكون بأسره، لأنّه ما كان به مكان يمكن «أن يكون فيه، قبل أن يخلق ليكون» ما كنت تمسك بيدهك شيئا تقدر أن تكون به السماء والأرض: فمن أين كان لك ما لم تكن قد كونته، وكان بإمكانك أن تكون منه شيئا؟ فماذا يكون، إن لم يكن بسبب أنت كائن؟
إذن قلت، و«خلقت الأشياء»، وخلقتها في كلمتك.

8.VI لكن كيف قلتها؟ هل قلتها بتلك الكيفية التي صدر بها صوت من الغمامات قائلا: «هذا هو ابني المحبوب؟» دوى ذلك الصوت وخفت، وابتدا ثم انتهى. رأت مقاطعه وسكتت، الأول بعد الثاني الثالث بعد الثاني، وهكذا دواليك حتى المقطع الأخير، بعد كل ما سبقه، الذي جاء إثره الصمت. من الواضح الجلي إذن أن حركة الشيء المخلوق، وهي الخادمة الدينية لإرادتك الأبديّة، هي المعتبرة عنها. وتلك الكلمات التي قلتها لتوها نقلت من الأذن الخارجية إلى العقل الذكي، ومنه - حيث

(1) عن طبعتنا الرئيسية، ص 301 من الجزء الثاني الملاحظة 1: «Ars» تعني بالفعل إذن خيال الفنان وتصوره الفني.

وضعت الأذن الداخلية - إلى كلمتك الأزلية. لكن هذه الأخيرة قارنت تلك الكلمات
الرثانية لهنيهة بالأبدية الصامدة لكلمتك وقالت: «هذا مغایر، هذا مغایر جداً، هذه
الكلمات توجد بعيدة تحتي، ولا توجد، بما أنها تهرب وتنقضي. أما كلمة إلهي فتبقى
فوقى إلى الأبد».

إذن إن قلت، بكلمات رنانة عابرة، للسماء والأرض أن تكونا، وإن خلقت هكذا
السماء والأرض، كان هناك بالضرورة مخلوق جسماني قبل السماء والأرض،
وبحركاته الدنيوية نقل ذلك الصوت دنيوياً. لكن لا وجود لأي جسم قبل السماء
والأرض، أو إن كان، فلا شك أنك قد خلقته دون الصوت العابر، ولكنك جعلت فيه
صوتاً عابراً، كي يقول بواسطته للسماء والأرض «أن كوننا». فمهما يكن ذلك الجسم
الذي صدر عنه صوت كهذا، فإنه ما كان ليكون بتاتاً، لو لم تخلقه أنت. إذن إلى أية
كلمات لجأت، كي تعطي الكيان للمادة التي عمدت إليها لتكون تلك الكلمات؟

VII. إذن تدعونا إلى أن نفهم كلمتك، أعني «أنها إله بجانبك، إله كامل» وهي
تقال منذ الأزل، وبها يقال الكل منذ الأزل. فلا تتعاقب هنا، بحيث أن مقطعاً يتنهى،
ويتبعه آخر، حتى يمكن أن يقال الكل، بل يقال الكل دفعة واحدة وأزلياً: وإلا لكان
الزمان والتحول، ولما كانت الأزلية الحق، ولا الخلود الحق!

أعرفه، يا إلهي، وأشكرك عليه». أعرفه، وأعترف لك به، يا مولاً، ويعرفه معي
ويبارك عليه كل من ليس بجحود في الحق الثابت. نعرف مولاً، نعرف أن الشيء
يموت عندما يتنهى وجوده بعد أن كان، وأنه يولد عندما يوجد، بعد أن لم يكن. فلا
شيء من كلمتك إذن ينفرض أو يتبع غيره، بما أنها بحق لا تفني وهي أبدية. ولذا
تقول قولًا أزلياً كل ما تقوله بالكلمة مشتركة الأبدية معك، ويكون كل ما تقول له أن
يكون، ولا تجعله يكون بغير قولك: ومع ذلك فلا تكون كل الأشياء التي تجعلها تكون
بقولك، كائنة في الآن نفسه وكائنة كونا أزلياً.

VIII. لم هذا، أرجوك، يا مولاً وإلهي؟ إني أفهمه فهما ما، لكن لا أدرى
كيف أفسره، إلا بكون كل مخلوق يبدأ وجوده أو يتنهى وجوده، لا يبدأ في الكيان ولا
يتنهى منه، إلا عندما يعلم العقل الأزلي الذي لا شيء يبتدئ فيه ولا يتنهى أنه أصبح
ضروريًا أن يبدأ أو أن يتنهى في الوجود. تلك هي كلمتك، وهي المبدأ، لأنها تكلمنا
أيضاً. فهكذا، في الإنجيل، كلامتنا بواسطة اللحم (*per carnem = par la voix de la chair*)، ورأت هذه الكلمة في آذان الناس خارجيتاً، حتى يؤمنوا به، ويبحثوا عنه في

الداخل، ويجدوه في الحق الأزلي، حيث يعلم المعلم الطيب الأوحد جميع التلاميذ. هناك أسمع صوتك، يا مولاي، يقول لي: إن من يكلمنا هو الذي يعلمنا، أما الذي لا يعلمنا، ولو تكلم، فلا يكلمنا. ومن لعمري يعلمونا غير الحق الثابت؟ إذ إننا لا نجني الموعظة من المخلوق المتغير، إلا باعتبارها توصلنا إلى الحق الثابت. هنالك نتعلم بحق، ونحن ماثلون بين يديه، نستمع إليه، و«نفرح فرحاً بسبب صوت الزوج» وهو يردنا من حيث أتينا. ولذلك فهو «المبدأ» (*principium = le principe*) الذي لولا دوامه لضللنا، ولما كان لنا إلى أين نعود، لكن عندما نرجع من الضلال، نرجع منه بالطبع عن معرفة، أما هو، فيعلمونا كي نعرفه، حيث أنه «المبدأ» و«أنه يكلمنا».

11.IX. في ذلك المبدأ، يا إلهي، خلقت «السماء والأرض»، أي في كلمتك، وفي ابنك، وفي فضيلتك، وفي حكمتك، وفي حبك، بكيفية عجيبة قائلة، وبكيفية عجيبة فاعلا. من يقوى على فهم هذه العجائب؟ من يستطيع أن يفتقها؟ ماذا الذي يثيرني من حين إلى آخر، ويقرع قلبي دون جرح؟ أنا أرتعد وأضطرم: أرتعد بقدر ما أنا غير شبيه به، وأضطرم بقدر ما أنا شبيه به. الحكمة هي الحكمة التي تثيرني من حين إلى آخر، ممزقة سحابتي التي تغطياني من جديد، عند ضعفي بتلك الظلمة، وبكونه شقائي، حيث أن «قوتي ضعفت إلى هذا الحد في الشدة» حتى أني لا أطيق خيري، ما لم «تصبح» أنت، يا مولاي، «عطوفاً على كل أنواع جوري»، فتداوي أيضاً «كل أنسامي»، وتخلص «من الفساد حاتي»، وتتجنى «في الشفقة والرأفة»، وتشفي غليل «رغبتي من الخيرات»، إذ «سوف يتجدد شبابي، كشباب النسر». «فبالأمل أصبحنا ناجين» ووعودك «بالصبر نترقب». فليس معك متكلماً داخله من يستطيع؛ أنا سأنادي، بشقة طبقاً لوحيك، «كم هي رائقة مخلوقاتك، مولاي، قد خلقتها كلها في الحكمة!» وهذا هو «المبدأ»، «وفي هذا المبدأ»، قد خلقت السماء والأرض.

12.X. أليسوا مليين بضلاليهم القديم⁽¹⁾، أولئك الذين يقولون لنا: «ماذا كان يفعل الإله، قبل أن يخلق السماء والأرض؟ فإن كان عاطلاً، حسب قولهم، ولم يكن يفعل شيئاً، لماذا لم يبق هكذا فيما تلى من الأزمان، كما كان فيما مضى دوماً محجماً عن كل عمل؟ فإن لم توجد في الإله أية حركة جديدة، أو إرادة جديدة لخلق ما لم يكن

(1) ...pleni... uetustatis suae ... = مليين بضلاليهم القديم. المرجع نفسه، ص 304 الملاحظة 1: «في «اليمين» عدد 267 ₣، شأن تمثيل الخمرة الجديدة والدنان العتيبة، يمامي أوغستينوس بين «الإنسان العجوز» و«الإنسان الجسدي» أي *carnalitas uetustas est* على حد تعبيره.

قد خلقه من قبل، فكيف تكون لعمري الأزلية الحق، حيث تنشأ الإرادة التي لم تكن؟ إذ إرادة الإله ليست بالمخلقة، بل تسبق المخلوقات، لأنّه لا شيء كان ليخلق لو لم تسبقه إرادة الخالق. إلى جوهر الإله إذن تعود إرادته. فلو نشأ شيء في جوهر الإله، لم يكن من قبل فيه، لما عد ذلك الجوهر بحق أزلياً: أما لو كانت إرادة الإله الأبدية في أن يوجد المخلوق، فكيف لا يكون المخلوق أيضاً أبدية؟⁽¹⁾

13.XI. إن الذين يقولون هذه الأقوال لا يزالون «أيّا حِكْمَةَ الْأَلَاءِ» ونور العقول، غير فاهمين لك، وغير فاهمين للكيفية التي ينشأ بها ما ينشأ بك وفيك، ويحاولون أن يعرفوا الأزليات، لكن «قُلْبُهُمْ يَطَائِرُ وَلَا يَرَى إِلَّا تِفَافًا» بين تموّجات الماضي والمستقبل. من سيوقفه، ومن سيقيده حتى يثبت قليلاً، ولينفتح قليلاً على رونق الأزلية الثابتة على الدوام، ويقارنه بالأزمان غير الثابتة فقط، فيرى أنه غير شيء ثابتة بها، ويرى أن الزمان ليس بالطويل، إلا بالكثير من الحركات السابقة التي لا يمكنها أن تنبسط مع؟ أمّا في الأبدية فلا شيء يسبق غيره، بل الكل حاضر، وأما الزمان كله فليس بالحاضر: ولذا سيرى الماضي كله يطرده المستقبل، وكل المستقبل يتبع الماضي، وأن كلاماً من الماضي والمستقبل مخلوقان وصادران عما هو الحاضر الدائم. من سوف يوقف قلب الإنسان، كي يثبت، ويرى كيف أن الأزلية الثابتة، الالمستقبلية واللاماضية، تحدّد الأزمنة المستقبلية والماضية؟

أنقدر عليه يدي، أم يقوم بمثل هذا العمل الكبير كلامي الذي هو لفمي بمثابة اليد؟ 14.XI. بما يلي سأجيب السائل: «ماذا كان يفعل الإله، قبل أن يخلق السماء والأرض؟»

لا أجيبه بذلك الجواب المازح الذي أراد به بعضهم أن يتهرب من هذا السؤال المخيف عندما أجاب: «كان يهتم جهّم للذين يتقصّون هذه الأسرار!» فالرأي شيء والمزاح شيء آخر. لا أجيبه بهذا الجواب، بل أفضل أن أجيب بـ«لا أدرى» ما لا أدرى، عوض أن أعمد إلى ما يجعل السخرية للذى تسأله عن الأسرار، والمدح لمن أجابه بالباطل.

لكتي أقول إنك، يا إلهنا، يا خالق كلّ مخلوق، وإن عنى باسم «السماء» و«الأرض» كلّ مخلوق، أجزئ بالقول: قبل أن يخلق الإله السماء والأرض، لم يكن يفعل شيئاً. إذ

(1) ...non sempiterna et creatura? ...=... فكيف يكون المخلوق إذن أبداً؟ المرجع نفسه، ص 305 الملاحظة 1: «... (يتوجه أوغسطينوس هنا إلى الأفلاطونيين الجدد):...».

لو فعل شيئاً، فما كان ليفعل سوى الخلق؟ وحيثذا لو فعلت هكذا، كلّ ما أبغى أن أفعله في صالحِي، كما أعلم حقاً ألا مخلوقٌ كان، قبل أن يكون الخلق! XIII.15. أما لو تاه فكر سطحيٍ ما، عبر صور الأزمنة الماضية، وتعجبَ أنتَ أنتَ، الإلهُ القديرُ، والخلقُ، الماسِكُ بالكون، الصانعُ للسماءِ والأرض، أمسكت عن هذا العمل العظيم، قبل أن تقوم به، طيلة قرون لا تحصى، فليقين وللإحاظ أن تعجبَه باطل! فأنى للقرون التي لا تحصى أن تفرضَ، وأنتَ بذاتك ما كنت قد خلقتها، رغم أنك خالقُ القرون كلّها ومنشئها؟ أم آيةُ أزمنةٍ كانت لتكون يوماً، دون أن تكون أنتَ قد أنشأتها؟ أم كيف تكون قد انفرضت، لو لم تكن قد كانت فقط؟

إذن، أمّا وأنت صانعُ كلِّ الأزمنة، إنْ كان زمانُ ما، قبل أن تخلق السماء والأرض، فكيف يقال إِنَّكَ كُنْتَ ممْسِكاً عَنِ الْعَمَلِ؟ الزمانُ عَيْنَهُ أَنْتَ قد خلقتَهُ، ولا أزمنة سابقة قبل أن تخلق الأزمنة، بل بالعكس، إنْ لم يكن أي زمان، قبل السماء والأرض، فلم التساؤل عما كنتَ فاعلاً «آنذاك»؟ إذ ما كان «آنذاك» حيث ما كان زمان.

16. أنت لا تسبق في الزمان الأزمنة؛ وإلا ما كنت لتسيق الأزمنة كلّها. بل تسبق كلَّ الأزمنة الماضية من عليهِ أزليتك الدائمة، وتسمو على كلَّ الأزمنة المستقبلية، لأنَّها بالطبع مستقبلية، لأنَّها - عندما ستكون قد أنتَ - ستكون ماضية، أمّا أنتَ «فَذَاكَ هي عينها»، «أَعْوَامُكَ لَنْ تَنْفَرِضْ». أعوامك لا تغدو ولا تروح، أمّا أعوامنا هذه فتغدو وتروح، كي تأتي جميعها. أعوامك تبقى كلَّها معاً، لأنَّها تبقى بالطبع، والغادية منها لا تطردُها الأعوام الراشحة، لأنَّها لا تمرُّ: أمّا أعوامنا هذه، فلن تكون جمِيعاً، إلا عندما ستكون قد انتهت. «أَعْوَامُكَ كَيْوَمْ وَاحِدٌ» و«يُومُكَ» لا يتجدد كلَّ يوم، بل هو «اليوم». وهذا «اليوم» عندك لا يتلوه «غداً»؛ كما أنه لا يتبع « أمس»، «اليوم» لديك كالأبدية: Hodie nus tuus aeternitas = votre aujourd'hui, c'est l'Eternité) ولذلك

أنجبت ولداً مشتركَ الأبدية، وقلت له: «إنَّي نسلُكَ اليوم». أنت الذي خلقت كلَّ الأزمنة، وأنت تسبق كلَّ الأزمنة، ولا يمكن ألا يكون الزمان في زمان ما.

XIV. فإذاً لا يوجد زمان لم تكن قد فعلت فيه شيئاً، بما أنك أنت قد خلقت الزمان نفسه. ولا أزمنة تكون معك شريكة في الأبدية، لأنك أنت تدوم أمّا هي، لو دامت، لما كانت أزمنة.

فما هو الزمان يا ترى؟ من يفسره بسهولة واقتضاب؟ من يستطيع أن يكون له عنه،

ولو في الذهن، فكرة واضحة يمكن أن يعبر عنها باللفظ؟ لكن أي مفهوم يتزدد في حديثنا مألوفاً ومحبباً أكثر من الزمان؟ نحن نفهمه، لعمري، عندما تتحدث عنه، ونفهمه أيضاً، عندما نسمع غيرنا يتحدث عنه.

ماذا هو الزمان إذن؟ إن لم يسألني عنه أحد، فأنما أعرفه، وإن أردت أن أفسره للسائلين لم أعرفه⁽¹⁾: لكتي أجزأ على القول إني أعرف أنه، لو لم يمض شيء، لما كان زمان ماضٍ، ولو لم يأت شيء، لما كان زمان مستقبل، ولو لم يكن شيء، لما كان زمان حاضر.

إذن فذاك الزمانان، الماضي والمستقبل، كيف يوجدان، والع الحال أنّ الماضي لم يعد موجوداً، وأنّ المستقبل لا يزال غير موجود؟ أما الحاضر فلو كان دوماً حاضراً، ولو لم ينقلب ماضياً، لما كان بعد زماناً، بل أبداً. إذن، لو كان الحاضر زماناً، لاستمد الوجود من انقلابه إلى الماضي. فكيف يقول أيضاً إنه يوجد، بما أنّ سبب وجوده الوحيد أنه لن يوجد؟ فلذلك ما كتنا لنتقول، بالطبع حقاً، إنّ الزمان يوجد، إلا لأنّه يتزع إلى الأوجود.

18.XV. ومع ذلك نتكلّم عن زمان طويل وزمان قصير، ولا نقول ذلك إلا عن الماضي أو المستقبل. الزمن الماضي الطويل، مثلاً، نسمّي به مائة سنة خلت، والزمن المستقبلي الطويل نسمّي به كذلك المائة سنة الآتية، أما الزمن القصير الماضي فنسمّي به أيضاً، كما أظنّ، عشرة أيام خلت، وبالزمن القصير المستقبلي العشرة أيام الآتية. لكن بأية صورة يكون ما ليس كائناً طويلاً أو قصيراً؟ فالماضي لم يعد موجوداً، والمستقبل لا يزال غير موجود. فلا نقل إذن: «الزمان طويل»، بل نقل عن الماضي: «كان طويلاً»، وعن المستقبل: «سيكون طويلاً».

يا مولاي، و«نوري»، ألن تسخر، هنا أيضاً، حقيقتك من الإنسان؟ أكان هذا الزمان الماضي طويلاً عندما لم يعد موجوداً، أم طويلاً عندما كان لا يزال حاضراً؟ لعله لم يكن طويلاً، إلا ما دام زماناً مؤهلاً ليكون طويلاً، أما بعد أن انفرض، فلم يعد كذلك؛ من هنا ما أمكنه أن يكون طويلاً، بما أنه لم يكن البتة.

(1) ... explicare uelim, nescio... = ... Si... ... وإن أردت أن أفسره للسائلين لم أعرفه... المرجع نفسه، ص 309/308 الملاحظة 1 (الكتاب التاسع من الاعترافات): «هذا الاعتراف الصادق صدق ساذجاً بين حرج أوغستينوس تجاه مشكل الزمان هذا الذي كثيراً ما تدرب عليه الفكر اليوناني»... «فقد كان أرسطو... يربط بين... معنى الزمان ومعنى الحركة...»: «وكان الأفلاطونيون الجدد يعيدون قليلاً عن القول بذلك...»

فإذن لا نقل: «الزمان الماضي كان طويلاً»، إذ لن نجد فيه ما كان طويلاً، بما أنه ماضٍ ويفعل الواقع لا كائناً، بل نقل: «هذا الوقت الذي كان حاضراً كان طويلاً»، بما أنه كان طويلاً لأنّه حاضر. فلم يعد قد انقلب إلى الماضي، أي إلى الالاوجود، ولذلك كان مؤهلاً ليكون طويلاً، لكنه ما إن انقضى، حتى لم يعد طويلاً في الحال، كما أنه لم يعد موجوداً.

19. إذن لنر، أيتها الروح البشرية، هل يمكن أن يكون الزمان الحاضر طويلاً: فقد أُعطيت القدرة على أن تشعرني بمدّه وأن تقيسها. بماذا سُجّيبيتي؟

هل تكون مائة سنة حاضرة زماناً طويلاً؟ انظري أولاً هل يمكن أن تكون المائة سنة حاضرة. فلتفترض أن السنة الأولى منها جارية، وأنها إذن حاضرة، أما التسع والتسعون الآخريات فهي آتية، ولا تزال لذلك عديمة الوجود؛ أما إن افترضنا أن السنة الثانية تمر، فال الأولى تكون قد مضت بعد، في حين أنّ الثانية حاضرة، وأن الآخريات آتياً جميعاً؛ وفي هذا العدد للمائة سنة إذن، مهما تكون السنة التي نفترضها حاضرة، كلّ التي ستكون قد سبقتها، ستكون ماضية، وكلّ التي ستكون قد تبعتها، ستكون مستقبلية. فلهذا السبب لن يمكن أن تكون المائة سنة حاضرة.

انظري على الأقلّ هل إذن السنة الجارية عينها حاضرة. فإن كان الشهر الأول منها جاريًا، كانت الأشهر الباقيّة آتية، وإن كان الثاني، كان الأول قد انقضى بعد، وكانت البقية عديمة الوجود. لذلك، فالسنة الجارية غير حاضرة جملتاً، وإن هي غير حاضرة جملتاً، فليست بسنة حاضرة. إذ السنة هي اثنا عشر شهراً، وكل شهر جار مهما كان، يكون حاضراً بالذات، والأشهر الباقيّة تكون، إما ماضية أو آتية. إلا أن الشهر الجاري ليس بالحاضر، بل اليوم الواحد منه: فإن كان الأول، كانت البقية آتية، وإن كان الأخير كانت البقية ماضية، وإن كان أحد الأشهر الوسطى، كان بين الماضية والآتية.

20. وإن الوقت الحاضر الذي كنّا نجده الوحيد الجدير أن يسمى بالطويل، يتخلص تقريرياً إلى مدى يوم واحد. لكن فلتتأمله ملياً هو أيضاً، لأنّ اليوم الواحد ليس كله حاضراً. إذ يتكون من أربع وعشرين ساعة ليلية ونهارية، وبالنسبة إلى الساعة الأولى فالباقيات آتياً، وأما الأخيرة فماضيات، وأمّا الواحدة من الوسطى، فما قبلها ماضٌ وما بعدها مستقبلٌ. وتلك الساعة الوحيدة تتركب من أجزاء عابرة: فكلّ ما تطابر منها يكون ماضياً، وكلّ ما هو باقٍ يكون آتياً. وإن تصورنا نقطة زمانية، لا يمكن أن تنقسم، من بعد، إلى آية أجزاء من اللحظات، مهما كانت دقيقة، فتلك وحدتها يجدر أن تسمى «بالحاضرة»؛ لكنها تتطاير كلمح البرق من المستقبل إلى الماضي، بحيث أنها لا تمتد

إلى أي مدى. إذ لو امتدت لانقسمت إلى ماض ومستقبل: أما الحاضر فلا امتداد له. إذن فأين هو الزمان الذي يجدر أن نسميه «بالطويل»؟ هل هو المستقبل؟ لا نقول عنه، لعمري، إنه «طويل»، فلا شيء يوجد منه ليكون طويلاً، بل نقول إنه «سيكون طويلاً». إذن متى سيكون؟ فإن كان لحد الآن آتياً بعد، لن يكون طويلاً، حيث لا شيء مؤهل فيه ليكون طويلاً. أما لو كان طويلاً بعد أن يكون قد بدأ في الوجود، من المستقبل الالام موجود حالياً، إلى الحاضر الذي يكون قد أصبح فيه، بحيث يمكنه أن يكون طويلاً، فها إن الوقت الحاضر يصدق بأعلى الأصوات أنه لا يمكنه أيضاً أن يكون طويلاً.

21.XVI. ومع ذلك، يا مولاي، فنحن نحسن بالفوارق الزمانية، ونقارنها بعضها بعض، ونقول إن البعض أطول، أو البعض أقصر. ونقيس أيضاً بأي فارق يمكن هذا الزمان أطول أو أقصر من ذاك، ونجيب أنه الضعف أو الضعفان أو الثلاثة أضعاف، أو أن نسبتهما بسيطة، أو أن الأول يساوي تماماً الثاني. لكننا نقيس الأزمنة العابرة، عندما نقيسها بالشعور، أما الماضية التي لم تعد موجودة، أو المستقبلية التي لا تزال غير موجودة، فمن يستطيع أن يقيسها، سوى من يتجرأ على القول بإمكان قيس الالام موجود؟ إذن، عندما يمترأ الزمان، يمكن أن نحسّ به، وأن نقيسه، أما إن صار ماضياً، فلا يمكن ذلك لأنه لا موجود.

22.XVII. أبحث، يا أبي، ولا أجزم: يا إلهي، أعني وجهني. فمن يا ترى يمكنه أن يقول لي ألا وجود للأزمنة الثلاثة، كما تعلمناها صغاراً، وعلمناها للصبيان، الماضي والحاضر والمستقبل، لكن الحاضر وحده يوجد، بما أن الآخرين لا يوجدان؟ أو هل إنهم يوجدان أيضاً، لكن الحاضر يخرج من خلوة عجيبة، عندما ينقلب المستقبل حاضراً، والماضي ينصرف إلى خلوة عجيبة مثلها، عندما يصبح الحاضر ماضياً؟ فالذين تتبعوا بالمستقبل (*cecinerunt = ont prédit l'avenir*)⁽¹⁾ أين رأوه، بما أنه لا يوجد بعد؟ إذ ما لا يوجد لا يمكن أن يُرى. والذين يقصون الفصص الماضية، ما كانوا يقتضون لعمري الحقيقة، لو لم يكونوا يتصورونها في محياهم: فلو كانت دون وجود، لما أمكن أن تصوّر البة. إذن يوجد المستقبل والماضي.

(1) نعلم نقاً عن «ب. دي لا بيرول»، ص 311 من الجزء الثاني المذكور أعلاه، أن «Canere» هي العبارة الكلasicية للدلالة على كلام كهنة الوحي الإلهي *langage des oracles*؛ وأوغستينوس يعني هنا الأنبياء. انظر 271 *Thesaurus, I. lat. s.u., col.* *Cicéron*. هذا بالإضافة إلى أن هذا الفعل يعني في معناه العادي "غنى" وأن معنى "تبثاً" يوجد عند شبشورون *Virgile* وفيرجيبل *Tite Live*. Gaffiot, page 254, 3ème colonne

XVIII. 23. اسمع لي يا مولاي أن أوسع مجال بحثي، أياً أملني؛ وقيني مما تضطرب له همتني.

فإن وجد المستقبل والماضي، أريد أن أعلم أين يوجدان. ولكن كان علم ذلك لا يزال مستحيلاً، فأنما أعلم على الأقل أنهما - حينما يوجدان - لا يوجدان فيه وجود المستقبل أو الماضي، بل وجود الحاضر. إذ لو كان فيه المستقبل مستقبلاً، لما وجد فيه بعداً، ولو كان فيه الماضي ماضياً، لكن منقضياً ولم يعد موجوداً فيه بعداً. إذن حينما يكونان ومهما يكونان، فليسَا سوى حاضرين. مع ذلك، عندما نقص القصص الماضية بحق، فلا تصدر عن ذاكرتنا الأشياء ذاتها التي مرت. بل الكلمات الناشئة عن صور الأشياء التي رسخت في أنفسنا آثارها، وهي مارة بحوائنا. فطفولتي، لعمرى التي لم تعد موجودة، توجد في الزمان الماضي الذي لم يعد موجوداً، أما صورتها، عندما أتذكرها وأرويها، فإني أشاهدها في الزمان الحاضر، لأنها لا تزال في ذاكرتي.

هل الوضع شبيه بما يقع أيضاً في التبتو بالأحداث المستقبلية، حيث تشعر النفس مستيقناً بصور حاضرة عن أشياء لم توجد بعد. أتعرف، يا إلهي، بجهلي بهذا الأمر؟⁽¹⁾. على كلّ، أنت غالباً ما تتبصر أفعالنا الآتية، وأنّ هذا التبصر حاضر، أما الفعل الذي تتبصره، فلا يوجد بعد، إذ هو مستقبلي، وعندما نكون قد أقدمنا عليه، وشرعنا في فعل ما كنّا تتبصره، عندئذ سيكون ذلك الفعل حاضراً، لأنّه لن يكون عندئذ مستقبلياً.

24. ومهما كانت صفة هذا التبتو الغريب بالمستقبل، فإنه لا يمكن أن يرى منه إلا ما يوجد. لكن ما يوجد بعد ليس مستقبلاً بل هو حاضر. إذن، عندما يقال إنّ المستقبل يرى، فلا ترى الأشياء ذاتها التي لا تزال غير موجودة، أعني التي هي آتية، بل أسبابها أو ربما دلائلها التي توجد بعد: لذلك فهي ليست بالمستقبلية، بل هي حاضرة بعد للعيان، وبها يتصور الفكر المستقبل ويتبناها. وهذه التصورات، من ناحية أخرى، تكون موجودة، ويراهما، في قراراتهم كالحاضرة أولئك الذين يتكلّمون بذلك الغيب⁽²⁾.

(1)... confiteor,..., nescio... =... أتعرف بجهلي بهذا الأمر. المرجع نفسه، الكتاب الحادي عشر من 312 الملاحظة 1: «مسألة النبوة وتفسيرها تعتقد على أوغستينوس بحثه في مسألة zaman... وهو يتبّل هنا بصورة محتشمة متربّدة ضرباً من الرؤية المسبقة للواقع التي لا تزال غير موجودة»... وهو يلاحظ في موضع آخر أن الكتاب المقدس يُسمّي الأنبياء «بصريين»... voyants

(2)... qui illa praedicunt =... الذين يتكلّمون بالغيب. المرجع نفسه، ص 313 الملاحظة 1: «يغامر أوغستينوس هنا بتقديم تفسير عقلي: المستقبل ظنٌ وتخمين اعتماداً على المؤشرات التي يكشف عنها الحاضر للذين يقدرون على ملاحظتها وتؤول لها...».

وسأخذ مثلاً أختاره من بين أمثلة كثيرة جداً منها وأسأجعله ينطق ويتكلم.

أتأمل في الفجر فأعلن مسبقاً أن الشمس ستشرق. فما أتأمل فيه هو حاضر، وما أعلن عنه مسبقاً هو آت: وليست الشمس، لأنها حاصلة موجودة بعد، بل شروقها الذي لا يوجد بعد. ومع ذلك، فلو لم أكن أيضاً أتصور شروقها بالذات في الفكر، كما أتصوره وأنا أتكلّم الآن عنه، لما استطعت أن أتكهن به. لكن ذلك الفجر الذي أراه في السماء، ليس بشروق الشمس، رغم أنه يسبقها، ولا ذلك التصور له في فكري، إلا أن ذينك الوضعين أراهما كالحاضرتين، فأستطيع أن أعلن مسبقاً أن الوضع الآخر سيتحقق.

إذن فالمستقبل لا يوجد بعد، وإن لم يوجد بعد، فلا يكون، وإن لم يكن، فلا يمكنه البتة أن يرى، بل يمكن التكهن به، طبقاً للأشياء الحاضرة التي توجد بعد وترى.

XIX. 25. فلذلك أسألك، يا ملك الخلقة، ما هي الطريقة التي تتغلّم بها الأرواح الآشياء الذي ستكون؟ فقد علّمتها لرسلك. قلتُ، ما هي تلك الطريقة التي تعلّم بها الغيب، أنت الذي لا غيب يغيب عنك؟ أو، بالأحرى، كيف تعلّم - من المستقبل - ما هو حاضر بعد؟ فما لا يوجد لا يمكن بالطبع تعلّمه. فطريقتك بعيدة جداً عن نظري؛ فقد غلبتني؛ وبمفردي «لن أقدر» على الوصول إليها، أما بعونك، لو أعطيتني، فسأقدر، أنت، أيًا نور عيني العذب.

XX. 26. أما ما يظهر الآن واضحاً فلا المستقبل موجود ولا الماضي موجود، وقولهم: «الأزمنة ثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل» قوله ليست مضبوطة، بل قد يكون من الأنسب أن نقول: «الأزمنة ثلاثة، حاضر هو حاضر الماضي وحاضر هو حاضر الحاضر وحاضر هو حاضر المستقبل». إذ إن هذه الصيغة الثلاث يوجد بعضها مع بعض في الفكر، ولا أراها في غيره: فحاضر الماضي الذاكرة وحاضر الحاضر النظر، وحاضر المستقبل الترقب. إن صح ما قلناه، رأينا ثلاثة أزمنة نقرّ بها، نعم هي ثلاثة.

ليقولوا دوماً: «الأزمنة ثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل»، كما جرت به العادة التعسفية، نعم ليقولوا هذا! فها أنت لا أهتم بها، ولا أعارضها، ولا أتقدّها، لكن على شرط أن يفهموا ما يقولون، وألا يتصرّروا أن المستقبل يوجد بعد، وأن الماضي لا يزال موجوداً. «فقلّما نقول كلاماً مضبوطاً، بل إن كلامنا يكاد يكون كله غير صحيح، لكننا مع ذلك نعرف بوضوح ما نقصد».

XXI.27. قلت إذن، منذ قليل، إننا نقيس الأزمنة في مرورها، حتى نستطيع أن نقول إنّ هذه الفينة ضعف تلك الفينة أو إنّها مساوية لها، وأن ترَكب، بالقياس، أي تنساب آخر بين أجزاء الزمان.

فلذلك السبب، كما كنت أقول، نقيس الأزمنة، ولو أن أحداً قال لي: «من أين لك هذا؟» لأجبت: «أعلمك، لأننا نقيس، ولا نقدر أن نقيس ما لا يوجد، والماضي والمستقبل لا يوجدان». لكن الزمان الحاضر كيف نقيسه، بما أنه لا امتداد له؟ فإذا ذيقياس، عندما يمر، أما عندما يكون قد مر فلا يقاس: فهو إذن لن يكون قابلاً للقياس.

لكن من أين يأتي الزمان، ومن أين يمر، وإلى أين يروح، عندما يقاس؟ من أين يأتي، إن لم يكن من المستقبل؟ ويم يمر، إن لم يكن بالحاضر؟ وإلى أين يروح، إن لم يكن إلى الماضي؟ إذن يأتي مما لا يوجد بعد، ويم بما هو عديم الامتداد، ليروح إلى ما لم يعد موجوداً.

ومن جهة أخرى، ماذا نقيس، سوى الزمان في فضاء ما؟ فعندما نتكلّم عن المدد البسيطة والمضاعفة والمثلثة والمتساوية وجميع النسب الزمانية المماثلة، لا نتكلّم إلا عن الفضاءات الزمانية (*nisi spatia temporum = si ce n'est des espaces temporels*). ففي أي فضاء نقيس الزمان العابر؟ هل يكون في المستقبل الذي يأتي منه ليروح؟ لكنّ ما لا يوجد بعد لا يقاس. أم هل يكون في الحاضر الذي يمر به؟ لكننا لا نقيس ما لا يكون في فضاء. أم هل يكون في الماضي الذي يروح إليه؟ لكننا لا نقيس ما لم يعد موجوداً.

XXII.28. فكري يضطرم لفهم هذا اللّفظ المعقد أياً تعقّد⁽¹⁾. لا توصد، يا مولاي والتهي وأبي الطيب، أتوسل إليك بال المسيح، لا توصد الباب في وجه رغبتي لفهم هذه المسائل المألوفة والسرية، حتى ألجهها، فستثيرني بأشعة شفقتك، يا مولاي. من سأّاله عنها؟ ولمن أفتر بجهلي لها فأجده أكبير، إن لم يكن إليك، أنت الذي لا تعارض شغفي بكتاب المقدس واهتمامي الشديد بها؟ أعطني ما أحبّ: فإني أحبّ، وأنت أعطيتني ذلك. فأعطيته، يا أبي، أنت الذي تعرف كيف «تعطي لأبنائك الخيرات الحقّ!». أعطنيه حيث تجسّمت المعرفة الصعبة، وهاك شقاني أمامك، حتى «تفتح

(1)*istuc implicatissimum enigma* ... هذا اللّفظ المعقد أياً تعقّد!... المرجع نفسه، ص 315 الملاحظة 1: «البحث الفلسفية عند أوغسطينوس يذكّره بصورة متواصلة الشفف الذي يكتبه له».

لي الباب». أتوسل إليك بال المسيح، باسم قديس القديسين، ألا يواجهني أحد فيها.
«وقد آمنت أنا، ولهذا أتكلّم». ذلك هو أمني؛ الذي أحيا من أجله «حتى أتأمل في ملاد المولى». ها «إنك قد وضعت أيامي الغابرة وهي تمر»، ولا أدرى كيف.

ونتكلّم عن زمن وزمن، عن أزمنة وأزمنة: «كم زمان طال كلام فلان؟»، و«كم زمان طال فعل فلان؟» و«كم زمان طويلاً مضى دون أن أرى ذلك الشيء؟»، و«هذا المقطع اللفظي يدوم ضعف زمان ذلك المقطع القصير». نقول هذه العبارات ونسمعها، وتُفهم غيرنا، وتُفهم عنه، فلا شيء أوضح منها ولا أكثر استعمالاً، وبالعكس فهي بعينها غامضة جداً، وتأويلها غير متداول.

29. سمعت رجلاً عالماً يقول إن الأزمنة ذاتها هي حركات الشمس والقمر والكواكب، ولم أوافقه. فلماذا لا تكون بالأحرى حركات جميع الأجسام؟ أو بصورة أخرى، لو توقفت نجوم السماء عن دورانها وكانت عجلة الخزفي تتحرك، ألم يعد هناك زمن، لكي نقيس به دوراتها، فنقول إنها تدور في مدد متساوية، أو إنها تتحرك وبعضها أكثر ببطءاً، أو بعضها أكثر سرعة، أو إن بعضها أطول زمناً وبعضها أقصر⁽¹⁾؟ أو إن كنا نقول هذا، ألم نكن نقوله أيضاً في الزمان، أو أما كانت مقاطع كلامنا بعضها طويل، وبعضها قصير، إلا لكون الأولى قدرت مدة أطول والثانية مدة أقصر؟
يا إلهي، هب البشر القدرة على أن يرثوا، في المثال البسيط، الرؤى المشتركة بين الأشياء الصغيرة والكبيرة. فهناك الكواكب ومصابيح السماء «كالعلامات للقصول والأيام والسنين». نعم هي كذلك؛ لكنني ما كنت أنا لأقول إن دورة تلك العجلة الخشبية الصغيرة تعدد يوماً، ومع ذلك، فعالمنا ما كان أيضاً ليقول إنها ليست بالزمان.

30. لذلك أود أن أعرف جوهر الزمان وطبيعة الزمان الذي نقيس به حركات الأجسام، فنقول إن تلك الحركة، مثلاً، تدوم ضعف الزمان الذي تدومه هذه. إذ أبحث كيف أن اليوم لا يسمى فقط بـ«نـيـت الشـمـس فوق الأرض»، ثم إن النهار شيء، والليل شيء آخر، بل وأيضاً أن الدوران الكامل لها يكون من الشرق إلى الشرق، طبقاً لما نقوله: «مـرـ كـذـاـ مـنـ الأـيـامـ» - إذ نقول «هذه الأيام» مقرونة بـ«لياليها»، أو دون أن تحذف منها مدد الليالي. لذلك فلما كان اليوم مستوفى بحركة الشمس ويدورانها من الشرق

...=... *alios magis diuturnos, alios minus?* (1)
ص 316 الملاحظة 1: حلل بلوتين Plotin في كلام أكثر تجريداً (*Ennéades*, III, 7, 8, tome III...) أن الحركة يمكن أن تتوقف أو لا تحدث إلا بصورة متقطعة، لكن الزمان لا يمكنه ذلك.

إلى الشرق، أبحث هل تكون الحركة ذاتها هي اليوم، أم الريث ذاته، حسب طول مذته، أم هل هي الاثنان معاً.

فلنفترض أنّ اليوم هو حركة الشمس، إذن يكون اليوم، حتى لو أنت الشمس تلك الدورة في مدة زمانية متساوية لساعة واحدة. وهل اليوم ريث الحركة؟ إذن لا يكون «اليوم» لو كان للريث (mora = durée du mouvement) - من شروع الشمس إلى شروع آخر - من القِصر بحيث يساوي ساعة واحدة؛ وفي هذه الحال يجب أن تدور الشمس أربعاً وعشرين مرة، حتى تستوفي اليوم. ولنفترض أنّ اليوم هو فيهما معاً أي حركة الشمس والريث، فلن يسمى اليوم يوماً، لو دارت الشمس كامل دورتها في مدة ساعة، أو لو توقفت الشمس عن الدوران، ليمرّ من الوقت ما اعتادت أن تقضيه في طوافها التام، من الصباح إلى الصباح.

فلذلك لا أريد الآن أن أجرب عن ماهية ذلك الذي يسمى اليوم، بل عن ماهية الزمان الذي قد نقول، ونحن نقيس به دوران الشمس، إنه اجتاز في نصف المدة الزمانية التي اعتادها، لو كان الاجتياز في زمن يساوي الاثنتي عشرة ساعة، وقد نقول ونحن نقارن كلتا المدتين، إن تلك هي البسيطة وهذه ضعفها، ولو كانت الشمس لتطرف أحياناً الطواف البسيط، وأحياناً ضعفه من الشرق إلى الشرق.

لذا فلا يقلّ لي أحد «إن الأزمنة هي حركات الأجرام السماوية». فعندما توقفت الشمس، استجابة لدعاء داع، كي تتم المعركة بالنصر، كانت الشمس ثابتة لامتحركة، لكن عجلة الزمان كانت تدور، لأن تلك المعركة، لعمري، شلت وانتهت، في مذتها الزمانية التي كانت تكفيها حقاً.

أرى إذن أنّ الزمان عبارة عن الامتداد. لكن ماذا أرى؟ أو أظنه أني أرى؟ أنت هو الذي سترنيه، يا نورُّ، يا حقُّ.

31.XXIV. أتأمرني أن أوافق من يقول إنّ الزمان هو حركة الجسم؟ لا تأمرني بذلك. فألا يتحرك الجسم إلا في الزمان، أفهم ذلك: أنت تقوله. أما أن تكون حركة الجسم هي الزمان، فذاك ما لا أفهمه⁽¹⁾. أنت لا تقوله. فعندما يتحرك الجسم، نقيس بالزمان مدة تحركه، منذ أن يبدأ التحرك إلى أن يتنهى منه، وإن لم أر منذ أي زمان

(1) يورد "ب، دي لا بريول" الرأي التالي لـ "ب. دوهام" P. DUHEM بالصفحتين 318 و 319 من الجزء الثاني: «فالزمان إذن شيء آخر مختلف عن حركة الأجسام. فكلّ جسم يتحرك في الزمان. وبالزمان نقيس حركة الأجسام... والزمان ليس مقتناً بحركة الأجسام، ونحن نقيس هذه الحركة بواسطة شيء يوجد في مكان آخر». الملاحظة 1.

يتدنى، وهو يواصل تحركه، بحيث لا أرى متى ينتهي منه، فلا أقدر أن أقيس تلك المدة، إلا ربما منذ أن أبدأ في رؤية الحركة وحتى أنتهي منها. فإن رأيته طويلاً، لا أعلم إلا كون مدته طويلة، لا كم تكون، لأننا، عندما نقول كم تكون، فكأنما نقوله على وجه المقارنة: «هذا يساوي ذاك» أو «هذا ضعف ذاك»، وهكذا دواليك. أما لو استطعنا أن نرسم في الفضاء المكانين اللذين يأتي الجسم المتحرك من أحدهما ليذهب إلى الآخر، أو نرسم أجزاءه، إن تحرك كما يقع عادة في المخرطة (*in torno = un tour*)، فيمكننا أن نقول كم زمان استغرقت، من ذلك المكان إلى ذلك المكان، حركة الجسم أو حركة أجزائه.

إذن فيما أن حركة الجسم هي شيء، وأن قيس مدة شيء آخر، فمن يعلم على أيٍّ منها، يجدر أن نطلق اسم الزمان؟ إذ يحرك الجسم، مرتة، حركة غير متساوية، ومرة يتوقف، فنحن نقيس بالزمان، لا فقط، حركته، بل وأيضاً سكونه، ونقول: «قد سكن مدة تساوي تحركه»، أو «قد سكن مرتين أو ثلاث مرات أكثر مما تحرك» أو غير ذلك مما تضمنه قياسنا أو غيره بصورة تقريرية كما يقال. إذن فالزمان ليس بحركة الجسم.

32. XXV. وأقر لك، مولاي، أني أجهل ما هو الزمان، وبالعكس أقر لك، مولاي، أني أعرف أني أقول هذا في الزمان، وأنني أتكلّم عن الزمان منذ زمن طويل، وأن «هذا الزمن الطويل» ليس طويلاً، إلا بالرثى الزمانى. فإذاً كيف أعرف ذلك، وأنا أجهل ماهية الزمان؟ أم لعلّي أجهل كيف أقول ما أعرفه؟ ويل لي، أنا الذي أجهل حتى ما أجده. انظر، يا إلهي، إنه جلي إليك أني لا أكذب. إن قلبي كقولي، «فلتر أنت مصباحي، يا مولاي وإلهي، ولتشر ظلماتي».

33. XXVI. لا تعترف إليك روحي اعترافاً صادقاً، أني أقيس الأزمنة؟ بل بالعكس، يامولي وإلهي، أقيسها، ولا أدرى ما أقيس. أقيس حركة الجسم بالزمان. لا أقيس أيضاً الزمان عينه؟ أم هل لي أن أقيس حركة الجسم، وكم تدوم وكم وقتاً يقضيه ليصل من هنا إلى هناك، لو لم أقس الوقت الذي يتحرك خلاله؟

فيهم إذن أقيس الزمان عينه؟ هل نقيس، بزم أقصر، زمناً أطول، كما نقيس بالذراع عارضة؟ فتجدنا هكذا نقيس مدى المقطع الطويل، بمدى القصير، وقاتلتين إن ذاك ضعف هذا. لذا نقيس طول القصائد بعدد الأبيات، وطول الأبيات بعدد المقاطع، وطول المقاطع بعدد أجزائهما، ونقيس مدد الطويلة منها بالقصيرة، لا على الصفحات - إذ نقيس بهذه الكيفية الأمكنة لا الأزمنة - بل عندما تجري الكلمات في النطق، ونقول: «هذه القصيدة طويلة، فهي تتربّك من كذا من الأبيات؛ والأبيات طويلة، إذ

تمتد على كذا من المقاطع؛ وأجزاءها طويلة، إذ تسع لكذا من المقاطع؛ وهذا المقطع طويل، إذ هو ضعف القصير».

لكن، حتى هكذا لا ندرك قيس الزمان بيقين، حيث قد يتقد أن يكون البيت الأقصر يرن في الأذن مدة أطول، إن نطقنا به بأكثر بطءاً من الأطول إن نطقنا به بأكثر سرعة. وكذا الحال في القصيدة وفي البيت وفي المقطع.

من ذلك تراءى لي أنَّ الزمان هو لا شيء، سوى الامتداد: لكن امتداد ماذا، لا أدرى؟ والعجيب ألا يكون امتداد الفكر ذاته. فماذا أقيس - أتوسل إليك، يا إلهي - قائلًا إما بالتقريب: «هذا الزمان أطول من ذاك» أو على وجه الدقة: «هذا ضعف ذاك»؟ أقيس الزمان، وأعرفه؛ لكنني لا أقيس الآتي منه، لأنَّه لا يوجد بعد، لا أقيس الحاضر، لأنَّه لا يمتد أبداً، لا أقيس المستقبل، لأنَّه لا يوجد بعد، فماذا أقيس؟ هل هي الأزمنة العابرة لا الأزمنة الماضية؟ فذاك ما كنت قد قلته.

XXXVII. أصربي، يا روحي وتأللي بقوَّة: «الإله مُعيننا؛ هو الذي خلقنا، لا نحن». تألفي حيث يشرق الحق^(١).

هناك، مثلاً، صوت جسم يبدأ في الرنين، يرن ولا يزال يرن، وهو إنه يتهمي منه، وهو هو الصمت وقد أصبح ذلك الصوت في الماضي، وليس بعد صوتاً. كان مستقبلياً، قبل أن يكون ليرن، ولم يكن ليتمكنه أن يقاس، لأنَّه لم يوجد بعد، ولا يمكنه ذلك الآن، لأنَّه لم يعد موجوداً. إذن كان له ذلك، لما كان يرن، لأنَّه كان آنذاك موجوداً بحيث كان يمكنه أن يقاس. لكنه لم يكن - حتى آنذاك ثابتًا، إذ كان يغدو ويروح. وهذا بالذات ما يجعلها أقرب إلى أن تقاس؟ إذ إنها عند عبورها كانت ذات امتداد زمانى يمكن من أن نقيسها، في حين أنه لا امتداد للحاضر البة.

إذن، إنَّ كان، لذلك الصوت آنذاك هذا الطابع، ها هو مثال آخر لصوت يبدأ في

(١) ubi albescit ueritas... = حيث يشرق الحق... نفس الإحالة الكتاب الحادي عشر، الملاحظة 1: هي عبارة في رجيلة (Aen. IV, 586...) حزرها أوغستينوس تحيراً موقفاً... هذا علاوة على كون ديدون Didon في النشيد الرابع من الإلياذة، رأت من أعلى قصرها نور الفجر يشرق وأسطول الخائن «إيني» Enée يتبعده... primam albescere lucem... وفي سورة من الهيجان أرادت أن ترسل في البحر أسطولاً يتعقب لثراه، عقاباً له. ويدرك «دي لا بريول» في هذا السياق ص 321، أنهم «قلما كانوا يحملون Albescere على المعنى المجازي». ويمكن أن نختم هذه الملاحظة بالإشارة إلى أنَّ الناس كانوا معججين إعجاباً كبيراً بالشاعر «فيرجيل» في إفريقيا في العصور المتأخرة والعصور المسيحية.

الرئتين، ولا يزال يرنّ باستمرار ودوماً، ودون أي توقف، فلنفسه، ما دام يرنّ؛ وعندما يتوقف، سيكون بعد ماضياً، ولن يكون قابلاً للقياس. فلنفسه إذن، ولنقل كم سيدوم. لكنه لا يزال يرنّ، ولا يمكن قيسه إلا من بدايته التي يبدأ الرئتين فيها، إلى نهايته التي يتنهى منها فيها. فالملمة ذاتها، لعمري، نقيسها، من بداية ما إلى نهاية ما. فلهذا السبب، لا يمكن أن يفاس الصوت الذي لم ينته بعد، بحيث يقال كم طويلاً يكون أو قصيراً، أو يقال إنه مساوٌ لصوت ما، أو إنه بالنسبة إلى صوت ما، بسيط أو ضعيف، إلخ... أما، عندما سيكون قد انتهى، فلن يكون بعد موجوداً. إذن، فبأية طريقة سوف يمكن أن يفاس؟ ومع ذلك، نقيس الأزمنة لا التي لا تزال غير موجودة، ولا التي لم تعد موجودة، ولا التي لا تمتد على أيٍّ ريث، ولا التي ليست لها أية حدود. إذن فلا نقيس الأزمنة الآتية ولا الماضية ولا الحاضرة ولا الجارية، وعلى الرغم من ذلك، نقيس الأزمنة!

35. «الإله، خالق الكل»⁽¹⁾:

هذا البيت يترَكَب من ثمانية مقاطع، تتراوح فيه بين القصيرة والطويلة: هي إذن ثلاثة مقاطع قصيرة، الثاني والرابع والسادس، وهي بسيطة بالنسبة إلى الخمسة الطويلة، الأول والثالث والخامس والسابع والثامن. ولكلّ واحد من هذه الأخيرة ضعف زمن كلّ واحد من تلك الأولى؛ أتلفظ بها وأجزم بذلك، والأمر كذلك، حسب شهادة الحاستة الجلية. وبقدر ما إن الحاستة جلية، أقيس بالقطع القصير الطويل، وأشعر بكلّه يوجد فيه مرتين. لكن لعما كان المقطع يرنّ بعد غيره، فإنّ كان القصير الأول، والطويل بعده، كيف سأمسك بالقصير، وكيف سأستعمله لقياس الطويل، حتى أجد أنه يوجد فيه مرتين، بما أن الطويل لا يبدأ يرنّ، إلا بعد أن يكون القصير قد انتهى من الرئتين؟ والطويل ذاته، هل أقيسه حاضراً، في حين آتي لا أقيسه إلا وقد انتهى؟ لكن في نهايته انقلاب إلى الماضي.

فما الذي أقيسه إذن؟ أين هو المقطع القصير الذي أقيس به؟ وأين هو الطويل الذي أقيسه؟ فالإثنان (أي المقطuman القصير والطويل)⁽²⁾ قد رنا وطاراً، ومرةً، وليس لهما وجود بعد: وأنا أقيس، وأجيب بالقدر من الثقة الموثوق بها في الحاستة المجرّبة، أنَّ

(1)... Deus creator omnium» = الإله خالق الكون... (المترجم [أي المترجم الفرنسي "ب. دي لا بريول"] المرجع نفسه، الملاحظة 1 ص 322، وقد أورد أوغستينوس في موضع سابق مقاطعتين من هذا التشيد (انظر الكتاب التاسع، الفقرة 32، XII).

(2) ما بين القوسين بعد توضيحاً للتبني، لا ترجمة حرفيّة.

ذلك هو البسيط، وأنّ هذا هو الضعف، في خصوص المدة طبعاً. ولا أستطيع هذا إلا لأنّهما مرتاً وانتهياً. فلا أقيس إذن المقطعين بالذات اللذين لم يعد لهم وجود، بل شيئاً ما يبقى عالقاً بذاكرتي.

36. فيك، يا فكري، أقيس الأزمنة⁽¹⁾، فلا تعارضني، فذلك يوجد؛ لا تعارضني طبقاً لرسول مشاعرك. قلت: فيك أقيس الأزمنة. الشعور الذي تبعه فيك الأشياء العابرة، والذي يبقى عندما تكون قد مرت، ذلك ما أقيسه حاضراً، لا الأشياء التي قد مضت حتى يوجد ذلك ما أقيسه، عندما أقيس أزمنة. إذن، فإنما تلك هي الأزمنة، أو لست أقيس أزمنة. لكن ماذا؟ عندما نقيس الصمت، ونقول إنّ ذلك الصمت قد دام مدة زمنية تساوي مدة ذلك الصوت، أفلا نشغل الفكر لقيس الصوت، وكأنّه يرنّ، حتى نقدر أن نميز البعض من مدد الصمت في الترتيب الزماني؟ فدون حركة صوتية للفم، تقوم بسرد القصائد والأبيات وكل الخطب، مميزتين تناسب حركاتها وتفاعل مدهها، تماماً كما لو كنا نسردها بصوت جهوري. إذا أراد أحد أن يصدر صوتاً طويلاً ما، وضبط منه مسبقاً، في فكره، الطول، فهو يتصور مدة بصمت، ويعهد بتحديدها لذاكرته، وعندئذ فقط، يصدر الصوت الذي لا يرنّ إلا إلى الحد المقرر مسبقاً: لكنه رنّ وسوف يرنّ؛ فما مرت منه بعد لعمري، قد يرنّ، أما ما يبقى، فسيرنّ، وعلى هذه الصورة يكتمل، في حين أنّ الفعل الحالي يوصل الآتي إلى الماضي، وهذا يزداد بما ينقص المستقبلي، حتى يصبح الكلّ ماضياً بعد فناء المستقبلي.

37.XXVIII. لكن كيف ينقص أو يفني المستقبلي الذي لا يوجد بعد؟ أو كيف يزداد الماضي الذي لم يعد موجوداً، لا يكون ذلك إلا لأنّه توجد في الفكر الذي تحدث فيه هذه الظواهر ثلاثة أشياء؟ فالأول يُنتظر، والثاني يهتم به، والثالث يتذكر، بحيث أنّ ما يُنتظر يتحول _ بواسطة ما يهتم به - إلى ما يتذكر. إذن فمن ينكر أنّ المستقبلي غير موجود بعد؟ لكن، مع ذلك، فانتظار الآتي موجود في الفكر، ومن ينكر أنّ الماضي لم يعد موجوداً؟ لكن، مع ذلك، فتذكرة الماضي لا يزال في الفكر. ومن ينكر أنّ الزمان الحاضر يفتقر للامتداد لأنّه في نقطة عابرة؟ لكن، مع ذلك، يدوم الاهتمام كثيراً، وهو ما يتوجه به ما سيكون غائباً إلى ما سيكون قد مضى. إذن ليس

⁽¹⁾ ... «فيك يا فكري... أقيس الأزمنة». المرجع نفسه، ص 322 الملاحظة 2، قال الشارح الشهير: «هذا هو القول الفصل...».

الزمان المستقبلي بالطويل، بما أنه لا يوجد، بل المستقبل الطويل هو في ترقب للآتي يُتصور طويلاً، وليس الزمان الماضي بالطويل، بما أنه لا يوجد، بل الماضي الطويل هو في تذكرة للماضي يُتصور طويلاً.

38. أقبل على ترتيل نشيد أعرفه عن ظهر قلب: وقبل أن أبدأه، يشغل انتظاري تجاه كليته، أما بعد أن أبتدئ فيه، وبقدر ما سأكون قد رميت منه في الماضي، ف تكون ذاكرتي مشغلة كما يشغل فعلي حالي تجاه الذاكرة بسبب ما رأته، وتتجاه الانتظار بسبب ما سأرأتله: إلا أن اهتمامي باق حاضر، بحيث سيصبح به ما كان آتياً ماضياً. وبقدر ما تنمو هذه الحركة، تثري الذاكرة بما يفقده الانتظار، حتى الوقت الذي يكون الانتظار فيه قد فني، لأن عملي قد اختتم وانتقل كلية إلى ذاكرتي. وما يحدث لكلية النشيد المرتلى يحدث لكل واحد من مقاطعه، وتلك هي الحال بالنسبة إلى عمل أوسع ربما كان ذلك النشيد جزءاً صغيراً منه: كذلك في خصوص حياة الإنسان كلها التي تكون أعماله أجزاء لها، كذلك أخيراً بالنسبة إلى «تاريخ جميع الأجيال البشرية» التي تكون حياة الناس جميعاً أجزاء لها.

XXIX. لكن «حيث أن شفقتك خير من كل حياة»، فها إن حياتي عصيان، وإن «يمناك أمسكت بي» في مولاي، ابن الإنسان وال وسيط بين وحدتك وكثرتنا، في الكثير وبالكثير، حتى «أقبض به على من قبض علىي» وأتحرر من الأيام الغابرة متصلًا بك ومندمجاً في وحدتك، «ناسياً الماضي»، غير تائق لما سيأتي ويمضي ويمزّ، بل لما هو الآن حاضر، مواصلاً جهداً خالياً من كل تشتت⁽¹⁾ لليل «إكليل التزعة السماوية»، حيث سأسمع المديح، وسأشاهد غبطتك»، وهي ثابتة لا تغدو ولا تروح.

أما الآن «فأعوامي تمضي في الحسرات»، وأنت، ياسلواني، يا مولاي، يا أبي، أنت دائم؛ أما أنا فمتشتت في الأزمنة التي لا أدرى ترتيبها. في التقلبات المضطربة تتمزق أفكاري، وأحشاء روحي العميق، في انتظار أن أسيّل فيك، مطهراً ومبوكاً بنار حبتك.

(1) العبارات «Non distentus, sed extensus» التي ترجمتها «ب. دي لابريول» P. DE LA- BRIOLLE في الصفحة 325 على النحو التالي «... par tendu... vers les choses présentes,... par un effort exclusif de tout éparpillement... أي «مشدوداً... إلى الأشياء الحاضرة... بجهد خال من كل تشتت» شرحت بالعبارات التالية: «هاتان الصفتان اللتان تكررتا في صورة الأسمين intentionem و distentionem تعبران عن التقابل بين الجهد الذي يلقي والجهد الذي ينتشر». الإحالة نفسها، الملاحظة 1.

XXX.40. وسأكتسب الثبات والمتانة فيك وفي حبك، ولن أتحمل أسئلة الناس الذين، يريدون، بسبب حبهم الجائز للاطلاع، أن يشربوا أكثر مما يشفي غليلهم، ويقولون: «ماذا كان يفعل الإله، قبل أن يخلق السماء والأرض؟»، أو «كيف حال بخلده أن يفعل شيئاً ما، والحال أنه لم يفعل من قبل أي شيء؟ فقط؟»

هَبْ لَهُمْ، يا مولاي، القدرة على التفكير ملياً في ما يقولون واجعلهم يفقهون أن «قط»⁽¹⁾ (*ubi non est tempus*) لا تقال حيث لا يكون الزمان⁽²⁾. فإذاً، من يقال عنه «إنه لم يفعل شيئاً فقط» هل يقال عنه شيء آخر عدا أنه لم يفعل شيئاً «في أي زمان»؟ لذلك ليروا ألا زمان كان ليوجد قبل الخليقة، ولি�توقفوا عن قول هذه التزهات. وليتوجهوا أيضاً «إلى ما هو أمامهم»، وليفهموا أنك، قبل الأزلة، الخالق الأزلية لكل الأزلة، وألا أزلة هي شريكتك في الأزلية، ولا أية خلية، مهما تكون فوق الأزلة⁽³⁾.

XXXI.41. مولاي والاهي، ما أكثر منعطفات سرك العميق، وكم بعيداً عنه رمت بي عاقب خطايدي؟ لتشفِّ عيني، ولأغبط برؤية نورك! فالمؤكد أنه لو كان لعقل من العقول معرفة كبيرة بالعلم والتباوت يجعله يعرف كلَّ الماضي والمستقبل كما أعرف أنا نشيدها مشهوراً جداً، لكن ذلك الفكر عجياً للغاية، ومفرضاً إلى حد الرعب، بما أنه لن يخفي عنه على هذا النحو أي حدث ماضٍ، ولا أي حدث من القرون الباكرة، كما أنه لا يخفي على وأنا أرثد هذا الشيد (*cantantem illud canticum*)⁽⁴⁾ كم مقطعاً سردت منه منذ البداية وكم بقي منه حتى النهاية. لكن لتبتعد عني، نعم ليبتعد عني أن تكون، أنت، يا صانع الكون، وصانع الأرواح والأجسام، أن تكون تعرف هكذا كلَّ المستقبلي والماضي. أما أنت فمصدر عجب وسرّ أكبرين، أقول أكبرين! إذ، عندما يغتلى لحن معروف، أو يسمع غناوه، تترقب الخانات الآتية، وتذكرة الماضية، وذاك ما يبعث المشاعر، ويعطي للأحساس كلَّ قوتها. أما أنت فلا يحدث فيك شيء من هذا

(1) *jamais* = (ne signifie rien). (الأحالة نفسها).

(2) حيث الزمان لا يوجد. (الاحالة نفسها).

(3) ... مهما تكون فوق الأزلة... المرجع نفسه، ص 326 الملاحظة 2: يقصد الملائكة: انظر النقاش بشأن علاقة الملائكة بالزمان، المرجع نفسه، XII، XVI.

(4) عندما أرثد هذه المقطوعة على حد قول "ب. دي لا بريول" (أو قل هذا الشيد *cantique*). .

القبيل، أنت ذو الذِّي مُوْمَة الأَزْلِيَّة التي هي السَّمَة الْحَق لخالق الأفكار الأَبْدِي. إذن، كما أَنْتَ عرَفت «في المبدإ السماء والأرض»، دون أن تَتَغَيَّر معرفتك، كذلِك خلقت «في البداية السماء والأرض»، دون أن يتَغَيَّر عملك.

من يفَقِه هَذَا فَلِيمَدْحُوك، ولِيمَدْحُوك أَيْضًا مَنْ لَا يفَقِه هَذَا! آه! كم أَنْتَ رَفِيع! وكم تَجِد مِنْ ذَلِك في قُلُوبِ الْمُتَوَاضِعِينَ!

فَأَنْتَ «ترفع الطَّرِيعَيْن أَرْضاً»، وَهُمْ لَا يَسْقُطُونَ لَأَنَّكَ رَفَعْتَهُمْ^(١)
..(celsitudo es = que vous maintenez debout

(1) هذه خاتمة على غاية من الحبكة اجتمعت فيها **excelsus** أي «كبير» صفة للإله وهي من نفس عائلة **celsitudo** اي "المظمة" و **elisos** أي "مكسور" صفة للبشر المتواضعين (أو الأذلاء). وبفضل رحمة الإله يُرفع شأنهم ويحلون على الرحب في بيته المضياف فتَرى انحطاطهم يزول ويتَمحى في يسر وسهولة.

الكتاب الثاني عشر

1.I. عانى قلبي كثيرا، يا مولاي، من عوز حياتي هذا، وكلمات كتبك المقدسة تقرعه، ولذلك غالبا ما يكون فقرُ الذكاء البشري ثريّا بالكلام، لأن البحث يتطلب كلاما أكثر مما يتطلبه الاكتشاف، ولأن الطلب أطول من التحصيل، ولأن اليد تتعب أكثر عند القراء والضرب منها عند مجرد التلقي. لكننا حصلنا على وغدلك: فمن ذا الذي يفسدك؟ و«إنْ كَانَ إِلَاهًا مَعْنَى، فَمَنْ يَكُونُ ضِدَّنَا؟ أُطْلِبُوكُو، وَسَوْفَ تَأْخُذُونَ، ابْتَحُوكُو، وَسَوْفَ تَجْدُونَ؛ أُطْرُقُوكُو، وَسَوْفَ تُفْتَحَ لَكُمُ الْأَبْوَابُ». فمن طلبك، أخذك، ومن بحثك وتجدك، وسوف يفتح لك الطرق.

هذه وعودك. ومن يخشى أن يُخدَعَ والحق واعده؟

2.II. لساني المتواضع يعترف لسموك، أنت أنت خلقت السماء والأرض، هذه السماء التي أراها، وهذه الأرض التي أذوسها والتي يصدر عنها الغبار الذي أحمله. أنت خلقتهمما.

لكن أين هي سماء السماء، يا مولاي التي سمعنا مؤلف المزامير *in uoce psalmi* (= dans les paroles du Psalmiste) يقول عنها: «سَمَاءُ السَّمَاءِ لِلْمُؤْلَى: أَمَّا الْأَرْضُ فَقَدْ أَغْطَاهَا لِأَبْنَاءِ الْبَشَرِ»؟ أين هي السماء التي لا نراها والتي تُعدّ بالنسبة إليها كل ما نراه أرضا؟ فكل هذا الكون الجسماني الذي قاعدته أرضنا، وإن لم يكن كله كامل الجمال، قد اتّخذ في أقصى أجزائه منظراً جميلاً، لكن بالنسبة إلى تلك «السماء للسماء»، فحتى سماء أرضنا تعتبر كالارض. وكلا هذين الجسمين الكبيرين قد يعتبر، دون لامعقولية، أرضين، مقارنة بتلك السماء التي لا أدرى ما هي، والتي هي «للمؤلى»، لا «لأبناء البشر».

3.III. ولا غرابة إن كانت هذه «ال الأرض لا مرتبة لا منظمة» وهاوية بعيدة القرار،

لا أدرِّي ماهيَّ، ليس عليها أيَّ نور، لأنَّه لم يكن لها أيَّ شكلٍ: لذلك أمرت أن يُكتَبَ أنَّ «الظلماتِ كَانَتْ عَلَى سطحِ الهاوِيَّةِ»، فما معنى حضور الظلمات إنَّ لم يكن غياب النور؟ وأين كان النور، لو كان موجوداً بعدُ، إنَّ لم يكن يعلو الكون ويضيئه؟ إذن، بما أنَّ النور ما وجد بعد، فليس معنى حضور الظلمات سوى غياب النور؟ وإذاً كانت الظلمات تعم الكون، لأنَّ النور لم يكن يعممه، تماماً كما آنه حيث لا يكون الصوت يكون الصمت. وما معنى كون الصمت هنا، سوى كون آنه لا صوت هنا؟

آلم «تعلَّمْ»، أنت يا مولاي، ذلك لهذه الرُّوح التي تعرَّف لـك؟ آلم «تعلَّمني»، أنت يا مولاي، آنه، قبل أن تعطي هذه المادة اللامحدودة شكلاً وتنعِيرات، لم يكن فيها أي شيء، لا لون ولا صورة ولا جسم ولا روح؟ لكنَّ لم تكن مطلقاً لاشتنا، بل كانت شيئاً لامحدوداً لا شكل له ولا قوام (quaedam informitas = quelque chose).
(d'informe).

4.IV. كيف إذن نسميهَا، وكيف ندلُّ عليها حتى ذوي الأفكار الأكثر بطءاً أنفسهم، إنَّ لم يكن بكلمة متداولة؟ وهل يمكن أن يوجد في جميع أرجاء المعمورة، ما هوأشدَّ شبهاً من حيث اللامحدودية من الأرض والهاوِيَّة؟ فهما أقلَّ رونقاً، بسبب درجتيهما السفليَّتين، من بقية المخلوقات العليا التيرية، وكلَّ الكائنات المتألقة. لماذا لا أقبل إذن أنَّ الامحدودية المادة التي كنت قد خلقتها حالياً من الزوق، لتجعل منها عالماً جميلاً قد أشير بها، بهذه السهولة، إلى البشر، «تشميمَة للأرضِ الامرئيَّة واللامُنظَّمة»؟

5.V. هكذا، عندما يبحث الفكر عما يبلغه الحسن في المادة، ويقول لنفسه: «ليست صورة معقوله كالحياة وكالعدالة بما أنها مادة الأجسام، ولا محسوسة بما آنه لا شيء في الامرئي واللامُنظم قابل لأن يُرى أو لأن يحسَّ به»، مادام الفكر الإنساني يقول هذه الأقوال لنفسه، يكون لزاماً عليه أن يحاول، إنما أن يعرفها، وهو جاهل لها، أو أن يجهلها، وهو عارف بها.⁽¹⁾

6.VI. أمَّا أنا، يا مولاي، إذا كان علىَّ أن أُعترف لك، بفمي ويقلمي، بكلَّ ما قد علمته عن هذه المادة التي كنت سابقاً أسمع اسمها، ولا أفهمها، حيث أنَّ من كانوا يحدِّثونني عنها، لم يكونوا يفهمونها، فكنت أتصوّرها مختلفة ذات أشكال لا

(1) uel ignorare noscendo... أن يجهلها وهو عارف بها. الاعترافات، الكتاب الثاني عشر، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 332، الملاحظة 1. (أوغسطينوس يبحث عن هذه التقابلات بين الكلمات ويطلبها) انظر الفقرة «...I, VI, § 10...».

تحصي، ولا تعد، ولذلك لم أكن أتصورها حقاً، كانت تجول في فكري صور فظيعة مفزعة في أنظمة مشوهة، ولكنها صور مع ذلك، وكانت أسمى لامحدا لا ما كان مفترا للشكل، بل ما كان له شكل سمه آنه، لو بدا أمامي شاداً غريباً، لاشمارت منه حواسٍ ولا ضرب له ضعفي البشري أيما اضطراب.

أما ما كنت أتصوره هكذا، فلم «يكن لامحدا بانعدام أي شكل، فيه بل بالمقارنة مع أشكال أجمل، والعقل الحق كان يحثني على أن أجزد الامحدا من جميع بقايا الشكل فيه، مهما كانت، لو كنت أريد تصوره بصفة مطلقة، وما كنت أستطيع ذلك، إذ سرعان ما كنت أعتبر غير موجود ما كان مفترا لأي شكل، عوض أن أتصور شيئاً ما وسيطاً بين الشكل والعدم، لا شكلاً ولا عدماً، ولا محدداً، بل يكاد يكون العدم.

وتوقف عقلي عندئذ عن مساءلة خيالي المليء بصور الأشكال الجسمانية، والمغير والمدمج لها حسب مشيتي، واهتممت بالأجسام عينها، وتأملت تأملاً أعمق مما كانت تظهر عليه في تقلبها الذي تنتهي طبقه، لتبدأ في الوجود بمظاهر ليست لها، وخفمت أن ذلك التحوّل من شكل إلى شكل، يقع عن طريق لامحدا ما، لاعن طريق العدم المطلق. لكنني كنت لا أرضي بالتخمين، بل كنت أرغب أن أعلم، ولو اعترف لك صوتي وقلمي بكل ما منحتيه في هذا المضمار، فمن من قرأتني سيتحمله لفهمي؟⁽¹⁾ ولذلك، على كل، لن يتوقف قلبي عن تمجيدك وعن مدحك بترتيل خاص بما يعجز أن يعرب عنه.

تقلب الأشياء المتقلبة ذاته قابل لأن يتخذ جميع الأشكال التي تتقلب بينها الأشياء المتقلبة. لكن ما المتقلب؟ فهو الفكر؟ أم هو الجسم؟ أم هي صنف من الفكر أو الجسم؟ فلو أمكن أن يقال عنه «الأشياء» وهو شيء أو «هو عدم» أي جاري⁽²⁾ لقللت إنّه هكذا، ومع ذلك، فهو كان على كل شيئاً ما، لتقدر أن تتخذ تلك المظاهر المرتيبة والمتشعبية.

7.VII وعلى كل، فمن أين يمكن أن تأتي، إن لم تكن منك أنت الذي يأتي كل شيء من لدنك، بقدر ما يكون؟ لكن الشيء يكون أبعد منك، بقدر ما يكون أقل شبها بك: وهذا بعد ليس ماديا.

فأنت إذن، يا مولاي، أنت - الذي لست شيئاً آخر ولا كائناً على نحو مختلف، بل

⁽¹⁾ capere durabit = من ... الذي سيدر على الصمود...؟ «هو يشعر بالطابع الجاذ بعض الجاذ لاعتبارات التي يسيطرها في عرضه ويخشى أن يقلع الناس عن اتباعه».

تكون أنت نفسك، نفسك، نعم أنت نفسك، «مقدّساً، مقدّساً، مقدّساً، يا مَوْلَانَا وَإِلَهَنَا القَدِيرَ» - قلتُ أنت، في المبدأ الذي يصدر عنك في حكمتك التي هي مولودة من جوهرك، خلقت شيئاً ما من العدم.

خلقت «السماء والأرض» لا من جوهرك، وإنما لكانها مساوتيين لابنك الوحيد، ومن ثم لك أيضاً، ولما كان من العدل بأية صورة أن يكون مساوياً لك، ما لم يكن صادراً عنك⁽¹⁾. وما كان شيء آخر خارجاً عنك، لتخلقه مما منه، أيها الثالوث الأوحد⁽²⁾، أيتها الأخديّة الثالوثية: *(una trinitas et tria unitas)*⁽³⁾. لذلك خلقت من العدم «السماء والأرض»، شيئاً كبيراً وشيئاً صغيراً، حيث يحلو لك، أنت القدير الطيب، خلق كل ما هو طيب، السماء الكبيرة والأرض الصغيرة. كنت أنت، ولم يكن شيء آخر، ومنه خلقت «السماء والأرض»، خليقتين اثنتين، الأولى قربك والآخر قرب العدم، الأولى لا شيء أرفع منها سواك، والأخرى لا شيء أسفل منها إلا العدم.

8.VIII. لكن «سماء السماء» تلك هي لك، يا مولاي، أما الأرض التي أعطيتها «لبني البشر» ليشاهدوها وليلمسوها، فلم تكن كما نتصورها ونلمسها الآن، إذ كانت لا مرتبة ولا محددة الشكل، كانت هاوية ليس عليها نور: و«كانت الظلام فرق الهاوية»، كانت أشد ظلمة من الهاوية. وهاوية المياه هذه التي أصبحت ثرى، تتفقل حتى في أعماقها نوعاً من النور تحس به العيتان والزواحف التي تعيش في لجتها: إلا أن ذلك في كليته كان تقريباً كالعدم، بما أنه كان لا يزال تماماً غير محدد الشكل، لكنه كان مؤهلاً بعد ليخذ شكله.

فأنت، مولاي الذي خلقت الكون من مادة لا شكل لها، خلقته من عدم لتجعل منه شيئاً كالعدم لتخرج منه إثر ذلك عجائب كبيرة، لنا نحن بني البشر. فما أعجب تلك السماء الجسمانية، تلك القبة الزرقاء، الكائنة بين الماء والماء والتي قلت لها في اليوم الثاني بعد خلق النور: «فلتكنني» (*Fiat*)!⁽¹⁾، وكانت كما شئت⁽³⁾... هذه القبة الزرقاء سميتها سماء، ولكنها سماء هذه الأرض وهذا البحر اللذين خلقتهما في اليوم الثالث، واهباً الصورة المرتيبة للمادة الأامتحنة التي خلقتها قبل كل الآيات. فقد كنت خلقت

(1) *ut aequale tibi..., quod de te non esset...* «أن يكون مساوياً لك... ما لم يكن صادراً عنك» الاعترافات، الكتاب الثاني عشر، ص 334، الملاحظة 1: «يشبه التمثي في التفكير، حسب الصيغة التي قدم عليها هنا، «الدائرة المفرغة» شيئاً كبيراً.

(2) *O Trinité une, Unité triune*، انظر الترجمة ص 334، المرجع نفسه.
(3) *Lux fiat et lux fit!* كما ورد في الكتاب المقدس: «ليكن النور، وَكَانَ النُّورُ!

بعد أيضاً سماء، قبل بداية الأيام، لكنها «سماءٌ هذه السماء»، لأنك «في المبدأ» كنت قد خلقت السماء والأرض، أما الأرض ذاتها التي كنت قد خلقتها فكانت مادةً لامحددة الشكل، «لأنها كانت لأمرية، ولا مرئية، وكانت الظلامات فيها فوقَ الهاوية». ومن هذه الأرض الامرية واللامنظمة ومن هذه اللامحدودية، ومن شبه العدم هذا، قد كنت ت يريد أن تخلق هذا الكل الذي يبقى ولا يبقى، هذا الكون المتقلب الذي يظهر فيه التقلب بالذات والذي يمكن الشعور فيه بالأزمنة، وقيسها لأنّ الأزمنة تتكون من تقلبات الأشياء، بينما تتغير وتحوّل مظاهرها، والتي مادتها المشار إليها أعلاه هي الأرض الامرية.

IX.9. ولهذا فالروح التي هي معلمة خادمك، عندما تذكر أنك «في المبدأ» خلقت السماء والأرض، تسكت عن الأزمنة ولا تذكر الأيام. فلا غرابة أن تكون سماء السماء، التي خلقتها «في المبدأ»، خليقة عاقلة وإن لم تكن بآية صورة شريكك في الأزلية، أيها الثالث، فإن لها قسطاً من ديمومتك⁽¹⁾، حيث أنها تحصر حسراً تقلبها بعذوبة مشاهدتك، كأسعد ما تكون، دون أي أقول، ومنذ أن خلقت، وفي تعلقها بك، ارتفعت فوق كل تقلبات الأزمنة الزائلة.

أما لامحدودية الشكل تلك، «تلك الأرضُ الامريةُ واللامنظمةُ»، فلم تحصها هي أيضاً في الأيام. فحيث لا صورة ولا نظام لا شيء يغدو ولا شيء يروح، وحيث لا يقع هذا، وبالطبع لا أيام ولا عاقب للمدد الزمانية.

X.10. يا حق ويا نور قلبي، لتكن الظلامات ليست هي التي تكلّمني! قد انزلقت فيها، وأظلمت عيناي، لكنني من أعماق تلك الهوة هناك، نعم من ذلك العمق ذاته، شغفتُ بك. «ضللْتُ وتذكّرْتُك، سِمِّيْتُ صُوتَكَ يُنادِيَنِي مِنَ الْوَرَاءِ كَيْ أَعُودُ»، ولم أكُد أسمعه، بسبب صخب مشاعري غير الهدافه. والآن ها أنا ذا أعود إلى نبك، ضائق النفس والعرق يتصلب، فلا يمنعني منه أحد: سأشرب منه، وسأحيا آنذاك. وهلاً تكون حياتي أنا! حياتي كانت سيئة بسببي! كنت لنفسي موتاً فيك أتعش! كلامي أنت، وعلّمني. أنا مؤمن بكتبك، وكلماتها غامضة جداً لي.

XI.11. قد قلت لي بعد، يا مولاي، بصوتك القوي في أذني الداخلية، إنك أزلتي «مالكَ وَخَدَكَ الدَّيْنُومَةَ»، بما أنه لا شيء يغيّر فيك لا الشكل، ولا الحركة، ولا تحوّل مع الأزمنة

(1) «في كامل هذا الموضع الذي تُفتح به الفقرة التاسعة يقصد أوغستينوس الملائكة». المرجع نفسه ص الملاحظة 1 (...= aeternitatis = الأزلية).

إرادتك، فالإرادة التي تحول ليست إرادة أبدية. وهذه الإرادة «بِمَرْأَىٰ مِنْكَ» جلية لي، ولتصبح أكثر فأكثر جلاءً، أتوسل إليك، ولا يبقى في هذا الوحي، تحت جناحي حكمتك كما قلت لي، مولاي، بالصوت القوي في الأذن الداخلية، إنك أنت خلقت كل الطبيعتين والجواهر التي ليست أنت، ولكنها موجودة: فلا شيء ليس منك إلا العدم، والإِرَادَةُ إِرَادَةٌ مُبَعَّدَةٌ عَنْكَ، أَنْتَ الْوَجُودُ ذَاهِنٌ، نَحْوَ كَانِثَاتِ سَفْلِيٍّ، لَا تَمِيلُ هَذِهِ الْحَرْكَةِ عَارِ وَخَطِيبَةٍ، وَلَا خَطِيبَةٍ تَضَرِّكَ أَوْ تَقْلِبُ نَظَامَ إِمْپِراطُورِيَّتِكَ، لَا فِي الْقَمَةِ وَلَا فِي الْقَاعِدَةِ. «هَذَا بِمَرْأَىٰ مِنْكَ» جلية لي، فليصبح أكثر فأكثر جلاءً، أتوسل إليك، ولا يبقى في هذا الوحي تحت حكم جناحيك!

12. قلت لي كذلك، بالصوت القوي، في الأذن الداخلية، إنها أيضاً ليست شريكك في الأزلية، تلك الخلقة التي أنت لذتها الوحيدة، والمتممة بك في عفة دائمة، دون أن تخون، في أي مكان أو وقت تقلبها، والمرتبطة بك بكل روحها، والتي لا تتذكر في حضورك الأبدى مستقبلاً ولا ماضياً لا يترك إضافاته إليها إلا الذكرى، دون تعاقب ولا امتداد في الأزمنة.

لو كانت هذه الخلقة موجودة فما أعظم سعادتها بالتحامها بغيظتك، مغتبطة بكونك أنت ساكنها الأبدى، ويقبل وحيك! لا أجد شيئاً أجدرك أن يسمى «سماءَ كَسْمَاءِ الْمَوْلَى» من منزلتك هذا الذي يشاهد ملذاتك دون أي أقول يخرجه إلى غيره، ومن هذا الذكاء الصافي المتحدد بالقربى ويرباط السلام، مع الأرواح المقدسة مواطنى مدبرتك السماوية التي هي فوق سمانتا.

13. ولتفهم كل روح - أقول وأؤكد كل روح حادت عنك، في سفرها الطويل، إن هي أصبحت ظمآنى إليك، وإن أصبحت «دُمُوعُهَا رَغِيفَهَا» مادماً يُقال لها على مر الأئمَّاتِ: «أَيْنَ إِلَهُكِ؟»، «إِنْ طَلَبْتِ مِنْكَ، وَالْحَثَّتْ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ: أَنْ تَشْكُنَ فِي مَنْزِلَكَ، طِبْلَةً كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهَا»، «وَمَا هِيَ حَيَاتُهَا خَلَائِكِ؟»، «وَمَا هِيَ أَيَّامُكَ سِوَى دِيمُونَتِكَ، كَاغُورَامِكَ الَّتِي لَا تَمُرُّ، بِمَا أَنَّكَ دُؤْمًا بِذَاتِكِ؟» - قلت: لتفهم إذن من هنا كل روح، إن استطاعت، كم أنت ذو ديمومة تفوق بكثير كل الأزمنة، بما أن منزلتك الذي لم يبتعد في أي سفر عنك، وإن كان شريكاً لك في الأزلية، لا يتحمّل مع ذلك، بسبب التحامه اللامتهني والسرمي بك، أي تعاقب للأزمنة.

هذه الحقيقة «بِمَرْأَىٰ مِنْكَ» جلية واضحة، فلتصبح أكثر فأكثر جلاءً، أتوسل إليك، ولادم في هذا الوحي تحت حكم جناحيك!

14. هناك بالفعل لست أدرى أية مادة غير محددة الشكل في تلك التقلبات للأشياء الموجودة في أسفل القاعدة. ومن سينبتي، باستثناء ذلك الذي يتبه ويقلب في ترّهات قلبه وأوهامه، من سيخبرني - ماعدا مثل هذا الشخص - أنه لو انعدم كلّ شكل أو إمتحى، ولم تبق سوى تلك المادة التي لا شكل لها (*Informitas = informité*) والتي تمر عبرها الأشياء في تحولها وانسلاخها من صورة إلى صورة، لأمكن لتلك اللامحدودية أن تحدث تقلبات الأزمان؟ إذ إنّ هذا مستحيل تماماً، لأنّه بلا تغيير في الحركات، لا تكون الأزمنة، ولا تغير، حيث لا صورة⁽¹⁾.

15.XII. بعد هذه التأملات، فبقدر ما تسمح لي به، يا إلهي، وقدر ما تحرّضني على «طريق بابك»، وبقدر ما «افتتحه» في وجهي من الأبواب، «أنا الطارق»، أجد شيئاً قد خلقتهما خالين من الأزمان، وإن لم يكن واحداً منها شريك في الأزلية: الأول، وهو من الكمال بحيث أنه، دون أي توقف عن مشاهدتك، دون أي افول أو تقلب، وإن كان قابلاً للتقلب، يتمتع، مع ذلك، دون أي تغيير، بأزليتك ولا قابلية للتقلب، والثاني، وهو من الامحدودية الشكل، بحيث أنّ ليس له من القوة للتحول من شكل إلى شكل، إما حركة أو سكوناً، وللحضور فيه للزمان. لكنك لم تتركه يكون غير محدد الشكل، بما أنت خلقت، قبل كل الأ أيام، و«في المبدأ»، «السماء والأرض»، تبنّك الخلقيتين اللتين كنت أذكرهما. «أما الأرض فكانت لامزيةً ولامنظمةً، وكانت الظلمات فوق الهاوية». بهذه الكلمات يُشار إلى الامحدودية، ريشما يقحم، تدريجياً، أولئك الذين لا يقدرون أن يتصوروا كون الانعدام المطلق للصورة لا ينطوي، مع ذلك، على العدم المطلق، بما أنّ منه كانت تصدر السماء الثانية، والأرض المرتيبة المنظمة والجميلة بعدها، ومن بعدهما كل ما يُروى أنه خلق في أيام محددة عند تكوين هذا الكون، وتلك هي المخلوقات التي ت يريد أن تدخل عليها صروف الأزمنة، بسبب التحويرات المتقطعة في حركاتها وأشكالها.

16.XIII. هذا ما أفهمه، يا إلهي، عندما أسمع كتابك يقول: «في المبدأ خلق الإله السماء والأرض: أنا الأرض فكانت لامزيةً، ولامنظمةً، وكانت الظلمات فوق الهاوية»، دون أن يذكر في أي يوم خلقت تلك الأشياء. أفهم أنّ هذا الأمر يتعلق «بسماء السماء»، بالسماء العقلانية، حيث يتميز العقل بميزة كونه يعلم فوراً لا علما

⁽¹⁾ *et nulla varietas, ubi nulla species...* المرجع نفسه من 338 الملاحظ 2: «انظر أعلاه في آخر الفصل التاسع، الفقرة التاسعة».

«جزئياً» ولا «باللغز» ولا «بالمِزَاء»، بل علماً كلياً، جلتَا، «وَجْهًا لِوَجْهٍ»، لا تارة هذا، وتارة ذاك، بل، كما قلتُ، بالمعরفة الفورية، دون أي تتعاقب للأزمنة؛ وأنهم أن السبب هو الأرض الامرية الامنة المترتبة من تعاقب الأزمنة الذي يأتي عادة بهذا تارة، وبذاك طوراً، لأنه حيث لا صورة لا وجود في أي مكان لهذا وذاك.

بسبب هذين الشيئين، أحدهما متناسق منذ البداية، والثاني لا قوام له البتة، وتلك السماء، أعني «سماء السماء»، ومن ناحية أخرى الأرض، لكنها الأرض الامرية الامنة، بسبب هذين الشيئين، أفهم في الأناء، دون تحديد اليوم، ما يقول كتابك: «في المَبْدِأ خَلَقَ إِلَهُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ»، وقد أشار لته إلى الأرض التي يقصدها. وبما أنه يذكر أن «القبة الزرقاء» خلقت في اليوم الثاني وسميت «سماء» فهو يلمح إلى السماء التي تكلم عنها سابقاً كلاماً بلا أيام.

XIV. ما أتعجب عمق كلامك، فها هو أمامنا، يكشف ما يطفو منه على السطح، ويداعبنا بالأطفال! لكن ما أتعجب عمقه، يا إلهي، ما أتعجب عمقه! بالرغم المقدس يتأمل فيه، رعب الاحترام وفزع الحب! أكره بشدة أعداءه: آآه، لو قتلتكم بسيفك «ذى العذبين»، لكي لا يكون له أعداء! فإنني أحب أن يموتو أنفسهم، كي يحيوا لك!

لكن هناك آخرون، ليسوا ثالبين، بل مادحين لسفر التكوين (libri Geneseos) *laudatores... = admirateurs du livre de la Genèse* أراد أن يفهمنا إيمان الروح القدس بهذه الكلمات التي أملأها على موسى خادمه، لم يرد أن يسمع ما قلت أنت، بل أراد أن يسمع شيئاً آخر تقوله نحن».

سأجيئهم بما يلي، وستكون أنت، يا إلهنا جميعاً، الحكم الشاهد على ذلك:

XV. هل ستعتبرون باطلـاً، ما يقوله لي الحق، بصوته القوي، في أذني الداخلية، عن ديمومة الخالق الحق، وعن ثبوت جوهره المطلق عبر الأزمان، وعن اتحاد جوهر مادته وإرادته؟ من هنا لا نراه يريد تارة هذا وطوراً ذاك، بل يريد ما يريد دفعة واحدة وفي نفس الوقت وبصورة نهاية. ولا يريد تارة هذه الأشياء، وطوراً تلك، ولا يريد من بعد ما كان يرفضه، أو يرفض من قبل ما كان يريد، لأن مثل هذه الإرادة قابلة للتقلب، وكل قابل للتقلب غير أزلي؟ «أَمَّا إِلَاهُنَا فَهُوَ أَزْلِيٌّ».

وهل تخالف كذلك ما تقوله لي في الأذن الداخلية، من كون انتظار الأشياء المستقبلية يصبح رؤية مباشرة⁽¹⁾، عندما تصبح حاضرة، وأن الرؤية المباشرة ذاتها

(1) ترجمت العبارة اللاتينية *Contuitus* بـ«الرؤية المباشرة بالبصر» في الطبعة الأصلية للاعترافات، =

تصبح تذكراً، بعد أن تكون قد مضت: خاتماً، فكلَّ هذه الحركة التي تغير هكذا، قابلة للتقلب، وكلَّ مقلَّب لازليٌ: «أَمَا إِلَاهًا فَهُوَ أَرْبَيٌ». هذه الحقائق أجمعُها، وأقْيَدُها، وأجد أنَّ إِلَهِي، الإِلَهَ الدَّائِمُ، قد صنع الكون بإِرادةٍ ما غير جديدة، وأنَّ علمه لا يحتمل أي شيء عابر.

19. فإذاً ماذا ستقولون، أيها المعارضون؟ أكَلَ هذا باطل؟ تجربون «لا». ثم ماذا؟ هل من الباطل أنَّ كلَّ طبيعة ذات شكل، أو كلَّ مادة قابلة للتشكل لا تكونان إلا صادرتين عن ذلك الذي هو الطيب الأسمى، لأنَّه الكائن الأسمى؟ يقولون: «لا ننكر هذا أيضاً». فماذا إذن؟ هل تنكرن أيضاً الخلقة الجليلة تكون مندمجة في الإله الحق الدائم بحق، بحيث أنها ولو لم تكن شريكته في الديمومة لا تنفصل عنه ولا تتفكك، بل تستريح في مشاهدة حقيقته الوحيدة. لأنَّها تحبُك، يا إِلَهِي، بقدر ما تطلبه، تُبَرِّزُ إليها وتكفيها، ولذلك لا تزورَ عنك ولا تلتفت إلى ذاتها؟ «ذلك هُوَ مَثِيلُ الإِلَاهِ، لَا أَرْضِيٌّ» ولا ذو كتلة جسمانية، ورغم كونها سماوية فهي روحية، ومساهمة في ديمومتك، لأنَّها خالية من كلَّ وضمةٍ للديمومة. إذ إنك أنشأتها «لِلْأَبَدِ»، ولأبد الآبديةين. لقد سطَرْتَ قَاتُونَا لَنْ يَزُولْ». غير أنها لا تشاركك أبدِيتك، لأنَّ لها بداية، لكونها خُلِقَتْ.

20. نحن، ولا شكَّ، لا نجد الزمان قبل تلك الحكمة، لأنَّ الحكمة خلقت قبل جميع المخلوقات. ومع ذلك، ليست تلك الحكمة التي أنت أبوها، يا إِلَهُنا، والتي هي شريكتك ومساوية لك تماماً في الأبدية والتي قد خُلِقَ بها كلَّ شيء، والتي في مبدئها خلقت «السماء والأرض»، بل هي الحكمة الحق التي خُلِقَتْ من هذه الطبيعة العقلاتية، والتي هي النور لفروع مشاهدة النور، وتسمى أيضاً حكمة وإن كانت مخلوقة، لكن بقدر الفرق بين النور الذي ينير والنور الذي ينعكس يكون الفرق بين الحكمتين: الحكمة التي تخلق، والحكمة المخلوقة، تماماً كالفرق بين العدالة المبرَّة، والعدالة التي نشأت عن التبرئة. ألسنا نحن كذلك نُسْمِي عدَّالَتك؟ ألم يقل بعض خدمك: «...كَيْنَيْنِ كَوْنَ عَدَالَةَ إِلَاهِ فِي ذَاتِهِ؟» هناك إذن عدالة «خلقت قبل كلَّ خلقة» خلقت فكراً عقلاتياً ذكيتاً في مدينتك المقدَّسة التي هي أمناً و«التي هيَ فَوْقَ، حُرَّةً، أَبَدِيَّةً في

= وشرحها "ب. دي لا بيريلو"، ص 431 من الجزء الثاني، على النحو التالي: لم تكن الكلمة موجودة قبل القرن الأول ميلادياً، وهي تعني¹⁾ المشاهدة،²⁾ الرؤية المباشرة والتأمل الروحي: «وقد استعمل أوغستينوس هذه الكلمة مرات عديدة.

السماءات» - وأي سماوات إن لم تكن «سماء السماءات» التي تمدحك، لأن هناك أيضاً «سماء السماء» تلك التي هي للملائكة. نعم، لا نجد الزمان قبلها، فهي تسبق خلق الزمان أيضاً، لأنها «خُلِقَتْ قَبْلَ الْكُلِّ»، غير أن قبلها توجد أبدية خالقها عينه الذي استمدت منه نشأتها بالفعل، لا طبقاً للزمان الذي لم يكن موجوداً بعد وجود الزمان، بل طبقاً لخلقها عينه.

21. لذلك فهي صادرة عنك، يا إلهنا، لكن مع كونها مختلفة تماماً عنك وذات جوهر آخر. ورغم ذلك نحن لا نجد أي زمان قبلها، ولا حتى فيها، إذ إنها مؤهلة لترى دوماً وجهك، دون أن تزور عنك أياً ازورار، وهذا ما يجعلها لا تتغير من جراء أي تقلب. ومع ذلك، ففيها يكمن التقلب عينه، ب بحيث أنه قد يصيبها الظلام والبرد، لو لم تندمج فيك بحبتها الكبير، فتأخذ منك نورها وحرارتها، كما لو كانت دوماً في الظهورة. أيتها الدار الشترة الرانقة! «أَخْبَثْ جَمَالَكِ وَمَكَانَ شُكْنَ مَجْدِ مُولَايَ»، صانعك وأملكك! إليك أود أن تتوقد نفسى في سفرى الدنيوي⁽¹⁾، وأرجو من الذي خلقك أن يملكتني أنا أيضاً فيك، لاته خلقني أنا أيضاً. «قَدْ ضَلَّلْتُ كَالْغَاجَةِ الضَّائِعَةِ»، لكنني آمل أن يرجعني إليك، وهو يحملنى على كتفيه هو راعي الذي بناك.

22. ماذا تقولون لي، أنت المعترضون الذين كنت أخاطبكم، أنتم الذين تعتبرون، مع ذلك، موسى خادماً تقينا للإله، وكتبه وحيا من الروح القدس؟ أليس هذا منزل الإله، نعم منزله الذي لئن لم يكن شريكاً للإله في أزيته، فإن له مع ذلك، أزيته الخاصة «في السماءات» حيث تبحثون سدى عن تعاقب الأزمنة، لأنكم لن تجدوه؟ فهو مُمَجَّدٌ فوق كل امتداد وفوق كل مدة عابرة من الزمان، هو الذي فضلته أنه «دَوْمًا مُنْدَمِجٌ في الإله». يجيبون: «نعم» دون شك. إذن، من بين تلك الكلمات التي صرخ قلبي بها نحو إلهي عندما كان يسمع في داخله «صوت مدحجه» الإلهي، ما الذي تجزمون أخيراً أنه باطل؟ فهو ما قلتُ من كون المادة لامحددة الشكل لا نظام فيها بسبب انعدام الشكل منها؟ لكن حيث لا نظام، لا يمكن أن يكون أي تعاقب للأزمنة؛ ومع ذلك، فشبه العدم هذا⁽²⁾، بقدر ما لم يكن لا شيء البتة، كان، على كل، صادراً عن

(1) ... = في سفرى الدنيوي هذا. المرجع نفسه، الكتاب الثاني عشر، ص 343، الملاحظة 1: «لاحظ جرأة هذا الموضوع المجرد. ويحلل أوغستينوس في كتاب «مدينة الإله» معنى ترحال الإنسان المسيحي في الأرض... وهو معنى قديم قدم المسيحية ذاتها...».
(2) paene nihil = هذا العدم شبة التام.

ذلك الذي منه يكون كلّ ما يوجد، مهما يكن ضعيفاً في وجوده. يقولون: «ونحن لا ننكر هذا كذلك».

23.XVI فلائي أريد، يا إلهي، أن أتباحث قليلاً بين يديك، مع الذين يسلّمون بصحة كلّ هذه الإقرارات التي لا يسكت عنها في داخل عقلي حشك. أمّا الذين ينكرونها فليتباحوا ما طاب لهم النباح، ولি�صموا أنفسهم: سأحاول أن أقنعهم بأنّ يهدّوا، ويفتحوا أبواب نفوسهم لكلّمتك. أمّا لو رفضوا وأقصوني، أو توسل إليك، يا إلهي، «الآنَ شَكْتَ بَعِيدًا عَنِّي»، بل تكلّم بالحقّ «في قلبِي»، إذ أنت وحدك تتكلّم هكذا، ولأنّك خارجه الآخرين ينفعون في التراب فتعمى به أعينهم، ولأدخل إلى خلوتي، ولأنشدك أناشيد الحبّ، متحسّراً حسرات لا تُروى، على سفري الدينوي، ومتذكّراً مدينة القدس (Hierusalem = Jérusalem) وقلبي شديد التوق إليها، مدينة القدس وطني «وأمّي، وإليك أنت صاحبَ الْمُلْكِ فيها ومنيرها وأباها وولتها، وزوجها وملادّها العفيفة القوية، وغبطتها الثابتة، وكلّ الخيرات التي لا توصف، كلّها جمّاء، إذ إنّك وحدك الخير الأسمى الحقّ لن أحيد عنك، ريشما تقبلني، في سلامه تلك الأمّ العزيزة للغاية، حيث بوأكير روحي، ومن أين تكون لي هذه التأكّدات، (تقبلني) كلّياً، كيفما أكنّ بعد هذا التشتّت وهذا التشّوّه، وتصلحني، وتثبتني إلى الأبد، «يا إلهي، يا شَفَّاقَتِي»؟

أمّا الذين لا يرفضون صحة جميع هذه الحقائق، ويُعلّون معنا، في أعلى القيمة الجديرة بالاتّباع، كتابك المقدس، المؤثّر عن موسى التقى، ويعارضوننا مع ذلك في بعض الأشياء، فأقول ما يلي: «كُنْ أَنْتَ، إِلَاهُنَا، الْحَكْمُ بَيْنَ اعْتِرافَاتِي وَاعْتِرَاضَاتِهِمْ»⁽¹⁾.

24.XVII يقولون: رغم أنّ هذه التأكّدات صحيحة، فإنّ موسى ما كان يقصد ذينك الشّيدين، عندما كان يقول، بروح من الروح القدس: «فِي الْمَبْدَأِ خَلَقَ الْإِلَهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ». وهو لم يعن باسم السماء تلك الخلقة الروحية، أو العقلانية المتأملة

(1) هذا التّكرار لاسم المدينة المقدّسة والعظيّمة يعده هكذا مناجاة ختامية في الاعترافات للزّوح.
انظر أعلاه، الصفحة 372، في نهاية الكتاب التاسع، 73.

(2) الاعترافات والتّاقضات أو الاعتراضات، (وهي الكلمة الأخيرة أي الاعتراضات objections... *inter confessiones meas et contradictiones eorum*)... لاحظ التّقابل الأساسي بين من ترجمة «دي لا بريول» (الجزء الثاني، ص 345). وفي الملاحظة 1 من 345 المرجع نفسه تقرأ ما يلي: «يحدّد أوغستيوس بكلّ وضوح وبواسطة العقل حلقة المستمعين الذين يتوجه إليهم: فكلّ من لا يعّد التّوراة كتابَ حقّ هو مقصى مسبقاً، أو قل إنّه يقصي نفسه بنفسه».

دوماً لوجه الإله، ولم يعنِ باسم الأرض المادة اللامحددة الشكل». ماذا كان يقصد إذن؟ يقولون: «ما نقوله نحن، ذلك الرجل شعر به، وقاله بكلماته ذاتها». ما ذاك بالضبط؟ يقولون: «باسمي السماء والأرض قصد أولاً مجموع هذا الكون المرئي، في عمومه وباختصار، كي يفضل إثر ذلك هذا المجموع عنصراً عنصراً في تعداد الأيام، على النهج الذي اختاره الروح القدس. لقد كان، لعمري، يخاطب أناساً أفظاظاً غلاظاً في ذلك الشعب، فلم يكن بوسعه أن يقدّم إليه هم، من خلائق الإله - لما كان يكلّهم - إلا المرئيات فحسب».

أما «الأرض غير المرئية وغير المُنظَّمة» و«الهَاوِيَةُ الْمَظْلِمَةُ» اللتان خلقت منها هذه المرئيات جموعه وانتظمت حسب صنع تلك الأيام، فيوافقون دون أي تناقض على عقلانية تناسبهما مع تلك المادة اللامحددة الشكل.

25. ثم ماذا؟ لو قال آخر إن عين اللامحدودية والفرضي في هذه المادة قد أشير إليها أولاً باسمي «السماء والأرض»، إذ منها وُجد هذا الكون المرئي مع كلّ الكيانات التي تبرز فيه بكلّ جلاء، والتي عادة ما يطلق عليها اسم السماء والأرض، وأنه تكون بها واكتمل؟ ثم ماذا؟ لو قال آخر أيضاً *un = Quid? Si dicat et alias...* ⁽¹⁾ إن الطبيعتين، للأمرية والمرئية، قد سمتا، لعمري بحق، سماء وأرضاً، وإن الخليقة جموعه التي خلقها الإله في الحكمة، أي في المبدأ، مُتَضَمِّنةً بسبب هذا في تينك المفردتين بالذات، لكن مع ذلك، لما كان الكل قد خلق، لا من جوهر الإله عينه، بل من العدم، ولما كانت شيئاً آخر مختلفاً عن ذات الإله، وكان في جميع المخلوقات نوع من التقلب، سواء بقيت متزلاً أبداً للإله الأبدى، أو تحولت وتغيرت تغير روح الإنسان وجسمه، فالمادة المشتركة بين كلّ الأشياء للأمرية والمرئية التي لا تزال لامحددة الأشكال، ولكن مؤهلة حقاً للتشكل، والتي كانت السماء والأرض تنشأ منها، أعني تينك الخليقتين للأمرية والمرئية، المشكّلتين بعد، تلك المادة أطلقت عليها تلك الكلمات، كي تستمّي بهما «الأرض للأمرية اللامُنظَّمة» والظُّلْمَاتُ فُوقَ الْهَاوِيَةِ». أما التمييز الوحيد الجدير أن نقيمه فإن يقصد بـ«الأرض للأمرية واللامُنظَّمة» المادة الجسمانية السابقة لكل تكيف للصورة

(1) كتب «ب. دي لا بريول» ص 346 من نفس المرجع ما يلي: «بعد أوغستينوس هنا نظرته بشأن تعددية الحواس المشروعة في تأويل التوراة التي ولدت الكثير من المحاورات بين علماء الدين».

(ante qualitatem formae) (١)، وبـ«الظُّلْمَاتِ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، من ناحية أخرى، المادةُ الروحانية، قبل منع سيلانها المفروط، وقبل تنوير الحكمة لها.

26. ولسائل آخر أن يقول أيضاً لو أراد ذلك: إنه لاغرٌ أنَّ الطبيعتين المكتملتين والمتشكّلتين بعد، اللامرتية والمرتية، غير معنيتين باسمِ السماء والأرض، عند قراءة: «في المبتدأ خلقَ الإله السماء والأرض»، بل إنَّ هذين الاسمين يطلقان على الرسم الأولى واللامحمد بعده للأشياء وعلى المادة المؤهلة للتشكل والخلق، لأنَّ الكيانات كانت تكمن بعدها بغموض، ودون أن تتميز فيها الكيفيات والأشكال، الكيانات التي بعد أن تترتب في مراتبها الخاصة تسمى «سماء وأرضًا»، الأولى خلقة روحانية، والثانية خلقة جسمانية».

27.XVIII. استمعت إلى جميع هذه التأويلات، وتفحصتها ملياً، لكنني لا أريد أن أشات بالكلام: فهو لا يضُلُّ لأي شيء، سوى تدمير من يستمعون إلينا». أمّا «القانوون فهو طيب للتثوير، إنْ عَمَدْنَا إِلَيْهِ قَانُونِيَا»، لأنَّ غايتها «هي الحُبُّ الناشئُ من قلب صافٍ وضيّقٍ طيّبٍ وعقيقةٍ صادقة»، ويعلم معلمتنا، إلى أيِّ التعليمين قد أرجع جميع القوانين والرسل. فعندما أقرّ بهما بحماس، إلهي، «يائُورَ عِينَيَ في الظلام»، ما يضرني لو أمكن لهذه الكلمات أن تؤول التأويلات المختلفة، متى كانت جميعها صحيحة؟ أقول: ماذا يضرني أن يفهم شخص آخر المعنى الصحيح لكاتب النص المقدس فهما مخالفان لفهمي؟ فنحن جميعنا الذين نقرؤه، نحاول أن نكتشفه، وندرك مقاصد الذي نقرؤه، وبما أننا نعتقد أنه على حق، فلا تتجزأ على أن نعتبر أنه قد قال أي شيء نعرفه، أو نظرته باطلًا. إذن، فما دام كل واحد يحاول أن يفهم، في الكتب المقدسة، ما قصده الذي كتبها، فأي ضرر أن يفهم ما أنت، يا نور جميع الأفكار الصادقة، تبرزه صحيحاً، وإن لم يقصد ذلك الذي نقرؤه، والذي كان الحق نصب عينيه في تفكيره المغاير؟

28.XIX. صحيح، يا مولاي، أنك خلقت السماء والأرض، وصحيح أنَّ المبدأ حكمتك التي فيها «خَلَقْتَ الْكُلُّ». وصحيح أيضًا أنَّ هذا الكون المرتى له جزءان كبيران، السماء والأرض، وهذا يلخص يايجاز كلَّ الكائنات المخلوقة والمكوتة. وصحيح أنَّ كلَّ متقلبٍ حجّةٍ ودليلٍ لا محدوديةٍ في الشكل بها يتخد صورةً أو يتغيّر أو يتحول. وصحيح أنَّ تقلبات الأزمنة لا تؤثر في ما هو مندمج بصورة قوية بما له صورة

(1)...قبل كل تحديد للشكل (ترجمة موضوعة للغرض *ad hoc*).

ثابتة، بحيث أنه وإن كان متقلبا لا يتغير البتة. وصحيح أن اللامحدودية التي هي شبه العدم، لا يمكنها أن تخضع لتعاقب الأزمنة. وصحيح أن منشأ الشيء، يمكن، بعبارة متعارفة، أن يسمى باسم الشيء الذي منه نشأ: ومن ثم أمكن أن يطلق أسماء السماء والأرض على نوع ما من اللامحدودية التي خلقت منها السماء والأرض. وصحيح أنه، من بين كل الأشياء المخلوقة، لا شيء أقرب من اللامحدودية من الأرض والهاوية. وصحيح أنه لا فقط أن كل مخلوق ومتشكل، بل أيضا كل ما هو قابل للمخلق وللتتشكل، خلقته أنت الذي «مِنْكَ يَضُدُّ الْكُلُّ». وصحيح أن كل ما هو متشكل من لامحدد الشكل، يكون أولاً لامحددا، ثم متشكلا.

XX. 29. من بين كل هذه الحقائق التي لا يشك فيها أولئك الذين أعطيت عيّتهم الداخلية أن يروها بها، والذين يعتقدون راسخ الاعتقاد أن موسى خادمك، قد تكلم بروح «الحق»، من بين تلك الحقائق إذن، يختار بعضهم واحدة، ويقول: «في المبدئ خلق الإله السماء والأرض»، أعني في كلمته، شريكه في الأزلية، خلق الإله الخلقة المعقولة والمحسوسة، أو الروحانية والجسمانية، أما الآخر فيقول: «في المبدئ خلق الإله السماء والأرض»، أعني في كلمته، شريكه في الأزلية، خلق الإله مجموع هذه الكتلة لهذا الكون الجسماني، مع كل الكائنات الجلية والمعروفة التي يحتوي عليها، ويقول ثالث: «في المبدئ خلق الإله السماء والأرض»، أعني في كلمته، شريكه في الأزلية، خلق المادة اللامحددة الشكل للخلقة الروحية والجسمانية، ويقول رابع: «في المبدئ خلق الإله السماء والأرض»، أعني في كلمته، شريكه في الأزلية، خلق الإله المادة اللامحددة الشكل للخلقة الروحانية، حيث كانت السماء والأرض لا تزالان مختلفتين، بينما شهدهما، لأن بعد، متميزيتين ومتشكليتين في كتلة هذا الكون، ويقول خامس: «في المبدئ خلق الإله السماء والأرض»، أعني في بداية خلقه وفعله بالذات، خلق الإله المادة اللامحددة الشكل، متضمنة السماء والأرض مختلفتين، بينما تيرزان الآن متشكليتين، وتظهران مع كل الكائنات التي تكمن فيها.

XXI. 30. كذلك في ما يتعلق بفهم الكلمات التالية، فمن بين التأويلات الصحيحة كلها، يختار كل واحد تأويله. وهذا فيقول⁽¹⁾: «أما الأرض فكانت لامزينة لامنظمة،

(1) ... ex illis omnibus ueris aliud sibi tollit... من بين التأويلات الصحيحة كلها يختار كل واحد تأويله. المرجع نفسه ص 350 وص 351 الملاحظة 1: «...يبدو من المستحيل أن نصدق أن أوغسطينوس يمكن أن يكون قد نظر ولو مرة واحدة في أن يفترض جميع كتب التوراة في اعترافاته...».

وَكَانَتِ الظُّلْمَاتُ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، يعني أن ذلك الجسم الذي خلقه الإله كان لا يزال مادة لامتشكلة للأشياء الجسدية، بلا نظام وبلا نور، والآخر يقول: «أَمَّا الْأَرْضُ فَكَانَتْ لَامْرَيْتَةً، وَلَامْنَظَمَةً، وَكَانَتِ الظُّلْمَاتُ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، يعني أن ذلك الكل الذي سمي السماء والأرض، كان لا يزال مادة لامتشكلة ومظلمة، منها كانت تأتي السماء جسمانية، والأرض جسمانية، مع كل الكائنات التي تكمن فيها كالمعروفة للحواس الجسمانية، والآخر يقول: «أَمَّا الْأَرْضُ فَكَانَتْ لَامْرَيْتَةً، وَلَامْنَظَمَةً، وَكَانَتِ الظُّلْمَاتُ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، يعني أن ذلك الكل الذي قد سمي بالسماء وبال الأرض، كان لا يزال مادة لامتشكلة ومظلمة، منها كانت تأتي السماء العقلانية – وهي تسقى في مكان آخر «سَمَاءَ السَّمَاءِ» – وكذا الأرض، يعني كل الطبيعة الجسمانية التي تحت اسمها يجب أن تفهم أيضا تلك السماء الجسمانية، أي التي كانت تأتي منها كل الخلقة للأمرية والمرتبة، والآخر يقول: «أَمَّا الْأَرْضُ فَكَانَتْ لَامْرَيْتَةً، وَلَامْنَظَمَةً، وَكَانَتِ الظُّلْمَاتُ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، يعني لم يسم هنا الكتاب المقدس ذلك اللاتشكّل، باسم السماء والأرض، بل يقول إن اللاتشكّل عينه كان يوجد بعد، وهو الذي قد سماه بالأرض الأمرية واللامنظمة، وبالهاوية المظلمة، والذي كان قد أعلن مسبقاً أن الإله خلق السماء والأرض، أي الخلقتين الروحانية والجسمانية، والآخر يقول: «أَمَّا الْأَرْضُ فَكَانَتْ لَامْرَيْتَةً، وَلَامْنَظَمَةً، وَكَانَتِ الظُّلْمَاتُ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، يعني أن اللاتشكّل هو آنذاك مادة ما، منها أعلن الكتاب المقدس، مسبقاً، أن الإله قد خلق السماء والأرض، أي كليّة كثرة الكون الجسمانية، موزعة إلى جزءين كبيرين جداً، أعلى وأسفل، مع جميع المخلوقات التي تكمن فيها، العاديت المعروفة.

31. XXII. ولمعارضة هذين التأويليين الآخرين، يمكن لبعضهم أن يقول: «إن لم تريدوا أن يسمى ذلك اللاتشكّل في المادة باسم السماء والأرض، إذن فقد كان هناك شيء ما، لم يكن الإله قد خلقه، ولم تكن لتخلق منه السماء والأرض، إذ الكتاب المقدس لم يرو أن الإله خلق تلك المادة، إلا إذا فهمنا أنها المعيّنة بكلماتي السماء والأرض، أو بكلمة الأرض وحدها عندما قيل: «فِي الْمَبْدَأِ خَلَقَ الْإِلَهُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ»، إلى قوله: «أَمَّا الْأَرْضُ فَكَانَتْ لَامْرَيْتَةً، وَلَامْنَظَمَةً»، وإن كان يروق له أن يسمى هكذا المادة اللامتشكلة، إلا أننا لن نقدر أن نفهم هنا إلا تلك التي خلقها الإله، في المقام السابق، حيث كتب: «خَلَقَ الْإِلَهُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ»، ويمكن أن يجيئ المؤكدون لذينك الرأيين الآخرين للذين وضعناهما، أو لهذا أو ذاك، لو سمعوا ما قيل، فيقولوا: «لا ننكر بالطبع أن تلك المادة قد خُلِقَتْ من لدن الإله الذي منه تأتي

«كُلُّ الأَشْيَاءِ الطَّبِيعَةِ جَدًا»، لأننا، كما نقول إن ما قد خُلِقَ تشكُّل أكثر طيباً، كذلك نعترف بكون ما قد جُعل قابلاً للخلق وللتشكُّل أقل طيباً، لكنه مع ذلك طيب. وأما عن كون الكتاب لم يذكر خلق الإله لذلك المتشكل فإنه سكت أيضاً عن أشياء أخرى كثيرة كخلق «الكُرُوبِينَ» (Cherubim = Seraphim) ⁽¹⁾ و«السَّارُوفِينَ» (Séraphins) ⁽²⁾، وكـ«الأَرَاثِكَ» وـ«السَّيَادَاتِ» وـ«الطَّغَمَاتِ» وـ«الْمَلَائِكَةِ» التي يذكرها الحواري بوضوح والتي هي جميعاً بصورة جلية، من صنع الإله. أو إن قال قائل: يجب أن نفهم من قوله «خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ»، أنه خلق كل شيء، فماذا نقول عن المياه «التي كَانَ فَرْقَهَا يُحْمَلُ رُوحُ الْإِلَاهِ»؟ فلو فهمت هي أيضاً من تسمية الأرض، كيف تزول بعد، باسم الأرض، المادة اللامتشكلة، عندما نرى المياه بمثل ذلك الجمال؟ أو إن صحت هذا التأويل فلماذا كتب أن «الْقُبَّةَ» الزرقاء قد خلقت من عين اللامتشكل وأنها سميت «بِالسَّمَاءِ»، ولم يكتب أن المياه كانت قد خلقت؟ لأن تلك المياه لم تعد لا غير متشكلة، ولا غير مرئية، هي التي نشهدها تسيل بمثل رونقها البديع. أو تلقت ذلك الرونق في الوقت عينه الذي قال فيه الإله: «فَلَيَجْمَعَنَّ الْمَاءُ الَّذِي هُوَ تَحْتَ الْقُبَّةِ»، حتى يكون التجمع إذاناً بالشكل؟ وماذا ستكون الإجابة في خصوص المياه التي هي فوق القبة، بما أنها لا متشكلة؟ فما كانت لتحظى عن جدارة بمركز بمثل هذا الشرف، ولا نقرأ في أي موضع من كتابك الكلمة شكلتها؟

فمن هنا، إن سكت سفر التكوين عن شيء خلقه الإله، فإن العقيدة السليمة مع ذلك لا تنازع في كونه خلقه، ولا العقل الصحيح؛ وعلى كل لا يوجد مذهب معتدل ستكون له جرأة القول بشراكه تلك المياه في أزلية الإله، لأننا لا نسمع، لعمري، التذير بها في سفر التكوين، أبداً متى خلقت، فلا نجد له. فلم إذن لا نعتبر، مهتمدين بالحق، أن تلك المادة اللامتشكلة أيضاً والتي يسميها هذا الكتاب «أَرْضاً لَا مَرْبَطَةً، وَلَا مُنَظَّمَةً، وَهَاوَيَةً مُظْلِمَةً»، قد خلقها الإله من العدم، وأنها لذلك ليست شريكه في الأزلية، رغم أن الرواية المقدسة فاتها أن تشير إلى تاريخ خلقها؟

32.XXIII. إذن، بعد سماع هذه الآراء، والتمحيص فيها، حسب ما يسمح به ضعفي الذي أعرف لك به، يا إلهي، العالم به، أرى أن نوعين من الخلافات يمكن أن

(1) «لَمْ يَذْكُرْ الْكُرُوبِينَ فِي سُفَرِ التَّكَوِينِ 24, III; وَفِي سُفَرِ الْخُرُوجِ 22, XXV و 7, XXXVII; وَفِي Nombres VII, 89, «إِلَنْ...» الْإِحَالَةِ السَّابِقَةِ، ص 351، الملاحة 1.

(2) «وَلَمْ يَذْكُرْ السَّارُوفِينَ إِلَّا فِي كِتَابِ Isaïe VII 2, 6» الْإِحَالَةِ السَّابِقَةِ.

ينشأ منها، عندما يعرب المؤقولون الصادقون بواسطة الأدلة عن شيء ما، الأول، إن كان الخلاف حول حقيقة الأشياء، الثاني، إن كان حول إرادة الذي يعرب عنها بالذات، إذ شيء هو أن نبحث عن الحقيقة الخاصة بخلق الخلية، شيء آخر أن نبحث عما أراد موسى في تلك الكلمات، وهو الخادم الرائع لعقيدتك، أن يفهمه القارئ لها أو السامع.

في النوع الأول، فليتعدعني كل الذين يتخذون الآراء باطلة⁽¹⁾ علما لهم. وكذلك في النوع الثاني، ليتعدعني كل الذين يعتبرون أن موسى قد قال آراء باطلة! لكنني أريد يا مولاي، أن أُحْلِّ فِيكَ، وأَتَذَكَّرُ فِيكَ مَعْهُمْ، هُمُ الَّذِينَ يَقْتَانُونَ مِنْ وَاسِعِ حَيْكَ، ولنصل معا إلى كلمات كتابك، ولنبحث فيها عن إرادتك، عبر إرادة خادمك التي علمتنيها بقلمه.

33.XXIV. لكن من متى يستطيع أن يدعوي أنه، من بين جميع التأويلات الصحيحة التي تعرض للباحثين عن فهم كلماتك هذا الفهم أو ذاك، سيقدر أن يقول، بكل ثقة، إن موسى قد قصد هذا، وإنه قد أراد أن يفهم هذا في تلك الرواية، ويقول بنفس الثقة إن هذا هو الحق، مهما كان قصد موسى نفسه؟

فها أنت، إلهي، «أَنَا حَادِّمُكَ» الذي نذرت إليك أضاحية الاعتراف في هذا الكتاب وطلبت من شفعتك، أن تسمح لي «بِأَنْ أَحْقَقَ تَذْرِي إِلَيْكَ»، ها أنتا أقول بكلام الثقة إِلَكَ، بكلماتك اللامتنقلة، خلقت كل الأشياء الالمرتية والمررتية. لكن هل لي أن أقول بنفس الثقة إن موسى (Moysen = Moïse) لم يكن واضحاً نسب عينيه غير هذا المقصود، عندما كان يكتب: «فِي الْمِنْدَى خَلَقَ الْإِلَهُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ»، لأنني، إن رأيت أن ذاك في حقك صحيح، فلا أرى بنفس الصورة أنه قد تراءى له في فكره هذا، عندما كان يكتب هذه الكلمات؟

فلعله، لما كان يقول: «فِي الْمِنْدَى» قصد بداية عملية الخلق، ولعله قصد بالسماء والأرض، في هذا المقام، الطبيعة الروحانية والجسمانية لا طبيعة متشكلة مكتملة، بل في صورة بداية لم تتشكل بعد. أرى، لعمري، أنه يمكن بحق أن يصبح كل واحد من هذين القولين. لكن أي الرأيين قصد موسى عندما قال تلك الكلمات، لا علم لي

(1) المرجع نفسه، ص 352، الملاحظة 1:...: « هنا أيضاً وكما هو الشأن أعلاه (23, XII, XVI) لا يقبل أوغسطينوس النقاش إلا مع الذين يعتبرون من المبادئ الأساسية صحة قصص التوراة والصدق التام للكتبة rédacteurs .

بذلك، رغم أن ذلك الرجل العظيم عندما كتب ما كتب كان يقصد أحد المعنين أو معنى آخر غيرهما، لا ذكره هنا. المؤكد أن رجلاً في مثل عظمته قد رأى الحق، وقد أعرب عنه كما يليق به^(١).

34.XXV لا يزعجي أحداً بعد بقوله: «لم يقصد موسى هذا الذي تقول، بل قصد، هذا الذي أقول أنا». فلو قال لي: «من أين لك أن موسى قصد هذا»، طبق ما تقوله عن هذه الكلمات؟، لوجب علي أن أتحققه عن طيب خاطر، وأن أجبيه ربما، بما أجبت به أعلاه، أو أجبيه بأكثر إطباباً، لو كان السائل صعب المراس؟ أما إذا قال قائل: «ذلك الرجل لم يقصد هذا الذي تقوله، بل هذا الذي أقول أنا»، دون أن ينكر مع ذلك أن ما يقوله كلاماً صحيح في الحالتين، يا حياة الفقراء وإلهي، أنت الذي لا يسكن صدرك أدنى تناقض، أمطر قلبي بقطرات الندى المسكنة حتى أتحمل بالصبر أمثاله الذين لا يقولون لي هذا لأنهم عباد الإله، لأنهم رأوا في قلب خادمك ما يقولونه، بل لأنهم متكترون، لا يفهون فكرة موسى، ويعجبون فكرتهم، لا لكونها حقيقة، بل لكونها فكرتهم الخاصة. ولو لا ذلك لأحبوا نفس الدرجة من الحب فكرة غيرهم، إذا كانت الحقيقة، كما أحبت أنا ما يقولونه، عندما يقولون الحق، لأن ذلك من عندهم، بل لأنه الحق! أما لو أحبوها لهذا السبب، أي لأنها الحق، فإنها ستصبح لهم بالذات ولـي، لأنها ملك مشاع لكل محبي الحق.

أما أن يجزموا بكون موسى لم يقصد هذا الذي أقول أنا، بل ما يقولون هم أنفسهم، فارفضه، ولا أحبه، لأنه - وإن كانت تلك الحال - فهذه المجازفة ترتكز لا على العلم، بل على الجرأة، ولم تولد من الاست بصار، بل من الغرور.

ولهذا، مولاي، يجب أن تخشى أحکامك، بما أن حثك ليس لي ولا لفلان أو فلان، بل لنا جميعاً، نحن الذين تدعونا علينا إلى الاشتراك فيه، محدثاً إيانا بهولك، حتى نرفض أن يكون ملكنا الخاص، وحتى لا نحرم منه.

إذ كل من يطالب بأن يجعل من ملكه الخاص ذلك الذي تعرضه أنت ليتمتع به الجميع والذي يريد أن يكون له ما هو ملك للجميع، يطرد من المشاع إلى الخاص، يعني من الحق إلى الكذب، فالذي «يُقُولُ كذباً، يتكلّمُ مِنْ ملْكِهِ الْخَاصِّ».

(١) ...apteque... enuntiasse... = قد أعرب عنه كما يليق به. المرجع نفسه ص 353، الملاحظة 1: «هذا الأمن الم�팅ال ينحني أوغستينوس من كل تعلق برأيه الخاص *son sens propre* ومن كل رغبة في الخصم في المحاورات الخاصة بالكتاب المقدس...».

35. «أَضْعَفُ»، أَيْهَا الْحَكْمُ الْأَمْثُلُ وَإِلَهِي، أَيْهَا الْحَقُّ الْحَقُّ، «أَضْعَفُ»، إِلَى مَا أَقُولُهُ لِهَذَا الْمُعْتَرَضِ، «أَضْعَفُ»، فَإِنِّي سَأَتَكَلَّمُ أَمَامَكُ وَأَمَامَ إِخْرَاجِي الَّذِينَ يَعْمَدُونَ «حَسَبَ الْفَائُونَ إِلَى الْفَائُونَ»، إِلَى حَدِّ الْحَبْتِ، وَهِيَ غَایَتِهِ، أَضْعَفُ وَانظُرْ مَا أَقُولُهُ لَهُ، إِنْ شَاءَ ذَلِكَ.

أَتَوْجَهُ إِلَيْهِ بِالْقَوْلَةِ الْأَخْوِيَّةِ السُّلْمَيَّةِ التَّالِيَّةِ: إِنْ رَأَى كَلَانَا أَنَّ مَا تَقُولُهُ صَحِيحٌ، وَإِنْ رَأَى كَلَانَا أَنَّ مَا أَقُولُهُ صَحِيحٌ، فَأَيْنَ - مِنْ فَضْلِكَ - نَرِى ذَلِكَ؟ عَلَى كُلِّ لَا أَرَاهُ أَنَا فِيكَ، وَلَا أَنْتَ فِي، بَلْ يَرَاهُ كَلَانَا فِي ذَاتِ الْحَقِّ الْأَمْتَقْلَبِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ أَفْكَارِنَا. إِذْنُ، إِنْ كَنَا لَا نَتَنَازِعُ فِي خَصُوصِ ذَاتِ نُورِ الْمُولَى، إِلَهُنَا، فَلِمَاذَا نَتَنَازِعُ فِي خَصُوصِ تَفْكِيرِ أَخْبَرِنَا الإِنْسَانِ⁽¹⁾ الَّذِي لَا نَقْدِرُ أَنْ نَرَاهُ، تَمَامًا كَمَا يُرِي الْحَقُّ الْأَمْتَقْلَبُ، بِحِيثُ لَوْ كَانَ مُوسَى يَظْهَرُ لَنَا وَيَقُولُ بِنَفْسِهِ: «هَذَا مَا فَتَكَرْتُ فِيهِ» لَمَّا رَأَيْنَا ذَلِكَ التَّفْكِيرَ، بَلْ لَكُنَا صَدَقْنَا بِهِ؟ لِذَلِكَ «فَلَا يَتَفَقَّحُ وَاحِدٌ مَّا ضَدَ الْآخِرَ بِالْكَبْرِيَاءِ فِي خُصُوصِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ». وَلَنَحْتَ «الْمَؤْلَى إِلَهُنَا، مِنْ كُلِّ قَلْبِنَا، وَمِنْ كُلِّ رُوحِنَا، وَمِنْ كُلِّ عَقْلِنَا، وَأَخْنَانَ الإِنْسَانَ كَمَا تُحِبُّ أَنْفُسَنَا». فَلَوْ كَانَا نَعْتَقِدُ أَنَّ مُوسَى مَا فَتَكَرْ فِي كُلِّ مَا قَدْ فَتَكَرْ فِيهِ فِي تَلْكَ الْكِتَابِ إِلَّا بِسَبِيلِ تَبَيْنِ الْوَصِيَّيْنِ الْمُتَعَلِّقَيْنِ بِالْحَبْتِ (caritatis)⁽²⁾، لَافْرِنِيَا عَلَى الْمُولَى «الْكَذِيبُ»، وَنَحْنُ نَظَرَنَّ فِي خَصُوصِ فَكْرِ خَادِمِهِ غَيْرَ مَا عَلَمْنَا إِيَّاهُ عَنْهُ. أَنْظُرْ إِلَيْنَا، أَمَامَ تَلْكَ الْوَفْرَةِ مِنَ الْأَرَاءِ الصَّحِيَّةِ جَدًا الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَخْرُجَ مِنْ تَلْكَ الْكَلِمَاتِ، كَمَ تَكُونُ الْحَمَاقَةُ كَبِيرَةً أَنْ يَجَازِفَ أَحَدٌ، بَأْنَ يَجزُمُ، أَنَّ مُوسَى كَانَ قَدْ قَصَدَ هَذَا الرَّأْيِ بِالْتَّدْقِيقِ، وَأَنْ يَخَاطِرْ بِإِهَانَةِ الْحَبْتِ عَيْنِهِ، فِي نِزَاعَاتِ مُضَرَّةٍ بِهِ، وَالْحَالُ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِهِ قَالَ جَمِيعَ الْأَقْوَالِ الَّتِي نَسْعِيُ فِي تَفْسِيرِهَا.

36. XXVI. وَمَعَ ذَلِكَ، يَا إِلَهِي، يَا رَفْعَةِ تَوَاضُعِي وَرَاحَةِ كَدِّي، أَنْتَ الَّذِي تَسْمَعُ اعْتِرَافَاتِي وَتَغْفِرُ «خَطَايَايِّ»، بِمَا أَنْتَ تُوْصِيَنِي بِحَبْتِ أَخِيِّ الإِنْسَانِ، كَمَا أَحَبْتُ نَفْسِي ذَاتَهَا، فَأَنَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أَعْتَقِدَ أَنَّ مُوسَى، خَادِمَ الْأَمِينِ لِلْغَایَةِ، أَهْدَى مِنْكَ مِنْ الْهَدَى أَقْلَى،

(1) «...de proximi cogitatione...» = ... فِي خَصُوصِ تَفْكِيرِ أَخْبَرِنَا الإِنْسَانِ. الْمَرْجُعُ نَفْسُهِ ص 353، الملاحظة 2: «الْحُسْنَيَّةُ أُوْغْسْتِينُوسُ تَبَدِّي فِي هَذَا الْمَوْضِعِ»، فِي مَوْضِعٍ لَاْحِقٍ ص 356 يَخْتَصُ الْمَجَادِلُ عَنْدَ أُوْغْسْتِينُوسَ، حَسْبَ رَأْيِ «مُونْسُو» MONCEAUX بِدَقَّتِهِ وَاسْتَقْدَامَتِهِ، وَالْاحْتَرازِ الْوَحِيدِ يَتَعَلَّقُ بِبَسْتُورَةِ مِنْ نَفَادِ الصَّبِرِ تَجَاهِ الْبَعْضِ مِنْ أَعْدَاكَهُ». (ص 354، 10.1. وَالْتِي بَعْدَهَا). (2) لِنَزَكِدُ هَذَا الْإِلْحَاحَ عَلَىِ الْعِبَارَةِ caritatis بِمَعْنَىِ الْمُحْبَّةِ أَوِ التَّعْلُقِ...، وَهِيَ عِبَارَةٌ لَا يَفْصِلُهَا إِلَّا بَعْضُ الْكَلِمَاتِ مِنْ الْعِبَارَةِ proximum nostrum الَّتِي تَعْنِي ذَلِكَ الْقَرِيبَ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ أَنْ نَحْبَهُ كَمَا نَحْتَ أَنْفُسَنَا.

متا كنت أبتهجي أو أتمنى، لو كنت قد ولدت في ذلك الوقت الذي عاش فيه، ولو كنت قد نصبتني لتلك المهمة التي كنت لأخدمك فيها، بقلبي وبلسانني، معلما الناس تلك الكتب المقدسة التي كانت، بعد زمان طويل، ستصبح صالحة لكل الأمم، ولتسمو، عبر الكون قاطبة، إلى أسمى قمم النفوذ، وفوق جميع مذاهب الفضلال والكبراء.

كنت لعمري أريد، لو كنت آنذاك أنا موسى (*Moyses = Moïse*) - ألسنا نأتي جمِيعاً من نفس الطينة، «وما الإنسانُ إِنْ لَمْ تَكُنْ مُتَذَكِّرًا لَهُ؟» - لو كنت أنا آنذاك ما كان هو، ولو كنت تأمُنني أن أكتب سُرُّ التكوين (*Geneseos liber = le livre de la Genèse*)، نعم كنت أريد أن تعطيني قدرة على التعبير، وعلى سبك القول، تجعل الذين لا يستطيعون أن يفهموا كيف يخلق الإله، لا ينكرون أقوالي ولا يجدونها فوق طاقتهم، وأنَّ الذين يستطيعون فهم ذلك، يجدون في كلام خادمك جميع الآراء الصائبة التي يكون التفكير والتأمل قد كشفها لهم بعدُ، كما أنه لو فهمه بعضهم فهما آخر مهتدٍ إليه بنور حقيقتك لاستطاعوا العثور عليها أيضاً في نفس الكلمات.

37. XXVII فكما أنَّ النبع، في حوضه الصغير، يكون أغزر ويروي السيل التي يغذيها، مساحات أوسع من أي سيل من تلك السيل التي تنحدر من ذلك النبع عبر عديد الأماكن، فكذلك رواية معلم كلامك موسى التي ستصبح زاد الكثير الكثير من المؤذلين، تتبع من عدد ضئيل من العبارات، بليل من الحقيقة الشفافة، منه سيخرج كل واحد ما يمكنه من الأفكار الصائبة، هذا هذا، وذاك ذاك، في منعرجات كلامية أطول.

فهناك أناس، عندما يقرؤون تلك الكلمات أو يسمعونها، يحسبون الإله شيئاً بيانسان أو كتلة ذات قوة لا محدودة، وأنه، بإراده جديدة بعض الجلة وفجائية، قد يكون خلق السماء والأرض وكأنهما خارجتان عنه أو بعيدتان في الفضاء، وباعتبارهما جسمين كبيرين، أحدهما في الأعلى والآخر في الأسفل، يحتويان جميع الكائنات، وعندما يسمعون: «قَالَ الإِلَهُ: لَيَكُنْ ذَاكَ وَكَانَ ذَاكَ»، يظلونها كلمات ابتدأت وانتهت، مدويةٌ مُهلهلة متوقفة مهللة، بحيث أنها ما إن تمضي، حتى يوجد ما أمرَ أن يوجد، ويرون كل آرائهم الأخرى بنفس المنهج المتنس بالجسمانية.

هؤلاء لا يزالون «أطفالاً صغاراً»⁽¹⁾ نفوسهم قريبة من النفوس الحيوانية: فما دام

(1) :spirituelles ... = «أطفال صغار» معرضون عن الأنوار الروحية ... *parvulis animalibus*, ... المرجع نفسه ص 358، الملاحظة 2 (شأن *animalis*): يقصد أوغسطينوس العقول المحدودة شيئاً ما والتي لا تفكِر إلاً بواسطة صور ذات دقة تقلّ وتعظم. وهو لا يحترق البتة هذا الصنف شريطة أن يظل تحت رعاية سلطة الكنيسة.

هذا الجنس المتواضع من الكلام يحمل ضعفهم، كما لو كانوا لا يزالون في أحضان أمهاتهم، فإنه تنشأ فيهم بسلامة العقيدة المنجية التي يستطيعون أن يتحققوا بها ويصدقوا بأنَّ الإله قد خلق كلَّ المخلوقات التي تراها حواسهم دائرة بها في تنوع رائع.

أما لو أنَّ أحدهم ازدرى بفظاظة أقوالك المزعومة ليرمي بنفسه خارج العرش المغذٍّ له بسبب ضعف مغرور، فالويل له! لقد سقط الشقي. «يا مولاي، أشقيق عليه» كي لا يدوس المازرون في الطريق العصفُور الصغير الذي لا ريش له، و«أرْسِل ملائكة»، ليعدِّه إلى العرش حتى يعيش فيه ريشما يتعلَّم كيف يطير.

XXVIII. وهناك أناس آخرون ليست تلك الكلمات بالنسبة إليهم كالعش، بل كالبستان المظلل. يرون الشمار مخفية بين الأوراق، ويرفرفون سعداء، باحثين عنها مزققين، ويقطفونها.

إذ يرون، عندما يقرؤون تلك الكلمات أو يسمونها، أنَّ كلَّ الأزمنة الماضية والآتية، يا إلهي، يسيطر عليها ثبات أزلٍتك وديمومتك، وألا شيء دنيويًا مع ذلك، لم تخلقه أنت الذي تساوى بارادتك ذاتك، والذي لم تتغير أيَّ تغيير ولم تنشأ فيك عزيمة لم تكن موجودة من قبل. أنت قلت قد خلقت كلَّ الكائنات لأشبيهه بك، أنت الصورةُ المثلث، بل مادةً لامتشكّلة أخرجتها من العدم، لأشبيهه بك، لكنها قادرة على التشكّل طبقاً لصورتك بالرجوع إليك، أنت الأوحد، وطبقاً للقدر المعيّر والمعطى لكلَّ جنس من الكائنات على حدة. ويرون أنها «كُلُّها جُدُّ حَسَنَة»، سواء بقيت حولك، أو أبعدت من حولك إنْ كثيراً أو قليلاً في الزمان والمكان، وأنها تفعل أو تتفعل بيديع تحولات الكون.

يرون كلَّ هذا ويغبطون، على نور حقيقك، بقدر ما يسمح لهم به ضعفهم هنا. 39. وهذا آخر يتفحص هذا الذي قيل: «في المبدئ خلق الإله»، ويؤوّل المبدأ بالحكمة «لأنَّ الحكمة تتكلّمنا هي أيضاً». وهذا آخر يتفحص نفس الكلمات، ويفهم من المبدأ بداية خلق الأشياء، ويؤوّله هكذا: «في المبدئ فعل»، كما لو أنه قال: «فَعَلَ في الأوَّلِ».

ومن بين الذين يفهمون من «في المبدأ»، أنك في حكمتك «خلقت السماء والأرض»، يعتقد بعضهم أنه بالسماء وبالأرض ذاتيهما، قد سميت هكذا المادة القابلة للتنظيم في السماء والأرض، فهذا يرى أنها تعني الأكثَر المتشكّلة بعدُ والمتّيزة، والآخر يرى أنها تعني الجوهر المتشكّل بعدُ والروحاني تحت اسم السماء، وكُلُّها غيره لامتشكّلاً للمادة الجسمانية، تحت اسم الأرض.

أما الذين يفهمون من اسمي السماء والأرض المادة الامتشكّلة بعد والتي ستتشكل منها السماء والأرض، فهم بدورهم لا يفهمونها نفس الفهم بل يفهمها بعضهم كما ستكتمل منها الخليقتان المعقولة والمحسوسية، أما بعضهم الآخر فيفهم منها تلك الكتلة المحسوسة الجسمانية فقط المحتوية في بطنها الكبير للأكتان الشفافة والجلية. كما لا يفهمها نفس الفهم، أولئك الذين يعتقدون في هذا المقام، أن اسمي السماء والأرض يطلقان على الخلائق المنظمة بعد والمرئية، لكن بعضهم يرى هنا الامرئي والمرئي، في حين يرى بعضهم المرئي فقط، حيث نشاهد السماء المشرقة والأرض القاتمة وكل ما يوجد فيها.

40.XXIX. أما الذي لا يقول العبارة «في المبتدأ» تأويلا مغايرا، فهو كما لو قال: «في الأول فعل»، إذ ليس له من طريقة يفهم بها السماء والأرض، غير أن يفهم بهما مادة السماء والأرض، يعني الكون، أي الخليقتين المعقولة والجسمانية. فلو أراد بها كلاماً متشكلاً بعد، لأمكن بحق أن يسأل، إن كان الإله فعل ذاك «في الأول»، عما يكون قد فعل «من بعده»، ولما وجد شيئاً بعد الكل، ولذلك فهو سوف يسمع هذا السؤال المخرج: «ما معنى «في الأول»، إن لم يكن «بعدة شيء؟».

أما أن يقول إن الأول هو الامتشكّل، والثاني المتشكّل، فليس بلا معقول، على شرط أن يكون قادراً على أن يميز ما هو السابق، من جهة الديمومة، ومن جهة الزمن، ومن جهة الأفضلية، ومن جهة المصدر: من جهة الديمومة كقولك الإله قبل الكل، ومن جهة الزمن، كقولك الزهرة قبل الشمرة، ومن جهة الأفضلية، كقولك الشمرة أفضل من الزهرة، ومن جهة المصدر، كقولك الصوت قبل اللحن.

في هذه الشروط الأربع التي ذكرت بها، يفهم الأول والأخير بأصعب ما يكون، أما الاثنين الأوسطين فبأسهل ما يكون. إذ إنه يندر ويصعب جداً، يا مولاي، أن تُرى ديمومتك وتُشاهَد وهي تصنع المتقليبات بلا تقلب، ولهذا فهي مقدمة على الكل. فمن ثم يكون له من حدة الفكر، ما يجعله قادراً على أن يميز دون كبير عناء، كيف يكون الصوت متقدماً على الغناء؟

هذا لا يكون إلا لأن الغناء تشکل للأصوات، والشيء يمكن أن يكون دون أن يكون متشكلاً، في حين أن ما ليس كائناً البتة لا يمكنه أن يتتشكل. من ذلك أن المادة متقدمة على ما ينشأ منها، لكنه ليس تقدماً ناتجاً عن كونها فاعلة حقاً، فهي بالأحرى منفعلة، ولا تقدماً في المدة الزمانية، لأننا لا نصدر في وقت أول أصواتاً غير منتظمة لمؤلف بينها

ونصنع منها، في وقت لاحق، شكلًا غنائيًا، كما هو الشأن في الخشب، نعمل فيه لتصنع منه صندوقاً، أو في الفضة لتصنع منها مزهرية صغيرة (*uasculum = petit vase*)؛ فمثل هذه المواد، لعمري، تسبق أيضاً، في الزمان، أشكال الأشياء التي تصنع منها. لكن في الغناء، ليس الأمر هكذا، إذ عندما نغنى، لا نسمع صوت الأغنية لامتشكلاً، ثم مشكلاً في صورة غناء. إذ إنه حالما تكون قد صرّتنا به، يتمحي، ولن نجد منه أي شيء نستطيع أن نعيد تركيبه فتياً؛ ولذا فنسيج الغناء يتكون من أصواته، بما أن الصوت هو مادته. وهو الذي يتخذ شكلًا ليصبح غناء. ولذا، كما كنت أقول، فمادة الصوت متقدمة على شكل الغناء: لكنها ليست متقدمة بقوّة خالقة، إذ الصوت ليس هو الذي يصنع الغناء، بل تضنه أعضاء الجسد على ذمة روح المغني، ليخلق منه لحننا، كما أنها ليست متقدمة بالزمان: إذ الصوت ليس بأفضل من اللحن، حيث أن اللحن لعمري ليس فقط هو الصوت، بل وأيضاً الصوت الرائق. غير أن تلك المادة متقدمة باعتبارها مصدراً، لأن اللحن لا يتشكل ليكون صوتاً، بل الصوت يتشكل ليكون لحننا.

ليفهم بهذا المثال من يقدر، أن مادة الطبيعة قد خلقت أولاً، وسميت سماء وأرضاً، إذ منها خلقت السماء والأرض، وإذا لم تُخلق أولاً، من حيث الزمان، لأن أشكال المخلوقات تُحدثُ الأزمنة، أمّا هي فكانت لامتشكلاً، ولوحظ وجودها بعدَ متزامناً مع الأزمنة، ومع ذلك فلن يمكن أن يروى أي شيء عنها، لو لم تكن شبه متقدمة في الزمان، رغم كونها بدعيتها أقل قيمة، لأن المتشكلات هي لا غروً أحسن من اللامتشكلات، وينبغي أن تسبقها ديمومة الخالق، لتكون المادة التي سيخلق منها كل شيء مصنوعة في ذاتها من العدم.

41.XXX. في هذا التعدد للأراء الصحيحة، فلتلذِّ الحقيقة ذاتها الوفاق بينها، وليشفّق علينا إلينا، كي «نَعْمَدَ إِلَى الْقَانُونِ قَانُونِيَاً، مُغْتَبِرِيَنَ غَایَةَ الْوَصِيَّةِ، وَهِيَ السُّبُّحُ الْخَالِصُ». .

ولذا، فعندما يسألني بعضهم، أي هذه الآراء قصدَ موسى خادمُك العظيم، سأحيد عن حقيقة اعترافاتي، إن لم أُعترف لك بأتني «لَا أَذْرِي». ومع ذلك، فأنا أعلم أن تلك الآراء صحيحة، ما عدا اللحمية التي تكلمت فيها بقدر ما تراءى لي. إلا أن أصحابها، وهم «أَطْفَالٌ صِفَارٌ»، يرجى منهم الخير، فلا ترُؤُ لهم هذه الكلمات من كتابك السامية في تواضعها والغزيرة في قلتها.

لكن، وأنا أقر بذلك، نحن الذين، في هذه الكلمات، نرى الحق ونقول الحق،

ليحيط ببعضنا بعضاً، ولنحوتك سوتا، أنت إلهنا ومنبع الحقيقة، إن ظمننا لا إلى الغول، بل إلى الحق بالذات، ولنكرّم كذلك خادمك ومعلم كتابك الملاآن بروحك، بكيفية تجعلنا نؤمن بأنه لم يضع نصب عينيه، وهو ينشر كتابَ الْوَحْيِ هذا، إلّا ما يمتاز به من نور الحقيقة وشمرة الفائدة.

42.XXXI. لذا، ولو قال لي قائل: «قد رأى موسى ما أراه أنا»، ولو قال آخر: «يل بالعكس، فكرته فكري أنا»، لقلت، أطن، قوله أكثر ورعا: «لم لا يكون بالأحرى رأى الرأيين، لو كان كلامهما صحيحا؟ وإذا كانت هناك آراء أخرى صحيحة، ثالث ورابع وهلم جرا، فلماذا لا تكون قد تراءأت له جميعها، هو الذي قد عدل به الإله الواحد الكتب المقدسة، كتاب حقيقة متفرعة، في نظر عيون الكثيرين؟»

أما أنا فأعلن، بجرأة ومن أعماق قلبي، أنه لو كنت في قمة السلطة وكان علي أن أكتب شيئاً لوددت أن أكتب كتاباً تدوّي فيه كلماتي، بما يمكن أن يبلغه كل إنسان، من الحق، عن هذه الأشياء، عوض أن أضع رأياً صحيحاً واحداً، فيه من الوضوح ما أكون أقصي به بقية الآراء، ولو أنّ الباطل ما كان ليصدمني فيها.

ولذلك أرفض، مولاي، أن أكون مجازفاً، لأعتقد أنّ مثل ذلك الرجل العظيم لم يحظ منك بهذه الموهبة! نعم فقد رأى حقاً، في ذلك الكلام الذي كان يكتبه، كل الأفكار الصحيحة التي استطعنا أن نجدها في كلمته، وكذلك التي يمكن أن نجدها فيها، لكننا لم نستطع أو لم نستطع بعد أن نجدها.

43.XXXII. وأخيراً، يا مولاي، فأنت إله، لا لحم ودم، وإن قصر نظر الإنسان، فهل يمكن أن يخفي أيضاً على روحك القدس الذي «سُوفَ يَقُولُنِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ»، شيءٌ ما كنت أنت، في ذلك الكلام، تبشر به بنفسك القراء المستقبليين، وإن كان الذي أرّله قد اختار فكرة واحدة فقط، من بين الكثير من الأفكار الصحيحة؟ وإن كان الأمر هكذا، فلا بدّ أن تكون إذن تلك الفكرة أرقى من الباقي. أما بشأننا، يا مولاي، فاكتشفها لنا هي، أو فكرة أخرى غيرها تروق لك صحتها، حتى أنك إما أن ترينا ما قد أرّيته أيضاً لذلك الخادم خادمك، أو غيرها، في تأويل نفس الكلمات، وحتى تغذّينا مع ذلك أنت، ولا يخدعنا الباطل.

أنظر، يا مولاي وإلهي، أتوسل إليك، كم من عديد الشروح، كم من عديد الشروح، كتبنا للكلمات قليلة! فكيف نجدد قوانا، وكيف سيكفيانا الزمان، على هذا النحو، لنفتر جميع كتبك؟

اسمح لي، إذن، بأن أعترف إليك، باتضاب أكبر، في خصوصها، وبأن اختار سبيلاً واحداً تكون أنت قد ألهمتنيه سبيلاً حقيقياً، ثابتاً حسناً، وإن اعترضتني الكثير من السبل، حيث كان لها أن تعترضني وبهذه العقيدة، سأعترف اعترافاً، أقول فيه ما رأه خادمك، بصفة مستقيمة مثلـي - فهذا ما علىـي أن أحـاوله - بـحيث آتـي لو كـنت لم أـنجـحـ فيهـ، لـقلـتـ عـلـىـ الـأـقـلـ، ما أـرـادـ حـقـكـ أـنـ يـقـولـهـ ليـ، بـواسـطـةـ ذـلـكـ الـكـلـامـ، بماـ آنـهـ قـالـ لهـ أـيـضاـ ماـ أـرـادـ.

الكتاب الثالث عشر

1.I . أدعوك (Inuoco, je vous invoque) «يا إلهي، ويا شفتي»، أنت الذي خلقتني، وما نسيت ناسيك (Inuoco, bis). أدعوك إلى روحـي التي تهـبـتها لـقبـولـكـ، Inuocantem، (ter) je vous)، أنت الذي تلهمـها إـيـاـهاـ: لا تـخـلـلـ عن دـاعـيكـ (appelle)، قبل أن أـدعـوكـ، قد سـبـقـتـنيـ، وأـكـدـتـ عـلـيـ أـكـثـرـ من مـرـةـ، وبـأـلـفـ Inuocarem، appeler à moi)، وأن (celui... quater) أـدعـوكـ، أـنتـ يا دـاعـيـ.

فـانـتـ، مـوـلـايـ، مـحـوتـ كـلـ أـعـمـالـيـ السـيـئةـ، حـتـىـ لاـ تـعـاقـبـ يـدـيـ التـيـ تـخـلـيـتـ بـهـاـ عـنـكـ، وـسـبـقـتـنيـ فـيـ كـلـ أـعـمـالـيـ الصـالـحةـ، لـأـنـكـ - قبل أن أكون - قد كنت أـنتـ، وـماـ كـنـتـ أـهـلاـ لـكـيـ تـمـدـنـيـ بـالـوـجـودـ، وـمـعـ ذـلـكـ فـهـاـ أـنـذـاـ مـوـجـودـ، بـفـضـلـ طـبـيـكـ السـابـقـةـ لـكـلـ ذـلـكـ الـذـيـ وـهـبـتـ لـيـ مـنـ الـوـجـودـ، وـالـذـيـ مـنـهـ خـلـقـتـنيـ. إـذـ ماـ كـنـتـ فـيـ حـاجـةـ لـيـ أوـ قـلـ ماـ كـانـ فـيـ أـيـ خـيـرـ قـدـ تـسـتـعـيـنـ بـهـ، ياـ مـوـلـايـ، وـياـ إـلـهـيـ، بـحـيثـ أـخـدـمـكـ مـنـ أـجـلـ إـيـعادـ التـعـبـ عـنـكـ فـيـ الـعـلـمـ، أـوـ كـيـ لـاـ تـكـوـنـ قـدـرـتـكـ نـاقـصـةـ بـسـبـبـ نـقـصـ فـيـ اـنـصـيـاعـيـ، وـلـاـ بـحـيثـ أـبـجـلـكـ، كـمـاـ لـوـ كـنـتـ لـأـحـرـثـ أـرـضاـ، فـلـوـ لـمـ أـحـرـثـهـاـ، لـكـانـتـ جـدـبـاءـاـ، بلـ أـرـيدـ أـنـ أـخـدـمـكـ وـأـنـ أـبـجـلـكـ، حـتـىـ تـأـتـيـنـيـ مـنـكـ السـعـادـةـ، أـنـاـ الـذـيـ أـتـقـبـلـ مـنـكـ قـابـلـيـةـ السـعـادـةـ.

2.II . فـمـنـ طـبـيـكـ، لـعـمـريـ، المـكـتمـلـ تـسـتـمـدـ خـلـيـقـتـكـ الـوـجـودـ، حـتـىـ لـاـ يـغـيـبـ خـيـرـ «لـمـ يـكـنـ يـنـفـعـكـ وـلـاـ يـساـوـيـكـ فـيـ شـيءـ»، وـإـنـ لـمـ يـكـنـ لـيـوـجـدـ إـلـاـ صـادـرـاـ عـنـكـ».

(1) يـدـوـ أـنـ الدـعـاءـ سـيـخـتـ الـاعـتـراـفـاتـ فـيـ بـدـاـيـةـ هـذـاـ الـكتـابـ الثـالـثـ عـشـرـ (وـهـوـ الـكتـابـ الـأـخـيـرـ فـيـ هـذـاـ الـمـؤـلـفـ مـنـ مـؤـلـفـاتـ أـوـغـسـتـيـنـوسـ). وـيمـكـنـ أـنـ نـلـاحـظـ فـيـ هـذـاـ الشـأنـ أـنـ الدـائـرـةـ تـنـغلـقـ هـنـاـ، بـمـاـ أـنـاـ نـجـدـ الـأـدـعـيـةـ الـعـدـيـدةـ الـتـيـ اـفـتـحـ بـهـ الـكتـابـ الـأـوـلـ. وـنـحـنـ نـحـيلـ الـقـارـئـ عـنـ طـبـ خـاطـرـ عـلـىـ بـنـاءـ مـخـطـطـ بـصـورـةـ وـاعـيـةـ لـدـيـ أـسـقـفـ مـدـيـنـةـ هـيـثـونـ Hippone.

فما كانت لتحظى به منك «السماء والأرض» اللتان خلقتهمَا «في المبدأ»؟ فلتقل لي الخلائقان الروحانية والجسمانية، اللتان «خلقتُمَا في حِكْمَتِكَ»، ما سبب حظوظهما، حتى يتوقف عليها حتى الامكتمل واللامتشكل في جنسه، إنما في العنصر الروحاني، أو في الجسماني على حدة، وصولاً إلى الفوضى وإلى اللاشبكة الثامن بك، بحيث يكون الكائن الروحاني اللامتشكل أفضل من الجسم المتشكل، ويكون بالعكس العنصر الجسماني اللامتشكل أفضل من العدم المطلقاً. وكانت هذه العناصر تبقى لامشكّلة، تحت كلمتك، لو لم ترّد بنفس الكلمة إلى أحاديثك (*unitatem = votre unité*) لأن تسبّغ عليها الشكل والفضل الصادرين عنك أنت، أيها الخير الأعلى الواحد. نعم، جميع هذه الأشياء لم تقيّث منك كل هذه الحظوظة، ليتحقق وجودها ولو كاللامشكّلة، والحال أنه ما كان ليكون لها، لو لا عنك؟

3. ما الذي حظيّت به منك المادة الجسمانية حتى تكون، ولو كاللامرئية والامنظمة، والحال أنها ما كانت لتكون كذلك، إلا لأنك خلقتها؟ فبسبب كونها لم يكن لها وجود، ما كانت لتحظى منك بأن تكون.

أو ماذا حظيّت به منك الخليقة البدائية الروحانية، حتى تتموج، ولو في ظلامها، شبيهة بالهاوية، لا شبيهة بك، لو لم ترّدها نفس الكلمة إلى الكلمة التي خلقتها بها، ولو لم تثيرها، فتصبح نوراً لا مساواة لنورك، بل شبيها بصورتك؟

وكون الجسم مطلقاً ليس مثل كونه جيلاً، وإنما لاستحال أن يوجد جسم قبيح. كذلك الحياة أيضاً، بالنسبة إلى الفكر المخلوق، ليست الحياة مطلقاً كالحياة طبق الحكمة: وإنما لاستحال أن يعرف الفكر فيه تقبلاً. «أَمَّا الْخَيْرُ فَهُوَ فِي التَّعْلُقِ دَوْمًا بِكَ» مخافة أن يفقد بالأذور ارعنك النور الذي قد تحصل عليه بالتجهيز حوك، وأن يسقط ثانية في الحياة الشبيهة بالهاوية المظلمة.

إذ نحن أيضاً، بامتلاكتنا روحًا، نكون خليقة روحانية، ونكون قد ازورتنا عنك أنت نورنا، وقد كنا، في هذه الحياة، «قَدِيمًا ظُلْمَاتٍ»، وننحن نعاني من بقائياً ظلامنا، ريشما نصبح «عَذَّلَكَ» في شخص ابنك الوحيد «كَجِيلِ الإِلَاهِ»: لأننا كنا «أَخْكَامَ عَقَابَكَ»، شبيهين «بالهاوية العميقَةِ».

4.III. أما ما قلته في أوقات الخلق الأولى: «لِيَكُنَ النُّورُ، وَكَانَ النُّورُ!»، فأطريقه دون أن يكون أمراً مستبعداً على الخليقة الروحانية التي كانت بعدُ وبوجه من الوجوه حياة بما أنك كنت تثيرها. لكنها إن لم تحظ منك بأن تكون حياة تتلقى منك نورها، فإنها

لم تكن كذلك - عندما أصبحت بعد حياة - أهلاً لأن تثيرها. إذ لم تكن تروقك لعدم تشكلها، لو لم تكن نوراً، لا بمجرد الوجود، بل بتأمل النور المضيء، وبالاندماج فيه، بحيث أن الحياة، والحياة السعيدة بالخصوص، ما كانت مدينة بهما إلا لنعمتك، وهي متوجهة بفضل تقلب أحسن، نحو ذلك الذي لا يعرف إلا التقلب إلى الأحسن، ولا يعرف التقلب إلى الأسوأ. فأنت وحدك، أجل، وحدك الكائن البسيط الذي تستوي بالنسبة إليه الحياة والحياة السعيدة، بما أنك أنت سعادتك ذاتها.

IV.5. إذن، فما الذي ينقص نعمتك التي صنعتها لنفسك، وحتى لو لم توجد هذه المخلوقات، أو ظلت لا شكل لها؟ تلك المخلوقات ما خلقتها لحاجتك إليها، بل خلقتها لاكتمال خيرك، وأعطيتها صورة مناسبة، دون أن تأخذ منها غبطة قدر ذرة لتكتمل به. إذ لا يرود لك، أنت الكامل، عدم اكتمالها، لذلك فأنت تصنعها في أحسن صورة بفضلك، حتى ترود لك؛ فليس فيك البة ما في الكائن الناقص لتشد الكمال من كمالهم. «فَرُوْحُكَ» القدس «كَانَ يُخْمَلُ فَرُوقَ الْمِيَاهِ» ولم تكن هي التي تحمله كما لو كان يطفو عليها. فالذين يقال إن روحك يستريح فيهم، يجعلهم روحك⁽¹⁾ في الحقيقة يستريحون فيه. لكن إرادتك التي لا تعرف الفساد والتقلب والمكتفية بنفسها هي التي رُفعت فوق الحياة التي خلقتها، أنت الذي ليست الحياة والحياة السعيدة لدینك شيئاً واحداً، إذ هي تحيا أيضاً، وإن سبحت في ظلماتها وبقى لها أن تولي وجهها نحو خالقها، وأن تحيا أكثر فأكثر قرب نبع «الحياة» وأن ترى «في النور» «نورها» وأن تجد الكمال والنور والغبطة.

6.7. ها هو الثالوث (*trinitas = la Trinité*) يظهر لي «في اللغز» الذي هو أنت، يا إلهي، بما أنك أنت الأب قد خلقت «السماء والأرض» «في مبدئاً» حكمتنا، وهي حكمتك المولودة منك والمساوية لك وشريكتك في أزليتك أي في أبنك، وقد قلنا الكثير عن «سماء السماء» وعن «الأرض الامرية واللامنظمة» وعن «اللهاوية المظلمة» من جهة السبيل النائية للاتشكّل الروحاني، لو لم تول الوجوه نحو الذي كانت صادرة عنه كل حياة، حتى تصبّح الحياة بنوره مشرقة رائفة، حتى تكون «سماء تلك السماء التي خلقت من بعد بين الأرض والماء» (*inter aquam et aquam*).⁽²⁾

(1) هذا تعليق، وليس ترجمة حرفيّة، حتى يفهم غموض الجملة الآتية، كما لاحظنا مراراً (المترجم).

(2) الترجمة الحرفيّة هي «بين ماء وماء». ولكننا خيّرنا تأويل «يار دي لا بريول» بالصفحة 370 من الجزء الثاني المشار إليه أعلاه (المترجم).

وكنت أمسك بعد الأب في اسم «الإله» الذي خلق هذه الخلائق، وبالابن في كلمة «المبدأ» الذي خلق فيه تلك الخلائق، وبما أنني كنت مؤمناً بثالوث إلهي، كما كنت مؤمناً به، كنت أبحث عنه في وحيه المقدس، وهذا أن «روحك كان يُحمل فوق المياه». هنا هو الثالوث، يا إلهي، الأب، والابن، والروح القدس، خالق الخلية جماء.

7.VI. لكن ما الذي يدفعني، أيها النور الحق، إلى أن أقرب منك قلبي، مخافة أن يعلموني الترهات؟ قشع عني ظلماته وقل لي، أتوسل إليك باسم المحبة أمّنا،⁽¹⁾ par la charité, notre mère أتوسل إليك، قل لي لم لم يذكر كتابك الروح القدس إلا بعد تسمية السماء والأرض للأمرية واللامنظمة والظلمات فوق الهاوية. لأنه كان ينبغي أن يشار إليه هكذا، حتى يقال عنه «إنه كان يُحمل مرفوعاً»، وأن هذا لا يمكن أن يقال، لو لم يذكر سابقاً ذلك العنصر الذي كان يمكن أن يفهم به «أن روحك كان يُحمل مرفوعاً؟ فلم يكن محمولاً فوق الأب ولا فوق الابن، وما كان يصح أن يقال «يُحمل» لو كان قد حمل فوق لاشيء. كان ينبغي إذن أن يقال مسبقاً فوق ماذا كان قد حمل، ثم أن يذكر ذلك الذي ما كان ينبغي أن يذكر بصفة أخرى، إلا بقولك «يُحمل». فلماذا إذن ما كان ينبغي أن يشار إليه بإشارة أخرى، غير قولك «كان يُحمل»؟

7.VII. ومن هنا فالليت الآن بعقله من يقدر أن يتبع حواريك وهو يقول إن «محبتك قد انتشرت في قلوبنا بواسطة الروح القدس الذي قد أغطيتنا»، وهو يعلمنا «الروحاتيات» ويبين لنا «الطريق الفائق السمو» للفوز بمحبتك، جائياً من أجلنا أمامك، كي نتعرف على «علم محبة المسيح الفائق السمو».

ولهذا فهو الفائق في السمو، منذ البداية، كان يُحمل فوق المياه. فمن أكلم، وكيف أنكَلَم عن ثقل الشبق المؤدي إلى الهاوية الشديدة الانحدار، وعن المحبة الرافة إلى السماء بواسطة روحك الذي «كان يُحمل فوق المياه»؟ من أكلم؟ كيف أتكلم؟ أترسب ونطفو؟ ليس لنا أماكن، نرسب فيها ونطفو. ما الأشبه بهذا، وما الأكثر تبايناً؟ إنه المشاعر، إنه العواطف، هو دنس روحنا الجارف إلى الأسفل في جبنا للهموم، وهي قداستك الرافة لنا إلى الأعلى في جبنا للأمن كي نأتيك بقلوبنا إلى الأعلى، حيث «كان

(1) Ecclesia mater أي «Mater caritas» يعني: الكنيسة أمي، «والعبارة كما كتب «بـ. دي لا بريول» تعود عديد المرات عند أوغسطينوس، وهو يربطها بفكرة ولادة الأرواح، الإحالة نفسها ص 370 الملاحظة 1.

رُوْحُكَ لِيُخْمَلُ، وكَيْ نَصَلُ إِلَى الرَّاحَةِ الْفَانِقَةِ فِي السَّمَوَاءِ، عَنْدَمَا سَتَكُونُ «رُوْحَنَا قَدْ عَبَرَتِ الْمِيَاهَ التِّي بِلَا جَوَهَرٍ».⁽¹⁾

9.VIII. لقد هو الملاك، وهو روح الإنسان، فكان في ذلك دليل على أنَّ الهاوية التي تضم كلَّ الخليقة الروحانية كانت تُظْلِمُ فِي العُمَقِ، لَوْ لَمْ تَقُلْ أَنْتَ مِنَ الْبَدْءِ: **«فَلَيْكُنِ النُّورُ»**، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ النُّورُ، مَنْدِمًا فِيَكَ، مَطْيِعًا كُلَّ فَكَرٍ فِي مَدِيَّتِكَ السَّماوِيَّةِ، وَمَسْتَرِيحًا فِي رُوْحِكَ الَّذِي يَحْمِلُ لِامْتَقْبَلَةَ فَوْقَ كُلِّ مَتْقَبَلٍ، وَإِلَّا **«لِكَانَتْ سَمَاءُ السَّمَاءِ»**، ذَاتِهَا، هَاوِيَةً مَظْلَمَةً حَقًّا؛ **«إِلَّا أَنَّهَا آنَّ نُورًّا فِي التَّمَوْئِيَّ»**.

إِذْ فِي الْحِيرَةِ التَّعْسَةِ لِلأَرْوَاحِ الْهَاوِيَّةِ، وَالْكَاشِفَةِ عَنْ ظُلْمَاتِهَا تَحْتَ ثِيَابِ نُورِكَ، أَنْتَ تَبَرُّ بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةِ حَجْمِ الْخَلِيقَةِ الْعَقْلَانِيَّةِ الَّتِي خَلَقْتَهَا وَالَّتِي لَا يَكْفِيهَا، بِأَيْتَةِ صُورَةِ كَانَتْ، فِي طَرِيقَهَا إِلَى الْغَبْطَةِ وَالرَّاحَةِ، مَا هُوَ أَقْلَى مِنْكَ، وَلَذِكَ فَلَا تَكْتَفِي هِي بِذَاهِتِهَا. إِذْ أَنْتَ، يَا **«إِلَاهَنَا»**، سَتَنْتَرِ **«ظُلْمَاتِنَا»**: مِنْكَ تَنْتَقِبُ لِبَاسَنَا، وَ**«ظُلْمَاتُنَا سُوفَ تَكُونُ كَوْفِتَ الظَّهِيرَةِ»**.

هَبْ لِي نَفْسَكَ، يَا إِلَهِي، وَعُدْ إِلَيْيَ: هَا أَنَا أَحْبَبُكَ، وَإِنْ كَانَ حَبِّي ضَعِيفًا، فَاجْعَلْهُ أَقْوَى! لَا أَقْدِرُ أَنْ أَقْيِسَهُ، كَيْ أَعْرِفُ مَاذَا يَنْقُصُهُ كَيْ يَكُونَ كَافِيَا وَكَيْ تَنْدُفعُ حَيَاتِي إِلَى مَعْانِقَتِكَ وَلَا تَرْتَدُ عَنْهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَكُونَ قَدْ اغْنَمْرَتْ **«فِي سِرِّ مُحَيَاكَ»**. أَعْلَمُ هَذَا فَقْطَ، أَعْلَمُ أَنَّنِي شَقِيقٌ، إِلَّا أَنْ أَكُونَ مَعَكَ، لَا فَحْسَبُ خَارِجَ نَفْسِي بِلَ وَكَذَلِكَ فِي نَفْسِي بِالذَّاتِ، وَأَنْ كُلَّ ثُرُوةٍ لَا تَكُونُ إِلَهِي هِيَ فَقْرَ.

10.IX. لكنَّ الْمِمْ يَكُنُ الْأَبُ وَالْابْنُ يُحْمَلُانَ فَوْقَ الْمِيَاهِ؟

لَوْ قِيلَ هَذَا، كَمَا يَقَالُ عَنْ جَسْمِ فِي الْفَضَاءِ، لَمَا انْطَبَقَ عَلَى الرَّوْحِ الْقَدْسِ، أَمَّا لَوْ قِيلَ، عَنْ سَمَوَاتِ الْأَلْوَهِيَّةِ، الْلَّامِتَقْبَلَةِ فَوْقَ كُلِّ مَتْقَبَلٍ، لِكَانَ الْأَبُ وَالْابْنُ وَالرَّوْحُ الْقَدْسُ **«يُحْمَلُونَ فَوْقَ الْمِيَاهَ»**.

إِذْنَ، لِمَاذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَى رُوْحِكَ وَحْدَهُ؟ لِمَاذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِ بِمَثَابَةِ الْمَكَانِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ فِيهِ، هُوَ الَّذِي لَيْسَ بِالْمَكَانِ؟ لِمَاذَا وَقَعَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ، القَوْلُ بِأَنَّهِ **«هِبَّتِكَ»**؟ وَفِي هِبَّتِكَ نَسْتَرِيعُ، وَفِيهَا نَتَمْتَعُ بِكَ: فَرَاحَتُنَا هِيَ **«مَكَانُنَا»**.

الْحَبْ يَرْفَعُنَا إِلَى هَنَاكَ، وَرُوْحُكَ الطَّيِّبُ **«يُرْقَيِ تَوَاضُّنَا»**، بَعِيدًا عَنْ **«أَبْوَابِ الْمَوْتِ»**. إِذْ **«فِي الإِرَادَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ يَكُمُّنُ السِّلْمُ»**. الْجَسْمُ يَنْحُو بِثَقْلِهِ إِلَى مَكَانِهِ

(1) ... بل جوهر. نقرأ في صفحة 371 الملاحظة 1 ما يلي: «تححدث الترجمة السبعينية اليونانية Le grec des Septante عن مياه عنيفة عاتية». الاعترافات، الكتاب الثالث عشر.

الخاص، لكنَّ الثقل لا ينحو فقط إلى الأسفل، بل إلى مكانه الخاص. والنار تنزع إلى أعلى، والحجارة إلى أسفل، إذ يقاد كلُّ بثقله، ولكنهما تتجهان إلى مكانيهما الخاصين. والزيت المراق في الماء يطفو على السطح، أمَّا الماء المراق في الزيت فيرسب تحته: إذ يقاد كلُّ بثقله، ويستقر كلُّ في مكانه الخاص به. والأشياء التي ليست في مكانها تتحرَّك: فإذا ظفرت به سكتت. ثقلي هو حبي، وهو يحملني حيالما يحملني. بهبتك تقدُّ وتحمِّل إلى أعلى نضطرم ونمسي. نرتقي «عَبْرَ دَرَجَاتِ الْقَلْبِ» ونشد «ترَتِيلَ الدَّرَجَاتِ»⁽¹⁾. بناً رُكُوك الطيبة نضطرم ونسير إلى الأعلى، «إلى سلام القدس» (Hierusalem = Jérusalem)، حيث أتي «سَعِيدٌ يَسْمَاعُ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِي: سَوْفَ تَسِيرُ إِلَى مَنْزِلِ الْمُزَلِّ». بها سوف ترَكَّنا الإرادة الطيبة، بحيث لن نزيد سوى أن نبقى «هُنَاكَ إِلَى لَبَدِّ».

X.11. ما أسعد الخليقة التي لم تعرف غير هذه الحالة، كانت ستكون على غير ما هي عليه، لو لم ترفعها، لحظة خلقها، هبُّك التي توجد فوق كلِّ الأشياء المتنقلة بالنداء التالي: «فَلْيَكُنْ النُّورُ!» (fiat lux = que la lumière soit)، وهذا النداء بعث النور!⁽²⁾ فتحن نمیز الوقت الذي كنا فيه «ظلماتٍ»، عن الذي أصبحنا فيه «نورًا»: أمَّا عن تلك الخليقة فقد قيل، لعمري، إنَّها ما كانت لتكون لو لم تقتبس النور، وقيل كذلك إنَّها كانت من قبل هشَّة مظلمة، حتى يظهر السبب الذي من أجله كانت مختلفة عن ذلك، أي أن تتجه نحو النور السرمدي وتكون هي ذاتها نوراً. من يقدر على ذلك فليفهمه، وليطلبه منك! ولمن يضجرني بالسؤال، أقول: هل أنا مؤهل لتنوير «كُلُّ إِنْسَانٍ آتَى إِلَى هَذِهِ الْدِّينَ؟»

XI.12. من يفهم الثالوث القدير؟ ومن لا يتكلَّم عنه، إنَّ كان حقاً يتكلَّم عنه؟ نادرة هي الروح التي تتكلَّم عنه وتعرف عما تتكلَّم. ويتأرَّعون، ويتخاصمون، ولكن لا أحد، دون راحة داخلية، يرى تلك الرؤية.

كم أودَّ أن يتأمل الناس في قراره أنفسهم، هذه الأشياء الثلاثة: فثلاثتها مخالفة جداً لذلك الثالوث، لكنَّي أذكره، كي يختبروا أنفسهم ويجزِّبوا، ويعُوا كم هم بعيدون عن حقيقته!

édition des canticum graduum... (1) des mon- des degrés Belles Lettres, tome II, page 373, note n°1

ées سلسلة من المزامير القصيرة (من 119 إلى 133 من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس)....

(2) اتبعنا هنا ترجمة "ب. دي لا بريول" لهذه العبارة «et fieret lux» والتي هي «الذي خلق النور!»

.Loc. cit. p. 373

أقول من ناحية أخرى إن تلك الثلاثة هي: الكيان والمعرفة والإرادة، فأنَا أكون، وأعْرَفُ وأُرِيدُ: أنا عارف، ومرِيد، وأعْرَفُ أنِّي أكون، وأُرِيدُ، وأُرِيدُ أنْ أكون وأنْ أَعْرَفُ.
إذن في هذه الثلاثة، كم تكون الحياة غير منفصلة عن الحياة الواحدة، وعن العقل الواحد، وعن الجوهر الواحد، دون أن يمكن التمييز بينها ممكناً، وهو مع ذلك حق، فليتتبه إلى ذلك من يقدر! فكل إنسان، لعمري، هو أمام نفسه، فليتأمل في ذاته، ولينظر، وليرجعني.

لكن، لو وَجَدَ بعضهم بينها وجه شبه، ولو عبر عنه، فلا يظُنَّ أنه قد بلغ بعد الحقيقة الثابتة التي تهيمن على هذه الأشياء والتي توجد ثابتة والتي تكون بلا تقلب وتَعْرُف بلا تقلب وثُرِيد بلا تقلب (*incommutabiliter = immuablement*). وهل يكون الإله بسبب هذه الثلاثة عناصر هو الثالوث (*Trinitas = la Trinité*)، أم هل يكون، في كل واحد منه ثلاثة، بحيث يوجد ثلاثة في كل عنصر على حدة، أم هل أن كلتا الحالتين عبارة عن البساطة العجيبة في التععدد، أو الثالوث الذي هو غاية ذاته اللآنهاية، إذ هو يكون بسببها ويُعْرَفُ عليها ويكتفي بها دون أي تقلب، في وحدة جوهره الشري العظيم؟ من يتصور ذاك بسهولة؟ ومن يعرب عنه بأيَّة صورة؟ ومن يجازف بتسميته بأيَّ اسم كان؟

13.XII. تقدّمي في الاعتراف، يا عقديتي وقولي للمولى إلهي: يا مقدس، يا مقدس، يا مولاً، يا إلهي، «باسمك قد تَنَصَّرْنَا»، أيها الأب والإبن والروح القدس، وباسمك «تُنَصَّرُ»، أيها الأب والإبن والروح القدس، لأن «الإله قد خلق» بيننا في مسيحه «السماء والأرض» الروحانيتين والجسمانيتين في كنيسته، وأرضنا، أن تتقبل صورة المذهب، «كانت لامْرَتِيهِ ولامْنَظَمهِ»، وكنا مغضّين بظلمات الجهل، لأنك «عاقبتَ الإنسَانَ بِسَبِّ جُورِهِ»، و«أَخْكَامُكَ هِيَ كَالْهَاوِيَةُ الْعَمِيقَةُ».

لكن، لما «كان رُوحُكَ يُخْتَلُفُ فَوْقَ الْمِيَاهِ»، فشققتك ما تخلّت عن تعاستنا، وقلت: «فَلَيَكُنَّ النُّورُ!» و«كَفَرُوا عَنْ ذُنُوبِكُمْ، وَلَيَكُنَّ النُّورُ!» وبما أن روحنا «كانت مُضطربة» في أحشائنا، فقد تذَرَّناك، يا مولاً، «بالقُرْبِ من الأَرْذُنِ»، على الجبل المُساوِي لعلوكه» والذي انبسط مع ذلك، من أجلانا، ولم ترق لنا ظلماتنا، فأدرنا وجوهنا نحوك، و«كَانَ النُّورُ!»، وهذا قد كنا «يَؤْمِنُوا ظُلُمَاتٍ، أَمَّا الْآنَ، فَنَخْرُنُ نُورًا فِي الْمَوْلَى».

14.XIII. ومع ذلك، فلمسنا بعد نوراً إلَّا «بِالْعَقِيدةِ» «لَا بِالرُّؤْيَا»، «فَقَدْ كُنَّا بالأَمْلِ حَقَّقْنَا النَّجَاةَ. أَمَّا الْأَمْلُ الَّذِي تَرَاهُ، فَلَيَسْ بِالْأَمْلِ»، لَا تزال «هَاوِيَةُ تُنَادِي هَاوِيَةً»، لكن

بعد «في صوت شلالاتك». ولا يزال أيضاً ذلك الذي يقول: «لَمْ أُفِدْ أَنْ أُكُلَّمُكُمْ، كروخانيين، بل كجسمانيين» يعتقد هو بذاته أنه لم يبلغ الغاية بعد، و«هُوَ النَّاسِي لِمَا وَرَاءَهُ»، يتوق «إِلَى مَاهُو أَمَامَهُ»، ويتحسر «مُتَقْلِلاً»، و«النَّفْسُ مِنْهُ ظَمَائِي إِلَى الْإِلَاءِ الْحَيَّ كَالْأَبْلَى إِلَى مَنَابِعِ الْمِيَاهِ»، ويقول: «مَتَى سَأَصِلُّ إِلَيْهَا؟»، «إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ»، حيث يرغُب أن يختبأ، وينادي الهاوية الدنيا قائلاً: «لَا تَشَكِّلُوا حَسْبَ النَّمَطِ الدُّنْيَوِيِّ، بل تَشَكِّلُوا مِنْ جَدِيدٍ حَسْبَ نَمَطٍ جَدِيدٍ لِعَقْلِتِكُمْ»، «لَا تَكُونُوا صِيَّاتٍ بِعُقُولِكُمْ، بل كُوَثُوا أَطْفَالًا مِنْ جِهَةِ التَّكْرِيرِ، حَتَّى تَكُونُوا كَامِلَيْن بِعُقُولِكُمْ»... «يَا سُكَّانَ قَالَاتِي (Galatae = Galatae) الْمَجْنُونَيْنَ، مَنْ خَلَبَ لُبَّكُمْ؟» لكن لم يعد يتكلّم بصوته، بل بصوتك، أنت الذي أرسلت روحك من عيلانك، عبر الذي «صَعَدَ إِلَى السَّمَاءِ» وفتح «شَلَالَاتِ» هباته كي يغمر «نَهَرَ» من الاندفاع مدِيتكَ.

فإلى هذه يحن «صَدِيقُ الزَّرْفَجِ»، وهو مالكُ بعْدَ لِبَوَاكِيرِ الرُّؤْوَجِ» في قلبه، لكنه لا يزال متّحسرًا في ذات نفسه، مُتَرَكِّباً، «التَّبَتَّيْ» و«خَلَاصَ جِسْمِهِ». إليها يحن لأنَّه عضو «بِالْزَوْجَةِ» أي الكنيسة⁽¹⁾، وأنَّه «صَدِيقُ الزَّرْفَجِ» لها يتحمس لا لنفسه، لأنَّه «بصوت شلالاتك»، لا بصوته الخاص، «ينادي الهاوية» الأخرى التي يتحمس لها، خاشيا، «أنَّه كما خَدَعَتِ الْحَيَّةُ حَوَاءَ بِمُكْرِهَا، كَذَلِكَ يَفْسُدُ فَكُرُ الضَّعْفَاءِ، مُتَخَلِّيَا عَنِ الْعَفَّةِ الَّتِي تَوَجَّدُ» عند زوجنا، ابنك الوحيـد. لكن يا له من رونق في ذلك النور، «عندَمَا سَوْفَ نَرَاهُ، كَمَا هُوَ، وَسَتَكُونُ قَدْ مَرَّتِ الدَّمْوعُ الَّتِي أَضْبَحَتْ رَغْيفِي لَيْلَ نَهَارَ، وَهُنْ يَقُولُونَ لِي يَوْمِيَا: أَينْ يَكُونُ إِلَاهُكَ؟»⁽²⁾

XIV. وأقول أنا: أين تكون، يا إلهي؟ أين تكون إذن؟ أتنفس فيك «قليلاً»، عندما أتنفس «الصُّدَعَاءَ فَوْقَ رُوحِي»، في صوتِ التَّهْلِيلِ والاعتراف، صوتِ الاختفاءِ والابتهاجِ. لكن لا تزال حزينة، لأنَّها تتّكسـسـ، وتتصبـعـ هاوـيـةـ، أو قـلـ إنـها تعـيـ بـكـونـهـاـ لا تزال هاوـيـةـ. تقول لها عقـيـدتـيـ التي أـضـرـمـتـهاـ بالـلـيلـ أـمـامـ خطـوـاتـيـ: «لَمْ أَتَـتـ حـزـينـةـ، يا رُوحـيـ، وَلَمْ تـكـدـرـيـتـيـ؟ ليـكـنـ أـمـلـكـ فيـ المؤـلـىـ، فـمـضـبـاحـ خطـوـاتـكـ هـوـ كـلـمـةـ!» ليـكـنـ أـمـلـكـ فيـهـ ولـثـابـرـيـ، رـيشـماـ تـمـرـ اللـيـلـةـ أـمـ الجـائزـينـ، وـرـيشـماـ يـمـرـ غـضـبـ المـولـىـ الـذـيـ كـتاـ

(1) تعتبر الكنيسة في الألهوت الكاثوليكي زوجة المسيح، وهذا يسمى زوجها على المجاز بالطبع (المترجم).

(2) ubi est deus tuus?... أين إلهك؟ المرجع نفسه من 377، الملاحظة 1...: «هذا الفصل، شأنه شأن الفصل السابق يمثل تضميناً حقيقةً لنصوص من الكتاب المقدس. وتعده وفرا الشواهد من الكتاب المقدس خاصةً من خصائص الأدب المسيحي في القرون الأولى...».

أبناءه يوماً، ونحن ظلمات، ونجزّ بقابياها في الجسم الميت «بسبب الخطيئة»، «وَرِيَثَمَا تهُبُ الرياحُ، وتتَّسَعُ الظُّلْمَاتُ». ليكُنْ أَمْلَكَ فِي الْمَوْلَى: سُوفَ أَسْتِيقْظُ صَاحِحاً، وسوف أشاهدك، «سُوفَ أُفْرُ دُومًا إِلَيْهِ». سُوفَ أَسْتِيقْظُ، وسوف أرى نجاة مُحْيَايَ، يا إِلَهِي «الذِّي سُوفَ يَحْيِي أَيْضًا أَجْسَامَنَا الْمَيَةَ، بِسَبِيلِ الرُّوحِ الَّتِي تَسْكُنُ فِينَا»، لَأَنَّهُ كَانَ «يَحْمِلُ» حَيَاتَنَا الْخَفِيفَةَ بِالشَّفَقَةِ فَوْقَ السَّيْلِ الْمُظْلَمِ الْجَارِفِ. مِنْ ثُمَّ فَتَحَنَّ فِي السَّفَرِ الدِّينِيِّيِّ تَقْبِلَنَا «الضَّمَانُ» فِي أَنَا سَنَكُونُ مِنْ بَعْدِ «نُورًا»، مَا دَمَنَا «قَدْ أَصْبَحْنَا الآَنَّ نَاجِينَ بِالْأَمْلَى، وَأَصْبَحْنَا أَبْنَاءَ النُّورِ وَالنَّهَارِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ أَبْنَاءَ اللَّيلِ وَالظُّلْمَاتِ».

وَبَيْنَ هُؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ، وَفِي هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي لَا تَزَالُ غَيْرَ ثَابِتَةٍ، أَنْتَ وَحْدَكَ تَفَرَّقُ، وَأَنْتَ تَخْتَبِرُ «قُلُوبَنَا»، وَتَسْمَى «النُّورُ نَهَارًا وَالظُّلْمَاتِ لَيْلًا»، «فَمَنْ يَمْيِيزُنَا خَلَائِكَ؟ أَوْ مَا نَمْلُكُ، لَمْ نَكُنْ «تَقْبِلَنَا» مِنْكَ، نَحْنُ أُوْعِيَّةُ «الشَّرْفِ»، وَمِنْ نَفْسِ الْكَتْلَةِ الَّتِي مِنْهَا خَلَقَ الْآخِرُونَ، وَهُمْ أُوْعِيَّةُ «الْبَرْخَى؟»

16.XV. من سوالك، يا إلهنا، قد بسط فوقنا «قُبَّةُ زَرْقاءُ» من الجاه في كتابك الإلهي؟ «فَالسَّمَاءُ سُوفَ تَطْوِي كَالْكِتَابَ»، والآن تمتَّدُ، كالجلد، فوقنا. إذ إنَّ السُّلْطَانَ أَسْمَى فِي كِتابِكَ الإِلَهِيِّ، بَعْدَ أَنْ قُضِيَ بْنُ الْفَنَاءِ نَحْبِهِمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ بِوَاسِطَتِهِمْ عَلَمْتَنَا إِلَيْهِ. وَأَنْتَ تَعْلَمُ، يَا مُولَايِ، أَنْتَ تَعْلَمُ، كَيْفَ كَسُوتَ النَّاسُ جَلُودًا، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحُوا بِالْخَطِيئَةِ فَانِينَ. مِنْ ثُمَّ بَسْطَتْ «بِمَثَابَةِ الْجِلْدِ»، قَبَّةُ (firmamentum = le firmament) كِتابِكَ، وَهُوَ وَحْيُكَ الْمَنْسُجُ الَّذِي نَصَبَتْهُ فَوْقَ رُؤُوسِنَا بِكَهْنُوتِ (ministerium = le ministère) بَنِي الْفَنَاءِ. إِذْ بِمَوْتِهِمْ ذَاتَهُ، يَمْتَدُ فِي الْعُلوِّ هِيَكِلُ سُلْطَاتِكَ الَّذِي نَشَرَهُ عَلَى كُلِّ مَا يُوجَدُ مِنْ تَحْتِ، كَمَا لَمْ يَكُنْ لَمَا كَانُوا أَحْيَاءٍ قَدْ امْتَدَّ فِي الْعُلوِّ. إِذْ لَمْ تَكُنْ بَعْدَ قَدْ بَسْطَتْ «السَّمَاءُ كَالْجِلْدِ»، وَلَمْ تَكُنْ قَدْ نَشَرَتْ بَعْدَ شَهْرَةِ مَوْتِهِمْ، فِي كُلِّ مَكَانٍ.

17. فَلَنْزِ، مُولَايِ، «السَّمَاوَاتِ، وَهِيَ أَعْمَالُ أَصَابِعِكَ»: وَقَشَّعَ عَنِ أَعْيُنِنَا السَّحَابُ الَّذِي غَطَّيَتْهَا بِهِ مِنْ تَحْتِ. فِي ذَلِكَ آيَتِكَ وَدَلِيلِكَ يَا «مُغْطِي الْحِكْمَةِ لِلصَّعَارِ». أَكْمَلْ يَا إِلَهِي «مَجْدُكَ فِي قَمَ الْأَطْفَالِ وَالرُّضَعِ». إِذَا لَا تَعْرِفُ كِتَابًا أُخْرِيًّا تَدْمِرُ التَّكْبِيرَ مِثْلَ هَذَا التَّدْمِيرِ، وَتَدْمِرُ «الْعَدُوَّ وَالْمُحَاجِمِيَّ» الْمَعَارِضِينَ لِمَصَالِحِنَا، الْمَدَافِعِينَ خَصْوصًا عَنْ ذُنُوبِهِمَا. لَا أَعْرِفُ، يَا مُولَايِ، لَا أَعْرِفُ وَحْيَا آخِرَ بِنَفْسِ الْعَفَةِ يَقْنَعِنِي بِهَذَا الاعْتَرَافِ، وَيَجْعَلُنِي أَطْأَطِي عَنْقِي إِلَى نَيْرِكَ، وَيَدْعُونِي إِلَى خَدْمَتِكَ مِجَانًا. فَلَا فَهْمَهُ، يَا أَبِي الطَّيِّبِ، وَهَبْ لِي مِنْ هَذَا الْفَضْلِ فِي خَضْوَعِي، إِذَا نَتَّثْبِتُهُ لِلخَاضِعِينَ.

18. هَنَاكَ فَوْقَ تَلْكَ «الْقُبَّةُ الزَّرْقاءُ»، «مِيَاهُ» أُطْهَاهَا غَيْرَ فَانِيَّةٍ، وَمَصُونَةٌ مِنْ

فساد الأرض. فلتمدح «اسْمَك»، لتمدحك الأفواج فوق السماوية لملائتك التي لا تحتاج لتأمل تلك القبة وحفظ كلمتك بالقراءة؛ إذ «تُرِي مُحِيَّاكَ دُوْمَا» وتقرأ فيه، دون تعاقب زمني للمقاطع، ما تريده إرادة الأبدية. يقرؤون ويختارون ويحبون، يقرؤون دائمًا، ولا ينضي ما يقرؤون. إذ بالإختيار والمحبة، يقرؤون عدم تقلب تصميمك ذاته. لا يُغَلِّقُ سِفَرَهُمْ، ولا يُلْفُ كُتُبَهُمْ، لأنك أنت بالذات ذلك الكتاب الذي جعل لهم، وأنت كذلك «إِلَى الْأَبْدِ»، لأنك قد نصبتهم فوق القبة الزرقاء، تلك التي ثبّتها فوق ضفاف الشعوب السفلية، كي ينظروا إلى أعلى ويتعلّموا على شفقتك المبشرة زمنيا بك، أنت الذي قد خلقت الأزمة. إذ «فِي السَّمَاءِ، مُولَّاِيَ، شَفَقْتُكَ، وَحَقُّكَ حَتَّى السُّبُّ». تمّ السحب، أمّا السماء فبقى. ويمزّ المبشرون بكلمتك، من هذه الحياة إلى حياة أخرى، أمّا كلمتك فتمتدّ حتى نهاية القرون فوق الشعوب. لكن «السماء والأرض سوف تمران»، «أَمَّا كَلَامُكَ فَلَنْ يَمُرُّ»، لأن الجلد سوف يلف، و«الشَّبَّ» الذي كان يمتد فوقه سوف يمر مع نضارته، «أَمَّا كَلِمَتُكَ فَتَبَقَّى إِلَى الْأَبْدِ»، فهي تبدو لنا الآن، «فِي لَغْزِ السَّحْبِ وَعَبْرِ «مِرْأَةِ السَّمَاءِ»، لَا كَمَا هِيَ، لَأَنَّا - وإن كان ابنك يغمّرنا بحبه - «إِلَّا أَنَّا لَمْ نَتَبَيَّنْ بَعْدُ مَا سُوفَ نَكُونُ». نظر إلينا عبر حجاب اللحم، ولا مسنا، واستضرمنا، و«نَثْدُو وَرَاءَ عَبْقِ رَائِحَتِهِ». لكن «عِنْدَمَا سِيَظْهَرُ، سَنَكُونُ شَبِيهِنَّ بِهِ، بِمَا أَنَّا سَنَرَاهُ، كَمَا هُوَ»: أن نراه كما هو، مولاي، ذاك حظنا الذي لا نزال منه محروميين.

XVI. وكما أنت أنت الكائن المطلق، فأنت أيضا العالم الوحيد، أنت الكائن بلا تقلب، والعالم بلا تقلب، والمريد بلا تقلب. كيانك يعلم ويريد، بلا تقلب، وعلمك يكون، ويريد بلا تقلب، وإرادتك تكون وتريد، بلا تقلب. وليس من العدل، في نظرك، أن يعرف النور اللامتنقل المخلوق المتقلب بنفس الدرجة التي يعرف بها نفسه. ولذلك «فِرْوَحِي شَبِيهُهُ أَمَّا مَكَ بِأَرْضِ دُونِ مَاءٍ»، لأنها، كما أنها لا تقدر أن تغير نفسها بنفسها، كذلك لا تقدر أن تشفي غليلها بنفسها. فلذا «لَذِكَّرَتْ بَنْعَ الْحَيَاةِ، كَمَا في نورِكَ سُوفَ نَرِي النُّورَ».

XVII. من جمّع مياه المرارة⁽¹⁾ في كلية واحدة؟ لها جميعا نفس الغاية: سعادة دنيوية وعلى الأرض من أجلها تفعل كل أفعالها، وإن تموجت بما لا يحصى

(1) amaricantes = مياه المرارة. loc. cit ص 380، الملاحظة 1، حيث نقرأ ما يلي: «بني أوغستينوس هذه الصورة المجازية في كتابه Enarratio «الشرح» على المزمور 9 § 6.64 حيث نجد: «البحر هنا هو صورة هذا العالم بحرارة مرارته وعاترها عواصفه حيث أصبح البشر، لانسياقهم لشهواتهم الضالة كالحيتان يلتهم بعضهم ببعض...».

من المشاغل المختلفة. من، يا مولاي، سواك الذي أمر المياه أن تجتمع «في تجمع واحد»؟ ومن أمر الأرض الجافة أن تظهر ظماء لك؟ «والبحرُ لك»، وأنت من قد خلقته، و«الأرضُ القاحلة يداك شَكّلتها»، إذ ليست مرارة الإرادات التي تسمى بحراً، بل تجمع المياه، فأنت الذي تمنع شهوات النفوس السيئة، وتعين للمياه الحدود التي يسمح لها أن تصل إليها، كي تتحطم أمواجهها بعضها على بعض، وهكذا تنظم البحر طبق نظام إمبراطوريتك الممتدة على الكل.

21. أنت الأرواح الظماء إليك والحاضرة بين يديك، والتي فصلتها عن كل اتحاد مع البحر لغاية أخرى، فتسقيها من ماء سري عذب، كي «تغطي الأرض ثمارها بإذن منك» أنت مولاها وإلهها، و«أنتبِت» روحنا أعمال البر، «كما يريده سمعتها»، تنبت محبة الإنسان المعوز في الضروريات المادية، «حاملة» في ذاتها تلك البذرة من التعاطف، «من جهة الشبه به»، لأن شعورنا بالشقاء هو الذي يدفعنا إلى التعاطف مع الفقراء والأخذ بأيديهم، كما نحب ذلك لأنفسنا لو كنا فقراء مثلهم. وهذا الماعون لا فقط في الأشياء البسيطة التي تشبه الأعشاب الطيرية، بل وأيضاً في حمايتهم ومعاضدتهم بقوّة وصلابة كصلابة الشجرة المثقلة بالثمار والخيرات، وهو عمل صالح يُتنّسّع به ذلك الذي يعاني القهقر، من يد الجبار، ليتفاًظ الظلال التي تحمي في قوة العدالة العادلة الصلبة.

22.XVIII. لذا، مولاي، لذا، أتوسل إليك أن ينشأ - كما تفعله، وكما تعطي الاستشار والقدرة - أن ينشأ «من الأرض الحق»، وأن تدير «العدالة» نظرها إلينا «من السماء»، وأن تكون في القبة الزرقاء الأنوار! فلنفترض «خُبزنا مع الجائع»، ولتدخل المعوز الذي لا يبيت له «إلى دارينا»، ولنكسر «العاري» ولا نحتقر «المواطنين ذوي أصلينا!

فانظر إلى الثمار الناشئة في الأرض كم هي طيبة، «وليسفجز في أوانه» نورنا، ومن حصد العمل الدنيوي هذا فلنلتذ بمشاهدة كلمة الحياة، بالسماح لنا بالارتفاع إليك، حتى نظهر «كالأنوار في الكون»، متدمجين «في قبة» كتابك.

هنا تبين لنا تعالييك كيف تفرق بين المقولات والمحسوسات، وبين النهار والليل، أو بين الأرواح المقبولة على المقولات من جهة والأخرى المقبولة على المحسوسات، وعلى هذا التحول لن تكون وحدك، في سرية تمييزك، كما هو شأن قبل خلق القبة، قادرًا

على التمييز بين النور والظلمات، بل حتى يكون روحانيتك أيضاً، المنصّبون حسب رتبهم في نفس القبة - بعد تجلّي نعمتك عبر الكون - مُنيرين فوق الأرض، «يفصلون اليوم عن النهار، ويُزِيدُون إلى الأزمنة». ذلك أنَّ «الأشياء القديمة قد مرتُ، وها هي الجديدة قد خلقتُ»؛ إنَّ نجاتنا أقرب «متى كنَا ظنَّنا»، و«الليلُ قد تقدَّمَ متَّا النهارُ قد اقتربَ»، و«أَنَّكَ تُبارِكُ السنة بِتاجِكَ» مرسلاً «العتال إلى حسيدكَ» الذي «قد عمل آخرَوْنَ» لبذرِه، مرسلاً أيضاً غيرَهم لبذر آخر، يكون حصاده في نهاية الكون!

وهكذا تستجيب لرغبات العادل وتبارك أعوامه، «أَمَّا أنت فدوِّمًا بذاتك» وفي أعوامك «التي لا تُمُرُّ»، كالأنبار التي تعدّ للأعوام التي تمضي.

23. ويتضمّنك لعمري الأبدي، وفي الأزمنة المناسبة، تمنع الخيرات السماوية للأرض، «فهؤلاء يعطيهم الروحُ كلامُ الحكمةِ، كالمنارةُ الكبْرى»، من أجل الذين يروّقهم نور الحق الساطع، كنور مطلع الفجر، وهؤلاء «يعطيهم بواسطة نفس الروح، كلامُ العلمِ، كالمنارة الصغيرةِ، أمَّا الآخرون فيعطيهم العقيدة أو مؤهبة العلاج، أو مؤهبة المعجزات أو الثبورَ أو تمييز المقولِ أو موهبة اللئاتِ». وجميع هذه المواهب هي كالنجوم «إذ تعمَّلُ فيها كلَّها نفسُ الروح الواحدة، موزَّعةً هداياها على كلٍّ واحدٍ، كما تشاءُ»، وجاءَت النجوم تظاهر «ساطعةً صالحةً».

أمَّا «كلامُ العلمِ» الذي يحتوي جميع الأسرار التي تتوزع حسب الأزمنة، كما القمر، وكلَّ المعارف المهدأة الباقيَة التي كنت قد شبّهتها بالنجوم، فتحتفَّل عن بعده نورُ الحكمة الذي يشبه فرح اليوم المبتدئ، اختلافاً، تكون به في المبدأ بمثابة الليل. إذ هي ضرورة لأولئك الذين إلَيْهم ذلك الخادم لكَ الحكيم للغاية «لَمْ يقدِّرْ أَنْ يتكلَّمُ، كما يكلِّمُ الروحانيَّين، بلْ كما يكلِّمُ الجُسْمَانِيَّينَ، هو الذي لا يقول «الحكمة إِلَّا وسط المكتملين».

«أَمَّا الإِنْسَانُ الْجَسْمَانِيُّ» الذي هو «كالصَّيْتِ فِي الْمَسِيحِ»، والرَّضِيعُ الذي يتغذى باللبن ويترقب أن يشتد عوده، لتناول غذاء صلْبٍ، أو يتضرَّر أن يقوِّي بصره لمواجهة الشمس، حتى لا يشعر بالوحشة في الليل ويكتفي بنور القمر والنجوم.

هذه هي الحجج التي تقدمها لنا بمعنى الحكمة، يا إلهنا، في كتابك الذي هو قبتك الزرقاء، كي تُميِّز الكلَّ في تأمل رائع، وإن كان لا يزال محدوداً بالدلائل والأزمنة والأيام والأعوام.

24. لكن «استحثُّوا أولاً، وتطهُّروا، أزيحُوا الجوزَ عن ثُفُوسِكُمْ»، وعن مرأى

عینیٰ»، حتى تظهر «الأرضُ القاحلة»، تعلّموا فعل الخير، انصروا اليتيم، ودافعوا عن الأرضِ لتنتَبِّهَ الأرض كلاً مغذياً وشجراً مثمراً. «هلقُوا أقبلوا، ولنُتَاقَشْ، كما يقول المولى، حتى تكون الأنوارُ في قبةِ السماءِ، وحتى تُنيرَ ما فوقَ الأرضِ».

كان ذلك الغني يسأل المعلم الطيب ما ينبغي أن يفعله، كي يحصل على «الحياة الأزلية». وكان المعلم الطيب الذي كان الغني يظنه إنساناً لا غير - إلا أنه لم يكن «طبياً إلا لأنَّه إله» - كان يسأله «هل يريد أن يسير نحو الحياة؟»، فإذا كان ذلك فليعمل «بالوصايا» وليبعد عن نفسه مرارة الأذى والجور ولا يقتلن ولا يزنين ولا يسرقن ولا يشهدن بالباطل، حتى تظهر «الأرضُ القاحلة»، وتنتَبِّهَ طاعة الأم والأب وحب الأخ الإنسان. يقول الغني: «قد فعلت كلَّ هذه الوصاياً»، فمن أين إذن كلَّ هذه الأشواك، إن كانت الأرض مثمرة؟ اذهب، اقطع أدغال البخل الكثيفة، «بع ما تملُّكُه» ووفر لنفسك الشمار، بالعطاء «للقراء»، وسوف يكون لك كنزٌ في السماواتِ واتبع المولى، إن أردتَ أن تكون كاملاً»، صاحب أولئك الذين يقول لهم ذلك الذي يعلم ما ينبغي أن يوزع على النهار والليل «كلام الحكم». وستعرفهم أيضاً، «وستكتون لك أيضاً الأنوارُ في قبةِ السماءِ». وهو شيءٌ مستحيل إن لم يكن «قلبك» هناك: وهو أمرٌ مستحيل أيضاً، إن لم يكن «كُنْزُكَ» هناك. تلك كانت كلمات المعلم الطيب. لكن «الحزن قد عَمَّ الأرض القاحلة، والأشواك ضيقت النفس على الكلمة».

25. أما أنت، «أيتها العنصرُ المختارُ»، «أيا ضعفاء الكَوْنِ»، أنتم الذين أعرضتم عن الكل، لتبعدوا المولى، فسيروا وراءه، وأفحموا «الأقوباء»، سيراً وراءه، «بارجُلِكم الباهرة»، واسطعوا «في القبة الزرقاء»، كي «تفصَّلَ السماوات مجده»، مفرقة بين «نور» الكاملين الذين لا يزالون غير شبيهين بالملائكة، و«ظلّمات» الصبيان الذين ليسوا يائسين: «انسْطَعُوا» فوق كلِّ الأرض، وليل كلمة العلم! القمر والنجم يلمعان للليل، لكن الليل لا يحيط بهما بظلامه، لأنهما يضيئانه بمقدار معين. فها كمالُكَ كان الإله يقول: «فلتكن الأنوار في قبةِ السماءِ، فجأةً كان صوتُ آتياً من السماءِ، كما لو هبت ريح عنيفة» وظهرت ألسنة منقسمةً كأنها نار «استقرَّتْ فوقَ كلِّ واحدٍ منها» وُوجِدَتْ «الأنوارُ في قبةِ السماءِ» وبها كلمة «الحياة». فلتجرِّين في كلِّ مكان، أيتها النيران المقدسة الفتانة! فانتن «نور الكون»، ولستن «خفياتٍ». فقد ارتفع الذي كتم قد اندمجت فيه ورفعكم. فلتجرِّين، ولتعرفن بأنفسكم كلَّ الشعوب!

26.XX. ول يجعل (concipiat = conçoive) البحر أيضاً، وليلد أعمالك، «ولتلد

المياه الزاحفات ذوات الأرواح الحية». فأنتن المميزات الثمين من البخش قد أصبحتَ فم الإله الذي كان يقول به، «فلتليد المياه» لا الروح الحية التي تلدُها الأرض، بل «الزاحفاتِ ذواتِ الأرواحِ الحيةِ والطيورِ الطائرةِ فوقِ الأرضِ». فقد زحفتُ أسرارك، يا إلهي، بواسطة أعمال قدسيك، وسط أمواج نزغاتِ الدنيا، كي تغمر الشعوب ب المياه التعميد المعطى باسمك.

ومن بين هذه الأشياء، هناك معجزات «جسمية» وقعت، شبيهة بالأغوال البحريّة وأصوات مبشرِيك المتطايرة فوق الأرض، قربًا من قبة كتابك، المؤهل لتكون سلطته موجّهة لتطير حيث كانت ستسير. إذ ليست «بلغة ولا خطابات لا تسمع نبراتها» لأن «دوئها سرى في الأرض كلها، وكلماتها إلى أقصى الكورة الأرضية»، بما أنك، يا مولاي، بمباركتك «قد كثرتها».

27. فهل أنا كاذب، أو أختبط عشوائيًا، ولا أميّز بين المعارف التية في تلك الأشياء الموجودة بقبة السماء، والعمليات الجسمانية الموجودة في البحر الهائج وتحت قبة السماء؟ فمعلومات تلك الأشياء ثابتة محددة، بلا ازدياد عبر الأجيال، مثل أنوار الحكمة والعلم. ولنفس الأشياء عمليات جسمانية عديدة مختلفة، وبالنحو شيئاً تتكاثر، بمباركتك، يا إلهي، أنت الذي سلّيت بني الفناء من اشمتاز حواسهم، حتى تكون معرفة الروح للحق الأوحد تصوّر، بألف صورة وبحركات الجسم، ويعرّب عنها.

«ذاك ما قد ولدتِ المياه»، لكن في كلمتك: فضّورات الشعوب المنسلخة عن أزلية حقك هي التي قد ولدته، لكن في إنجيلك، بما أنّ المياه ذاتها قد وضعته، تلك التي كان قبورها المزّ السبب في وضعها إليها.

28. كل شيء جميل عندما تكون خالقه، وهو أنت بلا منازع أجمل، أنت الذي قد خلقته! فلو لم يذنب آدم، لما انتشر من سلالته، ذات المراة البحريّة، الجنس البشري ذو الفضول اللاتهائي والكربلاء العصوف والليل المتقلب، ولما كان معلّمو كلامك في حاجة ليترجموا جسمانيّاً وحسيّاً، أفعالك وأقوالك الروحانية.

إذ هكذا كان عندي تأويل «الزاحفات» و«الطيور». لكن الناس المتضلعين والملقين، بسبب خضوعهم للأسرار الجسمانية، ما كانوا ليسيروا إلى أبعد منها لو لم تتعشّن نفوسهم روحانيتا، وهي ترقى إلى درجة أعلى، ولو لم تكن، بعد كلمة البداية، لسوق إلى الكمال.

XXI. 29. ولهذا، ففي كلمتك، ليست أعمق البحر، بل الأرض المفروقة من مرارة المياه تلد لازاحفات ذات نفوس حية، وطيوراً، بل «الروح الحية».

فهذه لم تعد في حاجة إلى التعميد الضروري للوثنيين، كما كانت في حاجة إليه، عندما كانت مقطة بالمياه: إذ لا يدخل أحد بصفة أخرى إلى «مملكة السماء»، منذ أن اشترطت أن يدخل إليها هكذا! وهي لا تتطلب معجزات جسمية، حتى يكون لها الإيمان: فهي تؤمن، وإن لم تر «الدلائل والمعجزات»، بما أنها بعد الأرض المؤمنة المفصلة عن المياه المرة للبحر غير المؤمن، و«الأليستَ فيها دلِيلٌ لِلمُؤمِنِينَ، بل لغيرِ المؤمنينَ». إذن فالأرض ليست في حاجة لجنس الطيور التي ولدتها المياه، استجابة لكلمتك، تلك الأرض التي «ركّزتها فوقَ المياه». أرسل إليها كلمتك بواسطة رسلك، فنحن نقص أعمالهم، لكن أنت الذي تعمل فيهم، حتى يكون عملهم «الروح الحية».

الأرض «تلدها»، لأن الأرض هي السبب في العملية التي تخلق تلك الروح عليها، كما أن البحر كان السبب في كون «الزاحفات ذات الأزواج الحية»، والطيور تخت قبة السماء» كانت تعمل فيها تلك الكائنات التي لا تحتاج لها الأرض بعد، بالرغم من كونها تأكل الحوت المصطاد⁽¹⁾ في الأعماق، «على تلك المائدة التي هيئتها أمام المؤمنين». فإن أصطيد في الأعماق، فلكي «يُنْذِي الأرض القاحلة»! والعصافير من سلالة البحر، ولكن مع ذلك فهي تتكاثر على الأرض. لأنه لئن كانت حملات الوعظ الأنجليلي الأولى كانت بسبب إلحاد الناس، فإن ذوي الإيمان يوعظون بها ويباركونها بكثرة يوماً بعد يوم. أما الروح الحية فمصدرها من الأرض، لأنه لا يفيد بعد إلا ذوي الإيمان أن يتمتعوا من حب هذه الدنيا، حتى تحيا روحهم لك، هي التي «كانت قد ماتت» حية «في الملاذ»، تلك الملاذ القاتلة، يا مولاي، إذ إنك تمثل الملاذ التي تحبى للقلب الصافي.

30. فليعمل إذن خدمك في هذه الأرض، لا كما في مياه الإلحاد، بل بالوعظ والحديث القائمين على المعجزات والأسرار والأصوات الروحانية، من أجل تثبيت تأمل العجل مصدر التعجب بسبب الخشية التي تبعثها الدلائل الملغزة، لأن دخولبني آدم إلى الإيمان يكون هكذا، وهم ينسونك ما داموا يزورون عن محياك، ويصبحون

(1) ... leuatum... pisces... = ... الحوت... المصطاد. الاعترافات، الكتاب الثالث عشر، ص 388-389، الملاحظة 1: إشارة إلى رمز السمك المألوف جداً في الخيال المسيحي في القرون الأولى... واسم رمزي استعاري للمسيح الذي استطاع في غياب الموت، كما في أعماق البحر أن يظل حياً، أي خالياً من الذنوب».

«الهاوية»، بل ليعملوا أيضاً كما يعملون في الأرض القاحلة المنفصلة عن غياب الهاوية، ولتكونوا مثلاً لذوي الإيمان، وهم يحيون أمامهم، ويحتونهم على الاقداء بهم.

هكذا لا ينصت المؤمنون بأذانهم فقط ليسمعوا، بل أيضاً يعملوا: «ابحثوا عنِ الإله، وسوفَ تحيارُو حُكْمُ، كي تلد الأرض روحًا حيةً، لا تَمْتَلِّوا بهذه الدُّنْيَا»، امتنعوا عنها. لا تحيا الروح إلا وهي تتجنب ما تموت بالتعلق إلَيْهِ. امتنعوا من وحشية الكبriاء العنيفة ومن شهورات الفجور المضعفة ومن مظاهر «المغريَّة» الكاذبة، وستكون السوائم أليفة والحيوانات الأهلية مرؤحة والحيتان غير ضارة. فهي تمثل في باب الرموز حركات النفس: لكن أبهة الزهو والتلذذ بالشبقية وسم الفضول حركات للروح الميتة التي لا تموت لفقد كل حركة، بل تموت وهي مبتعدة عن نبع الحياة، فتحتضنها الحياة الدنيا، وتتمثل الروح لها.

31. أمّا كلمتك، يا إِلَهِي، فهي «منبع الحياة الأبديَّة»، وهي «لَا تَمُرُّ»: ولذا ففي كلمتك يمتنع ذلك الابتعاد، عندما يقال لنا: «لا تَمْتَلِّوا بهذه الدنيا حتى تلد الأرض» في منبع الحياة «روحًا حيةً»، أمام كلمتك، تحتوي، بفضل إنجلزيك، روحًا مقتدية بالمقتدين بمسيحيك. فهذا هو معنى «منْ جهة الجنس»، إذ من شيم المحبة أن يقلد الخلُّ خلَّه. ويقول الحواري: «كونوا مثلي، لأنِّي أنا أيضًا مثلكُمْ».

هكذا ستكون، في «الروح الحية»، سوائم طيبة لطيفة المعاملة. فقد أوصيتنا قائلًا: «باللطف أتَّمَّ أعمالَكَ، فتكتُونَ مخْبُوبًا من كُلِّ إِنْسَانٍ!» والسوائم ستكون طيبة أيضًا، «إذا أكلْتَ» لم تعان من التّهم، و«إذا لَمْ تَأْكُلْ» لم تعان من الجوع، والحيتان الطيبة لن يكون لها من السمّ ما تضرّ به، بل من الخبرة ما تتحتمي به، وهي لا تستكشف الطبيعة الدنيوية إلا بقدر ما يكفيها لترقي من «الكائنات التي خلَقْتَ» إلى روقة أسرار الديومة. فهذه الحيوانات تخدم العقل، عندما تكون قد منعت مسيرتها القاتلة، لتحيا وتكون طيبة.

32. XXII وهكذا، يا مولانا وإِلَهُنا وحالقنا، فإنَّ روحنا بعد أن تكون مشاعرنا قد حرمت من حبِّ الدنيا، وهي التي كنَّا نموت من جرائهما، لأنَّ حياتنا سيئة تبدأ «في الحياة»، تحيا عندئذ حياة طيبة، وتنتهي كلمتك التي قلتُها لنا على لسان حواريتك: «لا تَمْتَلِّوا بهذه الدُّنْيَا»، وسيتبعها أيضًا ما قد أضفتَه في الحال، قائلًا: «لكنَّ أَضْلِحُوكُمْ، مَجْدِيَّنَ عَقْلِيَّتُكُمْ» لا من «جِهَّةِ الجنس»، أي مقلدين السلف الطيب،

أو بالعيش على منوال إنسان أكثر اكتمالاً. إذ لم تقل: «فليُكِنَّ الإِنْسَانُ مِنْ حِيثِ الْجِنْسِ!»، بل قلت «فَلَنْخُلِقِ الْإِنْسَانَ حَسْبَ صُورَتِنَا وَالشَّابَهُ بِنَا»، حتى نختبر ما هي إرادتك (*uoluntas tua = votre volonté*).⁽¹⁾

ولهذا كان ذلك المعلم لكلمتك ينجذب بالإنجيل الأولاد، حتى لا يكون له دوماً رضيع يغذّيه باللبن، ويحتضنه كالمرضع، ويقول: «أَصْلِحُوهَا أَنْفُسَكُمْ، مَجَدِّدِينَ عَقْلَيْكُمْ، مِنْ أَجْلِ اخْتِيَارِ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ إِرَادَةُ الْإِلَاءِ الَّتِي هِي طَيِّبَةٌ، وَرَانِقَةٌ، وَمُكْتَمِلَةٌ». ولذلك لا تقول: فليكن الإنسان، بل «فَلَنْخُلِقُهُ»، ولا تقول، من جهة الجنس، بل «حسبَ صُورَتِنَا وَالشَّابَهُ بِنَا». فالمجدد لعمري لعقليته، والمشاهد والمتعلقل لحقك ليس في حاجة إلى إنسان آخر ليسيره، حتى يقلد جنسه، بل بتسييرك له، يخبر بنفسه «ما تكونُ عَلَيْهِ إِرَادَتُكَ، وَهِي طَيِّبَةٌ، وَرَانِقَةٌ، وَمُكْتَمِلَةٌ»، وتعلمك، وقد أصبح مؤهلاً، أن يرى *trinitatem unitatis uel unitatem trinitatis* (أحدية الثالوث)، أو أحدية الأحادية، (= *Trinité de l'Unité (ou) l'Unité de la Trinité*).

ولذلك، بعد أن تقول، بصيغة الجمع، «فَلَنْخُلِقِ الْإِنْسَانَ»، تضيف، بصيغة المفرد: «وَخَلَقَ إِلَهُ الْإِنْسَانَ»، وبصيغة الجمع «حسب صورَتِنَا»، لكن بصيغة المفرد تضيف: «حسبَ صُورَةِ إِلَهٍ»، فهكذا الإنسان «يتجلّدُ مِنْ أَجْلِ مَعْرِفَةِ إِلَهٍ مِنْ جَهَةِ صُورَةِ الَّذِي قَدْ خَلَقَهُ، وَالشَّيْءُ الرَّوْحَانِيُّ يَحْكُمُ عَلَى كُلِّ الْأَشْيَاءِ» التي لا بد أن يحكم عليها بالطبع، «أَمَّا هُوَ فَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهِ مِنْ طَرْفِ أَيِّ كَانَ».

33.XXIII. أمّا أنه «يَحْكُمُ عَلَى الْكُلِّ»، فيعني أنَّ له السلطان على حيثيات «البحر» و«طيور» السماء وكل السوائل والوحوش والأرض كلها والحيات كلها «التي تزحفُ فوق الأرض». فيعمل به عبر الإدراك بالعقل الذي به «يُدْرِكُ مَا يَتَعلَّقُ بِرُوحِ الإِلَهِ». أضف إلى ذلك أن «الإِنْسَانَ لَمْ يَعْقُلِ الشَّرْفَ الَّذِي وَضَعَ فِيهِ؛ فَقَدْ افْتَرَنَّ بِالسَّوَائِمِ الْلَّأْعَاقِلَةِ، وَقَدْ أَضَبَّحُ شَبِيهَهَا».

إذن في كنيستك، يا إلهتنا، «تَبَعًا لِنَعْمَتِكَ» التي أعطيته إياها - إذ نحن «قد خلقتنا من قبلك مخلوقاتٍ ضمن الأعمال الطيبة» - لا يوجدُ فقط الذين يأمرون روحانيتا، بل أيضا أولئك الذين يأمرون روحانيتا، بأوامر الأولين - فقد خلقت «الذكر والأنثى»

(1) Loc. cit ص 390 وص 391، الملاحظة 1: بفضل هذا الشرح... تمكّن أوغستينوس من استنباط مبدأ أخلاقي ديني من سفر التكوين (I, 21): «وَخَلَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الطَّيْبَ الْمَائِيَّةَ الْكَبِيرَةَ وَكُلَّ كَائِنٍ حَتَّى يَتَحَرَّكَ وَيَعْجَجَ فِي الْمَيَاهِ... وَكُلَّ طَائِرٍ مَجْنَحٍ... وَوُجِدَ أَنَّ ذَلِكَ جَيْدٌ».

في الإنسان، بهذه الصفة، في نعمتك الروحانية التي لا يوجد فيها - من جهة الجنس الجنسي - لا ذكر ولا أنثى، كما لا وجود «ليهودي ولا ليوناني، ولا لعبي ولا لحر» - بل «الروحانيون»، إما الأمرؤن أو المطيعون، يحكمون فيها «روحانياً»، لا على الأفكار الروحانية التي تسطع في «القبة الزرقاء» - إذ لا ينبغي أن يحكموا على سلطة بهذه الرقة - ولا على كتابك عينه، حتى حيث يكون بعض الغموض، بما أنت تخضع له عقلنا، ونتأكد من كون ما لا يزال مغلقاً لأنظارنا قد قيل فيه القول الحق الفصل - لذا فالإنسان، وإن كان «روحانياً» متجددًا في معرفة الإله، من جهة صورة الذي خلقه، «ينبغي أن يكون مع ذلك» مطيناً للقانون، «لا حاكِماً عَلَيْهِ». ولا يحكم طبعاً حكماً يفرق فيه بين الروحيتين والجسمانيتين، إذ إنك، يا إلهنا، تعرفهم عياناً، فلم يظهرروا بعد لنا بأعمالهم، حتى «يمكِّننا أن نعرفهم، اعتماداً على ثمارهم». أما أنت، مولاي، فتعرّفهم بعد، وقد قسمتهم وسمّيتم في الخفاء، قبل أن تكون القبة الزرقاء، «فالإنسان الروحاني لا يحكم، مع ذلك، على فرضي شعوب هذه الدنيا. فهل له أن يحكم على من هم من الخارج»، هو الذي يجعل من سيّأتي من بينهم إلى لذة نعمتك، ومن سيّق في مرارة الإلحاد الأبدي؟

34. لذا فالإنسان الذي قد خلقته «على صورتك»، لم يتقبل السلطان والسيطرة على أنوار السماء، ولا على السماء السرية بذاتها، ولا على النهار والليل اللذين، قبل تكوين السماء، قد ناديتهم، ولا على «عصبية المياه» التي هي البحر، لكنه تقبل السلطان على حينيات البحر، وطيور السماء، وكل السوانح، والأرض كلها، وعلى كل الحيات، «التي تزحف فوق الأرض».

فهو يحكم، وبارك ما هو صواب، ويعارض ما يجده غير صواب، سواء كان في تلك الاحتفالات بالأسرار التي يطلع عليها أولئك الذين تبحث عنهم شفقتك في أعماق المياه، أو في تلك التي يُعرض فيها ذلك السمك الذي اصطيد في الأعماق، لتأكله الأرض التقية⁽¹⁾، أو في أدلة الكلام والخطابات الخاضعة لسلطانك، والمتطايرة كالعصافير تحت قبتك: تأويلات وعروض ومقالات ومناقشات ومبارات وتوسلات إليك متدققة من الأقواء في دوي عالٍ كي يجيب الشعب: أمين! والسبب في الإعراب

(1) ... الأرض التقية...، الاعترافات، الكتاب الثامن من 393 الملاحظة 1: يحيى "يار دي لا بريول" هنا على الصفحة 388 حيث قيل في الأرض «إنها سبب العملية التي خلقت عليها الروح... الروح الحية... تلك الروح التي كانت ميّة عندما كانت تحيا في الأطّايب الأطّايب القاتلة...».

الجسماني عن كلّ هذه الألفاظ يكمن في هاوية الدنيا، وفي اللحم الأعمى الذي لا يقدر أن يرى الفكر المطلق، فيحتاج إلى أصوات رنانة تقع الأذنين. ورغم أن الطيور تفرخ في اليابسة فإنها تأخذ أصلها من الماء.

و«الروحاني يحكم» أيضاً بالموافقة على ما هو صائب، وبالمخالفة لما قد يجلده مجانباً للصواب، في أعمال المؤمنين وفي أخلاقهم وصدقائهم التي هي بمثابة الأرض المثمرة، وفي خصوص لطافة مشاعر «الروح الحية» «الناشئة عن العقة»، وعن الصيام، وعن الأفكار التقيّة المتصلة بالأشياء التي ندركها بحواس الجسم. وباختصار هو يحكم، بقدر ما له من القدرة على أن يهذب.

35. لكن ما هذا؟ ويا له من سرّاً! ها أنت تبارك الناس، يا إلهي، «كَنِيْتُمُوا وَيَنْكَاثُرُوا وَيَمْلَؤُوا الْأَرْضَ». فهل في هذا من إشارة إلينا منك، كي نفهم شيئاً؟ وكيف لم تبارك أيضاً النور الذي سميت بهاراً، ولا قبة السماء، ولا الأنوار، ولا التحوم، ولا الأرض، ولا البحر؟ كم كنت أود أن أقول، إلهنا، إنك أنت الذي قد خلقتنا على صورتك! كم كنت أود أن أقول إنك قد أردت أن تجود بهذه الهبة المباركة على الإنسان خاصةً، لو لم تكن قد باركت بنفس الصفة، الحيتان والأغوال، حتى تنمو وتتكاثر، وتملاً مياه البحر، والطيور، كي تتکاثر فوق الأرض! كذلك، كم كنت أود أن أقول إن هذه المباركة تتعلق بتلك الأجناس من الكائنات التي تنتشر من تلقاء ذاتها، جيلاً بعد جيل، لو كنت أجد أثراً لها على الأشجار وفي الأدغال وعند سواحل الأرض! لكن، في الواقع، لم يقل للنبات والشجر، ولا للحيوانات والزاحفات أن «تُثُمُّ وَتَكَاثِرُ»، رغم أنها كلّها تنمو أيضاً كالحيتان والطيور والبشر، جيلاً بعد جيل، وتحمي جنسها.

36. ما عسانني إذن أقول، يأنوري، ياحق؟ هل إنّ هذا لا يعني شيئاً، وهل هو الفراغ التام؟ كلاماً، يا أبا التقوى، فليتحاش خادم كلمتك هذا الكلام! وإن لم أفهم أنا ما يعنيه هذا الوحي، فليعتمد عليه اعتماداً أحسن، أناس أفضل مني، أي أكثر ذكاءً، بقدر ما آتت كلّ واحد منهم، من العلم، يا إلهي.

لكن، تقبل على الأقل اعترافي «بِمَرْأَىٰ مِنْ عَيْنِيْكَ»، وأنا أعترف إليك أني، يا مولاي، أعتقد أنك لم تتكلّم سدىً، ولن أسكّت عن الأفكار التي تحركها في نفسي هذه القراءة. فهي صائبة، ولا أرى ما يمنعني من أن أعتبرها تأويلاً مجازية لكتابك. إذ أعرف أنّ الفكرة التي يصوغها العقل بصورة واحدة يمكن أن تدلّ عليها عديد الصور المادية، وال فكرة التي يصوغها العقل بعديد الصور يمكن أن تدلّ عليها صورة مادية واحدة. فانظر إلى مفهوم بسيط كحب الإله وحب الإنسان. فكم من عديد الرموز،

وكم من عديد اللغات، وكم من عديد الطرق في كل لغة على حدة، يعبر عنـه تعبيرا ملماوسا!

هكذا تنمو سلالة البشر وتتكاثر، فليتأمل، ثانية، من يقرأ هذا القول الذي يقدمه الكتاب بصورة واحدة، ويدوي به الصوت: «في المبدأ قد خلق الإله السماء والأرض»، فهلأ يفهم فهما متعددان، دون خطاء أو تضليلات، بل حسب أجناس الأفكار المعقوله؟

هكذا تنمو سلالة البشر وتتكاثر!

37 إذن، إن فكرتنا في جواهر الأشياء بالذات، لا على المجاز والتخيل بل على الحقيقة⁽¹⁾، فكل ما ينشأ من البذور تصلح له كلمة: «أنمو وتكاثروا». أما لو تناولناها في الصيغة المجازية - فذاك بالعكس ما أظن أن الكتاب المقدس قد قصد إليه، وهو لا يخص بتلك المباركة، على كل، أجنة الحيوانات البحرية والبشر، لو جدنا لعمري «أفواجا» منها، في المخلوقات الروحانية والجسمانية، كما في السماء والأرض، وفي الأرواح العادلة والجائرة، وكما في «النور» وفي «الظلمات»، وعند الكتاب الثقة، إذ بواسطتهم قد أعطينا القانون، كما في القبة الزرقاء التي انتصبت بين الماء والماء، وفي عصبة الشعوب المرأة، كما في البحر، وفي ما تعني به الأرواح الورعه، كما في الأرض الفاحلة وفي أعمال البر، من جهة الحياة الدنيا، (كما في النبات ذي البذور، والأشجار المثمرة) وفي الهدايا الروحانية المعطاة لصالح الإنسان (كما في «أنوار» السماء)، وفي المشاعر المشكّلة تجاه الاعتدال، كما (هي الحال في «الروح الحية»).

في جميع هذه الأشياء، نقف على تنوعات وخصوصيات ونماوات، لكن كيف يمكنها أن تنمو وتتكاثر، بحيث أن الشيء الوحيد يعبر عنه بعديد الأوجه، وأن التعبير الوحيد يستتبع بعديد الطرق، فلا نجد إلا في الدلائل المعطاة جسمانيا، وفي الأشياء المتصورة عقلانيا.

والدلائل المعطاة جسمانيا هي في أنسال «المياه»، بسبب العوامل الضرورية لعمق خطبيتنا، أما الأشياء المتصورة عقلانيا فقد أدركناها عند الأنسال البشرية، بسبب خصوبـة عقلنا.

(1) ...non allegorie, sed propre... (لا على المجاز والتخيل، بل على الحقيقة)... في كامل هذا القسم يقول "ب. دي لا بريول" ص 395: "إن أوغستينوس يعود، من أجل تبريرها باعتبارات جديدة ويرمز جديدا، إلى نظريته المتعلقة بشرعية العواصـم المتعددة، انظر أعلى ص 346 والتي بعدها".

ولهذا اعتقدنا أنك يا مولانا قد قلت لكلا الجنسين: «أُنموا وتكاثروا». ففي تلك المباركة أرى أنك قد منحتنا القدرة والاستطاعة كي نعرب، بألف صورة، عما قد نتفق عليه عقلاتنا بصورة واحدة، وكى نستبط، بألف طريقة، ما قد نقرره غامضاً، لكنه مصوّغ في قالب واحد. هكذا تمتلىء «مياه البحر» التي لا تتحرك إلا بالتأويلات المختلفة وبالاجنن البشرية تمتلىء كذلك الأرض التي تظهر قحولتها في توقيها إلى الحق، والتي يسودها العقل^(١).

38.XXV أريد أن أقول أيضاً، يا مولا ي وإلهي، ما يوصيني به باقى كتابك، سأقوله ولن أخاف. إذ سأقول الحق، وأنت ملهمي أن أقول، من هذه الكلمات، ما أردته. فلا أعتقد أن أقول الحق تحت إلهام غيرك، إذ إنك «الحق، أمّا كل إنسان فكاذب». ولذا، فمن «يقول الكذب، يتكلّم من عندياته». إذن فليقول الحق، سأتكلّم من فضلك.

ها قد أعطيتنا «غذاءً، كل نباتة مبذورة، تحمل بذرها، وهي فوق الأرض قاطبة، وكل شجرة تملك في ذاتها بذرة الشمرة المغروسة». ولكن لا إلينا فقط، بل وأيضاً إلى جميع طيور السماء وسوانح الأرض والحيتان؛ أمّا الحيتان وأحوال البحار فلم تُعْطِها ذلك.

كتنا نقول إن تلك الشمار في الأرض أدلة تتشكل على المجاز والتخييل لأعمال الشفقة الإلهية، وتبّرّز في ضروريات هذه الحياة ما تجود به علينا الأرض الحبل بالشمار. ومثل هذه الأرض قد تمثل في التقى أونزيفوروس(Onesiphore) (Paulum = Paul) الذي أعطيت داره «الشفقة»، لأنّه كثيراً ما قد واسى «باولوس»(Paulum = Paul) خادمك، ولم يخجل من قيده. «هذا» ما فعله أيضاً «الإخوان الذين قد أكملوا له»، من مقدونيا، ما كان يحتاج إليه» ونالوا ثمار مثل هذا الحصيد.

أما كيف كان يتذمر، من كون بعض «الشجيرات» لم تعطه الشمار التي كانت مدينة له بها، فقد كان يقول: «في أول دفاع عنّي لم يقف أحد إلى جاني، بل الجميع قد خذلوني: فلا تعرّ ذلك إليهم!» إذ تلك الشمار هي ديون لمن يلقنون مذهبها عقلاتنا، بواسطة فهم الأسرار الإلهية، وهي ديون إليهم، كبشر، وهي من ناحية أخرى ديون إليهم، كأرواح حية، من جهة كونهم يعرضون مثلاً علينا، يقتدى بها في الاعتدال، بالذات. وهي ديون

(١) ... et dominatur ei ratio ... العقل... يسودها. الاعترافات، الكتاب الثالث عشر، ص 7/396، الملاحظة 1: «من الآراء المفضلة عند أوغسطينوس أنه يجب أن تقدم لأصحاب العقول المثبتة الكتب المقدسة باعتبارها كتاباً خصبة بالمعانٍ العميقـة، وأنه من المباح الكشف عنها حسب الظاهر. وعلى هذا النحو نبتعد عن جعلهم يمتهنون هذه القراءة «التي سيتاح لهم فيها تفتيق النشاط الفكري الذي يحبونه».

إليهم، كالطهور بسبب المباركات التي تتكاثر فوق الأرض، من حيث أن «صوتهم قد عُمَّ الأرض جماء».

39.XXVI. يتغذى، من ناحية أخرى، بهذا القوت، أولئك الذين يفرحون بها، ولكن لا يفرح بها أولئك الذين «إِلَاهُهُمْ هُوَ بَطَنُهُمْ». إذ في نظر الذين يعطون، الشمار ليست في ما يعطون، بل في النية التي يعطونها بها.

من هنا أرى غبطة الحواري الذي كان «يُخْدِمُ إِلَهَهُ لَا بَطَنَهُ»، أراها وأهته بها. إذ كان قد تقبل من الفيلبيين (*a Filippensibus = des Philippiens*) الهدايا التي أرسلوها إليه، عن طريق إبيافرو ودونس (*per Epaphroditum = par Epaphrodite*)، لكنني، مع ذلك، أرى بمَّ كان يغبط. فمصدر غبطته هو، من ناحية أخرى، قوته، إذ يقول حقاً ما يلي: «قد اغبطت غبطة رائعة في المولى، وقد أُبْرِزْتُمْ أخيراً من جديد وذَكْر تجاهي، كما كان من قبل، أَنَا أَنْتُمْ فَقْدَ تَفَرَّزْتُمْ». إذن فأولئك كانوا قد ذبلوا من التقرّز الطويل، وكأنهم قد هزلوا بسبب ثمار تلك الأعمال الصالحة، وهو فرح لهم، لا لنفسه، بازدهارها لأنّهم قد آذروا عوزه. فلذلك واصل قائلاً: «أَنْكُلُمْ لَا بَسْبِبْ حاجةٍ مَا، فَأَنَا قَدْ تَعْلَمْتُ أَنْ أَقْنِعْ بِمَا أَنَا فِيهِ. أَعْرَفُ الْفَاقَةَ كَمَا أَعْرَفُ الرَّخَاءَ، فِي الْكُلِّ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، قَدْ افْتَنْتُ بِأَنْ أَشْبِعَ وَبِأَنْ أَجْوِعَ، وَبِأَنْ أَكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَبِأَنْ أَتَحْمَلَ الْمَجَاعَةَ، أَسْتَطِعُ الْكُلِّ فِي الَّذِي يَقْوِينِي».

40. فمن أين إذن تأتيك الغبطة، يا باولوس العظيم؟ متّ تتغذى، أيها الإنسان المتتجدد، «من أجل معرفة الإله، طبقاً لمصورة الذي قد خلقك»، وأيتها الروح الحية ذات الاعتدال الأقصى واللسان الطائر الناطق بالأسرار؟ لمثل هذه الأرواح، لعمري، هذا القوت حق مستحق. فما الذي يغذيك؟ أهو الفرح! ولنسمع ما يلي من قوله: «لَكُنْ، مَعَ ذَلِكَ، قَدْ فَعَلْتُمْ خَيْرًا، مُشَارِكِينَ فِي مَحْتِي». من هذا يغبط، من هذا يقتات: من عملهم الصالح تجاهه، لا من كون ضائقته قد انفرجت، إذ يقول لك: «في المحنّة قد جعلتني أُنْشَرِح» لأنّه يعرف «كيف يكون في الرخاء ويتحمّل الموجاعة» فيك أنت الذي تقويه. فهو القائل: «تعلمون أيضاً أنتم، أيها الفيلبيون، أَنِّي، في بداية التبشير بالإنجيل، عندما غادرت مقدونيا (*ex Macedonia = de la Macédoine*) لم تسلّمني أية كنيسة وضلاًّ فيما أعطيته وتقبّلته (*dati et accepti = un compte de Doit et*) *Avoir Thessalonicam = à Thessalonica* (مرة أولى، ومرة ثانية ما كنت في حاجة إليه). ويفرح الآن لكونهم

قد عادوا إلى الأعمال الصالحة، وينشرح لكونها قد ازدهرت كالحقل المخضوضر من خصبه.

41. هل كان بسبب مصالحه يقول: «قد أرسلت ما كنت في حاجة إليه»؟ أذلك السبب ينشر؟ لا وألف لا. ومم نعلم؟ مما ي قوله هو من بعد: «لست أبحث عن الهدية بل أنا أطلب الشمرة».

قد تعلمت منك، يا إلهي، الفرق بين «الهدية والشمرة». «الهدية» هي الشيء نفسه الذي يعطينا إياه من يساعدنا في فقرنا كالمال، والطعام، والشراب، والثياب، والمسكن، وكل وجوه المساعدة. أما «الشمرة» فهي الإرادة الطيبة المستقيمة للمهدي. والمعلم الطيب لا يقول فقط: «من سيسقبل رسولا...» بل يضيف: «كما يُستقبل الرسول»؛ وهو لا يقول فقط: «من سيسقبل عادلا» بل يضيف: «كما يُستقبل العادل». على هذا النحو فقط سيسقبل هذا جائزة الرسول، وهذا جائزة العادل. وهو لا يقول فقط: «من سيعطي كأس ماء بارد ليشربه أشد تلامذتي تواضاً» بل يضيف: «شريطة أن يكون التلميذ الحق». ويضيف قائلاً: «أقول لكم آمين (amen = en vérité)، لن يضيع جائزته». الهدية في استقبال «الرسول»، وفي استقبال «العادل»، وفي تقديم «كأس ماء بارد» لـ«للمعذّب»، أما «الشمرة» ففي هذا الفعل المرتبط «بشخص الرسول»، وبشخص العادل، وبشخص التلميذ». ومن مثل هذه الشمرة كان يقتات إلياس (Helias = Hélie) وقد كانت تغذيه أرملاة تعلم أنه خادم الإله، ولذلك كانت تغذيه، أما ما كان يقتات به من الغراب، فكان «هبة». لم يكن إلياس الداخلي (interior sed exterior = mais...) Helias = l'Hélie intérieur extérieur، أي جسم إلياس الذي كان سيهلك لو حرم من مثل هذا الطعام.

42.XXVII. ولذلك، أرد أن أقول الحقيقة كاملة بحضورتك، يا مولاي، والحال أن أناسا «جهلة»⁽¹⁾ (idiotae = ignorants) و«ملحدين» (idiotae = ignorants) تفتضي الضرورة، لتلقينهم الديانة وإدخالهم إليها، اللجوء إلى الأسرار وإلى المعجزات الجسيمة التي نظن أن أنه يرمز إليها «الحيتان» و«أغوال البحر»، يعمدون إلى معالجة أجسام أبنائكم، أو إلى مساعدتهم على حاجة ما في هذه الحياة، والحال أنهم يجهلون ما ينبغي أن يقوموا به،

(1) في كلام الرواقيين تعني الكلمة (idiotae) معنى هو ضد معنى «الرجل المثقف» (أي pépaeideuménos). فهي تدل على الجاهل مقابل العالم، وأحياناً تدل على المدنس مقابل العسكري.... هنا ما ورد في الملاحظة 1 من طبعة الأدب الجميلة ص 400.

وأية غاية يرمي ذلك إليها، فلا يغدوهم، ولا يتغذى هؤلاء من أيديهم، إذ إن الأولين لا يقونون بذلك الأفعال بتبة مقدسة مستقيمة، وأن الآخرين لا يفرحون بهداياهم، إذ لا يرون بعد أية ثمرات. فلذا، لعمري، تتغذى النفس مما تنبسط به. ولهذا فالحيتان والأحوال لا تقتات من القوت الذي لا ينبت إلا في الأرض بعد أن خُلّصت وصُفيت من مرارة أمواج البحر.

43.XXVIII. وقد رأيت، يا إلهي، كل مخلوقاتك، ووجدها طيبة جداً. ونراها نحن أيضاً، وهاهي كلّها طيبة جداً. في كلّ صفات من أصناف أعمالك، بعد أن كنت قلت: فلتكن، وبعد أن ظهرت للوجود، رأيت أنّ هذا وذاك طيّان. أحصيتك أنه كتب سبع مرات أنك رأيت أنه طيب، أعني ما خلقته؛ والثامنة هي عندما رأيت كلّ الخلاقين التي خلقتها، لا فقط «طيبة» بل وأيضاً «طيبة جداً» في مجتمعها. فهي، فرداً فرداً، طيبة فقط، أما في مجموعة تامة فهي طيبة وطيبة جداً. يقولون هذا أيضاً عن جميع الأجسام الجميلة، أي أنّ الجسم الذي يترَكَّب من كلّ الأعضاء الجميلة يكون جميلاً، وأكثر جمالاً من الأعضاء عينها، فرداً فرداً، حيث أنه، باختلافها وتنظيمها المحكم للغاية، يكتمل جمال المجموع، ولو أنها، واحداً واحداً، جميلة كذلك.

44.XXIX. وتأملت بعينة هل رأيت سبع مرات أم ثمانية، أنّ أعمالك طيبة، وأنها أعجبتني. لكنني لم أجده في روبيتك رؤية خاصة للزمن لأفهم بها أنك قد رأيت ما خلقت عدداً من المزارات، فصحت قائلًا: «يا مولاي، أليس كتابك هذا الحق، بما أنك أنت الصادق الحق قد نشرته؟ لم إذن تقول لي ألا وجود للأزمات في روبيتك، والحال أن كتابك يقول لي إنك، يوماً بعد يوم، رأيت ما خلقت ورأيت أنه طيب، وقد أحصيتك كم مرة فعلت ذلك؟»

تجيب عن هذا فتقول لي، لأنك أنت إلهي، وتقولها بصوت قوي لأذن خادمك الداخلية، قاطعاً صممي ومناديًا: «يا أيها الإنسان، لا شك أنّ ما يقوله كتابي المقدس أقوله أنا. ومع ذلك، فهو يقول في الزمان (*temporaliter = dans le temps*)، أمّا كلماتي فلا يحدث لها الزمان، لأنّها تبقى معني في مثل ديمومتي. فهكذا الأشياء التي تروّنها أنتم عبر روحي، أنا أراها، كما أنّ ما تقولونه أنتم عبر روحي، أنا أقوله. ولكن بينما ترونها أنتم، في الزمان، لا أراها أنا كذلك زمانية، وبينما تقولونها أنتم، في الزمان، لا أقولها أنا كذلك زمانية»

45.XXX. قد سمعت كلماتك، يا مولاي وإلهي، ولعقت قطرة من عذوبة حّفك،

وفهمت أن هناك أنسا لا تعجبهم أعمالك، وأن الكثير منهم يدعون أنك قد قمت بها مجبرا مضطراً، مثل صنع السماوات، وتنظيم النجوم، وأن هذا ليس من صنعتك، بل هي مخلوقات كانت موجودة بعد في أماكن أخرى وصنعتها أياد أخرى، ومنها كنت أنت تجلبها وتضم بعضها إلى بعض لتؤلف بينها، كي تبني بها، بعد انهزام أعدائك، أسوار الكون، حتى لا يستطيعوا، بعد أن انتصرت عليهم في هذا الصرح الشامخ أن يثوروا من جديد عليك، ويقولون، من ناحية أخرى، إنباقي لم تخلقه أنت ولم تنظمه، مثل جميع الأجسام والحيوانات الضئيلة جدا وكل ما ينبع في الأرض بجذوره، بل إن عقلا معاديا لك، وطبيعة أخرى مضادة لك لم تنشأ منك، في الأماكن السفلية من الكون، قد أنشأها وشَّكلَها.

هذا ما كان يقوله هؤلاء الضالون، لأنهم لم يروا صنيعك بفضل روحك فلم يعترفوا بك فيها.

46.XXXI أمّا الذين يرون الأمور عبر روحك، فأنت ترى ما فيهم. عندما يرون أنها طيبة، فأنت الذي ترى أنها طيبة، وكل الأشياء التي يعجبون بها بسبب حبك، فإنهم يعجبون فيها بك، والتي نعجب بها، عبر روحك، تعجب بها، أنت فيما. «إذ من من الناس يعرف ما يجعل في خاطر الإنسان غير الروح التي توجد في ذات الإنسان؟ وكذلك ما يجعل في خاطر الإله، لا أحد يعلمه، خلا روح الإله». ويقول الحواري: «أما نحن، فقد تقبلنا لا روح لهذا الكون، بل الروح التي هي صادرة عن الإله، حتى نعلم ما هي الأشياء التي وهبها لنا الإله بفضله».

أستطيع إذن أن أقول: «الحق أنه لا أحد يعلم ما يجعل بخاطر الإله، عدا روح الإله». إذن كيف نعلم نحن أنفسنا «ما هي الأشياء التي وهبها لنا الإله؟» الإجابة أن حتى ما نعلمه هكذا، عبر روحه «لا أحد يعلمه خلا روح الإله!». فكما قد قيل بحق للذين كانوا يتكلمون عنها، متأثرين بروح الإله: «إذ لستم أنتم الذين تتكلمون»، كذلك يقال بحق للذين يرونها متأثرين بروح الإله: «لستم أنتم الذين تروزن». لذا فكل ما يرون أنه طيب متأثرين بروح الإله، لا يرون أنه هم بالذات، بل الإله هو الذي يرى أنه طيب! إذن هناك إنسان يحسب الطيب سيتا، وهو من أولئك الذين تكلمت عنهم أعلاه^(٤)،

(٤) في الفصل الثلاثين الفقرة 45. يتعلق الأمر بالمانويين الذين كثيرا ما هاجم أوغسطينوس في الاعترافات آراءهم الضالة». ملاحظة "ب. دي لا بريول" ص 403، من الجزء الثاني من طبعته

ص 403.

وهناك إنسان ثان يرى الطيب طيباً، كالكثيرين المعجبين بخليقتك، لأنها طيبة لكتهم غير معجبين بك فيها، ومن ثم يريدون أن يتمتعوا بها أكثر من التمتع بك: وهناك أخيراً إنسان ثالث، عندما يرى شيئاً طيباً، يكون الإله قد رأى فيه أنه طيب، ليكون محبوباً في ما خلق. وما كان هذا الحب ليكون إلا بواسطة الروح التي قد أعطانا إياها «إذ إن محبة الإله منتشرة في قلوبنا، بواسطة الروح القدس الذي قد أعطيناها» والذي نرى بواسطته طيباً كلَّ ما يكون، فيما كان: فهو صادر عن الذي ليس كائناً على كيفية ما، بل عن الذي هو الكائن المطلق!

47.XXXII. «شكراً لك، يا مولاي!» نرى السماء والأرض، إما الجزء الجسماني (الأعلى والأسفل) أو الخليقتين الروحانية والجسمانية؛ وفي زينة هذه الأجزاء التي تترَكَّب منها إما كتلة الكون جماء أو الخليقة، كلَّها بال تماماً، نرى النور المخلوق المنفصل عن الظلمات. نرى قبة السماء الزرقاء، إما الموجدة بين المياه الروحانية العليا والجسمانية السفلية، أجسام الكون الأولى البكر، أو ذلك الفضاء في الهواء الذي يسمى أيضاً سماء والذي تتجول عبره طيور السماء، بين المياه التي تتطاير كالبخار، وتنزل أيضاً كالندى في الليالي الصافية، وبين التي تناسب ثقيلة فوق الأرض. نرى رونق المياه المجتمعية عبر سهول البحر، والأرض القاحلة، إما عارية، وإما مزروعة بادية للعيان ومنظمة وإما للتبات والشجر. ونرى الأنوار تستطع من علاتها، والشمس تكفي النهارَ نوراً والقمر والنجم تسلّي الليل، وبجميعها تدون الأزمنة ويشار إليها. نرى في كلِّ مكان الطبيعة المائية تخصب بالحيتان والمسوخ، والكائنات المجنحة، لأنَّ كثافة الهواء الذي يحمل العصافير الطائرة فيه تتكثُّف أكثر من جراء تبخّر المياه. ونرى وجه الأرض يزدان بالحيوانات الأرضية، والإنسان الشبيه بصورتك يتتفوّق على الحيوانات غير العاقلة قاطبة، بفضل مماثلته لك بالذات، أعني بفضل ميزة العقل والذكاء. وكما أنك تجد في الروح البشرية^(١) تفكيراً يقود من جهة، ومن جهة أخرى طاعةً تخضع، تجدُ

= بالإضافة إلى هذا يقول أوغسطينوس بصرامة ما يلي: *quals supra dicti sunt* ... أي الناس الذين حنثت عنهم أعلاه. فقد كان هدفه إذن، من بداية الاعتراض إلى آخرها، التخلص من تعليمهم للدين «catéchèse» الذي كان يجده مُقيداً لأنَّ دام وتواصل مدة طويلة، ولأنَّ خاطئه ضالٌّ بصورة خاصة.

(١) «خضوع المرأة للرجل يوصي به أوغسطينوس بوضوح أقلّ» إذ يقول في موضع لاحق إنَّها «... خلقت جسدياً للرجل» الاعترافات، الكتاب الثامن، الملاحظة 2 ص 404 و 405.

أن المرأة وإن خلقت جسديا (corporaliter = physiquement) للرجل، تملك مثله تماما، نفس الجوهر العاقل الذكي، أما بحكم جنس الأنثى، فهي ترضخ بالطبع لجنس الذكر وتتخضع له خضوع الإقبال على العمل لما يملئه العقل من أجل الظفر بالوجهة الصحيحة.

هكذا ندرك الأشياء، ففي كل عمل خير، والخير كلُّ الخير فيها مجتمعة.

XXXIII. 48. فلتشكرك أعمالك، كي نحبك، ولنحبك نحن، كي تشكرك أعمالك! لها في الزمان بداية ونهاية، لها شروق وغروب، ولها تقدم وتدحرج، ولها رونق وذبول. ولها إذن صباحها ومساواها، خاففين تارة، وأضحين طورا.

لقد خلقتها من العدم، لا من كنهك، ولا من مادة غريبة عنك، أو خلقت قبلك، بل من مادة متزامنة الخلق (de concreata = concréée)، أي مخلوقة من قبلك، في آن واحد مع ذاتها، حيث أتاك صورت عدم تشكلها، دون أية مدة زمانية عارضة.

أما مادة السماء والأرض فشيء مختلف، وكذا المظهر الخارجي للسماء والأرض، فلعمري قد خلقت مادتها من العدم، أما مظهر الكون، فمن المادة اللامتشكلة، والاثنان أي السماء والأرض متوافقتان بحيث كان الشكل يتبع الجوهر، دون أدنى مهلة بينهما.

XXXIV. 49. وتأملنا أيضا شيئا آخر: ما هو المعنى الرمزي الذي أردت أن يكون لأعمالك باعتبار تعاقب وقائعها أو ترتيب حكاياتها. ورأينا أنها طيبة، واحدة، وأنها كلها طيبة جدا؛ وفي كلمتك وفي ابتك الوحيد رأينا السماء والأرض، رئيس الكنيسة وجسمها، مقدّرين (in praedestinatione = prédestinés) قبل كل الأزمنة، دون صباح ومساء. وما أن بدأت تتجز، في الزمان الأشياء المقدّرة، كي تبرز مقاصدك الخفية وتنظم فوضانا - لأن خطابانا كانت فوقنا، وكنا نبعد عنك إلى الهاوية المظلمة، وكانت روحك الطيبة تحلق فوقنا لاسعانا في الوقت المناسب - حتى برأت الملحدين، فميّزتهم عن الجائزين، وثبتت سلطانك المقدس لدى الخاصة (superiores).

ceux dont la supériorité (... =) الذين كانوا مؤهلين لطاعتك، والعامة الذين كانوا مؤهلين للإذعان لهم، وجمعت غير المؤمنين في زمرة واحدة تضمّهم، حتى تظهر حمية المؤمنين في القيام بأعمال البر من أجلك، وهم يوزعون على الفقراء أملاكهم الأرضية للفوز بالسماوية منها.

وعندئذ أوقدت بعض الأنوار في القبة الزرقاء - في قدسيك المالكين لكلمة الحياة، المحظوظين بالهدايا الروحانية، الساطعين بهيبيتهم الفاقفة. ثم استخرجت

من المادة الجسمانية، من أجل إخصاب الأمم غير المؤمنة بال المسيحية، الأسرار والمعجزات المرتيبة وأصوات الكلمات طبقاً لقتبه كتابك - أودت بعض الأنوار ليتبّرك بها المؤمنون بك بالذات. ومن بعد صورت الروح الحية للذوي عقيدتك طبق العواطف المنظمة والعفة الحازمة، ومن ثم قد جددت، حسب الصورة الشبيهة بك، النفس المذعنة لك وحدك، وغير المحتاجة للاقتداء بأية سلطة إنسانية كانت، وأخضعت العملية العقلانية لنفوذ الذكاء، كما تخضع المرأة للرجل، وقد أردت أن يقدّم المؤمنون بك إلى كلّ كهنتك ثمن تدريّبهم، في هذه الحياة، ما يتطلّبه منهم هؤلاء للضرورات الدنيوية عملاً صالحًا مشمراً غداً^(١).

كلّ هذه الأعمال نراها « وهي جدّ طيبة »، إذ إنك ترى فيما، أنت الذي قد أعطيتنا الروح التي نقدر أن نراها بواسطته، وأن نحتّك فيها.

50. XXXV مولاي الإله، أعطنا السلم - فقد قدمت لنا كلّ الأشياء - سلم الراحة، سلم السبت، والسلام دون أقول ! فكلّ هذا التلاحق الجميل جداً للأشياء الطيبة جداً سيقتضي، بعد اجتياز حدوده: إذ جعل لهم، لعمري، الصباح كما جعل لهم المساء.

51. XXXVI أما اليوم السابع فهو بلا مساء، وليس له غروب، لأنك قد قدمتَه، لي-dom إلى الأبد، حتى أن تلك الراحة التي استرحتها في اليوم السابع، أنت بعد أعمالك « الطيبة جداً » - وإن قمت بها في الطمأنينة - كان صوت كتابك لا بد أن يشير إليها مسبقاً، قائلاً إننا نحن أيضاً، بعد الفراغ من أعمالنا « الطيبة جداً » لأنك أنت لعمري قد أعطيتنا إياها، لا بد أن تستريح فيك، في سبت الحياة الأبديّة.

52. XXXVII فعندئذ ستستريح فيما كذلك تماماً، كما تعمل الآن فيما، ولذا فراجتنا ستكون بفضلك فيما، تماماً كما أنّ أعمالنا هي لك بتوسطنا. أما أنت، يا مولاي، فتعمل دوماً، وتستريح دوماً، ولا ترى في الزمان، ولا تتحرّك في الزمان، ولا تستريح في الزمان، ومع ذلك فتفعل رؤانا في الزمان، وتفعل الأزمنة ذاتها، والراحة في آخر الزمان.

(١) يلخص أوغستينوس في هذا الفصل « الحقائق الروحية » (الإيراز من المترجم) التي مكتّبه شرحه القائم على التصوير المجازي من استخلاصها من الآيات الأولى من سفر التكويرن...» من ملاحظة « ب. دي لا بريول » ص 406 من الجزء الثاني من طبعة الاعتراضات (الكتاب الثامن) الآفنة الذكر: وهذه الملاحظة تنتهي على النحو التالي: « لكن متذمّر نظروا في النص المقدس باعتباره يحتوي معنى خفيّاً تمحّل به الحروف أكثر من تغيير عنه. وعقرية القرون الوسطى، علاوة على أحد هذه العناصر، أصولها ضارة في هذه الطريقة في فهم الكتاب المقدس وتأويله ». الإحالّة نفسها ص 406 و 407.

XXXVIII.53. إذن فنحن نرى هذه الأشياء التي خلقتها، لأنها كائنة، أما بالنسبة إليك فهي بالعكس كائنة فلأنك تراها. ونحن علاوة على ذلك نرى بالحواس أنها كائنة، وبالعقل أنها طيبة، أما أنت فقد رأيتها وقد خلقت بعد، إذ رأيت أنه يجب أن تخلى. نحن الآن مستعدون لفعل الخير، بعد أن تصور قلباً عن روحك صورة الخير، أما في السابق فقد كنا نتخلى عنك منساقين إلى فعل الشر: أما أنت، أيها الإله الأحد الحسن، فما توقفت عن فعل الخير. بعض أعمالنا حسنة، لعمري، بفضل نعمتك، لكنها لأبدية: نتمشى من بعدها، أن نستريح نحن في قدسيتك اللامتناهية. أما أنت، وأنت الخير الذي ليس في حاجة إلى أي خير، فإنك في راحة دائمة، لأن راحتكم هي أنت بالذات.

فهم هذه الحقيقة! مَنْ مِنَ البشر سيعطيه للإنسان؟ ومن هو الملاك الذي سيعطيها لملاك؟ ومن هو الملاك الذي سيعطيها للإنسان؟ فليطلب هذا الفهم منك طالبوه، ولبيحثوا عنه فيك، وليطرقوا له بابك: عندئذ، عندئذ فقط ستلقاها، وستنظر بها، وسيفتح لنا مصراعها.^(١).

(١) هذه هي الإستعارة الأخاذة القصوى التي ييرزها أوغستينوس في بحثه الذي عبر عنه للناس ولنفسه. وحيث الأقربين هو لديه من الثوابت الحقيقة، لأن الاعترافات تكشف لنا عن روح التائب التي كان عليها، لكنها تكشف لنا أيضاً عن التمسي الذي يتبعه جميع الناس الذين مكنهم الأمل من الفوز في نهاية المطاف بالنجاة. وأخيراً فإن الباب الذي سيفتح أمامهم قد تمت الإشارة إليه أعلاه باعتباره باباً يحبه أسقف "مبون" Hippone.

آراء بشأن الاعترافات

نشرع الترجمة الكاملة لاعترافات أوريليوس أوغستينوس بثلاثين صفحة متقدمة من كتاب الأستاذ بيار كورسال (Pierre Courcelle) المعروف بـ «أبحاث متعلقة باعترافات القديس أوغستينوس» (*Recherches sur les Confessions de Saint Augustin*)، E. de Boccard, Paris, 1950، بدأ في باريس سنة 1950، بدار «أ. دي بوكار» للنشر.

• أ) الصفحات 7 إلى 12 من المقدمة المعروفة بـ «نصف قرن من الجدال حول الاعترافات والحوارات»:

Un demi – siècle de controverses autour des Confessions et des Dialogues (p. 7 – 12).

• ب) الصفحات 29 إلى 40 من الفصل الأول المعروف «أوغستينوس وسيرته الذاتية»، *Augustin, biographe II - La valeur historique des Confessions* p. 29 – 40.

• ج) الصفحات 247 إلى 258 من الفصل السابع المعروف بـ «أحكام على الاعترافات»، *Jugements sur les Confessions* . *Comment Juger les confessions?* II, pp. 247 – 258.

• أ) «نصف قرن من الجدال حول الاعترافات والحوارات»

كثيراً ما تعود مترجمو سيرة القديس أوغستينوس أن يصفوا الطور الأول من حياته، ناسخين قصة الاعترافات. وكانوا يضيفون بعض الملحقات الجزئية المستمدة من حوارات «كتسيبياكيوم» (Cassiciacum). فـ «هرناك» (Harnack) كان أول من ظنَّ

ورأى، سنة 1888، أن أوغستينوس، لأسباب ذات صبغة لاهوتية، قد بسط قصبة تطوره وقدم اعتناقه للمسيحية في صورة ارتذاد فجئي عن حياته الماضية ذات الألوان القاتمة للغاية، مقارنة بحياة النعمة الإلهية. وفي نفس السنة، وفي فصل لامع ظهر في «مجلة العالمين» (*la Revue des Deux - Mondes*) طرح بواسي (Boissier) المسألة في نفس النطاق الذي صارت المجادلة تتطور فيه من بعد: كان يشدد فيه على الإزدواجية التي تلوح بين أوغستينوس «الاعترافات» المعتنق فيها للمسيحية، والمصروف بالنعمة الإلهية وأسير التدم على خطایاه الماضية، وأوغستينوس «الحوارات»، الأستاذ المشغوف بالثقافة العتيقة وبالمناقشات الغبية الهدامة هدوء حوارات «شيشرون» (*Cicéron*)، كما لو كانت المسيحية ذاتها ضربا من التفلسف: «وبما أن الشخصين مختلفان، هل نقدر أن نعلم من هو، من التائب أو الفيلسوف، الحقيقي فيه؟ لعله ينبغي أن نجيب أنهما حقيقيان في نفس الوقت. إذ كان القديس أوغستينوس آنذاك في أحد الأوقات التي يشعر فيها الإنسان، طبقاً القول الشاعر، بأنه يحتوي على عدة شخصيات». الحل رشيق، لكنه أشبه بحيلة. ولم يكن يرضي لأنصار الرأي التقليدي ولا ذوي الحس النقدي. فهو لا يبحثون في تحليلاتهم عما يفصل الاعترافات عن الحوارات، ويعطون الحوارات قيمة تاريخية أعلى، بسبب كونها معاصرة للأحداث. فـ«شميد» (*Schmid*) ييرز كيف أن أسباب التحول المزعومة ليست تماماً عينها في الحوارات كما في الاعترافات. أما «فردون» (*Gourdon*) فيذهب إلى أبعد من ذلك ويتساءل: «هل القصة الصادقة التي يعطيها أوغستينوس عن اعتناقه المسيحية تامة الصدق؟» فهو لا يؤمن فيها بشيء. بل إن ما يعده في الاعترافات اعتناقاً للكاثوليكية حدث سنة 386، ليس - حسب رأيه - إلا تطوراً نحو الأفلاطونية المتأخرة، وبالتالي اختياراً للزهد نمطاً في العيش، وبعد خمس سنين فقط، وفي الوقت الذي نصب فيه أوغستينوس قسراً، قد يكون اعتنق الكاثوليكية، بسبب واجبات قسوته.

وفي نفس الاتجاه يشدد «شيل» (*Scheel*) و«بيكر» (*Becker*) و«ثيم» (*Thimme*) على أفلاطونية أوغستينوس المتأخرة وعلى بطء تطوره نحو المسيحية. فأوغستينوس حسب رأيهم، لا يبحث بعد، في «كسيسياكوم»، إلا عن تجاوز الإرتياحية وعن الاتجاه نحو دراسة العالم المعقول، أما خلوته فلم يكن الغرض منها التهيز للتعميد؛ إذ هو لم يكتشف مذهبة في الخطية والنعمة الإلهية ولم يصفه إلا في إفريقيا. أما أكبر جهد نقدي فقد سعى إليه «ألفاريك» (*Alfaric*): فبعد أن بين كيف أن أوغستينوس قد كان

مانويًا للغاية، اعتبر أن الاعترافات غير نزيهة في ما يتصل بالوثبات العقلية وبالوثبات الأخلاقية؛ فهو يقول إن أوغستينوس يسعى لبظاهر في مظهر المسيحي حتى قبل اكتشاف الأفلاطونية المتأخرة، وليرز تطوره الأخلاقي كأنه تحول للإرادة تحت تأثير الرّهد المسيحي، وفي ذلك قلبٌ لترتيب الأحداث: «اعتمد أوغستينوس إذن الأفلاطونية قبل أن يبني اتسابه إلى المسيحية، ولم ينضو تحت هذا اللواء إلا بعد أن اعتبره - مع التمجيص - مطابقاً للأخر... وحتى فيما بعد، فقد تمسّك، لبعض الوقت، بمذهب «بلوتين» أكثر مما تمسّك بالعقيدة الكاثوليكية». خلاصة هذا التحليل الدقيق قطعية: «إذن أخلاقياً وعقلياً قد اعتقدت الأفلاطونية المتأخرة عوضاً عن الإنجيل».

أثار هذا المؤلف العظيم ردود فعل حادة؛ فمن جملة التقارير المهمة جدّاً نسجل ما أتى به «لوazi» (Loisy) و«جلسون» (Gilson). فالثاني يشير إلى أنّ بلوتينية أوغستينوس تمثل صيغة متغيرة جدّاً في اتجاه المسيحية، يقول: «الحقيقة الوحيدة في كون أوغستينوس قد قبل منذ البداية خلق الأشخاص الإلهية ومساواتها، تكفي أن تثبت أنه كان لنّه كاثوليكيًا، لا بلوتينياً». ويبدو لوazi أكثر تحفظاً منه، يقول: فـ«الحقيقة هي بالعكس أن أوغستينوس»، في ذلك التاريخ، كان قد تعمّد، وأنه يُعتبر مسيحيّاً منذ ذلك الوقت... فكتب كتسيباً كوم والفترّة الخاصة بالأفلاطونية المتأخرة لا تمثل كلّ حياة أوغستينوس الداخلية، أو ليست مؤهلاً لتمثيلها... ولا تمّس إلا عرضاً بواقع اعتناق المسيحية، ولا تمكّن من التثبت، على افتراض أن يكون مثل هذا التثبت ضروريّاً، من قصة الاعترافات».

عدة مؤلفات منشورة في ذلك التاريخ تقريباً، تبرز كذلك رد فعل يشي بالاتجاه المحافظ. وذلك شأن عرض «هول» (Holl) أمام مجمع برلين. وشدد الأب «بوافي» (Boyer) أيضاً على التأثيرات المسيحية التي تأثر بها أوغستينوس طوال حياته كلّها، فقد تكون أفلاطونيته المتأخرة بقيت دوماً خاضعة لمسيحيته: «فقد وجد إيمان مونيكا قبل أن يقرأ بلوتين». وثابر «نورغارد» (Nørregaard) على تحديد ما يمكن أن يتراءى، عبر الحوارات، من فكر أوغستينوس المسيحي، وعبر الاعترافات من فكر المتسم بالأفلاطونية المتأخرة، ويستخلص، إن كانت قراءة تابعي الأفلاطونية المتأخرة حاسمة من الوجهة النظرية، أن عزيمة جنان ميلانو كانت حاسمة من الوجهات النفسية والعملية والدينية؛ على كلّ حال، «يكون بعد الاعترافات مضبوطاً».

هذه الآراء المؤيدة للإعترافات لم تمنع الترعة النقدية من التأكيد أكثر فأكثر. فانتهى

الأمر بـ«ووندت» (Wundt) إلى أن يفكك اعتناق أوغستينوس المزعوم للمسيحية إلى أربع فترات منفصلة: فعلاوة على قراءته لـ«هرطسيوس» (Hortensius)، وقراءة تابعي الأفلاطونية المتأخرة، ومشهد جنان ميلانو؛ وقد تكون مرحلة حاسمة في بداية 391 تاريخ تنصيبه قسًا؛ قد يكون إذن تضاد عنيف بين كتب 386/390 المشبعة كلّ الإشاع بالأفلاطونية المتأخرة، وكتب السنين اللاحقة، المضادة للفلسفة والمرتكزة أصلًا على مذهب الحواري «باولوس» (Paulus) الداعي إلى التوبة بواسطة النعمة الإلهية.

هذه الأطروحة كان سيهاجمها من قريب «دُرِّيز» (Dörries)، تبعاً لدراسة مفضلة عن الدين الحق (De uera religione). وأخيراً، وبعد أن شددت الراهبة «غررواي» (Garvey) في مقالة لها سنة 1939، على التضاد الذي يوجد بين الأفلاطونية المتأخرة والمسيحية في أصولهما المذهبية، لم تتردد في التأكيد على كون أوغستينوس قد اختار الثانية.

ولا يسعنا البة أن نعتبر أن اتفاقاً قد حصل مع مرور الوقت. أفلم يشهر «بيغانيول» (Piganiol) منذ زمن قريب، «بالتشويه البياني وبالنفاق» في الاعترافات؟ وبشأن «مازو» (Marrou)، ألم يتحدّى أياً كان أن يبين كيف مرّ أوغستينوس من الأفلاطونية المتأخرة إلى عقيدة كاثوليكية أمنّ فأمن؟ العرض الشديد الاقتضاب الذي سبق يمكننا فقط من استخلاص بعض الخطوط العريضة.

هناك عائلتان فكريتان متضادتان في خصوص الاعترافات: من ناحية نزعة نقدية دوماً أكثر جرأة، ومن ناحية أخرى نزعة محافظة متجددة منذ 1920. ولا أنوي البة أن أحذّر قبلتا إحدى الهيئتين، بل أن أعطي بعض الملاحظات المتعلقة بالمنهج، إذ صفت الدراسات، عادة، حسب منهج التاريخ المذهبي، عوض أن تكون حسب منهج التحليل «الفيلولوجي» للنصوص. فالمحافظون قد شددوا على العناصر المسيحية، ولو داخل الحوارات، وشدد الناقدون على عناصر الأفلاطونية المتأخرة، ولو داخل الاعترافات. فالمجادلة تمسّ تارة الأساسية الرّمتية للمسيحية أو للأفلاطونية المتأخرة في فكر أوغستينوس، وطوراً أهميتها النسبتين: هل ينبغي أن نرى، في مؤلف ما، «لا أفلاطونية متأخرة مطلية بال المسيحية، بل بالعكس مسيحية مطلية بالأفلاطونية المتأخرة؟» بعد أن تتوضع المسألة هكذا، يكون من المحتم أن يبقى نصيب التقييم الوجданى عظيماً في الإجابة التي يعطيها المرء. ولو افترضنا أن يكون المعاصرون

متفقين على المعيار الذي يتعزّفون به على الأصلي والهامشي، فهل سيقبله لا محالة إنسان عاش في آخر القرن الرابع؟

هناك سبب آخر في سوء التفاهم خاصًّا بمنطق اعتناق المسيحية: فالأولون مستعدون كل الاستعداد لقبول إمكان الفعل الفجعي، والآخرون لا يرون إلا تطوراً بطيناً وتدربيجيّاً؛ فهكذا يبدو مشهد جنان ميلانو محتملاً للأولين، مفتاعلاً للآخرين. والإشكال زيادة على ذلك هو في أن نعرف، ضمن سلسلتين من الوثائق لا تتطابق تماماً فيها الواحدة مع الأخرى الحوارات والاعترافات، ما هي السلسلة التي تعطي أكبر مصداقية؟ فالأولون يميلون قبلًا إلى السلسلة الأقرب من الأحداث، والآخرون إلى الاعترافات كجنس أدبي أكثر نزاهة وقراراً في الضمير. ختاماً، وبالخصوص، يتوقف الجدل على كون الفريقين يعتبران من قبيل القطبين المنفصلين، الحكمة اليونانية الصادرة عن الأفلاطونية المتأخرة من ناحية، ومن ناحية أخرى حكمة الإنجيل اليهودية المسيحية. فالمحاولة تكون آنذاك لتحديد القطب الذي يتعلق به أوغسطينوس سنة 386. لكنَّ التضاد بين الهلгиّة والمسيحيّة أليس هو بالخصوص رأيًا للمحدثين؟ ولو افترضنا، في الوسط الذي كان أوغسطينوس يتردد عليه في ذلك التاريخ، أنَّ هذا التضاد لم يكن شيئاً محسوساً، أفلًا فقد المناقشة عينها كلَّ أساس؟

الغرض من هذه الدراسة الخاصة بالاعترافات ليس الإتيان بحلٍّ لمجادلة دامت نصف قرن، بل الخروج من المسالك الضيقة المستطرة. إذ يبدو أنَّ الأولون في حصر نصيب الألهوت ونصيب السيرة الذاتية في الاعترافات وفي وصف آلية استعادة الذكريات وفي تغيير درجة الحسن التاريخي عند أوغسطينوس بعد ذلك، وبهذا سنقدر على إعداد برنامج أبحاث «فيلولوجية» وتاريخية أدبية مطبق على هذا النص. بالطبع لن يكون التعليق على الاعترافات متواصلاً، وبالنسبة إلى عديد الفترات التي لا نمتلك عنها إلا وثيقة واحدة، لا تستطيع الفيلولوجيا أن تسلط عليها أي نور. وعلى العكس فعديد النصوص غير التي هي في الحوارات أو الاعترافات، يجب أن تضاف إلى الجدل. والنقطة الوحيدة المعمرة ستكون تلك التي يبدو أنه يمكن أن تكشف نتيجة جديدة تقلُّ فيها قابلية التنازع بفضل مقارنة النصوص. ينبغي أن نأمل على الأقل، عندما ستنتقل المسألة من المستوى المذهبي إلى المستوى «الفيلولوجي»، ألا تجد أحکام المؤلف المسبقة والوج다ية من الحرية ما تريده القيام به.

• ب) «قيمة الاعترافات التاريخية».

الصورة اللاهوتية ليست مع ذلك، في الكتب التسعة الأولى، إلا تأويلاً للواقع التاريخي. فقد رأينا أوغستينوس، مرّة بعد مرّة، يتّيقن من تلك الإزدواجية في مؤلّفه: إذ الإرقاء إلى الإله لا يقع إلا بخصوص الأحداث المسرودة للبشر. ومع ذلك، نستطيع أن نحدّد من يسمّيهم أوغستينوس بـ«الروحيانين» الذين يرسل إليهم جزء المؤلّف الخاص بالسيرة الذاتية.

خلال صافنة 395، كان «أليبيوس» (Alypius) أسقف «تاجاسته» (Thagaste) وصديق أوغستينوس الحميم، قد كاتب، دون سابق معرفة، «بولين» (Paulin) «المعتنى» الشهير للزّهد، بمناسبة استقراره ببلدة «نولة» (Nole) حيث أنسس منذ زمن قريب طائفة دينية. وفي تلك الرسالة كان «أليبيوس» يشير إلى كونه، منذ الوقت الذي كان يتلقّى فيه تلقين الدين المسيحي بغية التعميد، قد سمع الثناء على خصال بولين؛ وكان يعرب بقوّة عن عواطف صداقته المسيحية تجاهه، وأرسل إليه خمسة كتب من كتب أوغستينوس ضدّ المانويين (les Manichéens). وكان يعتبر عن رغبته في الحصول على نسخة من «تاريخ كلّ الأزمان» لأوزيب قيصرية (Eusèbe de Césarée). وفي الخريف أجابه «بولين»: كان أرسل إلى «أخبار أوزيب»، لكنه رجا «أليبيوس»، مقابل ذلك، إلى أن يكتب كامل تاريخ حياته الخاصة (أي كامل تاريخ قداسته) (omnem tuae sanctitatis historiam = toute l'histoire de votre sainteté)، وأن يرسله إليه. فهي إذن سيرة ذاتية كاملة يطالبه بها، ولو أنه كان يهتمّ بصورة أخصّ بتاريخ نزعته للزّهد، بتعّده وبقساسته. وبما أنّ «أليبيوس» قد لُقّن العقيدة بميلانو، أفلم يشارك «أمبرواز» (Ambroise) في تعميد أليبيوس وقساسته، كما كان له تأثير كبير في «اعتناق» بولين للمسيحية؟ لقد كان ناسك بلدة نولة يرغب بحقّ في أن يعرف «كلّ المعرفة» أليبيوس («حتّى أعرّفك من كلّ جهة») (ut omni parte te nouerim) (= pour vous connaître de tout côté).

ضاعت الإجابة التي أجاب بها «أليبيوس» عن هذا المطلب، لكننا نعلم ما كانت عليه عواطفه، لقد كان يريد أن يقدر على تلبية رغبة بولين، غير أنّ الحياة يمنعه من ذلك: فلو ألف مثل هذا المؤلّف، أقلّن يتهمه الكثير من القراء بكونه تحدث عن نفسه للتباكي؟ إذن سيرسل المطلب إلى أوغستينوس، الإنسان الذي لا يعرف أحد في الدنيا أحسن منه تاریخه، بما أنه كان قد شاركه في حياته.

ويقبل هذا الأخير المهمة ويرسم، طبقاً لرغبة بولين، «كلّ أليبيوس» (totum = tout Alypius)، محاولاً أن يظهر، عبر تقدمه الروحاني، نعمة الإله الدائمة. ويبلغ بولين الخبر (صافحة 396)، ولكنه لا يقدر أن يرسل إليه الكتيب توا، لأنّ الساعي «رومانيان» (Romanien) يجب عليه أن يذهب في الحال، دون أن يترقب الفراغ منه؛ وفي نفس الرسالة، يشكر أوغستينوس بولين الذي بدأ أيضاً في عقد صلات مراسلة وودودة معه: «رسالتك تهديك إلينا كي نتعرف عليك، كما تحثنا على البحث عنك»، ومن ناحيته، فهو مستعد ليهب نفسه: «أهديك نفسى برمتها... حذار أن تصدق كلام الإطاء الذي قد يقوله عني حامل هذه الرسالة، إذ هو صديقي الحميم».

وبعد مرور بضعة أشهر، وبعد أن تلقى رسالة أخرى من بولين، يبرز أنه استخبر عنه، بعناية فائقة جداً، لدى المبعوثين؛ كلّ واحد من المتراسلين يأسف لكونهما لم يتقابلما قطّ، إذ إنّ واجبات مهمتيهما تمنعهما من أن يزور الواحد الآخر؛ فكلّا هما حريص على أن يهب نفسه للأخر، وراغب في أن يتعرف عليه كلّيَا.

بقية المراسلة قد ضاعت، إلا أن سيرة أليبيوس الذاتية قد أعيد استعمالها في الاعترافات. ثمة ما يدعونا إلى الظنّ أنّ بولين الذي كان قد استمتع بهذا الكتيب، حتّى أوغستينوس على أن يسرد على نحو متواصل تاريخ حياته واعتنقه المسيحية وقساسته، وهي أحداث عميقه الإندماج في تاريخ أليبيوس. وعندما يذكر أوغستينوس «الروحانين» الذين قد يتسمون بودّ، وهم يعلمون الفضلالات الغريبة التي وقع هو فيها في شبابه، فهو يتذكّر حقاً خاصة بولين. إذن ليس للإعترافات هدف لاهوتية فحسب، بل إنّ تركيبة الكتب التسعة الأولى موجهة فيها لإبراز التاريخ الحقيقي لحياة صاحبها؛ والنقد التاريخي قادر على أن ينطبق انطباقاً مفيداً على تلك القصص، بقدر ما هي تعكس ذكريات أوغستينوس.

الواقع أنّ الإعتراف اللاهوتي غالباً ما هو حلّيف لتذكّر حدث محظوظ، فالقصة البسيطة للأحداث العائدة إلى الذاكرة هي في حد ذاتها اعتراف. وأوغستينوس أول من يميّز ما هو تذكّر مما ليس تذكّراً. فالكتاب الأول، في أغلبه، غير قائم على الذكريات، إذ الأمر يدور فيه حول الطفولة (infantia = l'enfance)؛ ومحظّ القول فيه هو: «لا تذكّر». ويشدد أوغستينوس بعناية على كونه لا يتذكّر لا حياته السابقة لمجيئه إلى هذه الدنيا ولا حياته في رحم أمّه ولا اللبن الذي شربه وهو رضيع ولا ابتساماته الأولى ولا دموعه الأولى. في كل هذه النقاط، هو مضطّر لإعادة تركيب حياته بواسطة الحدس، وبمراقبة

شهادات معايني طفولته الثراثرين بمشاهدة الرضيع المباشرة. وتبدي له هذه المعاينة أن الرضيع غلامة محض؛ فأخواه الرضاع مثلاً يتنازعان حسداً ثدي مرضعتهما. هكذا تكون حياة الرضيع، في نفس الوقت خطيرة وظلمات نسيان. ويحدس أوغستينوس أيضاً في طريقة تحصيل الطفل استعمال الألفاظ، إلا أن حياة الطفل قادر على التكلم (في الصبي *Pueritia = l'enfance*) تركت بعض البقايا في ذاكراته؛ ففي الواقع، يرسم عن حياة التلميذ لوحه لا تزال اتفاقية جداً، دون أي إشارة إلى تذكر خاص، ويوضح فقط أنه ما استطاع قط أن يقول لم كان يكره دراسة اليونانية.

والكتاب الثاني يتجلّى تأملاً يستعيد أخطاء سن المراهقة التي تحافظ عليها ذاكرته. وفي خصوص تلك الفترة، كانت ذكرياته بعيدة، فقد حفظ منها فقط ما كانت نصائح أمّه غداة بلوغه، وقلة الاعتبار الذي خصّها به. ويذكر بوضوح أيضاً ما كانت مشاعره زمان سرقة الإجاص: فقد شعر بإثارة خاصة لارتكابها، فبقيت الذكري حية في نفسه. غير أنه مضطر للحدس في خصوص الدوافع التي من أجلها كان والداه، كلاماً على حدة، يهتمان أكثر بتنشئته الخطابية منها بتربية الأخلاقية، فلم يعد يدرِّي دراية صحيحة ما كانت عقليته، عندما قصَّت عليه أمّه الحلم الذي رأته خلاله واقفاً على مسطرة خشبية؛ ينبغي عليه، في هذه النقطة، أن يعود إلى تصريحات سابقة كان قام بها وأن يعترف بكونه نسي كثيراً من أحداث تلك الفترة، ويكونه يُعرض قصداً عن أحداث كثيرة أخرى، وإن تذكر، بصورة جيدة للغاية، العبارات التي صدرت في خصوصه عن قسٍ، فلأنَّ مونيكا قد ردّتها عليه كثيراً منذ ذلك الوقت.

في الكتاب الرابع، حاول أوغستينوس أن يتذكر، من عطفات ضلالاته الماضية وسط الطائفـة المانوية، كما لو كانت ضلالات حديثه العهد. سنلاحظ أنه بقى، في الواقع، غامضاً جداً في ما يخصّ حركته بالذات بين إنجوته في الدين؛ وهو يمسك عمداً عن وصفها، بينما يروي بالتفصيل، في مؤلفات أخرى، الكثير من الذكريات الشخصية عن تلك الفترة. يذكر بالعكس كم كان عنيفارة فعله تجاه العروض التفعية لمنجم كان يدعى بجعله، بالسحر، يفوز بالجائزة في مناظرة درامية؛ هو متأنِّد أيضاً من عقائمه الخاصة للغاية، المكرنة في الآن نفسه من اشتياز من العيش ومن خشية الموت، والتي كانت له زمن موته صديق عزيز عليه منذ عهد الشباب. لكنه لم يعد قادراً على أن يقول هل إنَّ مؤلفه الأول: «في الجميل وفي المناسب» (*Du beau et du convenable*) الذي أضاعه منذ زمن طويل، كان في جزئين أم في ثلاثة أجزاء. كما أنه ليس متحققاً بجد.

من الإنطباط الذي تركته في نفسه أولى مقابلة له مع فاوستوس ميلاف (Faustus de Milève).

إن الذاكرة يفترض أنها تلعب دوراً كبيراً في اعتناق الناس للدين المسيحي، سواء أكان هذا لأبيوس أم لأوغستينوس. فهذا الأخير يخصص، بالفعل، عديد الكتب للقصة المفصلة لاعتناق المسيحية، وهو في نظره قمة سيرته الذاتية، لكن حتى في المشاهد الأكثر بروزاً، فكثيراً من الجزئيات لا تحضره: فلا يتذكر بعد لم كان نبريديوس (Nebridius) غائباً يوم زيارة بونتيسانوس (Pontitianus) ولا دوافع حركاته وسكناته في زمن مشهد جنان ميلانو ولا الإجابة التي رد بها على أمه بمدينة أستيا (Ostie). فهو يرتكب من جديد بعض العجزيات بالحدس، مثل الدافع الذي من أجله لم يصاحب أبيوس تحت شجرة التين. أمر عجيب! فأوغستينوس، عندما يصل إلى الإقامة في كتسيسياكوم، عوض أن يحصي الخيرات الإلهية التي غمر بها، يلتجأ إلى التعريض: فهو يسرع ليمر إلى مواضع أكبر، وإن قال بعض الكلمات في العمل الداخلي الذي كان يدور آنذاك في نفسه، فكانه مرغماً، لأن حافظته تذكره به قهراً: الحدث المحدد الوحيد الذي يُذكّر هزيل جداً: ألم الأستان الذي شُفِيَ منه فجأة. فهل خاف أوغستينوس أن يكون هذا الجزء مزدوج الاستعمال بالنسبة إلى ما قيل في «الحوارات»؟ لكن بصورة ربما كان من السهل عليه - وصالحاً لنواياء، لو فكرنا في الاعتراضات التي كان للتقدumi العصري أن يوجهها إليه - أن يكشف هنا عن الخلافية التي تعرف بتلك الحوارات على الطريقة الشيشرونية: لا بتاتاً المناقشات الفلسفية المهدبة تهذيباً عامراً، بل أوجه التقدّم الداخلي، الدينية تحديداً، لكل واحد من المتجلّورين. فهو يقتصر على بعض صفحات من التعليق المنوار على المثانوية على الزبور الرابع (Psaume IV).

كنت قد فسرت الأسباب الحقيقة لتلك العجلة: يذكّر بكلّ أنواع الذكريات، خلطها ملطاً، كما تأته، دون انشغال بالتسليسل التاريخي، وغالباً ما يكون لسدّ ثغرة بارزة جداً في القصة السابقة. فدون أن يتوقف مليتا ولو على زمان تعيمده وعلى أشهر إقامته بميلانو التي تلته، يمر إلى المشهد الأساسي الذي سيختتم به كتب سيرته الذاتية التسعة: قصة جذب أوستيا (l'extase d'Ostie) وموت أمه، إلا أنه، وإن عاد طويلاً إلى ماضي مونيكا، فهو، على ما أظن، يعيد استعمالاً يكاد يكون حرفيّاً لكتيب حرر متبقاً عن حياة أمه.

ومن المدهش أن نلاحظ، في خاتمة تلك الكتب التسعة القائمة على السرد التاريخي والمتركزة على الذكريات، أن أوغستينوس ذاته واع جداً بمنهجه وأنه يطلعنا عليه: «...أستدعي من تلك الصور ما أريد أن يحضرني، يأتي بعضها في الحال، وبعضها أترقبه مدة أطول، وكأنه انتزع من أماكن أكثر عزلة وخفاء، أما بعضها الآخر فيندفع حشوداً، وبينما نطلب غيرها ونبحث عنها تقفز إلى الصف الأول، وكأنها تقول: «العله دورنا نحن...؟»، وأطربها يبد قلبي من محيا ذاكرتي حتى تخرج الصورة التي أريدها من السحاب وتأتي أمام عيني من أعماق مخبئها (ex abditis = du fond de sa cachette). وبعضها يتقدم، حالما يستدعي بكل يسر وفي صفوف منتظمة، ويترك السابق منها المكان للأحق، وفيما هي تفسح لها المجال، تصطف جانبًا حتى تتقدم ثانية ياذن مني. فذاك كل ما يحدث، عندما أروي شيئاً ما تذكر». (١)

يحدد هكذا، تبعاً لخبرته الشخصية، كيفية استعادة الذكريات، وبحثه عن الذكريات المنسية أو شبه المنسية، وجهده حتى يسترّ أقصى الذقة، والفرز اللازم للذكريات التي تنصب عليه، وتارة ظهورها في صفوف متكونة، يدعو فيها الواحد الآخر، حسب نظام معاكس للنظام التاريخي.

ينبغي الاعتراف لأوغستينوس باهتمام بالمنهج وببعض صفات المؤرخ في ترتيب تلك الذكريات وتقديمها.

نحتاج أولاً من التعبير الذي يمدّها به، إذ المؤرخون القدماء لم يكونوا يتورّعون البة من أن ينسبوا إلى الشخصيات التاريخية خطابات لم تكن في الواقع إلا إعادة حدسيّة للتركيب أو إيداعاً فنياً. ويُخضع أوغستينوس للعادة، لكنه لا يخلو من التورّع. فهو يُبّه إلى أن الأقوال التي يرويها، وكأنه تفوّه بها أمام أصدقائه عند ملاقاة متسول سكران في طريق بميلانو، أقوال تقربيّة، وكذلك، مشهد الجنان، فالخطاب الذي يرسم حدّيشه الباطني أو الخطاب الموجه لأليوس - وفي مشهد أوستيا الكلام بينه وبين مونيكا - لم يكن يطمح فيه إلى الدقة الناتمة.

ويتمتع أيضاً من نزعته الشخصية للتعبير عن الماضي، كما لو كان هو دوماً كاثوليكتا، وإن قارب تحريره هرطنسيوس (Hortensius) على تحاشي الفلسفة المزورين،

(١) انظر في الكتاب العاشر من الاعترافات: X، 8، 12، 10 بالصفحة 248 من الجزء الثاني من كتاب دي لا بريول المذكور، وترجمتنا العربية لهذه الفقرة، الكتاب العاشر، ص 307.

بتحريض مشابه في الرسالة الموجهة للكولستيين (*Epître aux Colossiens*)، ويدق ذلك مضيفاً أنه في الفترة التي قرأ فيها مؤلف شيشرون، كان يجهل بعد كتابات القديس بول. عندما يصف الكتاب المقدس بكونه عصي الفهم على المتكبرين، ويعدّل فيقول: «ما قلت منذ قليل غير مناسب مع الشعور الذي شعرت به زمن تلك الدراسة الأولى. فهذا الكتاب خلْتُهُ غير جدير بأن يقارن بجلالة شيشرون». عندما يصرّح أوغسطينوس بأنّ بعض المذاهب المسيحية المتعلقة بالكلمة الإلهية توجد عند بلوتين (*Plotin*)، يدقّق أنّ التعبير عن هذه المذاهب مختلف مع ذلك، في الكتب المقدسة، عمّا هو في *الإناءات* (*Ennéades*) أو التساعيات.

ويصفة عامة، يثابر على تمييز الحاضر من الماضي، وعلى مختلف فترات تطوره. والأسقف الذي كانت مونيكا التمست منه أن يتناقش مع أوغسطينوس ليبعده عن المانوية رفض ذلك «بحصافة تامة، كما فهمتها من بعد»؛ بتلك الكلمات، يتركنا أوغسطينوس نفهم أنه، في الحين، رأى في ذلك تهرباً من الأسف العاجز عن مجادلة الخطيب البارع الذي هو أوغسطينوس، عندما يذكر باشمئزازه من العيش الذي تركه فيه فقدانه لصديق مات حالما تعمد، ويحكم على تلك المراارة بأنها مرّجة، غير أنه يلاحظ أنه، مع ذلك، قد شعر بها. وإن أشار إلى عقيدة الخلاص (*Rédemption*)، أو إلى المذهب الذي لا يكون الشّرّ بمقدّسه جوهراً، فهو يشدّد قائلاً: «آنذاك لم أكن أعرف هذا». وتبيّن أوجه تقدّم فكره الشخصي في خصوص الأكاديميين: اتضّح له، في وقت ما، أنّ مذهب الأكاديميين ليس هو الذي يعزى إليهم عادة. ففي وقت ما، كان أوغسطينوس يخشى أن يعتقد أنّ المسيح متوجّس، لأن اللّحم رجس وتصوّر مثير للسخرية، «الكتني كنت مع ذلك هكذا».

هذا الاستقصاء السريع ييدي بجلاء حالة ذكريات أوغسطينوس في الوقت الذي كان يحرّرها فيه بالقلم، والقيمة النسبية لمختلف روایاته. فكمال الجزء الخاص بالطفولة (*infantia = enfance*) مجرّد من آية صبغة تاريخية، إذ أقدم الذكريات أقلّها دقة، إلّا بالنسبة إلى بعض الأحوال النفسانية ذات الحدة الكبيرة: كفرحة بالإساءة عند سرقة الإخلاص، وغضبه من عروض المنجم، وإحباطه زمان موت أعزّ صديق له. وفي خصوص إقامته بميلانو، تصبح ذكرياته كأدّق ما تكون، كما هو طبيعي بالنسبة إلى فترة أساسية من حياته؛ لكنه، حتى عندما يصف مشهداً بكل تنوء ممكّن، يعلن بصدق أن بعضجزيئات غابت عنه، فهو يجدّ في الأمانة التاريخية مستدركاً، عندما تمثل إحدى

عباراته تفكيره الحالي، لا تفكيره القديم، فتحن بحق أمام مؤلف تاريخي ذي قيمة، لا فقط أمام عرض لأطروحة لاهوتية.

• كيف نحكم على الاعترافات؟

أثارت الاعترافات الكثير من الانتقادات، في السابق وفي أيامنا هذه أيضاً. فكما رأينا، ليست نزعة المحدثين الإمساك عن التجوء إلى شهادتها ضد أوغستينوس، بل التقى من تلك الشهادة مقابل شهادة الحوارات. فإن كان للمؤلف الحالي منفائدة، فستكون في استعمال النصوص الخاصة بالسيرة الذاتية غير الاعترافات والحوارات، ومن ذلك، في قلب معطيات هذه المجادلة التي امتدت على نصف قرن، هذه النصوص، مهما يكن تاريخها، ينبغي حفّاً أن تؤخذ بعين الاعتبار، عندما نريد سد الثغرات وتعديل درجة المصداقية في الاعترافات.

فالكتاب هو، في البداية، سرد تاريخي: يرمي أوغستينوس منه إلى أن يطلع على حياته بولن نوله (*Paulin de Nole*) و«الرّوحانيين» الآخرين. وهذا السرد التاريخي مؤطر في مخطط لاهوتية أوسع، فلا يمثل، في تفكير أوغستينوس، إلا شبهة مقدمة لمجموع ضخم، فأوغستينوس - مهما يكن قد تخلى عمداً عن نهاية السيرة الذاتية ليتصدى بأكثر عجلة إلى عروض لاهوتية بحثة - لم يجد قط الفرصة السانحة لختيم ذلك المجموع. وبالفعل، على الرغم من إدماج عديد العروض ذات الطابع الغنائي أو المذهبية، فقصة سيرته الذاتية ترتكز على تذكر أحداث حقيقة، وهي من الأمانة بحيث أن الذكريات القديمة، ما عدا بعض الأفعال البارزة، تبدو كأنها اتحت من ذاكرته؛ فهو قد حاول أن يميز تاريخياً عقلياته المتالية ويصل إلى الذقة التاريخية، لا بواسطة توضيحات وهمية، بل بالإعتراف الأمين بشرفات في ذاكرته، ولو كان الأمر بالنسبة إلى المشاهد التي يخالها ذات قيمة أساسية.

قد لا يكون من العدل أن نظن أن يكون الهدف من الإسقاطات ومن الإغفالات ومن الأخطاء، لدى أوغستينوس الحقيقي، تغيير الصورة - في نهج معين ودوماً هو بذاته - لتطوره الحقيقي، فمقابلة الشهادات الهشة غالباً ما تمكّن من إعادة صياغة تسلسل الأفعال كما يجب أن يسجله مؤرخ لا يلجأ إلى العناية أو النعمة الإلهيتين ولا إلى آية رؤية لاهوتية أخرى.

فهذه الطريقة في النقد ترك مجالاً ضيقاً للغاية لطفولة أوغستينوس، فشخصيته لا تبدأ في البروز إلا مع فصل سرقة الإيجاص. وعلى العكس، ينير نصان، من مدينة

الإله (Cité de Dieu) نهج تطورات الكتاب الثالث من الاعترافات المناهضة للعرض المسرحية والعرض التي كان أوغسطينوس يفكّر فيها عندما كان يكتب تلك التطورات، وهي بالخصوص في التمثيل الإيماني والواقعي للغاية لملذات سيبال (Cybèle) وأتيس (Attis) الجنسيّة. ففي زمان مراهقته، شاهد تلك المشاهد باهتمام واندهاش ولذّة.

وقد بدأ مع ذلك في التجربة من الحياة الجنسانية، ما إن بلغ سنّ التاسعة عشرة، بقراءة الهرطسيوس. وهذا الحوار لم يلهمه فقط احتراماً مبدئياً للفلسفة النظرية، بل كان أساساً لتغيير حياته جذرّياً، إذ إنّ مناجيات نفسه تَرُدُّ لاكتشاف الهرطسيوس هذا تخلّيه عن عقلية الثراء، ومن بعد ذلك، عندما سيريد أوغسطينوس، المانوي أو الكاثوليكي، الحصول من مثقف ما، تلميذ أو صديق، تغييراً جذرّياً من نفس القبيل، فهو سيضع بين يديه الهرطسيوس، وسيلعب الدور الكلاسيكي الذي لعبه كسينوكرات (Xénocrate) عندما أوقع بولمون (Polémon) أسيراً للحكمة، وزيادة على ذلك، فليس الأمر في إهمال الثقافة الخطابية لفائدة الثقافة الفلسفية، لأنّ التضاد المألف، في الفترة التي تُوجّد فيها، بين صنفي الثقافة، لم يعد محسوساً في المدرسة.

ففقرة من الخطبة العاديّة والخمسين تُمكّننا من ضبط الكيفية التي يقوم عليها الانتقال من التحوّل الفلسفي إلى التحوّل المانوي. إنّ أوغسطينوس، المفتون بحياة الفكر، قد أراد أن يقيّم بنفسه أهميّة الشهادة المسيحية. فحالما فتح الأنجليل، وجد نفسه في مواجهة مسألة ازدواج أصل المسيح. والتفسير الوحيد الذي تراءى له كان ذلك الذي أوحى به إليه أحد المانزيين: ذلك التناقض بين الأصلين هو علامة على كون الفصول المتعلقة بالميلاد العذري للمسيح مدسوسّة، فاليس المسيح ليس إنساناً من لحم، بل هو كائن ملائكي ليس له من الجسم إلّا المظاهر. ومن هناك فصاعداً، كان التبشير المانوي يلتجّ صدره.

فلو رتبنا، حسب النظام الأكثر احتمالاً، الفقرات العديدة للسيرة الذاتية في تاليف أوغسطينوس المعارض للمانزيين، لظهرت أوجه التقدّم، ثم التقهّر للمانوية في فكره بيتّة جداً، بمقاطعتها مع معطيات الاعترافات، فبسبب استيائه من كون بعض السلطات الكاثوليكيّة قد نصّحته بالعدول عن دراسة الكتب المقدّسة، طالب أولاً، بأنّه، بحقّه في قرائتها وبالقيام بنفسه بنقدّها العقلاني، وشفى المانزيين غليه العقلانيّ مشيرين عليه بعديد الفقرات الأخرى المزعجة، ناسخين إياها بنظرائهم

الخاصة بالنصوص المدسوسة. وأوغستينوس الذي كان قد انفصل منذ مدة طويلة عن الكاثوليكية، بجنسانية المراهق، يبتعد الآن عنها بالذكاء. ويقدر أيضاً الود الذي يديه له المانويون؟ فيصبح بسرعة، لا فقط تابعاً، بل مناضلاً متحمساً لهم، يجعل الكثير من أقربائه، وأصدقائه، وتلاميذه يعتنقون مذهبها، ويناصر الطائفة في محاضرات متعارضة، ويحترم في ما يخصه، احتراماً كلياً، التحريريات التي تفرضها عليه درجته «منصتاً».

ينبغي إذن القول إن أوغستينوس قد انبهر بالمذهب، ولو أن بعض الصعوبات العقلية لم تزل في فكر المعتقد. والحمد للوحيد لاعتقاده هو أنه، بعد تسع سنين وأكثر، لم يزل غير قادر على أن يعتمد التفوه بالذور الخاصة «بالمختارين»، وكان لا يغيب العدول عن مسيرته، ولا يشعر أن له القوة ليلتزم بتقشف كامل، إذ إن حماسه الأول تبعته فترة من الركود أو نوع من الفتور، فالصعوبات العقلية بدأت تصير أكثر جدية، لأنه اتضحت أن رؤساء الطائفة الأكثر تخصصاً، عاجزون على حلها، فأوغستينوس ساخت على بعض نتائج الصبغة السرية للكنيسة المانوية، إذ هي مرغمة الآن على المزيد من الاحتياطات. كان يريد لو يرى حزם المختارين الذين يرتكبون خرقاً لقانون حياتهم، وأحياناً إخلالاً حقيقياً بالأداب العامة، إلا أن رؤساء الطائفة لا يتجررون على عقابهم بقسوة مخافة الوشایات.

يبقى تطور أوغستينوس داخلياً سرياً، ففي روما كان يحيا ويعمل دوماً بين المانويين، ولم يكن له إلا أن يرضي بمساعيهم الحميدة. وحافظ على عقلية وردود فعل مانوية حتى وصوله إلى ميلانو، حتى بعد أن أصبح ارتيايتا ثم كاثوليكتا؛ وكان في بداية إقامته بها، لا يزال يتصور أن فاوستوس ميلاف قد يستطيع أن يأتي لرفع شكوكه؛ وعندما أشار أمبرواز (Ambroise) عليه بأمر في خصوص مسألة الصوم، كان رد فعله الداخلي في عقلية الريبة من السلطة؛ ففي خلوته بكتسيساكوم، كان في الحياة السعيدة (De vita beata = De la vie heureuse) يلتفت إلى الماضي، ويعيّب على السلطات الكاثوليكية تحريرها قراءة الكتب المقدسة.

وموقف أوغستينوس، خلال ستة الأولى للتدريس بميلانو، جدير بأن توقف عنده، فتلك المدة هي التي سيمَر فيها من الشك الواقعي المانوي إلى الشك الواقعي الكاثوليكي. وفي فترة الانتظار كان ارتيايتا، ومتقرزاً، إلا أنه كان طموحاً أكثر من أي وقت مضى؛ فيما أنه عدل عن مشروع تحوله يوماً ما إلى منصب «مختار»، كان الدافع الرئيسي الذي يحرّكه هو اهتمامه بمسارك تير في التدريس، أو بالأحرى في الإدارة.

اغبط بكونه مدعواً، بسبب مهمته، لأن يلقي في غرة يناير 385، المدح الرسمي لبوطون (Bauton)، وفي 22 نوفمبر، مدح الإمبراطور الصغير «والتيينون» الثاني (Valentinien II)؛ فسعى إلى أن ينال إعجاب ذوي النفوذ في ذلك الوقت، دون أن يهتم بكون سياستهم، معادية للمانويتين أو الكاثوليكين؛ وطبع في زواج مفید. وبقى، مع ذلك، قابلاً للتقد الذاتي، عندما حدث تافه، كضحايا متسلٍ سكران ونزاهة حاجب باش، على أن يحاسب نفسه.

وبعض فقرات الاعترافات الفاسدة التأويل، غالباً ما جعلت الناس يعتقدون أن أوغستينوس كانت له علاقات شخصية حميمة تربطه بـ«أمبرواز»؛ أمّا في الواقع، فطيلة الستين الأوليين من إقامته بميلانو، وحتى مغادرته لها لكتسياكوم، انحصرت علاقاتهما في شيءٍ قليل جداً: زيارة مجاملة عند الوصول، ومسعى غير مكمل بالنجاح، لفائدة مونيكا، وتبادل بعض العبارات اللطيفة، لكنها مقتضبة، ودون أيّة صبغة سرية؛ ولو أنَّ الواقع الخاص لأوغستينوس، خلال المسعي المتعلق بمونيكا، كان منه رد فعل مانويآ محضاً، فيبدو أنه قد سهر، في اعترافاته، على السكوت عن هذه الواقع، وعلى إخفاء الضمانات (مع كونه يتهم نفسه بالطموح) التي أعطاها ربما، في مدائنه، لحكومة معادية للكاثوليكين.

هل ينبغي إذن، كما فعل البعض، أن نظن أنَّ التأثير المزعوم لأمبرواز على أوغستينوس، والمؤكد مراراً وتكراراً في الاعترافات، غشٌّ تقبي؟! التبيجة تبدو متأكدة، لو اعتربنا أمبرواز عدواً للفلاسفة، ولو عايَنا أنَّ أوغستينوس مولع، خلال سنة 386 بالأفلاطونيين المتأخرين. لكننا أبَقْتنا، بالعكس، في هذا العمل، بيقينا متركزاً على المقابلة بين النصوص، أنَّ بعض خطبات أمبرواز قد أثرت حقاً تأثيراً أساسياً في تفكير أوغستينوس، وعلى الأقل إبتداءً من أبريل 386.

ومن ناحية أخرى، فخطبتان من الهكزامرون (Hexameron)، الأولى تتعلق بحرية الاختيار، والأخرى بطبيعة الإله الأجدية، لأنهما كانتا تتعارضان رأساً مع الآراء المانوية التي كان أوغستينوس قد قبلها دوماً، أصابتها في الصميم؛ فقد فتحتا قليلاً أمامه الباب لعالم روحاني، لم يكن يخطر بباله؛ ويبدو أنه قد تعاطى، ابتداءً من ذلك الوقت، استقصاء شخصياً حول النفس البشرية، مهتماً بالأحلام، معايناً انساناً أصم أبكم.

ومن ناحية أخرى، فخطبته عن إسحاق أو النفس (De Isaac uel anima = Isaac)

(*De bono mortis = du bien de la mort*) (ou de l'âme) عن فضل الموت تستعملان صفحات كاملة من بلوتين؛ ففي خاتمة الخطبة الأولى تعليق، جملة بجملة، على الخلاصة الرائعة للمقالة في الجمال (*Sur le Beau*)؛ وهاتان الخطبتان تقدمان، في قرينة الإيصاء، بعد أن وقعت مراجعتها مراجعة دقيقة حسب أركان العقيدة الكاثوليكية، المبادئ الأساسية للتساعيات (*Ennéades*) حول الخير المطلق وأصل الشر وصعود النفس نحو الإله، وصولا إلى الجذب والوطن السماوي والتحرر الذي يمنحه موت الجسم، وحياة المتعين السرمدية. و«النشوة القنوعة» التي كان أمبرواز في خطبه يعلّمها لأوغستينوس، هي في الآن نفسه تلك التي يهبها الروح القدس، وتلك التي ينشئها التّرْحِيق المحبوب لدى الأفلاطونيين المتأخرين.

ولو كانت البراهين التي أثبت بها أن تاريخ ظهور تلك الخطب براهين قليلة التأكيد، لكن الواقع وحده، في أن أمبرواز ربما درس على العموم، مذاهب أصحابها البلوتيني لا يزال ملمسا من أول وهلة، واقعا منيرا بنور جديد مشكلة اعتناق أوغستينوس للمسيحية. أهو اعتناق للأفلاطونية الجديدة أم للمسيحية؟ أهو اعتناق للأفلاطونية المتأخرة مشوبة بال المسيحية، أم للمسيحية مشوبة بالأفلاطونية المتأخرة؟ «كيف يفسر تداخل العناصر المسيحية والأفلاطونية المتأخرة، الذي يُعاني، دون شك، عند اعتقاده للمسيحية؟ لا نستطيع، كما كان يقول يانسان (Janssen)، إلا أن نقدم افتراضات، بما أن مراجعنا بكلماء في هذا الموضوع». لكن الفحص العميق يبرز أنها ليست حقا بكلماء؛ ولذا تفقد المجادلة المتعلقة بالاعتناق مغزاها حالما نرى أمبرواز، وهو أسفف منذ اثنى عشر عاما، ولا مسيحي متذمّر من قريب، لا يتردد في مناداة رعایاه بالأطروحتين البلوتينية مندمجة في العقيدة المسيحية. ولا يسعنا إلا التّخمين في كونه يتبنّى حتى بعض الأطروحتين البورفيريانة!

فالأفلاطونية المتأخرة والمسيحية وثيقتا الصلة بالنسبة إلى الأدمة المفكرة في كنيسة ميلانو، وليس متضادتين، كما ظنه المحدثون، وهذه الصيغة التأليفية، والمركبة بعد، هي التي أعطاها أوغستينوس موافقته الكلية، وأصل ذلك التاليف الرائع يبدو أنه يرجع حقا إلى ماريوس وكتورينوس (*Marius Victorinus*) الذي كان قد عاشره سمبليسيان (*Simplicien*) معلم العقيدة المسيحية لأمبرواز، لكننا نجد أقل سهولة في تحديد كيف أن أوغستينوس أخذ يتقدّم في المذهب. والأمر المتأكّد هو أنه ما انبع بالدعوى للمسيحية ولا بالشجاعة السياسية لأمبرواز ولا بمعجزاته في جوان

386. فلا بد أن تطوره كان سريعا للغاية، أي نتيجة بضعة أشهر؛ وتتالي الأحداث ييدو أنه يجب أن يصاغ من جديد كما يلي، اعتمادا على أقل ما يمكن من الإفتراضات: فأوغستينوس، بعد أن سمع خطب أمبرواز البلوتينية، لعله شعر بإثارة عقلية شديدة؛ وأراد أن يتعرف على المراجع، فلربما اتصل، إثر نصيحة من أمبرواز، بفيلسوف ميلانو الكبير ثيودوروس (*Theodorus*)، وهو بلوتيني ومسحيٍّ معاً، وهذا الأخير خصه بعده محادثات حول النفس وأغاره كتب الأفلاطونيين (*libri Platoniconum* = *les livres des Platoniciens*)، فحالما قرأ أوغستينوس بعض تأليف التساعيات (*Ennéades*) شعر، وهو مرتע «الحريق لا يصدق»، بقدره على الارتفاع على الفور إلى التجلي، وهذه المحاولة المتتجددة مراراً عديدة انتهت بخفاقة مر، وفي اضطراب هائل. اتجه أوغستينوس آنذاك نحو سمبليسيان، معلم أمبرواز السابق للمسيحية، وهذا الأخير قارب أمامه بمنهجيته تامة التساعيات والذبيحة اليوحنية، مشتملاً على إضافات المسيحية بالذات؛ ونصحه بقراءة رسائل بول (*Epîtres de Paul*)؛ وكان يعتقد أن تلك القراءة ستفسر لأوغستينوس التباين الكلي الذي كان يلحظه بين رغباته الحادة في التجلي، وعجزه الجدرى في الوصول إليه. أمبرواز وثيودوروس وسمبليسيان، هؤلاء الرجال الثلاثة، رغم آنهم مختلفون كل الاختلاف، الواحد عن الآخر، عملوا في نفس الإتجاه وفي سعي مشترك على تطوير فكر أوغستينوس. وهذا التطوير فلسفى ودينى معًا. إذ إن خطب أمبرواز قد جعلته يكتشف وجود بلوتينية مسيحية تضاد روحانيتها المعتقدات المانوية، ولكنها تتفق مع العقيدة الكاثوليكية. فالفيلسوف ثيودوروس علمه بصورة أعمق المذاهب الأفلاطونية المتأخرة، ومدّه بالكثير من مؤلفات بلوتين. والقس سمبليسيان ختم ذلك التكريم العقلى الجديد بتصفيية معطيات الأفلاطونية المتأخرة على ضوء الكتب المقدسة. زُد على ذلك أن ثيودوروس قد قاد، بمثاله، أوغستينوس إلى حد الرغبة الأكثر حرارة في الخلوة الفلسفية (*l'otium*)، وسمبليسيان قد عجل باعتماده لأخلاقيته الجديدة، فوهبه وكتورينوس مثلاً يحتذى، وحثه على العمل من أجل الإنخراط في الكنيسة، وبقداسته الزهدية، أوصله إلى القرار الذي به أعاد النظر في سيرته.

فستانلاحظ أنَّ أوغستينوس، في الاعترافات، إما لغاية مقررة، أو بسبب سهولة العرض، يوضح بوضوح مخفيات مختلفة هذه التأثيرات المختلفة: في شخص أمبرواز وحده يفضل تهيئة ثورته العقلية؛ ويقتصر أكثر ما يمكن من عمل ثيودوروس، إلى حد

السکوت عن اسمه، ولا يذكر من سبليسيان إلا تأثيره الأخلاقي، وال الحال أن التأثير الثقافي لم يكن أقلّ عمقاً، كما تشهد بذلك بضعة أسطر ثمينة من مدينة الإله (Cité de Dieu)، وهو ما حمى أوغستينوس من أن يتبه في اتجاه البلوتينية الممحضة، وجعله ينهر بخشوع المسيح المتجسد.

ولنا بضع علامات عن الاهتمام الذي أظهره أوغستينوس، وعن المغزى الذي علقه على الكثير من الآيات (المذكورة) في الرسالة إلى الرومان (Epître aux Romains) عند قراءتها. لماذا كان عليه، في نصف الطريق، أن يأخذ القرار بالاستقالة وبالابتعاد عن الدنيا في خلوة دراسية؟ ليس ذلك إلا نتيجة إرادة ضعيفة قديمة، حيث أنه كان قد تمنى بعد مثل هذا المشروع، رفقة المانوي رومانيان (Romanien) وخلين آخرين؛ فالواسط المانوي بروما كانت، في نفس التاريخ، تنجح مثل هذا المقصد. فمنذ أن شغف بالأفلاطونيين المتأخرین، لا غرو أن تكون فكرة الاقداء بيلوتين، صاحب المدينة الأفلاطونية (la Platonopolis = la cité platonicienne de Plotin)، تتردد عليه من جديد، أو بشيودوروس، الأقرب منه، والذي كان قد استقال من مهامه لينعزل للحياة الفلسفية في ريف ميلانو؛ إذ إن أزمة الريبو العنيفة التي كان أوغستينوس آنذاك يعاني منها تجعله لعمري قليل التأهل للتدریس. لذا فمشهد جنان ميلانو ليس، من جهة الإستقالة، إلا شيئاً طبيعياً، والقرار الفجئي ليس، في الواقع، إلا خاتمة تطور مديد. والرغبة ذاتها في الإنقطاع للتنفس تعود إلى الوقت الذي كان أوغستينوس فيه، وهو مجرد «منصِّت» مانوي، يحاول عبنا أن يبلغ درجة الكمال لدى «المختارين». والسبب الموجب هو، حسب الاعترافات، رواية بونتيسيانوس (Pontitianus) التي تكشف عن وجود تلمذة للقديس أنطوان (Saint Antoine) منقطعين للتنفس ومنضوين في زمرة طوائف مسيحية.

ونفهم فيما أحسن لم كان لهذه الرواية كبيّر الصدى لدى أوغستينوس وأليبيوس، لو كان «المعتقان» الصغيران للمسيحية بتريفا (Trèves)، واللذان حظما درينهما ليعتنقوا الحياة الفاضلة، مثقفين مثلهما، وذوي مستقبل زاهر؛ ويحتمل على الأقل أنه ينبغي تحديد هويتي هذين الشابين بكونهما بونوز (Bonose) والقديس جيرورم (Saint Jérôme)، إذ إنهم اعتقدا المسيحية بتريفا لاتصالهما بایواغور الأنطاكي (Evagre)، مترجم حياة القديس أنطوان (La Vie de Saint Antoine) d'Antioche في الفترة التي رويت فيها القصة، كان قد حظي بعد بسمعة فائقة بكتبه.

ومشهد الجنان أيحتوي، كما قيل، على معجزة مسيحية، أم على شيء خارق للعادة من الوثنية؟ فشجرة التين هي إطار رمزي؛ والعبارات أرفع (*Tolle lege*)^(١)، بالنسبة إلى من يعرف كيف يقرأ أوغستينوس، ليست إلا تعيراً أدبياً عن فعل داخلي، فأوغستينوس ينسب صيحة أولاد التقشف هذه، إلى كل أولئك الشباب الذين يسكنون الدار الإلهية، لأنهم انقطعوا، منذ المراهقة، إلى عزلة تفية. فهذه العبارة المجازية ترجم فقط النداء القلبي الذي يسمعه أوغستينوس، تحت تأثير روايات بونتيسيانوس؛ ومشهد جنان ميلانو لا يقوم بعد إلا برسم جديد، خطأ بخطأ، لمشهد حديقة تريفا. فلذلك إذن، حالما يستعيد أوغستينوس قراءة الرسالة الموجهة إلى الرومان، وكان توقف عنها بضع ساعات بعد زيارة بونتيسيانوس المباغتة، تراه بالطبع يطبق على نفسه أول آية تقع أمام عينيه، ويتردّها في صمت، ويؤول لها بمعنى أنها دعوة للتقشف، ويتخذ شأنه كشأن أليبيوس - القرار الذي لن يحيده عنه بالمرة.

فالإقامة بكستيسياكوم كان رسمها بصفة عابرة في الاعترافات، لأن أوغستينوس، بعد أن وصل إلى الكتاب التاسع، كان يريد الإنتهاء من سيرته الذاتية كأسرع ما يكون، غير أنه يرمي بإشارة إلى صراعاته الداخلية، دون أي تحديد، والمناجيات (*Soliloques*) تكشف عن صراعه ضد الترغبات الجنسانية، وكتابه في النظام (*De ordine = de l'ordre*) يكشف عن صراعه ضد الصعوبات العقلانية والشخصية التي توجه إليها آنذاك أوغستينوس، لكن دون نجاح، حتى تعينه على حل إشكالاته المتعلقة بطبيعة النفس، ليست حقاً أمبرواز، كما قيل مراراً، بل هي لا غرو ثيودوروس.

لماذا الاندهاش من كون رواية الاعتناق للمسيحية، كما تتجلى من الاعترافات، مختلفة جداً عن الشعور الذي تركه فيما الحوارات المحررة في كستيسياكوم؟ لو فكرنا هكذا، لوجب علينا أن نستخلص، لا فقط، أن أوغستينوس ليس مسيحياناً بالنية في ذلك التاريخ، لكن ولا أفلاطونياً متأخراً أيضاً، لأن الحوارات هي شيشرونية بالأساس، بالنسبة إلى المحتوى وكذلك إلى الصيغة. إذ لا نجد فيها سوى إشارات سريعة إلى الفكر الأفلاطوني المتأخر، وكذلك إلى الدين المسيحي. أما الجرأة فكانت بالرغم من الجنس الفلسفـي للحوارات الشيشرونـية، لأنـه دسـن فيها اسم المسيح. وينبهنا أوغستينوس نفسه إلى أنـ أليبيوس كان قد استنـكر، في الـبداـية، أنـ رآه مـدرـجاـ فيـهـ، وـأنـهـ

(١) انظر ما قاله عن ذلك الدكتور عبد الوهاب بوحدية، رئيس «بيت الحكمـة»، في مقدمة لهـذا الكتاب.

كان يرغب أن تمحى الفقرات التي يظهر فيها من التلاخيص المختزلة: «.... فذاكرتني تعيني إليه (أي إلى الوقت البعيد من حياته) ويحلولي، مولاي، أن أتعرف إليك... كيف أخضعت... أليبيوس ذاته، أخ قلبي، لاسم ابنك الوحيد «مولانا» و Mengjina اليسوع المسيح» الذي كان احتقاره يكرهه أولاً أن أحشره في كتاباتي. إذ كان يفضل أن يستنشق فيها رائحة «أشجار الأرض» التي «كترها» المولى بعد، عوضاً عن الأعشاب المنجية لكتسيستك، الحامية من الحيات».

في الاعترافات، يمر أوغسطينوس بسرعة أكبر بكثير على تعميمه وعلى إقامته الثانية بميلانو وروما، منه على إقامته بكسيسياكوم، فلا يعني حتى بتحديد كونه تعمد على يد أمبرواز، ولا يقول شيئاً عن تلقينه قواعد التعميد الدينية؛ نستطيع فقط، بالتقاطعات، أن نخمن أنه أنصت آنذاك إلى الخطيبين العظيدين لأمبرواز الخاضتين بليزياني (Isaïe) ولوك (Luc)، وأنه قد لقن المذهبين الخاضعين بالخطيئة الأصلية وبالخلاص.

ف موقف أوغسطينوس، قبل التعميد بقليل، ليس أكثر ولا أقل غرابة من موقفه بكسيسياكوم. إذ ليس له أي احتقار للثقافة الدينية، بما أنه يحرر كتاباً كبيراً عن الاتجاهات الأدبية (les disciplines)، رغم كل الإعترافات القادمة. و يؤلف مؤلفاً عن ديمومة الروح (De l'immortalité de l'âme)، وهو يبدو بلورتيتا أكثر بكثير منه في حوارات كسيسياكوم. ولكن، في نفس الوقت، يمشي قدماً، وراء أليبيوس، في طريق الرهد المسيحي؛ وكلامها يتلخص من بولين، قديس نولة القادم مثلاً «المعتنق» الشهير للمسيحية. وهذا المثال الأعلى (exemplum = l'exemple ou l'homme idéal) يجدد في نفسها التأثير الذي كان قد أثره فيهما، في السنة الماضية، «المعتنقاً» تريفا. وهذا العمق الماوري والديني، الأفلاطوني المتأخر والمسيحي في الآن نفسه، الذي سيتوصل كذلك طيلة إقامته الثانية بروما، كان يبدو إلى وقتنا هذا صعب التفسير. لكنه يصبح سهلاً حالما نعلم أن أوغسطينوس قد لقن الأفلاطونية المتأخرة، داخل كنيسة ميلانو عينها.

وبعد التعميد، يبدو أن صلة حميمة قد نشأت أخيراً، بين أمبرواز وأوغسطينوس، مدة الأشهر الأخيرة من الإقامة بميلانو، ورغم صمت الإعترافات الكلية عنها، فنحن نملك عن الموضوع شبكة من النصوص والقرائن الدقيقة، لكنها متطابقة. فالسنة المقضاة بروما لن تُنسى أوغسطينوس لا دروس أمبرواز، ولا عادات ميلانو، والتجربة بأوستيا تكشف لنا أخيراً التقدم المسجل منذ زمن محاولات الجذب (في 386).

الواقع، يتجلّى أنَّ أوغسطينوس ليس أقلَّ بلوتينية (آنذاك) منه في السنة السابقة؛ ونظرته ليست أقلَّ عبورة؛ أمَّا الفرق الوحيد، وهو مع ذلك أساسيٌّ، فيتعلّق بكون ذلك العبور ينشئُ الأمل، لا البلبلة؛ فأوغسطينوس، وهو يصدق الوعود المسيحية، يملك الأنَّ الأمل في الرِّزقية وجهاً لوجه، الموعودة للمعمدين.

ونرى كيف يمكن، اعتماداً على دلائل خارجية، أن تراقب المصداقية النسبية للإعترافات والحوارات، ولكنَّ أن تثري أيضاً كل الإثراء قصة السيرة الذاتية. فينبغي، في الخاتمة، أن نلاحظكم تكون قصبة الإعترافات نزيفها، إذا قارناها بالأساليب المعتادة في القداسة وفي تقييم الفضيلة في ذلك العصر.

فلا حيل ولا «معجزات» البَتَّة مسبوكة عمداً في حياة أوغسطينوس، رغم الخطابة والتزعة الروائية المحسوستين في التعبير الخاص بمشهد الجنان. إلَّا أنَّ أسقف عتابة مقتنع، ويحاول إقناع القارئ، أنَّ الإله يقود اللعبة من أولها إلى آخرها، بواسطة عنایته ونعمته؛ فالمحددون أنفسهم هم أدواته دون علمهم؛ والصدف الظاهرية تغطي مقاصدهُ الخفية. وهذا التأويل قد أدى أحياناً بأوغسطينوس إلى الإعراض عن تحديد الطرق البشرية التي كانت الأحداث تتسلسل بها في الإعترافات. لكنَّ الكثير من النصوص الأخرى في السيرة الذاتية تسدُّ هذا الفراغ، وتثري بها - إذا قارينا شهاداتها - معلوماتنا عن التاريخ الأدبي المتصل بخطيب قرطاجة وميلانو؛ فقد مكتنَّ، بالخصوص، من إدراك أحسن لتوالى الأحداث وللإنفاق الفلسفية إلى الإنفاق المانوي، وللصلة الوثيقى بين الإنفاق الأفلاطونية المتأخرة وإنفاق المسيحية.

المعجم الثلاثي
عربي لاتيني فرنسي

نأتي الآن إلى معجمنا الثلاثي: عربي / لاتيني / فرنسي، وقد اعتمدنا في صلبه على متابعة تسلسل الكتب الثلاثة عشر للإعترافات (*les Confessions*) بمقاهيمها ومصطلحاتها المختلفة، ويدأنا بذكر ترجمتنا العربية، ثم انتقلنا إلى ألفاظ أوغستينوس وعباراته وجمله ذاتها، وقد جعلناها بحروف مائلة (*en italiques*) للتنبيه إلى أولويتها المعرفية في هذا المقام، ثم أوردنا ترجمات بيار دي لا布ريول (*Pierre DE LABRIOLLE*) باللغة الفرنسية:

الكتاب الأول	
I, 1, le Prédicateur – <i>praedicator</i>	(1) مبشر
Le ministère – <i>ministerium</i>	(2) كهنة
II, 2 contenir – <i>capere</i>	(3) يَسْعُ
invoquer – <i>inuocare</i>	(4) ابتهل
III, 3 s'éparpiller – <i>dissipari</i>	(5) تلاشى
V, 6, les péchés – <i>delicta</i>	(6) خطايا
VI, 7 le salut – <i>salus</i>	(7) نجاة
VII, 12 les impulsions de la vie – <i>conatus animantis</i>	(8) غرائز الحيّ
dans l'iniquité – <i>in iniquitate</i>	(9) في الآثام
dans le péché – <i>in peccatis</i>	(10) في الأوزار

IX, 14 la science verbeuse – <i>linguosae artes</i>	(11) ثرثرة
les chevalets – <i>eculei</i>	(12) منصبات التعذيب
IX, 15 les ongles de fer – <i>ungulae</i>	(13) أظفار الحديد
le jeu de paume – <i>ludere pila</i>	(14) كرة الراحية
X, 16 la curiosité – <i>curiositas</i>	(15) فضول
les spectacles – <i>spectacula</i>	(16) عروض مسرحية
XI, 17 le baptême – <i>baptismum</i>	(17) تعميد
l'église mère – <i>mater ecclesia</i>	(18) الكنيسة الأم
la rémission des péchés – <i>remissio peccatorum</i>	(19) تكفير عن الذنوب
la purification – <i>mundatio</i>	(20) تطهير
se souiller – <i>sordidari</i>	(21) نجس
II, 18 les tentations – <i>temptationes</i> , (et aussi <i>temptatio</i> (graphie tardive	(22) نزغات
XII, 19 l'assouvisance – <i>satiari</i>	(23) إشباع
les passions insatiables – <i>insatiabiles cupiditates</i>	(24) شهوات غير مشبعة
XIII, 20 les courses errantes – <i>errores</i>	(25) تشردات
21 de telles folies – <i>talis dementia</i>	(26) هذه الحماقات
la fornication – <i>fornicatio</i>	(27) زنى
22 les mauvaises voies – <i>malae viae</i>	(28) سير خبيثة
XV, 24 les séductions – <i>seductiones</i>	(29) إغراءات

XVII, 27 l'esprit – <i>ingenium</i>	(30) موهبة
le sarmement du cœur – <i>palmes cordis</i>	(31) سرعة القلب
les frivolités – <i>nugae</i>	(32) ترهات
XVIII, 28 les vanités – <i>uanitates</i>	(33) تفاهات
l'abîme effrayant – <i>inmanissimum profundum</i>	(34) هاوية مذهلة
la passion ténébreuse – <i>affectus tenebrosus</i>	(35) عاطفة مظلمة
XIX, 30 (regarder) de sottes comédies – <i>spectandi nugatoria</i>	(36) مشاهدة هزليات جوفاء
l'innocence de l'enfant – <i>innocentia puerilis</i>	(37) براءة الأطفال
XX, 31 l'abjection – <i>abiection</i>	(38) سفاله
ô ma douceur – <i>dulcedo mea*</i>	(39) يا عذوبتي
ô mon honneur – <i>honor meus*</i>	(40) يا شرفتي
ô ma confiance – <i>fiducia mea*</i>	(41) يا ثقتي

الكتاب الثاني

I, 1, les turpitudes - <i>foeditates</i>	(42) دناءات
II, 2 la concupiscence - <i>concupiscentia</i>	(43) شبق (جنسية)
II, 2 (les) vices - <i>flagitia</i>	(44) رذائل
II, 4 (les) verges - <i>flagella</i>	(45) مَجَالد
II, 4 (les) joies - <i>iucunditates</i>	(46) مسرّات
II, 4 (les dégoûts) - <i>offensiones</i>	(47) قرف
II, 4 (le) honteux honneur (humain) <i>dedecus humanum</i>	(48) خزي (بشري)

III, 5 cœur pénitent - <i>cor confitens</i>	(49) قلب تائب
III, 6, l'inquiète adolescence - <i>inquietia adulescentia</i>	(50) فتوة حيرى
III, 6 catéchumène - <i>catechumenus</i>	(51) طلب التنصير
III, 6 (les) voies tortueuses - <i>uias distortae</i>	(52) طرقات ملتوية
III, 7 (la) gloriole - <i>laus</i>	(53) زهو
III, 7, plus vil ≠ plus chaste - <i>vilior ≠ castior</i>	(54) لئم ≠ أكثر عفة
III, 8 (rouler) dans la fange - <i>uolutari in caeno</i>	(55) يتمزغ في الوحل
III, 8 (facile) à séduire - <i>seductilis</i>	(56) غوي
III, 8 (les germes) funestes - <i>pestilentiosum</i>	(57) طاعون
III, 8, une vie pure - <i>pudicitia</i>	(58) طهارة
IV, 9 surabondance d'iniquité - <i>sagina iniquitatis</i>	(59) وفرة الجور
IV, 9 (la) détestable habitude - <i>pestilentiae mos</i>	(60) عادة طاعونية
IV, 9 bande de jeunes vauriens - <i>nequissimi adulescentuli</i>	(61) صبيان أرغاد
IV, 9 âme souillée - <i>turpis anima</i>	(62) روح دنسة
V, 10 (les) beautés terrestres - <i>infima pulchra</i>	(63) أشیاء جميلة دنيوية
V, II (les) biens supérieurs et béatificques <i>bona superiora et beatifica</i>	(64) مزايا عليا ومنتعة
V, 11 honneurs, pouvoir, richesse <i>honores, imperia, diuitiae</i>	(65) مجد، سلطة، ثروة

VI, 13 (la rigueur) des puissants (<i>saeuitia potestatum</i>)	(66) متّجرون جبروت
VI, 13 les libertins - <i>lasciuientes</i>	(67) خلعاً
VI, 13 la prodigalité = la libéralité - <i>effusio = liberalitas</i>	(68) إسراف = سخاء
VI, 13 colère et vengeance - <i>ira et uindicta</i>	(69) غضب وانتقام
VI, 13 tristesse et cupidité - <i>tristitia et cupiditas</i>	(70) حزن وجشع
VI, 14 O corruption - <i>o putredo!</i>	(71) يا للفساد!
VI, 14 une liberté tronquée - <i>manca libertas</i>	(72) حرية مبتورة
VI, 14 une ténébreuse parodie - <i>tenebrosa similitudo</i>	(73) محاكاة ضبابية
VII, 15 actions mauvaises et criminelles <i>mala et nefaria opera</i>	(74) أفعال سيئة وإجرامية
VII, 15 langueurs des péchés <i>peccatorum languores</i>	(75) سقام الآثام
VIII, 16 illuminer le cœur - <i>inluminare cor</i>	(76) ينير قلبي
IX, 17 badinage et jeu - <i>ludus et iocus</i>	(77) لعب ومزح
IX, 17 amitié ennemie - <i>inimica amicitia</i>	(78) صدقة العداوة
X, 18 Belle et prestigieuse - <i>pulchra et decora</i>	(79) جمال ورونق
X, 18 une région de disette - <i>regio egestatis</i>	(80) إقليل جدب
الكتاب الثالث	
I, 1 (les) honteuses amours - <i>flagitiosi amores</i>	(81) غرام شائن

I, 1 l'excès de vanité - <i>abundans uanitas</i>	(82) غرور فيّاض
I, 1 les liens de jouissance - <i>uinculum fruendi</i>	(83) قيد اللذة الجنسية
I, 1 les verges de fer - <i>uirgae ferreae</i>	(84) مقارع حديدية
II, 3 le (gouffre) ardent des voluptés <i>aestus.. libidinum</i>	(85) اضطرامات الشبق
II, 3 un misérable bonheur - <i>misera felicitas</i>	(86) سعادة باشنة
II, 4 le jeu du comédien - <i>actio histrionis</i>	(87) دور المشعوذ
II, 4 pauvre brebis égarée - <i>infelix pecus aberrans</i>	(88) نعجة تعسة تائهة
III, 5, la curiosité sacrilège - <i>sacrilega curiositas</i>	(89) فضول مر جنس
III, 5 asservissement aux démons <i>obsequia daemoniorum</i>	(90) إذعان للشياطين
III, 5 (célébration) des solennités <i>celebritas sollemnitatum</i>	(91) قداس مهيب
III, 6 le forum de la chicane <i>fora litigiosa</i>	(92) نزاعات في الساحة العمومية
IV, 7 l'immortelle sagesse - <i>inmortalitas sapientiae</i>	(93) حكمة أبدية
IV, 7 à aiguiser ma langue - <i>ad acuendam linguam</i>	(94) لصقل لغتي
IV, 7 (farder ses) erreurs - <i>fucantes errores suos</i>	(95) قنّع أخطاءه
VI, 10 un piège diabolique - <i>laquei diaboli</i>	(96) شرك شيطاني
VI, 10 mensonges qui... trompent l'esprit <i>falsa animo deceptio</i>	(97) أباطيل خادعة
VI, 10 splendides chimères - <i>phantasmata splendida</i>	(98) أوهام فخمة

VI, 10 vaines fictions - <i>figmenta inania</i>	99) خرافات باطلة
VI, 11 antres de ténèbres - <i>antra tenebrorum</i>	100) مغارات الظلام
VIII, 12 comme piqué par un aiguillon <i>quasi acutule mouebar</i>	101) كأني أدفع بمنخس
VII, 13 se chauffer avec le casque <i>et galea calciari</i>	102) يتصل بالخوذة
VII, 13 dans ces siècles lointains... permis aux justes - <i>illo saeculo (licuisse)</i>	103) كان في القرون الغابرية جائزًا للعادلين
VII, 14 la prosodie même - <i>et ars ipsa...</i>	104) فن العروض
VII, 14 nos pieux ancêtres - <i>pios patres</i>	105) آباونا الورعون
VIII, 15 la société entre Dieu et nous <i>ipsa societas... cum Deo</i>	106) شراكة... بين الإله وبيننا
VIII, 15 les dépravations du libertinage <i>libidinis peruersitas</i>	107) انحراف شهوانى
VIII, 15 l'obéissance aux rois - <i>oboedire regibus</i>	108) امثال لمملوكه
VIII, 16 ceux qui bernent leur prochain - <i>inrisores</i>	109) مستهزئون
VIII, 16 ceux qui mystifient leur prochain - <i>inlusores</i>	110) متلاعبون
VIII, 16 les chefs d'iniquité - <i>capita iniquitatis</i>	111) رؤوس الجور
VIII, 16 «regimbant contre votre aiguillon» <i>aduersus stimulum calcitrantes</i>	112) «متمردون ضد منخسك»
VIII, 16 ô source de vie - <i>fons uitae</i>	113) أنت ينبوع الحياة
IX, 17 comme la verdure annonce la moisson - <i>sicut herba segetis</i>	114) كما يُؤمل الحصاد من الخضرة

XI, 19 les blasphèmes (de) mes erreurs <i>blasphemias erroris</i>	115) تجاديف ضلالٍ
XI, 20 je me roulai «dans la fange...» <i>in limo.... uolutatus sum</i>	116) تمرّغت... في الوحش
XI, 21... me débattre dans cette nuit <i>inuolui illa caligine</i>	117) أتخبَط في تلك الظلمة
XII, 21 me désabuser du mal <i>dedocere me mala</i>	118) تعليمي الإعراض عن الشر
XII, 21 et m'enseigner le bien - <i>ac docere bona</i>	119) والتمسُك بالخير
XII, 21 cette secte était à fuir (*celle des Manichéens, en l'occurrence) - <i>illa secta* fugienda</i>	120) يجب الفرار من تلك الملة (ملة المانويين)
الكتاب الرابع	
I, 1 couronne de foin - <i>coronarum faenearum</i>	121) أكاليل من الجفيف
I, 1 me purifier de ces souillures <i>purgari... ab istis sordibus</i>	122) التطهير من هذه الأذران
I, 1 immoler «une victime de jubilation» <i>immolare... «hostiam iubilationis»</i>	123) أعقر... «قربان التهليل»
II, 2 chanceler sur un sol glissant <i>lapsantem in lubrico</i>	124) مترنحاً في مكان زلق
II, 2 une ardeur inquiète - <i>ardor inops prudentiae</i>	125) شوق... خال من الحصافة
II, 3 splendeurs corporelles - <i>fulgores corporeos</i>	126) بهاء الأجسام
III, 4 en vue de leurs divinations - <i>ob diuinationem</i>	127) من أجل الكهانة
III, 4 orgueilleuse pourriture - <i>superba putredo</i>	128) عفن ذو صلف
III, 5 les livres des horoscopes - <i>libris genethliacorum</i>	129) كتب الطوالع

III, 5 (le) hasard,.. répandu dans la nature <i>uim sortis diffusam</i>	130) قوّة الصدفة الموزّعة في... الطبيعة
IV, 7 (la) fleur de l'adolescence - <i>flore adulescentiae</i>	131) ريحان الفتّورة
IV, 7 (les) pernicieuses superstitions <i>superstitiosas fabellas et perniciosas</i>	132) الأساطير والخرافات المفسدة
IV, 7 Dieu des vengeances - « <i>deus ultionum</i> »	133) إله الآثار
IV, 8 l'abîme de vos jugements <i>abyssus iudicorum tuorum</i>	134) لحج حكمك
IV, 8 stupéfait et troublé - <i>stupefactus atque turbatus</i>	135) مذهول ومضرط
IV, 9 (la douleur)... ennuagea mon cœur de ténèbres <i>contenebratum est cor meum</i>	136) إدّلهم قلبي
IV, 11 je me reposais dans l'amerture <i>requiescebam «in amaritudine»</i>	137) ساكننا في «المراارة»
VII, 12 âme déchirée et sanglante <i>concisam et cruentam animam</i>	138) روحي الممزقة والدامية
VII, 12 (j'étais)... lieu d'infélicité <i>«infelix locus»</i>	139) (كنت)... بمثابة مكان تعasse
VIII, 13 une réfection s'opérait en moi - <i>resarciebant me</i>	140) (الساعات)... كانت ترْمَمْ (ها)
X, 15 (les belles choses)... vieillissent meurent <i>perfecta senescunt et intereunt</i>	141) ...إذا بلغ الكمال شاخ ومات
X 15, à la glu d'un amour - <i>glutine armoris</i>	142) بفعل دبوقا الحب
XI, 16 au tumulte de ta vanité <i>tumultu uanitatis tuae</i>	143) بسبب صخب تفاهتك
XII, 18 où allez - vous? vers les lieux abrupts? <i>Quo itis? in aspera?</i>	144) لم تقصدون الأوغار
XII, 18 dans une région de mort - <i>in regione mortis</i>	145) في إقليم الموت

XII, 19... ardente du feu de la charité <i>ardens igne caritatis</i>	(146) بنار المحبة الحارة
XIV, 21 on s'éprend de celui qui est loué <i>amatur qui laudatur</i>	(147) يُحِبُّ من يُمَدُّحُ
XIV, 22 le conducteur de chars réputé <i>auriga nobilis</i>	(148) سائق عربة شهرير
XIV, 23, mon enthousiasme redoublerait... (s'il les approuvait, c.à.d. mes travaux) <i>flagrarem magis</i>	(149) كنت لأتحمس أكثر
XIV, 23, j'étais blessé au cœur... (dans le cas contraire)... <i>sauciaretur cor meum</i>	(150) كان سيجرح قلبي
XIV, 23 s'il approuvait ≠ (s'il désapprouvait) <i>probaret</i> ≠ <i>inprobaret</i>	(151) (إن استحسنها) ≠ (إن استهجنها)
XV, 24 la racine profonde de ces grandes idées <i>tantae rei cardinem</i>	(152) صميم هذا المنطق
XV, 24 exemples empruntés au monde des corps, <i>exemplis corporeis</i>	(153) (أَسْتَشْهِدُ) بأمثلة جسمانية
XV, 24... des choses incorporelles vers les lignes <i>ab incorporea re ad lineamenta</i>	(154) (عن) اللاجسماني... إلى الخطوط
XV, 26 (bavard et inepte) <i>garulus et ineptus</i>	(155) ثرثري الخرقاء
XV, 27 (les os)... n'étant pas encore «humiliés» <i>humiliata non erant</i>	(156) لم تعرف بعد الهوان
XVI, 28 (les joues du rhéteur)... se bouffissaient d'une emphase bruyante <i>buccis tyfo crepantibus</i>	(157) (حدود البلاغي) كانت... ترن تفاصحا
XVI, 29 «des chardons et des ronces» <i>«spinis et tribulos»</i>	(158) الشوك والعليق
XVI, 30 (les) passions, ces courtisanes <i>meretrices cupiditates</i>	(159) العاهرات، شهواتي

XVI, 31 cette demeure nôtre... votre éternité <i>domus nostra, aeternitas tua</i>	160) دارنا...، ديمومتك
الكتاب الخامس	
II, 2 les inquiets et les pervers - <i>inquieti et iniqui</i>	161) الحيارى والبغاء
III, 3 par l'appât de son bien - dire <i>per inlecebram suauiloquentiae</i>	162) بسحر فصحاته العذبة
III, les éclipses de soleil et de lune <i>defectus luminarium solis et lunae</i>	163) كسوف الشمس وكسوف القمر
III, 5 (ils se croient) aussi élevés, aussi brillants que les étoiles <i>excelsos... cun sideribus et lucidos</i>	164) في علو النجوم ولمعانها (هذا عن اعتقاد المانويين الأخرق)
III, 6 je ne trouvais la raison.... <i>non mihi occurrebat ratio</i>	165) لم يكن ليترأى لي... من عقلانية
IV, 7 les circuits de la Grande Ourse <i>septentrionum gyros</i>	166) مدارات الدب الأكبر
V, 8 (l'Esprit Saint) qui console et enrichit - <i>consolatorem et ditatorem</i>	167) (الروح القدس) الذي يُسلّي ويُثري
V, 9 «à tout vent de doctrine» « <i>omni uento doctrinae</i> »	168) «في كل مهب عقائدي»
VI, 10... ma pensée vagabonde - <i>animo uagabundus</i>	169) بعقلٍ الشارد
VI, 10 (l'échanson)... des coupes (précieuses) <i>poculorum... ministrator</i>	170) بالأقداح النفيسة (من يد أطيب النساء)
VI, 11 dexterité verbale - <i>eloquium acceptius</i>	171) الفصاحة آلة طيبة
VII, 12 N'ignorant point... son ignorance <i>inperitus... inperitiae</i>	172) غير خبير بعدم خبرته
VII, 13... son tour d'esprit - <i>tali ingenio - (i.e. Fausti)</i>	173) تلك العبرية (أي فاوستوس)
VIII, 14 la profondeur de vos desseins secrets <i>altissimi tui recessus</i>	174) مقاصدك الخفية

VIII, 14 des émoluments plus élevés, (une) situation plus en relief <i>maiores quaestus maiorque... dignitas</i>	(175) الجرایات العليا والرتب ...
[VIII, 14 la licence [des étudiants odieuse et sans frein - <i>foeda et intemperans licentia</i>	(176) كان تسبب الطلبة... شيئاً جامحاً
VIII, 15 mon départ (lui) arracha... des plaintes affreuses - <i>me profecum atrociter planxit</i>	(177) بكت رحيلي بحرقة ولوحة
VIII, 15.... (le) juste... fouet de douleur <i>iusto dolorum flagello</i>	(178) سياط الآلام العادلة
IX, 16 sans que se guérît... mon cœur sacrilège <i>adhuc insanus corde sacrilego</i>	(179) لم يزل قلبي المرجس في هذيانه
IX, 17 les entrailles de son amour, <i>uiscera dilectionis eius</i> (i.e. <i>Monnicae</i>)	(180) أحشاء حبها (أي مونيكا، والدته)
X, 18 pseudo - saints menteurs («les plus» chers aux Manichéens) <i>falsis atque fallentibus sanctis</i>	(181) القديسين المزيفين والكاذبين،
X, 18 mon exécutable iniquité - <i>execrabilis iniquitas</i>	(182) جوري المقيت
X, 19 fables (dont les livres des Manichéens sont pleins) <i>rebus fabulosis... manichaei libri pleni</i>	(183) القصايا الأسطورية التي تملا الكتب المانوية
X, 19 créateur des choses visibles et invisibles <i>creator... uisibilium et inuisibilium</i>	(184) خالق... المرئيات والألمئيات
X, 20 (le Mal)... une masse affreuse, informe... <i>molem tetram et deformem (Mali)</i>	(185) كتلة بشعة وبلا شكل محدود
X, 20 de ce principe désastreux... tous les sacrilèges - <i>ex... initio pestilentioso cetera sacrilegia</i>	(186) من المبدأ الطاعوني... جميع أنواع الرجس ...

X, 20... l'esprit... un corps subtil.... <i>mentem... subtile corpus</i>	(187) ... العقل... جسم دقيق
X, 20... la masse de votre corps de lumière... <i>massa lucidissimae molis tuae (i.e. Dei)</i>	(188) كتلة جمسك النير الساطع
XI, 21 conférences et discussions (d'Elpidius) (<i>Elpidii</i>) <i>loquentis et disserentis...</i>	(189) المحاضرات والمناقشات (الأليبيديوس ضد المانويين)
XI, 21 les Écritures auraient été falsifiées, <i>scripturas... falsatas fuisse...</i>	(190) الكتب المقدسة... قد حرفت
XII, 22 les «chambardements» familiers aux jeunes gens - <i>a perditis adulescentibus</i>	(191) (المشاغبات)... لدى المراهقين الفاسدين
XII, 22... l'âme humaine... prostituée... <i>meretrici humanae animae</i>	(192) الروح البشرية العائدة إليك بعد عهراها
XII, 22.. perversité, difformité morale <i>prauos et distortos</i>	(193) المفترسون المنحرفين
XIII, 23 «la pure substance de votre froment» <i>adipem frumenti tui»</i>	(194) «جوهر بُرْكَو»
XIII, 23 «la joie de votre huile» - <i>laetitiam olei</i>	(195) «غبطة زَيْنَكَ»
XIII, 23 «l'ivresse»... de votre vin - <i>uini ebrietatem</i>	(196) «نشوة خمرك»
XIV, 24 Déjà sans espoir... - <i>mihi iam desperanti</i>	(197) ومع يأسه بعد
XIV, 24... parole éloquente... <i>diserte diceret...</i>	(198) ما كان يقول بالفصاحة
XIV, 25 convaincre de fausseté les opinions manichéennes - <i>manichaeos conuincere falsitatis...</i>	(199) أفحى المانويين ببطلان رؤاهم
XIV, 25 je résolus de quitter les Manichéens - <i>manichaeos... relinquendos... decreui</i>	(200) قررت... أن أهجر المانويين

الكتاب السادس

I, 1 la civière de la pensée - <i>feretro cogitationis</i>	(201) على محققة الفكر
II, 2 de la bouillie, du pain et du vin pur - <i>pultes et panem et merum</i>	(202) العصائد والخبز والخمر الصافي
II, 2 une petite coupe de vin dilué - <i>unum pocillum temperatum</i>	(203) خمرة مشعشعة
II, 2 à petites gorgées - <i>per sorbitones exiguae</i>	(204) في جرعات صغيرة
III, 3 les plus hauts personnages - <i>tantae potestates</i>	(205) أعظم الأساطين
III, 3 le tumulte des affaires d'autrui <i>ab strepitu causarum alienarum</i>	(206) ضجيج شؤون الآخرين
IV, 5 ma confusion , l'évolution... en moi et ma joie - <i>confundebar et conuertebar et gaudebam</i>	(207) كنت مرتبكاً ومتحرّلاً وفرحاً
IV, 6 une règle recommandée avec insistance <i>regulam diligentissime commendaret</i>	(208) يعظ القوم بموعيده العاجلة للغاية
IV, 6 le voile mystique - <i>mystico uelamento</i>	(209) الستار المجازي
V, 7 qui se moquaient de la foi, en promettant audacieusement la science - <i>temeraria pollicitatione scientiae credulitatem inriteri</i>	(210) يسخرون بالإيمان ويعدون العلم جزافاً
V, 7 dans ces luttes sophistiques d'objections calomniatrices... - <i>nulla pugnacitas calomniosarum quaestionum</i>	(211) لا شيء في الإشكاليات الإفترائية
V, 8... absurdités.... mystérieuses vérités <i>absurditatem.... probabiliter</i>	(212) اللامعقولة... على وجه الاحتمال
V, 8 le giron de son humilité sainte <i>gremio sanctae humilitatis</i>	(213) حضن تواضعها المقدس

VI, 9 honneurs, profits, mariage.... <i>honoribus, lucris, coniugio</i>	(214) الأشراف، المكاسب، الزواج
VI, 9 (mon cœur) tout enfiévré de pensées... <i>cogitationum... febribus aestuaret..</i>	(215) يضطرم بحمى الأفكار
VI, 10... la cause de la joie... dans la gloire <i>gaudere cupiebas gloria</i>	(216) الفرحة بسبب المجد
VI, 10 je cherchais une vaine gloire - <i>quaerebam tysum</i>	(217) فخر زائف
VII, 11 d'une famille très bien posée <i>ex primatibus municipalibus</i>	(218) من أعلى شرائح الأعيان
VII, 11 le gouffre des mœurs carthaginoises... <i>Gurges... morum Carthaginiensium</i>	(219) لجة السلوكيات القرطاجية
VII, 12 par ce goût aveugle et passionné pour des jeux absurdes... - <i>caeco et praecipti studio</i>	(220) الولع الأعمى وغير المتبصر بألعاب التافهة...
VII, 12 par un énergique renoncement <i>forti temperantia</i>	(221) بتنسّك تام...
VIII, 12 charbons ardents - <i>carbones ardentes</i>	(222) جمرات حامية
VIII, 13 la carrière mondaine - <i>terrenam uiam</i>	(223) الدرب الدنيوي
VIII, 13 ces cruels, ces funestes jeux (du Cirque) <i>crudelium et funestorum ludorum</i>	(224) الألعاب الفظيعة المشرومة
VIII, 13 elle lui ouvrit les yeux - <i>reseruait eius lumina</i>	(225) فتحت عيناه [من جراء الصراخ]
VIII, 13 la féroce... (la) fureur <i>inmanitatem... furias</i>	(226) التوحش... الشراسة
IX, 14 crédulité téméraire - <i>temeraria credulitate</i>	(227) المجازفة والسذاجة
IX, 15 (ils) faisaient gronder les menaces <i>minaciter frementes</i>	(228) المدوين بالوعيد

X, 16 les séductions de la cupidité - <i>inlecebra cupiditatis</i>	(229) يُغْرِيَ الطَّعْمَ
X, 16 l'aiguillon de frayeur - <i>stimulo timoris</i>	(230) بِمَنْخَسِ الْخَوْفِ
X, 16 on essaya des menaces - <i>praetentae minae</i>	(231) جَرَبَتِ التَّهَدِيدَاتِ
X, 17 trois bouches affamées... indigence... <i>ora trium egentium et inopiam... anhelantium</i>	(232) ثَلَاثَةُ أَفْرَاهُ مَعْوِزَةٌ يَزْفُرُ بَعْضُهَا... بِفَقْرِهِ
XI, 18 c'est un crime que de... <i>nefas est</i> + proposition infinitive	(233) مِنَ الرِّجْسِ أَن نَعْتَقِدَ...
XI, 19 le prestige si éminent (de l'autorité de la foi chrétienne) - <i>tam eminens culmen</i>	(234) الْحَظْوَةُ الشَّامِخَةُ (الْسُّلْطَانُ الْعَقِيْدَةُ الْمُسِيْحِيَّةُ)
XII, 21 il observait... une complète chasteté <i>erat... ipse (Alypius) castissimus</i>	(235) كَانَ مَتَعَفِّفًا تَعَفَّفَ تَامًا
XII, 21 l'enlaçait... pour semer... les doux lacs <i>innectebat atque spargebat... dulces laqueos....</i>	(236) كَانَ تَزَرَّعُ... حَبَّاتِهَا الْحَلْوَةُ
XIII, 23 l'eau salutaire du baptême <i>baptismus salutaris ablueret</i>	(237) يَغْسلُنِي التَّعمِيدُ الْمُنْجِيُّ
XIV, 24 soupirs et gémissements <i>suspiria et gemitus</i>	(238) الْحَسَرَاتُ وَالْتَّأَوَّهَاتُ
XV, 25... une déchirante blessure... traîna longtemps son ensanglantement: <i>cor... vulneratum trahebat sanguinem</i>	(239) قَدْ تَمَرَّقَ وَطَالَ نَزِيفُ جَرْحِهِ الدَّامِيِّ (يَعْنِي الْجَرْحُ فِي الْقَلْبِ)
XVI, 26 ô voies tortueuses! malheur à l'âme téméraire...! - <i>O tortuosas uias! Vae animae audaci...!</i>	(240) يَا لَهَا مِنْ طَرْقَاتٍ مُلْتَوِّيَّةٍ وَيَعْلُو لِلْرُّوحِ الْمَجَازِفَةُ!

الكتاب السادس

I, 1 adolescence mauvaise et criminelle <i>adulescentia mala et nefanda</i>	(241) مراهقتي الإجرامية السيئة
I, 1 de toute l'ardeur de mon cœur, je croyais <i>totis medullis credebam</i>	(242) أؤمن من أعماق قلبي ...
I, 2 incapable de lire moi - même.. en moi - même <i>nec mihi met... ipse conspicuus</i>	(243) وعجزا عن القراءة في ... باطن نفسي ذاتها
I, 2 telles étaient mes conjectures, ne pouvant imaginer autre chose. <i>ita suspicablar, quia cogitare aliud non poteram...</i>	(244) تلك كانت تخميناتي، لأنني لم أكن أتصور غيرها
II, 3 ces trompeurs trompés, ces bavards muets, - <i>deceptos deceptores et loquaces mutos</i>	(245) الخادعين المخدوعين، والثرثاريين البكم.
II, 3 horrible sacrilège de langue et de cœur <i>horribili sacrilegio cordis et linguae</i>	(246) رجس فطع بالقلب واللسان
III, 5 libre choix de notre volonté <i>liberum uoluntatis arbitrium</i>	(247) حرية اختيار إرادتنا ...
III, 5 germes d'amerture - <i>plantarium amaritudinis</i>	(248) بذرة المرارة
IV, 6 l'incorruptible... meilleur que le corruptible <i>melius... incorruptibile quam corruptibile</i>	(249) غير القابل للفساد أحسن من القابل له
IV, 6 la volonté et la puissance de Dieu, c'est Dieu même <i>uoluntas... et potentia dei deus ipse est</i>	(250) إرادة الإله وقوته هما الإله ذاته
V, 7 une éponge... imbibée, en toutes ses parties, de l'immense mer - plena... <i>utique spongia ex omni sua parte ex inmenso mari</i>	(251) الإسفنج ملأى في جميع أجزانها بالبحر الشاسع

V, 7 c'est ainsi que votre création est pleine de votre infinitude - <i>creataram tuam infinito te plenam</i>	(252) هكذا.. خلائقك.. ملأى بذاتك اللامحدودة
V, 7 pendant un innombrable passé <i>per infinita retro spatia temporum</i>	(253) طوال الأزمنة الماضية الأزلية
VI, 8 il n'y point d'art de prédire l'avenir <i>non esse... futura prouidendi</i>	(254) لا وجود... للتنبؤ بالمستقبل
VI, 8 les conjectures des hommes... la collaboration du hasard - <i>coniecturas hominum... uim sortis</i>	(255) تخمينات البشر تصدق بعون قوة الاتفاق...
VI, 8 (ils furent obligés)... de tirer le même horoscope - <i>easdem constellationes... facere cogerentur</i>	(256) على أن يرسموا نفس الطالع الفلكي
VI, 8 (l'esclave), toujours courbé sous... sa condition servile - <i>(seruus) conditionis iugo..seruiebat</i>	(257) دون أن يفلت من نير العبودية
VI, 9 (prophéties)... tirées de l'observation des astres - <i>consideratis constellationibus</i>	(258) بعد رصد كوكبات النجوم
VI, 10 l'un de ces extravagants.. que je voulais ridiculiser et réfuter - (... <i>delirorum</i>)... <i>inrisos refellere</i>	(259) أستهزئ بهم وأدحرهم (أي الذين يهدون)
VII, 11 vous m'aviez déjà délivré de ces liens <i>illis uinculis solueras</i>	(260) قد فككت عنّي تلك الأغلال
VII, 11 les muettes détresses de ma pensée <i>tacitae contritiones animi mei</i>	(261) توبات روحي الصامتة
VII, 11 intimes amis <i>familiarissimorum meorum</i>	(262) أصدقائي الحميمين للغاية
VIII, 12 vous avez eu pitié de mon limon et de ma cendre <i>miseratus es terram et cinerem</i>	(263) أشفقت على طمي وعلی رمادي
VIII, 12 l'œil trouble et obscurci de mon âme <i>acies... conturbata et contenebrata mentis meae</i>	(264) عين روحي المغشاة العميماء

IX, 13 «vous résistez aux superbes» «resistas superbis»	(265) «تصدى للمنتّجرين»
IX, 15 Esau perdit son droit d'aînesse <i>Esau perdidit primogenita sua</i>	(266) حقه الخاص في البكورية (و«إيزاو») هو المشار إليه هنا
IX, 15 devant l'image «d'un veau en train de manger son foin» <i>ante imaginem uituli manducantis faenum</i> »	(267) أمام صورة عجل يأكل علفا
X, 16 comme l'huile au - dessus de l'eau, et non comme le ciel au - dessus de la terre - <i>sicut oleum super aquam, nec sicut caelum super terram</i>	(268) كالزيت فوق الماء ولا كالسماء فوق الأرض
XI, 17 cela est véritablement qui demeure immuablement <i>id... uere... incommutabiliter manet</i>	(269) ما يوجد بحق... (هو) ما يبقى على الدوام
XII, 18 la corruption est nuisible, or si son œuvre (n'altérait pas) le bon, elle ne nuirait point - <i>nocet enim corruptio et, nisi bonum minueret, non esset.</i>	(270) الفاسد مضر، ولو لم يكن يغدر الطيب لما كان يضر.
XIII, 19 les souffles de la tempête qui exécutent votre parole - <i>sp ritus tempestatis, quae faciunt uerbum tuum</i>	(271) وهبوب العاصفة التي تردد كلها كلامك المقدس
XIV, 20 le temple de son idole, abominable... <i>idoli sui abominandum</i>	(272) معبد صنمها المقيت (الأشياء)
XV, 21 le reste des choses... vous doivent l'être <i>alia... tibi debere quia sunt</i>	(273) مدينة لك بكونها موجودة
XVI, 22 le mal (est) la perversité d'une volonté qui se détourne de la substance souveraine <i>iniquitas a summa substantia detorta in infima uoluntatis peruersitatem</i>	(274) الفساد... انحراف للإرادة عن الجوهر الأسمى.. وتوجه نحو الأشياء الدنيا

XII, 23 mon propre poids m'arrachait de vous <i>diripiebar abs te pondere meo</i>	(275) أنجذبُ عنك بفعل ثقل وزني
XVII, 23 elle se déroba à l'essaim des fantômes... contradictoires - <i>subtrahens se contradicentibus turbis phantasmatum</i>	(276) مقلة من حشود الأوهام المتناقضة
XVII, 23 dans l'éclair d'un regard frémissant <i>in ictu trepidantis aspectus</i>	(277) في لمح البصر المرتجف
XX, 26 cette charité qui édifie sur le fondement de l'humilité - <i>illa aedificans caritas a fundamento humilitatis</i>	(278) الحبُّ المشيد على التواضع
XXI, 27 l'antique pécheur, prince de mort (<i>Satan ou le Diable</i>) <i>antiquo peccatori, praeposito mortis</i>	(279) المذنب العتيق، مندوب الموت
XXI, 27 le Prince du Ciel, <i>Caelestis imperatoris</i> , le susnommé Iesum Christum, (Jésus - Christ) à la ligne 29 de ce même paragraphe.	(280) الامبراطور السماوي (اليسوع المسيح، كما سمي أعلاه في نفس الفقرة)

الكتاب الثامن

I, il fallait que mon cœur se purifiât du vieux levain - <i>mundandum... cor a fermento ueteri</i>	(281) أطهر قلبي من خميرته القديمة
I, 2 les flottements dans tout le reste, de mes langueurs... - <i>uolvebar in ceteris languidus...</i>	(282) كنت أتخبط في سائر المجالات... وهنا...
II, 3 je lui racontai tout le dédale de mes erreurs, <i>narraui ei circuitus erroris mei...</i>	(283) رویت له متأمات ضلالی
II, 3 «toutes sortes de monstres divinisés.». « <i>et omnigenum deum monstra»</i>	(284) أجناس الأغوال المؤلهة

II, 3... défendus... avec les éclats d'une terrifiante éloquence... - <i>ore terricrepo defensitauerat... (senex Victorinus)</i>	(285) يبلغته الرائعة الصدى (للشيخ ويكتورينوس)
II, 4 du sommet de leur altière Babylone <i>ex culmine Babylonicae dignitatis</i>	(286) من قمة علية بابل
II, 4 du haut de ces cèdres du Liban <i>quasi ex cedris Libani</i>	(287) من أرز لبنان
II, 4, premières vérités de la catéchèse <i>primis instructionis sacramentis</i>	(288) مبادئ تعلم الطقوس
II, 5 devant votre pacifique troupeau <i>mansuetum gregem tuum...</i>	(289) أمام قطيعك المسالم
III, 6 à la joie de tous ses voisins <i>conlaetantibus uicinis</i>	(290) وسط تهليلات الجيران قاطبة
III, 6 la brebis... égarée... <i>ouis errauerat</i>	(291) النعجة التي ضللت الطريق
III, 7 une tempête ballotte les navigateurs <i>iactat tempestas nauigantes</i>	(292) العاصفة تزعزع الملأحين
III, 7 tous pâlissent de la mort qu'ils sentent venir <i>omnes futura morte pallescunt</i>	(293) كألهم شاحبون بسبب الموت الآتي
III, 8 dans une joie honteuse et méprisable <i>in turpi et execranda laetitia</i>	(294) المسرة المخزية الحقيرة
III, 8 de déficits et de progrès, de discordances et d'harmonies - <i>defectu et profectu, offendionibus et conciliationibus</i>	(295) النقص والتقدم النشاز والتوفيق
III, 8 sublime dans les hauteurs et profond dans les abîmes - <i>excelsus in excelsis..., profundus in profundis</i>	(296) ... رفيع على القمم، ... عميق في البرهاد

IV, 9 le riche (ne) passe (pas) avant le pauvre, le noble avant l'homme sans naissance <i>pauperibus</i> ≠ <i>diuitum</i> , <i>ignobilibus</i> ≠ <i>nobiles</i>	(297) الأغنياء ≠ الفقراء البلاء ≠ السوق
V, 10.. dans les fers dont m'enchaînait... ma propre volonté, de fer elle aussi - <i>ego.. ligatus non ferro alieno, sed mea ferrea uoluntate</i>	(298) مكتلًا لا يأراه الآخرين، بل بقيد إرادتي الحديدية
V, 11 «la chair convoite contre l'esprit, et l'esprit contre la chair». <i>caro concupisceret aduersus spiritum et spiritus aduersus carnem»</i>	(299) اللحم مغتlim ضد الروح، والروح مغملا ضد اللحم
V, 12 Ainsi le fardeau du siècle pesait sur moi..., comme en un rêve - <i>Ita sarcina saeculi, uelut somno assolet,...</i>	(300) فهكذا كان عبء الدهر، بنوء على بلطف، كأنه حلم...
VI, 13 la loi du péché, c'est la violence de l'habitude <i>lex enim peccati... uiolentia consuetudinis</i>	(301) فقانون الإثم هو عنف التعود
VI, 13 vous m'avez débarrassé... de la servitude des affaires temporelles <i>de uniculo... saecularium negotiorum seruitute</i>	(302) خلصتني... من عبودية الشؤون الدنيوية
VI, 13 Alypius... libéré de ses fonctions juridiques, <i>Alypius otiosus ab opera iuris peritorum</i>	(303) كان أليبيوس عاطلاً من عمله، عمل الخبير في الحقوق
VI, 14 Pontianus... occupait à la cour un poste élevé - <i>Pontianus... praecclare in palatio militans</i>	(304) له في البلات مهام سامة (أي لبونتيانوس)
VI, 15 l'un d'eux se met à (faire) le projet... d'embrasser une telle vie (celle du moine égyptien Antoine) - <i>coepit unus eorum... meditari arripere talem uitam (i.e. Antonii)</i>	(305) أخذ أحدهم... يفكّر في تقمص مثل تلك الحياة (أي حياة أنطونيوس)

VI, 16 difforme, hideux, avec mes taches et mes ulcères - <i>distortus et sordidus, maculosus et ulcerosus...</i>	(306) كم كنت دمياقيحا، وأرقط متقرحا
VII, 17... mépriser les félicités terrestres <i>contempta felicitate terrena</i>	(307) احتقار السعادة الدنيوية
VII, 17... par les voies mauvaises d'une superstition sacrilège - <i>per «uias prauas» superstitione sacrilega</i>	(308) «الطرقات المفترسة» للمعتقدات الباطلة المرجسة
VII, 18 ainsi je me rongeais intérieurement <i>ita rodebar intus</i>	(309) كنت أنخر نفسي من الداخل
VII, 18 il ne lui restait qu'une peur muette (il s'agit de son âme).... <i>animam meam... remanserat muta trepidatio</i>	(310) كانت قد بقيت لها (أي لنفسه) ارتजافة صامتة
VIII, 19 puis mon agitation passionnée m'arracha de lui (c.à.d d'Al pius) <i>et abripuit me ab illo aestus meus</i>	(311) واحتطفني منه اهتياجي
VIII, 19 le ton de ma voix - <i>modus uocis</i>	(312) نبرة الصوت
VIII, 20 dans le tumulte de nos hésitations <i>in ipsis cunctationibus aestibus</i>	(313) في نفس تردداتي المضطربة
VIII, 20 ou... chargés de liens, ou affaiblis par une morbide langueur - <i>uel configata uinculis, uel resoluta languore</i>	(314) إما مكبلة بالقيود، أو مثقلة بالفتور
IX, 21 d'où vient cet étrange prodige? <i>Vnde hoc monstrum?</i>	(315) من أين هذه الأعجوبة؟
IX, 21 l'exécution = l'ordre - <i>seruitium = imperium</i> (l'exécution est dans le prolongement de l'ordre)	(316) التنفيذ = الأمر (التنفيذ يأتي مجيا للأمر)

X, 22 leur arrogance abominable - <i>horrenda arrogantia</i>	(317) بغرورهم الشائن
XI, 25 et vous me pressiez...me flagellant à coups redoublés de crainte et de honte <i>Et instabas... flagella ingeminans timoris et pudoris</i>	(318) ضاربها إياها (أي الروح)... بسياط مزدوجة من الخوف والخجل
XII, 28 et je donnais libre cours à mes larmes et les sources de mes yeux ruisselèrent,... <i>et dimisi habenas lacrimis, et prorupuerunt fl mina oculorum meorum...</i>	(319) أطلقـت العنان للدموع، فتدفـت عينـاي أنهـاراً غـزيرـة!
XII, 30 Et son deuil était changé par vous en une joie bien plus abondante... <i>et «conuertisti luctum eius in gaudium» multo uberius....</i>	(320) و«حوّلت حدادها إلى فرح» أغـزـرـ بكـثـيرـ (أـيـ مـونـيكاـ)
الكتاب التاسع	
I, 1 mesurant du regard la profondeur de ma mort... <i>respiciens profunditatem mortis meae</i>	(321) سـبـرـتـ بـنـظـرـتـكـ عـمـقـ موـتـيـ
I, 1... pour moi d'être frustré de frivoles délices!... <i>mihi factum est carere suavitatibus nugarum...</i>	(322) نـفـسيـ الجـانـعـةـ لـعـذـوبـياتـ طـيشـيـ
II, 2 je retirerais en douceur, le ministère de ma langue de la foire aux bavardages <i>leniter substrahere ministerium linguae meae nundinis loquacitatis...</i>	(323) ...لـسـانـيـ ...أـسـجـبـهـ بـلـطـفـ منـ سـوقـ الثـرـثـرةـ
II, 2 la langue perfide « <i>linguam subdolam</i> »	(324) اللـسـانـ المـاـكـرـ
II, 3 A quoi... discussions et disputes... et «faire blasphémer mon bien?» <i>et quo... putaretur et disputaretur..., et blasphemaretur bonum»</i>	(325) أـعـرـضـ لـلـنـقـاشـ وـالـخـصـوـمـاتـ ... وجـهـتيـ الـخـاصـةـ،ـ وـلـمـ «ـأـدـنـسـ خـيـرـيـ»ـ؟ـ

III, 5 <i>Verecundus...</i> sa femme... c'était le gros obstacle qui lui barrait le chemin où nous étions engagés - <i>Verecundus coniuge... ipsa artiore...conpede ab itinere...</i>	(326) (ويريكندوس)... زوجته.. كانت حجر العثرة في طريقه إلى الطريق الذي انتهجهناه...
III, 6 <i>Nebridius</i> , lui, partageait notre allégresse <i>Nebridius autem conlaetabatur...</i>	(327) كان «نبريديوس»... يشاركنا غبطتنا
III, 6 Peu de temps après notre conversion et notre régénération... <i>non multo post conuersionem nostram et regenerationem....</i>	(328) بعد زمن قصير من اهتدائنا إليك وإحياتنا...
IV, 7 métier de rhéteur <i>professione rhetorica</i>	(329) ... وظيفة البلاغي
IV, 7 vous avez redressé mes voies tortueuses <i>tortuosa mea direxeris</i>	(330) قوّمت اعوجاج طرقاتي
IV, 8 en lisant les Psaumes de David - <i>cum legerem psalmos Dauid</i>	(331) وأنا أرتل مزامير داود
IV, 8 un antidote qui eût pu leur rendre la santé! -... <i>antidotum, quo sani esse potuissent!</i>	(332) تُرِيَّاقا كانوا يستعيدون به الصحة
IV, 9 pourquoi aimez - vous la vanité et recherchez - vous le mensonge ? <i>quid diligitis uanitatem et quaeritis mendacium?</i>	(333) «لَمْ تَحْبُّوْنَ الْغَرَوْرَ وَتَبْحَثُوْنَ عَنِ الْبَهَانَ؟»
IV, 10 et leur famélique pensée n'en lèche que les images... <i>et imagines eorum famelica cogitatione lambiunt</i>	(334) ولا يلعن منه تفكيرهم السغبان إلا الأوهام
IV, 11 «Je m'endormirai. Je goûterai le sommeil» <i>obdormiam et somnum capiam».</i>	(335) «سوف أنام، وسوف أستسيغ النوم»
V, 13 pour me rendre plus apte... à l'immense grâce que j'allais recevoir. <i>quo percipiendae tantae gratiae paratior aptiorque fierem.</i>	(336) حتى أصبح أكثر تأهلا وكفاءة لتقابل النعمة القصوى

VI, 14 Déjà il (Alypius) avait revêtu cette humilité... si conforme à l'esprit de vos sacrements... <i>iam induito humilitate sacramentis tuis congrua</i>	(337) مرتد يا بعد التواضع اللائق بأسرارك
VI, 14 son génie m'inspirait une sorte d'effroi sacré <i>Horrori mihi erat illud ingenium...</i>	(338) كانت عبريتها تبعث في نفسى نفطاعة مقدسة
VII, 15 nous partagions l'émotion, la consternation de la cité, <i>excitabamur tamen ciuitate adtonita atque turbata</i>	(340) كانت المدينة تثير فينا البهجة والدهشة
VII, 15 par un grand nombre de vos communautés de fidèles - <i>ac paene omnibus gregibus tuis</i>	(341) كل قطعان رعاياك تقريبا
VII, 16 (le cœur de Justine, mère de Valentinien)... dut refouler sa fureur de persécution - <i>a persequendi tamen furore conpressus</i>	(342) أجبرت (يوستينا) على كبح جماح رغبتها في التنكيل
VIII, 17 à Ostie, à l'embouchure du Tibre, ma mère mourut... <i>apud Ostia Tiberina... mater defuncta est..</i>	(343) في أوستيا، عند مصب التiber، قضت أمي نحبها
VIII, 17... une sainte et vêlemente sévérité... <i>sancta seueritate uehemens</i>	(344) في صرامة مقدسة حازمة
VIII, 18 nullement par amour de la boisson, mais par cette pétulance débordante de la jeunesse... <i>non... ulla temulenta cupidine, sed... superfluentibus aetatis excessibus...</i>	(345) ... لا رغبة في الشوءة، بل بفعل الترق الفائض (١)
IX, 19 Elle fut donc élevée dans la vertu et la tempérance - <i>Educata itaque pudice ac sobrie</i>	(346) إذن تربت (أي مونيكا) في العفة والإعتدال
IX, 19... leur contrat de mariage,... cette pièce... est (un) document légal... <i>illas tabulas, quae matrimoniales uocantur... recitari..., tamquam instrumenta...</i>	(347) تلك اللوحات، التي تسمى بالزوجية، أن يعتبرنها بمثابة الميثاق

IX, 20 à force de prévenances, de patiente et persévérande douceur... <i>uicit obsequiis perseverans tolerantia et mansuetudine</i>	(348) وتغلب دوماً بالتقدير والصبر والدmaniaة (تلك هي خصال والدته المتفقة) والمائة
IX, 21 vous, son maître,... dans la secrète école de son cœur docente te magistro intimo in schola pectoris	(349) أنت معلمها... في قرار مدرسة صدرها (إذ كانت مسيحية بعد)
X, 23 nous reprenions nos forces en vue de la traversée (c.à.d. après les fatigues d'un long voyage) <i>remoti a turbis post longi itineris laborem instaurabamus nos nauigationi</i>	(350) كنا هنا نستريح من أتعاب السفر الطويل ونتهيأ للإبحار
X, 24... une région d'inépuisable abondance <i>regionem ubertatis indeficientis</i>	(351) إقليم الخصوبة اللامحدودة
X, 25... en un éclair de pensée nous avons atteint l'éternelle sagesse ... <i>et rapida cogitatione attigimus aeternam sapientiam</i>	(352) وقد وصلنا في لمح برق التفكير إلى الحكمة الأزلية
XI, 27 (Je me taisais), luttant contre mes larmes... <i>et fletum frenabam...</i> , après le «vous enterrerez ici votre mère» de Monique: (<i>Ponete hic... matrem uestram</i>)...	(353) كنت... أكبح جماح دمعي
XI, 28... il lui avait été donné de mêler sa poussière à celle de son mari,... <i>concessum. ut coniuncta terra amborum coniugum...</i> , «suprême bonheur!»	(354)... سمح لها... أن تجمع رفاتها إلى رفات بعلها...
XII, 29 c'est... peu convenable de célébrer un deuil comme celui - là avec des plaintes, des larmes, des gémissements - <i>neque... decere... funus illud questibus lacrimosis gemitibusque celebrare..</i>	(355)... لا يليق أن نحتفل بذلك المأتم بالتأوهات، والدموع، والتحسرات.

XIII, 31 ces accidents humains qu'amène fatalement l'ordre naturel... <i>haec humana, quae ordine debito... accidere necesse est...</i>	356) تلك الأعراض الإنسانية... التي تحدث بالضرورة حسب نظام إيجاري (في الطبيعة)
XIII, 34... des larmes qui sortent d'un esprit profondément ému des périls de toute âme «qui meurt en Adam» - (<i>lacrimarum genus) manat de concussu spiritu consideratione periculorum omnis animae, «quae in Adam moritur».</i>	357) (دمعي) يفيض من فكر مزعزع بالتأمل في أحطارات كل روح «تموت في آدم»
XIII, 35 remettez - lui aussi les siennes (dettes)... <i>dimitte illi et tu debita sua... (à l'adresse de Dieu)</i>	358) آبرتها (أي مذنكا) أنت أيضا من ديونها
XIII, 36, elle ne s'occupa point... de somptueuses funérailles, ni de son corps... embaumé dans des aromates. <i>non cogitauit suum corpus sumptuose contegi aut condiri aromatibus....</i>	359) لم تفجّر... في دفن جثتها دفنا فاخرا، أو في تحنيطها بالعطور
XIII, 37... dans la Jérusalem éternelle, vers laquelle soupire votre peuple, durant son pélerinage, depuis son départ jusqu'à son retour.... <i>in aeterna Hierusalem, cui suspirat peregrinatio populi</i>	360) مدينة القدس الخالدة، التي يتوق إليها في الحجّ شعبك، من الذهاب إلى الإياب
II, 2... aux yeux de qui l'abîme de la conscience humaine reste découvert... - <i>cuius «oculis nuda» est abyssus humanae conscientiae</i>	361) ... ترى بالعين المجردة أعماق ضمير الإنسان

III, 4 ma conscience..., plus assurée en l'espoir de votre miséricorde qu'en son innocence <i>conscientia mea spe misericordiae tuae securior quam innocentia sua...</i>	(362) ضميري... متأكدا من شفقتك أكثر منه من براءتي
IV, 6... avec cette mystérieuse joie qui tremble... - <i>secreta exultatione cum «tremore»</i>	(363) في تهليل سري مشوب بالرعشة...
VI, 8... ni l'odeur suave des fleurs, des parfums et des aromates.... <i>non florum et ungentorum et aromatum suauiolentiam...</i>	(364) ... الرائحة الفائحة من الأزهار والعطور والطيب...
VII, 11... cette force qui me lie à mon corps..... <i>uim meam, qua haereo corpori...</i>	(365) قوّتي... التي تربطني بالجسم...
VIII, 12,... la mémoire... les trésors des images innombrables apportées par... (les) sens <i>memoriae thesauri innumerabilium imaginum de... rebus sensis</i>	(366) ... الذاكرة... كنوز من الصور لا تحصى، ولا تعد وقد جاءت بها مدركات الحواس...
VIII, 14 et 15 l'ample palais de ma mémoire... un sanctuaire immense, infini... <i>in aula ingenti memoriae meae... penetrale amplum et infinitum</i>	(367) ... في بلاط ذاكرتي الفسيح... هي معبد متسع لامتناه...
X, 17 telle chose existe - t - elle? Quelle... essence? Quelle qualité?... <i>an sit, quid sit, quale sit...</i>	(368) هل الشيء يوجد؟ ما كنهه؟ ما كيفه؟
XII, 19... les rapports, les lois innombrables des nombres et des mesures... <i>numerorum dimensionum rationes et leges innumerabiles...</i>	(369) ... العلاقات والقوانين اللامحدودة للأعداد والمقاسات
XIV, 21, Sans doute, la mémoire est - elle comme l'estomac de l'âme;... <i>Nimirum ergo memoria quasi uenter est animi,...</i>	(370) ... لا غرو إذن أن تكون الذاكرة بمثابة معدة الروح.....

XIV, 22... la rumination... (comme) le souvenir (venu) du fond de la mémoire... <i>sicut...de ruminando sic, ista de memoria recordando proferuntur..</i>	(371) الإجترار شبيه تماماً بعودة تلك الأشياء من الذاكرة بالذكر
XVI, 25 Je suis pour moi une terre de difficulté et de sueurs abondantes. <i>factus sum mihi terra difficultatis et sudoris nimii</i>	(372) ... أصبحت لنفسي أرضُ عسر وعرقٌ مفرطٌ
XVII, 26... dans ma mémoire des champs, des antres, des cavernes innombrables. <i>in memoriae meae campis et antris et cauernis innumerabil bus...</i>	(373) ... في ذاكرتي الحقول والكهوف والمغارات التي لا تمحى
XVIII, 27 (la chose) n'était perdue que pour nos yeux, mais notre mémoire la possédait toujours - <i>hoc perierat... oculis, memoria tenebatur..</i>	(374) ... إن صادف أن غاب شيءٌ عن بصرنا لا عن ذاكرتنا
XX, 29... le bonheur (y arrive - t - on) par le ressouvenir, ou bien par le désir de le connaître? [... <i>eam quaero, utrum per recordationem,... an per appetitum discendi</i>	(375) (أبحث عن السعادة)... هل يتم ذلك بتذكرها... ما يرثون في إدراكه... والفوز به (اقترننا هنا بترجمة فرن西سية مختلفة بعض الاختلاف عن ترجمة ب. دي لا بريول)
XXI, 30... Je me souviens, dans la tristesse, de ma joie, de même que dans ma misère, je songe au bonheur - <i>gaudium meum etiam tristis memini sicut uitam beatam miser...</i>	(376) ... أذكر فرحي ولو حزينا كالسعادة ولو شيئاً
XXIII, 33... la joie qui naît de la vérité, voilà le bonheur... la joie qui naît... de la vérité, tous la veulent - <i>Beata quippe uita est gaudium de ueritate... gaudium de ueritate omnes uolunt</i>	(377) السعادة هي لعمري الفرح في الحق... الفرح في الحق يريده الجميع

<p>XXV, 36 ni une affection d'être vivant - joie, tristesse, désir, crainte, souvenir, oubli etc... <i>nec affectio uiuentis, qualis est, cum laetamur, contristamur, cupimus, metuimus, meminimus, obliuiscimur...</i></p>	<p>(378) مشاعر الكائن الحي، كالفرحة أو الحزن أو الرغبة أو الخوف أو التذكر أو النسيان...</p>
<p>XXVI, 37 vous êtes la vérité et vous siégez pour répondre à ceux qui vous consultent - <i>Veritas..., praesides... omnibus... consulentibus te</i></p>	<p>(379) أنت الحق ترأس كل الإستشارات...</p>
<p>XXVII, 39 tracas et difficultés - <i>molestias et difficultates</i></p>	<p>(380) العقاب والمصاعب</p>
<p>XXXI, 43 la faim et la soif sont des douleurs.. elles tueraient comme la fièvre - <i>fames et sitis quiddam dolores... sicut febris necant..</i></p>	<p>(381) الجوع والعطش ضربان من الألم، ويقتلان كالحمى</p>
<p>XXXI, 45 l'intempérance et l'ivrognerie - «<i>crapula et ebrietate»</i></p>	<p>(382) الشرابة والإدمان</p>
<p>XXXI, 47 Il me faut imposer à mon palais comme un frein que tantôt je relâche, et tantôt je resserre - <i>freni gutturis temperata relaxatione et constrictione tenendi sunt</i></p>	<p>(383)... كان عليّ أن أجبع جمام بطني كبحاً خفيفاً تارة قويّاً تارة أخرى</p>
<p>XXXIII, 49... j'écoute avec une certaine complaisance les mélodies... Cependant, je ne m'y laisse pas enchaîner... <i>in sonis... cantantur, fateor, aliquantulum</i></p>	<p>(384) أقرّ بأنني أطرب لها لا إلى حد الفتنة...</p>
<p>XXXIV, 51... les couleurs brillantes et fraîches, <i>nitidos et amoenos colores</i></p>	<p>(385) الألوان الساطعة النضرة</p>
<p>XXXIV, 53, ceux qui créent les beautés extérieures et ceux qui les recherchent.... <i>pulchritudinum exteriorum operatores et sectatores...</i></p>	<p>(386) المبدعين للجمالات الخارجية والمغرّمين بها</p>

XXXV, 54.... vaine curiosité... (que) «la concupiscence des yeux». - <i>uana et curiosa cupiditas...</i> » <i>concupiscentia oculorum</i> »	(387) وهي رغبة تافهة فضولية... «شهوة العيون»
XXXV, 55... tous accourent pour blémir là de consternation - « <i>concurrunt ut contristentur, ut palleant</i>	(388) هب الناس إليه واصفرت الوجوه من فرط الإندهال
XXXV, 57 que de détails... méprisables, viennent tenter chaque jour notre curiosité! <i>contemtibilibus rebus curiositas cotidie nostra temtetur!</i>	(389) ما أكثر الأشياء التي يُمتحن فيها يومياً جبنا للإطلاع وما أدقها وما أحقرها
XXXV, 57, notre cœur... porte en soi une foule d'épaisses niaiseries - <i>cor nostrum et portat copiosae uanitatis cateruas...</i>	(390) قلنا... حامل لفاليق عديدة من الحماقات
XXXVI, 59 Bien misérable vie et bien répugnante vanité! <i>Misera uita et foeda iactantia</i>	(391) تلك هي الحياة الشقية والمباهاة الكثيبة
XXXVII, 60 la langue des hommes est pour nous, chaque jour,... fournaise d'épreuves: - <i>cotidiana fornax nostra est humana lingua</i>	(392) لسان البشر يكون يومياً وطيناً
XXXVII, 60... La louange est la compagne... d'une vie bonne et de bonnes actions.. - <i>bonae uitae bonorumque operum comes... laudatio</i>	(393) الحمد... رفيق الحياة الطيبة والأعمال الصالحة
XXXVII, 61: «je suis fort sensible à la louange une louange intelligente me fait plaisir...» « <i>delectari me laudibus... bene intellegentis laude delector...</i> »	(394) ... أنت بال مدح ... أنت بمجيد ذكي جدا
XXXVIII, 63 pour cette paix qu'ignore l'œil du présomptueux... <i>in pacem quam nescit arrogantis oculus</i>	(395) من أجل السلام الذي تجهله عين المتغطرس

XXXIV, 64, tous les périls, les épreuves de ce genre <i>periculis et laboribus</i>	(396) الأخطار والمحن
XL, 65... dans les profondeurs de ma mémoire - <i>in recessus memoriae meae...</i>	(397) في مخازن الذاكرة الفسيحة
XLI, 66 J'ai vu votre splendeur, et refoulé par son éclat, <i>Vidi enim splendorem tuum... et repercussus...</i>	(398) رأيت بهاءك بالقلب العجريح وقلت مدحرا:
XLII, 67 ils cherchaient orgueilleusement <i>superbe quaerebant</i>	(399) في صلفهم يبحثون عنك
XLIII, 69... comme une usurpation d'être égal à vous <i>rapinam... esse aequalis tibi</i>	(400) ... من التطاول عليك أن يكون مساويا لك ...
الكتاب الحادي عشر	
I, 1 Pourquoi vous raconter tout le détail de ces faits? <i>cur tibi tot rerum narrationes digero?</i>	(401) لن أقص عليكم جميع تفاصيل تلك الأحداث
II, 2... jusqu'à ce que ma faiblesse soit absorbée par votre force - <i>quousque deuoretur a fortitudine infirmitas...</i>	(402) ريشما تلتهم قوتك ضعفي
II, 3 ces forêts - là... n'ont - elles pas... leurs «cerfs» qui ruminent... <i>non habent illae siluae ceruos... ruminantes</i>	(403) تلك الغابات ليس لها أينيلها... المجررة
III, 5 la vérité qui n'est ni hébraïque, ni grecque, ni latine, ni barbare,... <i>nec hebraea nec graeca nec latina nec barbara ueritas...</i>	(404) ...الحق الذي ليس عبريا ولا يونانيا ولا لاتينيا ولا أعجميا
V, 7 de quelle machine... un ouvrage de cette immensité - <i>quae machina tam grandis operationis...?</i>	(405) وما هي الآلة العملية الضخمة؟

<p>V , 7 il n'y avait point de lieu où il pût être avant qu'il fût créé pour être: <i>non erat, ubi fieret, antequam fieret, ut esset...»</i></p>	<p>(406) ما كان به مكان يمكن أن يكون فيه، قبل أن يخلق ليكون.</p>
<p>VI, 8 et ces paroles, formées pour un court moment..., la raison (les) compara à l'éternité silencieuse de votre Verbe,... <i>At illa comparauit haec uerba temporaliter sonantia cum aeterno in silentio uerbo tuo...</i></p>	<p>(407)... لكن هذه الأخيرة (أي الأذن الداخلية) قارنت الكلمات الرائنة لهنية بالأبدية الصامتة لكلمتك</p>
<p>VII, 9 Votre Verbe est véritablement immortel et éternel <i>quicquam uerbi.. uere inmortale atque aeternum est</i></p>	<p>(408)... كلمتك... بحق لا تفني وهي أبدية</p>
<p>IX, 11 la Sagesse... déchire mon nuage (qui) m'enveloppe: <i>sapientia... discindens nubilum meum, quod me... cooperit...</i></p>	<p>(409) الحكمة... ممزقة سحابتي التي تقطعني</p>
<p>XII, 14 Je ne veux pas m'approprier la plaisante réponse... (pour) éluder cette question redoutable... <i>Respondeo non..ioculariter eludens quaestionis violentiam..</i></p>	<p>(410) لا أجبيه بذلك الجواب...أن يتهرب من هذا السؤال... المخيف</p>
<p>XIII, 15 Si quelque esprit superficiel, errant à travers les images... des temps écoulés <i>at si cuiusquam uolatilis sensus uagatur per imagines retro temporum...</i></p>	<p>(411) أما لو تاه فكر سطحي ما، عبر صور الأزمنة الماضية... .</p>
<p>XIII, 16 Votre aujourd'hui, c'est l'Eternité... «<i>Hodiernus tuus aeternitas!</i> Résumé de toute sa philosophie du Temps que cette formule lapidaire.</p>	<p>(412) «اليوم» لديك كالأبدية</p>
<p>XIV, 17 est - il une idée... plus familière et mieux connue que l'idée de temps? <i>Quid... familiarius et notius... quam tempus?</i></p>	<p>(413)... أي مفهوم... مألوفا و معروفا أكثر من الزمان؟</p>

XV, 19 il t'a été donné d'en percevoir et d'en mesurer la durée (c.à.d du temps): (<i>Appel à l'âme humaine</i>) <i>datum tibi.. sentire moras atque metiri</i>	(414) أعطيت القدرة على أن تشعري بمدده (أي الزَّمان) وأن تقيسيها..
XV, 20... ce temps présent... se resserre dans les limites d'un seul jour à peine... <i>praesens tempus... uix ad unius diei spatium contractum est</i>	(415) هذا الوقت الحاضر... يتقلص تقريراً إلى مدى يوم واحد
XV, 20... et ce point (c.à.d divisé en parcelles de temps) est emporté si rapidement de l'avenir au passé... <i>quod ita raptim a futuro in praeteritum transuolat...</i>	(416)... اللحظات... تتطاير كلمح البرق من المستقبل إلى الماضي ...
XVII, 22.. le présent seul existe, puisque les deux autres ne sont pas... <i>sed tantum praesens, quoniam illa duo (i.e. praeteritum et futurum) non sunt...</i>	(417)... الحاضر وحده يوجد، بما أن الآخرين (أي الماضي والمستقبل) لا يوجدان ...
XVIII, 24... il ne s'agit pas des choses elles - mêmes..., qui sont futures... (mais de) leurs causes, leurs signes précurseurs..... <i>non ipsa... quae futura sunt, sed eorum causae uel signa forsitan uidentur</i>	(418)... لا ترى الأشياء التي هي آتية، بل أسبابها أو ربما دلائلها ...
XVIII, 24 prédire - <i>praedicere</i> cf. le prédicateur (<i>praedicator</i>) au numéro 1 de ce lexique, et le ministère (<i>ministerium</i>) = الكهنوت (المبشر) au numéro 2.	(419) التكهن (المبشر)
XX, 26... ce fâcheux usage est passé en habitude.. (<i>trois temps</i>) <i>sicut abutitur consuetudo.. (tria tempora... sunt)...</i>	(420) العادة التعسفية التي يجري بها العمل في التعليم بالخصوص، (أي كون الأزمنة ثلاثة)

XXI, 27... nous parlons... d'espaces temporels <i>neque...</i> <i>dicimus nisi spatia temporum</i>	(421) لا نتكلّم إلّا عن الفضاءات الزمانية
XXII, 28... cela nous le disons... (et son) interprétation (n'est pas) du domaine courant <i>dicimus haec...</i> et <i>noua est inuentio eorum</i>	(422) نقول هذه العبارات... وتأوّلها غير متداول...
XXIII, 30... le mouvement du soleil (est - il) le jour, ou la durée du mouvement, ou l'un et l'autre? <i>motu solis...</i> <i>utrum motus ipse sit dies an mora ipsa, an utrumque.</i>	(423) ... بحركة الشمس... هل... هي اليوم، أم الريث ذاته، أم هل هي الإثنان معاً؟
XXIII, 30 (le délai séparant) un lever de soleil (d')un autre lever... - <i>ab ortu solis usque in ortu alterum... mora...</i>	(424) الريث.. من شروق الشمس إلى شروق آخر
XXIII, 30... le temps est une sorte d'extension - <i>tempus quandam esse distentionem....</i>	(425) ... الزمان عبارة عن الإمتداد
XXIV, 31... par le temps, nous mesurons non seulement son mouvement, mais même son repos - <i>non solum motum eius, sed etiam statum tempore metimur....</i>	(426) ... نقيس بالزمان لا فقط حركته، بل وأيضا سكونه.
XXVI, 33 (je) mesure le temps lui - même.... comme avec la coudée nous mesurons une traverse - <i>ipsum... tempus... metior... sicut spatio cubiti spatium transtri...</i>	(427) ... أقيس الزمان عيّنته... كما نقيس بالذراع عارضة
XXVI, 33 le poème - <i>carmen</i>	(428) القصيدة
XXVI, 33 les vers longs - <i>longi uersus</i>	(429) الأبيات الطويلة
XXVI, 33 les syllabes - <i>syllabae</i>	(430) المقاطع
XXVI, 33... le temps n'est qu'une extension... <i>nihil esse aliud tempus quam distentionem...</i>	(431) ... الزمان هو لا شيء، سوى الامتداد...

XXVI, 33 (je ne mesure pas le présent, parce qu'il ne s'étend d'aucune extension)... <i>non metior praesens, quia nullo spatio tenditur...</i>	(432) لا أقيس الحاضر لأنه لا يمتد أي امتداد...
XXVI, 33... je mesure le temps pendant qu'il passe, non le temps passé... <i>metior... praetereuntia tempora, non praeterita...</i>	(433) أقيس... الأزمنة العابرة لا الأزمنة الماضية
XXVII, 34 (la voix)... n'était pas immobile, elle allait et passait.... - <i>uox... non stabat, ibat enim et praeteribat</i>	(434) ... لم يكن (الصوت) ثابتا، إذ كان يندو ويروح ...
XXVII, 34 Tout intervalle se mesure, d'un certain commencement à une certaine fin <i>ipsum... interuallum metinur ab initioisque ad finem...</i>	(435) فالملدة ذاتها،... نقيسها من بداية ما إلى نهاية ما ...
XXVII, 35 je (ne les) mesure (pas), mais quelque chose qui reste dans ma.... mémoire « <i>Non... ipsas (syllabas), sed aliquid in memoria metior quod infixum manet</i> »	(436) لا أقيس المقطعين بالذات... بل شيئاً ما يبقى عالقاً بذاكرتي
XXVII, 36, comme si nous les débitions (poèmes, vers, discours...) à voix haute: <i>ac si ea sonando diceremus...</i>	(437) الصوت الجهوري
XXVIII, III, 37 n'étant qu'un point fugitif <i>in puncto praeterit..</i>	(438) نقطة عابرة
XXVIII, 39 l'éparpillement - <i>distentionem -</i>	(439) الشتت
XXXI, 41, les notes à venir - <i>uoces futurae</i>	(440) الخانات الآتية
الكتاب الثاني عشر	
I, 1 ma vie indigente - <i>hac inopia uitae meae</i>	(441) ... عوز حياتي هذا

III, 3 la présence de ténèbres... signifiait l'absence de lumière <i>adesse tenebras... abesse lucem</i>	(442) معنى حضور الظلمات... غياب النور...
IV, 4... des êtres supérieurs, revêtus de lumière et d'éclat... <i>cetera superiora perlucida et luculenta omnia...</i>	(443)... (المخلوقات) العليا النيرة وكل الكائنات المتألقة
VI, 6 tenir pour néant l'objet ainsi privé de toute forme... <i>non esse censem, quod omni forma priuaretur</i>	(444)... كنت أعتبر لاموجودا ما كان مفتقر للشكل...
VI, 6 la mutabilité même des choses muables... est susceptible de recevoir toutes les formes... <i>Mutabilitas... mutabilium ipsa capax...formarum omnium..</i>	(445) فتقلب الأشياء المتقلبة ذاته قابل لأن يتتخذ جميع الأشكال
VIII, 8... le ciel qu'après la création de la lumière, vous avez formé d'un mot: «qu'il soit!» - et il fut. <i>caelum... post conditionem lucis dixisti «fiat», et sic est factum...</i>	(446)... القبة الزرقاء، قلت لها... بعد خلق النور: «ولتكنني!» وكانت كما شئت...
VIII, 8.... le temps, c'est le mouvement même des choses, les vicissitudes et les modifications des apparences. - <i>rerum mutationibus fiunt tempora, dum uariantur et uertuntur species</i>	(447) الأزمنة تتكون من تقلبات الأشياء، بينما تتغير مظاهرها وتحوّل...
X, 10... je l'ai mal entendue à cause du tumulte de mes passions non apaisées <i>et uix audi ui propter tumultus inpacatorum....</i>	(448) لم أكُد أسمعه (أي صوتك) بسبب صخب مشاعري غير الهادئ

XI, 14... cette matière sans forme, par laquelle les choses passent pour se muer.... d'une forme en une autre - <i>informitas, per quam de specie..in speciem res mutabatur et uertebatur..</i>	449) اللامحدودية... الأشياء في تحولها وانسلاخها من صورة إلى صورة....
XI, 14... sans variété de mouvements, point de temps; et là où il n'y a nulle forme, il n'y a nulle variété <i>sine uarietate motionum non sunt tempora: et nulla uarietas, ubi nulla species..</i>	450) ... بلا تغير في الحركات، لا تكون الأزمنة، ولا تغير، حيث لا صورة
XII, 15... toute cette œuvre... par suite de l'évolution régulière de ses mouvements et de ses formes,...est assujettie au temps, <i>uicissitudines temporum propter ordinatas commutationes motionum atque formarum</i>	451) صروف الأزمنة، بسبب التحويرات المتناظمة في حركاتها وأشكالها
XIII; 16 car là où (il n'y a) nulle forme,...(il n'y a pas) de «ceci» ou de «cela» <i>quia ubi nulla species, nusquam est hoc et illud...</i>	452) حيث لا صورة، لا وجود في أي مكان لهذا وذلك
XV, 18 toute activité intellectuelle... est mutable, rien de ce qui est mutable n'est éternel <i>omnis intentio... mutabilis..., et omne mutabile non aeternum...</i>	453) كل هذه الحركة... قابلة للتقلب، وكل قابل للتقلب لا أزلية
XV, 20 (la) nature intellectuelle par la contemplation de votre lumière, est lumière.... sagesse... <i>intellectualis natura, quae contemplationeluminis lumen est ... sapientia</i>	454) ... الطبيعة العقلانية، التي هي النور لفطر مشاهدة النور، (الحكمة)
XV, 21 vers toi je veux soupirer pendant ce pélerinage terrestre! <i>Tibi suspiret peregrinatio mea</i>	455) إليك أود أن تتحقق نفسى في سفرى (الذينوى)

XVI, 23 Quant à ceux qui les nient, qu'ils aboient tant qu'ils veulent - <i>nam qui negant, latrent quantum uolunt....</i>	(456) أما الذين ينكرونها فلينبحو ما طاب لهم النباح
XVI, 23 Jérusalem ma patrie, Jérusalem ma mère <i>Hierusalem, patriam meam, Hierusalem matrem meam...</i>	(457) مدينة القدس، وطني، وأمي ...
XVI, 23... cette mère chérie, où sont les prémisses de mon esprit... <i>matris carissimae, ubi sunt primitiae spiritus mei,... cf le numéro 360 de ce lexique trilingue</i>	(458) الأم العزيزة للغاية، حيث بوأكير روحي
XVII, 25... il y a (dans toutes les créatures) un principe de mutabilité.... <i>et inest quaedam mutabilitas omnibus...</i>	(459) كان في جميع المخلوقات نوع من التقلب
XVII, 25 les «ténèbres» (sont) l'étoffe spirituelle avant que sa fluidité sans limite eût été contenue... « <i>tenebrae</i> » <i>spiritualis materies ante cohibitionem quasi fluentis immoderationis...</i>	(460) «الظلمات» ... (هي) المادة الروحانية، قبل منع سيلانها المفرط ...
XIX, 28... tout être muable suggère... l'idée d'une certaine informité... <i>omne mutabile insinuat quandam informitatem...</i>	(461) ... كل متقلب حجة ودليل على لامحدودية في الشكل
XX, 29.... le monde intelligible et sensible, ou spirituel et corporel -.... <i>intelligibilem atque corporalemque creaturam...</i>	(462) الخلقة المعقوله والمحسوسه، أو الروحانية والجسمانية
XXI, 30 matière informe, sans ordre, sans lumière... <i>materies informis, sine ordine, sine luce</i>	(463) مادة لا شكل لها...، وبلا نظام، وبلا نور

XXI, 30... cette informité... (est) terre invisible, inorganisée.... <i>ipsa informitas... terram inuisibilem et incompositam... nominauit...</i>	464) ... اللاتشكل ... سماء بالأرض اللامائية واللامنظمة
XXII, 31 matière informe... <i>materies informis...</i>	465) المادة الامتشكّلة
XXII, 31 (dans le livre la Genèse)... <i>in libro Geneseos:</i> ce livre a été cité et commenté plusieurs fois dans les <i>Confessions.</i>	466) في سفر التكوين
XXIV, 33 tant de possibilités (d'interprétations)... <i>tam multa uera...</i> Augustin les passera en revue plus loin, à partir de XXVIII, 38 et jusqu'à XXXI, 42	467) التأويلات الصحيحة
XXIV, 33 «dans le principe»... «au début même de la création... <i>in ipso faciendi «exordio»...</i>	(في) بداية عملية الخلق (بالذات)
XXV, 34 cette prétention... cette témérité fondée , non sur la science, mais sur l'audace. <i>ista temeritas non scientiae, sed audaciae est...</i>	469) ... المجازفة ترتكز لا على العلم، بل على الجرأة...
XXV, 35 ces deux préceptes - <i>duo praecepta</i>	470) (الوصيّان)
XXVI, 36... sur toutes les doctrines de mensonge et d'orgueil... <i>culmine omnium falsarum superbarumque doctrinarum...</i>	471) هذيان كل مذاهب الضلال والكبرياء
XXVII, 37... en longues sinuosités verbales... <i>per longiores loquellarum anfractus</i>	472) في منعرجات كلامية أطول
XXVII, 37... (les) conceptions charnelles (<i>quae</i>) opinantur (<i>a carne</i>)	473) المنهج المتمس بالجسمانية

XXVIII, 38... d'autres... voltigent joyeux,... (et) cherchent (les fruits)... <i>alii... uolitant lae - tantes et... scrutantes eos</i>	(474) هناك أناس آخرون... يرفرفون سعداء، باحثين عنها (أي الشمار بين الأوراق)
XXVIII, 38 les admirables vicissitudes de l'Univers... <i>pulchras uarietationes</i>	(475) بديع تحولات الكون
XXIX, 40 (aux points de vue) de l'éternité, du temps, de la préférence (et) de l'origine <i>aeternitate...; tempore... electione;... origine</i>	(476) (من جهة).. الديمومة ومن جهة الزمن ومن جهة الأفضلية ومن جهة المصدر
XXIX, 40 le chant, c'est le son organisé <i>cantus est formatus sonus...</i>	(477) الغناء تشكل الأصوات...
XXX, 41.. à la vérité... d'établir la concorde <i>concordiam pariat ipsa ueritas...</i>	(478) فلتلد الحقيقة ذاتها الوفاق...
XXXI. 42.. pareille grâce... <i>hoc... de te meruisse..</i>	(479) هذه الموهبة...
XXXII, 43 (que) je dise... ce que votre Vérité a voulu me dire par ces paroles... <i>dicam, quod mihi per eius uerba tua ueritas dicere uoluerit</i>	(480) قلت على الأقل ما قد أراد حملك أن يقوله لي، بواسطة ذلك الكلام
الكتاب الثالث عشر والأخير	
I, 1... (de vous) (je veux) recueillir du bonheur pour moi - même, qui tiens de vous mon être capable de bonheur... <i>de te mihi bene sit, a quo mihi est, ut sim cui bene sit</i>	(481) أتقبل منك قابلية السعادة... (أي منك تأتي السعادة وإمكانية تقبلها)
II, 2 Un corps spirituel, même informe, est encore supérieur à un corps organisé <i>spiritale informe praestantius, quam si formatum corpus esset...</i>	(482) الكائن الروحاني اللامتشكل أفضل من الجسم المتشكل...

II, 3 pour un corps, être et être beau... n'est pas la même chose, autrement nul corps ne serait laid <i>corpori non hoc est esse, quod pulchrum esse alioquin deforme esse non posset...</i>	(483) وكون الجسم مطلقا ليس مثل كونه جميلا، وإلا لاستحال أن يوجد جسم قبيح ...
III, 4 vivre n'est pas la même chose que vivre heureux <i>aliud uiuere, aliud beate uiuere...</i>	(484) ليست الحياة والحياة السعيدة لديك شيئا واحدا ...
V, 6 l'informité fluide et oscillante de la création spirituelle... <i>spiritialis informitatis uagabunda deliquia</i>	(485) السبيل التائهة للاتشكل الروحاني
VII, 8 (pas)d'espaces où nous nous engloutissons, et hors desquels nos émergions neque enim loca sunt, <i>quibus mergimur et emergimur</i>	(486) ليس لنا أماكن، نرسب فيها ونطفو
VIII, 9 l'ange est tombé, l'âme de l'homme est tombée <i>desfluxit angelus, desfluxit anima hominis</i>	(487) لقد هوى الملاك، وهوى روح الإنسان
IX, 10 l'huile versée dans l'eau monte au - dessus de l'eau <i>oleum infra aquam fusum supra aquam attollitur...</i>	(488) الزيت المراق في الماء يطفر على الماء
IX, 10 l'eau versée dans l'huile descend au - dessous de l'huile <i>aqua supra oleum fusa infra oleum demergitur...</i>	(489) أما الماء المراق على الزيت فيرسق تحته
X, 11 «Que la lumière soit», qui créa la lumière! <i>«fiat lux», et fieret «lux»:</i> célèbre formule biblique	(490) «فليكن النور» وهذا النداء بعث النور!
XI, 12 être, connaître , vouloir. Je suis, je connais, je veux... <i>esse, nosse, uelle, Sum enim et scio et uolo...</i>	(491) الكيان، والمعرفة، والإرادة فأنا أكون، وأعرف، وأريد...

XIII, 14... ouvrit les «cataractes» de ses dons <i>aperuit «cataractas» donorum suorum</i>	(492) وفتح «شلالات» هباته: مثال جيد عن أسلوب أوغستينوس في الاعترافات، وهو أسلوب زاخر بالصور المحسوسة المستعملة للتبيير عن معانٍ مجردة مفرقة في الدلالة الدينية الصوفية. وقد حاولنا أن نعبر عنها في ترجمتنا العربية وفي معجمنا الثلاثي اللغة بكل ما أمكن من الدقة.
XIV, 15... porté sur le flot ténébreux de notre vie intérieure <i>super interius nostrum tenebrosum et fluidum</i>	(493) فوق السيل المظلم العجاف
XV, 17 livres qui anéantissent... l'orgueil,... l'ennemi, l'avocat... <i>libros... destruentes superbiam,... et inimicum defensorem</i>	(494) كتاباً... أخرى تدمر التكبر... التكبر «للعدو وللمحامي»
XV, 18... ce firmament, constitué au - dessus de l'infirmité des peuples d'en - bas <i>firmamentum quod firmasti super infirmitatem inferiorum populorum... Noter, ici, les allitérations expressives.</i>	(495) القبة (الزرقاء)... ثبتها فوق ضعف الشعوب السفلية...
XVI, 19... votre science est et veut immuablement, votre volonté est et sait immuablement <i>scientia tua scit et uult incommutabiliter, et uoluntas tua est et scit incommutabiliter</i>	(496) وعلمك يكون، و يريد بلا تقلب، وإرادتك تكون و ت يريد، بلا تقلب
XVIII, 22... faire la distinction entre les choses intelligibles, et les choses sensibles entre le jour et la nuit... <i>inter intelligibilia et sensibilia tanquam inter diem et noctem</i>	(497) نفرق بين المعقولات والمحسوسات، وبين النهار والليل
XIX, 24 Va, déracine les buissons touffus de l'avacrine... <i>uade, extirpa siluosa dometa auaritiae</i>	(498) اذهب، اقتلع أدغال البخل الكثيفة... (أي أصبح كريماً)

XIX, 25 et brillez au firmament! <i>et lucete «in firmamento» à l'adresse des «faibles de ce monde» ou ces «infirma mundi»</i>	(499) واسطعوا في «القبة الزرقاء»
XX, 28... le genre humain, avec ses curiosités profondes, son orgueil tempétueux, sa fuyante mobilité <i>genus humanum profunde curiosum et procellose tumidum et instabiliter fluidum</i>	500 الجنس البشري ذو الفضول الآلهائي، والكبرياء العصوف، وال sisيل المتقلب
XXI, 29... délices mortelles (dues à l'amour de ce monde)... <i>deliciis... mortiferis (i.e ab amore huius saeculi...)</i>	(501) الملاذ القاتلة (يعني حب هذه الدنيا)
XXI, 30 l'âme ne vit qu'en fuyant les choses dont la convoitise la fait périr <i>euitando uiuit anima, quae appetendo moritur</i>	(502) لا تحيا الروح إلا وهي تتتجنب ما تموت بالتعلق إليه
XXII, 32... votre volonté (est quelque chose) de bon, agréable et parfait <i>uoluntas... bonum et beneplacitum et perfectum...</i>	(503) «إرادة الإله... التي هي طيبة وراقة ومكتملة»
XXIII, 34 cette «réunion des eaux» qu'est la mer... <i>congregationis aquarum, quod est mare...</i>	(504) «عصبة المياه» التي هي البحر ...
XXIV, 35 les poissons et les monstres marins, et les oiseaux <i>pisces et coetos..., et uolatilia</i>	(505) الحيتان، والأغوال، والطيور ...
XXIV, 36 (Ainsi) croissent et se multiplient les productions vivantes des eaux! <i>Ita crescunt et multiplicantur fetus aquarum</i>	(506) حتى تنمو سلالة البشر وتتكاثر
XXIV, 37 multitude, fécondité, accroissement... <i>multitudines et ubertates et incrementa...</i>	(507) تنوعات وخصوصيات ونحوات ...

XXV, les divins mystères - <i>diuinorum mysteriorum</i>	508) الأسرار الإلهية
XXVI, 39 être dans l'abondance et supporter la détresse - ... <i>abundare et penuriam pati</i>	509) الرخاء... المراجعة... (أي أقدر أن أشبع وأن أجوع)
XXVI, 40... comme un champ qui a renouveau de fertilité - <i>tamquam reuirescente fertilitate agri...</i>	510) كالحقل المخصوص من خصبة..
XXVII, 42 l'âme se nourrit... de ce qui... est joie <i>animus pascitur , unde laetatur</i>	511) تغذى النفس مما تنسبط به
XXVIII, 43 (un corps).. est bien plus beau par l'harmonieuse combinaison (de ses membres) <i>quorum ordinatissimo conuentu completetur uniuersum</i>	512) باتفاقها (أي الأعضاء) يكتمل (جمال) المجموع
XXIX, 44... de votre puissante voix, brisant ma surdité, vous me criez..... <i>dicis uoce forti rumpens meam surditatem</i>	513) ...تقولها... بصوت قويّ،.. قاطعا صمعي
XXX, 45... j'ai recueilli sur mes lèvres une goutte de la douceur de votre vérité <i>elinxi stillam dulcedinis ex tua ueritate</i>	514) لعقت قطرة من عنوية حرقك ...
XXXI, 46 (le bon est le contraire du mauvais) (ou bien le bien ≠ le mal) <i>bonum ≠ malum</i>	515) الطيب ضد السيء (أو الخير ضد الشر)
XXXII, 47 la beauté des eaux rassemblées dans les plaines de la mer... <i>congregatarum aquarum speciem per campos maris...</i>	516) رونق المياه المتجمعة عبر سهول البحر ...
XXXIII, 48 progrès et déclin - <i>profectum et defectum</i>	517) تقدّم وتدّهور

XXXIV, 49... afin de manifester vos desseins.. et d'ordonner notre désordre - <i>ut occulta manifestares et inconposita nostra conponeres...</i>	518) كي تبرز مقاصدك الخفية وتنظم فوضانا
XXXVII, 52 Notre repos sera vôtre en nous... <i>erit illa requies tua per nos</i>	519) راحتنا ستكون بفضلك فينا...
XXXVIII, 53... chez vous... on devra frapper..., et votre porte s'ouvrira à nous -... <i>ad te pulsetur... sic aperietur... (Ultima Verba)</i>	520) فليطرقو له بابك (أي فهم الحقيقة القصوى)... وسيفتح لهم مصراعها (أي للطريق الباحث عن مغزى حياة الإنسان).

وانتهى المعجم الثلاثي هنا.

اخترنا هكذا ما لا يقل عن 520 لفظة أو عبارة أو جملة تكاد تكون كاملة من ترجمتنا العربية الجديدة لاعترافات القديس أوريليوس أوغستينوس، انتقيناها من الكتب الثلاثة عشر بمعدل 40 جملة من كل كتاب، وعدنا في كل مرة إلى النص اللاتيني بالذات الذي كان مرجعنا الأساسي في كل من الترجمة ومن المعجم الثلاثي المصاحب لها، وأتينا في أقصى اليسار بعضيات من الترجمة الفرنسيّة الشهيرة والمنشورة في دار الأداب الجميلة بباريس والمعتمدة في الجامعات الفرنسية، حتى تكون الفائدة عامة وشاملة لشرائح المثقفين في بلادنا، ورجأونا أن تكون لعملنا المزدوج هذا الفائدة التي طمحنا إليها ونحن نقوم به، ونعرف بإحدى أمهات الأدب اللاتيني في المقاطعة الإفريقية في أواخر القرن الرابع بعد الميلاد (793-893).

ولنختم هذا المعجم الثلاثي بما قاله جان باتي عن هذا الكتاب القيم والعالمي بحق:

«لكن الاعترافات، حيث تختلط المحنة والمساة بالاندفاعات الزهدية وأرقى درجات التجريد والتحليل، قد اكتسبت بذلك طرافة فريدة، وقد حررها القديس أوغستينوس في اندفاع الفنان الحق، بأسلوب رقيق مليئ في الآن نفسه بشذرات التزويق ومظاهر الع神性، لكنه معبر ومؤثر كلما وجده السبيل إلى التعبير والتأثير، عن ، Jean BAYET, Littérature Latine , librairie Armand COLIN, Paris, 1965, page 486

وسيجد القارئ فائدة جمة في قراءة كامل الفصل المخصص لمؤلف الاعترافات من ص 483 إلى ص 492 من الكتاب المذكور.

وفي الختام نؤد أن نشير إلى كون اعترافات أوغستينوس قد ترجمت إلى العربية، ترجمها الخور أسقف يوحنا الحلوي، في صيدا في العاشر من حزيران 1962، وأنها قد نشرت في بيروت بدار المشرق 51049 - 7214 - ISBN2، وأنها تحمل في الطبعة السابعة التي أطلّنا عليها عنوان التراث الروحي والتاريخ التالي: في الخامس عشر من آذار 2003. أما عدد الصفحات فهو 327، وينقسم الكتاب المنجز بمطبعة ليزار ش.م.م. إلى جزءين: مقدمة قصيرة عن حياة أسقف عناية الكبير من الصفحة الأولى إلى الصفحة السادسة، ثم ترجمة كاملة للإعترافات عينها، كتاباً بعد كتاب، مشفوعة بعنوانين دقيقه ومفيده لمعرفة محتوى الكتب الثلاثة عشر.

وقد أعجبنا كثيراً بأناقه هذه الترجمة الشيقه والصادرة عن رجل دين له معرفة عميقه بخصائص ذلك النص الكبير الذي خصه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب بوحدية، رئيس المجمع التونسي للعلوم والأداب والفنون «بيت الحكمه»، بمقدمة فائقه المعاليم. وإن لم يذكر الخور أسقف اللبناني أي نص اعتمد في ترجمته إلى العربية، هل رجوعاً إلى اللاتينية أم إلى اللغات الحية كالفرنسية والإنجليزية، إلا أنها نظن أنه عالم باللغة الأصلية للكتاب بحكم ثقافته الواسعة والبيتة.

ولا شك في كون القارئ الكريم سيجد ضالته في كتابنا اللذين يتکاملان ويفيدانه كثيراً، وإن كان هدفاًهما مختلفين. فهما متقددان بالحق وبالأمانة العلمية أولاً وأخراً. فالخور أسقف يوحنا الحلوي قام بعمله في نطاق إبراز أصالة التراث الروحي في ربوع لبنان، ولذا لم يأت بأية تعليقات وملحوظات لغوية، أو أدبية، أو حضارية، أو فلسفية، أو لاهوتية، والحال أن الكتاب في جزءيه اللذين نقلناهما يزخر بها، وذلك ما جعلنا نسد هذا الفراغ بأن نشفع ترجمتنا العربية، الصادرة بعد نصف قرن، بأهم ملاحظاتنا الخاصة وكذلك بالإيضاحات والتقييمات التي أنت في كتاب العلامة بيار دي لا بريول (PIERRE DE LABRIOLLE) المنشور بباريس في اللغتين اللاتينية والفرنسية، بدار الأداب الجميلة، سنة 1925 لأول مرة، وللمرة الرابعة عشرة منذ عشر سنين تحت العدددين التاليين:

7155 - ISSN0184 و 5 - 01209 - IBSN2. فحساناً نكون قد وفقنا وأحسنا

صنعاً في عمل علمي جسيم شيق مثل هذا!

الفهرس

5	تقديم.
13.....	الكتُبُ الثلَاثَةُ عَشَرَ لِاعْتِرَافَاتِ الْقَدِيسِ أُورِيلِيوسِ أَوْ غُشْتِيُّوسِ
15.....	الكتاب الأول
35.....	الكتاب الثاني.....
45.....	الكتاب الثالث.....
59.....	الكتاب الرابع.....
77.....	الكتاب الخامس.....
95.....	الكتاب السادس.....
115	الكتاب السابع.....
137	الكتاب الثامن.....
159	الكتاب التاسع.....
183	الكتاب العاشر
221	الكتاب الحادي عشر.....
245	الكتاب الثاني عَشَرَ
271	الكتاب الثالث عَشَرَ
301	آراء بشأن الاعترافات.....
323	المعجم الثلاثي.....